

لطائف الإشارات

تفسير صوفي هكامل للقرآن الكريم

للإمام القشيري

المجلد الأول

الطبعة الثالثة

قدم له وحققه وعلق عليه

الدكتور / إبراهيم بسيوني

الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٠

الهيئة المصرية العامة للكتاب

إدارة التراث

رئيس مجلس الإدارة

د. سمير سرحان

المشرف على إدارة التراث ورئيس التحرير

سعيد عبد الفتاح

سكرتير التحرير

أهيمه على أحمد

الغلاف

جمال قطب

مدخل

ترجع أهمية نشر هذا الكتاب إلى ثلاثة عوامل رئيسية :

أولاً : أنه من الناحية الموضوعية يعالج قضية هامة وهي تفسير القرآن الكريم على طريقة أرباب المجاهدات والأحوال ، وهذا منهج في التفسير نادر في المكتبة العربية ، فأنت تستطيع أن تجد عدداً غير قليل من التفسيرات التي تتناول النص القرآني في ضوء اللغة العربية أو الإعراب أو البلاغة أو الفقه أو أسباب النزول أو التشريع أو القصص والأخبار أو نحو ذلك مما هو مألوف ومعروف منذ نزل القرآن ومنذ ظهرت الاتجاهات المختلفة في دراسته ، ويمكن أن تجد عدة مصنفات لعدة شخصيات في كل لون من هذه الألوان بحيث يفتيك واحد أو اثنان منها عما سواهما .

فإذا بحثت عن التفسير الصوفي ألفتته — على العكس من ذلك — نادراً ، وألفت الإنتاج فيه غير شافٍ ، فإما أن يكون مقتضباً « كتفسير القرآن العظيم » لسهل بن عبد الله الشَّشْرِي (المتوفى سنة ٢٨٣ هـ) وقد طبعته السعادة في عام ١٩٠٨ م فيما لا يزيد على مائتي صفحة ، ويستطيع القارىء أن يتصور كيف يمكن لمائتي صفحة أن تعنى بدراسة القرآن على نحو مرضٍ .

وإما أن يكون مطعوناً فيه كما هو الشأن في « حقائق التفسير » لأبي عبد الرحمن السلمي (المتوفى سنة ٤١٢ هـ) الذي يقول في وصفه — ونحن نقتطف منه هذه الفقرة لنوضح ما قلناه آنفاً عن ندرة التفسير الصوفي : « لما رأيت التوسمين بعلوم الظاهر قد سبقوا في أنواع فرائد القرآن من قراءات وتفسير ومشكلات وأحكام وإعراب ولغة ومجل ومفضل ، وناسخ ، ومنسوخ ، ولم يشتغل أحد منهم بفهم الخطاب على لسان الحقيقة إلا آيات متفرقة أحببت أن أجمع حروفاً أستحسنها من ذلك وأضم أقوال مشايخ أهل الحقيقة إلى ذلك وأرتبه على السور حسب وسعي وطاقتي » [حقائق التفسير للسلمي مخطوطة ١٥٠ تفسير دار الكتب ص ٢٢١] .

وعندما ظهر حقائق التفسير ، أحدث ضجة كبرى ، فقد لقي معارضة شديدة من معاصريه
ومن أتوا بعده ، فأتهم بالابتداع والتحريف والقرمطة والتشيع ووضع الأحاديث على الصوفية
يقول ابن الصلاح : (وجدت عن الإمام الواحدى أنه قد صنف أبو عبد الرحمن السلى
حقائق التفسير ، فإن كان قد اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر)

وقال الذهبي في « تذكرته » : أتى السلى في « حقائقه » بمصائب وتأويلات للباطنية
نسأل الله العافية تذكراً للحفاظ ج ٣ ص ٢٤٩ .

ووصفه ابن تيمية بالكذب : (منهاج السنة ج ٤ ص ١٥٥) .

وعد السيوطى تفسيره ضمن التفاسير المبتدعة معللاً لذلك بقوله : « » وإنما أوردته
في هذا القسم لأنه غير محمود (طبقات المفسرين للسيوطى ط ليدن سنة ١٨٣٩ ص ٣١) .

أما إخوان الصفا الذين يحشرون جولد تسير ضمن مفسرى الصوفية في كتابه (مذاهب
التفسير الإسلامى) ، فهم أولاً غير صوفية وإنما هم جماعة من المشتغلين بالفلسفة ذوى أغراض
بعيدة خبيثة ، ضمت صفوفهم لفيماً من الناس مختلفى النزعات والثقافات حتى كان من بينهم
ملاحدة ، فأحالتهم على الصوفية تمجن على الحقيقة وعلى التاريخ وعلى التصوف ، ولنا نبرىء
جولد تسير من ذلك — مع تقديرنا لكتاباه القيم .

وحتى القرن الخامس الهجرى لا نجد كما يقول صاحب (تاريخ أدبيات در ايران) : « أم
من حقائق السلى ولطائف الإشارات للقشبرى وتفسير سورة الإخلاص للغزالى » [تاريخ
أدبيات در ايران للدكتور ذبيح الله صفا (مكتوب بالفارسية) فصل التفسير
صفحة ٢٥٦ ، ٢٥٧] .

وبعد ذلك بنحو قرن نلتقى بتفسير ابن عربى الذى هو قبل كل شىء مطعون فى سبته
إليه ، وفى ذلك يقول الشيخ محمد عبده (اشتبه على الناس فيه كلام الباطنية بكلام الصوفية ،
وينسبونه للشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى ، وإنما هو للقاشانى الباطنى الشهير) ويضيف
الأسناذ الإمام (وفيه من التزعات ما يبرأ منه دين الله وكتابه العزيز) تفسير المنار
ج ١ ص ١٨) .

نعم صدق الأستاذ الإمام ، فالكتاب مملوء بدعاوى وحدة الوجود ، وما جره هذا المذهب من ويلات ، ولسنا هنا بصدد دراسة تفصيلية له ، ولكننا نشعر بالحاجة إلى أن نسوق شواهد قليلة تثبت مجانبية هذا التفسير للحق ، وكيف أنه لا يصح أن يكون نموذجاً للاتجاه الصوفي السديد — كما حلا لجولد لسبب أن يظهره ويتحمس له ، ليخرج من ذلك بأحكام عامة يصدرها عن التصوف الإسلامى — كما نرى بروى قليلة .

ففى سورة الزمل عند قوله تعالى (واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً ، يقول : (واذكر اسم ربك الذى هو أنت . .) ١١ ص ٢ ص ٣٥٢ .

وفى سورة الواقعة عند قوله تعالى (نحن خلقناكم فلو لا تصدقون) ، يقول : نحن خلقناكم بإظهاركم بوجودنا ، وظهورنا فى صوركم) ج ٢ ص ٢٩١ وليس هذا التصور بمستغرب على من يقول إن عجل بنى إسرائيل أحد المظاهر التى اتخذها الله وحلاً فيها ١١

وليس من الإنصاف أن يقال للناس هذا هو رأى الصوفية المسلمين ولا رأى بعه ، بل يجب أن نضع فى اعتبارنا أن مذهب وحدة الوجود مذهب فلسفى يعتمد عن المنهج القلبي العرفاني الذى اختطه أرباب المجاهدات والأحوال للوصول إلى وجهة الشهود ، وفى وحدة الشهود — ومهما قيل عنها من كلام ظاهره مستشنع وباطنه سليم على حد تعريف أبى نصر السراج الطوسى للشطح — يبقى دائماً شىء هام قوى ناصع أن العبد عبد والرب رب ولا تداخل ولا امتزاج ولا حلول ولا اتحاد ، بل بمقدار ما يصل العبد إلى تحقيق عبوديته يصل إلى التحقق من ربوبيته الرب وتنزيهه عن كل إفك وباطل . . . تعالى الله علواً كبيراً .

ولا ينبغي لنا أن نعز الطرف عن قيمة التفسير المبعثرة فى المراجع الصوفية الكبرى لآيات بعضها من القرآن الكريم ، فإن تبثر هذه التفسير لا يحول دون تقديرها حق قدرها ، ذلك لأنها غالباً ما سبقت لتدعيم موقف أو لتشهد على استمداد فكرة أو لفظة ، فهى من هذه الناحية لا تخرج عن كونها تفسيراً صوفياً غير مجموع .

وفى بعد ذلك يمكن القول إن أبرز التفسير الصوفية التى نعرفها كتابان أولهما « عرائس البيان فى حقائق القرآن » لأبى محمد روزبهان بن أبى النصر البقلى الشيرازى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ [كشف الظنون ج ٢ ص ٢١]

وثانيهما التأويلات النجمية « لنجم الدين داود المتوفى سنة ٦٥٤ هـ وقد مات قبل أن يكمله فأكله علاء الدولة السمناني المتوفى ٧٣٦ هـ (كشف الظنون ج ١ ص ٢٣٨) .

* * *

لأجل هذا كله نحتفل « بلطائف الإشارات » فأغلب ما سقناه من تفاسير صوفية لا يسلم من النقد ، ولا يصح أن يكون نموذجاً صالحاً لتمثيل الصوفية والتصوف بأمانة وصدق . « لطائف الإشارات » سفر نفيس كتبه صاحبه محاولاً أن يوفق بين علوم الحقيقة وعلوم الشريعة ، وقاصداً إلى هدف بعيد أنه لا تعارض بين هذه وتلك ، وأن أى كلام يناقض ذلك خروج على أى منهما وعلى كليهما (فكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فغير مقبول ، وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فغير محصول ، الشريعة أن تعبد والحقيقة أن تشهد) الرسالة القشيرية ص ٤٦ .

وهذا ما حدث فعلاً . . . فأت خلال قراءة « اللطائف » نشعر أن كل صغيرة وكبيرة في علوم الصوفية لها أصل من القرآن ، ويتجلى ذلك بصفة خاصة حيناً ورد المصطلح الصوفي صريحاً في النص القرآني كالأذكار والتوكل والرضا ، والولى والولاية والحق والظاهر والباطن ، والقبض والبسط . . . الخ فلا تملك إلا أن تحكم أن الصوفية قد استمدوا أصولهم وفروعهم من كتاب الله الكريم ، وأن علومهم ليست غريبة ولا مستوردة كما يحلو لبعض الباحثين حين يتهمون التصوف الإسلامى بالتأثر بالتيارات الأجنبية : اليونانية والفارسية والهندية والمسيحية ونحوها .

كذلك تلحظ عبقرية القشيري إزاء اللفظة أو الآية حيناً لا يكون فيها اصطلاح صوفي ، فإنه يستخرج لك من آيات الطلاق إشارات في الصلوة والصاحب ، ومن علاقة النبي بأصحابه إشارات عن الشيخ ومريديه ، ومن مظاهر الطبيعة كالشمس والقمر والمطر والجبال إشارات رائعة تتصل اتصالاً وثيقاً بالرياضيات والمجاهدات أو بالمواصلات والكشوفات .

وربما قيل إن صنيع القشيري مسبوق وملحوق ، ولكن هانحن منذ قليل أوضحنا مقدار ما أصاب التفاسير الصوفية من سهام النقد ، وبقي أن نعرف الأسباب التي جعلتنا نحكم بأن لطائف الإشارات ، خير مناضل عن التفسير الصوفي بعمامة ، بل بأنه من أفضل الأعمال

التي أنتجتها قرائح الصوفية في شتى العصور ، وربما يبدو في ذلك بعض التعميم مع أن الأحكام العلمية ينبغي ألا تخضع للتعميم لأننا لا نستطيع أن ندعى المعرفة الشاملة بكل التراث الصوفي ، ونعترف أن عشرتنا مع الكتاب وصاحبه عشر سنوات كاملة أثناء إعداد بحثي الماجستير والدكتوراه في الموضوعات الصوفية ، ونعترف أن حماسنا لما نلاحظه من الاعتدال عند القشيري دون سائر الباحثين ، ونعترف أن ما كنا نشعر به من وجوه النقص في سائر المصنفات التي نهض بها غيره في هذا الخصوص — كل ذلك ربما كان الدافع إلى لجوئنا إلى هذا الحكم الذي سقناه .

ومن أعجب الأمور أن القشيري يشتهر « بالرسالة » التي لا تخرج عن كونها مجموعة من الأسانيد المنسوبة إلى الشيوخ في موضوعات معينة ، ومجموعة من التراجم لأبرز الشيوخ الذين ظهروا منذ نهاية القرن الثاني الهجري حتى بداية القرن الخامس في صفحات قليلة ربما أغنت عنها الكتب المطولة التي وضعت خصيصاً لهذا الغرض مثل تذكرة العطار أو طبقات السلي أو طبقات الشعرائي ونحوها . ومع تقديرنا « للرسالة » إلا أننا لا نعتبرها بحال من الأحوال أفضل أعمال القشيري ، وأنها ظلمته حين شهرته ، وحين أوقفت اسمه عليها ، وأصبح حتماً منذ الآن أن يقول الناس « القشيري صاحب اللطائف » لا صاحب « الرسالة » . فاللطائف هي أبلغ أعماله التي تزيد على العشرين — في نقل صورة واضحة لشخصيته ، ولست أدري لماذا لم يجد هذا الكتاب ما هو جدير به من الاهتمام في العصور الماضية ؟ لماذا حكم عليه دائماً أن يبقى في منطقة الظل ؟ حتى صار ما نعرفه عن نسخته كما نفهم من « تذكرة النوادر » وكما يقول بروكلمان — محدوداً ومبعثراً بين روما وبرلين واسطنبول وتونس والهند والقاهرة ، ومعظمها كما سندكر بعد قليل غير كامل .

ولكي ندرك أهمية هذا الكتاب في تصحيح كثير من المقاييس العلمية عن النصوص والتفسير الصوفي لابد لنا أن نلم بشيء من سيرة صاحبه ، ونكتفي من معالم هذه السيرة بما يمكن أن يتبرر به وصول هذا العمل الجليل بتلك الأوصاف وإلى تلك النتائج . وذلك هو العامل الثاني لأهمية نشر هذا الكتاب :

ثانياً : صاحب هذا الكتاب هو عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد القشيري ، ولقبه زين الإسلام ، وشهرته القشيري .

ولد في ربيع الأول عام ٣٧٦ هـ الموافق يوليو ٩٨٦ م .

وتوفي في يوم الأحد السادس عشر من ربيع الآخر عام ٤٦٥ هـ وهو عربي النسب من جهة أبيه فهو من قبيلة قشير العدنانية المتصلة بهوازن ، ويذكر ابن حزم أن سلالات من قشير اتجهت إلى المغرب نحو الأندلس إبان الفتح الإسلامي زمن الأمويين ، واتجه بعضها إلى المشرق وكان منها ولاية وقواد على خراسان ونيسابور . (جهرة الأنساب ٢٧٣ و ٤٥٩) كذلك فإن القشيري عربي النسب من جهة أمه فهي سلمية وأخوها أبو عقيل السلمي من وجوه دهاقين أستوا ، واستوا هي الناحية التي ولد فيها القشيري وتلقى بها تعليمه الأولي .

وحدث أن اجتاحت المنطقة ضائقة اقتصادية ، ففكر الأهالي في إرسال ليف من أبنائهم إلى نيسابور لكي يتلقوا من دروس الحساب ما يمكنهم — بعد عودتهم — من المشاركة في تنظيم الأمور الاقتصادية ، وكان القشيري أحد هؤلاء الأبناء .

وبدأ القشيري في نيسابور يتفهم لهذا اللون من الدراسة ، ولكنه ما لبث أن انصرف عنها عندما اجتذبه مجالس الفقه والكلام والحديث والتفسير والأدب ، ولم تبخل نيسابور عليه يزاد ، فلقد كانت في ذلك الوقت تعج بالنشاط الفكري ، وتحفل بكبار الشيوخ أمثال ابن فورك ، ومحمد بن أبي بكر الطوسي ، وأبي إسحق الاسفراييني ، وقد ظفر القشيري في كنف هؤلاء الأئمة برعاية خاصة حينما أتيح له الاتصال بهم ، وأتيح لهم معرفته عن قرب ، ووضح لهم فيه حسن الاستعداد ، والدأب ، واستقامة الخلق .

ولم يكن القشيري يضيع فترة ما بعد الدرس هباء ، بل كان ينكب على القراءة والاستذكار وكان شديد الوَلع بالعلوم العقلية ، وبخاصة تلك التي تتناول المسائل التي طالما اشتجر الخلاف حولها بين الأشاعرة وأهل الاعتزال ، واستوعب في هذه الفترة معظم ما صنف الباقلاني .

وجاء يوم سأل فيه الإمام الاسفراييني تلميذه القشيري — حين وجده لا يكتب كما يكتب سائر الطلاب : أَمَا لِمَ يَا بَنِي أَنْ هَذَا الْعِلْمُ لَا يَحْصُلُ بِالسَّمْعِ ؟

(ولكن القشيري أعاد عليه كل ما سمعه ، وقرره أحسن تقرير ، من غير إخلال بشيء فتعجب منه وأكرمه ، وقال له ما كنت أدري يا بني أنك بلغت هذا المحل ، فلست تحتاج إلى درس يكفيك أن تطالع مصنفاً ، وتنظر في طريقي ، وإن أشكل عليك شيء طالعني به .

فعل ذلك ، وجمع بين طريقة الاسفرايينى وطريقة ابن فورك (طبقات الشافعية للسبكي ج ٣ ص ٢٤٣ وما بعدها .

وبينا كان القشيري منصرفاً بكل همه إلى هذا اللون من الدراسة ، دائب الاتصال بهذا الطراز من الشيوخ ساقه القَدَرُ ذات يوم إلى مجلس من لون آخر يتصدره شيخ من طراز آخر . استمع القشيري إلى أبي على الدقاق وهو يعظ على طريقة الصوفية ؛ ويتحدث في الرياضات والمجاهدات ، والأحوال والكشوفات ، والأذواق والمواجيد ، والمعارف العليا التي تنال من الحق على عباده الذين اصطفاهم ، وإذا بالرجل والحديث يستوليان عليه ، ويملكان فيه كل ذرة ، وإذا القشيري بحادث نفسه صامتاً : إني لهذا خلقت !

وعندما كان يتهاى ليغشى ما اعتاد من مجالس كانت أقدامه تسوقه نحو الدقاق ومجلسه ، فكان أول من يجلس وآخر من ينهض .

ولمحه الشيخ ، ورأى فيه إصغاء ملفتاً للنظر ، فقربه منه ، وحباه بمطفئه .

و ذات يوم تقدم الطالب — فى استحياء — من شيخه ، فشكا إليه أمراً حَزَبَهُ ؛ إنه لا يستطيع أن يجمع بين المواظبة على ما اعتاد من مجالس وبين مجلس الدقاق ، وهو يؤثر أن ينصرف بكل همه وعزيمته إلى علم القلوب ، وابتسم الشيخ للشاب ، وتطلع إلى وجهه ، وربت على كتفه قائلاً :

— إنما ينبغي لك أولاً أن تتقن دراستك بقدر طاقتك !

ومضى الشاب الطموح يجمع بين الدراستين ، وساعده ذلك على أن يكون تكويناً عقلياً ووجدانياً فى مرحلة من أدق مراحل العمر ، كما ساعده على أن يتجنب كثيراً من المشاكل النفسية التي تلم بأمثاله نتيجة الاغتراب عن بلده ، ونتيجة للذل .

وأعجب الدقاق بمثابرته وطموحه واستقامته وتواضعه (فاختاره لكريمته فاطمة مؤزراً إياه على سائر أقربائها الذين تقدموا لخطبتها) ، وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٧٥ .

وهكذا توثقت الصلة بين الشيخ والشاب ، وصار الدقاق رائده وملهمه الذى أمانه على مواجهة مشكلات الحياة ، وبصره بأفات النفس وأدوائها ، وكشف له عن الكثير من الخفايا والدقائق .

فكان هذا الاتصال عاملاً جديداً من عوامل الاستقرار النفسى ، وبداية لمرحلة جديدة من النضج الفكرى ، لأنه أتاح له أن يجد فى صهره شيخاً ورائداً وصديقاً ، وسهّل عليه أن يرجع إليه يستنصحه إزاء كل مسألة تعرض له أو أمر ينبهم عليه ، فلم يقع تحت تأثير بلبلة ، ولم يخضع لأزمة ، ولم تتجاذبه ضغوط أو صراعات .

كل ذلك ترك أثره فى شخصيته ، فلسنا نجد فى مؤلفاته اضطراباً أو جموحاً أو غموضاً ، ولسنا نشعر فيها وراء السطور بعقدة من العقد ، ولسنا نحس بميل إلى ابتداع ، إنما نجد أنفسنا أمام شخصية سوية ، يتميز الخط الفكرى لها بالاستقامة والاعتدال ، والوضوح والصدق ، والإخلاص والبذل .

ولعل أبسط دليل على وفاء القشيري لشيخه أنك لو تصفحت « رسالته » لما غاب اسم الدقاق عن عينك ، وهو يذكر اسمه دائماً مقروناً بالنكريم والترحم ، ويكفيك أن تقرأ هذه الفقرة لتوضح لك أولاً شيئاً عن مسلك القشيري خلال حياته العلمية وتوضح لك ثانياً مدى ما ينبغى أن تكون عليه علاقة المريد بشيخه ، فهذه وتلك تصور ما نرمى إليه من بعيد عن كشف جوانب فى سيرة الرجل الذى تقدم لك كتابه .

يقول القشيري : « لم أدخل على الأستاذ أبي على — رحمه الله — فى وقت بدايتى إلا صائماً ، وكنت أغتسل قبله ، وكنت أحضر باب مدرسته غير مرة فأرجع من الباب احتشاماً من أن أدخل عليه ، فإذا تجاسرت مرة ودخلت ، كنت إذا بلغت وسط المدرسة يصحبني شبه خدر حتى لو قرّرت فى إبرة مثلاً لعلّى كنت لا أحسُ بها . ثم إذا وقعت لواقعة وقعت لى لم أحتج أن أسأله بلسانى عن المسألة ، فكلما كنت أجلس كان يبتدىء بشرح واقعتى ، وغير مرة رأيت منه هذا عياناً ، وكنت أفكر فى نفسى كثيراً إنه لو بعث الله عز وجلّ فى وقى رسولاً إلى الخلق هل يمكننى أن أزيد فى حشمته على قلبى فوق ما كان منه رحمه الله تعالى ؟ فكان لا يتصور لى أن ذلك ممكن ، ولا أذكر أنى فى طول اختلافى إلى مجلسه ثم كوفى معه بعد حصول الوصلة أن جرى فى قلبى أو خطر ببالى عليه قط اعتراض إلى أن خرج — رحمه الله تعالى — من الدنيا (الرسالة ص ١٤٧) .

وليس استطراداً أن نذكر لك كلمة موجزة عن رأى عبد الرؤوف المناوى فى الدقاق ،

لأن هذه الكلمة على إيجازها لا تكشف لك عن سمات الدقائق وحسب إنما هي سمات ،
القشيري ذاته في أدق التفاصيل .

يقول المناوي « هو أبو علي الحسن الدقاق النيسابوري الشافعي ، كان لسان وقته وإمام
عصره ، فارها في العلم ، محمود السيرة ، مجتهد السريرة ، جنيدي الطريقة ، سرّي الحقيقة ،
أخذ مذهب الشافعي عن القفال والحصري وغيرهما ، وبرع في الأصول وفي الفقه وفي العربية
حتى شُدَّتْ إليه الرِّحال في ذلك ، ثم أخذ في العمل ، وسلك طريق التصوف ، وأخذ عن
النصرا باذی ، قال ابن شهبه : وزاد عليه حالاً ومقاماً . . . وقد أخذ عنه القشيري صاحب
« الرسالة » وله كرامات ظاهرة ومكاشفات باهرة ١٠٤ هـ كلام المناوي بعد أن أخذ يضرب
أمثله لأقواله المنشورة والمنظومة [الكواكب الدرية في تراجم الصوفية ترجمة الدقاق] .

أمّا في مجال الصداقة فلعلّ أوثق من نعرف اتصالاً به صديقه أبو عبد الرحمن السلمي
وصديقه أبو المعالي الجويني إمام الحرمين .

وترجع أهمية السلمي في حياة القشيري إلى أنه غزير الإنتاج في العلوم الصوفية ، وأن
القشيري استفاد من علمه ، وآية ذلك أنك تجد السلمي في « الرسالة » حلقة اتصال بارزة
في العديد من الأسانيد والأخبار التي عليها يعتمد القشيري موصولة بالدارقطني والسراج
والنصرا باذی وغيرهم ، ولكن الأهم من ذلك — في تقديرنا — أن القشيري استفاد من السلمي
فائدة أبعد أثراً ، ذلك أنه تجنّب التورط في للزائق التي أدّت بصديقه إلى أن يُنهم وأن يكون
موضع نقد معاصريه ومن جاء بعده ، وقد نوّهنا بشيء من ذلك عند كلامنا عن « حقائقه » .

أمّا الجويني فقد كان — كالقشيري — شافعيّاً من حيث المذهب الفقهي ، أشعريّاً من
حيث العقيدة الكلامية ، وقد تعرّض — كالقشيري — لآلام المحنة التي اُكتوى بناوها
الأشاعرة ، والتي سنتحدث عنها بعد قليل ، وهاجر البلاد وجاور الحرمين ، ولم يعد إلى وطنه
إلا بعد انجلاء الغمة .

وإذا كان السلمي صديقاً أقرب إلى الاستاذ فإن الجويني كان صديقاً أقرب إلى التلميذ ،
فقد استفاد من علم القشيري ، فإذا تذكرنا أن الجويني أستاذ الغزالي أمكن أن نقول إن

القشيري موصول بالغزالي لا بطريق للصنفات التي خلفها وحسب بل بطريق السند الذي يمثل الجويني .

وفي مجال الحياة العملية نجد القشيري يضطلع بأعمال تتفق واستعداده وثقافته ، فقد اشتغل بالتدريس في مسجد المطرز وهو في الثلاثين من عمره ويتضح ذلك من هذا النص : « كنت في ابتداء وصلي بالامتاز أبي علي » — رضي الله عنه — عقد لي المجلس في مسجد المطرز ، فاستأذنته وقتاً للخروج إلى « لسا » ، فكنت أمشي معه يوماً في طريق مجلسه ، فخطر ببالي : لينة ينوب عني في مجالس أيام غيبي . . . الخ » الرسالة ص ١١٦ .

وإلى جوار ذلك كان القشيري يعكف على التأليف دون انقطاع فانهى من التفسير الكبير المعروف (بالتيسير في التفسير) قبل عام ٤١٠ هـ ، ومن اللطائف عام ٤٣٤ ، ومن الرسالة عام ٤٣٧ واستمر يمارس هذا النشاط في دأب لا يعرف الكلال حتى وصلت كتبه إلى خمسة وعشرين كتاباً أو نحوها ، ومن أهمها إلى جوار ما سبق : ترتيب السلوك ، والتجوير في التذكير ، والأربعون حديثاً ، وشكاية أهل السنة بحكاية ما نالهم من المحنة ، واستفادات المرادات ، والقصيدة الصوفية ، والتوحيد النبوي ، واللمع ، والفصول ، والفتوة ، ونحو القلوب الصغير ، والكبير ، والمقامات الثلاثة ، وفتوى ، وللمراج .

ولم يطبع من هذه الكتب إلا النذر اليسير ، وفي النية أن تقوم — بعون من الله — بإخراج ما وقع لنا منها خلال رحلات طويلة عديدة ، حتى يزاد الناس علماً به وتقديراً له . ولم يسلم القشيري خلال حياته من المحن والآلام ، وربما كانت أشدها جميعاً ما حدث له إبّان حكم السلطان طغرل ووزيره اللعين الكندري .

كان السلطان طغرل سنياً حنيفياً ، ووزيره أبو نصر الكندري معتزلياً رافضياً ، خبيث العقيدة ، ذا آراء مسرفة في التشويه وخلق الأفعال ، والقصد ، وكان متعصباً في ذلك أشد التعصب .

وفي هذا الوقت كان بنيسابور شخصية فذة لها في أوساط العامة والخاصة نفوذ كبير ، ومحبة فائقة ، ذلكم هو الاستاذ أبو سهل بن اللوفق أحد رجال الطبقة الرابعة الشافعية ،

وكان كثير المال جواداً ، وكان مرموقاً بالوزارة ، وداره مجتمع العلماء ، وملئى الأئمة ، ونظراً لما عرف عنه من تعلق بالمذهب الأشعري ، وذود عنه ، وسعى حيث لنشره فقد ألهب ذلك حقد الكندوى ، خاصة وقد كان يخشى أن يقع اختيار السلطان عليه للوزارة من دونه ، فضى يلقى — لدى السلطان — عنه التهم . ولم يكتف بذلك بل لجأ إلى حيلة دنيئة حين حصل من السلطان على تفويض بسبِّ المبتدعة على للنابر ، فلم يجد السلطان في ذلك بأساً ، فوافق عليه ، ولكن الكندوى استغل هذه المواقفة فأقحم اسم أبي الحسن الأشعري ضمن المبتدعة الواجب سبهم ، وكل من كان يرفض الانصياع لذلك من الوعاظ والخطباء يفصل من عمله ، ويطرده من البلاد ، فنجم عن ذلك شر خطير ، وفتنة كبرى امتد شررها إلى سائر المشرق ، وبات الأشاعرة في حزن مقيم .

وفي وسط هذه المحنة ، وذات يوم كتب أسود جاء الأمر من قبل السلطان بالقبض على القشيري وإمام الحرمين والرئيس الفراتي وأبي سهل للوقوف ، ونفيهم ، ومنعهم من المحافل ، وحين قرئ الكتاب هجم جماعة من الأوباش على الاستاذ الفراتي وعلى القشيري وأخذوا يجرونهما في الطرقات ، ويكيلون لهما أقذع أنواع التهم والاستخفاف حتى وصل الشرطة بهما إلى محبس القهندر .

أمّا إمام الحرمين فقد هرب من البلاد على طريق كرمان ، وأنجه إلى الحجاز ، وهناك جاور ، وأمّا أبو سهل . فقد كان لحسن الحظ غائباً في بعض النواحي .

وبقي السعيجان الجليلان في المحبس ، وقامت جماعات كبيرة من الناس لإتقازهما ، وحدثت حرب دامية بينهم وبين رجال السلطان انتهت بهزيمة رجال السلطان ، وأخرج السعيجان الجليلان من سجنهما ، ولكن كبار الأشاعرة اجتمعوا وقرروا أن جهاز الحكم لن يهدأ له قرار ، وأن الخير في رحيل أئمة المذهب إلى أما كن نائية عن المشرق .

فترك القشيري وطنه وبيته وأهله وعشيرته ، ومضى يضرب في الأرض الواسعة عشر سنوات كاملة ، كان خلالها موضع التكريم والتبجيل ، وأقبل الناس عليه وعلى دروسه إقبالاً عظيماً ، حتى لقد خصص الخليفة العباسي — القائم بأمر الله — له مجلساً خاصاً في مسجد قصره ، وكان يواظب على شهود وعظه ومجلس حديثه ، ويكرمه ، ويحظى ببركته .

وقد وصف الخطيب البغدادي (صاحب تاريخ بغداد) مقدار إعجاب الناس بالقشيري ،
وكان هو نفسه أحد تلاميذه حيث يقول (حدثنا وكتبنا عنه وكان ثقة) .

(تاريخ بغداد ج ١٠ ص ٨٣) .

وذهب القشيري للحج ، وهناك التقى بصديقه الجويني وبعدد كبير من الأئمة الذين شردتهم
الهيئة طوال سنوات عديدة ، فاجتمعوا وتدارسوا أحوالهم ومستقبلهم ، واستقر رأيهم على أن
يطيعوا كلمة واحد منهم مهما كانت هذه الكلمة حتى يتم الاتفاق على مبدأ ثابت يسرى عليهم
جميعاً ، ولم يكن ذلك الذي وقع عليه اختيار الجمع غير عبد الكريم القشيري .

فصعد للنبر ، وظل يتكلم ، وهم يجدون لسكلامه وقماً مؤثراً على قلوبهم وعقولهم ، ثم مرت
لحظات صمت ، بعدها شخص القشيري ببصره إلى السماء ضارحاً ثم أطرق ، والناس من حوله
يتابعون أمره ، ويتفرسون ملامحه . . . ثم قبض على لحيته وصاح بصوت عالٍ :

« يا أهل خراسان . . بلادكم بلادكم ، إن السكندري غريمكم يُقطعُ الآن إرباً إرباً ،
وإني أشاهده الساعة وقد تمزقت أعضاؤه ثم الشد :

عميد الملك ساعدك الليالي على ماشئت من درك الممالي
فلم يكُ منك شيء غير أمرٍ بلعن المسلمين على التوالى
فقابلك البلاء بما تلاقى فذُق ما تستحق من الوبال

(تبين كذب المفترى لابن عساكر ليدن ص ٩٣)

ويقول السبكي في طبقاته : (وضبط التاريخ فكان ذلك اليوم بعينه وتلك الساعة بعينها
قد أمر السلطان بأن يقطع السكندري إرباً إرباً . وأن يرسل عضو منه إلى كل مكان)
السبكي في « طبقات الشافعية » ج ٢ ص ٢٧٢ .

وهكذا عاد القشيري بعد هذه السنوات العشر الثقيلة (من ٤٤٥ إلى ٤٥٥) إلى بلاده ،
وهي وإن كانت أقصى فترات عمره ، وأشدها آلاماً إلا أنها كانت حافلة بالتجارب ، وأعانته
على زيادة خبرته بالحياة والأحياء ، وساعدت على توثيق الصلة بينه وبين الأوساط العلمية
والأدبية خارج المشرق ، ودفعته إلى أن يصنّف العديد من المصنفات المتصلة بالمذهب الأشعري

وبخاصة كتابه الجليل القدر «شكاية أهل السنة بحكاية ما نالهم من المحنة» ، وهي قبل كل شيء وبعد كل شيء آية ثباته على مبدئه ، وأنه خليف أن يتصدّر المفكرين الأحرار في جيله . وجاء السلطان ألب أرسلان خَلَفًا لعمه طغرل ، وبمجيء أرسلان ووزيره الهمام الفذ نظام الملك استقبل العالم الإسلامي كله والأشاعرة بوجه خاص والقشيري بوجه أخص عهداً زاهراً آمناً ، وعاد القشيري إلى مدينته الحبيبة نيسابور حيث قضى بها بقية عمره ، وقضى بها عشر سنوات (كان فيها مرفهاً محترماً ، ومطاعاً معظماً ، وأكثر صفوه في آخر أيامه التي شاهدناه فيها آخراً ، وازداد من يقرأ عليه كُتبه وتصانيفه والأحاديث المسموعة له ، وما يؤول إليه من نصرة المذهب حتى بلغ المنتمون إليه آلافاً ، فأملوا تذكيره وتصانيفه أطراف) « تاريخ نيسابور لعبد الغافر الفارسي حفيد القشيري » .

وكان نظام الملك أحد تلاميذه والمقربين إليه ، وأعاد الوزير - بفضل توجيه القشيري - للأشاعرة والزهاد والعلماء كل ما فقدوه إبّان المحنة الأليمة من كرامة وحظوة .

أما أبناء القشيري فلا نعرف له إلا بنتاً واحدة هي أمة الرحيم أم عبد الغافر الفارسي (قاموس الأعلام باللغة الأوزبكية ط اسطانيول سنة ١٣١٤ ص ٣٠٨٠) .

ونعرف له ستة أبناء كلهم عبادلة وكلهم أئمة ، سلكوا مسلك أبيهم وقد ترجم لهم السبكي في طبقاته كما تحدث عنهم ابن عساكر وابن خلكان .

ولهذا ينبغي أن نتحفظ في نسبة الأقوال المنسوبة إلى القشيري في بعض المراجع فقد تكون هذه الأقوال صادرة عن أحد أبنائه فهم جميعاً أشاعرة وهم جميعاً شافعية وهم جميعاً سلكوا طريق الإرادة .

لبث القشيري في نيسابور في أخريات حياته لم يكد يرحلها إلا لزيارة أقاربه في البلاد المجاورة مثل نسا وأبيورد ، ولكنه كان يعود مسرعاً إلى نيسابور بعد كل زيارة .

وقبل أن تبرز شمس السادس عشر من ربيع الآخر من عام ٤٦٥ هـ ، كانت روحه الطاهرة قد عادت إلى بارئها . فووري جثمانه إلى جوار صهره وشيخه وملهمه وصديقه أبي علي الدقاق في مقبرة خاصة بالأسرة ما زالت قائمة حتى وقتنا الحاضر يزورها الناس للتبرك .

* * *

من خلال هذه السيرة التي حاولنا إيجازها نستطيع أن ندرك أهمية الكتاب الذي تقدم له .
فصاحب الكتاب رجل أوتي حظاً وفيراً من العلوم العقلية والنقلية قبل أن يلج
باب الصوفية ، وهذه في حد ذاتها ظاهرة لها أهميتها ، وقد رأينا كيف نصح الشيخ الدقاق
له بالتمق في هذه الدراسات قبل البدء بالسير في دروب الإرادة ، وفي ذلك أبلغ رد
على من يتخوضون الاتهامات عن الصوفية فيقولون إنهم قوم بجانبون العقل ، ويحتقرون العلم
ويأمرون تلامذتهم بكسر عجايرهم — كما يدعى ابن الجوزي غفر الله له .

والقشيري بعد ذلك كله أديبه ينظم الشعر ويتذوق الأسلوب العربي تذوقاً يعتمد
على أسس قوية ، وقد أوضحنا ذلك بتفصيل كبير في الأطروحة التي أعدناها عنه ونلنا بها
درجة الدكتوراه .

فاذا جاء بعد ذلك ليدرس الأسلوب القرآني ، وليسخرج منه إشارات لطيفة فهو معدّ
لذلك أحسن إعداد ، وهو قمين بالوصول إلى نتائج باهرة ، بقدر ما لديه من نهوض صالح مكتمل .
ثم هو شافعي أشعري ، وهو سني متحفظ ، وهو بهذه الأوصاف باحث متعمق منصف ،
لا يأخذ — وهو يستخرج إشارة من العبارة — إلا جانب الحذر والحيطه والاعتدال ،
وهو من أجل ذلك لم يخرج قيد أنملة عن هذا الخط ، فلم ينصر الحقيقة على حساب الشريعة ،
ولم ينصر الشريعة على حساب الحقيقة ، ولذلك لا نعجب إذا لم نجد عنده جموحاً أو ميلاً
إلى جموح ، ولا نعجب إذا ألفيناه لا يسخط أوساط أهل السنة حتى من تعصب منهم ضدّ
التصوف وأهله ، فقد كان رائده دائماً نصرة الحق ، فليس غريباً أن يجيء «لطائف الإشارات»
تعبيراً صادقاً عن التصوف في أفضل درجات الاعتدال ، وأنقى صور التناول . فليس عند
القشيري ما عند غيره من مساس بالالوهية ، بل هو طالب يعلنها حرباً لا هوادة فيها
على المبتدعين والمضللين الذين أساءوا إلى التصوف وأهله تارة نحت ستار الثوب ،
وتارة بدعوى الفناء المفرق ، ونحو ذلك من الأباطيل .

والتصوف عند القشيري ليس ثوباً مرقماً ، أو خرقة بالية تفرد صاحبها عن سواه ،
وتكون علماً على تقواه ، إنما هو صفاء النفس من كروراتها . وإن كان صادقاً في طويته
ونيتيه سيكون محفوظاً في حالة انمحائه ، سوف يردّ في حالة الجمع إلى حالة الفرق الثاني

ليؤدى الفرائض الواجبة عليه ثم يعود إلى حالة الجمع مرة أخرى ، ويكون في كل أحواله مُصَرَّفًا بإرادة مولاه . كذلك فإن من كان صادقاً في بدايته ووسيلته وقيته كان محفوظاً — من قبل الحق — في كل كلمة ينطق بها أو كل حركة تصدر عنه ، فإذا نطق بنطق بالله ، وإذا تحرك تحرك بالله . ومثل هذا العبد لا يُنتظر منه — وهو في يد الله على هذا النحو — أن يكون قريب الأقوال أو قريب الأفعال . فالصدق هو عمدة الأمر في هذا السبيل — كما يرى هذا الإمام الجليل .

ثالثاً : ننتقل بعد ذلك إلى العامل الثالث في أهمية إخراج هذا الكتاب ، وهو في هذه المرة يعود إلى النسخة أو النسختين اللتين نتمتع عليهما في التحقيق .

النسخ الكاملة من « اللطائف » نادرة فهي حسبنا تقول تذكرة النواذر لا تزيد على خمس إحداها في خزانة بانكي بور مكتوبة في القرن التاسع ، والثانية في المكتبة الحبيبية تاريخ كتابتها عام ٨٤٤ هـ وهي ناقصة من أولها ، والثالثة في الخزانة الأصفية بخط قديم جداً ، والرابعة في مكتبة الجامعة العثمانية بحيدر آباد مكتوبة بخطوط مختلفة سنة ٧٢٦ والخامسة في مكتبة محمد باشا باسطنبول .

غير أننا نعتقد أن هناك عدداً أكبر من النسخ يزيد عما ذكرت التذكرة وأنها منبثة في أنحاء متفرقة من العالم ، ونرجح أن النسخ الكاملة نادرة جداً كما يشير بروكلمان . وإنه لمن دواعي التوفيق أن يتاح لنا أن نحصل — لأول مرة — على الكتاب كاملاً ، فقد وجدنا في مدينة طشقند عاصمة جمهوريات أوزبكستان السوفيتية في المركز الدينى لمسلمى آسيا الوسطى وقازاخستان نسخة شبه كاملة تحت رقم ١٣٠٢ تفسير تبدأ بمقدمة بقلم القشيري — وهي على جانب كبير من الأهمية — لأنها تكشف عن منهجه في الدراسة ، ثم بعدها الفاتحة والبقرة و . . . حتى سورة قريش ، ومعنى ذلك أنها تنقص فقط سور الماعون والكوثر والكافرون والنصر والمسد والإخلاص والفلق والناس . وهذه السور القصيرة موجودة في النسخة الأخرى التي عندنا في مصر ورقها ٢٦٦ تفسير (أنظر فهرس الخزانة التيمورية ط تفسير ص ٢٣٠) والتي تبدأ بالآية (إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل . . .) في سورة الأنبياء وقد قمنا بنسخ هذه المخطوطة ، كما قمنا بالنقاط صورة بالميكرو فيلم للنسخة الطشقندية ثم أجرينا تصويرها

وتكبيرها بحيث تسهل قراءتها وكانت النسختان المادة الأساسية التي اعتمدنا عليها أثناء إعداد الدكتوراه عند كلامنا عن القشيري المفسر .

النسختان إذاً متكاملتان ، ويصبح هذا السفر النفيس كاملاً ، ويقع في نحو ألف ومائتين صفحة ، اخترنا أن نقسمها إلى أربعة أجزاء تصدر متلاحقة في مدى عام أو عامين حسبما تساعدنا الظروف ويرزقنا الله العافية .

وصف عام للنسخة السوفيتية

تبلغ أوراقها ٥٩٧ ورقة ، والأرقام التي كتبها الناسخ مطموسة في كثير من الأحيان ولذا حرصنا عند تكبير الميكروفيلم والتصوير والطبع أن نرقمها نحن من خلف حتى لا تضطرب الأمور عند القراءة والدراسة .

وعلى الورقة الأولى توجد تعليقة مكتبة الإدارة الدينية هكذا :

تفسير

أبو القاسم القشيري

200 = ص ١

1302 = II

٣٥

أما الورقة الثانية فيبدو أنها كانت خالية فبلاها أحد القراء بأحاديث وشواهد شعرية وكتابة باللغة الفارسية .

ثم تبدأ مقدمة الكتاب بقلم القشيري منذ الورقة الثالثة .

وقد وقع خطأ في ترقيم الصفحات ، فبينما نجد الحديث متصلاً غير منقطع بعد الورقة ٢١٤ نجد رقم الورقة التالية هو ٢٢٥ بدلاً من ٢١٥ ، وهناك خطأ آخر ربما حدث قبل تغليف الكتاب : فالأوراق من ٣٩٤ إلى ٤٠١ كلها موجودة عتب الورقة ٤٣١ دون أن يحدث خلل أو سقوط ، ومعنى هذا أن الكتاب رغم هذا — كامل لم يضع منه شيء .

كذلك يقع تفسير أواخر طه وأوائل الأنبياء — خطأ — ضمن تفسير الفرقان . وقد صححنا هذا الوضع .

ونظراً لعدم اكتمال النسخة من آخرها — كما قلنا من قبل — فلقد كنا نخشى أن يغيب عنا التذييل الذى يذكر فيه الناسخ اسم وتاريخ انتهائه من عمله كما جرت العادة ، ولكن لحسن الحظ وجدناه قد قسم الكتاب قسمين كبيرين ينتهى القسم الأول بنهاية تفسير سورة الكهف ورقة ٢٧٨ ، وعندها كتب هذه العبارة باللغة الفارسية المختلفة بالعربية :

(تم بعون الله وحسن توفيقه نصف أول إز تفسير محقق إمام أبو قاسم القشيري رحمة الله عليه بتاريخ شهر شوال سنة ١٢٢٤) .

ومن هذه العبارة يتضح أن الناسخ غير عربى ، وأنه ربما كان فارسياً أو أفغانياً أو أوزبكياً أو أذربيجانياً ، فكثرة من سكان أفغانستان وأوزبكستان وأذربيجان يعتبرون الفارسية لغة اتصالهم بالعلوم الإسلامية حتى اليوم .

وقد نجم عن كون الناسخ فارسياً جنساً أو لغة أن كتابته ومراعاته للإملاء لم تكونا جيدتين ، وكان علينا أن نقرأ الكتاب قراءة متفحصة لنحاول أن نحدد الطريقة التى اتبعها ، لأنها — بما فيها من خطأ أحياناً أو خروج على المؤلف فى الرسم أحياناً أخرى — هى التى جرى عليها عند نقله من النسخة الأخرى التى يحتمل أنها تجرى على هذا النحو ، وربما كان الناسخ ينقل على نحو يكون مفهوماً لديه ، ويسور القراءة له وحده .

وهو لا يهتم بضبط الكلمات ، ولا بترقيم العبارات فليس هناك ضبط أو فاصلة أو علامات استفهام أو أقواس أو علامات تعجب أو نحو ذلك . وقد وقع الناسخ فى أخطاء عديدة أثناء النسخ ، وربما كان مسئولاً عن ذلك أو يحتمل أن النسخة التى نقل عنها بهذا الوصف .

وهامش النسخة وبخاصة فى القسم الأول من الكتاب حافلة بالتعليقات ، بعضها مكتوب بالفارسية قصد منها شرح المفردات وترجمتها .

وهناك عناوين جزئية مكتوبة باللغة العربية بخط حسن تشير إلى موضوعات متنوعة ربما قصد بعض القراء إلى أن يجمعها ليستفيد منها ، وليحدد موقف المصنف إزاءها مثل (الروح — حقوق الوالدين — الدعاء — النفس ... إلخ) .

وعندما كانت تسقط بعض الكلمات أو العبارات من الناسخ أثناء النقل كان يستدرك

فيضع علامة مميزة على آخر كلمة في المتن بدأ بعدها السقوط ويضع العلامة نفسها في الهامش فوق الكلمة أو العبارة الساقطة ، فإذا تكرر السقوط في الصفحة الواحدة مئز كل موضع وكل مستدرك بعلامة مبيانية . كذلك فإنه كان يضع علامة خاصة عندما يعيد كتابة كلمة أو عبارة أو سطر بدون داعٍ حتى يلفت نظر القارىء إلى ما وقع فيه من سهو .
ولم يحدث أن وضع الناسخ ترجمة فارسية لكلمة داخل المتن بل كان يكتب الترجمة أسفل نظيرها ، اللهم إلا في حالة واحدة داخل شاهد شعري :

أنكّه شاد شود در عطا دادن

ومعناها : أصبح حينئذ مسروراً بالمطاء .

ولستبعد أن القشيري يفعل ذلك ، فعلى الرغم من إتقانه للغة الفارسية إلا أنه حرص فيما نعرف له من مصنفات أن يكتب بالعربية خالصة .

ويبدو أن النسخة أتيح لها أن تراجع ذات مرة ، فهناك تصحيحات مختلفة في رسم الكتابة موجودة في الهامش في أماكن مقابلة لموضع التصحيح في المتن . ومن أمثلة ذلك ما جاء في الورقة ٣٥٠ أول سورة الإسراء (وتوحد بعلوقمونه) تصحح في المراجعة (وتوحد بعلو نعوته) .

وفي الورقة ٣٦١ (لبلاء أو شدة يقالها) تصحح في الهامش (لبلاء أو شدة يقاسيها) .
وفي الورقة ٣٧٢ جاء في سياق وصف الدنيا (نعمها مشوقة بنقمتها تصحح في المراجعة (نعمها مشوبة بنقمها) .

وقد كنا نحكم الدقة عند الاستفادة من هذه المراجعة لأننا نفترض أنها قد تكون نوعاً من الاجتهاد الشخصي وليست تصويماً على نسخه أفضل .

بقي شيء هام جداً ، وهو توضيح موقفنا من أخطاء الناسخ ، ويمكن أن نقول إننا أخذنا منها ثلاثة مواقف .

(١) موقفاً نجد فيه الخطأ مؤكداً ويتجلى ذلك عند كتابة بعض الآيات الكريمة حيث تسقط كلمة أو حرف أو تزيد كلمة أو حرف ، فنصلح هذا الخطأ .

(ب) موقفاً فيه الخطأ شبه مؤكد وعند ذلك نكتب في المتن ما نراه صواباً دون أن نترك الأمر على عواهنه بل نثبت في الهامش ما جاء في النسخة ، موضحين أسباب رفضنا لما كتبه الناسخ حتى نضع أمام القارىء صورة أمينة لما تقوم به من عمل ، وكان للفروض أن نكتب كل ما كتب الناسخ في المتن وأن نصوب ما نراه في الهامش ولكن هذه الأخطاء كثيرة جداً بحيث تعوق القراءة ، ونشقى على الدارس .

(ج) موقفاً فيه خطأ الناسخ محتمل ، وعند ذلك ننقل عن الناسخ ما كتب في المتن ، ونشير إلى موقفنا إزاءه في الهامش قائلين (ونرجح كذا ... أو لا نستبعد أنها في الأصل كذا) تاركين الرأى للقارىء والدارس في أن يختارا ما يريانه أقرب إلى الصواب .

أمّا المشتبهات فنضع مكانها قطعاً بين أقواس ونشير إليها في الهامش ، وليس لنا فيها حيلة إلا إذا ظهرت لنا نسخة من الكتاب أكثر وضوحاً .

وإذا تطلب السياق كلمة أو حرفاً ليتأكد ويتضح وضعها من عندنا بين قوسين مشيرين إليها في الهامش .

ونحب ملاحظة أننا لا نقيم أنفسنا في تكملة أو ترجيح إلا بناء على معرفة بأسلوب القشيري الذي ترجع معاشرتنا له إلى سنوات تزيد على العشر ، كذلك كثيراً ما نرجع إلى مصنفاته الأخرى لنبين رأيه في موضع مناظر ومع كل ذلك فإننا دائماً نضع الأمر بين يدي القارىء لنترك له أن يشاركنا ، وله أن يقتنع بما نقول أو يتقبل ما نقلناه عن الناسخ بهذا فيه حسبما يحلو له ، وله أن يرفض .

ومع أن الهوامش لا تخلو من تعليقات وشروح وتخریجات للحديث الشريف إلا أننا نشعر أنها مقتضبة وغير كافية ، فحرصنا على تزويد الناس بالمتن كان رائدنا الأول في هذه المرحلة ، على أننا نعيد — إن أعاننا الله — أن تتم هذا العمل بشروح أكثر بسطة ، فليس «اللطائف» بأقل حاجة إلى الشروح من «الرسالة» التي حظيت باهتمام الدارسين والباحثين طوال أجيال متعاقبة .

النسخة المصرية

تبدأ هذه النسخة كما قلنا من قبل بالآية (إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل . . .) حتى نهاية الكتاب ، وترجع أهمية هذه النسخة إلى أنها أولاً أكملت ما ينقص النسخة السوفيتية من قصار السور ، كما أنها ساعدت — نظراً لوضوح كتابتها أكثر من زميلتها — على التقليل من المشتبهات ، وتتجلى أهمية ذلك في المجلد الثانى .

ولسنا ندرى شيئاً عن الناسخ الذى اضطلم بها ولا عن تاريخ نسخها نظراً لأنها ناقصة من بدايتها كما أن الناسخ لم يترك شيئاً عنه فى نهايتها ، ونرجح أنها أحدث عهداً من النسخة السابقة اعتماداً على دسم الكتابة وقواعد الإملاء .

منهج القشيري فى تأليف الكتاب وأهميته

صدر القشيري كتابه بمقدمة مفيدة أوضحت خطته فى تناول الأسلوب القرآنى ، وهذه المقدمة لا تلقى ضوءاً على الكتاب وحده إنما تقف بنا على المقصود بالتفسير الإشارى للقرآن ، وسأله وغاياته .

أطلق القشيري على كتابه اسم « لطائف الإشارات » وإذا فالتسمية التى زعمها صاحب كتاب (تاريخ أدبيات در ايران) ج ٢ ص ٢٥٧ ط الثالثة سنة ١٣٣٩ غير صحيحة حيث يقول : « لطائف الإشارات فى حقائق العبارات » .

ومن المقدمة نفهم أن هذا اللون من التفسير يعتمد على استبطان خفايا الألفاظ — مفردة أو مركبة — دون التوقف عند حدود ظواهرها المألوفة ومعانيها القاموسية ، وإنما يُنظر إلى اللفظة القرآنية على أنها ذات جوهر يدق على الفهم العادى ، وأهل التجريد وحدهم هم الذين يتاح لهم — بفضل من الله — العلم الذى يكشفون به عن هذا الجوهر .

وهناك رباط وثيق بين هذا العلم وبين العمل ؛ إذ لا يحظى به إلا من جرد قلبه من كل سائجة ، وصفى نفسه من كل كدورة ، وتها بكل الهمة لهذه المهمة الجليلة : دراسة كلام الحق جل ذكره ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

وفي ذلك يقول القشيري في مقدمته : « أكرم الأصفياء من عباده بفهم ما أودعه من لطائف أسرارهِ وأنواره لاستبصار ماضيه من دقيق إشاراتهِ وخفي رموزه ، بما لوَّح لأسرارهِ من مكنونات ، فوقفوا بما خصوا به من أنوار الغيب على ما استتر عن أغيارهِ ، ثم نطقوا على مراتبهم وأقدارهِ ، والحق — سبحانه وتعالى — يلهمهم بما به يكرمهم ، فهم به عنه فاطنون ، وعن لطائفه مخبرون ، وإليه يشيرون ، وعنه يفصحون ، والحكم إليه في جميع ما يأتون به وينزون » .

ويتضح — بادي ذي بدء — أنَّ هذا اللون من الدراسة يفترق عن سائر ألوان الفكر الإسلامي في أمور كثيرة ، لعلَّ أهمها عنصر الاصطفاء من قبل الله ، فليس يُمكن لغير من اختصهم الله بفضله أن يخوضوا فيه . فأت تستطيع أن تكون متكلماً أو فيلسوفاً أو نحوياً أو أديباً إذا توفرت لذلك ، وكان لديك استعداد ملائم ، وخصصته بعنايتك ، أمّا أن تكون مستنبطاً للإشارة من العبارة فهذه خصوصية فريدة لا بدَّ أن يسبقها اجتناء إلهي . كذلك يمكنك أن تكون عالماً في أي فرع من فروع المعرفة دون أن يصحب ذلك عمل ، أمّا أن تقبل على القرآن الكريم لتستشف الجواهر من وراء الظواهر فهذه مسألة ينبغي أن تقترن بجهود مضيئة في تصفية النفس والقلب من كل العلائق ، وتخليتهما عن كل الشواغل الدنية ، وتحليتهما بكل الأوصاف السنية .

وربما كانت هذه الشروط المتصلة بالاجتناء المسبوق ، والعمل المقترن بالعلم من أسباب ندرة ما وصلنا من هذا اللون من التفسير ، كما أنها قد تكون أسباب خروج بعض ما يحشر في نطاقه — زوراً أو خطأ — عن التفسير الإشاري السديد .

فرق آخر يفرق هذا اللون من التفسير عن غيره أنه لا يعتمد اعتماداً كلياً أو مسرفاً على العقل ، إنما هو يعني بالأمور العقلية بالقدر الذي يُعني به الصوفية بالعقل ، ونعني به أن الذهن آلة لتصحيح الإيمان في مراحل البداية ، أمّا فيما فوق ذلك وفيما هو حيث الخطو نحو المعارف العليا فهناك ملكات أخرى يناط بها حمل هذا العبء ، وهي في مذهب القشيري تتدرج صعوداً من القلب إلى الروح إلى السر ثم إلى سر السر أو عين السر . معنى هذا أن استنباط الإشارات اللطيفة من النص القرآني ليس عملية عقلية صرفة إلا في الحدود التي تضمن عدم

افتيات الإشارة على العبارة ، فلا تخرج بها عن مألوف ما ينسجم مع الأسلوب العربي سواء من حيث اللغة أو النحو أو الاشتقاق أو الفنون الأدبية ، ولا تخرج بها عن الدلالات التي توافق أسباب النزول والأخبار الموثوقة وعلوم الحديث والأصول والفقه ، فكان الإشارة ليست انبعاثاً تلقائياً محضاً ولكنها مقيدة — منذ البداية — بالكثير من العلوم العقلية والنقلية فما أشبه موقف اللفظة القرآنية في هذا المجال بموقف من يتبها لارتداد الطريق الصوفي فكلاهما يتعزى عن ظاهره ، وكلاهما يخضع لما تتطلبه المعارف العقلية والنقلية من شرائط البداية ، وكلاهما يصبح صافياً رائقاً يشف درجة بعد درجة كلما زاد الصعود وارتقى القصور . . فاللفظة القرآنية فيها حياة وفيها نمو ، وفيها عوالم مضيئة متألقة تشبه تلك العوالم التي يتدرج فيها العابد الزاهد المريد العارف المحب .

قد يقال وأى فرق إذاً بين التفسير الإشاري وغيره من التفاسير مادام يعنى بالأمور العقلية والنقلية ؟ والجواب على ذلك أنه لا يعنى بهذه الأمور لذاتها ، ولا يوقف نفسه داخل أسوارها ، ولا يقطع العمر في حرازاتها وخلقاتها ، إنما هي وسيلة في الابتداء يلجأ إليها المفسر بمقدار ما يسعفه حظه منها لكي يفيض الأغلفة الظاهرية . وهذه العناية إن التزمت بذلك صارت وسيلة من وسائل إقناعنا بأن التفسير الإشاري ليس عشوائياً يخب فيه كل من هب ودب ولكن خاضع لنواميس وقواعد .

ونستطيع بعد ذلك أن نميز بين تفسير القشيري في « لطائفه » وبين أولئك الذين تنسب تفاسيرهم إلى التصوف وأهله ، أولئك الذين أسرفوا حين حملوا النص القرآني فوق ما يحتمل ، وبدلاً من أن يخضعوا للنص القرآني أخضعوا النص القرآني لنصرة مذاهبهم ، وساروا في الدروب العقلية حتى جمحوا ، وابتعدوا عن الخط الأصيل حتى صارت تفاسيرهم جديرة بالدرس في مجالس الفلسفة والكلام لا في مجالس الرياضات والمجاهدات والأحوال . أمّا عند القشيري فليس هناك مذهب عقلي خبيء ، ولا عقيدة باطنية مستورة ، كل ما عنده من قصد أن يتم لقاء كامل بين الشريعة والحقيقة في ظلال كلمات الله — جل ذكره ، لأنه إذا لم يتم هذا اللقاء في كنف كلام الله فأين يمكن أن يتم ؟

وهنا تلتقي هذه المحاولة التي بذلها في « اللطائف » مع المحاولة التي بذلها في « الرسالة »

فهو منذ الصفحة الأولى في «رسائله» يحاول أن يُعرِّف بأن عقيدة الشيوخ «الذين بهم اقتداء» عقيدة سليمة لا تخرج في قليل أو كثير عن عقيدة التوحيد الرائقة الصافية ، ثم يسير في تراجم الشيوخ ليختار لك من أقوالهم وأخبارهم وأفعالهم ما يؤيد ذلك ، ثم ييؤب رسالته إلى التوبة والزهد والتوكل والرضا والمحبة . . . الخ . ولا ينتهي عند استفتاح كل باب عن ذكر آيات من كتاب الله الكريم بعدها أحاديث وأخبار عن الرسول صلوات الله عليه . . لماذا كل ذلك ؟ لكي يثبت أن هناك لقاء بين الشريعة والحقيقة ، وأنهما وجهان لشيء واحد . . تلك هي الغاية القصوى التي يطمح إليها هذا الإمام الجليل ، والتي من أجلها نذر عمره ، وخصص جهده ، ولم يرض عن شيء في استنطاقه ، ولم يفارقه الطموح إليها في مصنف من مصنفاته . . . وما أعظمها وما أشرفها من غاية !

فإذا كنّا أخرجنا من نطاق التفسير الإشاري هذه التفسيرات المنسوبة لبعض المنتسبين للتصوف فأولى أن نخرج من هذه التأويلات الاعتزالية والشيوعية والبدعية والإلحادية وغيرها مما تعتمد في مباحثها على أن القرآن ظاهراً وباطناً ، ذلك لأن قضية الظاهر والباطن استغلت استفلالاً سيئاً لخدمة الكثير من العقائد الهدامة ، وارتكبت في حق الظاهر القرآني جرائم خطيرة حين أريد له أن يؤول لنصرة الأغراض المريضة والدعوات الجامحة ، وفي ذلك يقول التفتازاني في شرح العقائد النسفية : « سميت للملاحدة باطنية لادعائهم أن النصوص ليست على ظواهرها بل لها معاني باطنة لا يعرفها إلا المعلم ، وقصدهم بذلك نفي الشريعة بالكلية » ، ويستدرك التفتازاني قائلاً : « وأما ما يذهب إليه بعض المحققين من أن النصوص على ظواهرها ومع ذلك فيها إشارات خفية إلى دقائق تنكشف على أرباب السلوك يمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة فهو من كمال العرفان ومحض الإيمان » (شرح العقائد النسفية ط الحلبي سنة ١٣٢٢ هـ) .

والذي نحمده للتشيري وينبغي أن نشيد به في هذا التقديم أنه حرص أشد الحرص على النص القرآني ، وأنه التزم بالنظر إليه نظرة اعتبار وتقديس ، وكان عمله أشبه بمن يقبس قطرات من الضوء من مشكاة كبيرة ينير بها الطريق أمام الزهاد والعارفين ، دون أن يتورط في تمسك أو يترلق في حرب من دروب الشغلط ، والسبب الهام الذي يعود إليه هذا المنهج

أنه سني حريص على سنته بقدر ما هو صوفي حريص على صوفيته ، فكان عليه أن يرضى
أوساط أهل السنة في الوقت الذي كان عليه أن ينفع الصوفية ، وأن يوضح لكلا الطرفين
أن الأصول والفروع في الحالين مستمدة من كتاب الله الكريم .

ولقد أعان القشيري في عمله أنه صنّف قبل « اللطائف » كتاباً كاملاً في تفسير القرآن
على نحو تقليدي هو « التيسير في التفسير » — الذي حصلنا على مسودة للجزء الخامس منه
من أكاديمية العلوم السوفيتية — ونجده في « التيسير » يعنى أشد العناية باللغة والاشتقاق
والنحو وأسباب النزول والأخبار والقصص . وقد صنّفه قبل أن يلتقى بشيخه الدقاق أى قبل
أن يسلك المسلك الصوفي ، فأعانه ذلك على أن يفقه العبارة من معظم زواياها المتصلة بالظاهر ،
حتى إذا بدأ يكتب « اللطائف » كان طريقه إلى الإشارة وإلى فقه الباطن ممهداً ،
ومناله ميسوراً ، وآفاقه مفتحة .

* * *

سار القشيري في « اللطائف » على خطة واضحة محددة التزم بها من أول الكتاب
إلى آخره ، فهو يبدأ بتفسير البسملة كلمة كلمة ، وأحياناً حرفاً حرفاً ، والبسملة تتكرر بلفظها
في مفتتح كل سورة ، ومع ذلك فإننا نجده يلجأ إلى تفسير كل بسملة على نحو ملفت للنظر ؛
إذ هي تختلف وتتنوع ولا تكاد تتشابه ، ويزداد إعجابنا بالقشيري كلما وجدنا تفسير البسملة
يتماشى مع السياق العام للسورة كلها ، فالله والرحمن والرحيم لها دلالات خاصة في سورة
القارعة ، ولها دلالات أخرى في سورة النساء ولها دلالات خاصة في الأنفال وهكذا . . .

ولستنتج من ذلك عدة نتائج :

أولاً : أنه يعتبر البسملة قرآناً ؛ وليست كما يقول البعض — شيئاً يُستفتح به للتبرك ،
شأن ما نصنع في بداية أقوالنا وأفعالنا (انظر « المغني » للقاضي عبد الجبار المتوفى سنة ٤١٥ هـ
ج ١١ ط وزارة الثقافة (تراثنا) ص ١٦١) .

ثانياً : أنه ما دام يعتبر البسملة قرآناً ، وما دام يجد لها مقاصد منجدة ، فكانه
لا يؤمن بفكرة التكرار في القرآن ، وفي ذلك يقول في الورقة الثالثة من

اللطائف : « فلما أعاد الله - سبحانه وتعالى - هذه الآية - أعنى بسم الله الرحمن الرحيم - في كل سورة ، وثبت أنها منها أردنا أن نذكر في كل سورة من إشارات هذه الآية كلمات غير مكررة وإشارات غير معادة » .

ثالثاً : أن لدى القشيري قوة غير عادية ونفساً طويلاً عند استبطان الظاهر ، لأننا نجد أمام أربع كلمات تكرر بلفظها ومعناها من بداية القرآن إلى نهايته ، فإذا أضفنا إلى ذلك أنه سار على هذه السنته في « التيسير » ازداد إعجابنا به وعجبنا له .

ومن الخير أن نضرب هنا مثلين لما صنع في بسملة « اللطائف » لنستوضح مقاصده من هذا الاتجاه .

يقول في بسملة سورة « الحجر » : « سقطت ألف الوصل من كتابة بسم الله وليس لإسقاطها علة ، وزيد في شكل الباء من بسم الله وليس لزيادتها علة ، ليعلم أن الإثبات والإسقاط بلا علة ؛ فلا يقبل من قيل لاستحقاق علة ، ولا رد من رد لاستيجاب (= لاستحقاق) علة . فإن قيل العلة في إسقاط الألف من بسم الله كثرة الاستعمال في كتابتها أشكل بأن الباء في بسم الله زيد في كتابتها وكثرة الاستعمال موجودة . فإن قيل العلة في زيادة شكل الباء بركة أفضالها بسم الله أشكل بحذف ألف الوصل لأن الاتصال فيها موجود . فلم يبق إلا أن الإثبات والنفي ليس لهما علة ؛ يرفع من يشاء ويمنع من يشاء » .

ويتضح من هذا أن استنباط الإشارة ليس — كما قلنا من قبل — مسألة عشوائية إنما هو خاضع لقواعد وأصول ، وإلى تنفيذ لمختلف الآراء ، ومحاولة للإقناع .

وليس هذا فقط . . بل إنك لو تعمقت داخل السورة لأدهشك — كما أدهشني — أن هناك صلة وثيقة محكمة بين هذا الذي فسرت به البسملة وبين كلام في داخل السورة عن رفع الخلق بلا علة ، وخفضهم بلا علة ، وذلك كما ورد في قصة خلق آدم ، وكيف أن الملائكة (كانوا في حال سترهم لأنهم نظروا إلى القوالب مع أن الاعتبار بالمعاني التي يودعها ، فالملائكة استصغروا قدر آدم وحاله وتعجبوا من الأمر لم بالسجود فكشف لهم شظية مما اختصه فسجدوا للأمر وكذا حال من ادعى الخيرية) أما إبليس فلم يفتن للمشيئة الإلهية

العليا ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون (بعدما لاحتم للمعرفة) وبقي هو على عناده متأبياً
أن يسجد لبشر مخلوق من صلصال من حمأ مسنون (لأنه لا يعرف أن مشيئة الله تجري
على غير علة) .

وفي سورة براءة — التي نعرف أنها السورة الفريدة في القرآن الكريم التي تبدأ بدون
بسملة نجد الأمر يستوقف نظر القشيري فلا يتركه كي يمر دون استنباط إشارة ، اسنمغ إليه
يقول : « الحق — سبحانه — جرّد هذه السورة عن ذكر البسملة لِيُعْلَمَ أَنَّهُ يَخْصُ مِنْ يَشَاءُ
وما يشاء بما يشاء ، ويفرد من يشاء بما يشاء ، لا لِصُنْعِهِ سبب ، ولا في أفعاله غرض
ولا أَرَب . ومن قال إنه لم يذكرها لأن السورة مفتوحة بالبراءة عن الكفار فهو — وإن كان
وجهاً في الإشارة — إلا أنه ضعيف ، وفي التحقيق كالبعيد ، لأنه افتتح سوراً من القرآن
بذكر الكفار مثل قوله : « الذين كفروا . . » ومثل قوله « ويل لكل همزة لمزة »
وقوله : « تبت يدا أبي لهب وتب » وقوله : « قل يا أيها الكافرون . . . » هذه كلها مفاع
السور ، والبسملة مثبتة في أوائلها ، وهي متضمنة ذكر الكفار .

وقد يقال إنها تضمنت ذكر الكفار دون ذكر صريح للبراءة ، وإن تضمنته تلويحاً
وهذه البراءة هنا في ذكر البراءة من الكفار قطعاً فلم تصدر بذلك الرحمة ، وإذا كان مجرد
السورة عن هذه الآية يشير إلى أنها لذكر الفراق فبالحرى أن يخشى أن تجرد الصلاة عنها
بمنع كمال الوصلة والاستحقاق .

... .. وبعد أن ينتهي القشيري من بسط مذهبه في كل بسملة على هذا النحو الطريف
المنع يبدأ في تفسير السورة آية آية ، ولم يتخلّ عن آية إلا في مواضع نادرة ، بل ربما تكون
الآية طويلة نسيباً ومع ذلك لا يتركها دون إشارة حتى ولو كانت سريعة مقتضبة « على سبيل
الإقلال خشية اللال » كما يقول في مقدمته .

ولا بد أن القارى يتوقع أن تسوق إليه موقف القشيري من الحروف للمقطعة التي تلي
البسملة في عديد من السور نظراً لما دار حول هذه الحروف من جدل كثير ، ونظراً لأنها
لبعدها عن مألوف الكلام العادي أقرب ما تكون إلى الرموز وبمعنى آخر أقرب ما تكون
إلى الإشارات أى أدخل في عمل القشيري في « لطائف الإشارات » . وربما كان أفضل

ما ورد هنا قول القشيري في (الم) التي افتتحت بها سورة البقرة لأنها كانت أول حروف مقطعة يقابلها أثناء عمله . يقول : « هذه الحروف المقطعة في أوائل السور من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله عند قوم . ولكل كتاب سر ، وسر الله في القرآن هذه الحروف للمقطعة . وعند قوم أنها مفاتيح أسمائه ؛ فالألف من اسم « الله » واللام يدل على اسم « اللطيف » ، والميم يدل على اسم « المجيد » و « الملك » .

وقيل أقسم الله بهذه الحروف لشرفها لأنها بسائط أسمائه وخطابه ، وقيل إنها أسماء السور ، وقيل الألف تدل على اسم « الله » واللام على اسم « جبريل » والميم تدل على اسم « محمد » صلى الله عليه وسلم ؛ فهذا الكتاب نزل من الله على لسان جبريل إلى محمد (ص) . والألف من بين سائر الحروف انفردت عن أشكالها بأنها لا تتصل بحرف في الخط ، وسائر الحروف يتصل بها إلا أحرف بسيرة ، فلينتبه العبد عند تأمل هذه الصفة لاحتياج الخلق بجملتهم إليه واستغنائه عن الجميع .

ويقال ^(١) يتذكر العبد المخلص من حالة الألف تقدُّس الحق — سبحانه وتعالى — عن التخصص ؛ ذلك أن سائر الحروف لها محل من الخلق والشفة واللسان إلى غيرها من الخارج ، غير الألف فإنها هويته لا تضاف إلى محل .

ويقال الإشارة منها إلى أفراد العبد لله سبحانه ؛ فيكون كالألف لا يتصل بحرف ، ولا يزول عن حالة الاستقامة والانتصاب بين يديه .

ويقال يطالب العبد في سره عند مخاطبته بالألف بانفراد القلب إلى الله تعالى ، وعند مخاطبته باللام بدين الجانب ، وعند سماع اللبم بموافقة أمره فيما يكلفه . وقد اختص كل حرف بصفة مخصوصة ، وانفردت الألف باستواء القامة والتميز عن الاتصال بشيء من أضرابها من الحروف فجعل لها صدر الكتاب إشارة إلى أن من تجرَّد عن الاتصال بالأمثال والأشغال حظى بالمرتبة العليا ، وفاز بالدرجة القصوى ، وصُلِّحَ للتخاطب بالحروف المنفردة التي هي غير

(١) عندما يقول القشيري « ويقال ... » فليس معنى ذلك دائماً أن يورد بعدئذ رأياً لغيره فربما — وهذا هو الغالب — أنه يقصد إلى توضيح وجهة نظره من زوايا مختلفة .

مركبة على سُنَّةِ الأحباب في ستر الحال ، وإخفاء الأمر على الأجنبي من هذه القصة ،
قال شاعرهم :

قلت لما قفى قالت قاف

ولم يقل وقفتُ سترًا عن الرقيب ، ومراعاةً لقلب الحبيب ، وهكذا تكثر العبارات
للعسوم ، والرموز والإشارات للخصوص ؛ أشجع موسى كلامه في ألف موطن ، وقال نبيُّنا
صلى الله عليه وسلم : « أوتيت جوامع الكلم فاختُصِرَ لي الكلام اختصاراً » وقال بعضهم :
قال لي مولاي ما هذا الدنف قلتُ نهواني قال : لام ألف

... .. ويمضى القشيري بعد ذلك فيستخرج للصوفية إشارات ثمينة مما يصادفه في الآية
من حكم تشريعي يتصل بالقتال والغنيمة والأسر والكيل والليزان والدين والشهادة ونحو ذلك
أو كلام في العبادات كالصوم والصلاة والحج والزكاة أو ما يعود بالآية إلى أسباب زولها
والأخبار والقصص التي رويت من حولها ، أو ما تحتوى من مظاهر قدرة المولى - جل وعلا -
في خلق الإنسان والكون .

وينبغي ألا ننتظر من القشيري إسهاباً في الأحكام الفقهية والقواعد التبعية والأسانيد
ونحو ذلك فما لهذا ألف كتابه ، ولا يصح للقارى أن يتوقع منه ذلك فهناك تفاسير مخصوصة
وضعت للوفاء بهذه الأمور ، إنما قصد القشيري إلى استمداد شيء نافع للصوفية يتدعم به رأى
من آرائهم أو عمل من أعمالهم ، فهذا هو مقصوده ، وتلك مراميهِ ، ونحن من أجل ذلك نقول
بلا تحفظ إن « لطائف الإشارات » يمثل تمثيلاً صادقاً مذهب القشيري في التصوف أكثر مما
تمثله « الرسالة » فهو يفنى عنها وهي لا تغنى عنه .

وعلينا الآن أن نسوق أمثلة قليلة توضح موقف القشيري في تلك الأمور حتى يعرف
القارى منذ البداية أى نوع من التفسير ذلك الذى نضعه بين يديه . ففيما يختص بالأحكام
التشريعية نراه مثلاً عند الآية الكريمة « واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه » يقول :
الغنيمة ما يحصل عليه المؤمنون من أموال الكفار إذا ظفروا عند الجهاد والقتال . ولما كان
الجهاد قسامين : جهاد الظاهر مع الكفار وجهاد الباطن مع النفس والشیطان ، وكما أن للجهاد

الأصغر غنيمة عند الظفر كذلك للجهاد الأكبر غنيمة وهو أن يملك نفسه التي كانت في يد عدوّه: الهوى والشيطان ، وبعد أن كانت ظواهره مفرّجاً للأعمال الذميمة وباطنه مُستقرّاً للأحوال الدنيئة يصير محلّ الهوى مسكن الرضا ، ومقرّ الشهوات والمنى محلاً لما يرد عليه من مطالبات المولى ، وتصير النفسُ مستلبة من إصرار الشهوات ، والقلبُ مختطفاً من وصف الغفلات ، والروح منزوعة من أيدي الملاحظات ، والسرُّ مصوناً من الملاحظات . وكما أن من جملة الغنيمة مهمما لله والرسول وهو الخُش فها هو غنيمة — على لسان الإشارة — مهم خالص لله وهو مالا يكون للعبد فيه نصيب لا من كرائم العقبي ولا من ثمرات التقريب ولا من خصائص الإقبال ، فيكون العبد عند ذلك محرراً عن رقّ كل نصيب ، خالصاً لله بالله ، يحو ما سوى الله .

ونلفت نظر القارىء إلى ما ورد في هذا النص من ترتيب الملكات الباطنة للإنسان من أسفل إلى أعلى ، وهى : النفس ثم القلب ثم الروح ثم السر ، ولكل منها وظيفة ولكل وظيفة غاية ، كما أن لكل منها آفات ولكن لكل علاج . . . والكلام فى ذلك كله موزع فى الكتاب حسب السياق الذى توحى به آيات الكتاب الكريم . والقشيري مشكور أعظم الشكر حين التزم بهذا الترتيب ، ولم يتخلّ عنه لا فى اللطائف وحده بل فى كل ما بين أيدينا من مصنفاته ، حتى صار له مذهب واضح السمات بارز القسمات فى المراجيع الروحى ، وتفصيل ذلك موضح فى كتابنا عن « مذهب فى التصوف » الذى هو القسم الأول من بحثنا للدكتوراه .

وبطابق القشيري بين ما يحدث من نسخ لبعض الأحكام وبين ما يحدث من نسخ فى السلوك الصوفى حيث يقول عند قوله تعالى : « يأياها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل . . . » « حكم هذه الآية كان ثابتاً فى الشرع ، ولكنه نسخ بعده . والنسخ هو الإزالة ، ومعنى النسخ فى سلوك المريدين أنهم فى الابتداء فرضهم القيام بالظاهر من حيث المجاهدات ، فإذا لاح لهم من أحوال القلوب شئ آلت أحوالهم إلى مراعاة القلوب فتسقط عنهم أوراد الظاهر . »

أما فيما يختص بالعبادات فإننا نلاحظ أن القشيري ينتمى كل فرصة كي يوضح ضرورة التزام العبد بأدائها مهما أوغل فى الفناء عن نفسه ، فليس ثمة عذر لسقوطها عنه أو إعفائه

منها ، كذلك نراه يهتم اهتماماً ملحوظاً بالحث على التغافل في بواطنها ، ومعرفة جواهرها ، فهي ليست رسوماً ظاهرية يؤديها البدن وحسب ولكنها ذات مقاصد بعيدة .

فاستقبال القبلة عند الصلاة له عند القشيري إشارة : (لتكن القبلة مقصود نفسك ، وسبحانه مقصود مشهود قلبك ؛ لا تعلق قلبك بأحجار وآثار ، وأفرّد قلبك لي) وعند قوله تعالى « وآتموا الحج والعمرة لله » يقول : « إتمام الحج على لسان العلم القيام بأركانه وسننه وهيئته ، وإراقة الدماء التي تجب فيه ، وعلى لسان أهل الإشارة الحج هو القصد ، فقصد إلى بيت الحق وقصد إلى الحق ، فالأول حج العوام والثاني حج الخواص ، وكما أن الذي يحج بنفسه يحرم ويقف ثم يطوف بالبيت ويسمى ثم يخلق ، فكذلك من يحج بقلبه فأجرامه بعقد صحيح على قصد صحيح ، ثم يتجرد عن لباس مخالفاته وشهواته ثم باشتماله بثوب صبره وفقره ، وإمساكه عن متابعة حظوظه من اتباع الهوى وإطلاق خواطر المني ، وما في هذا المعنى ، ثم الحاج أشعث أغبر تظهر عليه آثار الخشوع والخضوع والتلبية ، وأفضل الحج الشج والعج ؛ فالشج صب الدم والعج رفع الصوت بالتلبية فكذلك سفك دم النفس بسكاكين مخالفتها ، ورفع أصوات السر بدوام الاستغاثة وحسن الالتجاء والوقوف بساحات القربة باسكمال أوصاف الهيبة . وموقف النفوس عرفات وموقف القلوب الأسامي والصفات (= أسماء الله الحسنى وصفاته) ، وطواف القلوب حول مشاهد العز ، والسعي بالأسرار بين صفي كشف الجلال ولطف الجمال ، ثم التحلل بقطع أسباب الرغائب والاختيار والمني والمعارضات بكل وجه . »

ولسمع القشيري عند : « كتب عليكم الصيام . . . » يقول : « الصوم على ضربين : صوم ظاهر وهو الإمساك عن المفطرات مصحوباً بالنية ، وصوم باطن وهو صون القلب عن الآفات ، ثم صون الروح عن المساكنات ، ثم صون السر عن الملاحظات . . . »

ونهاية الصوم إذا هجم الليل ، ولكن من أمسك عن الأغيار فصومه نهايته أن يشهد الحق . والصوم لرؤية الهلال والإفطار لرؤيته كما يقول عليه السلام فالرؤية عائدة على الهلال ، وعند أهل التحقيق فالرؤية عائدة إلى الحق ؛ فصومهم لله حتى شهودهم ، وفطرم الله ، وإقبالهم على الله ، والغالب عليهم الله . »

هذا عن العبادات أما عن أسباب النزول فينظر إليها القشيري كما ينظر إلى مورد المثل ومضربه ، فالآية « ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله » يقول عندها القشيري : « نزلت حين أمر الله رسوله بقطع بعضها فقالت اليهود : أى فائدة فى هذا ؟ أمين الصلاح قطع النخل وعقر الشجر ؟ »

فوجد المسلمون فى أنفسهم من قولهم ، فأنزل الله تعالى الآية ، وأن ذلك بإذن الله ، وانقطع الكلام ، وفى هذا دليل على أن الشريعة غير مُعَلَّلة ، وأنه إذا جاء الأمر الشرعى بطل طلب التعليل ، وسكنت الألسنة عن المطالبة : يَلِمَ ؟ وهكذا من قال لأستاذه وشيخه : لِمَ ؟ لم يفلح ، وكل مريد يكون لأمثال هذه الخواطر فى قلبه جَوْلَان لا يجىء منه شيء ، ومن لم يتجرد قلبه عن طلب الاعلال ولم يباشر حسن الرضا لكل ما يجرى ، واستحسان ما يبدو من الغيب من الله — بسرّه وقلبه — فليس من الله فى شيء .

وفى قوله تعالى : « إنا بلوناكم كما بلونا أصحاب الجنة » يقول : « نزلت هذه الآية فى أهل رجل من اليمن ترك لهم بنة ممترة ، وكان يتصدق منها للمساكين ، فلما ورثه أهله قالوا : لن نفعل فعله ، وأقسموا ألا يعطوا شيئاً ، فأهلك الله جنهم . وندموا وتابوا » وهذه حال من له بداية حسنة ، ويجد التوفيق على التوالى ، ويجنب المعاصى ، فيعوضه الله فى الوقت نشاطاً ، وتلوح فى باطنه أحوال فإذا بدّر من سوء دعوى ، وترك أدباً من آداب الخدمة تنسّد عليه تلك الأحوال ، ويقع فى فترة ، فإذا حصل منه بالعبادات والفرائض إخلال انقلب حاله ، وردّ عن الوصال إلى البعاد ، ومن الاقتراب إلى الاغتراب عن الباب ، وصارت صفوته قسوة ، فإن كان له بعد ذلك توبة على ماسلف ، وندامة على ما فات من أمره ، فقلما يصل إلى حاله ، ولكن لا يبعد أن ينظر إليه الحق بأفضاله ، فيقبله بعد ذلك ، رعاية لما سلف منه فى البداية من أحواله ، فإن الله تعالى رءوف بعباده .

ومن مظاهر القدرة الإلهية فى الكون والحياة والإنسان لا ينبى عن القشيري أن يستمد إشارات مناسبة يوجهها نحو الموضوعات الصوفية فيقول مثلاً عند « ألم تخلقكم من ماء مهين » : « مهين أى حقير ذكّرهم أصل خلقتهم لتلا يمجّبوا بأحوالهم ، فإنه لا جنس من المخلوقات والمخلوقين أشد دعوى من بنى آدم ، ومن الواجب أن يتفكر الإنسان فى أصله ،

كان نقطة وفي انتهائه إلى جيفة ، وفي وسائط حاله كنيف في قيص ، فبالحرى ألا يدل ولا يفخر . . . ثم صورته فأحسن صورته ؛ فهو قادر على أن يرقبك من الأحوال الخسيسة إلى المنازل الشريفة النفيسة .

والإنسان أفضل من الجن لأن الجن من نار ، والنار بالماء تنطفئ وتصبح رماداً ولا يجيء منها شيء . أمّا الطين (الإنسان) فإذا انكسر عاد به الماء إلى ما كان عليه ، ولذلك العدو (إبليس) انطفاً ما كان يلوح عليه من سراج الطاعة ، ولكن آدم عليه السلام لما اغترَّ بجَبَرَةِ ماء العناية فقال تعالى : ثم اجنباه ربه .

« خلق الإنسان من طين ولكنه تعالى » يحبهم ويحبونه « خلق الإنسان من طين ولكنه تعالى » رضى الله عنهم ورضوا عنه « خلق الإنسان من طين ولكنه يقول » اذكروني أذكركم « خلق الإنسان من طين ولكن :

فكم أبصرت من حُسْنٍ ولكن عليك من الورى وقع اختياري

وبعد . . . فهذه أمثلة سريعة أردنا أن نقدمها للتدليل على المواقف التي يتخذها القشيري في ظلال القرآن من زوايا مختلفة وفي ظروف متنوعة ، ومن مجموع هذه المواقف يتحصل مذهب في التصوف فضلاً عن مذهبه في الكلام ، وهنا تجدر الإشارة إلى أنه حاول أن يحل بطريق العلم الصوفي ما عجز المتكلمون عن حله ، فحين حلَّ القلب محلَّ العقل ليصعد ويقصد نحو الملائكة الأعلى ، وأصبح الحقُّ مناط الأمل لم يعد هناك معنى لأي حديث في الجبر والاختيار والحسن والقبيح والثواب والعقاب — على النحو الذي اشتجر من حوله الخلاف بين المتكلمين . الله — في عرف هذا الصوفي وفي عرف الصوفية الخُلُص — مشهود ومحبوب لا معبود فقط ، وكلُّ كلام عن جبر الحب وعذاب الحب يسمُج ويسخف ، وهل هناك أجل من أن يتعذب الإنسان في حبه حتى يهلك ؟ ألا ما أروعها من غاية ! وما أجدر من أن يضيع العمر بين فقد ووجد ! وما أعظم أن يكون الحقُّ خلفاً لك عن كل حطام الدنيا وأن تكون مشاهدته بديلاً لك عن كل نعيم الجنان !

بقيت مسألة هامة لا أحب أن أنهى هذا التقديم دون أن أوضحها ، وهى قيمة هذا الكتاب من الناحية الأدبية .

والواقع أن المسألة أكثر ثمولا وأوسع أبعاداً من أن تنصرف إلى « لطائف الإشارات » وحده أو حتى إلى أعمال القشيري كلها ، إنها تنصل بقضية أعظم هى الطريقة التى يؤخذ بها الإنتاج الصوفى عموماً ، فازلنا حتى الآن نكتفى بدراسة الأعمال الصوفية ضمن الدراسات الفلسفية والعقلية ، فالتصوف فى جامعاتنا يدرس فى أقسام الفلسفة بينما لا يدرس فى أقسام اللغة العربية وآدابها ، وإذا حدث شئ من ذلك فهو ينتقل إليها بطريق أساتذة الفلسفة .

وإنى لأنساءل : إلى متى يظل الحال هكذا ؟ إن الوضع مقلوب ، فالمشتغلون بالأدب أولى باحتضان التصوف ، لأن الإنتاج الصوفى — فى كثير من الأحوال — درر من المنظوم والمنثور ، والصوفية أنفسهم قوم يصرحون أن مذهبهم لا يعنى بالعقل إلا فى مراحل البداية من أجل تصحيح الإيمان ، أما طريقهم بعد ذلك فوثيق الصلة بالقلب والوجدان ، فهم بذلك يقتربون من أهل الفن وينأون عن أهل العقل ، هم فى حاجة إلى من يتذوق أقوالهم أكثر مما هم فى حاجة إلى من يتفكر فيها ، وتجربتهم فى الفناء تدنو من تجربة الإلهام فى الفن ، ومصطلحاتهم التى وضعوها لأنفسهم تنم عن بصر نافذ فى الأسلوب العربى والاشتقاق ، وهكذا يفرض الإنتاج الصوفى نفسه على الدراسات الأدبية ، بينما للمشتغلون بهذه الدراسات لا يكادون يحركون ساكناً .

وليس بمقول أن أقنع القارىء بمجدى دراسة « اللطائف » من الناحية الأدبية بواسطة هذه السطور القليلة ، فهذا له مكان آخر ، إنما قصدت لأثير قضية عامة قد يؤدى الأخذ بها إلى تصحيح كثير من المقاييس التى تتصل بالتصوف والأدب على حد سواء .

وفى تقديرنا أن منهج القشيري فى استخراج الإشارة من العبارة منهج أدبى ، لأنه يعتمد على تذوق اللفظة — مفردة ومركبة — تذوقاً ينبى على أصول من اللغة والاشتقاق والإعراب والبلاغة ، ثم إن التعبير الذى يفصح به القشيري تعبير أدبى له خصائص الأسلوب الأدبى والصياغة الفنية ، ومعنى هذا أنه نظر للقرآن بمنظار أدبى وعبر عن نظراته بطريقة أدبية ، وليس أدخل فى التفسير الأدبى من منهج كهذا ، حيث استكمل ناحيتين : أدب المفسر وأدب المفسر .

حقاً إن القرآن كتاب دين وهداية وتشريع وعلم وغير ذلك مما يمكن أن تخرج إليه لأقاصد الإنسانية تلمس فيه زاداً ينمي للمعارف ، ويثري العلوم ، ويفتح مغاليق الأمور . ولكنه قبل كل ذلك معجزة فنية بهرت سامعيها أول ما بهرتهم بالبيان ، والنظم ، والقول ، فوجدوا لذلك حلاوة ، وعليه طلاوة ، وهم أهل لسان وفصاحة ، فنحن نعلم أن المعجزة تكون من جنس معجزات المخاطبين ولسكنها من حيث الدرجة أعلى قدراً وأصعب دركاً وأعز مثلاً .

نخرج من هذا إلى أن دراسة إعجاز القرآن إن أغفلت تفسيراً كاللطائف — راعي فيه صاحبه أدب المفسر وأدب المفسر — إنما تغفل عن رافد غني من روافد الدراسات القرآنية . ويمكن أن نضرب أمثلة سريعة توضح طريقة التفسير عندنا ينصدي لبعض الجوانب في الأسلوب القرآني .

فمن اللفظة المفردة تنبعث إيماءات جميلة مؤثرة تزيد للمعنى قوة وتأكيذاً ؛ كأن يقول عند قوله تعالى : « بل هم في شك يلعبون » : اللعب فعل يجري على غير ترتيب ، تشبيهاً باللعب الذي يسيل لا على نظام مخصوص ، فوصف المنافق باللعب تصويراً لتردده وتغيره وشكه في عقيدته .

والتسبيح عنده مرتبط « بالسباحة في بحار التوحيد بلا شاطئ » ، فبعدما حصلوا فيها فلا خروج ولا براح فخازت أيديهم جواهر التفريد ، نظموها في عقود الإيمان ورصعوها في أطواق الوصلة .

والفجر « انفجار الصبح كما يتفجر الماء من الصخر » .

ومن القصة تنبعث إيماءات ممتعة ؛ فريم حين خطبت « وهزى إليك بجذع النخلة » : كان ذلك الجذع اليابساً أخرج الله سبحانه في الوقت الرطب الجنى ، وكان ذلك آية ودلالة على أن الذي قدر على فعل هذا قادر على خلق عيسى عليه السلام من غير أب ، وقد أمرت بهز النخلة اليابسة حينما جاءت علاقة الولد بعد أن كانت لا تتكلف السعى إذ كان زكريا يدخل عليها المحراب فيجد عندها رزقا ، أمرت بهز النخلة وهي في أضعف حالها زمان قرب عهدها بوضع الولد ليعلم أن العلاقة توجب المشقة والعناء ، أمرت بهز النخلة اليابسة وأمكنها ذلك وهي في حال ضعفها وفي ذلك أوضح دلالة على صدقها

وإذا ضرب القرآن مثلاً بالكلب أو الذبابة أو البعوضة أو التي تقضت غزلها من بعد قوة ، فإن هذا التصوير القرآني الأخاذ له على وجاهان القشيري الأديب وقع مؤثر ، يقول مثلاً (. . . .) وضرب المثل بالبعوضة لأنها إذا جاعت فرّت وطارت ، وإذا شبعت تشقت وتلفت ، كذلك الإنسان ليظن أن رآه استغنى . « وما فوقها » أي الذباب ، وجهة الإشارة في أن للذباب وقاحة حيث يعود عند البلاغ في الذب ، والله سبحانه خلق القوة في الأسد ولكنه خلق فيه النفود من الناس ، وخلق الضعف في الذباب ، ولكنه خلق فيه الوقاحة ، وتلك حكمة الله) .

والمظاهر الكونية في القرآن مصادر إشارات لا تنتهى وهى من أقوى الوسائل التي استغلها القشيري لتوضيح حقائق العلم الصوفي فالشمس والقمر ، والليل والنهار ، والجبال والبحار ، والسحب والأمطار : كلها توحى بعمان كثيرة لتوضيح الفروق الدقيقة بين الطوابع والوابع واللوائح ، وعلم اليقين وحق اليقين ، وعلوم الإنسان العقلية والمعارف الدنية إلى آخره .

يقول عند « كلا والقمر » : أقمار العلوم إذا أخذ هلالها في الزيادة بزيادة البراهين فإنها تزداد حتى إذا صارت إلى حد التمام وبلغت الغاية تبدو أعلام المعرفة ، ثم تأخذ علوم البراهين في النقصان حين تطلع شمس المعرفة ، وكما أن القمر كلما قرب من الشمس يزداد نقصانه حتى يصير محاقاً كذلك إذا ظهر سلطان المرفان تأخذ أقمار العلوم في النقصان بزيادة المعارف كالسراج في ضوء الشمس) .

وتوقف القشيري طويلاً عند المواقف النفسية وعند الاستدلالات الوجدانية في الأسلوب القرآني فكشف الكثير من أسرار الإعجاز القرآني كما أبان عن عبقريته في التذوق الفني ، وليس ذلك غريباً بالنسبة لصوفي ذي بصيرة كاشفة ، وشاعر له حس دقيق مرهف ، وباحث متعمق في أغوار النفس البشرية ، وأديب يحسن التعبير عما يذوق ويمجد .

نفعا الله بعلمه وبركته ما

دكتور إبراهيم بسيوني

نرمز للنسخة السوفيتية المصورة بالحرف (ص)
ونرمز للنسخة المصرية بالحرف (م)
ونرمز للرسالة القشيرية ط الحلبي سنة ١٩٥٩ (بالرسالة)

[illegible]

۱۰۰
 ۱۰۱
 ۱۰۲
 ۱۰۳
 ۱۰۴
 ۱۰۵
 ۱۰۶
 ۱۰۷
 ۱۰۸
 ۱۰۹
 ۱۱۰
 ۱۱۱
 ۱۱۲
 ۱۱۳
 ۱۱۴
 ۱۱۵
 ۱۱۶
 ۱۱۷
 ۱۱۸
 ۱۱۹
 ۱۲۰
 ۱۲۱
 ۱۲۲
 ۱۲۳
 ۱۲۴
 ۱۲۵
 ۱۲۶
 ۱۲۷
 ۱۲۸
 ۱۲۹
 ۱۳۰
 ۱۳۱
 ۱۳۲
 ۱۳۳
 ۱۳۴
 ۱۳۵
 ۱۳۶
 ۱۳۷
 ۱۳۸
 ۱۳۹
 ۱۴۰
 ۱۴۱
 ۱۴۲
 ۱۴۳
 ۱۴۴
 ۱۴۵
 ۱۴۶
 ۱۴۷
 ۱۴۸
 ۱۴۹
 ۱۵۰
 ۱۵۱
 ۱۵۲
 ۱۵۳
 ۱۵۴
 ۱۵۵
 ۱۵۶
 ۱۵۷
 ۱۵۸
 ۱۵۹
 ۱۶۰
 ۱۶۱
 ۱۶۲
 ۱۶۳
 ۱۶۴
 ۱۶۵
 ۱۶۶
 ۱۶۷
 ۱۶۸
 ۱۶۹
 ۱۷۰
 ۱۷۱
 ۱۷۲
 ۱۷۳
 ۱۷۴
 ۱۷۵
 ۱۷۶
 ۱۷۷
 ۱۷۸
 ۱۷۹
 ۱۸۰
 ۱۸۱
 ۱۸۲
 ۱۸۳
 ۱۸۴
 ۱۸۵
 ۱۸۶
 ۱۸۷
 ۱۸۸
 ۱۸۹
 ۱۹۰
 ۱۹۱
 ۱۹۲
 ۱۹۳
 ۱۹۴
 ۱۹۵
 ۱۹۶
 ۱۹۷
 ۱۹۸
 ۱۹۹
 ۲۰۰

رَبِّ يَسَّرَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي شرح قلوب أوليائه بعرفاته ، وأوضح نهج الحق بلائحه برهانه ، لمن أراد طريقه ، وأتاح البصيرة لمن ابتغى تحقيقه ، وأزل الفرقان هذى وتبانا ، على صفته محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله — معجزة وبيانا ، وأودع صدور العلماء معرفته وتأويله ، وأكرمهم بعلم قصصه ونزوله ، ورزقهم الإيمان بحُكْمِهِ ومتشابهه وناسخه ، ووعدوه ووعدده ، وأكرم الأصفياء من عباده بفهم ما أودعه من لطائف أسرارهِ وأز (واره) لاستبصار ماضيه من دقيق إشاراته ، وخفي رموزه ، بما لوح لأسرارهم من مكنونات ، فوقفوا بما خُصوا به من أنوار الغيب على ما استتر عن أغيارهم ، ثم نطقوا على مراتبهم وأقدارهم ، والحق سبحانه وتعالى يلهمهم بما به يكرمهم ، فهم به عنه ناطقون وعن لطائفه مخبرون^(١) وإليه يشيرون ، وعنه يفصحون ، والحكمُ إليه في جميع ما يأتون به ويدرون .

قال الإمام جمال الإسلام أبو القاسم القشيري رحمه الله : وكتابتنا هذا يأتي على ذكر طرف من إشارات القرآن^(٢) على لسان أهل المعرفة ، إما من معاني مقولهم ، أو قضايا أصولهم ، سلكتنا فيه طريق الإقلا (ل) خشية اللال ، مستمدين من الله تعالى عوائد اللئنة ، متبرئين من الحول واللئنة^(٣) مستعصين من الخطأ والخلل ، مستوفقين لأصوب القول والعمل ، ملتزمين أن يصلوا على سيدنا محمد صلى الله عليه و (سلم) ، لينتقم لنا بالحسنى بمنه وأفضاله . ويسر الأخذ

(١) وردت في من (مخبرون) والسياق لا يتطلبها .

(٢) ما نمته خط هو تشكيلة اعتمدنا في إثباتها هنا على ما جاء في (تذكرة النوادر) التي اقتبست بضع

فقرات رجوعاً إلى نسخة أخرى .

(٣) اللئنة بضم الليم القوة .

في ابتداء هذا الكتاب في شهور سنة أربع وثلاثين وأربعمائة^(١) ، وعلى الله إتمامه .
إن شاء الله تعالى عز وجل .

سورة فاتحة الكتاب .

هذه السورة بدا (ية) الكتاب ، ومفاتيح الأحياب بالخطاب والكتاب منه أجل
النعمى ، وأكرم الحسنى إذ هي (. . .)^(٢) وابتداء وفي مناه قيل .

أفديك بل أيام دهرى كلها تفدين أياماً (. . . .)
سقياً لمعهدك الذى لو لم يكن ما كان قلبى للصباة معهداً^(٣)

ولقد كان صلى الله عليه وسلم غير مُرتَقِبٍ لهذا الشأن ، وما كان هذا الحديث منه على
بال ، وحينما نزل عليه جبريل صلوات الله عليه وسلامه أخذ في الفرار ، وآثر التباعد لهذا
الامر آوى (. . .) قائلاً : دثرونى دثرونى ، زملونى زملونى ، وكان يتحنث في حراء ، ويخلو
هنالك (. . .) فجأة ، وصادفته القصة بغنة كما قيل :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبى فارغاً فتمكناً^(٤)

وكان صلوات الله عليه وسلم رضى بأن يقال له أجير خديجة ولكن (الحق سبحانه وتعالى
أراد له لأن)^(٥) يكون سيد الأولين والآخرين حيث قال . «يس والقرآن الحكيم» (رفعه إلى)
أشرف النازل وإن لم يسم إليه بطرف التأمل سنة منه تعالى وتقدس (. . .) إلا عند من
تقاصرت الأوهام عن استحقاقه ، ولذلك ما قصوا العجب من شأنه (. . .) ينم أبى طالب

(١) اعتمدنا في استكمال وفقى الأحاد والمثارات من السنة على (تذكرة النوادر) حيث سقط في م .
وبهذا يبطل قول صاحب كشف الظنون (المجلد الثانى م ١٥٥١) بأن القشيري ألف اللطائف قبل
عام ٤١٠ ، ويبدو أن الأمر قد التبس على حاجي خليفة فظن تاريخ تأليف « التيسير في التفسير » هو
تاريخ تأليف « اللطائف » .

(٢) ما بين الأقواس المفرغة ساقط في م ومن حسن الحظ أن السقوط الكثير على هذا النحو لا يتكرر
بمد الورقتين الأولى والثانية من (م) .

(٣) اعتمدنا في تكملة البيت على هذا النحو على وروده في (م) كاملاً عند تفسير سورة الحديد .

(٤) الشطر الثانى من البيت ناقص في (م) ومكمل في (م) عند تفسير آية : علم القرآن من سورة الرحمن

(٥) زيادة أضفناها ليستقيم المعنى .

من بين البرية ، ولقد كان صلوات الله عليه وسلم في سابق (علمه) سبحانه وتعالى مقدماً
على الكافة من أشكاله وأضرابه ، وفي معناه قيل :

هذا (. . .) أطار وكان في فقر من السيار
آثرٌ عندي (بالإكبار) من أخى (ومن) جارى
وصاحب درهم (والدينار) فإن صاحب الأمر مع الإكثار^(١)

ولقد كان صلى الله عليه وسلم قبل النبوة حميد الشأن ، (محمود) الذكر ، ممدوح الإسم ،
أميناً لكل واحد . وكانوا يسمونه محمداً الأمين ، ولكن (الكافرين) (. . .) حالته ،
بدلوا اسمه ، وحرّفوا وصفه ، وهجنوا ذكره ، فواحد كان يقول ساحر وآخر يقول (. . .)
وثالث يقول كاذب ، ورابع يقول شاعر :

أشاعوا لنا في الحى أشنع قصة وكانوا لنا سلفاً فصاروا لنا حرباً

وهكذا صفة المُنْجِب ، لا ينفك عن اللام ولكن كما قيل
أجد الملامة في هواك لذينة حباً لذكرك فليعلمنى اللوم^(٢)

وماذا عليه من قبيح قاله (من) يقول ، (والحق سبحانه يقول) : « ولقد نعلم أنك
يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك » أى استمع إلى ما يقال فيك بحسن الثناء علينا .
[فصل] وتسمى هذه السورة أيضاً أم الكتاب ، وأم الشيء أصله ، وإمام كل شيء
مقدمه . وهذه السورة لما تشتمل عليه من الأمر بالعبودية ، والثناء على الله بجمال الربوبية ،
ثم^(٣) كمالها من الفضائل — لا تصح الفرائض إلا بها . وقوله صلى الله عليه وسلم مخبراً عنه
سبحانه وتعالى : « قسمت الصلاة بيني وبين عبدتي نصفين » يعنى قراءة هذه السورة ،
فصارت أم الكتاب ، وأصلاً لما تنبئ عليه من لطائف الكرامات وبدائع التقريب والإيجاب .

(١) أضاع البياض الذى فى الصورة كثيراً من ألفاظ هذه الآيات فحاولنا إضافة بعض الألفاظ .
وإن كان وزن الشعر ما زال غير سليم .
(٢) وردت خطأً فى (ص) : فليعلمنى اللوم .
(٣) لا نستبعد أن تكون فى الأصل (ثم) كمالها ...

قوله جل ذكره : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

الباء في «بسم الله» حرف التضمين ؛ أي بالله ظهرت الحادثات ، وبه وجدت المخلوقات ، فما من حادث مخلوق ، وحاصل منسوق ، من عين وأثر وغير ، وغير من حجر ومدر ، ونجم وشجر ، ورسم ومطلل ، وحكم وعال — إلا بالحق وجوده ، والحق ملكه ، ومن الحق بدؤه ، وإلى الحق عوده ، فيه وَجَدَ مَنْ وَجَدَ ، وبه جمعد من أُلِدَ^(١) ، وبه عرف من اعترف ، وبه تخلف من اقترف .

وقال «بسم الله» ولم يقل بالله على وجه التبرك بذكر اسمه عند قوم ، وللفرق بين هذا وبين القسم عند الآخرين ، ولأن الاسم هو المسمى عند العلماء ، ولاستصفاء القلوب من العلائق ولاستخلاص الأسرار عن العوائق عند أهل العرفان ، ليكون ورود قوله «الله» على قلب مُنْقَى وَسِرٍّ مُصَفًّى . وقوم عند ذكر هذه الآية يتذكرون من الباء (بره)^(٢) بأوليائه ومن السنين سره مع أصفياه ومن الميم منته على أهل ولايته ، فيعلمون أنهم يبره عرفوا سره ، ويمنته عليهم حفظوا أمره ، وبه سبحانه وتعالى عرفوا قدره . وقوم عند سماع بسم الله تذكروا بالباء براءة الله سبحانه وتعالى من كل سوء ، وبالسين^(٣) سلامته سبحانه عن كل عيب ، وبالميم مجده سبحانه بمر وصفه ، وآخرون يذكرون عند الباء بهاءه ، وعند السين سنائه ، وعند الميم ملكه ، فلما أعاد الله سبحانه وتعالى هذه الآية أعنى بسم الله الرحمن الرحيم في كل سورة وثبت أنها منها أردنا أن نذكر في كل سورة من إشارات هذه الآية^(٤) كلمات غير مكررة^(٥) ، وإشارات غير معادة ، فلذلك نستقصي القول ها هنا وبه الثقة .

(١) وردت في من (الحد) .

(٢) سقطت في من وأثبتناها لأن ما بعدها يدل عليها .

(٣) وردت في من (بالسين) .

(٤) من هنا ندرك أن القشيري يعتبر السمة قرآنا خلافاً لمن يعدونها من قبيل الاستفتاح والتبرك ، فتبدأ بها القراءة كما يفعل في سائر الأعمال (أنظر المعنى للقاضي عبد الجبار ج ١١ ط وزارة الثقافة سلسلة تراننا ص ١٦١) .

(٥) من هنا وما نعلم من مذهب القشيري نراه لا يعتد في فكرة التكرار في القرآن لأن التكرار ألبق بالمخلوقين ولأسباب أخرى لا محل لها هنا .

حقيقة الحمد الثناء على المحمود ، بذكر نعوته الجليلة وأفعاله الجميلة ، واللام هنا للجنس ، ومقتضاها الاستغراق ؛ فجميع المحامد لله سبحانه إمّا وصفاً وإمّا خلقاً ، فله الحمد لظهور سلطانه ، وله الشكر لوفور إحسانه . والحمد لله لاستحقاقه لجلاله وجماله ، والشكر لله لجزيل نواله وعزيز أفضاله ، فحمده سبحانه له هو من صفات كماله وحواله ، وحمد الخلق له على إنعامه وطووله ، وجلاله وجماله استحقاقه لصفات العلو ، واستيجابه لنعوت العز والسمو ، فله الوجود (قدرة) ^(١) القديم ، وله الجود الكريم ، وله الثبوت الأبدى ، والكون الصمدى ، والبقاء الأزلى ، والبهاء الأبدى ، والثناء الديموى ، وله السمع والبصر ، والقضاء والقدر ، والكلام والقول ، والعزة والطول ، والرحمة والجود ، والعين والوجه والجمال ، والقدرة والجلال ، وهو الواحد للتعالي ، كبرياؤه رذاؤه ، وعلاؤه سناؤه ، وبجده عزه ، وكونه ذاته ، وأزله أبده ، وقدمه سرمده ، وحقه يقينه ، وثبوتة عينه ، ودوامه بقاءه ، وقدره قضاؤه ، وجلاله جماله ، ونهيه أمره ، وغضبه رجمته ، وإرادته مشيئته ، وهو الملك يجبروته ، والأحد فى ملكوته . تبارك الله سبحانه ۱ ۱ فسبحانه ما أعظم شأنه ۱

[فصل] نعلم الحق سبحانه وتعالى شدة إرادته أوليائه بحمده وثنائه ، وعجزهم عن القيام بحق مدحه على مقتضى عزه وسنائه فأخبرهم أنه سجد نفسه بما افتتح به خطابه بقوله : « الحمد لله » فاتعشوا بعد الذلة ، وعاشوا بعد الخمود ، واستقلت أسرارهم بكمال التعزز حيث سمعوا ثناء الحق عن الحق بخطاب الحق ، فنطقوا ببيان الرمز على قضية الأشكال . وقالوا :

ولوجهها من وجهها قمر ولعينها من عينها كحل

هذا خطيب الأولين والآخرين ، سيد الفصحاء ، وإمام البلغاء ، لما سمع حمده لنفسه ، ومدحه سبحانه لحقه ، علم النبي أن تقاصر اللسان أليق به فى هذه الحالة فقال : « لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » .

داوود لو سمعت أذناه قالتها لما ترنم بالألحان داوود
غنت سعاد بصوتها فتخاذلت ألحان داوود من الخجل

(١) هذه كلمة زائدة يمكن الاستغناء عنها ، ويرجح ذلك نظم الأسلوب وسياق المعنى ، أو ربما كانت (قدّمه) .

[فصل] وتتفاوت طبقات الحامدين لتباينهم في أحوالهم ؛ فطائفة حمدوه على ما نالوا من إنعامه وإكرامه من نوعي صفة نفعه ودفعه ، وإزاحته وإتاحتها ، وما عقلوا عنه من إحسانه بهم أكثره ما عرفوا من أفضاله معهم قال جل ذكره : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » ، وطائفة حمدوه على ملاح لقلوبهم من عجائب لطائفه ، وأودع سرائرهم من مكنونات بره ، وكشف أسرارهم به من خفي غيبه ، وأفرد أرواحهم به من بواده مواجده . وقوم حمدوه عند شهود ما كشفهم به من صفات القدم ، ولم يردوا من ملاحظة العز والكرم إلى تصفح أقسام النعم ، وتأمل خصائص القسم ، و (فرق بين)^(١) من يمدحه بعز جلاله وبين من يشكره على وجود أفضاله ، كما قال قائلهم :

وما الفقر عن أرض المشيرة ساقنا ولكننا جئنا بقلبيك نسعد

وقوم حمدوه مُستَهْلِكِينَ عنهم فيما استنطقوا من عبارات تحميده ، بما اصطلح أسرارهم من حقائق توحيده ، فهم به منه يعبرون ، ومنه إليه يشيرون ، يُجْرِي عليهم أحكام التصريف ، وظواهرهم^(٢) بنمت النفرة مرعية ، وأسرارهم مأخوذة بحكم جمع^(٣) الجمع ، كما قالوا :

بيان بيان الحق أنت بيانه وكل معاني الغيب أنت لسانه

قوله جل ذكره : ﴿ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾

الرب هو السيد ، والعالمون جميع المخلوقات ، واختصاص هذا الجمع بلفظ العالمين لاشتماله على العقلاء والجمادات فهو مالك الأعيان ومنشئها ، وموجد الرسوم والديار بما فيها . ويدل اسم الرب أيضاً على تربية الخلق ، فهو مُرَبِّ نفوس العابدين بالتأييد ومربِّ قلوب الطالبين بالتسديد ، ومربِّ أرواح العارفين بالتوحيد ، وهو مربِّ الأشباح بوجود النعم ، ومربِّ الأرواح بشهود الكرم .

ويدل اسم الرب أيضاً على إصلاحه لأمر عباده من ربيت العديم أربه ؛ فهو مصلح أمور الزاهدين بجميل رعايته ، ومصلح أمور العابدين بحسن كفايته ، ومصلح أمور الواجدین

(١) وردت (وفر ...) ثم بعدها يباين فأكلناها على هذا النحو ليم المعنى .

(٢) وردت (وظاهرهم) ولكن السياق يقتضي ما أثبتناه .

(٣) وردت (جميع الجمع) ولكن الاصطلاح الصواب هو جمع الجمع وهو درجة فوق الجمع وجمع الجمع هو الاستهلاك بالسكية وفناء الإحساس بما سوى الله (رسالة القشيري ط سنة ١٩٥٩ م ص ٢٩) .

بقديم عنايته ، أصلح أمور قوم فاستغنوا بعبائهم ، وأصلح أمور آخرين فاشتاقوا للقاءه ،
وثالث أصلح أمورهم فاستقاموا للقاءه ، قال قائلهم :

مادام عزك مسوداً طواله فلا أبالي أعاش الناس أم فقدوا

قوله جل ذكره : ﴿الرحمن الرحيم﴾^١

اسمان مشتقان من الرحمة ، والرحمة صفة أزلية وهي إرادة النعمة وهما اسمان موضوعان
للمبالغة ولا فضل بينهما عند أهل التحقيق .

وقيل الرحمن أشد مبالغة وأتم في الإفادة ، وغير الحق سبحانه لا يسمى بالرحمن على الإطلاق ،
والرحيم ينعت به غيره ، وبرحمته عرف المبدأ أنه الرحمن ، ولولا رحمته لما عرف أحد أنه الرحمن ،
وإذا كانت الرحمة إرادة النعمة ، أو نفس النعمة كما هي (عند قوم فالنعم في أنفسها مختلفة ،
ومراتبها متفاوتة فنعمة هي)^(١) نعمة الأشباح والظواهر ، ونعمة هي نعمة الأرواح والسرائر .

وعلى طريقة من فرق بينهما فالرحمن خاص الاسم عام للمعنى ، والرحيم عام الاسم خاص
للمعنى ؛ فلأنه الرحمن رزق الجميع ما فيه راحة ظواهرهم ، ولأنه الرحيم وفق المؤمنين لما به
حياة سرائرهم ، فالرحمن بما روح ، والرحيم بما لوح ؛ فالترويح بالسيار ، والتلويح بالأنوار ؛
والرحمن بكشف تجليته والرحيم بلطف توليته ، والرحمن بما أولى من الإيمان والرحيم
بما أسدى^(٢) من العرفان ، والرحمن بما أعطى من العرفان والرحيم بما تولى من الغفران ،
بل الرحمن بما ينعم به من الغفران والرحيم بما يسئ به من الرضوان ، بل الرحمن بما يكتم به
والرحيم بما ينعم به من الرؤية والعيان ، بل الرحمن بما يوفق ، والرحيم بما يحقق ، والتوفيق
للمعاملات ، والتحقيق للمواصلات ، فالمعاملات للقاصدين ، والمواصلات للواجدين ، والرحمن
بما يصنع لهم والرحيم بما يدفع عنهم ؛ فالصنع بجميل الرعاية والدفع بحسن العناية .

قوله جل ذكره : ﴿مالك يوم الدين﴾

المالك من له الملك ، ومالك الحق سبحانه وتعالى قدرته على الإبداع ،
فالملك مبالغة من المالك وهو سبحانه الملك المالك ، وله الملك . وكما لا إله إلا هو
فلا قادر على الإبداع إلا هو ، فهو بإلهيته متوحد ، وبملكه متفرد ، ملك نفوس
العابدين فصرفها في خدمته ، وملك قلوب العارفين فشرّفها بعرفته ، وملك نفوس القاصدين

(١) تسكّلة في الهامش استدرك بها النسخ فأثبتها في موضعها .

(٢) وردت (أسرى) والأصح (أسدى) .

فتيسبها ، وملك قلوب الواجدین فيهمها . ملك أشباح من عبده فلاطفها بنواله وأفضاله ، وملك أرواح من أحبهم (. . .)^(١) فكاشفها بنعت جلاله ، ووصف جماله . ملك زمام أرباب التوحيد فصرفهم حيث شاء على ما شاء ووفقهم حيث شاء على ما شاء كما شاء ، ولم يكلّمهم إليهم لحظة ، ولا ملكهم من أمرهم سنة ولا خطرة ، وكان لهم عنهم ، وأفناؤهم له منهم^(٢) .

[فصل] ملك قلوب المابدين إحسانه فطمعوا في عطائه ، وملك قلوب الموحدين سلطانه فقتعوا ببقائه . عرف أرباب التوحيد أنه مالكم فسقط عنهم اختيارهم ، علموا أن العبد لا ملك له ، ومن لا ملك له لا حكم له ، ومن لا حكم له لا اختيار له ، فلا لهم عن طاعته إعراض ولا على حكمه اعتراض ، ولا في اختياره معارضة ، ولا لمخالفته تعريض ، « ويوم الدين » . يوم الجزاء والنشر ، ويوم الحساب والحشر — الحق سبحانه وتعالى يجزى كلاً بما يريد ، فمن بين مقبول يوم الحشر بفضل سبحانه وتعالى لا بفعلهم ، ومن بين مردود بحكمه سبحانه وتعالى لا بجورهم . فأما الأعداء فيحاسبهم ثم يعذبهم وأما الأولياء فيعاتبهم ثم يقربهم :

قوم إذا ظفروا بنا جادوا بعتق رقابنا

قوله جل ذكره : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾

معناه نعبدك ونستعين بك . والابتداء بذكر المعبود أتم من الابتداء بذكر صفته — التي هي عبادته واستعانتة ، وهذه الصيغة أجزل في اللفظ ، وأعذب في السمع . والعبادة الإتيان بغاية مافي (بابها)^(٣) من الخضوع ، ويكون ذلك بموافقة الأمر ، والوقوف حيثما وقف الشرع . والاستعانة طلب الإعانة من الحق .

والعبادة تشير إلى بذل الجهد والمئة ، والاستعانة تخبر عن استجلاب الطول والمئة ، فبالعبادة يظهر شرف العبد ، وبلاستعانة يحصل اللطف للعبد . في العبادة وجود شرفه ، وبلاستعانة أمان تلفه . والعبادة ظاهرها تذل ، وحقيقتها تعزز وتحمل :

وإذا تزلزلت الرقاب تقرباً منّا إليك ، فعزّها في ذلّها

(١) مشبهة في من ، وربما كانت (وأحبوه)

(٢) (له) هنا معناها لأجله أي أنه أفناهم من أنفسهم لأجله ليبقوا به ، وكان الأسلم أن تكون العبارة : وأفناؤهم منهم له ولكن حرم المصنف على مراعاة الانسجام بين عنهم ومنهم .

(٣) وردت (بابها)

وفي معناه :

حين أسَلَمْتَنِي لِذَالٍ وَلامٍ أَلْقَيْتَنِي فِي عَيْنِ وَزَاي^(١)

[فصل] العبادَة نزهة القاصدين^(٢) ، ومستروح المريدين ، ومربع الألس للمعجبين ، ومرتع البهجة للعارفين . بها قُرَّةُ أعينهم ، وفيها مسرة قلوبهم ، ومنها راحة أرواحهم . وإليه^(٣) أشار صلى الله عليه وسلم بقوله : أَرِحْنَا بِهَا يَا بِلَالُ . ولقد قال مخلوق في مخلوق :

يا قوم ثارى عند أَمَمائى يعرفه السامع والرائى
لا تدعنى إلا يساعدها فإنه أصدق أَمَمائى

والاستماعة إجلالك لنعوت كرمه ، ونزلك بساحة جوده ، ونسليمك إلى يد حكمه ، فتقصده بأمل فسيح ، وتخطو إليه بخطو وسيع ، وتأمل فيه برجاه قوى^(٤) ، وتثق بكرم أزلى ، وتشكل على اختيار سابق ، وتمتص بسبب جوده (غير ضعف)^(٥) .

قوله جل ذكره : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾

الهداية الإرشاد ، وأصلها الإمالة ، والمهدى من عرف الحق سبحانه ، وآثر رضاه ، وآمن به . والأمر في هذه الآية مضمّر ، فمعنا : اهدنا بنا^(٦) — والمؤمنون على الهداية في الحال — فمعنى السؤال الاستدانة والاستزادة . والصراط المستقيم الطريق الحق وهو ما عليه أهل التوحيد . ومعنى اهدنا أى ملّ بنا إليك ، وخُذْنَا لَكَ ، وكن علينا دليلنا ، ويسّرْ إلينا سبيلنا ، وأقم لنا هممنا ، واجمع بك همومنا .

[فصل] اقطع أسرارنا عن شهود الأغيار ، ولوّح في قلوبنا طوابع الأنوار ، وأفرّد

(١) وردت و (زار) (٢) وردت (القاصرين) (٣) أى وإلى ذلك أشار

(٤) وردت (قوى) وهى غير مناسبة للمعنى .

(٥) إما أن تكون زائدة أو ينقصها حرف الجر في فتكون (لى غير ضعف) أو تكون (غير ضعف) (أساس البلاغة ص ٥٦٣) أى غير متكرر بالأسباب لجلب المال .

(٦) ويكون المعنى على هذا أقم فينا ما يجعلنا نهتدى به إليك ، ولكن ترجح أن يكون قد وقع خطأ من الناسخ وأن الأصل (اهدنا بك) لأن ذلك يتفق مع مذهب التشيرى وغيره من الصوفية حيث يتبرون كل شيء يقع من المبد مرده إلى الحق سبحانه ، فلا قدرة للعبد — وحده — على معرفة الله ، ولا على الاهتداء إليه ، وتدل الدلائل فيما بعد على ذلك مثل قوله (فتجدك بك) . وإما أن يكون الأصل (اهد بنا) أى — كما جاء فيها بعد — ملّ بنا .

قصودنا إليك عن دَئس الآثار ، ورقنا عن منازل الطلب والاستدلال إلى تجمع ساحات القرب والوصال .

[فصل] حلّ بيننا وبين مساكنة^(١) الأمثال والأشكال ، بما تلافنا به من وجود الوصال ، وتكاشفنا به من مشهود الجلال والجمال .

[فصل] أرشدنا إلى الحق لئلا تتشكل على وسائط المعاملات ، ويقع على وجه التوحيد غبار الظنون وحسبان الإعلال .

« اهدنا الصراط المستقيم » أي : أزل عنا ظلمات أحوالنا لتستضيء^(٢) بأنوار قدسك عن النفير بظلال طلبنا ، وارفع عنا ظل جهدنا لتستبصر بنجوم جودك ، فتجده بك .

[فصل] اهدنا الصراط المستقيم حتى لا يصحبنا قرين من نزغات الشيطان ووساوسه ، ورفيق من خطرات النفوس وهو اجسها ، أو يصدنا عن الوصول تعريج في أوطان التقليد ، أو يحول بيننا وبين الاستبصار ركون لى معتاد من التلقين ، وتستهويننا آفة من نشو أو هوادة ، وظن أو عادة ، وكل أو ضعف إرادة ، وطمع مالي أو استزادة .

[فصل] الصراط المستقيم ما عليه من الكتاب والسنة دليل ، وليس للبدعة عليه سلطان ولا إليه سبيل . الصراط المستقيم ما شهدت بصحته دلائل التوحيد ، ونهت عليه شواهد التحقيق . الصراط المستقيم ما درجَ عليه سلف الأمة ، ونطقت بصوابه دلائل العبرة . الصراط المستقيم ما باين الحظوظ سالكه ، وفارق^(٣) الحقوق قاصده . الصراط المستقيم ما يفيض بسالكة إلى ساحة التوحيد ، ويشهد صاحبه أثر العناية والجود ، لئلا يظنه موجب (ببذل)^(٤) المجهود .

(١) وردت (ساكنة) والأصح بالميم فقد جاءت كذلك في مواضع كثيرة أخرى .

(٢) وردت خطأ (لتستضيء) .

(٣) وردت (وفارن) في م ، والأصح أن تكون بالقاف ، فالخطوط للعبد والحقوق للحق .

(٤) وردت (بذل) بدون ياء والأقوى في رأينا أن تكون بالباء وأن نقرأ موجب بفتح الجيم أي مستحق ، وبذلك يتضح موقف القشيري من قضية هامة وهي : هل يجب على الله أن ينيب المطيع ؟ ولا يرى القشيري هذا الوجوب لأنه يربط كل عمل للعبد بالنهاية الإلهية لا بالمجهود الإنساني . وقد صدق الرسول (ص) حين قال : « ما منكم من أحد ينجي عمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتشمدني الله برحمته » .

قوله جل ذكره : ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾

يعنى طريق من أنعمت عليهم بالهداية إلى الصراط المستقيم ، وهم الأولياء والأصفياء .
ويقال طريق من (أفينهم)^(١) عنهم ، وأقنهم بك لك ، حتى لم يقفوا في الطريق ، ولم تصدم
عنك خفايا المكر . ويقال صراط من أنعمت عليهم بالقياس بمحقوقك دون التعرّيج على
استجلاب حظوظهم .

ويقال صراط من (طهرنهم)^(٢) عن آثارهم حتى وصلوا إليك بك .

ويقال صراط من أنعمت عليهم حتى تحرروا من مكائد الشيطان ، ومغاليل^(٣) النفوس
ومخاييل الظنون ، وحسابات الوصول قبل خمود آثار البشر (ية) .

ويقال صراط من أنعمت عليهم بالنظر والاستعانة بك ، والتبرّى من الحول والقوة ،
وشهود ماسبق لهم من السعادة في سابق الاختيار ، والعلم بتوحيدك فيما تُخصيه من المسار والمضار .

ويقال صراط الذين أنعمت عليهم بحفظ الأدب في أوقات الخدمة ، واستشمار نعت الهيبة .

ويقال صراط الذين أنعمت عليهم بأن حفظت عليهم آداب الشريعة وأحكامها عند
غلبات (بواده)^(٤) الحقائق حتى لم يخرجوا عن حد العلم ، ولم يُخلّوا بشيء من أحكام الشريعة .
ويقال صراط الذين أنعمت عليهم حتى لم تطفئ شمس معارفهم أنوار ورعهم ولم يُضيّعوا شيئاً
من أحكام الشرع^(٥) .

ويقال صراط الذين أنعمت عليهم بالعبودية عند ظهور سلطان الحقيقة .

قوله جل ذكره : ﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾

(١) وردت (أفنهم) في س

(٢) وردت (طهرنهم) في س

(٣) وردت (مغاليل) في س

(٤) وردت (بواد)

(٥) تلاحظ أن التشيرى يلح كثيراً على التزام آداب الشريعة مهما غلبت على العبد سطوة الانحاء ،
واستلبه سلطان الغناء ، ويحسن هنا أن نشير إلى اصطلاح في مذهب التشيرى وهو الفرق الثانى ومن حالة
مريضة يرد عندها العبد إلى الصحو لكن يؤدي ما يجب عليه من الفرائض في أوقاتها ، ويكون رجوعه لله
بالله (انظر الرسالة التشريعية ص ٢٩) .

المغضوب عليهم الذين صدمتهم هواجم الخلدان^(١) ، وأدركتهم مصائب الحرمان ،
وزكبتهم سطوة الرد ، وغلبتهم بؤآده الصد والطرد .

ويقال هم الذين لحقهم ذل الهوان ، وأصابهم^(٢) سوء الخسران ، فشغلوا في الحال باجتلاب
الحلوظ — وهو في التحقيق (شقاء) ؛ إذ يحسبون أنهم على شيء ، ولحق في شقاؤهم سر .

ويقال هم الذين أنسوا بنفحات التقريب زماناً ثم أظهر الحق صبحانه في بابهم شائناً ؛ بدّلوا
بالوصول بعبادا ، وطعموا في القرب فلم يجدوا مراداً ، أولئك الذين ضلّ سعيهم ، وخاب ظنهم .

ويقال غير المغضوب عليهم بنسيان التوفيق ، والتعاضى عن رؤية التأييد . ولا الضالين
عن شهود سابق الاختيار ، وجريان التصارييف والأقدار .

ويقال غير المغضوب عليهم بتضييعهم آداب الخدمة ، وتقصيرهم في أداء شروط الطاعة .
ويقال غير المغضوب عليهم هم الذين تقطعوا في مفاوز الغيبة ، وتفرقت بهم المهوم
في أودية وجوه الحسبان .

[فصل] ويقول العبد عند قراءة هذه السورة آمين ، والتأمين سنة ، ومعناه يارب افعل
واستجب ، وكأنه يستدعى بهذه القالة التوفيق للأعمال ، والتحقيق للآمال ، وتحط رجليه
بساحات الافتقار ، ويناجي حضرة الكرم بلسان الابتهاال ، ويتوسل (بتبريه)^(٣) عن الحول
والطاقة والمثنة والاستطاعة إلى حضرة الجود . وإن أقوى وسيلة للفقير تعلقه بدوام الاستعانة
لتحققه بصدق الاستغاثة .

السورة التي تذكر فيها البقرة . . قوله تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

الاسم مشتق من السمو والسمة ، فسيل من يذكر هذا الاسم أن يتسم بظاهره بأنواع
المجاهدات ، ويسمو بهمة إلى تحالّ المشاهدات . فمن عديم سمة المعاملات على ظاهرة ، وفقد

(١) يقول القشيري في الرسالة (ومنهم من تغيرم البواده ونصرفه الهواجم ، ومنهم من يكون فوق
ما يفيجؤه حالا ووقتاً . . أولئك هم سادات الوقت) ص ٤٤ .

(٢) وردت (أحبايهم) . (٣) وردت (بيريته) والصواب (بتبريه) .

سُوُّ الهَيْبَةِ لِلْمَوَاصِلَاتِ بِسَرَائِرِهِ لَمْ يَجِدْ لَطَائِفَ الذِّكْرِ عِنْدَ قَالَتِهِ ، وَلَا كِرَامَتِ الْقُرْبِ فِي صِفَاءِ حَالَتِهِ .

[فصل] معنى الله : الذى له الإلهية ، والإلهية استحقاق نعوت الجلال . فعنى بسم الله : باسم من تفرَّد بالقوة والقدرة . الرحمن الرحيم من تَوَحَّدَ في ابتداء الفضل والنصرة . فسماح الإلهية يُوجِبُ الهَيْبَةَ وَالْإِصْطِلَامَ ، وسماح الرحمة يُوجِبُ الْقُرْبَةَ وَالْإِكْرَامَ . وَكُلُّ مَنْ لَاطَفَهُ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ عِنْدَ سَمَاعِ هَذِهِ الْآيَةِ رَدَّهُ بَيْنَ مَحْوٍ وَمَحْوٍ ، وَبَقَاءٍ وَفَنَاءٍ ، فَإِذَا كَاشَفَهُ بَنِعَتِ الْإِلَهِيَّةُ أَشْهَدَهُ جَلَالَهُ ، فَحَالَهُ مَحْوٍ . وَإِذَا كَاشَفَهُ بَنِعَتِ الرَّحْمَةُ أَشْهَدَهُ جَمَالَهُ فَحَالَهُ مَحْوٍ :

أَغْيِبْ إِذَا شَهِدَتْكَ ثُمَّ أَحْيَا فَمَنْ أَحْيَا لَدَيْكَ وَكَمْ أَيْدٍ

قوله جل ذكره : ﴿ الم ﴾

هذه الحروف المقطعة في أوائل السورة من التشابه الذى لا يعلم تأويله إلا الله — عند قوم ، ويقولون لكل كتاب سر ، وسر الله في القرآن هذه الحروف المقطعة . وعند قوم إنها مفاتيح أسمائه ، فالألف من اسم « الله » ، واللام يدل على اسمه « اللطيف » ، والليم يدل على اسمه « المجيد » ، و « الملك » .

وقيل أقسم الله بهذه الحروف لشرفها لأنها بسائط أسمائه وخطابه .

وقيل إنها أسماء السور .

وقيل الألف تدل على اسم « الله » واللام تدل على اسم « جبريل » والليم تدل على اسم « محمد » صلى عليه وسلم ، فهذا الكتاب نزل من الله على لسان جبريل إلى محمد صلى الله عليه وسلم .

والألف من بين سائر الحروف انفردت عن أشكالها بأنها لا تتصل بحرف في الخط وسائر الحروف تتصل بها إلا حروف يسيرة ، فينتبه العبد عند تأمل هذه الصفة إلى احتياج الخلق بجملتهم إليه ، واستغنائه عن الجميع .

ويقال يتذكر العبد المخلص ^(١) مِنْ حَالَةِ الْأَلْفِ تَقْدُّسَ الْحَقِّ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنِ النَّخْصِصِ

(١) وردت في ص (المخلص) وهي خطأ من الناسخ .

بالمكان ؛ فإن سائر الحروف لها محل من الخلق^(١) أو الشفة^(٢) أو اللسان إلى غيره من المدارج^(٣) غير الألف فإنها هويته ، لا تضاف إلى محل .

ويقال الإشارة منها إلى انفراد العبد لله سبحانه وتعالى فيكون كالألف لا يتصل بحرف ، ولا يزول عن حالة الاستقامة والاتصاف بين يديه .

ويقال يطالب العبد في سره عند مخاطبته بالألف بانفراد القلب إلى الله تعالى ، وعند مخاطبته باللام بلين جانبه في (مراعاة) حقه ، وعند سماع الميم بموافقة أمره فيها يكلفه .

ويقال اختص كل حرف بصيغة مخصوصة وانفردت الألف باستواء القامة ، والتميز عن الاتصال بشيء من أضرابها من الحروف ، فجعل لها صدر الكتاب إشارة إلى أن من تجرد عن الاتصال بالأمثال والأشغال حظى بالرتبة العليا ، وفاز بالدرجة القصوى ، وصلاح للتخاطب بالحروف المنفردة التي هي غير مركبة ، على سنة الأحياء في ستر الحال ، وإخفاء الأمر على الأجنبي من القصة — قال شاعرهم :

قلت لها قفينا قالت . قاف

لا تحسبي أننا نسينا لا يخاف

ولم يقل وفتت ستراً على الرقيب ولم يقل لا أقف مراعاة لقلب الحبيب بل : « قالت قاف » .
ويقال تكثر العبارات^(٤) للعموم والرموز والإشارات للخصوص ، أسنع موسى كلامه في ألف موطن ، وقال لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم : أَلِفٌ . . . وقال عليه السلام : أوتيت جوامع الكلم^(٥) فاختصر لي الكلام اختصاراً ، وقال بعضهم : قال لي مولاي : ما هذا الدنف ؟

قلت : نهواني ؟ قال : لام الف

قوله جل ذكره : ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾

(١) وردت في ص (الشفق) وهي خطأ من الناسخ .

(٢) منها ما الخارج — كما جاء في هامش .

(٣) وردت في ص (العبادات) والأصح بالراء لأن التشبهي في مواضع كثيرة يقابل بين البارة والإشارة

(٤) وردت في ص (التلم) وهي خطأ من النسخ . وسبأني نحرير الحديث في هامش قريب .

قيل ذلك الكتاب أى هذا الكتاب ، وقيل إشارة إلى ما تقدم إنزاله من الخطاب ،
وقيل ذلك الكتاب الذى وعدتُك إنزاله عليك يوم الميثاق .

لا ريب فيه ، فهذا وقت إنزاله . وقيل ذلك الكتاب الذى كتبتُ فيه الرحمة على نفسى
لامتك — لا شك فيه ، فتحقق بقولى .

وقيل الكتاب الذى هو سابق حكى ، وقديم قضائى لمن حكمت له بالسعادة ، أو خضت
عليه بالشقاوة لا شك فيه .

وقيل (حكى الذى أخبرت أن رحمتى سبقت على غضبى لا شك فيه^(١)) .

وقيل إشارة إلى ما كتب فى قلوب أوليائه من الإيمان والرفان ، والمحبة والإحسان ، وإن
كتاب الأحباب عزيز على الأحباب ، لا سيما عند اللقاء ، وكتاب الأحباب سلوهم
وأنسهم ، وفيه شفاؤهم وروحهم ، وفى معناه أنشدوا :

وكتبك حولى لا تفارق مضجعى وفيها شفاء للذى أنا كاتم

وأنشدوا :

ورد الكتاب بما أقر عيوننا وشفى القلوب فنبئن غايات للمنى
وتقاسم الناسُ للسرة بينهم قسماً وكان أجلم حطاً أنا^(٢)

قوله جل ذكره : ﴿ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾

أى بياناً وحجة ، وضياء ومحجة ، لمن وقاه الحق سبحانه وتعالى من ظلمات الجهل ، وبصره
بأنوار العقل ، واستخلصه بمقائق الوصل . وهذا الكتاب للأولياء شفاء ، وعلى الأعداء
عنى وبلاء . المتقى من اتقى رؤية تقواه ، ولم يستند إلى تقواه ، ولم يرَ نجاته إلا بفضل مولاه .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾

(١) ما بين القوسين نسخة استدرج بها الناسخ فأنبتها فى هامش الصفحة .

(٢) لم يكن الناسخ يظهر اهتماماً بأبيات الشعر فوصلتنا رديئة الخط كثيرة الأخطاء فقمنا بتصحيحها
بقدر الإمكان حتى تبدو ذات معنى ، وذلك استناداً إلى حالة لها أكثر ضبطاً إما فى مواضع أخرى من هذا
الكتاب أو من كتب الفيرى الأخرى .

حقيقة الإيمان التصديق ثم التحقيق ، وموجب الأمرين التوفيق . والتصديق بالعقل
والتحقيق ببذل الجهد ، في حفظ العهد ، ومراعاة الحد . فالؤمنون هم الذين صدّقوا باعتقادهم
ثم الذين صدّقوا في اجتهادهم .

وأما الغيب فما يعلمه^(١) العبد مما خرج عن حد الاضطرار ؛ فكل أمر ديني أدركه العبد
بضرب استدلال ، ونوع فكر واستشهاد بالإيمان به غيبي . فالرب سبحانه وتعالى غيب .
وما أخبر الحق عنه من الحشر والنشر ، والثواب واللقاب ، والحساب والعذاب — غيب .

وقيل إنما يؤمن بالغيب من كان معه سراج الغيب ، وأن من أيّدوا ببرهان العقول
آمنوا بدلالة العلم وإشارة اليقين ، فأوردّهم صدق الاستدلال ساحات الاستبصار ، وأوصلهم
صائب الاستشهاد إلى مراتب السكون ؛ فإيمانهم بالغيب بمزاوجة علومهم ودواعي الريب .
ومن كوشف بأنواع التعريف أسبل عليهم سجوف الأنوار ، فأغنام بلوائح البيان عن كل
فكر وروية ، وطلب بخواطر ذكية ، وردّ وردع لدواعٍ رديّة ، فطلعت شمس أسرارهم
فاستغنوا عن مصاييح استدلالهم ، وفي معناه أشدوا :

كَيْلِيَّ مِنْ وَجْهِكَ شَمْسُ الضُّحَا وَظِلَامُهُ فِي النَّاسِ سَارَى
وَالنَّاسُ فِي سِدْفِ الظَّلَامِ وَنَحْنُ فِي ضَوْءِ النَّهَارِ
وَأَشْدُوا :

طلعت شمس من أحبك ليلاً فاستضاءت ومالها من غروب
إن شمس النهار تغرب بالليل وشمس القلوب ليست تغيب^(٢)
ومن آمن بالغيب بشهود الغيب غاب في شهود الغيب فصار غيباً ينيب .
وأما إقامة الصلاة فالقيام بأركانها وسننها ثم الغيبة^(٣) عن شهودها برؤية مَنْ يُصَلِّيْ لَهُ^(٤)

(١) وردت (يعلمه) والأرجح أن تكون (يعلمه) حتى تتلاءم مع طبيعة الغيب .
(٢) وردت (بما لها) ، (وتغيب بالليل) ، (ليت تغيب) وقد سمعنا ذلك بما يتلاءم مع الوزن والمعنى
(٣) وردت (ثم الغيب) وهي خطأ من الناسخ والأصح (النية) كما سنجده في الهامش التالي .
(٤) القشيري هنا متأثر بفكرة الواسطي حينما دخل نيسابور وسأل أصحاب أبي عثمان : بماذا كان
يأمركم شيخكم ؟ فقالوا : كان يأمرنا بالتزام الطاعات ورؤية التقصير فيها . فقال « ... هلا أمركم بالنية
عنها برؤية ملشتها وبحريها » الرسالة ص ٣٤ .

فيحفظ عليه أحكام الأمر بما يجري عليه منه ، وهو عن ملاحظتها نحو ، فنفوسهم مستقبلة
القبلة ، وقلوبهم مستغرقة في حقائق الوصلة :

أراني إذا صليت يَمُمْتُ نحوها بوجهي وإن كان المصلي ورائيا
أصلي فلا أدري إذا ما قضيتها أثنين صليت الضحا أم ثمانيا ؟

وإن أصحاب العموم يجتهدون عند افتتاح الصلاة ليردوا قلوبهم إلى معرفة ما يؤدون من
الفرض ، ولكن عن أودية الغفلة ما يرجعون . أما أهل الخصوص فيردون قلوبهم إلى معرفة
ما يؤدون ولكن عن حقائق الوصلة ما يرجعون ؛ فشتان بين غائب يحضر أحكام الشرع
ولكن عند أوطان الغفلة ، وبين غائب يرجع إلى أحكام الشرع ولكن عند حقائق الوصلة .

قوله جل ذكره : ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾

الرزق ما تمكن الإنسان من الانتفاع به ، وعلى لسان التفسير أنهم ينفقون أموالهم
إمّا نفلاً وإمّا فرضاً على موجب تفصيل^(١) العلم . وبيان الإشارة أنهم لا يدخرون عن الله
سبحانه وتعالى شيئاً من ميسورهم ؛ فينفقون نفوسهم في آداب العبودية ، وينفقون قلوبهم
على دوام مشاهدة الربوبية . فإففاق أصحاب الشريعة من حيث الأموال ، وإففاق أرباب
الحقيقة من حيث الأحوال ، فهؤلاء يكتفي منهم عشرين بنصف ومن المائتين بخمس^(٢) ، وعلى
هذا السنن جميع الأموال يعتبر فيه النصاب . وأما أهل الحقائق فلو جعلوا من جميع أحوالهم
- لأنفسهم ولخطوطهم - لحظة قامت عليهم القيامة .

[فصل] الزاهدون أنفقوا في طريقة متابعة هوام ، فأثروا رضا الله على مناهم ، والعابدون
أنفقوا في سبيل الله وسعهم وقوام ، فلأزموا سرّاً وعلناً نفوسهم . وليريدون أنفقوا في سبيله
ما يشغلهم عن ذكر مولاهم فلم يلتفتوا إلى شيء من دنيائهم وعقبائهم . والعارفون أنفقوا في سبيل
الله ما هو سوى مولاهم فقرّبهم الحق سبحانه وأجزاهم ، وبحكم الأفراد به لقّاهم .

(١) وردت (تفضيل) ولا يرجعها السياق فالتعمود ما يفصله العلم من مقادير زكاة المال .

(٢) إشارة إلى أن زكاة الأموال مقدارها ربع العشر .

[فصل] الأغنياء أنفقوا من نعمهم على عاقبتهم. والفقراء أنفقوا من همهم على منابستهم^(١)
ويقال العبد بقلبه وببدنه وبماله ، فبايمانهم بالغيب قاموا بقلوبهم ، وبصلاتهم قاموا بنفوسهم ،
وبإفنائهم قاموا بأموالهم ، فاستحقوا خصائص القرية من معبودهم ، وحين قاموا ليحقه بالكفاية
استوجبوا كمال الخصوصية .

قوله جلّ ذكره : ﴿والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، وبالأخرة هم يوقنون﴾

إيمانهم بالغيب اقتضى إيمانهم بالقرآن ، وبما أنزل الله من الكتب قبل القرآن ، ولكنه
أعاد ذكر الإيمان هنا على جهة التخصيص والتأكيد ، وتصديق الواسطة صلى الله عليه وسلم
في بعض ما أخبر بوجوب تصديقه في جميع ما أخبر ، فإن دلالة صِدِّقه تشهد على الإطلاق دون
التخصيص ، وإنما أيقنوا بالأخرة لأنهم شهدوا على الغيب فإن حارثة لما قال له رسول الله
صلى الله عليه وسلم كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت مؤمناً بالله حقاً ، وكأني بأهل الجنة
يتزاورون وكأني بأهل النار يتعاوون^(٢) وكأني بعرش ربي بارزاً فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : أصبتَ فالزَمْ .

وهذا عامر بن عبد القيس يقول : « لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً » . وحقيقة اليقين
التخلص عن تردد التخمين ، والتقصي عن مجوزات الظنون .

قوله جلّ ذكره : ﴿أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾ يعني على بيان

(١) من (اناب) وعند القشيري : التوبة بداية والأوبة نهاية والإنابة واسطتهما ، فكل من تاب
لخوف عقوبة فهو صاحب توبة ؛ ومن تاب طمعا في الثواب فهو صاحب إنابة ، ومن تاب مراعاة للأمر
لرغبة في الثواب ، أو رهبة من العقاب فهو صاحب أوبة (الرسالة ص ٥٠) .

(٢) وردت (وكأني بأهل النار يتعاوون) ووردت في موضع آخر من الكتاب عند تفسير الآية ٤٩
من سورة البقرة (يتعادون) . وبالرجوع إلى مصادر الحديث وجدناه على النحو التالي : « سأل النبي
(ص) حارثة فقال : لعل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ فقال : عرفت نفسي عن الدنيا ، فأسهرت ليلي ،
واظمأت نهارى ، وكأني انظر إلى عرش ربي بارزاً ، وكأني انظر إلى أهل الجنة يتزاورون ، وإلى أهل
النار في النار كيف يتعاوون . فقال له النبي (ص) : عرفت ظاهراً . » .

البراز بسند ضعيف عن انس ، والطبراني في الكبير من حديث الحارث بن مالك ، وسنده ضعيف أيضاً

من ربهم ويقيى وكشف وتحقيق ، وذلك أنه تجلّى لقلوبهم أولاً بآياته ثم تجلّى لها بصفاته
ثم تجلّى لها بحقه وذاته .

وقوم « على هدى من ربهم » بدلائل العقول ؛ وضعوها في موضعها فوصلوا إلى حقائق
العلوم ، وقوم على بصيرة ملاطفت التقريب فيمشاهدة الرحمة والكرم وصلوا إلى بيان اليقين ،
وآخرون ظهرت الحقيقة لأسرارهم فشهدوا بالغييب حقيقة الصدية ، فوصلوا بحكم العرفان
إلى عين الاستبصار .

« وأولئك هم المفلحون » الفلاح الظفر بالبُغية^(١) ، والفوز بالطلبية ، ولقد نال القوم
البقاء في مشهد اللقاء فظفروا بغير الأعداء ، وهي غائمة^(٢) النفوس من هواجسها ، ثم زلات
القلوب من خواطرها^(٣) ، فوقفوا بالحق للحق بلا واسطة من عقل ، أو رجوع
إلى ذكر وفكر .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنْذِرْتَهُمْ
أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

من كان في غطاء وصفه محجوباً عن شهود حقه فالإشارة لنعته أنه سيان عنده قول من
دّله على الحق ، وقول من أعانته على استجلاب الحظ ، بل هو إلى دواعي الغفلة أميل ،
وفي الإصغاء إليها أرغب . كيف لا ؟ وهو يَكِيّ الفرقة موسوم ، وفي سجن الغيبة محبوس ،
وعن محل القربة ممنوع ، لا يحصل منهم إيمان ، لأنه ليس لهم من الحق أمان ؛ فلما لم يؤمنوا
لم يؤمنوا . حكم سبق من الله حتم ، وقول له فصل ، وإن القدرة لا تُعارض ، ومن زاحم الحق
في القضية^(٤) كبسته سطوات العزة ، وقصمته بواده^(٥) الحكم .

ويقال إن الكافر لا يرعوى عن ضلّالته لما سبق من شقاوته ، وكذلك المربوط بأغلال
نفسه محجوب عن شهود غيبه وحقه ، فهو لا يبصر رشده ، ولا يسلك قصده . ويقال إن

(١) وودت في س (بالفتنة) وهي خطأ من الناسخ .

(٢) الفاغة مرعى البهائم .

(٣) يقول التشيرى في رسالته : إن الهاجس خاص بالنفس والمخاطر خاص بالقلب من ٤٦ ، ٤٧ .

(٤) القضية هنا معناها القضاء .

(٥) البراده ما يفجأ القلب من الغيب على سبيل الوهلة (الرسالة ص ٤٤) .

الذى بقى في ظلمات دعوته سواء عنده نصيح المرشدين وتسويلات المبطلين ، لأن الله سبحانه
وتعالى نزع عن أحواله بركات الإنصاف ، فلا يدرك بسمع القبول ، ولا يُصْنَى إلى داعي
الرشاد ، كما قيل :

وعلى النصوح نصيحتي وعلى عصيات النصوح

ويقال من ضلَّ عن شهود المِنَّة عليه في سابق القسمة توهم أن الأمر من حركاته
وسكناته فاتسكل على أعماله ، وتعامى عن شهود أفضاله .

قوله جلّ ذكره : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى

أَبْصَارِهِمْ غُشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

انغم على الشيء يمنع ما ليس فيه أن يدخله وما فيه أن يخرج منه ، وكذلك حكم الحق
سبحانه ألا يفارق قلوب أعدائه ما فيها من الجهالة والضلالة ، ولا يدخلها شيء من البصيرة
والهداية . على أسماع قلوبهم غطاء الخذلان ، سدّت تلك المسامع عن إدراك خطاب الحق من
حيث الإيمان ، فوساوس الشيطان وهواجس النفوس شغلتها عن استماع خواطر الحق .
وأما الخواص فخواطر العلوم وجولان تحقيقات المسائل في قلوبهم شغلت قلوبهم عن ورود
أسرار الحق عليهم بلا واسطة ، وإنما ذلك لخاوص الخاوص ، لذا قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : « لقد كان في الأمم محدّثون فإن يكن في أمتي فمر »^(١) فهذا المحدث مخصوص من
الخواص كما أن صاحب العلوم مخصوص من بين العوام . وعلى بصائر الأجانب غشاوة فلا
يشهدون لا ببصر العلوم ولا ببصيرة الحقائق ، ولهم عذاب عظيم لحساباتهم أنهم على شيء ،
وغفلتهم عما متّوا من المحنة (و...)^(٢) في الحال والمال^(٣) ، في العاجل فرّقته ،
وفي الآجل حرّقته .

قوله جلّ ذكره : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله

وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴾

(١) للحديث صيغة أخرى « إن من أمتي مكثمين ومحدّثين وإن عمر منهم » .

(٢) مشبهة في من .

(٣) والأرجح أنها (في الحال والمال) حتى تلتصم مع العاجل والآجل .

ثبتوا على نفاقهم ، ودأبوا على أن يلبسوا على المسلمين ، فهتك الله أستارهم بقوله : وما هم بمؤمنين كذا قيل :

من تحلى بغير ما هو فيه فضح الامتحان ما يدعيه

ولما تجردت أقوالهم عن المعاني كان وبال ما حصلوه منها أكثر من النفع الذي توهموه فيها ، لأنه تعالى قال : « إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار » ولولا نفاقهم لم يزد عذابهم .

ويقال لما عديموا صدق الأحوال لم ينفعهم صدق الأقوال ، فإن الله تعالى قال : « والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » فكانوا يقولون نشهد إنك رسول الله ، وكذلك من أظهر من نفسه ما لم يتحقق به افتضح عند أرباب التحقيق في الحال ، وقيل :

أيها المدعى سليمى هواها لست منها ولا قلامة ظفر .

إنما أنت في هواها كراو أُلصقت في الهجاء ظلما بعبرو

قوله جل ذكره : ﴿ يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾

عاد وبال خداعهم والعقوبة عليه^(١) إلى أنفسهم فضاروا في التحقيق كأنهم خادعوا أنفسهم ، فما استهانوا إلا بأقذارهم ، وما استخفوا إلا بأنفسهم ، وما ذاق وبال فعلهم سواهم ، وما قطعوا إلا وتينهم . ومن كان عالماً بحقائق المعلومات فن رام خداعه إنما يخدع نفسه . والإشارة في هذه الآية أن من تناسى لطفه السابق وقال لي ربى ومنى وأنا يقع في وهمه وظنه لك وبك ومنك وأنت ، وهذا التوهم أصعب العقوبات^(٢) لأنه يرى سرايا فيظنه سرايا حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه .

قوله جل ذكره : ﴿ في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ،

ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ﴾

في قلوب المنافقين مرض الشك ، ويزيدهم الله مرضاً بتوهمهم أنهم نجوا بما لبسوا

(١) وردت في من (عليها) والأصح أن تكون عليه لأن الضمير يعود على الخداع وربما قصد التشبى بمرارة الضمير على مفهوم ، وهو جرعة الخداع .

(٢) جاء في رسالة التشبى « التوحيد إسقاط الباءات فلا تقول لي ربى ومنى وإلى » ص ١٤٩

على المسلمين ، ثم لهم عذاب أليم مؤلم ، يَخْلُص وجهه إليهم في اللآل . (وفي) الإشارة يحصل لمن خلط قصده بحظه ، وشاب إرادته بهواه (أن) يتقدم في الإرادة بقدِّم ، ويتأخر بالحفظ ومتابعة النفس بأخرى ، فهو لا مریدٌ صادقٌ ولا عاقلٌ متثبت . ولو أن المناقذين أخلصوا في عقائدهم لَأَمِنُوا^(١) في الآخرة من العقوبة كما أَمِنُوا في الدنيا من نحو بذل الجزية وغير ذلك مما هو صفة أهل الشرك والذمة^(٢) ، كذلك لو صدق المرید في إرادته لوصل بقلبه إلى حقائق الوصلة ، ولأدركته بركات الصديق فيما رامه من الظفر بالبغية ، ولكن حاله كما قيل :

فما ثبتنا فيثبت لنا عدل بلا حنف ولو خلصنا تخلصنا من المحن^(٣)

وإن من سقمت عبادته حيل بينه وبين درجات الجنات ، ومن سقمت إرادته حيل بينه وبين مواصلات القرب والمناجاة . وأما من ركن إلى الدنيا واتبع الهوى فسكونهم^(٤) إلى دار الغرور سقم لقلوبهم ، والزيادة في علمهم تكون بزيادة حرصهم ، كلما وجدوا منها شيئاً — عَجَلَ لَهُم العقوبة عليه — يتضاعف حرصهم على ما لم يجدوه .

ثم من العقوبات العاجلة لم تشتتْ همومهم ثم تنغص عيشهم فيبغون بها عن مولاهم ، ولم يكن لهم استمتاع ولا راحة فيما آثروه من متابعة هوائهم ، وهذا جزاء من أعرض عن صحبة مولاه ، وفي معناه قيل :

تبدلت فتبدلنا واحسرتنا لمن ابتغى عوضاً ليس له فلم يجد^(٥)

والإشارة في العذاب الأليم بما كانوا يكذبون إنما هي الحسرة يوم الكشف إذا رأوا أشكالهم الذين صدقوا كيف وصلوا ، ورأوا أنفسهم كيف خسروا .

(١) وردت (لَأَمِنُوا) وهي خطأ من الناسخ .

(٢) وردت (والذمة) ، هي خطأ من الكتابة .

(٣) أصلنا قليلاً في البيت لكي يؤدي معنى ، لأن ما في البيت من أخطاء كناية عن تقدمه بل قدومه ، ونرجح أنها (خوف) لا (حنف) وإن كان الحنف معناه الميل إلا أن الحنف وهو الظلم أقرب .

(٤) ويحتمل أيضاً أنها في الأصل (فركونهم) حتى تتلاءم مع (ومن ركن ...) ، وتلاهما مبدول .

(٥) وزن البيت غير سليم وقد ورد فيه (واخسرانا) و (ليلي) ويبدو أن الناسخ قد وقع في أخطاء

أخرى عند النقل

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ

قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ

الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

الإشارة منها : أنه إذا دغام واعظ في قلوبهم من خفي خواطرهم إلى ما فيه رشدهم تتبعوا
رخص التأويل ، ولبسوا على أنفسهم ما يشهد بقساوة قلوبهم ، وحين جحدوا برهان الحق من
خواطر قلوبهم نزع الله البركة من أحوالهم ، وأبدلهم تصامماً عن الحق ، وابتلاهم بالاعتراض
على الطريقة^(١) وسلبهم الإيمان بها .

وكما أن المرتد أشد على المسلمين عداوة كذلك من رجع عن الإرادة إلى الدنيا والعبادة
فهو أشد الناس إنكاراً لهذه الطريقة ، وأبعد من أهلها ، وفي المثل : من اخترق كُدُّه^(٢)
عنى أن يقع بجميع الناس ما أصابه .

وإرفاق المرتدين عن طريق الإرادة — عند الصادقين منهم — غير مقبول كما أن رسول
الله صلى الله عليه وسلم لم يقبل زكاة ثعلبة .

ويقال كفى لصاحب الكذب فضيحة بأن يقال له في وجهه كذبت ، فهم لما قالوا
إنما نحن مصلحون ، أ كذبهم الحق سبحانه فقال : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ
لَا يَشْعُرُونَ ﴾ : إِنَّا نَعْلَمُهُمْ فَتَفْضَحُهُمْ .

قوله عز ذكره : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمَنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ

قَالُوا أَتُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ

هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

الإشارة منها أن المنافقين لما دُعوا إلى الحق وصفوا المسلمين بالسُّفَهَاءُ ، وكذلك أصحاب
الغنى إذا أُمرُوا بِتَرْكِ الدُّنْيَا وصفوا أهل الرشد بالكسل والعجز ، ويقولون إن الفقراء ليسوا
على شيء ، لأنه لا مال لهم ولا جاه ولا راحة ولا عيش ، وفي الحقيقة هم الفقراء وهم أصحاب
المحنة ، وقعروا في الذل مخافة الذل ، ومارسوا الهوان خشية الهوان ، شيدوا القصور ولكن

(١) يقصد القشيري طريقة الصوفية .

(٢) الكُدُّ بضم الكاف وتسكين الدال : المجتمع من كل شيء كالخب المحمود والتمر والدرام والرمل

والجمع الكداس (الوسيط والسان) .

سكنوا القبور ، زينوا المهد ولكن أدرجوا اللحد ، ركضوا في ميدان الغفلة ولكن عثروا
في أودية الحسرة ، وعن قريب سيعلمون ، ولكن حين لا ينفعهم علمهم ، ولا ينفي
عنهم شيء .

سوف ترى إذا انجلى الغبارُ أفرسُ تحتك أم حمارُ

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا

خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ

إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ . الله يستهزئ

بهم ويمدحهم في طغيانهم يعمهون ﴿

أراد المناقون أن يجمعوا بين عشرة الكفار وصحبة المسلمين ، فإذا برزوا للمسلمين
قالوا نحن معكم ، وإذا خلّوا بأضرابهم من الكفار أظهروا الإخلاص لهم ، فأرادوا الجمع بين
الأمرين فنّفوا عنهما . قال الله تعالى : « مذّبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء » ،
وكذلك من رام أن يجمع بين طريق الإرادة وما عليه أهل المادة لا يلتئم ذلك ، فالضدان
لا يجتمعان ، و « المُكَاتِبُ عَبْدٌ مَا بَقِيَ عَلَيْهِ دَرَمٌ » ، وإذا ادلم الليل من هاهنا أدبر النهار
من هاهنا ، ومن كان له في كل ناحية خليط ، وفي زاوية من قلبه ربيط كان نهياً للطوارق ،
ينتابه كل قوم ، وينزل في قلبه كل (. . .) (١) ، فقلبه أبداً خراب ، لا يهنا بعيش ، ولا له
في التحقيق رزق من قلبه ، قال قائمهم :

أراك بقية من قوم موسى فهم لا يصبرون على طعام

ولما قال المناقون إنما نحن مستهزئون قال الله تعالى : « الله يستهزئ بهم » أي يجازيهم
على استهزائهم ، كذلك لما ألقى القوم أزمّتهم في أيدي الشهوات استهوتهم في أودية التفرقة ،
فلم يستقر لهم قدم على مقام فتطوخوا في متاهات الغيبة ، وكما يمد المناقون في طغيانهم يعمهون
يطيل مدة (٢) هؤلاء في مخايل الأمل فيكونون عند اقتراب آجالهم أطول ما كانوا أملاً ، وأسوأ
ما كانوا عملاً ، ذلك جزاء ما عملوا ، ووبال ما صنعوا . وتحسين أعمالهم القبيحة في أعينهم من

(١) مشبهة في ص .

(٢) وربما كانت يطيل (مد) والسياق يقبل كليهما .

أشد العقوبات لهم ، ورضاؤهم بما فيه من الفترة^(١) أَجَلٌ مصيبة لهم .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى

فما ربحت تجارتهم ، وما كانوا مهتدين ﴾

الإشارة منها أن من بقى عن الحقوق بالبقاء في أوطان الحظوظ خسرت صفقتهم .

وما ربحت تجارتهم . والذي رضى بالدنيا عن العقبى لى خسران ظاهر .

ومن آثر الدنيا أو العقبى على الحق تعالى لأشد خسرانا .

وإذا كان للصاب^(٢) بفوات النعيم مغبونا فالذى مُنِيَ بالبعداء عن المناجاة وأنجاز^(٣) بقلبه

عن مولاه ، وبقي في أسر الشهوات ، لا إلى قلبه رسول ، ولا لروحه وصول ، ولا معه مناجاة ،

ولا عليه إقبال ، ولا في سره شهود — فهذا هو المصاب والمُتَحَن .

وإن من فاته وقت فقد فاته ربه ، فالأوقات لا تخلف عنها ولا تبدل منها ، ولقد قال بعضهم :

كنت السواد لمقلق فبكى عليك الناظر

من شاء بعدك فليست فعليك كنت أخاذر

قوله جل ذكره : ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما

أضأت ماحوله ذهب الله بنورهم وتركهم

في ظلمات لا يبصرون ﴾

هذا مثل ضربه الله سبحانه للنافقين بمن استوقد نارا^(٤) في ابتداء ليته ثم أطفئت

النيران فبقى صاحبها في الظلمة ، كذلك المنافق ظهر عليه شيء من العوائى في الدنيا بظاهره

ثم امْتَحِنُوا في الآخرة بأليم العقوبة ، أو لاح شيء من إقرارهم ثم بقوا في ظلمة إنكارهم .

والإشارة من هذه الآية لمن له بداية جميلة ، يسلك طريق الإرادة ، ويتعني مدة ، ويقاسى

بعد الشدة شدة ، ثم يرجع إلى الدنيا قبل الوصول إلى الحقيقة ، ويعود إلى ما كان فيه من

ظلمات البشرية . أوزق عودُه ثم لم يشمر ، وأزهر غصنه ثم لم يدركه ، وعجل كسوف الفترة على

(١) الفترة رجوع عن الإرادة وخروج منها ، والوقفة سكون عن السير باستحلاء حالات الكسل ،

ووقفة المرید شر من فترته (الرسالة ص ١٩٩) .

(٢) وردت (المصائب) في من وهي غير ملائمة .

(٣) وردت (وأنجاز) والأرجح ما اخترنا .

(٤) وردت (ناري) والأرجح ما اخترنا .

أقمار حضوره ، وردته يد القهر بعد ما أحضره لسان اللطف ، فوطن عن القرب قلبه ، وغلّ من الطالبين نفسه ، فكان كما قيل .

حين قرّ الهوى وقلنا سرّرنا وحسبنا من الفراق أمناً
بعث البين رسله في خفاء فأبادوا من شملنا ما جمعنا
وكذلك تحصل الإشارة في هذه الآية لمن له أدنى شيء من المعاني فيظهر الدعاوى فوق ماهو به ، فإذا انقطع عنه (. . .)^(١) ماله من أحواله بقي في ظلمة دعاواه .
وكذلك الذي يركن إلى حطام الدنيا وزخرفها ، فإذا استنبت الأحوال وساعد الأمل وارتفع المراد — برز عليه الموت من مكان المكر فيترك الكل ويحمل الكل .

قوله جل ذكره : ﴿ صُمُّ بَكْمٌ عَمَى فَمٌ لَا يَرْجِعُونَ ﴾
صم عن سماع دواعي الحق بأذان قلوبهم ، بكم عن مناجاة الحق باللسنة أسرارهم ، عمى عن شهود جريان المقادير بسيون بصائرهم ، فهم لا يرجعون عن تماديهم في تهتكهم ، ولا يرتدعون عن انهماكهم في ضلالتهم
ويقال صم عن السماع بالحق ، بكم عن النطق بالحق ، وعمى عن مطالعة الخلق بالحق .
لم يسبق لهم الحكم بالاقلاع ، ولم تساعدهم القسمة بالارتداع .

قوله جل ذكره : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ
وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ
حَذَرًا الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾

معنى قوله أو لإباحته ضرب مثلهم إما بهذا وإما بذلك شبه القرآن بمطر ينزل من السماء ، وشبه ما في القرآن من الوعد والوعيد بما في المطر من الرعد والبرق ، وشبه التجاءهم إلى الفرار عند سماع أصوات الرعد . كذلك الإشارة لأصحاب الغفلات إذا طرق أسماعهم وعظ الواعظين ، أو لاحت لقلوبهم أنوار السعادة ؛ ولو أقلعوا عما هم فيه من الغفلة لسعدوا ، لكنهم ركنوا إلى التشاغل بآمالهم الكاذبة ، وأصروا على طريقتهم الفاسدة ، وتعللوا بأعذار واهية ،

(١) هنا كلمات زائدة وضع الناسخ عليها علامات مميزة نوضح ضرورة الاستغناء عنها .

ويحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم ، يهلكون أنفسهم ، ويسعون في الخطر بآيائهم^(١) :

إن الكريم إذا حباك بوذء ستر القبيح وأظهر الإحسانا
وكذا الملوك^(٢) إذا أراد قطيعة مل^(٣) الرصال وقال كان وكانا

قوله جل ذكره : ﴿ يكاد البرق يخطف أبصارهم

كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم

قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمهم

وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير ﴾

من تمام مثل المنافقين — كذلك أصحاب الغفلات — إذا حضروا مشاهد الوعظ ،

أو جنحت^(٤) قلوبهم إلى الرقة ، أو داخلهم شيء من الوهلة تقرب أجوالهم من التوبة ،

وتقوى رغبتهم في الإنابة حتى إذا رجعوا إلى تدبرهم ، وشاوروا إلى قرنائهم ، أشار الأهل

والولد عليهم بالعود إلى دنياهم ، وبسطوا فيهم لسان النصيح ، وهددوهم بالضعف والعجز ،

فيضعف قعودهم ، وتسقط إرادتهم ، وصاروا كما قيل :

إذا ارعوى ، عاد إلى جهله كغذى الضنى عاد إلى نكسة

وقال : « ولو شاء الله لذهب بسمهم وأبصارهم » يعني سمع المنافقين الظاهر وأبصارهم

الظاهرة ، كما أصمهم وأعماهم بالسر ، فكذلك أرباب الغفلة ، والقانون من الإسلام بالظواهر —

فإن الله تعالى قادر على سلبهم التوفيق فيما يستعملونه من ظاهر الطاعات ، كما سلبهم التحقيق

فما يستنبطونه من صفاء الحالات .

قوله جل ذكره : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي

خلقكم والذين من قبلكم لعلكم

تتقون ﴾

العبادة موافقة الأمر ، وهي استفراغ الطاقة في مطالبات تحقيق الغيب ، ويدخل فيه

التوحيد بالقلب ، والتجريد بالسر ، والتفريد بالقصد ، والخضوع بالنفس ، والاستسلام للحكم .

ويقال اعبدوه بالتجرد عن المحظورات ، والتجديد في أداء الطاعات ، ومقابلة الواجبات

(١) جمع عين ومما هنا البعد .

(٢) وردت (الملوك) وهي خطأ في النسخ .

(٣) وردت (ملا) وهي خطأ في النسخ .

(٤) وردت في س (جنهت) وهي خطأ في النسخ .

بالخشوع والاستكاشة ، والتجافي عن التعرّيج في منازل الكسل والاستهانة .
 قوله : « لعلكم تتقون » : تقريب الأمر عليهم وتسهيله ، ولقد وقفهم بهذه الكلمة
 — أَعْنَى لَعْلَ — على حد الخوف والرجاء .
 وحقيقة التقوى التحرز والوفاء (بالطاعة)^(١) عن متوعدات العقاب .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا ،
 وَالسَّمَاءَ بَنَاءً ، وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ
 مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ
 فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

تعرّف إليهم بذكر ما من به عليهم من خلق السماء لهم سقفا^(٢) مرفوعاً ، وإنشاء الأرض
 لهم فرشاً موضوعاً ، وإخراج النبات لهم بالمطر رزقاً مجموعاً . ويقال اعتقهم عن مينة الأمثال
 بما أراح لهم من العلة فيها لا بد منه ، فكافيتهم السماء لهم غطاءً ، والأرض وطاءً ، والمباحات
 رزقاً ، والطاعة حرفة ، والعبادة شغلاً ، والذكر مؤسلاً ، والرب وكيلًا — فلا تجعلوا لله
 أنداداً ، ولا تعلّقوا قلوبكم بالأغيار في طلب ما تحتاجون إليه ؛ فإن الحق سبحانه وتعالى
 متّوحد بالإبداع ، لا لمحدث سواء ، فإذا توهمتم أن شيئاً من الحادثات من نفع أو ضرر ،
 أو خير أو شر يحدث من مخلوق كان ذلك — في التحقيق شيراً كآ .

وقوله عز وجل : « وأنتم تعلمون » أن من له حاجة في نفسه لا يصلح أن ترفع حاجتك إليه .
 وتعلّق المحتاج بالمحتاج ، واعتماد الضعيف على الضعيف يزيد في العقر ، ولا يزيل هواجس الضرر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا
 فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا
 شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ
 صَادِقِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا
 فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ
 وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾

(١) هذه كلمة احتاجها السياق فأضفناها مستفيدين من أقوال القشيري في موقف مماثل في الرسالة ص ٥٦ .
 (وحقيقة الاتقاء التحرز) .

(٢) وردت (شققا) وهي خطأ في النسخ .

لبس على بصائر الأجانب حتى لم يشهدوا حيييه صلوات الله عليه ، فتأهوا في أودية
الظنون لما فقدوا نور العناية ، فلم يزد الرسول عليهم إتيانا بالآيات ، وإظهاراً من المعجزات
إلا ازدادوا ريباً على ريب وشكاً على شك ، وهكذا سبيل من أعرض عن الحق سبحانه ؛
لا يزيده ضياء الحجج إلا عمى عن الحقيقة ؛ قال الله تعالى : « وما تُغْنِي الآيات والنُّذُرُ عن قوم
لا يؤمنون » ، وليبلغ عليهم في إزام الحجة عرقهم عجزهم عن معارضة ما آتاهم من معجزة القرآن
الذي قهر الأنام من أولهم إلى آخرهم ، وقدّر عليهم أنهم لو تظاهروا فيما بينهم ، واعتضدوا
بأشكالهم ، واستغفروا كُنه طاقهم واحتياهم لم يقدروا على الإتيان بسورة مثل سورة
القرآن . ثم قال فإن لم تفعلوا — وأخبر أنهم قطعاً لا يقدرون على ذلك ولا يفعلون فقال :
« ولن تفعلوا » ، فكان كما قال — فانظروا لأنفسكم ، واحنروا الشُّركَ الذي يوجب
لكم عقوبة النار التي من (سطوتها)^(١) بحيث وقودها الناس والحجارة ، فإذا كانت تلك
النار التي لا تنبت لها الحجارة مع صلابتها ()^(٢) فكيف يطيقها الناس مع ضعفهم ،
وحين أشرفت^(٣) قلوب المؤمنين على غاية الإشفاق من سماع ذكر النار تداركها بحكم
التثبيت فقال : « أُعِدَّتْ للكافرين ، ففي ذلك بشارة للمؤمنين . وهذه سُنَّةٌ من الحق
سبحانه : إذا خوف أعداءه^(٤) بَشَّرَ مع ذلك أوليائه .

وكما أن كيد الكافرين يضمحل في مقابلة معجزات الرسل عليهم السلام فكذلك دعاوى
المُلَبِّسين تتلاشى عند ظهور أنوار الصديقين ، وأمانة المُبْطِل في دعواه رجوعُ الزجر منه
إلى القلوب ، وعلامة الصادق في معناه وقوع القهر^(٥) منه على القلوب . وعزيزٌ من فصل
وميزٌ بين رجوع الزجر وبين وقوع القهر .

قوله جل ذكره : ﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا

الصلحَات أَن لَهُمْ جَنَّاتٍ مَجْرَى مِنْ
تحتها الأنهار ﴾ .

(١) وردت بالمعاد وعند ذلك يكون الخطأ من الناسخ ، وربما كانت في الأصل (صنفها) ، وقد نخبنا
(سطوتها) لأنها أقرب إلى الشكل الوارد ولتلاؤمها مع المعنى والسياق .

(٢) هنا كلمة زائدة وضع الناسخ عليها علامة مميزة .

(٣) وردت باللفظ وهي خطأ في النسخ .

(٤) وردت هكذا (أعداويه) وهي خطأ في النسخ .

(٥) وردت (التهم) ولكن ما جاء بعدها يثبت خطأ الناسخ ، فضلاً عن أنها غير ذات معنى هنا .

هذه البشارة بالجنان تتضمن تعريفاً بنعم مؤجلة لعموم المؤمنين على الوصف الذي يُشرَح بلسان التفسير . ويشير إلى البشارة للخواص بنعم مُعَجَّلة مضافة إلى تلك النعم يتيح(ها) الله لهم على التخصيص ، فتلك المؤجلة^(١) جنان للثوبة وهذه جنان القربة ، وتلك رياض النزهة وهذه رياض الزلفة ، بل تلك حقائق الأفضال وهذه حقائق الوصال ، وتلك رفع الدرجات وهذه روح المناجاة ، وتلك قضية جوده ، هذه الاشتغال بوجوده ، وتلك راحة الأبدان وهذه نزهة الأسرار ، وتلك لطف العطاء للظواهر وهذه كشف الغطاء عن السرائر ، وتلك لطف نواله وأفضاله وهذه كشف جماله وجلاله .

قوله جل ذكره : ﴿ كَلِمَاتُ رُزْقٍ قَوَّامَةٍ مِنْهُمْ مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِمْ مِثْلَهَا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

كما أن أهل الجنة تتجدد^(٢) عليهم النعم في كل وقت ، فالثاني عندهم — على ما يظنون — كالأول ، فإذا ذاقوه وجدوه فوق ما تقدم — فكذلك أهل الحقائق : أحوالهم في السرائر أبداً في الترقى ، فإذا رُقي أحدهم عن محله توهم أن الذي سيلقاه في هذا النفس مثل ما تقدم فإذا ذاقه وجدته فوق ذلك بأضعاف ، كما قال قائلهم :

ما زلت أنزل من وداذك منزلاً تنحيرُ الأبواب دون نزوله

قوله جل ذكره : ﴿ إِنْ اللَّهُ لَا يَسْتَحْيِ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا ﴾ .

الاستحياء من الله تعالى بمعنى التُّرك ، فإذا وصف نفسه بأنه يستحي من شيء فعناه أنه لا يفعل ذلك وإذا قيل لا يستحي فعناه لا يبالي بفعل ذلك .

والخلقُ في التحقيق — بالإضافة إلى وجود الحق — أقلُّ من ذرةٍ من الهباء في الهواء ،

(١) وقع الناسخ في خطأ فكتبت (المجلة) والسياق يرفضها لأن الإشارة للبعيد بتلك وللتريب بهذه .

(٢) وردت (بمجدد) والسياق يرفضها ويقبل (تتجدد) وربما كانت (بمجدد) أي الحق سبحانه

وتعالى بمجدد .

لأن هذا استهلاك محدود في محدود . فسيان — في قدرته (٣) — العرش والبعوضة ، فلا يخلق العرش أشق وأعسر ، ولا يخلق البعوضة أخف عليه وأيسر ، فإنه سبحانه مُتَقَدِّسٌ عن حقوق العُسر والبُسر .

فإذا كان الأمر بذلك الوصف ، فلا يستحي أن يضرب بالبعوضة مثلاً كما لا يستحي أن يضرب بالعرش — فادونه — مثلاً .

وقيل إن جهة ضرب المثل بالبعوضة أنها إذا جاعت فَرَّتْ (١) وطارت ، وإذا شبعت تشبعت فَتَلَفَتْ كذلك (إن الإلسان ليطنى أن رآه استغني) .

وقيل ما فوقها يعنى الذباب ، وجهة الإشارة فيه إلى وقاحته ، حتى إنه ليعود عند البلاغ في اللب ، ولو كان ذلك في الأسد لم ينبج منه أحد من الخلق ، ولكنه لما خلق القوة في الأسد خلق فيه تنافراً من الناس ، ولما خلق الوقاحة في الذباب خلق فيه الضعف ، تنبيهاً منه سبحانه على كمال حكمته ، ونفاذ قدرته .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ۖ ﴾ .

فأما من فتحت أبصار سرائره فلا ينظر إلى الأغيار والآثار إلا بنظر الاعتبار ، ولا يزداد إلا نفاذاً لاستبصار . وأما الذين سكرت أبصارهم بحكم الغفلة فلا يزيدهم ضرب الأمثال إلا زيادة الجهل والإشكال والأنكال .

قوله جل ذكره : ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ۖ ﴾ .

هذا الكتاب لقوم شفاء ورحمة ، ولآخرين شقاء وفتنة . فمن تعرّف إليه يوم الميثاق بأنوار العناية حين سمعوا قوله : « أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ » تذكروا عند ورود الواسطة — صلوات الله عليه وعلى آله — قديم عهده ، وسابق وُدّه فازدادوا بصيرة على بصيرة ، ومن رَمَمَهُ بِذُلِّ القطيعة ، وأنطقه ذلك اليوم عن الحسبان والرهبة ما ازدادوا عند حصول الدعوة

(١) وردت (فريت) وهي خطأ في النسخ . (٣) وردت (قدرة) .

النبوة إلا جُهداً على جُهد ، وما خفى عليهم اليوم صادق الدلالة ، إلا لما تقدم لهم سابق الضلالة . لذلك قال الله تعالى : « وما يضل به إلا الفاسقين » .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ .

الإشارة فيه إلى حال من سلك طريق الإرادة ، ثم رجع إلى ما هو عليه أهل العادة ، قال بترك نفسه ثم لم يصدق حين عزم الأمر ، ونزل من إشارة الحقيقة إلى رخص الشريعة^(١) ، وكما أن من سلك الطريق بنفسه — مادام يبقى درهم في كيسه — فقير محمود رجوعه فكذلك من قصد بقلبه — مادام يبقى نفس من روحه — فقير مريض رجوعه : إن الألى ماتوا على دين الهدى وجدوا المنية منهلاً معلولاً^(٢) .

ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل : وصل أسباب الحق بقطع أسباب الخلق ، ولا يتم وصل ماله إلا بقطع مالك ، فإذا كان الأمر بالعكس كان الحال بالضد .

ومما أمر العبد بوصله : حفظه ذمام أهل هذه الطريقة ، والإنفاق على تحصيل ذلك بصدق الهم لا ببذل النعم ، فهمهم على اتصال أسباب هذه الطريقة وانتظام أحوالها موقوفة ، وقلوبهم إلى توقع الحراسة من الله تعالى لأهلها مصروفة . وفساد هذه الطريقة في الأرض : أما من لم حواشي أحوالهم ، وإطراق أمورهم فيتشاغلون عن إرشاد مريد بكلامهم ، وإشعاد قاصد بهمهم ، وذلك مما لا يرضى به الحق سبحانه منهم .

ومن نقض العهد أيضاً أن يحيد سيرك لحظة عن شهوده ، ومن قطع ما أمرت بوصله

(١) من عناصر المذهب الصوفي عند التشيرى إلحاحه الدائم على ألا ياجأ الصوفي إلى الاسترخاس ، ذلك لأن الرخصة — وإن كانت متاحة بأمر الشريعة — إلا أنها — أى الشريعة — للعموم ، وفيها يؤخذ في الاعتبار أمر المستضعفين وأصحاب الأشغال والحوائج أما هؤلاء الطائفة فليس لهم شغل سوى القيام بحقه سبحانه ، فإذا انحط الفقير عن درجة الحقيقة إلى رخصة الشريعة فقد فسخ عهده مع الله تعالى . الرسالة ص ١٩٩ .

(٢) وردت (الهوى) وفي موضع آخر من الطائفة (و ١٦٥) وردت : (منهلاً معلولاً) .

أن يتخلل أوقاتك نفس لحظتك دون القيام بحقه ، ومن فسادك في الأرض ساعة تجري عليك ولم تره فيها . ألا إن ذلك هو الخسران المبين ، والمحنة العظيمة ، والرزية الكبرى .

قوله جل ذكره : ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون ﴾ .

هذه كلمة تعجيب وتعظيم لما فيه العبد ، أي لا ينبغي مع ظهور الآيات أن ينجح إلى الكفر قلبه .

ويقال تعرف إلى الخلق بلوائح دلالاته ، ولوامع آياته . فقال : « وكنتم أمواتاً » يعني نطفة ، أجزاءها متساوية ، « فأحياكم » : بشراً اختص بعض أجزاء النطفة بكونه عظماً ، وبعضها بكونه لحماً ، وبعضها بكونه شعراً ، وبعضها بكونه جلداً . . . إلى غير ذلك .

« ثم يميتكم » بأن يجعلكم عظاماً ورقاقاً ، « ثم يحييكم » بأن يحشركم بعدما صرتم أمواتاً ، « ثم إليه ترجعون » أي إلى ما سبق به حكم من السعادة والشقاوة .

ويقال « كنتم أمواتاً » يجعلكم عتياً ، ثم « أحياكم » بمعرفتكم بنا ، « ثم يميتكم » عن شواهدكم ، « ثم يحييكم » به بأن يأخذكم عنكم ، « ثم إليه ترجعون » أي بحفظ أحكام الشرع بإجراء الحق^(١) .

ويقال « كنتم أمواتاً » لبقاء نفوسكم فأحياكم بفناء نفوسكم ثم يميتكم عنكم عن شهود ذلك لئلا تلاحظوه فيفسد عليكم ، ثم يحييكم بأن يأخذكم عنكم ثم إليه ترجعون بتقلبكم في قبضته سبحانه وتعالى .

ويقال يحبس عليهم الأحوال ؛ فلا حياة بالدوام ولا فناء بالكلية ، كلما قالوا هذه حياة — وبيناهم كذلك — إذ أدال عليهم فأفناهم ، فإذا صاروا إلى الفناء أثبتهم وأبقاهم ، فهم أبدأ بين نفي وإثبات ، وبين بقاء وفناء ، وبين صحو ومحو . . . كذلك جرت سنته سبحانه معهم .

(١) وردت (بأجزاء) وهي خطأ قطعاً .

والمقصود بإجراء الحق هنا هو ما سبق أن فوهنا به في هامش سابق من حالة الفرق الثاني حيث « يرد العبد إلى الصحو عند أوقات أداء الفرائض ليحضر عليه الفرائض في أوقاتها فيكون رجوعاً لله بالله . فالحق يجري أنعماله وأحواله عليه » الرسالة ص ٣٩ .

قوله جل ذكره : ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾ .

سنخر لهم جميع المخلوقات على معنى حصول انتفاعهم بكل شيء منها ، فعلى الأرض يستقرون وتحت السماء يسكنون ، وبالنجم يهتدون ، وبكل مخلوق بوجه آخر ينتفعون . لا بل ما من عين وأثر فكروا فيه إلا وكمال قدرته وظهور ربوبيته به يعرفون .

ويقال مهَّد لهم سبيل العرفان ، ونهَّجهم إلى ما خصَّهم به من الإحسان ، ثم علمهم علوَّ الهمة حيث استخلص لنفسه أعمالهم وأحوالهم فقال « لا تسجدوا للشمس ولا للقمر » .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع

سموات ، وهو بكل شيء عليم ﴾

فالأكوان بقدرته استوت ، لا أن الحق سبحانه بذاته — على مخلوق — استوى ، وأننى بذلك ١ والأحادية والصدئية حقه وما توهموه من جواز التخصيص بمكان فحال ما توهموه ، إذ المسكان به استوى ، لا الحق سبحانه على مكان بذاته استوى .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل

في الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من

يفسد فيها ، ويسفك الدماء ، ونحن

نسبح بحمدك وتقديس لك قال إني أعلم

ما لا تعلمون ﴾ .

هذا ابتداء إظهار سيره في آدم وذريته . أمرَ حتى سلَّ من كل بقعة طينة ثم أمرَ بأن يخرط طينه أربعين صباحاً ، وكل واحد من الملائكة ينفى ^(١) العَجَب : ما حكم هذه الطينة ؟ فلما ركب صورته لم يكونوا رأوا مثلها في بديع الصنعة وعجيب الحكمة ، فحين قال « إني جاعل في الأرض . . . » تَرَجَّجَتِ الظنون ، وتَقَسَّمتِ القلوب ، وتَجَنَّتِ الأقاويل ، وكان كما قيل :

وكم أبصرتُ من حسن ولكن عليك من الورى وقع اختياري

ويقال إن الله سبحانه وتعالى خلق ما خلق من الأشياء ولم يَقُلْ في شأن شيء منه ما قال

في حديث آدم حيث قال : « إني جاعلٌ في الأرض خليفة » ، فظاهر هذا الخطاب يشبه المشاورة

(١) وردت في م (ينفى) بالالف والصواب أن تكون (ينفى) بالفاء .

لو كان من المخلوقين . والحق سبحانه وتعالى خلق الجنان بما فيها ، والعرش بما هو عليه من انتظام الأجزاء وكمال الصورة ، ولم يقل إني خالق عرشاً أو جنة أو ملكاً ، وإنما قال تشریفاً وتخصيصاً لآدم إني جاعل في الأرض خليفة .

[فصل] ولم يكن قول الملائكة : « أتجعل فيها من يفسد فيها » على وجه الاعتراض على التقدير ولكن على جهة الاستفهام ، فإن حَمَلَ الخطاب على ما يُوجب تنزيه الملائكة أولى لأنهم معصومون . . قال تعالى « لا يعصون الله ما أمرهم » .

ويقال استخرج الحق سبحانه منهم ما استكن في قلوبهم من استعظام طاعتهم والملاحظة إلى أفعالهم بهذا الخطاب ؛ فأفصحوا عن خفايا أسرارهم بقولهم : « ونحن نسبح بحمدك » . ثم إن الحق سبحانه عرفهم أن الفضيلة بالعلم أنهم من الفضيلة بالفعل ، فهم كانوا أكثر فعلاً وأقدمه ، وآدم كان أكثر علماً وأوفره ، فظهرت فضيلته ومرتبته .

ويقال لم يقل الحق سبحانه أنتم لا تفسدون فيها ولا تسفكون الدماء بل قال : « إني أعلم ما لا تعلمون » ، من غفراني لهم .

ويقال : في تسبيحهم إظهار فعلهم واشتبار خصائصهم وفضلهم^(١) ، ومن غفرانه لمعاصي بني آدم إظهار كرمه سبحانه ورحمته ، والحق سبحانه غنى عن طاعات كل مطيع ، فلئن ظهر بتسبيحهم استحقاق تمدحهم ثبت بالغفران استحقاق تمدح الخالق سبحانه .

ويقال إني أعلم ما لا تعلمون من صفاء عقائد المؤمنين منهم في محبتنا ، وذكاه أسرارهم في حفظ عهودنا وإن تدنس بالعصيان ظاهرهم ، كما قيل :

وإذا الجيب أتى بذنب واحد جاءته محاسنه بألف^(٢) شفيح

ويقال إني أعلم ما لا تعلمون من محبتي لهم ، وأنتم تظهرون أحوالكم ، وأنا أخفي عليهم أسرارى فيهم ، وفي معناه أنشدوا :

ما حطك الواشون عن ربة عندي ولا ضرك مغتاب

كأنهم أثنوا — ولم يعلموا — عليك عندي بالذي عابوا^(٣)

(١) نلاحظ هنا تأثير التشيرى بفكرة الملامة النيسابورية التي ظهرت في موطنه ، والتي من أصولها عدم إظهار الفعل ، لأن في ذلك ملاحظة واستجلاب ، ملاحظة لفعل الإنسان وهو مهمل بلغ تافه حقير ، واستجلاب لرضا الناس والاشتهار بينهم ، وكلا الأمرين - في نظر الملامية - شرك خفي .

(٢) ردوت (بالي) وبها يسكر الوزن .

(٣) وردت أخطاء كثيرة في البيتين مثل (ضربك) ولم (يملوا عليك) .

ويقال إنى أعلم ما تعلمون من انكسار قلوبهم وإن ارتكبوا قبيح أفعالهم ، وصولاً
قلوبكم عند إظهار تسبيحكم وتقديسكم ، فأنتم فى رتبة وفاقكم وفى عصية أفعالكم ، وفى تجميل
تسبيحكم ، وهم منكرون عن شواهدهم ، متدللون بقلوبهم ، وإن لانكسار قلوب العباد عندنا
لذمما قويا .

ويقال أى خطر لتسبيحكم لولا فضلى ، وأى ضرر من ذنوبهم إذا كان عفوى ؟ ويقال
لبسُّكم طاعتكم ولبستهم رحمتى ، فأنتم فى صدار^(١) طاعتكم وفى حُلَّةٍ تقديسكم وتسبيحكم ،
وهم فى تغمد عفوى وفى ستر رحمتى ألبستهم ثوب كرمى ، وجللتهم رداء عفوى .
ويقال : إن أسعدتكم عصمتى فلقد أدركتهم رحمتى .

وإيصال عصمتى بكم عنده وجودكم وتعلق رحمتى بهم فى أزلى .
ويقال : لأن كان مُحسنُكم عتيقَ العصية فإن مجرمهم غريق الرحمة
ويقال : اتكلم على زكى أحوالهم فأجلالهم إلى الاعتراف بالجهالة حتى يتبرأوا عن المعارف
إلا بمقدار ما من به الحق عليهم فقالوا : « سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا » .

قوله جل ذكره : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى
الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

عموم قوله الأسماء يقتضى الاستغراق ، واقتران قوله سبحانه بكُلِّها يوجب الشمول
والتحقيق ، وكما علمه أسماء المخلوقات كلها — على ما نطق به تفسير ابن عباس وغيره — علمه
أسماء الحق سبحانه ، ولكن إنما أظهر لهم^(٢) محل تخصصه فى علمه أسماء المخلوقات وبذلك
المقدار بان رجحانه عليهم ، فأما انفراده بمعرفة أسمائه — سبحانه — فذلك سرٌّ لم يُطْلِع عليه
مَلَكٌ مُّقَرَّبٌ . ومن لبس له رتبة مساواة آدم فى معرفة أسماء المخلوقات فأى طمع فى مداناته
فى أسماء الحق ، ووقوفه على أسرار الغيب ؟

وإذا كان التخصيص بمعرفة أسماء المخلوقات يقتضى أن يصحَّ (به سجود)^(٣) الملائكة

(١) الصدار قبس صغير إلى الجسد ، ولاحظ مقابلة التشيرى بين الصدار للملائكة وبين الثوب والرداء
للإنسان لتدرك مقاصده البعيدة .

(٢) أى للملائكة .

(٣) وردت لى من (بسجود) ورجح أنها كما أثبتنا .

فما العن بالتخصيص بمعرفة أسماء الحق سبحانه ؟ ما الذي يُوجب لمن أكرم به ؟

ويقال خصوصية الملائكة بالتسبيح والتقديس وهذه طاعات تليق بالخلقين ؛ فإن الطاعة سمة العبيد ولا تنعدم ، واللعلم في الجملة صفة مدح يجب في نعم الحق سبحانه وإيجاباً لا يصح لغيره ، فالذي يُكرمه بما يتصف هو سبحانه (بيانه وإن كان للمساواة أتم من الكرام بما يكون مخلوقاً على جنس المخلوقات)^(١) .

ويقال أكرمه في السر بما علمه ثم بين تخصيصه يوم الجهر وقدمه . ويقال قوله : « ثم عرضهم » ثم : حرف تراخ ومهلة . « إماماً على آدم » فإنه أمهله من الوقت ما تقرر ذلك في قلبه ، وتحقق المعلوم له بحقه ثم حينئذ استخبره عما تحقق به واستيقنه . وإماماً على الملائكة ؛ فقال لهم على وجه الوهلة : « أنبنوني » فلما لم يتقدم لهم تعريف تحيروا ، ولما تقدم لآدم التعليم أجاب وأخبر ، ونطق وأفلح ، إظهاراً لعنايته السابقة — سبحانه — بشأنه .

وقوله : « إن كنتم صادقين » فيه إشارة إلى أنهم تعرضوا لدعوى الخصوصية ، والفضيلة والمزية على آدم ، فعرفهم أن الفضل ليس بتقديم تسبيحهم لكنه في قديم تخصيصه . ولما علم الحق سبحانه تقاصر علومهم عن معرفة أسماء المخلوقات ثم كلفهم الإنباء عنها صار فيه أوضح دلالة على أن الأمر أمره ، والحكم حكمه ، فله تكليف المستطيع ، ردّاً على من توهم أن أحكام الحق سبحانه مُعلّلة باستحسان أرباب الغفلة بما يدعونه من قضايا العقول ، لا بل له أن يلزم ما يشاء لمن يشاء ، الحسن ما حكم بتحسينه والقبيح ما حكم بتقبيحه^(٢) .

قوله جلّ ذكره : ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ .

قدّموا الثناء على ذكر ما اعتذروا به ، ونزهوا حقيقة حكمه عن أن يكون يعرض وهم المترضون^(٣) ، يعني لا علم لنا بما سألتنا عنه ، ولا يتوجه عليك لوم في تكليف العاجز

(١) هكذا جاءت العبارة في س وهي لا تخلو من محووس ولستكنا آثرنا عدم التدخل في إصلاحها نظراً لخطورة الموقف الذي تصفه ، ونرجح أن الناسخ مخطئ ، في نقله .

(٢) بشر التشبهي هنا بالمعتزلة الذين يقيسون الأفعال الإلهية بمقاييس إنسانية عقلية (ولستكنا نزهوا الله من حيث العقل فأخطأوا ونزهوا الصوفية من حيث العلم فأصابوا) الرسالة ص ٢٩ .

(٣) وردت (المترضين) ، ويعرض هنا مضارع عرض في الآية السابقة .

بما علمت أنه غير مستطيع له ، إنك أنت العليم الحكيم أى ما تفعله فهو حقٌ صِدْقٌ ليس لأحد عليك حكمٌ ، ولا منك سَفَهٌ وقبح .

قوله جلّ ذكره : ﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تَبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ .

من آثار العناية بآدم عليه السلام أنه لما قال للملائكة : « أَنْبِئُونِي » دَاخِلَهُمْ مِنْ هَيْبَةِ الْخُطَابِ مَا أَخَذَهُمْ عَنْهُمْ ، لَا سِوَا حِينَ طَالَبَهُمْ بِأَنْبِئِهِمْ إِيَّاهُ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ عُلُومُهُمْ . ولما كان حديث آدم عليه السلام رَدُّهُ فِي الْإِنْبَاءِ إِلَيْهِمْ فَقَالَ : « أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ » وَمُخَاطَبَةُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْمَلَائِكَةُ لَمْ يُوْجِبْ لَهُ الْاسْتِغْرَاقُ فِي الْهَيْبَةِ . فلما أخبرهم آدم عليه السلام بأسماء ما تقاصرت عنها علومهم ظهرت فضيلته عليهم فقال : « أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » يَعْنِي مَا تَقَاصَرَتْ عَنْهُ عُلُومُ الْخَلْقِ ، وَأَعْلَمُ مَا تَبْدُونَ مِنَ الطَّاعَاتِ ، وَتَكْتُمُونَ مِنْ اعْتِقَادِ الْخَيْرِيَّةِ عَلَى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالصَّلَاةِ .

[فصل] ولما أراد الحق سبحانه أن يُنَجِّيَ ^(١) آدَمَ عَصِيهِ ، وَعَلَّمَهُ ، وَأَظْهَرَ عَلَيْهِ آثَارَ الرِّعَايَةِ حَتَّى أَخْبَرَ بِمَا أَخْبَرَ بِهِ ، وَحِينَ أَرَادَ إِمْضَاءَ حُكْمِهِ فِيهِ أَدْخَلَ عَلَيْهِ النِّسْيَانَ حَقَّ لِسِيٍّ فِي الْحُضْرَةِ عَهْدِهِ ، وَجَاوَزَ حَدَّهُ ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَى وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عِزْمًا » فَالْوَقْتُ الَّذِي سَاعَدَتْهُ الْعِنَايَةُ تَقْدِمَ عَلَى الْجُمْلَةِ بِالْعِلْمِ وَالْإِحْسَانِ ، وَالْوَقْتُ الَّذِي أَمْضَى عَلَيْهِ الْحُكْمُ رَدُّهُ إِلَى حَالِ النِّسْيَانِ وَالْعَصِيَانِ ، كَذَا أَحْكَامُ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ فِيهَا تَجْرِي وَتَمْضَى ، ذَلٌّ بِحُكْمِهِ الْعَبِيدِ ، وَهُوَ فَعَالٌ لِمَا يَرِيدُ .

[فصل] ولما توهّموا حصول تفضيلهم بتسبيحهم وتقديسهم عرفهم أن بساط العز مقدس عن التجميل بطاعة مطيع أو التدنس بزلة جاحد عنيد ، فَرَدُّهُمْ إِلَى السَّجُودِ لِآدَمَ أَظْهَرَ الْغِنَاءَ عَنْ كُلِّ وَفَاقٍ وَخِلَافٍ ^(٢) .

(١) وردت (ينجب) وهي بلا ريب خطأ في النسخ ويمكن أن تكون ينبغي آدم - نها أثبتنا - أو ينبغي آدم ، والأرجح ما اخترناه .

(٢) وردت (وخلاق) وهي خطأ في النسخ ، وقد اخترنا ما يلائم السياق .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ
فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ
وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ .

السجود لا يكون عبادة لِعَيْنِهِ^(١) ولكن لموافقة أمره سبحانه ، فكان سجودهم لآدم
عبادة لله ؛ لأنه كان بأمره ، وتعظيماً لآدم لأنه أمرهم به تشریفاً لشأنه ، فكان ذلك النوع
خضوع له ولكن لا يسمى عبادة ، لأن حقيقة العبادة نهاية الخضوع وذلك لا يصح
لغيره سبحانه .

ويقال بَيِّنُ أَنْ تَقْدُسَ — سبحانه — بجلاله لا بأفعاله ، وأن التَّجَلُّلَ بتقدّسهم وتسييحهم
عائذُ إليهم ، فهو الذي يجل من أَجَلِّهِ بجلاله لا بأفعاله ، ويميز من أعزّ قدره سبحانه بإعزازه ،
جَلُّ عن إجلال الخلق قدره ، وعزّ عن إعزاز الخلق ذكره .

قوله تعالى : « فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ » أبقى بقلبه ، واستكبر عن السجود بنفسه ، وكان
من الكافرين في سابق حكمه وعلمه . ولقد كان إبليس مدة في دلال طاعته يختال في صدار
مواقفته ، سلّموا له رتبة التقدم ، واعتقدوا فيه استحقاق الاختصاص ، فصار أمره كما قيل :

وكان سراج الوصل أزهى بيننا فهبّت به ريحٌ من البين فانطفا
كان يحسب لنفسه استيجاب الخيرية ، ويحسب استحقاق الزلفة والخصوصية :
فبات بخير والدني^(٢) مطمئنة وأصبح يوماً والزمان تقلبا

فلا سالف طاعة نفعه ، ولا آف رجعة رفعه ، ولا شفاعة شفيح أدركته ، ولا سابق
عناية أمسكت . ومن غلبه القضاء لا ينفعه العناء .

ولقد حصلت من آدم هفوة بشرية ، فتداركت رجعة أحدية ، وأما إبليس فأدركته شقوة
أزلية ، وغلبته قسمة وقضية ، خاب رجاؤه ، وضلّ عناؤه .

(١) الضمير عائذ على آدم أي ليس السجود لآدم عينه ، ويحتمل أنها (لغيره) بدليل قوله فيما بعد
(وذلك لا يصح لغيره سبحانه)

(٢) وردت (الزمان) وقد صححنا البيت طبقاً لما ورد في عيون الأخبار لابن قتيبة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ

الْجَنَّةَ وَكُلَا^(١) مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا

وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا

مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

أَسْكَنَهُ الْجَنَّةَ وَلَكِنْ أَثْبَتَ مَعَ دُخُولِهِ شَجَرَةَ الْمَحَنَةِ ، وَلَوْ لَا سَابِقُ التَّقْدِيرِ لَكَانَ يُبَدَّلُ تِلْكَ الشَّجَرَةُ بِالنُّضَارَةِ ذُبُولًا ، وَبِالْخُضْرَةِ يَبَسًا ، وَبِالْوُجُودِ فَقْدًا ، وَكَانَتْ لَا تَصِلُ يَدُ آدَمَ إِلَى الْأَوْرَاقِ لِيَخْصِفَهَا عَلَى نَفْسِهِ — وَيَقَعُ مِنْهُ مَا يَقَعُ .

وَلَوْ تَطَاوَلَتْ تِلْكَ الشَّجَرَةُ حَتَّى كَانَتْ لَا تَصِلُ إِلَيْهَا يَدُهُ حِينَ مَدَّهَا لَمْ يَقَعْ فِي شَأْنِهِ كُلُّ ذَلِكَ التَّشْوِيشِ وَلَكِنْ بَدَأَ مِنَ التَّقْدِيرِ مَا سَبَقَ بِهِ الْحُكْمُ .

وَلَا مَكَانَ أَفْضَلَ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَلَا بَشَرًا أَكْيَسَ مِنْ آدَمَ ، وَلَا نَاصِحَ يُقَابِلُ قَوْلَهُ إِشَارَةَ الْحَقِّ عَلَيْهِ ، وَلَا غَرِيبَةً (مِنْهُ) قَبْلَ ارْتِكَابِهِ مَا ارْتَكَبَ ، وَلَا عَزِيمَةً أَشَدَّ مِنْ عَزِيمَتِهِ — وَلَكِنَّ الْقُدْرَةَ لَا تُكَابِرُ ، وَالْحُكْمَ لَا يُعَارِضُ .

وَيُقَالُ لَمَّا قَالَ لَهُ : « اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا » كَانَ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الَّذِي يَلِيقُ بِأَخْلَقِ السَّكُونِ إِلَى الْخَلْقِ ، وَالْقِيَامِ بِاسْتِجْلَابِ الْحِظِّ ، وَآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَحْدَهُ كَانَ بِكُلِّ خَيْرٍ وَكُلِّ عَافِيَةٍ ، فَلَمَّا جَاءَ الشَّكْلُ وَالزَّوْجُ ظَهَرَتْ أُنْيَابُ الْفِتْنَةِ ، وَانْفَتَحَ بَابُ الْمَحَنَةِ ، فَمِنْ سَاكِنِ حَوَاءِ أَطَاعَهَا فِيهَا أَشَارَتْ عَلَيْهِ بِالْأَكْلِ ، فَوَقَعَ فِيهَا وَقَعَ ، وَلَقَدْ قِيلَ :

دَاءٌ قَدِيمٌ فِي بَنِي آدَمَ صَبْرُهُ لِبَاسَانِ

[فَصَلْ] وَكُلُّ مَا مُنِعَ^(٢) مِنْهُ ابْنُ آدَمَ تَوَفَّرَتْ دَوَاعِيهِ إِلَى الْإِقْتِرَابِ مِنْهُ .

فَهَذَا آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَيْبَحَتْ لَهُ الْجَنَّةُ بِجَمَلَتِهَا وَنَهَتْ عَنْ شَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَلَيْسَ فِي الْمَنْقُولِ أَنَّهُ مَدَّ يَدَهُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ جَمَلَةٍ مَا أُبْيَحَ ، وَكَانَ عِيْلَ صَبْرِهِ حَتَّى وَقَعَ مَا نَهَتْ عَنْهُ — هَكَذَا صِفَةُ الْخَلْقِ .

[فَصَلْ] وَإِنَّمَا نَبَّهَ عَلَى عَاقِبَةِ دُخُولِ آدَمَ الْجَنَّةَ مِنْ ارْتِكَابِهِ مَا يُوجِبُ خُرُوجَهُ مِنْهَا حِينَ

قَالَ : « إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً » فَإِذَا أَخْبَرَ أَنَّهُ جَاعِلُهُ خَلِيفَتَهُ فِي الْأَرْضِ كَيْفَ يُمْكِنُ بَقَاؤُهُ فِي الْجَنَّةِ ؟

(١) وَرَدَتْ خَطَأً (فَسْكَلا) ، وَالصَّحِيحُ (وَكَلَا) الْبَقَرَةُ : ٣٥ .

(٢) وَرَدَتْ (اِمْتَنَعَ) ثُمَّ اسْتَدْرَكَ النَّاسِخُ فَصَحَّحَهَا عَلَى هَذَا النُّعْرِ فِي الْهَامِشِ .

ويقال أصبح آدم عليه السلام محمود الملائكة ، مسجود الكافة ، على رأسه تاج الوصلة ، وعلى وسطه نطاق القرية ، وفي جيبه (. . .) ^(١) الزلفة ، لا أحد فوقه في الرتبة ، ولا شخص مثله في الرفعة ، يتوالى عليه النداء في كل لحظة يا آدم يا آدم . فلم يُنْسِ حتى نُزِعَ عنه لباسه ، وسُلب استثناسه ، والملائكة يدفعونه بعنف أن يخرج بغير مكث :

وَأَمِينُهُ فَأَتَاكَ لِي مِنْ تَأْمِينِي مَكْرًا ، كَذَا مِنْ يَأْمَنِ الْأَحْبَابِ

ولما ناه آدم عليه السلام في مشيته لم يلبث إلا ساعة حتى خرج بألف ألف عتاب ، وكان كما قيل :

لِلَّهِ دَرُّهُمْ مِنْ فِتْنَةٍ بَكَرُوا مِثْلَ الْمُلُوكِ وَرَاحُوا كَالْمَسَاكِينِ

[فصل] نهاء عن قرب الشجرة بأمره ، وألقاه فيما نهاء عنه بقهره ، ولبس عليه ما أخفاه فيه من سيرة .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَزَلُّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ .

أزلهما أى تحلّهما على الزلة ، وفي التحقيق : ما صرفتَهُمَا إلا القدرة ^(٢) ، وما كان تقلبهما إلا في القضية ، أخرجهما عما كانا فيه من الرتبة والدرجة جبراً ، ولكن ما ازداد — في حكم الحق سبحانه — شأنهما إلا رفعة وقدرًا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ .
أوقع العداوة بينهما وبين الشيطان ، ولكن كان سبحانه مع آدم (وحرب وهو معهم محالهم بالظفر ^(٣)) .

[فصل] لم يكن للشيطان من الخطر ما يكون لعداوته إثبات ، فإن خصوصية الحق سبحانه عزيزة قال تعالى : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ » .

[فصل] لو كان لإبليس سلطان على غواية غيره لكان له إمكان في هداية نفسه ،

(١) مشتبه ولكن يحتمل أنها (نضار) فهي قرينة من ذلك في الرسم .

(٢) هذا رأى على جانب كبير من الأهمية .

(٣) هكنا وردت العبارة في س وقد أثبتناها كما هي دون تصرف حتى في رسم الحروف .

وكيف يكون ذلك ؟ والتفرد بالإبداع لسكل شيء من خصائص نعمته سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ .

مشهد الأشباح ومألفها أقطار الأرض ، ومعهد الأرواح ومرتعها رداء العرش ، ولفظ الرداء استعارة وتوسع فكيف يكون لهم بالجلد ثمان تعلّق ، ولصعود القصور إلى الحقائق على الأغيار وقوع .

قوله جل ذكره : ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ .

إنه هو التواب الرحيم .

جرت على لسان آدم مع الحق — سبحانه — كلمات ، وأسمع الحق — سبحانه — آدم كلمات ، وأنشدوا :

وإذا يخفنا من الرقباء عينا تكلمت السرائر في القلوب

وأجل الحق سبحانه القول في ذلك إجمالاً لِيُبَيِّنَ القصة مستورة ، أو ليكون للاحتمال والظنون مساغ ، ولما يحتمله الحال من التأويل مطرح^(١) .

ويحتمل أن تكون كلمات آدم عليه السلام اعتذاراً وتنصلاً ، وكلمات الحق سبحانه قبولاً وتفضلاً . وعلى لسان التفسير أن قوله تعالى له : أفراراً منا يا آدم ؟ كذلك قوله عليه السلام : ربنا ظلمنا أنفسنا . وقوله : أخرجني أمت من الجنة ؟ فقال : نعم ، فقال أنزدي إليها ؟ فقال : نعم .

ويقال حين أمر بخروجه من الجنة جعل ما أسمعته إياه من عزيز خطابه زاداً ، ليكون له تذكرة وعتاداً :

وأذكر أيام الحى ثم انثني على على كبدى^(٢) من خشية أن تقطعا

ومخاطبات الأحياء لا تحتمل الشرح ، ولا يحيط الأجانب بها علماً ، وعلى طريق الإشارة لا على معنى التفسير والتأويل ، والحكم على الغيب بأنه كان كذلك وأراد به الحق سبحانه

(١) مطرح أى موضع .

(٢) وردت على (كبد) . (والأصل في البيت) (تصدعا) بدلا من (تنظما) .

ذلك يحتمل في حال الأحباب عند المفارقة ، وأوقات الوداع أن يقال إذا خرجت من عندي فلا تنس عهدي ، وإن تقاصر عنك يوماً خبري فأياك أن تؤثر عليّ غيري ، ومن المحتمل أيضاً أن يقال إن فائتي وصولك فلا يتأخرن عني رسولك .

قوله جل ذكره : ﴿ قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

سوء الأدب على البساط يوجب الرد إلى الباب ، فلما أساء آدم عليه السلام الأدب في عين القرية قال الله تعالى : « اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ، بعد أن كان لكم في محل القرية قرار ومنتاع إلى حين ، يستمتعون يسيراً ولكن (في) آخرهم يعودون إلى الفقر ، وأنشدوا :

إذا افتقروا عادوا إلى الفقر حسبة^(١) وإن أيسروا عادوا سراعا إلى الفقر

وحين أخرجه من الجنة وأنزله إلى الأرض بشره بأنه يردّه إلى حاله لو جنح بقلبه إلى الرجوع فقال : « فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾

والذين قابلوا النعمة بنير الشكر ، وغفلوا عن التصديق والتحقيق فلهم عذاب أليم مؤجل ، وفراق معجل .

قوله جل ذكره : ﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ﴾ .

حقيقة النعمة على لسان العلماء^(٢) لغة خالصة عن الشوائب ، وما يوجب مثلها فهي أيضاً عندهم نعمة ، وعند أهل الحقيقة النعمة ما أشهدك المنعم أو ما ذكرك بالمنعم أو ما أوصلك إلى إلى المنعم أو ما لم يحجبك عن المنعم .

(١) حسبة أي احتساباً - هكذا في المباحث .

(٢) واضح أن مقصود التشير من (لسان العلماء) و (لسان التفسير) هو التفسير المأدب ، أما (عند أهل الحقيقة) و (الإشارة منه) ونحو ذلك فهو التفسير الصوفي .

وتنقسم إلى نعمة إبطار وظواهر ، ونعمة أرواح وسرائر ، فالأولى وجوه الراحة والثانية
صنوف المشاهدات والمكاشفات . فمن النعم الباطنة عرفان القلوب ومحاب الأرواح
ومشاهدات السرائر^(١) .

[فصل] ويقال أمرَ بنى إسرائيل بذكر النعم وأمرَ أمةً محمد صلى الله عليه وسلم بذكر
النعم ، وفرق بين من يقال له اذكر نعمتى وبين من يقال له : فاذكرونى اذكركم .

قوله جل ذكره : ﴿ وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياى فارهبون ﴾
عهده — سبحانه — حفظ المعرفة وعهدنا اتصال المغفرة ، عهده حفظ محابه وعهدنا
لطف ثوابه ، عهده حضور الباب وعهدنا جزيل المآب .

أوفوا بعهدي بحفظ السر أوف بعهديك بحمى البر ، أوفوا بعهدي الذى قبلتم يوم الميثاق
أوف بعهديك الذى ضمننت لكم يوم التلاق ، أوفوا بعهدي فى ألا تؤثروا على غيرى أوف
بعهدكم فى ألا أمتع عنكم لطفى وخيرى ، أوفوا بعهدي برعاية ما أثبت فىكم من الودائع أوف
بعهدكم بما أديم لكم من شوارق اللوامع وزواهر الطوالع^(٢) ، أوفوا بعهدي بحفظ أسرارى أوف
بعهدكم بحمىل مَبَارَى ، أوفوا بعهدي باستدامة عرفانى أوف بعهديك فى إدامة إحسانى ،
أوفوا بعهدي فى القيام بخدمتى أوف بعهديك فى المنة عليكم بقبولها منكم ، أوفوا بعهدي فى
القيام بحسن المجاهدة والمعاملة أوف بعهديك بدوام المواصلة والمشاهدة ، أوفوا بعهدي بالنبرى
عن الحول والمنة أوف بعهديك بالإكرام بالطول والمنة ، أوفوا بعهدي بالتفضيل والتوكل أوف
بعهدكم بالكفاية والتفضل ، أوفوا بعهدي بصدق المحبة أوف بعهديك بكال القربة ، أوفوا
بعهدى ا كسفوا منى بى أوف بعهديك أرضى بكم عنكم ، أوفوا بعهدي فى دار النبية على بساط
الخدمة بشد نطق الطاعة ، وبذل الوسع والاستطاعة أوف بعهديك فى دار القربة على بساط
الوصلة بإدامة الأئس والرؤية وسماع الخطاب وتمام الزلفة ، أوفوا بعهدي فى المطالبات بترك

(١) نعرف من هذا ان الملكات الباطنة عند القشبرى هى فضلا عن النفس التى هى محل المحظورات
والمعلولات ، والعقل الذى به تصحيح الإيمان فى البداية — القلب وهو مستودع المعرفة والروح وهى مستودع
المحبة ثم السر وهو الذى يشاهد الحقائق ، وله فوق ذلك ملكة أخرى هى سر السر أو عين السر لا يطلع
عليها سوى الحق .

(٢) اللوامع تسبق الطوالع فى الظهور ، والطوالع ابقى وقتاً وأقوم سلطاناً وأدوم مكاناً وأذهب لاطنة
واننى للهمة (الرسالة من ٤٣ ، ٤٤) .

الشهوات أوفِ بعهديكم بكفائتكم تلك المطالبات ، أوفوا بعهدي بأن تقولوا أبداً : ربى ربى
أوفِ بعهديكم بأن أقول لكم عهدي عهدي . وإياي فارهبون ، أى أفرّدوني بالخشية لانفرادى
بالقدرة على الإيجاد فلا تصح الخشية من ليس له ذرة ولا منة .

قوله جل ذكره : ﴿وَأْمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ
وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا
بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّاي فَاتَّقُونَ﴾ .

الإشارة أن يقرن (العبد) إيمانه من حيث البيان بإيمانه من حيث البرهان ، وجمهور
المؤمنين لهم إيمان برهان بشرط الاستدلال ، وخواص المؤمنين لهم إيمان من حيث البيان بحق
الإقبال ، وأقبل الحق سبحانه عليهم فآمنوا بالله ، وآخر أجوالهم الإيمان من حيث العيان ،
وذلك لخواص الخواص .

ولا تكونوا أول كافرٍ به ، ولا تسئوا^(١) الكفر سنة فإن وزر المبتدئ فيها يسُّ أعظم
من وزر المقتدى فيها يتابع .

«ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً» لا تؤثروا على عظيم حتى خسب حطكم . «وإياي فاتقون»
كثير^(٢) من يتقى عقوبته وعزير من يهاب اطلاعه ورؤيته .

قوله جل ذكره : ﴿وَلَا تَلْبِسُوا^(٣) الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا
الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ .

لا تتوهموا أن يلتئم لكم جمع الضدين ، والكون في حالة واحدة في محلين^(٤) ، (فالعبد)
إما مبسوط بحق أو مربوط بحظ ، وأما حصول الأمرين فمحال من الظن .
«ولا تلبسوا الحق بالباطل» تدليس ، «وتكتموا الحق» تليس ، «وأنتم تعلمون» أن
حق الحق تقديس ، وأشدوا :

أيها المنكح الثريا سهيلاً عمرك الله ، كيف يلتقيان ؟
هى شامية إذا ما استهلّت وسهيلٌ إذا استهل يمانى !

(١) وردت (ولا تلبسوا) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) وردت (كثيراً) وهى خطأ حيث يجب الرفع على تقدير (من يتقى عقوبته كثير) .

(٣) أخطأ الناسخ إذ كتبها . (ولا تلبس) والصحيح ولا تلبسوا (البقرة : ٤١) .

(٤) وردت فى (محلي) وهى خطأ فى النسخ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ

وَارْكَبُوا مَعَ الرَّاكِبِينَ ﴾

احفظوا آداب الحضرة ؛ فحفظ الآداب أتم في الخدمة من الخدمة ، والإشارة في إيتاء الزكاة إلى زكاة الهِمَم كما تؤدي زكاة النعم ، قال قائلهم :

كلُّ شيء له زكاةٌ تؤدي وزكاةُ الجبال رحمةٌ مثلي

فيفيض من زوائده همه ولطائف نظره على المتبعين والمربين بما ينتعشون به و (...) (١) ،
« واركبوا مع الراكبين » : تقتدى بآثار السلف في الأحوال ، وتجتنب سنن الانفراد فإن
الكون في غمار الجمع أسلم من الامتياز من الكفاة (٢) .

قوله جل ذكره : « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ
أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تُلُونَ الْكِتَابَ
أَفَلَا تَعْقِلُونَ » .

أُتَحَرَّضُونَ النَّاسَ عَلَى الْبِدَارِ (٣) وَتَرْضَوْنَ بِالتَّخَلُّفِ ؟ وَيَقَالُ أَتَدْعُونَ الْخَلْقَ إِلَيْنَا وَتَعْمَدُونَ
عَنَّا ؟ أَتَسْرَحُونَ الرِّفُودَ وَتَقْصُرُونَ فِي الرُّوْدِ (٤) ؟ أَتُنَافِسُونَ الْخَلْقَ (٥) وَتَنَافِرُونَهُمْ بِدَقَائِقِ
الْأَحْوَالِ وَتَرْضَوْنَ بِإِفْلَاسِكُمْ عَنْ ظَوَاهِرِهَا ؟
ويقال أتبصرون من الحق مثقال الذرِّ ومقياس الحبِّ وتساهمون لأنفسكم أمثال الرُّمالِ
والجبال ؟ قال قائلهم :

وتبصر في العين منى القذى وفي عينك الجذع لا تبصر ؟ !
ويقال أَتُسْفَرُونَ بِالنُّجْبِ (٦) وَلَا تَشْرَبُونَ بِالنُّوْبِ ؟

(١) هنا لفظتان. مشتبتان وفيهما شطب .

(٢) الإشارة وإن كانت لصلاة الجماعة إلا أنها توضح أيضا حرص القشيري على الاهتمام بالاجماع كمصدر
من مصادر الشريعة .

(٣) وردت بالياء وهي خطأ في النسخ .

(٤) من ورد الماء أى ذهب ليستغى .

(٥) وردت أتنافسون (الحق) وواضح أنها خطأ في النسخ .

(٦) نجب الأشياء ونجائبها كبساتها وخالصها ، وربما كانت النخب (بالحاء) ج نخب وهو الشربة العظيمة

الوسيط ص ٩١٥ .

« وأنتم تتلون الكتاب » ثم تعاندون بخفايا الدعاوى وتجدون بما شام قلوبكم من فضيحات الخواطر وصريجات الزواجر .

« أفلا تعقلون » إن ذلك ذمٌّ من الخصال وقبيحٌ من الفعال .

قوله جل ذكره : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴾ .

الصبر فطم النفس عن المألوفات ، والصلاة التعرُّض لحصول المواصلات ، فالصبر يشير إلى هجران الغير ، والصلاة تشير إلى دوام الوقوف بحضرة الغيب ، وإن الاستعانة بهما خصلة شديدة إلا على من تجلَّى الحق لسيره فإن في الخبر المنقول : « إن الله تعالى إذا تجلَّى لشيء ^(١) خضع له » . وإذا تجلَّى الحق ، خفَّ وسهَّل ما توقى الخلق ، لأن التوالت للطاعات يوجب التكليف بموجب مقاساة الكلفة ، والتجلَّى بالمشاهدات — بحكم التحقيق — يوجب تمام الوصلة ودوام الزلفة .

ويقال استعينوا بي على الصبر ممي ، واستعينوا بحفظي لكم على صلاتكم لي ، حتى لا تستفرقكم واردات الكشف والهيبة ، فلا تقدرّون على إقامة الخدمة .
وإن تخفيف سطوات الوجود على القلب في أوان الكشف حتى يقوى ^(٢) العبد على القيام بأحكام الفرق كميناً عظيمة من الحق ^(٣) .

وأقسام الصبر كلها محمودة الصبر في الله ، والصبر لله ، والصبر بالله والصبر مع الله إلا صبراً واحداً وهو الصبر عن ^(٤) الله :

والصبر يخلص في المواطن كلها إلا عليك فإنه مذموم ^(٥)

قوله جل ذكره : ﴿ الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون ﴾ .

(١) وردت بدون اللام ، والأصح بها .

(٢) وردت حتى (يقول) وهي خطأ في النسخ .

(٣) يشير التشيرى بذلك إلى الفرق الثانی ، ويستبر أن من علامة قبول العبد عند ربه أن يساعده على الرجوع إلى هذا الفرق حتى يستطيع أداء ما عليه من فريضة

(٤) الأرجح أنها (على) بدليل ورودها في البيت الشاهد ، كذا في « الرسالة » في سياق مماثل .

(٥) ورد البيت في الرسالة هكذا (والصبر يخلص) و (فإنه لا يخلص) ص ٩٣ .

الظن يُذكر ، ويقال المراد به اليقين ، وهو الأظهر هنا .
ويذكر ويراد به الحساب فمن ظن ظن يقين فصاحب وصلة .
ومن ظن ظن تخمين فصاحب فرقة . وملاقو ربهم ، صيغة تصلح لماضي الزمان والحاضر
وهم ملاقون ربهم في المستقبل . ولكن القوم^(١) لتحقيقهم بما يكون من أحكام الغيب صاروا
كأن الوعد لهم تقرر ، والغيب لهم حضور .

قوله جل ذكره : ﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي
أنعمت عليكم وأني فضلتكم على
العالمين ﴾ .

أشهد بني إسرائيل فضل أنفسهم فقال : « وأني فضلتكم على العالمين »
وأشهد المسلمين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فضل نفسه فقال : « قل بفضل الله وبرحمته
فبذلك فليفرحوا »^(٢) .

فشتان بين من مشهوده فضل نفسه ، وبين من مشهوده فضل ربه ؛ فشهود العبد فضل
نفسه يوجب له الشكر وهو خطر الإعجاب ، وشهود العبد فضل الحق — الذي هو جلاله
في وصفه وجماله في استحقاق نعمته — يقتضي الثناء وهو يوجب الإعجاب^(٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس
شيئاً ولا يقبل منها شفاعاة ولا يؤخذ
منها عدل ولا هم ينصرون ﴾

العوام خوّفهم بأفعاله فقال : « واتقوا يوماً » « واتقوا النار » .
والخواص خوّفهم بصفاته فقال : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله » وقال :
« وما تكون في شأن . . . إلى قوله إلا كنا عليكم شهودا »^(٤) .
وخاص الخواص خوّفهم بنفسه فقال : « ويحذركم الله نفسه »

(١) يقصد الصوفية .

(٢) سورة يونس آية ٥٨ .

(٣) الإعجاب = الاستحقاق والقبول .

(٤) يونس آية ٦١ .

والعدل . الفداء

ويوم القيامة لا تسمع الشفاعة إلا لمن أمر الحق بالشفاعة له ، وأذن فيه ، فهو الشفيع الأكبر — على التحقيق — وإن كان لا يطلق عليه لفظ الشفيع لعدم التوقيف^(١) .
وفي معناه قيل :

الحمد لله شكراً فكل خيرٍ لديه
صار الحبيب شفيعاً إلى شفيعٍ إليه
والذين أصابهم نكبة القسمة لا تنفعهم شفاعة الشافعين ، ومالم من ناصرين ، فلا يقبل
منهم فداء ، ولو افتدوا بملء السموات وملء الأرضين .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ نجيناكم من آل فرعون

يسومونكم سوء العذاب ، يدعون
أبنائكم ويستحيون نساءكم ، وفي ذلكم
بلاء من ربكم عظيم ﴾ .

من صبر في الله على بلاء أعدائه عوضه الله صحبة أوليائه ، وأتاح^(٢) له جميل عطاياه ؛
فهؤلاء بنو إسرائيل صبروا على مقاساة الضر من فرعون وقومه فجعل منهم أنبياءهم ، وجعلهم
ملوكاً ، وآتاهم مالم يؤت أحداً من العالمين . « وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم » : قيل نعمة
عظيمة وقيل محنة شديدة . وفي الحقيقة ما كان من الله — في الظاهر — محنة فهو
— في الحقيقة لمن عرفه — نعمة ومنية .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم

وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون ﴾ .

تقاصرت بصائر بني إسرائيل فأراهم المعجزات عياناً ، وفقدت بصائر هذه الأمة فكاشفهم
بآياته سرّاً ، وبذلك جرت سُنُّه سبحانه ، وكل من كان أشدَّ بصيرةً كان الأمر عليه أغمض ،

(١) وردت (التوفيق) وهي خطأ في النسخ ، والقشيري — كغيره من الباحثين — يرى أنه لا ينبغي
إضافة أسماء وصفات لما ورد في الحديث المروي عن أبي هريرة والذي أبلغها تسعة وتسعين ، فلا يصح
أن يسمى الله عاقلاً ولا ذكياً ونحو ذلك .
(٢) وردت (بالحاء) وهي خطأ في النسخ .

والإشارات معه أوفر ، قال صلى الله عليه وسلم : « أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً »^(١) .

وحين شاهدوا ظاهر تلك الآيات من فلق البحر وإغراق آل فرعون — ذآخَلَهُمْ رَبُّهُ فَقَالُوا : إِنَّهُ لَمْ يَفْرُقْ^(٢) حتى قذفهم البحر ، فنظر بنو إسرائيل إليهم وهم مفرقون . وهذه الأمة لفظ تصديقهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله ، وقوة بصائرهم (أن) قال واحد من أفتاء^(٣) الناس : « كَأَنِّي بِأَهْلِ الْجَنَّةِ يَتَزَاوَرُونَ وَكَأَنِّي بِأَهْلِ النَّارِ يَتَعَاوَنُونَ وَكَأَنِّي أَنْظُرُ عَرْشَ رَبِّي بَارِزاً »^(٤) فشتان بين من يُعَايِنُ فَيَرْتَابُ مع حياته ، وبين مَنْ يَسْمَعُ فَكَالِمَايَنَ حاله من قوة إيمانه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ .

شتان بين أمة وأمة ؛ فأمة موسى عليه السلام — غاب نبئهم عليه السلام أربعين يوماً فاتخذوا العجلَ معبودهم ، ورضوا بأن يكون لهم بمثل العجل معبوداً ، فقالوا : « هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ »^(٥) وأمة محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم مضى من وقت نبئهم سنون كثيرة فلو سمعوا واحداً يذكر في وصف معبودهم ما يوجب تشبيها لما أبقوا على حشاشتهم ولو كان في ذلك ذهاب أرواحهم^(٦) .

(١) « إِنَّمَا بَشَتْ فَاتَحًا وَخَانِمًا وَأَعْطَيْتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَفَوَانِحَهُ وَاخْتَصَرْتُ الْحَدِيثَ اخْتِصَاراً فَلَا يَهْلِكُكُمْ الشُّهُوْكَوْنُ » البيهقي في شعب الإيمان عن أبي قتادة مرسلاً (المنتخب من كنز العمال ٣٠٢ ص ٤) .

والشُّهُوْكَوْنُ اضطراب في القول وأن يكون على غير استقامة .

(٢) الفعل بالمفرد هنا لأنه عائد على لفظ آل أو على فرعون ، ثم تحدث بعد ذلك بالجمع حين أعاده على المعنى

(٣) افتاء وفتاء جمع فتى وهو الشاب من إنسان أو حيوان الوسيط ص ٦١٠ .

(٤) أخرجهنا عن الحديث المروى عن حارثة في هامش سبق .

(٥) سورة طه آية ٨٨ .

(٦) يغمز القشيري هنا بالمشبهة ، فيلحق من يقول بالتشبيه ببسطة العجل ، فكلاماً مما توقعه ونسب

للالوهية ما يلغى أن تتزه عنه . وأهل السنة يرفضون رفضاً قاطعاً كل ما يشين الذات الإلهية من تصورات مادية .

ويقال إن موسى — صلوات الله عليه — سلم أمته إلى أخيه فقال : اخلفني في قومي ،
 وحين رجع وجدهم وقعوا في الفتنة ، ونبينا — صلوات الله عليه — توكل على الله فلم
 يُشِرْ على أحدٍ في أمر الأمة وكان يقول في آخر حاله : الرفيق الأعلى . فانظر كيف تولى الحق
 رعاية أمته في حفظ التوحيد عليهم . لعمرى يُضَيِّعون حدودهم ولكن لا ينقضون^(١) توحيدهم .
 قوله جل ذكره : ﴿ ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم
 تشكرون ﴾

سرعة العفو على عظيم الجرم تدل على حقارة قدر العفو عنه ، يشهد لذلك قوله تعالى
 (مخاطباً أمهات المسلمين) : « من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين » ،
 هؤلاء بنو إسرائيل عبدوا العجل فقال الله تعالى : « ثم عفونا عنكم من بعد ذلك » ،
 وقال لهذه الأمة (يقصد أمة محمد صلى الله عليه وسلم) : « ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره »
 قوله جل ذكره : ﴿ وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان
 لعلكم تهتدون ﴾ .

فرقان هذه الأمة الذي اختصوا به نوراً في قلوبهم ، به يفرقون بين الحق والباطل ،
 قال النبي صلى الله عليه وسلم لو ابصت : « استفت قلبك »^(٢) .
 وقال : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله »^(٣) .
 وقال الله تعالى : « إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا » وذلك الفرقان ميراث ما قدموه
 من الإحسان .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم
 ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ﴾ .
 أي ما أضررتم إلا بأنفسكم فيما ارتكبتم من ذنوبكم ، فأما الحق سبحانه فعزير الوصف ،
 لا يعود إلى عزه من ظلم الظالمين شيء ، ومن وافق هواه واتبع مناه فعجله ما علق به همه ،
 وأفرد له قصده .

(١) وردت (ينقضون) بالصاد والأقوى أن تكون بالضاد لأن المقصود هو تمك أمة محمد (س) بعدم
 (نقض) التوحيد .
 (٢) مكنا رواه أحمد في مسنده والبخاري في تاريخه والدارمي في سننه وحنه النووي في رياض
 الصالحين بلفظ « استفت نفسك وإن أفتاك المفتون » .
 (٣) الترمذي والطبراني من حديث أبي أمامة والترمذي من حديث أبي سعد والطبراني وابن نعيم عن أس

قوله جل ذكره : ﴿ فتوبوا إلى بارئكم ﴾ .

الإشارة إلى حقيقة التوبة بالخروج إلى الله بالكلية .

قوله جل ذكره : ﴿ فاقتلوا أنفسكم ﴾

التوبة بقتل النفوس غير (. . .)^(١) إلا أن بني إسرائيل كان لهم قتل أنفسهم جبراً ، وهذه الأمة توبتهم بقتل أنفسهم سرّاً ، فأول قَدَمٍ في القصد إلى الله الخروجُ عن النفس .

[فصل] ولقد توهم الناس أن توبة بني إسرائيل كانت أشق ، ولا كما توهموا ؛ فإن ذلك كان مقاساة القتل مرة واحدة ، وأما أهل الخصوص من هذه (الأمة)^(٢) ففي كل لحظة قتل ، ولهذا :

ليس من مات فاستراح بميتٍ إنما الميت ميت الأحياء
وقتل النفس في الحقيقة التبري عن حويلها وقوتها أو شهود شيء منها ، ورد دعواها إليها ، وتشويش تدبيرها عليها ، وتسليم الأمور إلى الحق — سبحانه — بجملتها ، والسلاخها من اختيارها وإرادتها ، وانمحاء آثار البشرية عنها ، فأما بقاء الرسوم والهياكل فلا خطر له ولا عبرة به .

قوله جل ذكره : ﴿ ذلك خير لكم عند بارئكم فتاب

عليكم إنه هو التواب الرحيم ﴾

كونه لكم عنكم أتمُّ من كونكم لأنفسكم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نبز من لك

حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة

وأنتم تنظرون ﴾ .

التعرض بمطالعة الذات على غير نعمة إلهية إفصاحٌ بترك الحرمة ، وذلك من أمارات

البعد والشقوة .

(١) هنا كلمة مُشْفِهَةٌ .

(٢) بقصد أمة المصطفى صلوات الله عليه وسلامه .

وإثبات نعت التولى بمكاشفات العزة مقرونا بملاطفات القربة من علامات الوصلة ، دلالات السعادة .

فَلَا جَرَمَ لِمَا أَطْلَقُوا لِسَانَ الْجَهْلِ بِتَقْوِيَةٍ تَرَكِ الْحَشْمَةُ أَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ وَالصَّعْقَةُ .

قوله جل ذكره : ﴿ نَمِ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَمَلِكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

أعادهم إلى حال الإحساس بعد ما استوقفتهم سطوات العذاب إملاء لهم بمقتضى الحكم ، وإجراء للسنة في الصفح عن الجرم ، ومن قضايا الكرم إسبال السر على هنأت الخدم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّالْوَى ، كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

لما طرحهم في متاهات القرية لم يرض إلا بأن ظللهم ، ولبسة الكفريات جللهم ، وعن تكلف التكسب أغنام ، وبجميل صنعه فيها احتاجوا إليه تولاهم ؛ فلا شعورهم كانت تطول ، ولا أظفارهم كانت تنبت ، ولا ثيابهم كانت تتسخ ، ولا شعاع الشمس عليهم كان ينبسط . وكذلك سنته لمن حال بينه وبين اختياره ، يكون ما يختاره سبحانه له خيراً مما يختاره لنفسه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَمَكَرُوا بِهَا بِغَدَاةٍ ، فَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ، وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ، وَسَيَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

(١) بنو إسرائيل على تضييع ما كانوا يؤثرون ، حتى قالوا أوصوا بحفظها فبدلوها ، وحالة من السجود أمروا بأن يدخلوا عليها فحوّلوها ، وعرضوا أنفسهم لسهام الغيب ، ثم لم يطيقوا الإصابة بقرعها (٢) ، وتعرضوا لمفاجآت العقوبة فلم يثبتوا عند صدمات وقعها .

(١) كلمة مشبهة في ص . (٢) وردت بدون الباء في م وقد أضفناها لبتقيم للمعنى .

قوله جل ذكره : ﴿ قَبِّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي

قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا

مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ .

لم يمكنهم أن يردوا باب السماء باحتيالهم ، أو يصدوا من دونهم أسباب البلاء بما ركنوا إليه من أحوالهم ، فزعوا من الندم لما عضهم ناب^(١) الألم ، وهيبات أن ينفعهم ذلك لأنه محال من الحساب .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ

بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ

عَيْنًا ، قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ،

كَلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ ،

وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ .

إن الذي قدر على إخراج الماء من الصخرة الصماء كان قادراً على إدوائهم بغير ماء ولكن لإظهار أثر المعجزة فيه ، وإيصال محل الاستغاثة إليه ، وليكون على موسى عليه السلام — أيضاً في ثقل الحجر — مع نفسه شغل ، ولتكليفه أن يضرب بالصامدة مقلداً نوع من معالجة ما أمضى حكمه عند استسقائه لقومه^(٢) .

ثم أراد الحق سبحانه أن يكون كل قوم جارية على سنة ، ملازماً لحده ، غير مزاحم لصاحبه فأفرد لكل سبطة علامة يعرفون بها مشربهم ، فهؤلاء لا يردون مشرب الآخرين ، والآخرون لا يردون مشرب الأولين .

وحين كفاهم ما طلبوا أمرهم بالشكر ، وحفظ الأمر ، وترك اختيار الوزر ، فقال : ولا تفسدوا في الأرض مفسدين .

والمناهل مختلفة ، والمشارب متفاوتة ، وكل يرد مشربه ، فمشرب عذب فرات ، ومشرب ملح أجاج ، ومشرب صاف زلال ، ومشرب رقيق أو شال^(٣) . وسائق كل قوم

(١) وردت (تاب) بالتاء وهي خطأ في النسخ .

(٢) لاحظ هنا مذهب القشيري في التوكل ، وكيف أنه لا يتعارض مع السعي .

(٣) أو شال : جمع وشال وهو الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة ولا يتصل قطره الوسيط من ١٠٤٧ .

يقودهم ، ورائد كُلِّ طائفة يسوقهم ؛ فالنفوس تَرِدُ مناهل المني والشهوات ، والقلوب تَرِدُ
مشارب التقوى والطاعات ، والأرواح تَرِدُ مناهل الكشف والمشاهدات ، والأسرار تَرِدُ
مناهل الحقائق بالاختطاف عن الكون والمسمومات ، ثم عن الإحساس والصفات ثم بالاستهلاك
في حقيقة الوجود والذات .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا يَا مُوسَىٰ إِنَّا نَصَبُ عَلَىٰ طَعَامٍ
وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا
مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا
وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصَلِهَا . قَالَ
أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ
أَهْبَطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ ،
وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا
بِفَضْلٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا
يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ
بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا
يَعْتَدُونَ ﴾ .

لم يرضوا بحسن اختياره لهم ، ولم يصبروا على قيامه بتولى ما كان يهيمهم من كفاية
ما كולם وملبوسهم ، فتزلوا في التحير إلى ما جرت ^(١) عليه عاداتهم من أكل الخسيس من
الطعام ، والرضا بالدون من الحال ، فردّهم إلى مقاساة الهوان ، وربطهم بإدامة الخذلان ، حتى
سفكوا دماء الأنبياء وهتكوا حرمة الأمر بِقِلَّةِ الاستحياء ، وتركِ الاروَءِ ، فعاقبهم على
قبيح فعلهم ، وردّهم إلى ما اختاره لأنفسهم من خسائس أحوالهم ، وحين لم تنجح فيهم ^(٢)
النصيحة ، أدركتهم النعمة والفضيحة . ويقال كان بنو إسرائيل متفرقي الهموم مُشْتَتِي القصود ؛
لم يرضوا لأنفسهم بطعام واحد ، ولم يكتفوا في تدينهم بعبود واحد ، حتى قالوا لموسى
عليه السلام — لِمَا رَأَوْا قَوْمًا يَعْبُدُونَ الصَّنَمَ ^(٣) — يا موسى : اجعل لنا إلهًا كما لهم إله ،

(١) وردت في ص (مرث) وهي بالجيم أصوب . (٢) وردت (فهم) وهي خطأ في النسخ .

(٣) وردت (الفم) وهي خطأ في النسخ .

وهكذا صفة أرباب التفرقة . والصبر مع الواحد شديد ، قال تعالى : « وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا » .

قوله جل ذكره : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى

وَالصَّابِئِينَ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ

وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

اختلاف الطريق مع اتحاد الأصل لا يمنع من حسن القبول ، فمن صدق الحق سبحانه

في آياته ، وآمن بما أخبر من حقه وصفاته ، فتباين الشرع واختلاف وقوع الاسم غير قادح

في استحقاق الرضوان، لذلك^(١) قال: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا» ثم قال : « من آمن منهم ،

أى إذا اتفقوا في المعارف فالكل لهم حُسنُ المكاب ، وجزيلُ الثواب . والمؤمن من كان في أمان

الحق سبحانه ، ومن كان في أمانه - سبحانه وتعالى - فبالحرى ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا

فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ

وَإِذْ كَرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ، ثم توليتهم

من بعد ذلك فلولا فضلُ الله عليكم

ورحمته لكنتم من الخاسرين ﴾

أخذ سبحانه ميثاق جميع المُكَلِّفِينَ ، ولكن قوماً أجابوا طوعاً لأنه تعرف إليهم فوحدوه

وقوماً أجابوه كرهاً لأنه ستر عليهم فجحدوه ، ولا حُجَّة أقوى من عيان ما رفع فوقهم من

الطور - وهو الجبل - ولكن عديموا نور البصيرة ، فلا ينفعهم عيان البصر . قال الله تعالى

« ثم توليتهم من بعد ذلك » ، أى رجعتهم إلى العصيان بعد ما شاهدتم تلك الآيات بالعيان ، ولولا

حكمه بإمهاله ، وحلمه بأفضاله لعاجلكم بالعقوبة ، وأحلَّ عليكم عظيم المصيبة ونخسرت

صفتكم بالكُلِّيَّة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي

السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ .

(١) وردت (كذاك)

مسخُ هذه الأمة حصل على القلوب ، فكما أنهم لما تركوا الأمر واستهانوا بما ألزموا به من الشرع — عجبت عقوبتهم بالخسف والمسخ وغير ذلك من ضروب ما ورد به النصُّ ، فهذه الأمة من نقض العهد ورفض الحدَّ عوقبت بمسخ القلوب ، وتبديل الأحوال ، قال تعالى : « وَتُغْلِبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَ الْأُولَ الْأُولَ » (١) وعقوبات القلوب أنكى من عقوبات النفوس ، وفي معناه أنشدوا :

يا سائلي : كيف كنتَ بعده ؟ لقيتُ ما ساءني وسرَّه
ما زلت أختال في وصالِي حتى أمنت من الزمان مكره (٢)
طال على الصدود حتى لم يُبقَ مما شهدت ذره

قوله جل ذكره : ﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّأَيِّ يَدِيهَا
وَمَا خَلَفَهَا وَموعدةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ .

هكذا من مَنى بالمهجرات ، ووهم بالخذلان ، صارت أحواله عبرة ، وتجرع — من ملاحظته لحاله — عليه الحسرة ، وصار المسكين — بعد عزه لكل خسيس — سخرة . هكذا آثار سُخطِ الملوك وإعراض السادة عن الأصاغر :

وقد أحرق الصبيان بي وتجمعوا على وأشلوا بالكلاب ورائيا
قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ
أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ .

كان الواجب عليهم استقبال الأمر بالاعتناق ولكنهم تعللوا ببقاء الأشكال توهمًا بأن يكون لهم (. . .) (٣) تفضي بالإخلاد إلى الاعتدال (٤) عن عهدة الإلزام فنضاعت عليهم للشقة وحل بهم (٥) ما حذرروه من الانقضاح .

[فصل] ولما قال إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك ، أي ليست بفتيّة ولا مُسِنَّة بل هي بين السنين . حصلت الإشارة أن الذي يصلح لهذه الطريقة من لا يستهويه

(١) سورة الأنعام آية ١١٠ .

(٢) ورد في البيت (أحتال) و (وجال) و (أنيت) من الزمان وقد أصلحنا ليستقيم المعنى والوزن .

(٣) سقطت هنا لفظة من الناسخ وهو ينتقل من ورقة إلى أخرى ؟

(٤) الاعتدال هنا بمعنى المدول من الشيء .

(٥) وردت (وجلبهم) وهي غير ملائمة للمعنى والسياق .

نَزَقُ الشَّبَابِ وَنُكْرَهُ ، وَلَمْ يُعْطَلْهُ عَجْزُ الْمَشِيبِ وَضَعْفُهُ ، بَلْ هُوَ صَاحِبُ اسْتِفَاقٍ عَنْ سُكْرِهِ ، وَبَقِيَتْ لَهُ — بَعْدُ^(١) — نَضَارَةٌ مِنْ عَمْرِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿صَفَرَاءُ فِاقَعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ قالوا
 آدَعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنُ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقْرَ
 تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٢﴾
 كما كان يأخذ لونها الأبصار فالإشارة منها أن من كان من أهل القصة^(٣) يستغرق شاهده
 القلوبَ لِمَا أَلْبَسَ مِنْ رِداءِ الجَبَرُوتِ ، وَأَقِيمَ بِهِ مِنْ شَاهِدِ الْغَيْبِ^(٤) حَتَّى أَنْ مِنْ لَأَحْفَلُهُ تَنَاسَى
 أَحْوالَ الْبَشَرِيَّةِ ، وَاسْتَوَلَى عَلَيْهِ ذِكْرُ الْحَقِّ ، كَذَا فِي الْخَبَرِ الْمَنْقُولِ : أَوْلِيَاءُ اللَّهِ الَّذِينَ
 إِذَا رَأَوْا ذَكَرَ اللَّهُ (. . .)^(٥)

قوله جل ذكره : ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ
 تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ
 لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ قالوا^(٦) : الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ
 قَدْ بَحَوَّهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧﴾ .

كما أن تلك البقرة لم يَدْلِلْهَا الْعَمَلُ ، وَلَمْ تُبْتَدَلْ فِي الْمَكْسَبِ ، لَا لَوْنٍ فِيهَا يَخَالِفُ عِظَمَ
 لَوْنِهَا فَالْإِشَارَةُ مِنْهُ أَنَّ أَهْلَ الْوَلَايَةِ^(٨) الَّذِينَ لَمْ يَقْبَلُوا بِالْأَغْيَارِ لَتَحْصِيلِ مَا طَلِبُوا مِنَ الْأَسْبَابِ ،
 وَلَمْ يَرْكَنُوا بِقُلُوبِهِمْ إِلَى الْأَشْكَالِ وَالْأَمْثَالِ ، وَلَمْ يَتَّكِلُوا عَلَى الْإِخْتِيَارِ وَالْإِحْتِيَالِ ، وَلَيْسُوا
 نَهْبًا لِمَطَالِبَاتِ الْمَنَى ، وَلَا صَيْدًا فِي مَخْلَبِ الدُّنْيَا ، وَلَا حَكَمًا لِلشَّهَوَاتِ عَلَيْهِمْ ، وَلَا سُلْطَانًا
 لِلْبَشَرِيَّةِ تَمْلِكُهُمْ ، وَلَمْ يَسْعَوْا قَطْ فِي تَحْصِيلِ مَرَادِهِمْ ، وَلَمْ يَشْقُوا لِلدَّرَكِ بُغْيَتَهُمْ ، وَلَيْسَ عَلَيْهِمْ
 رَقْمُ الْأَغْيَارِ ، وَلَا سِمَةُ الْأَسْبَابِ — فَهُمْ قَائِمُونَ بِاللَّهِ ، فَانُونَ عَمَّا سِوَى اللَّهِ ، بَلْ هُمْ مَحْوٌ ،
 مُصْرَفُهُمُ اللَّهُ . وَالْغَالِبُ — عَلَى قُلُوبِهِمْ — اللَّهُ .
 وَكَأَنَّ مَعْبُودَهُمُ اللَّهُ كَذَلِكَ مَقْصُودُهُمُ اللَّهُ .

(١) ربما صححت على هذا ويكون المعنى ما زالت فيه بقية من نضارة عمره ، وبمحتمل أن تكون في الأصل
 (بعض) ويكون المعنى وبقيت له بعض نضارة من عمره . (٢) يقصد أهل التصوف .
 (٣) وردت (الغير) ولا معنى لها هنا لأن شهوة الغيب هو الذي يحدث ذلك الأثر .
 (٤) في (م) علامات تدل على أن الكلام مبتور ، وترجع أن (ذاكر) بدل (ذكر) .
 (٥) أخطأ الناسخ عند كتابة هذه اللفظة من الآية الكريمة حيث وردت (قال) الآية ٧٠ من سورة البقرة .
 (٦) في (م) (ولاية) بدون تريف والأصح بها .

وكما أن مقصودهم الله كذلك مشهودهم الله ، وموجودهم الله ، بل هم محو بالله و (.....)^(١) عنهم الله ، وأشد قائلهم .

إذا شئت أن أرضي وترضى وتملكي زمامي — ماعشنا معاً — وعنائى
إذن فارمقي الدنيا بعيني واسمعي بأذني وانطقي بلساني
قوله جل ذكره : ﴿ قالوا الآن جئت بالحق فذبوها
وما كادوا يفعلون ﴾ .

طلبوا الحيلة ما أمكنهم فلما ضاقت بهم الحيل استسلموا للحكم فتخلصوا من شدائد
المطالبات ، ولو أنهم فعلوا ما أمروا به لما تضاءلت عليهم المشاق .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا قتلتم نفساً فادّار أثم فيها والله
مُخرج ما كنتم تكتمون ﴾ .

الخان خائف ، وخشية أن يظهر سره يركن إلى التلبيس والتدليس ، والإنكار والجحود
ولا محالة ينكشف عوارضه ، وتتضح أسرارُه ، وتهتك عن شين فعله أstarه . قال الله تعالى :
« والله مخرج ما كنتم تكتمون » .

قوله جل ذكره : ﴿ فقلنا اضربوه ببعضها كذلك
يحيي الله الموتى ويريك آياته لعلكم تعقلون ﴾ .

أراد الله سبحانه أن يحيي ميتهم ليفضح بالشهادة على قاتله فأمر بقتل حيوان لهم فجعل
سبب حياة مقتولهم قتل حيوان لهم ، صارت الإشارة منه :

أن من أراد حياة قلبه لا يصل إليه إلا بذبح نفسه ؛ فمن ذبح نفسه بالمجاهدات حي قلبه بأنوار
المشاهدات ، وكذلك من أراد الله حياة ذكره في الأبدال^(٢) أمات في الدنيا ذكره بالحول^(٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك ،

فهي كالحجارة أو أشد قسوة ، وإن من

الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها

لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها

لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل

عمَّا تعملون ﴾ .

(٢) ربما كانت في الأصل (الأبد)

(١) مشقبة لى س .

(٣) أى منع عنه الاشتهار بين الخلق لأن المهم مرتبته لدى الخلق .

بَيِّنْ أَنَّهُمْ — وإن شاهدوا عظيم الآيات وطالعوا واضح البيّنات — فحين لم تساعد العناية ولم يخلق الله (لهم) الهداية ، لم تزدكم كثرة الآيات إلا قسوة ، ولم تبرز لهم من مكان التقدير إلا شقوة (على شقوة ، وشبه قلوبهم بالحجارة لأنها لا تنبت ولا تزكو ، وكذلك قلوبهم لا تفهم^(١) ، ولا تفنى^(٢) . ثم بيّن أنها أشد (.)^(٣) من الحجارة ، فإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، ومنها ما تظهر عليه آثار خشية الله^(٤) ، وأما قلوبهم فخالية عن كل خير ، وكيف لا وفد منيت باعراض الحق عنها ، وخُصّت بانزاع الخيرات منها .

قوله جل ذكره : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

أنبأهم عن إيمانهم ، وذكر أنهم بعد سماع الخطاب من الله — سبحانه — حرّفوا وبدّلوا فكيف يؤمنون لكم وإنما يسمعون بواسطة الرسالة ، ومن لم يبق على الإيمان بعد العيان فكيف يؤمن بالبرهان ، والذي لم يصلح للحق لا يصلح لكم ، ومن لم (يحتشم من الحق) فكيف يحتشم منكم؟ . قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضُدٍ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا

أُتِّخَذَ ثُؤَنُهُمْ بِمَافْتَحِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ .

تواصوا فيما بينهم بإنكار الحق ، وإخفاء الحال على المسلمين ، ولم يعلموا أن الله يُطْلِعُ رَسُولَهُ عَلَيْهِ السَّلَامَ عَلَى أَسْرَارِهِمْ ، وأن نوراً أظهره الغيب لا ينطفيء بمزاولة الأغيار . وموافقة اللسان مع مخالفة العقيدة لا يزيد إلا زيادة الفرقة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يِعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أُمَانًى وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ . فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ .

(١) نكلة في الهامش استدرك بها النسخ اثبتناها في موضعها .
(٢) أى لا تنفى عنهم من الله شيئاً ، وربما آتت في الأصل (ولا تنفى) حتى تتلاءم مع (لا تفهم) .
(٣) زيادة ميزها النسخ — لا لزوم لها .
(٤) إشارة إلى قوله تعالى : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله »

أخبر أنهم متفاوتون في نقائص كفرهم ، فقومٌ منهم أخسُّ درجةً وأكثرُ جهلاً ركنوا إلى التقليد ، ولم يملسكم استيلاء شبهة بل اغتروا بظنٍّ وتخمين ، فهم الذين لا نصيب لهم من كتبهم إلا قراءتها ، دون معرفة معانيها . ومنهم مَنْ أكثرُ شأنه ما يسمناه في نفسه ، ولا يساعده إمكان ، ولا لظنونه قبط تحقيق . ثم أخبر عن سوء عاقبتهم بقوله جل ذكره :
« فويل لهم مما كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوِيلَ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ » ..

أى خَسِرُوا في الحال والمآل ، والإشارة في هذه الآية لمن عَدِمَ الإخلاص في الصحبة في طريق الحق ؛ يَنْضُمُ إلى الأولياء ظاهراً ثم لا تَصْدُقُ له إرادة فهو مع أهل الغفلة مُصَاحِبٌ ، وله مع هذه الطريقة جانب ، كلما دَعَتْهُ هواتف الحفظ تَسَارَعُ إلى الإجابة طوعاً ، وإذا قادته دواعي الحق — سبحانه — يتكلف شيئاً ، فَيَبْتَغِي الحالة حين لم يخلص ، وما أشد ندمه فيما ادَّخَرَ عن الله اثم لا يُفْلَحُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمْسَسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً ، قُلْ أَتُخَذُّمُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

الإشارة في هذه الآية لمن مرت على قلبه دعاواه العريضة ، وغلب عليه حسبانُه ، فحكم لنفسه — لفرط غفلته — بأنه من أهل القصة^(١) ، وَيَخْلُدُ إلى هواجس مناه ، فيحكم على الغيب بأنه يَتَجَاوَزُ عنه ؛ نَسِيَ قُبَاحَ ما أسلفه ، ويذكر مغاليط ما ظنَّه ، فهو عَبْدٌ نَفْسِهِ ، يغلب عليه حسن ظنه ، وفي الحقيقة تعذريه نتائج غفلته ومكره ، قال تعالى : « وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ » .

قوله جل ذكره : ﴿ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

الذي أحاطت به خطيئته هو الكافر — على لسان العلم^(٢) .

(١) أى من أهل الطريق الصوفى .

(٢) أى على لسان التفسير العادى أى غير الاشارى

ولكن الإشارة منه إلى مَنْ سكن قلبه على استغاثته على وجه الدوام ، فإن أصحاب الحقائق كالحب^(١) على المقلّي - في أوقات صحوهم ، فمن سكن فلِفِرَ طِيزَتِه - لا يَفْتُرُونَ^(٢) .
ومن استند إلى طاعة يتوسلُ بها ويظن أنه يقرب بها ينبغي أن يتباعد عن السكون إليها ومن تَحَقَّقَ بالتوحيد عِلْمَ ألا وسيلة إليه إلا به . . .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك

أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾

في الحال جنان الوصل

(.)

(.)

(.)^(٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون

فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون

عليهم بالإثم والعدوان ﴾ .

... أضرابكم وقرنائكم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان ، الإشارة فيه أن نصرتكم

لإخوانكم على ما فيه بلاؤهم نصرة عليهم بما فيه شقاؤهم ، فالأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن يأتوكم أسارى^(٤) تفادوهم ،

وهو مُحَرَّمٌ عليكم إخراجهم ،

أفتؤمنون ببعض الكتاب

وتكفرون ببعض ﴾

أى كما تراعون - بالفداء عنهم - حقوقهم ، فكذلك يُفْتَرَضُ عليكم كفُّ

أيديكم عنهم ، وتركُ إخراجهم عن أوطانهم ، فإذا قُتِمَ ببعض ما يجب عليكم فما الذى يقدمكم

(١) وردت (كالحب) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) من الفترة ، وقد أوضحنا رأى المصنف فى الفترة والوقف فى هامش سبق .

(٣) حدث سقط فيها بين (الوصل) و ... (أضرابكم) وبذلك لم يصلنا تفسير الآيات الكريمة من رقم ٨٢ إلى ٨٤ .

(٤) يستخرج التشيرى من لفظة أسارى إشارات معينة بمد قليل .

عن الباقي ، حتى تقوموا به كما أمرتم ؟ أما علمتم أن من فرق بين ما أمر به فأمن ببعض وكفر ببعض فقد حبط — بما ضيعه — أجر ما عمله .

قوله جل ذكره : ﴿ فما جزاء من فعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون ﴾ .

أى ظنوا أن ما فعلوه نفهم ، فأنكشف لهم في الآخرة أن جميع ما فعلوه — لما مزجوه بالآفات وجردوه عن الصدق والإخلاص — غير مقبول منهم .

والأسراء أصناف : فمن أسير غرق في بحار الهوى فإتقاه بأن تدله على الهدى . ومن أسير بقي في أيدي الوسواس فاندأوه أن ترشده إلى اليقين بلوائح البراهين لتنفذه من الشك والتخمين ، ونخرجه عن ظلمات التقليد فيما تقوده إلى اليقين . ومن أسير تجده في أسر هواجسه استأسرته غاغة نفسه ، فكأن أسره بأن تدله على شهود المن ، يتبرئ به عن حساب كل حول يخلق وغير . ومن أسير تجده في ربيعة ذاته فكأن أسره إنشاده^(١) إلى إقلاعه ، وإنجاده على ارتداعه . ومن أسير تجده في أسر صفاته فكأن أسره أن تدله على الحق بما يحل عليه من وثائق الكون^(٢) ، ومن أسير تجده في قبضة الحق فتخبره أنه ليس لأسرائهم فداء ، ولا لقتلاهم عود ، ولا لربيطهم خلاص ، ولا عنهم بد ، ولا إليهم سبيل ، ولا من دونهم حيلة ، ولا مع سواهم راحة ، ولا لحكمهم رد .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون ﴾ .

إن الذين آثروا عليه شيئاً خسروا في الدنيا والآخرة كما قالوا :

(١) إنشاده إلى إقلاعه أى مطالبته والنصح له .
(٢) دودت (المكون) والأصوب الكون لأن للتعود يقتضى ذلك .

أُنَاسٌ أَعْرَضُوا عَنَّا بِلَا جُرْمٍ وَلَا مَعْنَى
فَإِنْ كَانُوا^(١) قَدْ اسْتَعْتَبُوا . فَإِنَّا عَنْهُمْ أَغْنَى

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا

مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ، وَآتَيْنَا عِيسَى
ابْنَ مَرْيَمَ الْيَسَّاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ
الْقُدُسِ ، أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا
لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِقْنَا
كَذِبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ .

الإشارة : أوصلنا لهم الخطاب ، وأردفنا رسولا بعد رسول ، والجميع دَعَوْا إلى واحد .
ولكنهم أَصْغَوْا إلى دعاء الداعين بسمع الهوى ، فما استلذته النفوس قَبِلُوهُ ، وما استثقلت^(٢)
أهواؤهم جحدوه^(٣) ، فإذا كان الهوى^(٤) صفتهم ثم عبودوه ، صارت للمعبود^(٥) صفات العابد ،
فلا جَرَمَ الويل لهم ثم الويل !

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَّعَنَهُمُ اللَّهُ
بِكُفْرِهِمْ فَكَفِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

لو كان منهم شيء بمجرد الدعوى لكان وجود المعاني ، ولكن عند مطالبات التحقيق تَفَتَّرُ
أنيابُ المتكبرين عن أسنانٍ شاحذة بل (. . . .)^(٦) وقيل :

إذا انسكبت دموعٌ في خدود تبين من بسكى من تباكى

(١) اللفظة ناقصة في المتن ومصححة في الهامش على اليسار .

(٢) وردت (استثقلته) وهي خطأ في النسخ .

(٣) وردت (جهدوه) ثم تصحیح لها في الهامش (جهدوه) ولا يستبعد أنها : (جحدوه) على
أساس نكرانهم للتوحيد .

(٤) وردت (الهوا) والمصحح (الهوى) .

(٥) وردت (للمعبود) وهي خطأ في النسخ .

(٦) هنا كلمة مشبهة .

قوله جل ذكره : ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ .

الإشارة فيه لمن عزم على الصفاء ، ووعد من نفسه بتحقيق الوفاء ، ونشر أعلام النشاط عند البروز^(١) إلى القتال ، تنادى بالثُرَال وصدق القتال — انهدم عند التفات^(٢) الصفوف ، وانجزل عن الجملة خشية هجوم المهدور ، قال تعالى : « فَإِذَا عَزَمُوا الْأَمْرَ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لهُمْ » .

قوله جل ذكره : ﴿بِمَا أَشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ .

أنزلهم التحاسد عن مقر العز^(٣) إلى حضيض الخزي ، وسامهم ذل الصفر حين لم يرضوا بمقتضى الحكم ، فأضافوا استيجاب مقت آف إلى استحقاق مقت سالف .
قوله جل ذكره : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَوْحِيدٌ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا ، وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ ، قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » .

(١) وردت (البرود) وهي خطأ في النسخ .

(٢) وردت هكذا في (س) ، وربما كانت في الأصل (التفاء) الصفوف أو (التظاف) كذلك بمحتمل (انهزم) بدلا من (انهدم) .

(٣) وردت (المير) وهي خطأ في النسخ .

الإشارة فيه : إذا قيل لهم حَقُّوا ما أظهرتم من حكم الوفاق بتحقيق الحال وإقامة البرهان
سَمَحَتْ نفوسُهم ببعض ما التبسَ عندهم لما يوافق أهواءهم ، ثم يكفرون بما وراء حظوظهم ،
(. . .)^(١) بُدَأَ عن زمرة الخواص ، غير معدودين في جملة أرباب الاختصاص .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد جاءكم^(٢) موسى بالبينات ثم
اتخذتم العجلَ مِنْ بَعْدِهِ وأنتم
ظالمون ﴾ .

أى دعاكم إلى التوحيد ، وإفراد للعبود عن كل معبود ومحدود ، ولكنكم لم تبحجوا
إلا إلى عبادة ما يليق بكم من عجلٍ اتخذتموه ، وصنمٍ تعبدتموه . فرفع ذلك من بين أيديهم ،
لكن بقيت آثاره في قلوبهم وقلوب أعقابهم ، ولذلك يقول أكثر اليهود بالتشبيه .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم
الطور خذوا ما آتيناكم بقوة
واسمعوا ، قالوا سمعنا وعصينا
وأشرىوا في قلوبهم العجلَ بكفرهم ،
قل يئسا يأمركم به إيمانكم إن
كنتم مؤمنين ﴾ .

كرَّرَ الإخبار عن غلوهم في حُبِّ العجل ، ونُبُوهم عن قبول الحق ، و (.)^(٣)
وتعريفهم معاجلتهم بالعقوبة على ما يسيئون من العمل ، فلا النصحُ نَجَحَ فيهم ، ولا العقوبةُ
أوجبت إقلاعهم عن معاصيهم ، ولا بالذم فيهم احتفلوا^(٤) ، ولا بموجب الأمر عملوا .

(١) هنا لقطة مشبهة .

(٢) أخطأ الناسخ حين كتبها (جاءكم) فصححناها طبقاً للآية ٩٢ .

(٣) هنا عبارة غامضة كناية وبالطال معنى .

(٤) ردت (اختلفوا) ، وللائم السياق (اختلفوا) أى اظهروا الاهتمام .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ
عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ
فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾
ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم
والله عليم بالظالمين ﴾ .

من علامات الاشتياق تمنى الموت على بساط العوافي ؛ فمن وثق بأن له الجنة قطعاً
— فلا محالة — يشتاق إليها ، ولما لم يتمنوا الموت^(١) — وأخبر الله سبحانه أنهم لن يتمنوه
أبداً — صار هذا التعريف معجزة للرسول صلوات الله عليه وعلى آله إذ كان كما قال .
وفي هذا بشارة^(٢) للمؤمنين الذين يشتاقون إلى الموت أنهم مغفور لهم ، ولا يرزقهم
الاشتياق إلا وتحقق لهم الوصول إلى الجنة ، وقديماً قيل : كفى للمقصر الحياء يوم اللقاء .
قال الله تعالى : « ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم » .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ ،
وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ
لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزٍ لَهُ
مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ
بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾^(٣) .

حُبُّ الحياة في الدنيا نتيجة الغفلة عن الله ، وأشد منه غفلة أحبهم للبقاء في الدنيا . وحال
المؤمن من هذا على الضد . وأما أهل الغفلة وأصحاب التهلكة فإنما حرصهم على الحياة لعلمهم
بما فقدوا فيها من طاعتهم ؛ فالعبد الآيسق لا يريد رجوعاً إلى سيده . والانتقال إلى مَنْ هو
خيرهُ مَرَجُوْهُ خَيْرٌ للمؤمنين من البقاء مع مَنْ شَرُّهُ غيرُ مأمون ، ثم إن امتداد العمر مع يقين

(١) في النسخة (الجنة) ولكن الآية الكريمة والسياق يشيران إلى تمنى الموت ثم إن الضمير فيها
جدلي (لن يتمنوه أبداً) ضمير مذكر وليس ضمير مؤنث .
(٢) وردت (وفي هذا إشارة) والمعنى يتطلب (بشارة) مما يرجح هذه على تلك .
(٣) أسقط الناسخ من الآية من أول (وما هو) إلى (أن يعمر) فأثبتناه .

الموت (لا قيمة له) إذا فَاتَجَا الأمرُ وانقطع العُمُرُ . وكلُّ ما هو آتٍ فقريب ، وإذا انتقضت
المدَّةُ فلا مردُّ لهجوم الأجل على أكتاف الأمل .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ
نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا
لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ .
مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ
وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ
اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ .

زعمت اليهود أن جبريل لا يأتي بالخير ، وأنهم لا يحبونه ، ولو كان ميكائيل لكانوا
آمنوا به ، فأكذبهم الحق سبحانه فقال : من كان عدوًّا لجبريل لأنه لا يأتي بالخير فأى خير
أعظم مما نزل به من القرآن ؟

ثم قال إن من عادى^(١) جبريل وميكائيل فإن الله عدو له ، فإن رسول الحبيب إلى
الحبيب العزيز المورِد — كريم المنزلة ، عظيم الشرف . وما ضرت جبريل — عليه السلام
— عداوة الكفار ، والحق سبحانه وتعالى وليه ، ومن عادى جبريل فالحق عدوه ،
وما أعزز^(٢) بهذا الشرف وما أجله ! وما أكبر علوه !

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا
يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ . أَوْ كَلَّمَا
عَاهَدُوا عَهْدًا تُبَدِّلُهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَل
أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

لم يكفر بواضح آياته إلا من سُدَّتْ عن الإدراك بصائرُه ، وسبقت من الله بالشقاوة

(١) وردت (عبادى) وهى خطأ فى النسخ ، فعادى مناسبة لعدم محبتهم لجبريل كما سبق .
(٢) الصحيح ان يقال وأعزز بهذا الشرف أو : ما أعز هذا الشرف فليس فى التعجب ما أفعل به
فما حدث هو خطأ من الناسخ لأن التشيرى — كما نعلم من سيرته — حريص أشد الحرص على قواعد النحر .

رَقِسْتُهُ ، وَلَا عَقْلَ لِمَنْ يَجْحَدُ أَنَّ النَّهَارَ نَهَارٌ ، وَكَذَلِكَ لَا وَصْلَ لِمَنْ لَمْ تَسَاعِدْهُ مِنَ الْحَقِّ أَوْ رِ
وَاسْتَبْصَارِ . أَوْ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا سَابِقُ التَّقْدِيرِ لَهُمْ كَانَ يَشُوْشُ عَلَيْهِمْ ، وَيَنْقُضُ عَهْدَهُمْ
لَا حَقَّ التَّدْبِيرِ مِنْهُمْ ، وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ
مُصَدِّقٌ^(١) لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ
وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

جحدوا رسل الحق إلى قلوبهم من حيث الخواطر ، وكذبوا رسلهم الذين أتوهم في
الظاهر ، فيما جهلاً ما فيه شظية من العرفان ! ويا حرماناً قَارَنَهُ خِذْلَان !

قوله جل ذكره : ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكٍ
سُلَيْمَانَ ، وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ،
وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينُ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ
النَّاسَ السَّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى
الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ
وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا
إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ
مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ
وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ
إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ
وَلَا يَنْفَعُهُمْ ، وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ
مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ ﴾ .

مَنْ فَرَّقَتْهُ الْأَهْوَاءُ وَقَعَ فِي كُلِّ مَطْرَحٍ مِنْ مَطَارِحِ الْغَفْلَةِ ، فَيَسْتَقْبِلُهُ كُلُّ جِنْسٍ مِنْ قَضَايَا

(١) أخطأ الناسخ فكتبها (مصدقاً) والمصحح (مصدق) الآية ١٠١ .

الجهالة ، ثم إن مَنْ طالت به الغيبة صار للناس عِبرة ، وَلِمَنْ سَلَكَ طريقَ فتنه ، فمن اقتدى به في غِيَّه انخرط في سِلْكِهِ ، والتحق بجَنسه ، هكذا صفة هاروت وماروت فيما استقبلهما ، صارا للخلق فتنه بل عِبرة ، فمن أَصْنَى إلى قِيلِهما ، ولم يعتذر بحملهما تعلق به بلاؤهما ، وأصابه في الآخرة عناؤهما .

والإشارة من قصتهما إلى مَنْ مَالَ في هذه الطريقة إلى تمويه وتلبيس ، وإظهار دعوى بتدليس ، فهو يستهوى مَنْ اتَّبَعَهُ^(١) ، ويلقيه في جهنم بباطله ، (.....)^(٢) ومن تهتك بالجنوح إلى أباطيله تهتك أستاذه ، وظهر لذوى البصائر عوارده . وإن هاروت وماروت لما اغتريا بحاصل ما اعتاده من المصيبة بَطْأ لسان الملامة في عُصاة بني آدم ، فَلَمَّا رُكِبَ فيهما من نوازع الشهوات ، ودواعي الفتن والآفات ، اقتحما في المصيان ، وظهر منهما ما انتشر ذِكْرُهُ على ألسنة القصاص ، وهما مُنْكَسَّان إلى يوم القيامة ولولا الفرق بهما وبشأنهما لَمَّا انتهى في القيامة عذابُهما ، ولكنَّ لطفَ الله مع الكافة كثيرٌ . وَلَمَّا قال الله تعالى : « ويتعلمون ما يضرُّهم ولا ينفعهم » عليم أهل التحصيل أن العلم بكل معلوم — وإن كان صفة مدح — ففيه غيرُ مرغوبٍ فيه ، بل هو مستعاضٌ منه قال النبي صلى الله عليه وسلم : أعوذ بك من علم لا ينفع .

قوله جل ذكره : ﴿ وللبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ﴾

لو علم المغبون ماذا أبقي وماذا أبلى لتقطعت أحشاؤه حسرات ، ولكن سيعلم — يوم تبلى السرائر — الذي فاتته من الكرائم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾

ولو آثروا الإقبال على الله على اشتغالهم عن الله ، لحصلوا دُخْرَ الدارين ، ووصلوا إلى

(١) وردت (التبعة) وهي خطأ في النسخ .

(٢) هنا عبارة غامضة كتابة ومعنى ، ويرجح أن الناسخ قد وقع في أخطاء نقلية .

عِزُّ الْكَوْنَيْنِ ، وَلَكِنْ كَبَسَتْهُمْ سَطَوَاتُ الْقَهْرِ ، فَأُثْبِتَتْهُمْ فِي مَوَاطِنِ الْهَجْرِ .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا

وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ

عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

قصودُ الأعداء في جميع أحوالهم — من أعمالهم وأقوالهم — قصودٌ خبيثة ؛ فهم — على مناهجهم — يبنون فيما يأتون ويذرون . فسيلُ الأولياء التَّحرُّزُ عن مشابهِهم ، والأخذ في طريق غير طريقهم .

قوله جل ذكره : ﴿ مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ

الْكِتَابِ وَلَا الْمَشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ

عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ ،

وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ

ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

كراهيةُ الأعداء لانتظام صلاح الأولياء متصلةٌ مُستدامةٌ ، ولكن الحسود لا يسود ، ولا يحصلُ له مقصودٌ وخصائصُ الرحمة للأولياء كافية — وإن دَعَمَ مِنْ الأعداء أفاكُ أنه انهدمت من أوطان فرحهم أكناف وأطراف .

قوله جل ذكره : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ

بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ

اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

النسخُ الإزالةُ أي ما ينقلك من حال إلى ما هي فوقها وأعلى منها ، فنُصِنُ وَصْلِكَ أَبَدًا ناضر ، ونجمُ عزِّكَ أَبَدًا ظاهر ، فلا ننسخُ من آثار العبادَةِ شيئًا إلا وأبدلنا عنه أشياء من أنوار العبودية ، ولا لنسخنا من أنوار العبودية أشياء إلا أقمنا مكانها أشياء من أثمار العبودية^(١) .

(١) وردت (من أثمار العبودية) وهي خطأ من الناسخ ، لأن: السياق هنا يتطلب (العبودية) =

فأبدًا^(١) سِرُّكَ في الترقى ، وقدرِكَ في الزيادة بحسن التَّوَلَّى
وقيل مارقًاكَ عن محل العبودية إِلَّا سَلَكَكَ بساجات الحرية ، وما رَفَعَ عَنْكَ شَيْئًا من
صفات^(٢) البشرية إِلَّا أَقَامَكَ بشاهدٍ من شواهد الألوهية .
قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ
مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ .

سُنَّتُهُ — سبحانه — أن يجذب أوليائه عن شهود مُلْكِهِ إلى رؤية مُلْكِهِ^(٣) ، ثم
يأخذهم من مُطالعة مُلْكِهِ إلى شهود حَقِّهِ ، فيأخذهم من رؤية آيَاتِهِ إلى رؤية صفاته ، ومن
رؤية صفاته إلى شهود ذاته .

قوله جل ذكره : ﴿ أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ
كَما سُئِلَ موسى من قبل . وَمَنْ
يَنْبَدِلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ
سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ .

إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ آذَوْا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَتَهَيَّأَ لِلْمُسْلِمِينَ عَنْ فِعْلِ مَا أَسْلَفُوهُ ، وَأَمَرُوا

== فنحن نعرف من مذهب القشيري أن العبادة للموام من المؤمنين ، والعبودية للخوارج ، والعبادة
لخاص الخاص .

العبادة لأصحاب المجاهدات ، والعبودية لأرباب المكابذات ، والعبودية صفة أهل المشاهدات . . .
وهكذا — ومن أسانيد كثيرة في باب العبودية في « الرسالة » — نلاحظ أن الدرجة القصوى في الأمر
هي (العبودة) ، والترتيب هنا يمشي هكذا آثار العبادة ، انوار العبودية ، أقمار العبودة ، وهو
ترتيب في غاية الدقة ، يعطى كل درجة قدرها .

() وردت (فأبد) بدون تنوين .
(٢) فالتفت النظر هنا إلى أهمية كلمة صفات البشرية ، أي أن المقصود — حسب مذهب القشيري — ليس
سقوط البشرية في حد ذاتها ، وإنما صفاتها الملوثة ، وينبغي أن يكون واضحاً تمام الوضوح أن التصوف
الإسلامي الحق — والقشيري من أفضل المعبرين عنه — لا يقول بأدنى تداخل بين البشرية والألوهية
فالمبدع والرب رب .

(٣) ضبطنا ملك وملك مستفيدين من كلام القشيري في كتابه « التعبير » ضمن اسم « الملك » .

بمراعاة أن حشمة الرسول صلى الله عليه وسلم بغاية ما يقسم في الإمكان . فكانوا بحضرة كأن
على رؤوسهم الطير . قال تعالى : « تعزروه وتوقروه » وحسن الأدب — في الظاهر — عنوان
حسن الأدب مع الله في الباطن .

قوله جل ذكره : ﴿ وَذَكَرَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
لَوْ يَرُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا
حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ
مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا
حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

مَنْ لَحِقَهُ خسران الفهم من أصحاب الغفلة وَذَكَرَ لَا يَطْلُعُ لِأَحَدٍ بِالسَّلامَةِ نَجْمٌ ، وَمَنْ اعْتَرَاهُ
الحسد أَرَادَ لَا تَنْبَسِطَ عَلَى مَحْسُودِهِ شَمْسٌ .

وكذلك كانت صفات الكفار ، فأرغم الله أَنْفُسَهُمْ ، وَكَبَّهُمْ عَلَى (١) وجوههم .

والإشارة من هذا إلى حال أصحاب الإرادة في البداية إذا رغبوا في السلوك ، فمن لم يساعده
التوفيق (في الصلابة ، وعاشر أناساً مترسبين بالظواهر) (٢) فإنهم يمنعون هؤلاء من السلوك
ولا يزالون يخاطبونهم بلسان النصيح ، والتخويف بالعجز والتهديد بالفقر حتى ينقلوهم إلى سبيل
الغفلة ، ويقطعوا عليهم طريق الإرادة ، أولئك أعداء الله حقاً ، أدركهم مقت الوقت .
وعقوبتهم حرمانهم من أن يشموا شيئاً من روائح الصدق .

« فاعفوا واصفحوا . . . » فسيل المرید أن يحفظ عن الأغيار سره ، ويستعمل مع كل
أحد ضلة (٣) ، ويبدل في الطلب رفعة (٤) ، فعن قريب يفتح الحق عليه طريقه .

(١) في النسخة ص (وكبهم لوجوههم) وقد آثرنا عليها (على وجوههم) .
(٢) أصلها في هذه العبارة قليلاً لكي يتضح معناها طبقاً لوصايا القشيري للمريدين في « رسالته »
(٣) مكنا وردت في (ص) وقد نقلناها كما جاءت ، وربما كانت في الأصل (خلة) بمعنى الصفة
أي أن يحافظ على سره مع ربه عن طريق اتصافه مع صحبته بصفات ملائمة . تضمن أن يكون سره محفوظاً
(٤) ربما كانت في الأصل (ويبدل في الطلب وسعه) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ،
وَمَا تَقْدُمُوا لَأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ
عِنْدَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .
الواجب على المريد إقامة المواصلات ، وإدامة التوسل بقنون^(١) القربات ، واثقاً بأن
ما يقدمه من صدق المجاهدات تُدْرِكُ^(٢) ثمرته في أواخر الحالات .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ^(٣) الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ
كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ، تِلْكَ
أَمَانَتُهُمْ ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ، إِنْ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

كلُّ حِزْبٍ يُمَهِّدُ الْأَمَلَ لِنَفْسِهِ ، وَيُظَنُّ النِّجَاةَ لِحَالِهِ ، وَيَدْعِي الْوَسْلَ^(٤) مِنْ سَهْبِهِ .
ولكنَّ مجرد الحسبان دون تحقق البرهان لا يأتي بحاصل ، ولا يجوز بظائل .

قوله جل ذكره : ﴿ بَلَى^(٥) مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ
مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

أسلم وجهه أى أخلص لله قصده ، وأفرد الله وجهه ، وطهر عن الشوائب عقله .
« وهو محسن » . عالمٌ بحقيقة ما يفعله وحقيقة ما يستعمله ، وهو محسن في المآل كما أنه
مسلم في الحال .

ويقال الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فتكون مستسلماً بظاهرك ، مشاهداً بسرائرك ،
في الظاهر جهد ومسجود وفي الباطن كشف ووجود .

(١) جاءت هكذا في من (يقنون) ثم صححها الناسخ في الهامش .

(٢) جاءت في من (تدركوا) .

(٣) أخطأ الناسخ إذ كتبها (يدخلوا) والصحيح (يدخل) الآية ١١١ .

(٤) الوسل والوسيلة والواسطة = الوصلة والقرب من الله (الوسيط ص ١٠٤٤)

(٥) أسقط الناسخ (بلى) والصحيح وجودها الآية ١١٢ .

ويقال « أسلم وجهه » بالترام الطاعات ، « وهو محسن » قائمٌ بآداب الخدمة بحسن آداب الحضور ، فهؤلاء ليس عليهم خوف المعجر ، ولا يلحقهم خفيُّ المكر ، فلا الدنيا تشغلهم عن المشاهدة ولا الآخرة تشغلهم غداً عن الرؤية .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى

على شيء ﴾ وقالت النصارى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ ، وهم يتلون الكتاب ، كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ .

الإشارة في هذه الآية على العكس من حكم الظاهر ؛ فالأعداء يتبرأ بعضهم من بعض اليوم ، والأولياء من وجه كذلك ، ولذا قالوا : لا زالت الصوفية بخير ما تنافروا ، ولا يقبل بعضهم بعضاً لأنه لو قبل بعضهم بعضاً بقي بعضهم مع بعض .

لكن الأعداء كلهم على الباطل . عند تَبَرُّي بعضهم من بعض أما الأولياء فكلهم على الحق — وهذه ما ذكرنا من حكم العكس .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ

أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ . لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

الإشارة فيه أن الظالم مَنْ خَرَّبَ أوطان العبادة بالشهوات ، وأوطان العبادة نفوس العابدين . وخَرَّبَ أوطان المعرفة بالمُنَى والعلاقات ، وأوطان المعرفة قلوب العارفين . وخَرَّبَ أوطان المحبة بالمحظوظ والمساكنات ، وهى أرواح الواجدين . وخَرَّبَ أوطان

المشاهدات بالالتفات إلى القربات وهي أسرار الموحدين^(١)

قوله جل ذكره : ﴿لهم في الدنيا خزئٌ ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ .

لأهل الإشارة خزي الدنيا بذل الحجاب، وعذاب الآخرة الامتناع بالدرجات .

قوله جل ذكره : ﴿ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسعٌ عليم﴾ .

الإشارة منها إلى مشارق القلوب ومغاربها . وللقلوب شوارق وطوارق . وطوارقها هو اجس النفوس تطرق في ظلمات المنى والشهوات .

وشوارقها نجوم العلوم وأقمار الحضور وشموس المعارف .

فما دامت الشوارق طالعة فقبلة القلوب ، واضحة ظاهرة ، فإذا استولت^(٢) الحقائق خفي سلطان الشوارق ، كالنجوم تستر عند طلوع الشمس ، كذلك عند ظهور الحق يحصل اصطلام وقهر ، فلا شهود رسم ، ولا بقاء حِسٌّ وفهم ، ولا سلطان عقل وعلم ، ولا ضياء عرفان . فإن وجدان^(٣) هذه الجلمة صفات لا ثقة ببقاء البشرية ، وإذا صار الموصوف محوًّا فأنى لهم ببقاء الصفة !

قال تعالى : « فَأَيُّ شَيْءٍ تُولَوْنَ » وجه الله ، مادام يبقى من الإحساس والتمييز بقية — ولو شظية — فالقبلة مقصودة ، فإن لم تكن معلومة تكون مطلوبة . وعلى لسان العلم إذا اشتبهت الدلائل بكل وجهة ، ولا معرفة بالقبلة تساوت الجهات في جواز الصلاة إلى كل واحد منها إذا لم يكن للنية ترجيح .

(١) نعرف من مذهب التشيرى أن الأسرار (للموحدين) ولذا ترجع أن الناسخ أخطأ حينما كتبها (الواجدين) وقد أنبتناهما هنا على هذا الترجيح .
(٢) وردت (سوك) وهي خطأ في النسخ .
(٣) وجدان ، ووجود مصدران لوجد ، غير أن التشيرى يؤثر استعمال لفظة (الوجود) بمعناها الاصطلاحي الدقيق في موضعها للملائم (التواجد بداية الوجد واسطة الوجود نهاية) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ﴾ .

مَكْرَهُمْ لَمْ يَفْقَهُهُمْ — من الإفناء — في الحال ، بل جعل موجب اغترارهم طول الإمهال ، فنطقوا بعظيم الغرّة على الله ، واستنبطوا عجيب المِرّة في وصف الله ، فوصفوه بالولد ! وأتّى بالولد وهو إحدى الذات ١٢ لاحد لذاته ، ولا تجوز الشهوة في صفاته .

قوله جل ذكره : ﴿ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَه قَانِتُونَ ﴾ .

أى ليس في الكون شيء من الآثار المنقورة أو الأعيان المستقلة إلا وتنادى عليه آثار الخلق ، وتفصح منه شواهد الفطرة ، وكل صامت منها ناطق ، وعلى وحدانيته — سبحانه — دليل وشاهد .

قوله جل ذكره : ﴿ بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ .

البديع عند العلماء مُوجِدُ العَيْنِ لا على مِثْلٍ ، وعند أهل الإشارة الذي ليس له شيء مثله . فهذا الاسم يشير إلى نفي المثل عن ذاته ، ونفي المثل عن أفعاله ، فهو الأحد الذي لا عدد يجمعه ، والصمد الذي لا أمدّ يقطعه ، والحق الذي لا وهم يصوره ، والموجود الذي لا فهم يقدره . وإذا قضي أمراً فلا يعارض^(١) عليه مقدور ، ولا ينفك من حكمه محذور .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا^(٢)

اللَّهُ أَوْ نَاتِينَا آيَةً كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا^(٣) الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ .

(١) المراد أن تكون (فلا يعارض) ، فهكذا يعبر القسري في مثل هذا السياق .

(٢) وردت (لولا يكلمهم) وهي خطأ ، وقد صححناها طلباً للآية ١١٧ .

(٣) وردت خطأ (بيّن) والصحيح (بينا) الآية ١١٧ .

كلام الله سبحانه متعلق بجميع المخلوقات بأعيانها وآثارها ، وأمر التكوين (يتناول المكلفين وأفعال المكلفين)^(١) ، لكن من عديم سمع الفهم تصام^(٢) عن استماع الحق ، فإنه — سبحانه — خاطب قوماً من أهل الكتاب ، وأسمعهم خطابه^(٣) ، فلم يطيقوا سماعه ، وبعد ما رأوا من عظيم الآيات حَرَّفُوا وَبَدَّلُوا . وفي الآيات التي أظهرها ما يزيح العلة من الأغيار ، ويشفي العلة من الاغيار ، ولكن ما تُغني الدلائل — وإن وَضُحَّتْ — عن حُجَّتْ لهم الشقارة وسبقت ؟

قوله جل ذكره : ﴿ إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً
ولا تسأل عن أصحاب الجحيم ﴾ .

أفردناكَ بخصائص لم نُظهِرْها على غيرك ؛ فالجمهور والكافة تحت لوائك ، والمقبول من وافقَكَ ، والمردود من خالفَكَ ، وليس عليك من أحوال الأغيار سؤال ، ولا عنك لأحدٍ (. . .)^(٤) .

قوله جل ذكره : ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى
حتى تتبع ملثهم قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ
هُوَ الْهُدَى وَلَنْ أَتَّبِعْتُ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ
الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنْ
اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ .

لا تبالي برضاء الأعداء بعد ما حصل لك رضانا ، فإنهم لا يرضون عنك إلا بمتابعة أديانهم ، ودون ذلك لهم حظ القتال فأعلن^(٥) التبري منهم ، وأظهر الخلاف معهم ، وانصب العداوة

(١) العبارة التي في (س) مضطربة في الخط والمعنى ، وقد صيغناها طبقاً لما نعرف من آراء الفشيري الكلامية : إن الله خالق العباد وأفعال العباد (فأنه خالق كل شيء ، أما الانسان فليس له أن يوصف بذلك لأن كل من خلقه وصف التكوين لا يصح منه الإيجاد) .

(٢) وردت (تصام) وهي خطأ في النسخ .

(٣) وردت أسمعهم (خاطبهم) والأرجح أنها في الأصل أسمعهم (خطابه) .

(٤) مثلية .

(٥) وردت (ما علف) وهي خطأ في النسخ ، وقد جعلناها (فأعلن) لتلائم (وأظهر) بعدها .

لهم ، وأعلم أن مساكنهم إلى ما يرضون سبب الشقاوة المؤبدة ، فاحرص ألا يخطر ذلك
ببإلك^(١) ، وادعُ — إلى البراءة عنهم وعن طريقهم — أمثك ، وكن بنا لنا ، متبرياً
عن سوانا ، واثقاً بنصرتنا ، فإنك بنا ولنا .

قوله جل ذكره : ﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حقّ
تلاوته أولئك يؤمنون به ، ومن
يكفر به فأولئك هم الخاسرون﴾ .

الذين فتحنا أبصارهم بشهود حقنا وكنّا أسمع قلوبهم بسمع خطابنا ، وخصصناهم
بإسبال نور العناية عليهم ، وأيدناهم بتحقيق التعريف في أسرارهم ، يقومون بحق التلاوة ،
ويتصفون بخصائص الإيمان والمعرفة فهم أهل التخصيص ، ومن سواهم أصحاب الرد .

قوله جل ذكره : ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي
التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم
على العالمين﴾

جرت سنته — سبحانه — في الخطاب مع قوم موسى عليه السلام أن يناديهم بندااء
العلامة فيقول : يا بني إسرائيل اذكروا ، أي يا بني يعقوب ، ومع هذه الأمة^(٢) أن يخاطبهم
بندااء الكرامة فيقول : « يا أيها الذين آمنوا »

قوله جل ذكره : ﴿واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن
نفس شيئاً ولا يقبل منها عدلٌ ،
ولا تنفعها شفاعَةٌ ولا هم ينصرون﴾

أما الأعداء فلا يقبل منهم شيئاً ، وأما الأولياء فقال صلى الله عليه وسلم : « اتقوا النار
ولو يشق نمرة » ، والكفار لا تنفعهم شفاعة الشافعين فهذا حكم كل أمة مع نبيها ،
وأما المؤمنون — فعلى التخصيص — تنفعهم شفاعة نبيهم صلى الله عليه وسلم .

(١) جاءت الجملة في من هكنا (فاحرس عن أخطار ذلك بإلك) ومعنا لأنفسنا بشيء من التصرف
يتيح فهم المعنى ، وربما كان أقرب إلى الأصل .
(٢) يقصد أمة المصطفى صلوات الله عليه وسلامه .

وكلُّ أحدٍ يقول يومئذٍ نفسى نفسى ونبيئنا صلى الله عليه وسلم يقول: أمتى أمتى^(١) .
قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾

البلاء تحقيق الولاء ، فأصدقهم ولاء أشدُّهم بلاء .

ولقد ابتلى الحق — سبحانه — خليله عليه السلام بما فرض عليه وشرع له ، فقام بشرط وجوبها ، ووفى بحكم مقتضاها ، فأثنى عليه سبحانه بقوله : « وإبراهيم الذى وفى » — من التوفية — أى لم يقصِّر بوجه البتة .

يقال حمَّله أعباء النبوة ، وطلبه بأحكام الخلَّة ، وأشدُّ بلاء له كان قيامه بشرائط الخلَّة ، والانفراد له بالتجافى عن كل واحد وكل شيء ، فقام بتصحيح ذلك مخلياً عن جميع ما سواه ، سيراً ومعلناً^(٢) .

كذلك لم يلاحظ جبريل عليه السلام حين تعرض له وهو يُقذف فى لجَّة الهلاك ، فقال : هل من حاجة ؟ فقال : أمّا إليك . . . فلا .

ومن كمال بلائه تعرض جبريل عليه السلام فى تلك الحالة ، وأى بقية كانت بقيت له منه حتى يكون المخلوق فيه مساغ كائناً من كان ؟

(١) أخطأ الناسخ حين نقلها « كل عهد يقول . . . والصواب « كل أحد . . . وقد سمع القشبرى هذه العبارة من أستاذه الدقاق — كما يقول فى رسالته فى باب الفتوة .

(٢) هذا هو رأى القشبرى فى « الخلَّة » ، ونرى لازماً علينا أن ننبه إلى بعض الآراء الأخرى فيها . فالمعتزلة — الذين يعتمدون من كل ما يحمل على التشبيه — يذلون جهدم فى الاستمانة باللغة للحصول على تأويلات للنص القرآنى نخدم هذه الغاية ، فلما لم يرضهم تحمُّل لفظة الخليل على ظاهرها فى الآية « واتخذ الله إبراهيم خليلاً » (النساء : ١٢٥) استشهدوا ببيت من الشعر القديم زهير وهو :

ولأن أناه خليل يوم مسألة يقول لا غائب مالى ولا حرم

(ديوان زهير نشر دار الكتب ص ١٥٣) وفيه خليل بمعنى محتاج ، وقد أورد القشبرى هذا الرأى ضمن تفسيره للآية ١٢٤ النساء ، أى أنه لا يعارض أن نحتمل اللفظة هذا المعنى .

ويفسر دكتور عبد الرحمن بدوى قول أبى طالب المكى (إن رابعة قد ارتفعت إلى وصف معنى الخلَّة) بما يلى : (على أن مقام الخلَّة هذا يمكن أن يُفسر على أساس أنه شعور بتجاوز الخير والشر ، ذلك أن القيم الأخلاقية لا اعتبار لها إلا بالنسبة إلى بنى الإنسان والدنيا . أما — رابعة ورباح — فقد تجاوزا نطاق البشرية وصارا يلوذان بجوار الألوهية واطرحا الناسوت وشاع فيهما اللاهوت » .

شبيبة المشق الالهى ص ٦٣ ، ٦٤

وفي هذا إشارة دقيقة إلى الفرق بين حال نبيِّنا صلى الله عليه وسلم وحال إبراهيم عليه السلام ، لأنه تعرض جبريل للخليل وعرض عليه نفسه :
 فقال : أما إليك . . فلا . ولم يطق جبريل صحبة النبي صلى الله عليه وسلم فنطق بلسان المعجز وقال :

لو دنوت أنملة لاحتزقت^(١) .

وشتان بين حالة يكون فيها جبريل عليه السلام من قوِّته بحيث يعرض للخليل عليه السلام نفسه ، وبين حالة يتعرف للحبيب — صلوات الله عليه — فيها بمعجزه .

قوله جل ذكره : ﴿ إني جاعلك للناس إماماً ﴾ ، قال
 ومن ذريتي قال : لا ينال عهدي
 الظالمين . وإذ جعلنا البيت مثابةً
 للناس وأمناً ﴿

الإمام من يقتدى به ، وقد حقق له هذا حتى خاطب جميع الخلائق إلى يوم القيامة بالافتداء به فقال : « ملة أبيكم إبراهيم ، أي اتبعوا ملة إبراهيم يعني التوحيد ، وقال : « واتخذوا من مقام إبراهيم مصباً » .

هذا هو تحقيق الإمامة . ورتبة الإمامة أن يفهم عن الحق ثم يفهم الخلق ؛ فيكون واسطة بين الحق والخلق ، يكون بظاهره مع الخلق لا يفتر عن تبليغ الرسالة ، وبباطنه مشاهداً للحق ، لا يتغير له صفاء الحالة ، ويقول للخلق ما يقوله له الحق .

قوله جل ذكره : ﴿ ومن ذريتي ﴾
 نطق بمقتضى الشفقة عليهم ، فطلب لهم ما أكرم به . فأخبره أن ذلك ليس بامتنعاق
 نسب ، أو باستيجاب سبب ، وإنما هي أقسام مضت بها أحكام فقال له : « لا ينال عهدي

(١) يشير بهذا إلى ما حدث ليلة الاسراء والمعراج في الملأ الأعلى (انظر كتاب المعراج) للتشبيري
 نشره دكتور هلي عبد القادر . ط . (الكتب الحديثة) سنة ١٩٦٤ .

الظالمين ، وليس هذا كنعم الدنيا وسعة الأرزاق فيها ، فهي لا ادُّخار لها عن أحد وإن كان كافراً ، ولذلك :

قال جلّ ذكره : ﴿ وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر ﴾
فقال الله تعالى : ﴿ ومن كفر فأمتعه قليلاً ﴾

يعني ليس للدنيا من الخطر ما يمنعها عن الكفار ، ولكن عهدي لا يناله إلا من اخترته من خواص عبادي .

أمّا الطعام والشراب فغير ممنوع من أحد .
أمّا الإسلام والحجاب فغير مبذول لكل أحد .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وإذ جعلنا البيت مثابةً للناس وأمناً ﴾

واذكر يا محمد حين جعلنا البيت — يعني الكعبة — مثابةً للناس إليه يشوبون ، وأمناً لهم إليه يرجعون ، وإياه من كل نحو يقصدون .

هو بيت خلقته من الحجر ولكن أضفته إلى الأزل ؛ فمن نظر إلى البيت بعين الخلق انفصل ، ومن نظر إليه بعين الإضافة وصل واتصل^(١) ، وكلُّ من التجأ إلى ذلك البيت أمن من عقوبة الآخرة إذا كان التجاؤه على جهة الإعظام والاحترام ، والتوبة عن الآثام .

ويقال بُنيَ البيتُ من الحجر لكنه حجر يجذب القلوب كحجر المغناطيس يجذب الحديد .

بيت من وقع عليه ظلُّه أناخ بعقوة^(٢) الأمن .

(١) قارن رأي القشيري الصوفي الحريص بآراء بعض الصوفية الذين أوتوا حظاً من الجرأة في التعبير . من هذا الموضوع ، من ذلك متلاقول رابعة « لا أريد الكعبة بل رب الكعبة أما الكعبة فإذا أفعل بها ... ولم تشأ أن تنظر إليها (تذكرة الأولياء . المطار ج ١ ص ٦١) .

وقول الحلاج : « إن شوقنا إلى الله يجب أن يحو عقلياً في نفوسنا صورة الكعبة ، كما نجد من أقامها » شخصيات قلقة في الاسلام . د . بدوي ص ٦٨ .

(٢) العقوة = الموضع للتسع أمام الدار أو الحلة أو حولها (الوسيط ص ٦٢٤) .

بيتٌ مَنْ وقع عليه طَرَفُهُ بُشِّرَ بتحقيق الغفران .
بيتٌ مَنْ طاف حَوْلَهُ طافت اللطائف بقلبه ، فطَوَّفَتْهُ بطوفة ، وشَوَّطَتْهُ بشوطة وهل جزاء
الإحسان إلا الإحسان .

بيتٌ ما خَسِرَ مَنْ أنفق على الوصول ^(١) إليه مَالَهُ .
بيتٌ ما ربحَ مَنْ ضَنَّ عليه بشيءٍ ، مَنْ زاره نَسِيَ مزارَهُ ، وهجر ديارَهُ .
بيتٌ لا تُسْتَبَعْدُ إليه للسافة ، بيتٌ لا تُتْرَكُ زيارته لحصول مخافة ، أو هجوم آفة ، بيتٌ
ليس له بمهجة الفقراء آفة .

بيتٌ من قعد عن زيارته فَلَعْدَمَ فُتُوَّتِهِ ، أو لقلّة محبته .
بيتٌ مَنْ صَبَرَ عنه فقلبه أقسى من الحجارة . بيتٌ من وقع عليه شعاعُ أنواره نَسَلَى عن
شمسه وأقماره .

بيتٌ ليس العجبُ ممن بقى (عنه) ^(٢) كيف يصبر ، إنما العجبُ ممن حضره
كيف يرجع !

قوله جل ذكره : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ .
عَبْدُ رَفَعَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ قَدَمًا فَإِلَى الْقِيَامَةِ جَعَلَ أَثَرَ قَدَمِهِ قِبْلَةً لَجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ إِكْرَامًا
لا مَدَى لَهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَعَهْدُنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ
طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْمَاكِفِينَ
وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ . وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ
رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَارْزُقْ
أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مِنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ

(١) وردت (الوصول) وهي خطأ في النسخ .

(٢) (عنه) تسكّلة جاءت في هامش الصفحة ؛ وهي تسكّلة ضرورية .

قليلاً ، ثم أضطره إلى عذاب النار
وبئس المصير * .

الأمر في الظاهر بتطهير البيت ، والإشارة من الآية إلى تطهير القلب .
وتطهير البيت بصوّته عن الأدناس والأوسار ، وتطهير القلب بحفظه عن ملاحظة
الأجناس والأغيار .

وطوافُ الحجاج حول البيت معلومٌ بلسان الشرع ، وطوافُ المعاني معلومٌ لأهل الحق ؛
فقلوب العارفين المعاني فيها طائفة ، وقلوب الموحدين الحقائق فيها عاكفة ، فهؤلاء أصحاب
التلويح^(١) وهؤلاء أرباب التمكين .

وقلوبُ القاصدين بملازمة الخضوع على باب الجود أبداً واقفة .
وقلوب الموحدين على بساط الوصل أبداً راکمة .
وقلوب الواجدین على بساط القرب أبداً ساجدة .

ويقال صواعد نوازع الطالبين بباب الكرم أبداً واقفة ، وسواحي قصود المريدين بمشهد
الجود أبداً طائفة ، ووفود همم العارفين بحضرة العزّ أبداً عاكفة .

قوله جل ذكره : * وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا
بلداً آمناً * .

السؤال إذا لم يكن مشوباً بحفظ العبد كان مستجاباً ، ولم يكن سؤال إبراهيم هذا لحفظ
نفسه ، وإنما كان لحقّ ربه عزّ وجلّ .

ولمّا حفظ شرط الأدب طلب الرزق لمن آمن منهم على الخصوص أجيب فيهم

(١) وردت (التكوين) وهي خطأ من الناسخ ، والصحيح أنها (التلويح) .
والتلويح والتكسين لفظان اصطلاحيان : (التلويح صفة أرباب الأحوال والتكسين صفة أهل الحقائق ،
فما دام العبد في الطريق فهو صاحب تلويح لأنه يرتقى من حال إلى حال ، وينتقل من وصف إلى وصف
وهو أبداً في الزيادة أما صاحب التكسين فوصل ثم اتصل ، وأما أنه اتصل أنه بالكسبة من كليته بطل .
والتغير بما يرد على العبد إما لقوة الوارد أو لضعف صاحبه ، والسكون إما لقوته أو لضعف الوارد عليه)
الرسالة ص ٤٤

وفي الذين لم يؤمنوا . ولما قال في حديث الإمامة : « ومن ذُرِّيَّتِي » من غير إذن مُسَمَّع وقيل له :
« لا ينال عهدى الظالمين » .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ
وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

نَجِّحُ السُّؤال في صدق الابتهاال ؛ فلما فرغنا إلى الخضوع في الدعاء أتاها المدد ،
ونحقيق السُّؤال .

« إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ » لأقوالنا « العليم » بأحوالنا .

قوله جل ذكره . ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ ، وَمَنْ
ذَرَيْتَنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ، وَأَرْسَلْنَا
مَنْاسِكُنَا وَتَبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ
التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ .

« مسلمين » : متقادين لحكمك حتى لا يتحرك مِنَّا عِرْقٌ بغير رضاك ، واجعل من
ذريتنا أمة مسلمة لك لتقوم بعدنا مقامنا في القيام بحقوقك ، وشتان بين من يطلب وارثاً
للماله ، وبين من يطلب نائباً بعده يقوم بطاعته في أحواله .

« وَأَرْسَلْنَا مَنْاسِكُنَا » إذ لا سبيل إلى معرفة المواقفات إلا بطريق التوفيق والإعلام .
« وتب علينا » : بعد قيامنا بجميع ما أَمَرْتُمَا حتى لا نلاحظ حركاتنا وسكناتنا ،
ونرجع إليك عن شهود أفعالنا لئلا يكونَ خطرُ الشُّرك الخفي في توهم شيء مِنَّا بِنَا .

قوله جل ذكره : ﴿ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا
عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ﴾ .

إن الواجبات لما كانت من قبيل الرسل دون مجرد المعقول سأل ألا يتركهم سُدىً ،
وألا يخليهم عن رسول وشرع . وطلب في ذلك الموقف أن يكون الرسول « منهم »
ليكونوا أشكَنَ إليه وأسهَلَ عليهم ، ويصحُّ أن يكون معناه أنه لما عَرَّفَهُ — سبحانه —
حال نبيِّنا صلى الله عليه وسلم سأل إنجاز ما وعده على الوجه الذي به (أمره ^(١)) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا
وإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

أخبر أنه آثر الخليل صلوات الله عليه على البرية ، فجعل الدين دينه ، والتوحيد شعاره
والمعرفة صفته ، فمن رَغِبَ عن دينه أو حاد عن سُنَّتِهِ فالباطل مطرحه ، والكفر مهواه ،
إذ ليست الأنوار بجملتها إلا مقتبسة من نوره .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ
لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

الإسلام هو الإخلاص وهو الاستسلام ، وحقيقته الخروج عن أحوال البشرية بالكلية من
منازعات الاختيار ومعارضات النفس ، قال : « أسلمت لرب العالمين » : قابلت الأمر بالسمع
والطاعة ، واعتنقت الحكم على حسب الاستطاعة . ولم يدخر شيئاً من ماله وبدنه وولده ،
وحين أمرَ بذيبح الولد قصد الذبح ، وحين قال له خلّه من الأسر (عمل) ^(٢) ما أمرَ به ، فلم
يكن له في الحالين « اختيار » ولا تدبير .

ويقال إن قوله : « أسلمت » : ليس بدعوى من قبيله لأن حقيقة الإسلام إنما هو التبري من
الحول والقوة ، فإذا قال : « أسلمت » فكأنه قال أقمى فيما كلفتني ، وحقق مني ما به
أمرتني . فهو أحال الأمر عليه ، لا لإظهار معنى أو ضمان شيء من قبيل نفسه .

ويقال أمره بأن يستأثر بمطالبات القدرة ، فإن من حلَّ في الخلَّة محلّه يحل به — لا محالة —
ما حلَّ به .

(١) ترجع أنها في الأصل (أخبره) حتى تتلاءم مع السياق وبذا يكون الناسخ مخطئاً في نقلها .
(٢) في ص (فَعَسَلِمَ) ويمكن أن يحتملها المعنى ، ولكن ترجيح (عمل) أقوى في الدلالة على الامتثال

وَيُسْأَلُ هَاهُنَا سُؤَالٌ فَيَقَالُ : كَيْفَ قَالَ إِبْرَاهِيمُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ : « أَسْلَمْتُ » وَلَمْ يَقُلْ نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جِينًا قِيلَ لَهُ إِنْ عَلِمَ « عِلِمْتُ » ؟ .

وَالْجَوَابُ عَنْ ذَلِكَ مِنْ وَجْهِ : مِنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ « أَنَا أَعْلَمُكُمْ بِاللَّهِ ^(١) » وَلَكِنْ لَمْ يَرِدْ بَعْدَهُ شَرْعٌ فَكَانَ يُخْبِرُ عَنْهُ بِأَنَّهُ قَالَ عِلِمْتُ .

وَيَقَالُ : إِنْ اللَّهُ سَبْحَانَهُ أَخْبَرَ عَنِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقَوْلِهِ : « آمَنَ الرَّسُولُ » لِأَنَّ الْإِيمَانَ هُوَ الْعِلْمُ بِاللَّهِ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَقَوْلُ الْحَقِّ وَإِخْبَارُهُ عَنْهُ أَتَمُّ مِنْ إِخْبَارِهِ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — عَنْ نَفْسِهِ .

وَالْآخِرُ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ لما أَخْبَرَ بِقَوْلِهِ : « أَسْلَمْتُ » اقْتَرَنَتْ بِهِ الْبَلْوَى ، وَنَبِيُّنَا — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — يَتَحَرَّزُ عَمَّا هُوَ صُورَةُ الدَّعْوَى فَحُفِظَ وَكُفِيَ .

وَالْآخِرُ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَمَرَ بِمَا يَجْرِي بِجَرَى الْأَفْعَالِ ، فَإِنَّ الْأَسْتِسْلَامَ بِهِ إِلَيْهِ بَشِيرٌ . وَنَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَ بِالْعِلْمِ ، (وَلَطَائِفُ الْعِلْمِ أَقْسَامٌ) ^(٢) .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ ، وَيَعْقُوبُ : يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ .

أَخْبَرَ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَصَّى بَنِيهِ ، وَكَذَلِكَ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِبَنِيهِ لَا يَصِيبُكُمْ الْمَوْتُ إِلَّا وَأَنْتُمْ بِوَصْفِ الْإِسْلَامِ . فَشَرَائِعُهُمْ — وَإِنْ اخْتَلَفَتْ فِي الْأَفْعَالِ — فَلِأَصْلِ وَاحِدٍ ، وَمَشْرَبُ التَّوْحِيدِ لَا ثَانِي — لَهُ فِي التَّقْسِيمِ — وَقَوْلُهُ تَعَالَى : « إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى

(١) « أَنَا أَعْلَمُكُمْ بِاللَّهِ وَأَخْشَاكُمْ اللَّهُ » .

البخاري عن أنس « وَاللَّهُ إِنِّي لِأَخْشَاكُمْ وَأَتَقَاكُمْ لَهُ » .

والشيخان عن عائشة « وَاللَّهُ إِنِّي لِأَعْلَمُكُمْ بِاللَّهِ وَأَشَدُّكُمْ لَهُ خَشْيَةً » .

(٢) هَذَا وَضَعَ النَّاسِخَ عَلَامَةً تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أَخْطَأَ فِي النَّقْلِ ، وَلِهَذَا فَإِنَّ الْمُبَارَةَ الَّتِي وَرَدَتْ فِي (ص)

مُضْطَرِبَةٍ وَقَدْ آتَرْنَا أَنْ نَلْتَقِطَ مِنْهَا مَا نَرْجِعُ أَنَّهُ مَلَائِمٌ لِمَعْنَى . فَالْقَصْدُ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامَ عَبَّرَ بِقَوْلِهِ

« أَسْلَمْتُ » وَهَذَا فَعْلٌ لِنَاسٍ يَبْنِي مَا يَقُولُ الرَّسُولُ (ص) « عِلِمْتُ » لِأَنَّ الْعِلْمَ لَيْسَ كَسِبًا لِلْعَبْدِ وَإِنَّمَا هُوَ

قِسْمٌ لَهُ أَيْ أَنَّهُ مِنْ عَيْنِ الْجُودِ لَا مِنْ قَبِيلِ الْمَجْهُودِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ

لكم الدين ، إشارة بما تقوى به دواعيهم على الرغبة فيما يكلفهم من الإسلام ، لأنهم إذا تحققوا أن الله سبحانه اصطفى لهم ذلك علموا أنه لا محالة يمينهم فيسهل عليهم القيام بحق الإسلام .

قوله جل ذكره : ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ
لِلْمَوْتِ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ
بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ ﴾ .

جروا كلهم — صلوات الله عليهم — على منهج واحد في التوحيد والإسلام ، وتوارثوا ذلك خلفاً عن سلف ، فهم أهل بيت الزلفة ، ومستحقو القرية ، والمطهرون من قبل الله — على الحقيقة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِلَهُ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ
وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ .
لم يقولوا إلهنا مراعاة لخصوصية قدره ، حيث سلموا له المزية ، ورأوا أنفسهم ملحقين بمقامه ، ثم أخبروا عن أنفسهم أنهم طيع^(١) له بقولهم « ونحن له مسلمون » .
قوله جل ذكره : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ
وَلَكُمْ تَمَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ
عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

أنزل الحق — سبحانه — كلاً بمحلّه ، وأفرد لكل واحدٍ قدرًا بموجب حكمه ، فلا لهؤلاء عن أشكالهم خبر ، ولا بما خصّ به كل طائفة إلى آخرين أثر ، وكل في إقليمه ملك ، ولكل يدور بالسعادة فلك .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى
تَهْتَدُوا ، قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا
وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

(١) وردت (طبع لهم) وترجح أن النسخ قد أخطأ في النقل لأن « ونحن له مسلمون » معناه (ونحن طيع^{له}) و« طيع^{له} » جمع طائع مثل رُكّع وسجّد من راعى وساجد .

معناه إذا تجاذبتك الفرق ، واختلفت عليك المطالبات بالموافقة ، فاحكم بتقابل دعاوهم ، وأزد من توجهك إلينا ، جارياً على منهاج الخليل عليه السلام في اعتزال الجملة ، سواء كان أباه ، أو كان ممن لا يوافق مولاه ، ولذا قال « وأعتزلكم وما تدعون من دون الله » للحق بالحق .

قوله جل ذكره : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا

وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل

وإسحاق ويعقوب والأسباط ،

وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى

النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحدٍ

منهم ونحن له مسلمون ﴾ .

لما آمن نبيُّنا صلى الله عليه وسلم بجميع ما أنزل من قبله أكرمَ بجميع ما أكرمَه من قبله ، فلما أظهر موافقة الجميع أمرَ الكلَّ بالسكونِ تحت لوائه فقال : « آدمُ ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة »^(١) .

ولما آمنت أُمته بجميع ما أنزل الله على رسله^(٢) ، ولم يفرقوا بين أحدٍ فهم ضربوا في التكريم بالسهم الأعلى فتقدموا على كافة الأمم .

قوله جل ذكره : ﴿ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا

وإن تولوا فإنا هم في شقاق فسيكفيكم

الله وهو السميع العليم ﴾ .

إن سلكوا طريقنكم ، وأخذوا بسيلكم ، أكرموا بما أكرمتم ، ووصلوا إلى ما وصلتم ، وإن أبوا إلا امتيازاً أبينا إلا هوانهم . فإن نظرنا لمن خدمك يا محمد بالوصلة ،

(١) « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا غر ، ويبدى لواء الحمد ولا غر ، وماني يومئذ آدم فن سواء إلا تحت لوائي » .

من أحاديث الشفاعة رواه الترمذي (٧٩ / ٦ متخبر كثر المال) .

(٢) وردت رسوله ، والأولى أن تكون رسله لأن السياق يقتضى ذلك .

وإعراضنا عن بآيتك وخالفك (. . .)^(١) ، من خالفك فهو في شق الأعداء ، ومن خدَمَكَ فهو في شق^(٢) الأولياء .

« فسيكفيكم الله وهو السميع العليم » : كفاية الله متحققة لأن عناية الله بكم متعلقة ، فمن نأبذكم قصته أيادى النصره ، ومن خالفكم قهرته قضايا القسمة ، وهو السميع لمناجاة أسراركم معنا على وصف الدوام ، العليم باستحقاقكم (منا)^(٣) خصائص اللطف والإكرام .

قوله جل ذكره : ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ .

معناه الزموا صبغة الله ، فهو نصب بإضمار فعل .

والإشارة أن العبرة بما وضع الحق لا بما جمع العبد ، فما يتسكنه الخلق فإلى الزوال مآله ، وما أثبت الحق عليه الفطرة فبإثباته العبرة .

وللقلوب صبغة وللأرواح صبغة وللأسرار صبغة وللظواهر صبغة . صبغة الأشباح والظواهر بآثار التوفيق ، وصبغة الأرواح والسرائر بأنوار التحقيق .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾^(٤) .

كيف تصبح حاجة الأجانب^(٥) وهم تحت غطاء النية ، وفي ظلال الحجة . والأولياء في ضياء الكشف وظهور الشهود ؟

(١) هنا كلمة (بالواجب) ونظن أنها في الأصل (بالفرقة) أو ما في معناها لتقابل (الوصلة) .
(٢) وودت (سك) والمعنى يرفضها تماماً مما يدل على أنها خطأ من الناسخ وربما كانت (سلك) .
(٣) وودت (من) وهي مقبولة ، ولكن الأجل أن تكون (منا) حتى تنسجم الموسيقى الداخلية — وهذه خصيصة في أسلوب القشيري — مع (معنا) في الجملة السابقة عليها ، فضلاً عن أن فيها إطادة كل فضل إلى الله .

(٤) أخطأ الناسخ وكتبها (مخلصون) وصحة الآية (١٣٨) (. . . مخلصون) .

(٥) وودت (الاجابة) وهي خطأ من الناسخ .

ومتى يستوى حال من هو بنعت الإقلاص بِفَيْبَتِهِ مع حال من هو في حكم الاختصاص
والإخلاص لا تفرقه في قُرْبَتِهِ ؟ هيهات لا سواء !

قوله جل ذكره : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ
وِإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا
هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ
اللَّهُ ، وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةَ
عِنْدَهُ مِنْ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا
تَعْمَلُونَ ﴾ .

مَنْ نَظَرَ مِنْ نَفْسِهِ إِلَى الْخَلْقِ يَتَخَيَّلُ كُلًّا بِرَقَبِهِ ، وَيَحْسِبُ الْجَمِيعَ بِنَعْتِ مِثْلِهِ ؛ فَلَمَّا كَانُوا
بِحُكْمِ الْأَجْنِبِيَّةِ حُكْمَ الْأَنْبِيَاءِ — عَلَيْهِمُ السَّلَامُ — بِمِثْلِ حَالَتِهِمْ ، فَرَدَّ الْحَقُّ — سُبْحَانَهُ —
عَلَيْهِمْ ظُهُمًا وَ (. . .) ^(١) فِيهِمْ رَأْيُهُمْ . وَهَلْ يَكُونُ الْمَجْدُوبُ عَنْ شَاهِدِهِ كَالْمَحْجُوبِ فِي شَاهِدِهِ ؟
وَهَلْ يَتَسَاوَى الْمُخْتَلَفُ ^(٢) عَنْ كُلِّهِ بِالْمَرْدُودِ إِلَى مِثْلِهِ ؟

ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَتَمَسَّ ^(٣) لَهُمْ

قوله جل ذكره : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ
وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ
عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

حَالَتِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ حَوَاجِزٌ مِنَ الْقِسْمَةِ ؛ فَهَمُّ عَلَى الْفُرْقَةِ وَالْفَقْلَةِ أُسُوسُ بَنِيَانِهِمْ ، وَأَتَمُّ
عَلَى الزَّلْفَةِ وَالْوَصْلَةِ ضَرْبَتُ خِيَامِكُمْ . وَعَتِيقُ فَضْلِنَا لَا يَشْبَهُ طَرِيدَ قَهْرِنَا ^(٤) ..

(١) مثله في (ص) .

(٢) وردت (المختلف) وهي خطأ من الناسخ ، فن معرفتنا بأسلوب القشيري نجزم أنها (المختطف)
عن كله نخذ مثلاً قوله في مستهل رسالته مبرأ عن الفكرة ذاتها ... واختطفوا عنهم بالسكينة .

(٣) وردت (فتاساً) والمصحح (فتمساً) .

(٤) أخطأ أحد قراء اللسخة (ص) حينما فهِمَ (عتيق) هنا على معنى قديم والمقصود هنا — حسب
السياق العام — أنها بمعنى حر ، ففنى العبارة : لأن من يتحرر في اكناف فضل الله ليس كمن يشرذ
في متاهات قهره .

قوله جل ذكره : ﴿ سيقول السفهاء من الناس ماولاهم
عن قبلتهم التي كانوا عليها ﴾ .

سقت بصائر الكفار فلم يُلح لهم وجه الصواب في جميع أحوال المؤمنين ، فطالعوها بعين
الاستبصار ، وانطلقت ألسنتهم بالاعتراض^(١) في كل ما كان ويكون منهم ، فلم يروا شيئاً
جديداً إلا أتوا عليه باعتراض جديد .

فمن ذلك تغير أمر القبلة حينما حُوِّلَتْ إلى الكعبة قالوا إن كانت قبلتهم حقاً فما الذي
ولاهم^(٢) عنها ؟ فقال جل ذكره :

﴿ قُلْ لله للمشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾
يتعبّد العباد إلى أى قطري و (. . .) ونحو شاءوا ، وكذلك أصحاب الغيبة والحجبة —
عن شهود تصريف الحق لأوليائه — يطلبون وجوهاً من الأمر ، يحملون عليها أحوالهم ،
ولو طالعوا الجميع من عين واحدة لتخلصوا عن ألم توزع الفكر ، وشغل ترجم الخاطر ،
ومطالبات تقسم الظنون ، ولكن الله يهدي لنوره من شاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا
شهداء على الناس ويكون الرسول
عليكم شهيداً ﴾ .

الوسط الخيار ، فجعل هذه الأمة خيار الأمم ، وجعل هذه الطائفة^(٣) خيار هذه الأمة فهم
خيار الخيار . فكما أن هذه الأمة شهداء على الأمم في القيامة فهذه الطائفة هم الأصول ، وعليهم
المدار ، وهم القطب ، وبهم يحفظ الله جميع الأمة ، وكل من قبلته قلوبهم فهو المقبول ، ومن
ردته^(٤) قلوبهم فهو مردود . فالحكم الصادق لفراساتهم ، والصحيح حكمهم ، والصائب نظرهم

(١) وردت (بالأمراض) وربما يقبلها المعنى ، ولكن النطق (بالاعتراض) أكثر ملائمة ، خصوصاً
وقد جاءت (الاعتراض) بعد قليل .

(٢) وردت (وليهم) وهي خطأ في الكتابة .

(٣) يقصد أهل الحقائق .

(٤) في النسخة (روية) ومصححة في الهامش (ردته) وهي الصحيحة .

عصم جميع الأمة (عن) ^(١) الاجتماع على الخطأ ، وعصم هذه الطائفة عن الخطأ في النظر والحكم ، والقبول والرد ، ثم إن بناء أمرهم مُسْتَنَدٌ إلى سُنَّةِ الرسول صلى الله عليه وسلم . وكل ما لا يكون فيه اقتداء بالرسول ^(٢) عليه السلام فهو عليه رد ^(٣) ، وصاحبه على لا شيء .

قوله جل ذكره : ﴿ وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ، وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله ، وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾ .

يُبين أن الحكم في تقرير أمر القبلة إلى وقت التحويل ، ونحويلها من وقت التبديل كان اختباراً لهم من الحق ليميز الصادق من المارق ^(٤) ، ومن نظر إلى الأمر بعين النفرقة لكبر عليه أمر التحويل ، ومن نظر بعين الحقيقة ظهرت لبصيرته وجوه الصواب . ثم قال : « وما كان الله ليضيع إيمانكم » أي من كان مع الله في جميع الأحوال على قلب واحد فالمختلفات من الأحوال له واحدة ، فسواء غيّر أو قرّر ، وأثبت أو بدّل ، وحقق أو حوّل فهُمْ بِهِ لَهُ في جميع الأحوال ، قال قائلهم :

كيفما دارت الزجاجة دُرْنَا يحسب الجاهلون أننا جُنُنًا
فإن قابلوا شرقاً أو واجهوا غرباً ، وإن استقبلوا حجراً أو قاربوا مدرأ ، فقصود قلوبهم واحد ، وما كان للواحد فحكم الجميع فيه واحد .

قوله جل ذكره : ﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها ، قول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾ .

(١) وردت (على) والصحيح عصم (عن) وقد استعملت (عن) في الجملة التالية في المعنى نفسه .

(٢) أخطأ الناسخ فكتبها (بالوصل) .

(٣) جاءت (فهو عليهم رد) والصواب أن تكون (فهو عليه رد) .

(٤) وردت (المارن) وقد جعلناها (المارق) للائمتها للمعنى . ونرجح أنها كذلك في الأصل .

حَفِظْ — صلوات الله عليه — الآدابَ حيث سكّت بلسانه عن سؤال ما تمتناه من أمر القبله بقلبه ، فَلَا حَظَّ السماء لأنها طريق جبريل عليه السلام ، فأنزل الله عز وجل : « قد نرى تقلب وجهك في السماء » أى علمنا سؤلك عما لم تُفصح عنه بلسان الدعاء ، فلقد غيرنا القبلة لأجلك ، وهذه غاية ما يفعل الحبيب لأجل الحبيب .

كل العبيد يجتهدون في طلب رضائي وأنا أطلب رضاك : فلنولينك قبلة ترضاها . « فول وجهك شطر المسجد الحرام » : ولكن لا تعلق قلبك بالأحجار والآثار ، وأفرد قلبك لى ، وتكن القبلة مقصود نفسك ، والحق مشهود قلبك ، وحيثما كنتم أيها المؤمنون فولوا وجوهكم شطره ، ولكن أخلصوا قلوبكم لى وأفردوا شهودكم بى .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ .

ولكنه علم لا يكون عليهم حجة ، ولا تكون لهم فيه راحة أو منه زيادة ، « وما الله بغافل عما يعملون » تهويلا على الأعداء ، وتأميلا على الأولياء .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ . وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

سبق لكم من قديم الحكم (. . .) (٢) أفراد بطريق الحق ، ووقوع أعدائكم في شق

(١) وقع الناسخ في الخطأ حين وضع مكان (إنك إذا لمن الظالمين) مالك من الله من ولي ولا نصير ، فأصلحناه .

(٢) هنا كلمة (القرب) ثم استبعدنا الناسخ لزيادتها .

البعد ، فينكح برزخ لا يغيان ، فام بتابعي قبلتكم وإن أريتهم من الآثار ما هو أظهر من
الشمس والأقار ، ولا أنت — بتابع قبلتهم وإن أتوا بكل احتيال ، حكماً من الله —
سبحانه — بذلك في سابق الأزل .

قوله جل ذكره : ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه
كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم
ليكنسون الحق وهم يعلمون﴾ .

تَحَكَّتْهُمْ مُشْتَكِّنَاتُ الْحَسَدِ عَلَى مَكَابِرَةِ مَا عُلُوهُ بِالْاضْطِرَارِ ، فَكَذَلِكَ الْمَغْلُوبُ
فِي ظِلْمَاتِ نَفْسِهِ ، أَلْقَى ^(١) جَلْبَابَ الْحِيَاءِ فَلَمْ يَنْجِعْ فِيهِ مَلَأَمٌ ، وَلَمْ يَرُدِّعْهُ عَنْ أَنْهَاكِهِ كَلَامٌ .

قوله جل ذكره : ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
الْمُتَرَدِّينَ﴾ .

أَيُّ بَعْدَمَا طَلَعْتَ لَكَ شَمْسُ الْيَقِينِ فَلَا تَذَعْنِ ^(٢) إِلَى مَجُوزَاتِ التَّخْمِينِ ^(٣) . وَالْخُطَابُ لَهُ
وَالْمُرَادُ بِهِ الْأُمَّةُ .

قوله جل ذكره : ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّئُهَا فَاسْتَبِقُوا
الْخَيْرَاتِ ، أَيْنَمَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ
اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

الإشارة منه : أَنَّ كُلَّ قَوْمٍ اشْتَغَلُوا عَنَّا بِشَيْءٍ حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَنَا ، فَكُونُوا أَنْتُمْ
أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَنَا وَبِنَا ، وَأَنْشُدْ بَعْضُهُمْ :

إِذَا الْأَشْغَالُ أَلْهَوَتْكَ عَنْكَ بِشُغْلِهِمْ جَعَلْتُكَ أَشْغَالِي فَأَنْسَيْتَنِي شُغْلِي

(١) وردت (تلقى) وهي خطأ من الناسخ .

(٢) وردت (فلا ترعن) . والصواب أن تكون (فلا تذعن) بالذال .

(٣) يفسر القشيري هنا بما بين علوم أرباب الأحوال وبين العلوم العقلية ، لأننا نعرف من مذهبه أنه مع
احترامه للعقل في البداية إلا أنه محتمل للإصابة بالتجوز والتخمين وغيرهما من الآفات التي لا تجعله جديراً
— وحده — بالوصول إلى المعارف العليا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ
شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ .

كما تستقبلون أينما كنتم القبلة — قَرُبْتُمْ مِنْهَا أَمْ بَعُدْتُمْ — فكذلك أَقْبِلُوا عَلَيْنَا
بقلوبكم كيفما كنتم ؛ حَظَّيْتُمْ مِنَّا أَوْ مُنِّيْتُمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَحِينَما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا
يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ
ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ .

إذا أردت ألا يكون لأحد عليك سبيلٌ ، ولا يقع لمخلوق عليك ظلٌ ، ولا تصل إليك
بالسوء يدٌ ، فحيثما كنت وأينما كنت وكيفما كنت كُنْ لَنَا وَكُنْ مِنَّا ، فَإِنَّ مِنْ انْقِطَعِ إِلَيْنَا
لا يتطرق إليه حدثان .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي ﴾ .

إذا كانوا يحووا عن كونهم رسوماً تجري عليهم أحكامنا — فَأَنْتَ بِالْخَشْيَةِ مِنْهُمْ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوا نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ .

إنعام النعمة إضافة الكشف إلى اللطف ، فَإِنْ مِنْ كِفَاةٍ بِمُقْتَضَى جُودِهِ دُونَ مِنْ أَغْنَاءِ
بِحَقِّ جُودِهِ ، وَفِي مَعْنَاهُ أَشْدُّوا :

نَحْنُ فِي أَكْلِ السُّرُورِ وَلَكِنْ لَيْسَ إِلَّا بِكُمْ يَتِمُّ السُّرُورُ
غَيْبُ مَا نَحْنُ فِيهِ — يَا أَهْلَ وُدِّي — أَنْكُمْ غَيْبٌ وَنَحْنُ الْحُضُورُ

قوله جل ذكره : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو ^(١)

عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمُ مَا لَمْ
تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ .

(١) أخطأ الناسخ حين كتبها (يتلون) .

إرسال الرسول مفتحة لأبواب الوصول ، فكان في سابق علمه — سبحانه — أن قلوب أوليائه متعطشة إلى لقائه . ولا سبيل لأحد إليه إلا بواسطة الرسل ، فأقوام أكرمهم — بإرسال الرسل إليهم — السُّكَّف ، وآخرون أكرمهم — بإرسال الرسل إليهم — بفنون القُرْب والزُّلْف ، وشتان بين قوم وقوم !

قوله جل ذكره : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُوا ﴾ .

الذكر استغراق التذكير في شهود المذكور ، ثم استهلاكه في وجود المذكور ، حتى لا يبقى منك أثر يذكر ، فيقال قد كان مرة فلان .

« فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ » أي كونوا مستهلكين في وجودنا ، نذكركم بعد فنائكم عنكم ، قال الله تعالى : « إِنْهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ » كانوا وقتاً ولكنهم بانوا دائماً^(١) :

اناس حديث حسن فكن حديثاً حسناً لمن وعنى^(٢)

وطريقة أهل العبارة^(٣) (فَاذْكُرُونِي) بالموافقات (أَذْكُرْكُمْ) بالكرامات ، وطريقة أهل الإشارة (فَاذْكُرُونِي) بِتَرْكِ كُلِّ حَظٍّ (أَذْكُرْكُمْ) بِأَنْ أَقِيمَكُمْ بِحَقِّ بَعْدِ فَنَائِكُمْ عَنْكُمْ .

(فَاذْكُرُونِي) مَكْتَفِيَةً بِنِ^(٤) عَنْ عَطَائِي وَأَفْضَالِي (أَذْكُرْكُمْ) رَاضِيًا بِكُمْ دُونَ أَعْمَالِكُمْ .

(فَاذْكُرُونِي) بِذِكْرِي لَكُمْ يَأْتِي ذِكْرُونَ ، وَلَوْلَا سَابِقُ ذِكْرِي لَمَا كَانَ لَاحِقُ ذِكْرِكُمْ .

(فَاذْكُرُونِي) بِقَطْعِ الْعَلَائِقِ (أَذْكُرْكُمْ) بِنَعْوَةِ الْحَقَائِقِ .

ويقال اذكروني لكل مَنْ لَقِينَهُ أَذْكُرْكَ لِمَنْ خَاطَبْتَهُ ، فَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ

خَيْرٍ مِنْهُمْ .

(١) يقول يحيى بن معاذ : العارف كائن بائن . ومرة قال : للعارف كالبيان (الرسالة ص ١٥٧) .

(٢) البيت مقول كما جاء في م ، لم نحاول أن نبدل في كتابته وهو مضطرب وزناً ومعنى .

(٣) وردت (العبادة) والأصوب أن يكون احتمال ورودها في الأصل (العبارة) لتعبير عن درجة أدنى من درجة أهل (الإشارة) .

(٤) وردت (مكفياً) والأقرب إلى المعنى أن يجعلها في صورة الجمع وأن يكون حرف الباء أولى من اللام حيث يقال اكتفيت بالله عن عطاء الله .

ويقال (واشكروني) على عظيم اللِّنة عليكم بأن قلْتُ : (فاذكروني أذكركم) .
ويقال الشكر من قبيل الذكر ، وقوله (ولا تكفرون) النهي عن الكفران أمرٌ بالشكر ،
الشكر ذكر ، فكرر عليك الأمر بالذكر ، والثلاث أول حدة الكثرة ، والأمر بالذكر
الكثير أمرٌ بالمحبة لأنَّ في الخير : « من أحب شيئاً أكثر ذكره » فهذا — في الحقيقة —
أمرٌ بالمحبة أي أحببني أحبك ؛ « فاذكروني أذكركم » أي أحبوني أحبكم .

ويقال : (فاذكروني) بالتذلل (أذكركم) بالتفضل .

(فاذكروني) بالانكسار (أذكركم) بالمبار .

(فاذكروني) باللسان (أذكركم) بالجنان .

(فاذكروني) بقلوبكم (أذكركم) بتحقيق مطلوبكم .

(فاذكروني) على الباب من حيث الخدمة (أذكركم) بالإيجاب على بساط القرية
بإكمال النعمة .

(فاذكروني) بتصفية السِّر (أذكركم) بتوفية البُر .

(فاذكروني) بالجهد والعناء (أذكركم) بالجود والعطاء .

(فاذكروني) بوصف السلامة (أذكركم) بيوم القيامة يوم لا تنفع الندامة .

(فاذكروني) بالرهبة (أذكركم) بتحقيق الرغبة .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ

وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ .

استعينوا بالصبر على الصلاة أي بصبركم — عند جريان أحكام الحق عليكم —
استحقاقكم صلاة ربكم عليكم ، ولذا فإنه تعالى بعد « وَيَشُرُّ الصَّابِرِينَ » يقول : « أُولَئِكَ
عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ » .

ويقال استوجب الصابرون نهاية الذخر ، وعلو القدر حيث نالوا معية الله قال تعالى :
« إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أحياءٌ ، وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ .
فاتهم الحياة في الدنيا ولكن وصلوا إلى الحياة الأبدية في العقبى ، فهم في الحقيقة أحياء ،
يجدون من الله فنون الكرامات .
ويقال هم أحياء لأن الخلف عنهم الله ومن كان الخلف عنه الله لا يكون ميتاً ، قال قائلهم
في مخلوق :

إن يكن عنا مضي بسيله فما مات من يبقى له مثل خالد
ويقال هم أحياء بذكر الله لهم ، والتي هو مذكور الحق بالجميل بذكره السرمدى
ليس بميت .

ويقال إن أشباحهم وإن كانت متفرقة ، فإن أرواحهم - بالحق سبحانه - مشحقة .
ولئن فنيت بالله أشباحهم فلقد بقيت بالله أرواحهم لأن من كان فناؤه بالله كان بقاؤه بالله .
ويقال هم أحياء بشواهد التعظيم ، عليهم رداء الهيبة وهم في ظلال الأنس ، يسطهم
بجالة مرة ، ويستغرقهم جلاله أخرى^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ
وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ
وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا
أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ
رَاجِعُونَ ﴾ .

ابتلام بالنعمة ليظهر شكرهم ، وابتلام بالمحنة ليظهر صبرهم ، فلما أدخل المعلوم من
حالم في الوجود ، ودرهمهم بالرقم الذي قسمة ، وأثبتهم على الوصف الذي علمه ، (ابتلام)

(١) شبيه بذلك ما يقوله القشيري في كتابه « التعبير في التذكير » حينما شرح « المحي المبيت »
و « الجليل الجليل » : « من كاشفه بجلاله أفناء ، ومن كاشفه بجباله أحياء ، فكشف الجلال يوجب محواً
وغيبة ، وكشف الجمال يوجب مسحاً وقربة » .

بالخوف وفيه تصفية لصدورهم ، وبالجوع وفيه تنقية لأبدانهم ، وبنقص من الأموال تزكو به نفوسهم ، وبمصائب النفوس يعظم بها عند الله أجرهم ، وبآفة الثمرات يتضاعف من الله خلفهم .

« وبشّر الصابرين » يعنى الذين لا اعتراض لهم على تقديره فيما أمضاه .

ويقال طالبهم بالخوف (ابتعاداً) عن عقوبته ثم بمقاساة الجوع ابتغاء قربته وكرامته ، ونقص من الأموال بتصدق الأموال والخروج عنها طلباً للخير منه بمحصول معرفته .

« والأنفس » تسلياً لها إلى عبادته . « والثمرات » القول بترك ما يأمّلونه من الزوائد في نعمته « وبشّر الصابرين » على استحسان قضيته ، والالتقياد لجريان قدرته .

ومطالبات الغيب إما أن تكون بالمال أو بالنفس أو بالأقارب ؛ فمن أوقف المال لله فله النجاة^(١) ، ومن بذل لحكمه النفس فله الدرجات ، ومن صبر عند مصائب الأقارب فله الخلف والقرّبات ، ومن لم يدخر عنه الروح فله دوام المواصلات .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا ... الْآيَةُ .

قَابِلُوا الْأَمْرَ بِالصَّبْرِ لَا يُلْ بِالشُّكْرِ لَا يُلْ بِالْفَرْحِ وَالْفَخْرِ .

ومن طالع الأشياء ملكاً للحق رأى نفسه أجنبياً بينه وبين حكمه ؛ فمُنشئ ، المخلّقى أولى بالمخلوق من المخلوق .

ويقال من شهد المصائب شهد نفسه لله وإلى الله ، ومن شاهد المبلى عليم أن ما يكون من الله فهو عبد الله ، وشتان بين من كان لله وبين من كان بالله ؛ الذى كان لله فصابراً واقفاً ، والذى هو بالله فساقط الاختيار والحكم ، إن أثبتته ثبتت ، وإن محاه انمحي ، وإن حرّكه تمحرك ، وإن سكّنه سكّن ، فهو عن اختياراته قائم ، وفى القبضه مُصرف .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ

وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ .

(١) ربما كانت فى الأصل (الجنات) .

بصلواته^(١) عليهم ابتداء وصلوا إلى صبرهم ووقوفهم عند مطالبات التقدير ، لا بصبرهم ووقوفهم وصلوا إلى صلواته ، فلولا رحمته الأزلية لما حصلت طاعتهم بشرط العبودية ، فعنايته السابقة أوجبت لهم هداية خالصة^(٢) .

قال تعالى : « وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ » لما رحمهم في البداية اهتدوا في النهاية .

قوله جل ذكره : ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَارِ اللَّهِ﴾ .

تلك المشاهد والرسوم ، وتلك الأطلال والرقوم ، تُعْظَمُ^(٣) وتُزَارُ ، وتُشَدُّ إليها الرحال^(٤) لأنها أطلال الأحباب ، وهناك تلوح الآثار :

أهوى الديار لمن قد كان ساكنها وليس في الدارهم ولا طرب^(٥)

وإن لُتْرَابٍ طريقهم بل لنبار آثارهم — عند حاجة الأحباب — أقداراً عظيمة ، وكل غبرة تقع على (حافظات طريقهم)^(٦) لأعزُّ من المسك الأذفر :

وما ذاك إلا أن مشيت عليه أمانة في تربها وجرت به يردا

قوله جل ذكره : ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ

عليه أن يطوفَ بهما ومن تطوع

خيراً فإنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ .

حَطَى الصفا والمروة بجوار البيت فشرع السعى بينهما كما شرع للبيت الطواف ، فكما أن الطواف ركن في النسك فالسعى أيضاً ركن ، والجار يُكْرَمُ لأجل الجار .

(١) وردت (بصلواتهم) وهي خطأ من النسخ لأن السياق يؤدي إلى (صلاته) سبحانه عليهم في سابق الأزل ، كذلك تشير الآية الكريمة إلى صلاته لا إلى صلواتهم .

(٢) لاحظ هنا معارضة التشيرى لفكرة وجوب إثابة المطيع على الله . فالله في رأى التشيرى تنزه عن أن يجب عليه شيء ، لأن طاعة المطيع أولاً فضل من الله ، وليست بفضل العبد .

(٣) وردت (تعظيم) وهي خطأ في النسخ .

(٤) وردت (الرجال) وهي خطأ في النسخ .

(٥) إما أن تكون (هم) صحيحة ، أى لا حزن ولا فرح ، وإما أنها في الأصل (همس) لتناسب الطرب ، ولتناسبا مع خلو الدار من أقل أثر للحياة .

(٦) هكذا وردت في (ص) .

قوله جل ذكره : ﴿ إِن الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ
الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ
لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ
.وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ .

الإشارة في هذه الآية لمن كاشفه الحق سبحانه بعلم من آداب السلوك ثم ضمن^(١) بإظهاره
للمريدين على وجه النصيحة والإرشاد استوجب للقت في الوقت ، ويخشى عليه نزع البركة
عن علمه متى قصر فيه لما أخر من تعليم للسنيق .

قوله جل ذكره : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ
فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ
الرَّحِيمُ ﴾ .

تداركوا ما سلف من تقصيرهم بحسن الرجعى ، والقيام للمريدين على وجه النصيحة ،
وبينوا لهم — بجميل البيان وإقامة البرهان على ما يقولون — حسن قيامهم بمعاملاتهم .
فإن أظهر الحجج لبيان أفعالكم وأصدق الشهادة لتصحيح ما تدعونه انخلق إلى الله —
ألا يُخَالِفَ بمعاملتكم ما تشير إليه بمقالتكم ، قال الله تعالى : « وما أريد أن أخالفكم
إلى ما أنهاكم عنه » .

قوله جل ذكره : ﴿ إِن الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ
أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَاللَّائِمَةِ
وَالنَّاسُ أَجْمَعِينَ . خَالِدِينَ فِيهَا
لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾

الإشارة فيه أن الذين بدا لهم بعدما سلكوا طريق الإزادة (أن) يرجعوا إلى أحوال
العادة ، ثم في تلك الوحشة قبضوا ، وعلى تلك الحالة من الدنيا خرجوا ، أولئك أصحاب الفرقة ،

(١) وردت (ضمن) وهي خطأ من الناسخ وقد استندنا في الوصول إلى أنها (ضمن) من كلمة (بخل)
التي سجلها الناسخ تحته . والسياق يؤيدها .

فلا على أرواحهم إقبال ولا لمصيبتهم جبران ، ولا لأحد عليهم ترحم ، خسروا في الدنيا والآخرة ، يلعنهم البق في الهواء والنقع على الماء .

« خالدين » أى مقيمين أبداً في هوانهم وصغرهم ، لا تخفيف ولا إسعاف ، ولا رفق ولا أطفاف .

قوله جل ذكره : ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾ .

شرفهم غاية التشريف بقوله وإلهكم . وإن شيوخ هذه الطائفة قالوا : علامة من يعظه من خاص الخواص أن يقول له : عبدى ، وذلك أنهم من هذا بكثير لأن قوله : « وإلهكم » : وإضافة نعتهم أنهم من إضافته إياك إلى نفسه لأن إلهيته لك بلا علة ، وكوأنك له عبد يعرض كل نقصك وأفتك . ومتى قال لكم « وإلهكم » ؟

حين كانت طاعتك وحركاتك وسكناتك أو ذاتك وصفاتك لا بل قبل ذلك أزل الأزل حين لا حين ولا أوآن ، ولا رسم ولا حدثان .

و « الواحد » من لا مثل له يدانيه ، ولا شكل يلاقيه . لا قسم يجانسه ولا ديم يؤاسه . لا شريك يعاضده ولا معين يساعده ولا منازع يعانده .

أحدى الحق صدى العين ديموثى البقاء أبدى العز أزلى الذات .

واحد في عز سنائه فرد في جلال بهائه ، ونز في جبروت كبريائه ، قديم في سلطان عزه ، مجيد في جمال ملكوته . وكل من أطنب في وصفه أصبح منسوباً إلى العصى^(١) (ذ) لولا أنه الرحمن الرحيم لتلاشى العبد إذا تعرض لرفاقه عند أول ساطع من باديات عزه .

قوله جل ذكره : ﴿ إن في خلق السموات والأرض

واختلاف الليل والنهار والفلك

التي تجري في البحر بما ينفع الناس ،

وما أنزل الله من السماء من ماء

(١) وردت (الأصى) في م ويمكن قبولها على أنها اسم جلس .

فأحيا به الأرض بعد موتها
وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ
الرياح ، والسحابِ المُسَخَّرِ بين
السماء والأرضِ لآياتٍ لقومٍ يَعْقِلُونَ ﴿١﴾ .

تعرّف إلى قلوب الطالبين من أصحاب الاستدلال وأرباب العقول بدلالات قدرته ، وأمارات
وجوده ، وسمات ربوبيته التي هي أقسام أفعاله . ونبيهم على وجود الحكمة ودلالات الوجدانية
بما أثبت فيها من براهين تُلطف عن العبارة ، ووجود من الدلالات تدقُّ عن الإشارة ،
فما من عينٍ من العدم محصورة — من شخصي أو طلل ، أو رسمٍ أو أثر ، أو سماء أو فضاء (١) ،
أو هواء أو ماء ، أو شمس أو قر ، أو قطر أو مطر ، أو رمل أو حجر ، أو نجم أو شجر —
إلا وهو على الوجدانية دليل ، ولين يقصد وجوده سبيل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ
أنداداً يحبونهم كَحُبِّ اللَّهِ ﴾

هؤلاء قوم لم يجعلهم الحق سبحانه أهل المحبة ، فشغلهم بمحبة الأغيار حتى رضوا لأنفسهم
أن يحبوا كل ما هو كونه أنفسهم ، فرضوا بمحمولٍ لم أن يعبدوه ، ومنحوت — من دونه —
أن يحبوه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى
الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ
لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾ .

ليس المقصود من هذا ذكر محبة الأغيار للأصنام ، ولكن المراد منه مدح المؤمنين على
محبتهم ، ولا تحتاج إلى كثير محبة حتى تزيد على محبة الكفار للأصنام ، ولكن من أحب
حييًّا استكثر ذكره ، بل استحسن كل شيء منه .

ويقال وجه رجحان محبة المؤمنين لله على محبة الكفار لأصنامهم أن (هذه) محبة الجنس

(١) وردت (قضاء) في ص .

للجنس ، وقد يميل الجنس إلى الجنس ، وتلك محبة من ليس بجنس لم فذلك أعز وأحق .
ويقال إنهم أحبوا ما شاهدوه ، وليس بمجيب محبة ما هو لك مشهود ، وأما المؤمنون
فإنهم أحبوا من حال بينهم وبين (شهوده) رداء الكبرياء على وجهه .
ويقال الذين آمنوا أشد حبا لله لأنهم لا يتبرأون من الله سبحانه وإن عذبهم . والكافر
تبرأ من الصنم والصنم من الكافر كما قال تعالى : «إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ
اتَّبَعُوا... الآية» .

ويقال محبة المؤمنين حاصلة من محبة الله لهم فهي أتم ، قال تعالى : «يحبهم ويحبونه» .
ومحبتهم للأصنام من قضايا هوام .

ويقال محبة المؤمنين أتم وأشد لأنها على موافقة الأمر ، ومحبة الكفار على موافقة الهوى
والطبع ، ويقال إنهم كانوا إذا صلحت أحوالهم ، واتسعت ذات يدهم اتخذوا أصناماً أحسن
من التي كانوا يعبدونها قبل ذلك في حال فقرهم ؛ فكانوا يتخذون من الفضة — عند غنائم —
أصناماً ويهجرون ما كان من الحديد . . . وعلى هذا القياس ! وأما المؤمنون فأشد حبا لله
لأنهم عبدوا إلهاً واحداً في السراء والضراء .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ
الَّذِينَ اتَّبَعُوا ورأوا العذاب وتقطعت
بهم الأسباب ﴾ .

إذا بدت لهم أوائل العذاب اتضح أنهم لم يقفوا من الصدق على قدم ، وأما المؤمنون
فيسلبهم أرواحهم وأملهم وأزواجهم وأولادهم ، ويسكن (أولئك) ^(١) في القبور سنين
ثم ينزلهم في القيامة بطول الآجال ^(٢) وسوء الأعمال ثم يلقيهم في النار .

(١) أضفنا (أولئك) ليمتنع اللبس .

(٢) في من (طول الأحوال) ونرجح أنها في الأصل (الآجال) لأن وصف الأحوال بالطول غير ملائم
فضلا عن أننا نفترض أن القشيري لا يستعمل الأحوال إلا لأرباب الأحوال . وطول الآجال في جهنم معناه
تأيد العذاب .

(أما المؤمنون) ^(١) فيأتي عليهم طول الأيام والأعمال فلا يزدادون إلا محبة (على محبة) ^(٢) ولذلك قال : والذين آمنوا أشد حبا لله .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبراؤا منّا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴾ .

عند ^(٣) ذلك يعرفون مرارة طعم صحبة المخلوقين ولكن لا يحصلون إلا على حسرات .

قوله جل ذكره : ﴿ يأياها الناس كُفُوا بما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ .

الحرام — وإن استلذ في الحال — فهو وبيء في المآل ، والحلال — وإن اشتكره في الحال — فهو مريء في المآل .

والحلال الصافي ما لم ينس مُكْتَسِبُهُ الحق في حال اكتسابه ^(٤) .

ويقال الحلال ما حصله الجامع له والمبكتسب على شهود الحق في كل حال .

وكل ما يحملك على نسيان الحق أو عصيان الحق فهو من خطوات الشيطان .

قوله جل ذكره : ﴿ إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ .

لا جترأئه على الله يدعوك به إلى افتراءك على الله .

(١) أضفناها ليستقيم السياق إذ يبدو أنها سقطت أثناء النسخ .

(٢) في الهامش مستدركة وعليها علامة بموضعها .

(٣) وردت (من) والأصح (عند) .

(٤) التشيرى هنا مستفيد من تعريف سهل بن عبد الله التستري للحلال الصافي (الرسالة ص ٥٩) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لِمَ اتَّبَعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا

بَلِ اتَّبَعَ مَا أَتَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلُ مَا كَانَ

آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾

لا ترفع أبصارهم عن أشكالم وأصنافهم ، من أضرابهم وأسلافهم ، فَبَنَوْا عَلَىٰ مَنَاجِمِهِمْ ،
فَلَا جُرْمَ انْخَرَطُوا فِي النَّارِ ، وانسلخوا في سلكهم ، ولو عَلِمُوا أَنَّ أسلافهم لا عقل يردعهم ،
ولا رشد يجمعهم لنايذوم مناصيين ، وعاندوم مخالفين ، ولكن سلبوا أنوار البصيرة ،
وحُرموا دلائل اليقين .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمِثْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا كَتَبَ اللَّهُ الَّذِي

يَنْتَقِي بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءًا وَنِدَاءً صُمُّ
بِكُمْ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ .

عدموا سمع الفهم والقبول ، فلم ينفعهم سمع الظاهر ، فنزلوا منزلة البهائم في الخلو
عن التحصيل ، وَمَنْ رَضِيَ أَنْ يَكُونَ كَالْبَهِيمَةِ لَمْ يَقَعْ عَلَيْهِ كَثِيرٌ قِيَمَةٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ

مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ
إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ .

الحلال ما لا تَبِعَةَ عَلَيْهِ ، والطيب الذي ليس للخلق فيه مِثَّةٌ ، وإذا وجد العبد
(طعاما) يجتمع فيه الوصفان فهو الحلال الطيب .

وحقيقة الشكر عليه ألا تتنفس في غير رضاه الحق ما دام تبقى فيك القوة لذلك الطعام .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ

الْخَنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ،

فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ

عَلَيْهِ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

حرّم على الظواهر هذه المعدادات وهي ما أهل به لغير الله ، وحرّم على السرائر صهيبة .
غير الله بل شهود غير الله ، فمن اضطر — أى لم يجد إلى الاستهلاك فى حقائق الحق
وصولاً — فلا يَسْلُكَنَّ غير سبيل الشرع سبيلاً ، فإما أن يكون محوّاً فى الله ، أو يكون
قائماً بالله ، أو عاملاً لله ، والرابع همج لا خطر له .

قوله جل ذكره : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ
مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا
أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ
وَلَا يَكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

العلماء مُطَالِبُونَ بنشر دلائل العلم ، والأولياء مأمورون بحفظ ودائع السر فإن كتم
هؤلاء براهين العلوم ألبسوا بلجام من النار ، وإن أظهر هؤلاء شظية من السر عوجوا ببعاد
الأسرار ، وسكب ما أوتوا^(١) من الأنوار . ولكلٍ حدث ، وعلى كل أمرٍ قطيعة .

قوله جل ذكره : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى
وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ .
ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ
وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ
لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ .

إن الذين آثروا الغيب على الغيب ، والخلق على الحق ، والنفس على الأنس ، ما أقسى
قلوبهم ، وما أوقح محبوبيهم ومطلوبهم ، وما أخس^(٢) قدرهم ، وما أفضح^(٣) لذوى الأبصار
أمرهم ، ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق ، وأمضى القضاء والحكم فيه بالصدق ، وأوصلهم
إلى مآله أهلهم ، وأثبتهم على الوجه الذى عليه جبلهم .

(١) وردت (أتوا) والصواب (أوتوا) لتناسب المعنى .
(٢) وردت (أخص) والصواب أخس لتناسب المعنى .
(٣) وردت ما (أفصح) ورجح أنها فى الأصل ما (أفصح) .

قوله جل ذكره : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل
 المشرق والمغرب ولكن البر من
 آمن بالله واليوم الآخر والملائكة
 والكتاب والنبين وآتى للمال
 على حبه ذوى القربى واليتامى
 والمساكين وابن السبيل والسائلين
 وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى
 الزكاة ^(١) وللفوفون بهم إذا عاهدوا
 والصابرين فى البأساء والضراء وحين
 البأس ، أولئك الذين صدقوا
 وأولئك هم المتقون ﴾ .

والإشارة أن الظواهر ليس لها كثير اعتبار إنما الخبر عن الله عزيز .

وكثرة الأوراد — وإن جلّت — غرقة المجازة ، وإخلاص الطاعات — وإن عرّت — فصفة
 العوام ، ووصل الليل بالنهار فى وظائف كثيرة ومجاهدات غزيرة عظيم الخطر فى استحقاق
 الثواب ، ولكن معرفة الحق عزيزة .

وما ذكر فى هذه الآية من فنون الإحسان ، ووجوه قضايا الإيمان ، وإيتاء المال ،
 وتصفية الأعمال ، وصلة الرحم ، والتمسك بفنون الذم والعصم ، والوفاء بالعهود ، ومراعاة
 الحدود — عظيم الأثر ، كثير الخطر ، محبوب الحق شرعاً ، ومطلوبه أمراً لكن قيام الحق
 عنك بعد فنائك ، وامتنائك من شأهدك ، واستهلاكك فى وجود القدم ، وتعطل رسومك
 عن مساكنات إحساسك — أتم وأعلى فى المعنى ؛ لأن التوحيد لا يبق رسماً ولا أثراً ،
 ولا ينادر غيراً ولا غيراً ^(٢)

(١) اخطأ الناسخ فكتبا (وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة) .

(٢) الغير = السوى أما (الغير) فمروف .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْثُ بِالْحَرْثِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأَنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ، ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَى بِكُمْ ذَلِكَ فَهُوَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

حق القصاص مشروع ، والعفو خير ، فمن جنح إلى استيفاء حقه فُسِّمَ له ، ومن نزل عن ابتغاء حقه فمُحْسِنٌ ، فالأول صاحب عبادة بل عبودية ، والثاني صاحب فتوة بل حرية .
والدم المراق يجري فيه القصاص على لسان أهل العلم ، وأما على لسان الإشارة لأهل القصة^(١) فدماؤهم مطلولة وأرواحهم هدرية قال :

وإن فؤداً رعته لكَّ حامدٌ . وإن دماً أجريته بكَّ فاحِرٌ

وسفك دماء الأحياب (فوق)^(٢) بساط^(٣) القرب خلوف أهل الوصال ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « اللونُ لونُ الدمِّ والريحُ ريحُ المسكِ »

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

في استيفاء القصاص حياة لأنه إذا عَلِمَ أنه إذا قُتِلَ قُتِلَ أَمْسَكَ عن القتل وفي ذلك حياة القاتل والمقتول .

ولكن ترك القصاص — على بيان الإشارة — فيه أعظم الحياة لأنه إذا تَلَفَ فيه (سبحانه)

(١) أهل القصة هم أرباب الأحوال .

(٢) وردت (في) والأصوب فوق .

(٣) وردت (سباط) وقد رجحنا (بساط) القرب لورودها في مواضع أخرى مكثراً .

فهو الخلفُ عنه ، وحياته عنه أتم له من بقائه بنفسه ، وإذا كان الوارث عنهم الله والخلفُ عنهم الله فبقاء الخلفِ (١) أعزُّ من حياة مَنْ ورد عليه التلف .

قوله جل ذكره : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ .

مَنْ تَرَكَ مَالًا فَالْوَصِيَّةُ لَهُ فِي مَالِهِ مُسْتَحَبَّةٌ ، وَمَنْ لَمْ يَتَرَكَ شَيْئًا فَأَتَى بِالْوَصِيَّةِ ! ! فِي حَالَةِ الْأَغْنِيَاءِ يَوْصُونَ فِي آخِرِ أَعْمَارِهِمْ بِالثَّلَاثِ ، أُمَّا الْأَوْلِيَاءُ فَيُخْرَجُونَ فِي حَيَاتِهِمْ عَنِ الْكُلِّ ، فَلَا تَبْقَى مِنْهُمْ إِلَّا هِمَّةٌ انْفَصَلَتْ عَنْهُمْ وَلَمْ تَتَّصِلْ بِشَيْءٍ ؛ لِأَنَّ الْحَقَّ لَا سَبِيلَ لِلْهِمَّةِ إِلَيْهِ ، وَالْهِمَّةُ لَا تَعْلُقُ لَهَا بِمَخْلُوقٍ ، فَبَقِيَتْ وَحِيدَةً مَنْفَصَلَةً غَيْرَ مَنْصَلَةٍ ، وَأَنْشَدُوا :

أَحْبَبُّكُمْ مَا دُمْتُ حَيًّا فَإِنْ أَمُتُ يَجِبُكُمْ عَظْمِي فِي التَّرَابِ رَمِيمٌ .

هذه وصيتهم : وقال بعضهم :

(.) (٢)

لا بل كما قال قائلهم :

وَأَتَى الرَّسُولَ فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ رَحَلُوا قَرِيبًا

رَجَعُوا إِلَى أَوْطَانِهِمْ فَجَرَى لَهُ دَمْعٌ صَبِيبًا

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ

عَلَى الَّذِينَ يَبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

من حَرَفَ نُطْقًا جَرَى بِحَقِّهِ لِحَقِّهِ شَوْمٌ ذَلِكَ وَوَبَالَهُ .

وعقوبته أَنْ يُحَرَّمَ رَأْسُ الصَّدَقِ أَنْ يَشْمَهُ . فَمَنْ أَعَانَ الدِّينَ أَعَانَهُ اللَّهُ ، وَمَنْ أَعَانَ عَلَى

الدِّينِ خَذَلَهُ اللَّهُ .

(١) وردت (الخلق) والصواب (الخلف) .

(٢) هنا شاهد شمرى عجزنا تمامًا عن قراءته أو إصلاحه ... وما أكثر خطأ الناسخ في نقل شواهد

الشمر ! !

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا
فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ
غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

الإشارة فيه : أن من تفرّس^(١) في بعض المريدين ضعفاً ، أو رأى في بعض^(٢) أهل البداية
رخاوة قصدير أو وجد بعض الناصحين يتكلم بالصدق المحض على من لم يحتمله — فرأى أن يرفق
بذلك المريد بما يكون ترخيصاً له أو استمالة له أو مداراة أو رضا بتعاطي مباح — فلا بأس به
فإن حَمَلَ الناس على الصدق المحض مما لم يثبت له كثيرٌ أجر . فالرفق بأهل البداية —
إذا لم يكن لهم صارم عزم ، ولا صادق جهد — ركنٌ في ابتغاء الصلاح عظيم .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ
الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

الصوم على ضربين : صوم ظاهر وهو الإمساك عن المفطرات مصحوباً بالنية ، وصوم
باطن وهو صَوْنُ القلب عن الآفات ، ثم صون الروح عن المساكنات ، ثم صون السرِّ
عن الملاحظات .

ويقال صوم العابدين شرطه — حتى يَكْمُلَ — صَوْنُ اللسان عن الغيبة ، وصون الطرف عن
النظر بالريبة كما في الخبر : (مَنْ صَامَ فَلْيَصُمْ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ . . .) . . . الخبر^(٣) ، وأما صوم
العارفين فهو حفظ السر عن شهود كل غيره .

وإن من أمسك عن المفطرات فنهاية صومه إذا هجم الليل ، ومن أمسك عن الأغيار فنهاية
صومه أن يشهد الحق ، قال صلى الله عليه وسلم : « صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته » : الهاء في قوله

(١) وردت بالصاد وهي خطأ من الناسخ .

(٢) وردت (في أهل بعض البداية) وواضح أنها خطأ من الناسخ .

(٣) (إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك ويدك : معناه من لم يدع قول الزور والعمل به فليس
لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه) .

رواه البخاري وأصحاب السنن عن أبي هريرة .

عليه السلام — لرؤيته — عادة عند أهل التحقيق إلى الحق سبحانه ، فالعلماء يقولون معناه
عندهم صوموا إذا رأيتم هلال رمضان وأفطروا لرؤية هلال شوال ، وأما الخواص فصومهم لله
لأن شهودهم الله وفطرم بالله وإقبالهم على الله والغالب عليهم الله ، والذي (١) هم به
محو — الله .

قوله جل ذكره : ﴿ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ
مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ
أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ .

من شهد الشهر صام لله ، ومن شهد خالق الشهر صام بالله ، فالصوم لله يوجب المثوبة ،
والصوم بالله يوجب القربة . الصوم لله تحقيق العبادة والصوم بالله تصحيح الإرادة . الصوم لله
صفة كل عابد والصوم بالله نعت كل قاصد . الصوم لله قيام بالظواهر والصوم بالله
قيام بالضمائر . الصوم لله إمساك من حيث عبادات الشريعة والصوم بالله إمساك
بإشارات الحقيقة .

من شهد الشهر أمسك عن المفطرات ومن شهد الحق أمسك في جميع أوقاته عن
شهود المخلوقات .

من صام بنفسه سُقِيَ شراب السلسيل والزنجبيل ، ومن صام بقلبه سُقِيَ شراب المحاب
بنعمة الإيجاب .

ومن صام بِسِرِّهِ فهم الذين قال فيهم الله تعالى : « وَسَقَامُ رَبِّهِمْ شَرَابًا مُلَهُورًا » .
شراب ياله من شراب !! شراب لا يُدَار على الكف لكنه يبدو له من اللطف .
شراب استثناس لا شراب كاس .

قوله تعالى : « فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ » أى من أفطر لهذه
الأعذار فعليه صوم عدة أيام بعد ما أفطر قضاء لذلك . الإشارة لمن سقمت إرادته عن الصحة
فيرجع إلى غيره إما لرخصة تأويل أو لقلة قوة واحتمال ، أو عجز للقيام بأعباء أحكام الحقيقة

(١) وردت (والذين) وهو خطأ من النسخ .

فليُسهّل حق تقوى عزيمته وتشد إرادته ، فعند ذلك يُستدرك منه ما رُخص له بالأخذ بالتأويل ، وتلك مُنةُ الله سبحانه وتعالى في التسهيل على أهل البداية ، ثم استيفاء ذلك منهم واجبٌ في آخر الحال .

قوله جل ذكره : ﴿ وعلى الذين يطيقونه فدية ^(١) ﴾

..... طعام

مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له
وأن تصوموا خير لكم إن كنتم
تعلمون ﴿ .

الإشارة منه أنّ مَنْ فيه بقية من القوة للوقوف لمطالبات الحقيقة ويرجع إلى تسهيل الشريعة وينحط إلى رخصة التأويل فعليه الغرامة بواجب الحال وهو الخروج عما بقى له من معلوم مال أو مرسوم حال ويبقى مجرداً للواحد .

[فصل] ويقال إنه لما علم أن التكليف يقتضى المشقة خففه عليك ذلك بأن قلّل أيام الصوم في قلبك فقال : « أياماً معدودات » أى مدة هذا الصوم أيام قليلة فلا يهولنكم سماع ذكره ، وهذا كقوله تعالى : وجاهدوا في الله حق جهاده . ثم قال : « وما جعل عليكم في الدين من حرج أى لا يلحقكم كثير مشقة في القيام بحق جهاده .

قوله جل ذكره : ﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن

هدى للناس وبينات من الهدى

والفرقان فمن شهد منكم الشهر

فليصمه ، ومن كان مريضاً أو على

سفر فعدة من أيام أخر ﴿ .

رمضان يُرمضُ ذنوب قوم ويرمض رسوم قوم ، وشتان بين من تحرق ذنوبه رحمة وبين من تحرق رسومه حقيقته .

(١) وقع الناسخ في سهو حين أعاد ثلاثة أسطر مما سبق له أن كتبه ، ووقعت هذه الأسطر المعادة بين كلمتي (فدية ، وطعام) في الآية السكرية .

شهر رمضان شهر مفاتيح الخطاب ، شهر إنزال الكتاب ، شهر حصول الثواب ، شهر التقريب والإيجاب . شهر تخفيف الكلفة ، شهر تحقيق الزلف . شهر نزول الرحمة ، شهر وفور النعمة . شهر النجاة ، شهر المناجاة .

قوله جل ذكره : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ .

أراد بك اليسر (وأنت تظن) أنه أراد بك العسر .
ومن أمارات أنه أراد بعينه اليسر أنه (أقامه)^(١) بطلب اليسر ؛ ولولم يُرِدْ به اليسر لما جعله راغباً في اليسر ، قال قائلهم :
لو لم تُرِدْ نَيْلَ ما أُرْجُو وأُطْلِبُهُ من فيضِ جودِكَ ما علمتني الطلب
حقّق الرجاء وأكّد الطمع وأوجب التحقيق حيث قال : « ولا يريد بكم العسر » لينفي عن حقيقة التخصيص مجوزات الظنون .

قوله جل ذكره : ﴿ ولتكلوا العدة ﴾ .

على لسان العلم تكلوا مدة الصوم .
وعلى لسان الإشارة لتقرنوا بصفاء الحال (وفاء)^(٢) (المال)^(٣)
ولتكبّروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون « في النفس الأخير ، وتخرجوا من مدة عمركم بسلامة إيمانكم . والتوفيق في أن تكل صوم شهرك عظيم لكن تحقيق أنه يختم عمرك بالسعادة — أعظم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب ﴾

(١) جاءت (أقام) وقد جعلناها (أقامه) ليزداد وضوح المعنى .
(٢) جاءت (وفاء) ونظن أن الواو الأولى زائدة من الناسخ .
(٣) جاءت (المال) وقد اعتاد الناسخ أن يكتب المال مثل المال أي بدون علامة على المد ، وآثرنا هنا أن نضمها ، فالمقصود الإعداد لليوم الآخر بالطاعات والعبادات ، وغاية التمام أن تجمع بين الحقيقة والشرعية . هذا فضلاً عن أن الإشارة للصوفية ، والصوفية قوم لا مال لهم .

سؤال كل أحد يدل على حاله ؛ لم يسألوا عن حكم ولا عن مخلوق ولا عن دين^(١) ولا عن دنيا ولا عن عقي بل سألوا عنه فقال تعالى : « وإذا سألك عبادي عني » . وليس هؤلاء من جملة من قال : « ويسألونك عن الجبال » ، ولا من جملة من قال : « ويسألونك عن الينابيع » ، ولا من جملة من قال : « ويسألونك عن المحيض » ، ولا من جملة من قال : « ويسألونك عن الروح » ، ولا من جملة من قال : « ويسألونك عن الحمر والبسر » ، « ويسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه » .

هؤلاء قوم مخصوصون : « وإذا سألك^(٢) عبادي عني » .

أى إذا سألك عبادي عني فبماذا تجيبهم ؟ ليس هذا الجواب بلسانك يا محمد ، فأنت وإن كنت السفير بيننا وبين الخلق فهذا الجواب أنا أتولاه « فأني قريب » (رفع الواسطة من الأغيار عن القربة فلم يقل قل لهم إني قريب بل قال جل شأنه : فأني قريب)^(٣) .

ثم بين أن تلك القربة ما هي : حيث تقدس الحق سبحانه عن كل اقتراب بجهة أو ابتعاد بجهة أو اختصاص ببقعة فقال : « أجيب دعوة الداع » وإن الحق سبحانه قريب — من الجملة والكافة — بالعلم والقدرة والسمع والرؤية ، وهو قريب من المؤمنين على وجه التبرية والنصرة وإجابة الدعوة ، وجل وتقدس عن أن يكون قريباً من أحد بالذات والبقعة ؛ فإنه أحدي لا يتجه في الأقطار ، وعزيز لا يتصف بالكُنْه والمقدار .

قوله جل ذكره : « أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون » .

لم يعد إجابة من كان باستحقاق زهد أو في زمان عبادة بل قال دعوة الداعي متى دعاني وكيف دعاني وحينما دعاني ثم قال : « فليستجيبوا لي » هذا تكليف ، وقوله : « أجيب دعوة

(١) تكررت كلمة (دنيا) مرتين فرجعنا أن تكون الأولى (دين) وتركنا الثانية (دنيا) لتقابل مع (عقي) .

(٢) وضع الناسخ علامة تشير بوجود كلمات زائدة بين (سألك) . . . (وعبادي) لحذفنا الزائدة .

(٣) ما بين القوسين تكملة من الهامش استدركها الناسخ فوضعناها في موضعها .

الداع « تعريف وتخفيف ، قدّم التخفيف على التكليف ، وكأنه قال : إذا دعوتني - عبدي - أجبتك ، فأجبتني أيضاً إذا دعوتك ، أنا لا أرضى برّد دعائك فلا ترّض - عبدي - برّدني من نفسك . إجابتي لك بالخير تحملك - عبدي - على دعائي ، ولا دعاؤك يحملني على إجابتك . « فليستجيبوا لي ، وليؤمنوا بي » : وليتقوا في ، فإني أجيب من دعائي ، قال قائلهم :

ياعزُّ أقسيم بالذي أنا عبده وله الحجيج وما حوت عرفات^(١)
لا أبغى بدلاً سواك خليفة فثقي بقولي والكرام ثقات

ثم قال في آخر الآية : « لعلهم يرشدون » أي ليس القصد من تكليفك ودعائك إلا وصولك إلى إرشادك .

قوله جل ذكره : ﴿ أَجِلُّ لَكُمْ لَيْلَةُ الصِّيَامِ الرِّفْتُ
إِلَى نَسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ
لِبَاسٌ لَهُنَّ ، عَلَّمَ اللَّهُ أَنْكُمْ كُنْتُمْ
تُخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا
عَنْكُمْ ، فَالآن بَاشِرُوهُنَّ ، وَابْتَغُوا
مَّا كَسَبَ اللَّهُ لَكُمْ ، وَكُلُوا وَاشْرَبُوا
حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ
الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتَمُوا
الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ .

أخبر أنه — في الحقيقة — لا يعود إليه عائد من أوصاف الخلق ؛ إن كنت في العبادة
التي هي حق الحق أو في أحكام العادة من صحة جنسك التي هي غاية النفس والحظ ، فسيان
في حالك إذا أورد فيه الإذن .

(١) جاءت (عرفان) وهي خطأ في النسخ .

نزلت الآية في ذلّة بدّرت من الفاروق^(١) ، فجعل ذلك سبباً رخصته لجميع^(٢) المسلمين إلى القيامة . وهكذا أحكام العناية .

ويقال علم أنه لا بدّ للعبد عن الحفظ قسماً الليل والنهار في هذا الشهر بين حقه وحفظك ، فقال أما حتى « فأتّموا الصيام إلى الليل » ، وأما حفظك « فكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر » .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ .

أخبر أن محل القدرة مقدّس عن اجتلاب الحفظ ، وقال إذا كنتم مشاغل بنفوسكم كنتم محجوبين بكم فيكم ، وإذا كنتم قائمين بناً فلا تعودوا منّا إليكم .
ويقال غيره الحق سبحانه على الأوقات أن يمزج الجدّ بالهزل ، قالت عائشة رضي الله عنها : يا رسول الله إني أحبك وأحب قربك فقال عليه السلام : ذرني يا ابنة أبي أبكر أتعبد ربّي . وقال صلى الله عليه وسلم لي وقت لا يسعني غير ربّي^(٣)

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْنُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

(١) أي عمر بن الخطاب . قال هشام عن حصين بن عبد الرحمن عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال قام عمر ابن الخطاب رضي الله عنه فقال : يا رسول الله إني أردت أهلي البارحة على ما يريد الرجل أهله فقالت إنها قد نامت فظننتها تمتل فراقعتها فتزل في عمر (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) وهكذا روى عن مجاهد وعطاء وعكرمة وقتادة (تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ١ ص ٢٢٠ ، ٢٢١ ط الحلبي) .
(٢) وردت (جميع) .

(٣) للحديث صورة أخرى « لي مع الله وقت لا يسعني فيه شيء غير الله عز وجل » والمعنى صحيح ولكن سنده غير معروف .

إذا تحا كتم إلى المخلوقين فاعلموا أن الله مطلع عليكم ، وعلمه محيط بكم ، فراقبوا موضع الاستحياء من الحق سبحانه ، ولئن كان المخلوقون^(١) عالمين بالظهور فالحق - سبحانه وتعالى - متولى السرائر .

قوله جل ذكره : ﴿ يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج ﴾ .

الأهلة - جمع هلال - مواقيت للناس ؛ لأشغالهم ومحاسباتهم .
وهي مواقيت لأهل القصة في تفاوت أحوالهم ؛ فللزاهدين مواقيت أورادهم ، وأما أقوام مخصوصون فهي لهم مواقيت لحالاتهم ، قال قائلهم .
أعد الليالي ليلة بعد ليلة وقد كنت قدما لا أعد الليالي
وقال آخر :

ثمان قد مضين بلا تلاقي وما في الصبر فضل عن ثمان
وقال آخر :

شهورٌ ينقضين وما شعرنا بأنصافٍ لهن ولا سِرارٍ^(٢)
قوله جل ذكره : ﴿ وليس البر أن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لکم تفلیحون ﴾ .

يعنى ليس البر مراعاة الأمور الظاهرة ، بل البر تصفية السرائر وتنقية الضمائر .
قوله جل ذكره : ﴿ وقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ .

لكن نفوسكم عندكم ودائع الحق ؛ إن أمر بإمساكها أمسيكوها وصونوها ، وإن أمر

(١) وردت (المخلوقين) وهي خطأ من الناسخ لأن اسم كان مرفوع بالواو .

(٢) سِرار النهر وسِراره (بالكسر والفتح) آخر ليلة فيه (الوسيط ص ٤٢٨) .

بتسليمها إلى القتل فلا تدخروها عن أمره ، وهذا معنى قوله : « وَلَا تَعْتَدُوا » وهو أن تقف حينما أُوقِفْتَ ، وتفعل ما به أُمِرْتَ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾

يعنى عليكم بنصب العداوة مع أعدائى — كما أن عليكم إثبات الولاية والموالاتة مع أوليائى — فلا تُشَفِّقُوا^(١) عليهم وإن كان بينكم واصلد^(٢) الرحم وشائج القرابة .

« وأخرجوهم من حيث أخرجوكم » . أولاً أخرجوا جثثهم ومواليهم من قلوبكم ، ثم (. . .)^(٣) عن أوطان الإسلام ليكون الصغار جاريًا عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾

والإشارة : أن المحنة التى تَرِدُ على القلوب من طوارق الحجب أشد من المحنة التى تَرِدُ على النفوس من بذل الروح ، لأن فوات حياة القلب أشد من فوات حياة النفس ، إذ النفوس حياتها بمألوفاتها ، ولكن حياة القلب لا تكون إلا بالله .

ويقال الفتننة أشد من القتل : أن^(٤) تنأى عن الله أعظم من أن تنأى عن روحك وحياتك .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى تَمْسُكُوا بِمُخَارِجِ الدِّمَارِ ﴾

حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم

كذلك جزاء الكافرين ﴿

الإشارة منه : لانشوش وقتك^(٥) مع الله إذا كان بوصف الصفات بما تدخله على نفسك

(١) ووردت (فلا تشفوا) والمعنى والسياق يرفضانها رفضاً قاطعاً وقد صوبناها بما يتلاءم .

(٢) الواصد والأصد = العهد . مثل الورث والإرث والوحد والأحد وربما كانت أوامر .

(٣) مشبهة لى من وربما كانت : ثم (أخرجوهم) .

(٤) وردت (تنفى) والمعنى والسياق يرفضانها رفضاً قاطعاً وقد صوبناها بما يتلاءم .

(٥) قال الدقاق — شيخ القشيري — فى تعريف الوقت : الوقت ما أنت فيه فإن كنت بالدنيا فوقتك

الدنيا ، وإن كنت بالعقب فوقتك العقب ، وإن كنت بالسرور فوقتك السرور ، وإن كنت بالحزن فوقتك الحزن .

وعلق القشيري على رأى أستاذه قائلاً : يريد بهذا أن الوقت ما كان هو الغالب على الإنسان . ويقولون

الصولي ابن وقته يريدون بذلك أنه مشتغل بما هو أولى به فى الحال، قائم بما هو مطالب به فى الحين، ويلبى ألا يفرط المبد فيها يقتضيه حق الشرع .

وإن كانت نوافل من الطاعات ، فإن زاحك مزاحم يشغلك عن الله فاقطع مادة ذلك عن نفسك بكل ما أمكنك لئلا تبقى لك علاقة تصدك^(١) عن الله .

قوله جل ذكره : ﴿فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

الإشارة منه : إذا انقطعت عنك غاغة خواطرك وأعداء نفسك ، مما يخرجك عنه ويزاحك ، قلم حديث النفس ودع مجاهداتها ؛ فإن من طوب بحفظ الأسرار لا يتفرغ إلى مجاهدات النفوس بقنون المخالفات^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ

الدِّينُ لِلَّهِ ، فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ

إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ .

الإشارة من الآية إلى مجاهدات النفوس ؛ فإن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك .
أى استوف أحكام الرياضات حتى لا يبقى للآثار البشرية شيء ، وتسلم النفس والقلب لله ، فلا يكون معارض ولا منازع منك لا بالتوقى ولا بالتلقى ، لا بالتدبير ولا بالاختيار — بحال من الأحوال ؛ تجري عليك صروفه^(٣) كما يريد ، وتكون^(٤) محوًّا عن الاختيارات ، بخلاف ما يرد به الحكم ، فاذا استسلمت النفس فلا عدوان إلا على أرباب التقصير ، فأما من قام بحق الأمر تقصى عن عهدة الإلزام .

قوله جل ذكره : ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ

وَالْحَرَمَاتِ قِصَاصٌ ، فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ

فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ

وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾

(١) وردت (تصدق) والمعنى والسياق يرفضانها رفضاً قاطعاً وقد صوبناهما بما يتلاءم :

(٢) يريد القشيري بهذه الفقرة أن تنزل على حكم المرحلة التي وصلت إليها ، فإذا اجتاز بك فضل الله مرحلة جهادك مع نفسك إلى ما فوقها فلا تشغلن وقتك إلا بما صرت عليه ، بمعنى أن تنزل على حكم الوقت .

(٣) وردت (حروفه) والصواب صروفه ، وقد جاء في الرسالة هذا الشاهد :

(٤) وردت (يكون) وهي خطأ من الناسخ .
تجربى عليك صروفه وهووم مرك مطرقة (الرسالة ص ٦٣)

الإشارة فيه : إذا تقابل حقان كلاهما لله فَسَلَّمَ الوقت بحكم الوقت ، ودلّ مع إشارات الوقت ، وإياك أن ترجح أحدهما على الآخر بمالك من حظ — وإن قلّ — فتُحجَّب عن شهود الحق ، وتَعْنَى بصيرة قلبك . وكلُّ ما كان إلى خلاف هواك أقرب ، وعن استعجابك ومكونك إليه أبعد — كان ذلك في نفسه أصوب .

« واعلموا أن الله مع المتقين » : الذين اتقوا إيثار هوام على ما فيه رضاه ، فإذا قاموا لله — فيما يأتون — لا لهُمْ فإن الله تعالى بالنصرة معهم ، قال تعالى : « إن تنصروا الله ينصركم » . قوله جل ذكره : ﴿ وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

إنفاق الأغنياء من أموالهم ، وإنفاق العابدين بنفوسهم لا يدخرونها عن العبادات والوظائف ، وإنفاق العارفين بقلوبهم لا يدخرونها عن أحكامه ، وإنفاق المحبين بأرواحهم لا يدخرونها عن حبه .

إنفاق الأغنياء من النعم وإنفاق الفقراء من الهمم .
إنفاق الأغنياء إخراج المال من الكيس ، وإنفاق الفقراء إخراج الروح عن أنفس النفيس ، وإنفاق الموحدين إخراج انشغالهم من السر .
قوله تعالى : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » الإشارة فيه إلى إمساك يدك عن البذل ، فن أمسك يده وأدّخر شيئاً لنفسه فقد ألقى بيده إلى التهلكة . ويقال : إلى إيثار هواك على رضاه .

ويقال « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » أي الغفلة عنه بالاختيار .

ويقال تَوَهُّمُ أنك تعيش من دون لطفه وإقباله لحظّة .

ويقال الرضا بما أنت فيه من الفترة والحجاب .

ويقال إمساك اللسان عن دوام الاستغاثة في كل نفس .

قوله تعالى : « وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » الإحسان أن ترفق مع كل أحد

إلا معك ؛ فإحسانك إلى نفسك في صورة إساءتك إليها في ظن الاعتماد ، وذلك لارتكابك كل شديدة ، ومقاساتك فيه كل عظمة . والإحسان أيضاً ترك جميع حظوظك من غير بقية ، والإحسان أيضاً تفرغك إلى قضاء حق كل أحد علق عليك حديثه . والإحسان أن تعبدته على غير غفلة . والإحسان أن تعبدته وأنت بوصف المشاهدة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾

إتمام الحج على لسان العلم القيام بأركانه وسننه وهيئته ، وإراقة الدماء التي تجب فيها (دون) التقصير في بعض أحوالها .

وفي التفسير أن تحرم بهما من دويرة أهلك^(١) .

وعلى لسان الإشارة الحج هو القصد ؛ فقصد إلى بيت الحق وقصد إلى الحق ، فالأول حج العوام والثاني حج الخواص .

وكما أن الذي يحج بنفسه يُحْرَمُ وَيَقِفُ ثم يطوف بالبيت ويسعى ثم يحلق ، فكذلك من يحج بقلبه ؛ فأجرامه بمقد صحيح على قصد صريح ، ثم يتجرد عن لباس مخالقاته وشهواته ، ثم باشتاله بشوي صبره وفقره ، وإمساكه عن متابعة حظوظه من اتباع الهوى ، وإطلاق خواطر المني ، وما في هذا المعنى . ثم الحاج أشعث أغبر تظهر عليه آثار الخشوع والخضوع ، ثم تلبية الأسرار باستجابة كل جزء منك .

وأفضل الحج الشج والعج ؛ الشج صبّ الدّم والعج رفع الصوت بالتلبية ، فكذلك سفك دم النفس بسكاكين الخلاف^(٢) ، ورفع أصوات السر بدوام الاستغاة ، وحسن الاستجابة ثم الوقوف بساحات القربة باستكمال أوصاف الهيبة . وموقف النفوس عرفات وموقف

(١) قال شعبة عن عمرو بن مرة عن عبد الله بن سلفة عن علي أنه قال في هذه الآية (وأتموا الحج والعمرة لله) قال أن تحرم من دويرة أهلك ، وكذا قال ابن عباس وسعيد بن جبير وطاوس .

(تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ١ ص ٢٣٠ ط الحلبي) .

(٢) الخلاف هنا معناها (المخالفة) أي مخالفة النفس وأهوائها .

القلوب الأسمى والصفات لعزّ الذات (عند) ^(١) للواصلات . ثم طواف القلوب حول (مشاهدة) ^(٢) العز ، والسعى بالأسرار بين صفّي كشف الجلال ولطف الجمال .

ثم التحلل يقطع أسباب الرغائب والاختيارات ، وللمنى والمعارضات . . بكل وجه .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِنْ أَحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾

المحصر بأمرين بعدو أو مرض .

والإشارة فيه إن استولى عدو النفس فلم تجد بداً من الإناخة بعقوة الرخص وتأويلات العلم فعند ذلك تتحلل بموجب العذر والاضطرار إذ لا مزاحمة مع الحكم . « والهدى » الذى يهذى به عند التحلل بالعذر ، والخروج عن المعلوم ، وتسليمه للفقراء ، وانتظار أن يزول المحصر فيستأنف الأمر . وإن مرضت الواردات وسقطت القصود وآل الأمر إلى التكليف فليجتهد ألا ينصرف كما أنه فى الحج الظاهر يجتهد ألا ينصرف لكل مرض أو إن احتاج إلى اللبس والخلق وغير ذلك — بشرط الفدية .

ثم إن عجز ، أشرط أن محله حيث حسبه فكذلك يقوم ويقعد فى أوصاف القصد وأحكام الإرادة ، فإن رجع — والعباد بالله — لم يُقَابِلْ إِلَّا بِالرَّدِّ وَالصَّدِّ ، وقيل :

فلا عن قِلٍّ كان التقرب بيننا ولكنه دهر يُشِيتُ ويجمع

وقال الآخر :

ولست — وإن أحببت من يَكُنُ الفضا بأول راج حاجة لا ينالها

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ

مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ

أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفَدِيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ

أَوْ نُسُكٍ * .

(١) وردت (عن) فى م ، والأسمى والصفات مقصود بها أسماء الله الحسنى وصفاته .

(٢) ترجح أنها فى الأصل (مشاهد) جمع مشهد لتناظر (مشاهد) الحج .

يَبْذُلُ مَا أَمْكَنَهُ ، وَيَخْرُجُ عَنْ جَمِيعِ مَا يَمْلِكُهُ ، وَعَلَيْهِ آثَارُ الْحُسْرَةِ ، وَاسْتِشْعَارُ
أَحْزَانِ الْحُجْبَةِ .

« فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا . . . الْحَجُّ : الْإِشَارَةُ مِنْهُ أَنْ يَبْتَهِلَ وَيَجْتَهِدَ بِالطَّوَافِ عَلَى الْأَوْلِيَاءِ ،
وَالْخِدْمَةِ لِلْفُقَرَاءِ ، وَالتَّقَرُّبِ بِمَا أَمْكَنَهُ مِنْ وَجُودِ الْإِحْتِيَالِ وَالِدَعَاءِ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ ﴾
إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ،
فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ .
وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ، تِلْكَ عَشْرَةٌ
كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي
لِلْحَجِّ الْحَرَامِ . وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا
أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

فَإِذَا تَجَلَّتْ أَقْمَارُ الْقَصُودِ عَنْ كَشُوفِ التَّعَرُّزِ ، وَانْجَلَّتْ غِيَابَةُ الْحُجْبَةِ عَنْ شَمُوسِ الْوَصْلَةِ
وَأَشْرَقَ نُورُ الْإِقْبَالِ فِي تَضَاعِيفِ أَيَّامِ الْوُقْفَةِ ، فَلَيْسَتْ أَيْفٌ لِلْوَصْلَةِ وَقْتًا ، وَلِيَفْرَشَ لِلْقُرْبَةِ بِسَاطًا ،
وَلِيَجِدَّ لِلْقِيَامِ بِحَقِّ السَّرُورِ نَشَاطًا ، وَلِيَقُلَّ : حَتَّى عَلَى الْبَهْجَةِ ! فَقَدْ مَضَتْ أَيَّامُ الْمَحَنَةِ .

وَلِيُكْمِلَ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ ، وَلِيَسْتَدِيمَ الْقِيَامَ بِأَحْكَامِ الصَّحْبَةِ وَالْخِدْمَةِ .

« وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » بِالْحُجَابِ لِمَنْ لَمْ يَرِهِ أَهْلَةُ الْوَصْلَةِ وَالْإِقْتِرَابِ .

قوله جل ذكره : ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ ﴾ .

كَأَنَّ الْحَجَّ بِالنَّفُوسِ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ لَا يَنْعَقِدُ الْإِحْرَامُ بِهِ إِلَّا فِيهَا ، وَلَا يَجُوزُ فِعْلُ
الْحَجِّ فِي جَمِيعِ السَّنَةِ إِلَّا فِي وَقْتٍ مُخْصٍ ، مِنْ قَاتِهِ ذَلِكَ الْوَقْتُ قَاتَهُ الْحَجُّ — فَكَذَلِكَ حُجَّ
الْقُلُوبِ لَهُ أَوْقَاتٌ مَعْلُومَةٌ لَا يَصِحُّ إِلَّا فِيهَا ، وَهِيَ أَيَّامُ الشَّبَابِ ؛ فَمَنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ إِرَادَةٌ فِي حَالِ
شَبَابِهِ فَلَيْسَتْ لَهُ وَصْلَةٌ فِي حَالِ مَشْيَبِهِ ، وَكَذَلِكَ مِنْ قَاتِهِ وَقْتُ قَصْدِهِ وَحَالِ إِرَادَتِهِ فَلَا يَصْلِحُ
إِلَّا لِلْعِبَادَةِ الَّتِي آخَرَهَا الْجَنَّةُ ، فَأَمَّا الْإِرَادَةُ الَّتِي آخَرَهَا الْوَصْلَةُ . . فَلَا .

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ

وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ .

كذلك الإشارة لمن سلك طريق الإرادة ألا يُعرج على شيء في الطريق ، ولا يمزج إرادته بشيء . فمن نازعه أو عارضه أو زاحه — سلم الكل للكل ، فلا لأجل الدنيا مع أحدٍ يخاصم ، ولا لشيء من حظوظ النفس والجاه مع أحد يزاحم ، قال تعالى : « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ﴾ .
تكتفى بعلمه وحكمه عن شهود خلقه وحكم خلقه وعلم خلقه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَتَزُودُوا فَإِنْ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴾ .

تقوى العامة مجانبة الزلات ، وتقوى الخواص مجانبة الأغيار بالسرائر .

قوله جل ذكره : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ .

الإشارة فيه أن ما تبتغي من فضل الله مما يُعينك على قضاء حقّه ، ويكون فيه نصيب للمسلمين أو قوة للدين — فهو محمود . وما تطلبه لاستيفاء حظك أو لما فيه نصيب لنفسك — فهو معول .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوا كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴾ .

الإشارة فيه إذا وقفت حتى تمت بحق طلبه فاذكر فضله معك ؛ فلو لا أنه أرادك لما أردته ، ولو لا أنه اختارك لما آثرت رضاه .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

الإشارة فيه ألا تعلم نفسك بما تمتاز عن أشكالك في الظاهر ؛ لا بلبسة ولا بخرق ولا بصفة ،

بل تكون كواحد من الناس ، وإذا خطر ببالك أنك فعلت شيئاً ، أو بك أو لك أو معك شيء فاستغفر الله ، وجدد إيمانك فإنه شرك خفي خامر قلبك .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾

« قضيت مناسككم » إشارة إلى القيام بحق العبودية .

« فاذكروا الله كذكركم آباءكم » إشارة إلى القيام بحق المحبة .

قضاء المناسك قيام بالنفس .

« فاذكروا الله كذكركم آباءكم » قيام له بالقلب على استدامة الوقت واستغراق العمر .
ويقال كما أن الأغيار يفتخرون بأبائهم ، ويستبشرون بأسلافهم فليكن افتخاركم بنا واستبشاركم بنا .

ويقال إن كان لأبائكم عليكم حق التربية فحنناً عليكم أوجب ، وأفضلنا عليكم أتم .
ويقال إن كان لأسلافكم مآثر ومناقب^(١) ، فاستحقاقنا لنعوت الجلال فوق ما لأبائكم من حسن الحال .

ويقال إنك لا تمل ذكر أبيك ولا تنسا على غالب أحوالك ، فاستدبر ذكرنا ، ولا تعترضك ملالة أو سامة^(٢) أو نسيان .

ويقال إن طعن في نسبك طعن لم ترض فكذلك ما تسمع من أقاويل أهل الضلال والبدع فذب عنا .

ويقال الأب يُذكر بالحرمة والحشمة فكذلك اذكرنا بالهيبة مع ذكر لطيف القرية بحسن التربية .

وقال « كذكركم آباءكم » ولم يقل أمهاتكم لأن الأب يُذكر احتراماً والأم تُذكر شفقةً عليها ، والله يرحم ولا يرحم .

(١) وردت (مناقب) وهي خطأ في النسخ .

(٢) وردت (مسامة) وهي خطأ في النسخ .

« أو أشد ذكراً » لأن الحق أحق ، ولأنك قد تستوحش كثيراً عن أبيك ، والحق سبحانه مُتَزَعٌ عن أن يخطر ببال من يعرفه أنه بخلاف ما يقتضى الواجب حتى إن كان ذرة .
وقوله « كذكركم آباءكم » الأب على ما يستحقه والرب على ما يستحقه .

قوله جل ذكره : ﴿ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا ^(١) وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن خَلَقٍ ﴾ .

خطاب لوقاله مخلوق لك كان شاكرًا ^(٢) ، ولو أنه شكامتك كما شكاك إليك لساءت الحالة ، ولكن بفضلله أحلك محل أن يشكو إليك فقال : من الناس من لا يجنج قلبه إلينا ، ويرضى بدوننا عنا ، فلا يبصر غير نفسه وحظه ، ولا يمكن إيمان له بربه وحقه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ .

إنما أراد بها حسنة تنتظم بوجودها جميع الحسنات ، والحسنة التي بها تحصل جميع الحسنات في الدنيا — حفظ الإيمان عليهم في المال ؛ فإن من خرج من الدنيا مؤمناً لا يخلد في النار ، وبفوات هذا لا يحصل شيء . والحسنة التي تنتظم بها حسنات الآخرة — المغفرة ، فإذا غفر فبعدها ليس إلا كل خير .

ويقال الحسنة في الدنيا العزوف عنها ، والحسنة في الآخرة الصون عن مساكنتها . والوقاية من النار ونيران الفرقه إذ اللام في قوله « النار » لام جنس فتحصل الاستعاذة عن نيران الحرقه ونيران الفرقه جميعاً .

ويقال الحسنة في الدنيا شهود بالأسرار وفي الآخرة رؤية بالآبصار .

ويقال حسنة الدنيا ألا يُفنيك عنك وحسنة الآخرة ألا يردك إليك .

(١) التيسر على الناسخ نقل هذه الآية بالآية التي تليها فوضع هنا (حسنة) وهي زائدة .

(٢) ترجيح أنها (شاكر) في الأصل .

ويقال حسنة الدنيا توفيق الخدمة وحسنة الآخرة تحقيق الوصلة .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك لم نصيب مما كسبوا ﴾ .
إن كان خيراً فخير وإن كان غيراً فغير . « والله سريع الحساب » للعوام في الفرصة ،
واللخواص في كل نفس .

ويقال ذكر فريقين : منهم من يقول ربنا آتينا في الدنيا ، والثاني يقول في الدنيا والعقبى ،
وثالث لم يذكرهم وهم الراضون بقضائه ، المستسلمون لأمره ، الساكنون عن كل دعاء واقتضاء .

قوله جل ذكره : ﴿ واذكروا الله في أيام معدودات
فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ،
ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى ،
واتقوا الله ، واعلموا أنكم إليه
تُحْشَرُونَ ﴾ .

هذه صفة أواخر النسك ، وهو الرمي في أيام رمي لما قدموا بأركان الحج خفف عنهم
بأن يحرم في المقام والإفاضة والتعجيل في التفريق
والإشارة منه أن من خدت نفسه ، وحَيَّ قلبه ، واستدام بحقائق الشهود (سره)^(١)
— فإن سقط عنه شيء من فروع الأوراد فبها هو له مستديم من آداب الحضور عوض
عن الذي يفوت .

قوله جل ذكره : ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله
في الحياة الدنيا ويشهد الله على
ما في قلبه وهو ألد الخصام ﴾ .

أخبر أن قوماً أعرض الحق سبحانه وتعالى عن قلوبهم فأعطاهم في الظاهر بسطة في اللسان
ولكن ربط على قلوبهم أسباب الحرمان ؛ فهم في غطاء جهلهم ، ليس وراءهم معنى ، ولا على
قولهم اعتماد ، ولا على إيمانهم اتكال ، ولا بهم ثقة بوجه .

(١) نعلم من مذهب الفشيري أن حقائق الشهود متممة بالسر ، وما دام قد ذكر النفس والقلب فقد
وجدنا من الضروري للتوضيح ذكر (سره) حيث ترجح أنها سقطت من النسخ .

والإشارة إلى أهل الظاهر الذين لم تساعدهم أنوار البصيرة فهم مربوطون بأحكام الظاهر ؛
 لا لهم بهذا الحديث إيمان ، ولا بهذه الجملة استبصار ، فالواجب صون الأسرار عنهم فانهم
 لا يقابلون هذا الحديث إلا بالإنكار^(١) ، وإن أهل الوداعة^(٢) من العوام الذين في قلوبهم
 تعظيم لهذه الطريقة ، ولهم إيمان على الجملة بهذا الحديث لأقرب إلى هذه الطريقة من كثير
 ممن عدّ نفسه من الخواص وهو بمنزل عن الإيمان بهذا الأمر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ
 فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ
 لَا يَحِبُّ الْفُسَادَ ﴾ .

الإشارة لمن سعيه مقصور على استجلاب حظوظه ، فهو لا يبالي بما يتحلّ من عرى
 الدين ، ويهي من أسباب الإسلام ، بعدما تشتد حبال دنياه ، وتنظم أسباب منام ، من حرام
 جمعوه ، وحطام حصّوه . فإذا تخلّوا لوساوسهم وقصودهم الردية سعّوا بالفساد بأحكام أسباب
 الدنيا ، واستعاملهم من يستعينون بهم في تمشية أمورهم من القوم الذين نزع الله البصيرة
 من قلوبهم .

« والله لا يحب الفساد » : ما كان فيه خراب الأمور الدينية ونظام الأحوال الدنيوية
 فهو الفساد الظاهر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ
 الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ
 وَلَبِئْسَ لِلْهَادِثِينَ ﴾ .

هؤلاء أقوام استولى عليهم التكبر ، وزال عنهم خضوع الإنصاف ؛ فشمت آثافهم
 عن قبول الحق فإذا أمرته بمعروف قال : ألمثلني يقال هذا ١٩

(١) هنا نلاحظ أن القشيري يرى عدم البوح بأسرار الطريقة وأن الكتّان خير - وهذا موقف هام
 في مسألة على جانب عظيم من الخطورة .

(٢) وردت (الوداعة) وترجح أنها الوداعة لأنها أقرب إلى السياق .

وأنا كذا وكذا ١ ثم يكبر عليك (...)^(١) فيقول : وأنت أولى بأن تؤمر بالمعروف وتُنهى عن المنكر فإن من حالك وقصتك كذا وكذا .

أو لو ساعده التوفيق وأدركته الرحمة ، وتقلد المنة بمن هداه إلى رؤية خطئه ، ونبيه على سوء^(٢) وصفه ، لم يطوّر على نصيحة جنبيه وتبقى في القلب — إلى سنين — آثارها .

قال تعالى « فحسبه جهنم » يعني ما هو فيه في الحال من الوحشة وظلمات النفس وضيق الاختيار حتى لا يسعى في شيء غير مراده ، فيقع في كل لحظة غير مرة في العقوبة والمحنة ، ثم إنه منقول من هذا الزنداب إلى العذاب الأكبر ، قال الله تعالى : « ولنديقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر » .

قوله جل ذكره : ﴿ ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رءوف بالعباد ﴾ .

أولئك الذين أدركتهم خصائص الرحمة ، ونعتهم سوابق القسمة ، فأثروا رضاء الحق على أنفسهم ، واستسلموا بالكلية لمولاهم ، والله زعوف بالعباد : ولأفقه بهم وصلوا إلى هذه الأحوال ، لا بهذه الأحوال استوجبوا رأفته .

قوله جل ذكره : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ .

كَلَّفَ الْمُؤْمِنَ أَنْ يُسَلِّمَ كُلَّ أَحَدٍ إِلَّا نَفْسَهُ فَإِنَّهَا لَا تَتَحَرَّكُ إِلَّا بِمُخَالَفَةِ سَيِّدِهِ ؛ فَإِنْ مَنْ سَلَّمَ نَفْسَهُ قَتَرَ عَنْ مُجَاهَدَاتِهِ ، وَذَلِكَ سَبَبُ انْقِطَاعِ كُلِّ قَاصِدٍ ، وَمَوْجِبُ فِتْرَةِ كُلِّ مُرِيدٍ .
و « خطوات الشيطان » ما يوسوس إليك من عجزك عن القيام باستيفاء أحكام المعاملة ، وترك نزعات لا عبرة بها ، ولا ينبغي أن يلتفت إليها ، بل كما قال الله تعالى ، « فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ » ثم أَبْصِرْ ما الذي فعل به حين أَلْقَيْتَهُ ، وكيف دَدَّه إليها بعدما نَجَّاه .

(١) مثلية .

(٢) وردت (سواء) وهي خطأ في النسخ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِنْ زَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ

الْبَيِّنَاتِ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

الزَّلَّةُ الواحدةُ بعد كشف البرهان أقبحُ من كثيرٍ منها قبل ذلك ، وَمَنْ عُرِفَ فِي الْحَيَاةِ لَا يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ فِي الْأَمَانَةِ . وعنة الأكابر^(١) إذا حَلَّتْ بِهَا استتصالح بالكلية .

قوله جل ذكره : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ

فِي ظُلُمٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاللَّائِكَةُ ﴾ .

استنبط القوم قيام الساعة فأخبروا عن شدة الأمر إذا قامت الساعة بتفصيل ما ذكر .

وتلك أفعال في معنى الأحوال ، يظهرها الله سبحانه بما يزيل عنهم الإشكال في علو شأنه سبحانه وتعالى ، ونفاذ قدرته فيما يريد . « وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور » أى انتهك ستر الغيب عن صريح التقدير السابق . ولقد استغنت قلوب للوحدين لما فيها من أنوار البصائر عن طلب التأويل لهذه الآية وأمثالها إذ الحق سبحانه مُتَرَزُّةٌ عن كل انتقال وزوال ، واختصاص بمكان أو زمان ، تقدس عن كل حركة وإتيان^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ سَلِّ بْنِ إِسْرَائِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ

آيَةٍ يَنْتَظِرُونَ وَمَنْ يَبْدُلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ

بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

فائدة السؤال ليقرر عليهم بالسؤال المحجة ، لا ليقرر للرسول صلى الله عليه وسلم بسؤالهم ما أشكل عليهم من واضح المحجة .

« ومن يبدل نعمة الله من بعدما جاءته فإن الله شديد العقاب » بزوال تلك النعمة . وعند ذلك يعرفون قدرها ، ثُمَّ يَنْدُبُونَهَا وَلَا يَصْلَوْنَ إِلَيْهَا قَطْ ، قال قائلهم :

سَهَجَرْنِي وَتَرَكْنِي فَتَطْلُبْنِي فَلَا تَجِدُ

(١) عنة الأكابر المقصود بها هنا زلات الأكابر ، وعقوبتها اشد ، وقد استدلل القشيري على ذلك في موضع سابق بأن من ترتكب فاحشة من أمهات المسلمين يضاعف لها العذاب ضعفين .

(٢) إشارة إلى ما في الآية الكريمة (يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ) .

قوله جل ذكره : ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ
اتَّقُوا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَاللَّهُ يَرْزُقُ
مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

مكروا^(١) فلم يشعروا ، وحملهم اشتداد الظلمة على بصائرهم على الواقعة في أولياته سبحانه ،
والسخرية منهم ، وحين تقشعت غواية الجهل عن قلوبهم (.....) ^(٢) علموا مَنْ الخاسر
منهم مَنْ الذي كان في ضلال بعيد .

قوله جل ذكره ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ
النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأُنْزِلَ
مَعَهُمُ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ
النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَمَا اخْتَلَفَ
فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ
الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهْدَى اللَّهُ الَّذِينَ
آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ
بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

يعنى الغيبة عن الحق جمعهم ، فلما أتتهم الرسل تباينوا على حسب ما رزقوا من أنوار
البصيرة وحرِّموها . ويقال كانوا على ما سبق لهم من الاختيار القديم ، وبعجىء الرسل تهود قوم
وتنصّر قوم ، ثم في العاقبة يردُّ كل واحد إلى ما سبق له من التقدير ، وإن الناس اجتمعوا
كلهم في علمه سبحانه ثم تفرّقوا في حكمه ، فقوم هدام وقوم أغواهم ، وقوم حجهم وقوم

(١) ربما كانت في الأصل ('مِكْرُ بِهِمْ') فلم يشعروا ، فالآية تقول (زُيِّنَ لِلَّذِينَ ...) فهم لم يشعروا
بأن زين الدنيا لهم مكر من الله والله خير الماكرين .
(٢) زائدة .

جذبهم ، وقوم ربطهم بالخلاص وقوم بسطهم بالإحسان ، فلا من المقبولين أمر مكتسب ، ولا لردّ الردودين سبب ، بل هو حكمٌ بُتَّ وقضاءٌ جُزِمَ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ لَمْ يَكُونُوا يَأْتِ الصُّلَّةَ إِلَّا مِنْ خَلْفِهِمْ وَمَا ظَنُّوا أَنْ يَنْزِلَهُمْ نَارٌ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ يَخَرُّوا مِنْهَا كَمَا يَخْرُجُ السَّيْلُ بَلْ هُمْ قَوْمٌ مُبْذَلُونَ ﴾ .

خلق الله الجنة وسفنها بالمصاعب ، وخلق النار وحفها بالشبهوات والرفائب ، فمن احتشم ركوب الأهوال بقي عن إدراك الآمال . ثم إن الحق سبحانه ابتلى الأولين بفنونٍ من مقاساة الشدائد ، وكلٌّ من أُلْحِقَ بهم من خلف الأولياء أدخلهم في سلكهم ، وأدرجهم في غمارهم ، فمن ظنَّ غير ذلك فَسَرَّابٌ ظَنَّهُ ماءً ، وحكم لم يحصل على ما ظنه تأويلاً . ولقد مضت سنة الله سبحانه مع الأولياء أنهم لا يُنِخَوْنَ بعقوة الظفر إلا بعد إشرافهم على عرصات اليأس ، فحين طال بهم الترقُّبُ صادفهم اللطفُ بغنةٍ وتحقق لهم المبتغى فجأة . قال تعالى ﴿ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ .

قوله جل ذكره : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنَ خَيْرٍ فَلِلَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ .

علموا أن العبد غير منفردٍ بالفاعلية أن يفعل ، فإنَّ العبد ليس له فعل شيء إلا بإذن مولاه فتوقفوا في الإنفاق على ما يشير إليه تفصيل الإذن ، لأنَّ العبودية الوقوفُ حينما أوقفك الأمر . .

ويقال لم ينفقوا على إشارات الهوى . وإن ما طالعوه تفاصيل الأمر وإشارات الشرع والواو في هذه الآية في قوله : « والأقربين واليتامى » تشير إلى نوع من الترتيب ؛ فالأولى بعروفك واللباك ثم أقاربك ثم على الترتيب الذى قاله .

قوله جل ذكره : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

صعبت على النفوس مباشرة القتال ، فبين أن راحت النفوس مؤجلة لأنها في حكم التأديب ، وبالعكس من هذا راحت القلوب فإنها معجلة إذ هي في وصف التقريب ، فالسعادة في مخالفة النفوس ؛ فمن وافقها حاد عن المحبة المثلئ ، كما أن السعادة في موافقة القلوب فمن خالفها زاغ عن السنة العليا .
وبشرى ضمان الحق بالبشرى أولى أن تقبل من محذرات هواجس النفوس في حلول العسر وحصول الضرر .

قوله جل ذكره : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ ، وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ .

من المعاصى ما يكون أشد من غيره وأصعب في المعنى ، فسوء الأدب على الباب لا يُوجب ما يُوجب على البساط ؛ فإذا حصلت الزلة بالنفس فآثرها بالعقوبة المؤجلة وهى الاحتراق ، وإذا زل^(١) القلب بالعقوبة معجلة وهى بالفراق ، وأثر الغفلة على القلوب أعظم من ضرر الزلة

(١) وردت (زال) وهى قطعاً خطأ فى النسخ .

على النفوس ، فإن النفس عن الحظ تبقى ، والقلب عن الحق يبقى

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ
عَنْ دِينِكُمْ إِنِ امْتُطِئُوا ، وَمَنْ يَرْتَدِدْ
مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ
فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ
فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

الإشارة من هذا أن أهل الغفلة إذا راودوك أرادوا صَرْفَكَ إلى ما هم عليه من الغفلة ،
فلا يرضون إلا بأن تفسخ عقد إرادتك بما تعود إليه من سابق حالتك ، ومن فسخ مع الله
عهده مَسَخَ قلبه .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا
وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ
رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

إن الذين صدقوا في قصدهم ، وأخلصوا في عهدهم ، ولم يرتدوا في الإرادة على أعقابهم ،
أولئك الذين عاشوا في رَوْحِ الرجاء إلى أن يصلوا إلى كمال البقاء ودار اللقاء .

قوله جل ذكره : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا
إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا
أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾ .

الخمر ما خامر العقل ، وكما أن الخمر حرام بعينها فالسُّكْر حرام بقوله صلى الله عليه وسلم :
« حُرِّمَتِ الْخَمْرُ بِعَيْنِهَا ، وَالسُّكْرُ مِنْ كُلِّ شَرَابٍ » ، فمن سَكِرَ من شراب الغفلة استحق
ما يستحق شارب الخمر من حيث الإشارات ، فكما أن السكران ممنوع من الصلاة فصاحب
السُّكْر بالغفلة محجوب عن المواصلات وأوضح شواهد الوجود ، فمن لم يَصْدُقْ فَلْيُجَرِّبْ .

ومعنى القمار موجود في أكثر معاملات أهل الغفلة إذا سلكوا طريق الخيل والجداع
والكذب في المقال . وينزل الصدق والإنصاف عزيزاً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ
كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ
لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾

قل الغفوة ما فضل عن حاجتك ، وهذا للخواص يخرجون من فاضل أموالهم عن قدر
كفايتهم ، فأما خواص الخواص فطريقهم الإيثار وهو أن يؤثر به غيره على نفسه وبه فاقه
إلى ما يخرج وإن كان صاحبه الذي يؤثر به غيباً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لِمَ
خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾

إصلاح حالهم بما يكون فيه تأديبهم أتم من إصلاح مالهم ، ثم الصبر على الاحتمال عنهم مع
بذل النصيح ، و (مفارقة المال من من أرشادهم خير من الترخص بأن يقول إنه لا يتوجه
على فرضيهم)^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمَصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ
اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

فيعامل كلاً على سوا كن قلبه من القصد لا على ظواهر كسبه من جميع الفنون .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ
وَلَأَمَّةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ
وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ
حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ
مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ، أُولَئِكَ يَدْعُونَ

(١) لها بين قوسين غموض ربما نتج عن خطأ في النقل .

إلى النار والله يدعو إلى الجنة
والمغفرة بإذنه ، وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ
لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٠﴾ .

صلة حبل الدين والتمسك بعصمة المسلمين أتم من الرضا بأن تنتهي إلى أحد يسلك
إلى الكفر ، ولئن كانت رخصة الشريعة حاصلة في فعله فإشارة الحقيقة مانعة من حيث الثبوت
عن اختياره ، هذا في الكتابيات اللاتي يجوز مواسلتهم ، فأما أهل الشرك فحرام مواسلتهم
قطعا ، وأوجه مباينتهم في هذا الباب حُكْمُ جَزْمٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى
فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ
وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا
طَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾

ليس كل ما يكون موجب الاستحياء والنفور مما هو باختيار العبد ، فقد يكون من
النقائص ما ليس للعبد فيه كسب ، وهو ابتداء حكم الحق ، فمن ذلك ما كتب الله على بنات آدم
من تلك الحالة ، ثم أُمِرْنَ باعتزال المصلي في أوان تلك الحالة ، فالمصلي مناجي ربه ، فنحن
عن محل المناجاة حكما من الله لا جرما لمن . وفي هذا إشارة فيقال : إني — وإن مُعِنَ عن
الصلاة التي هي حضور بالبدن فلم يحجب عن استدامة الذكر بالقلب واللسان ، وذلك تعرض
بسائط القرب ، قال صلى الله عليه وسلم مخبرا عنه تعالى : « أنا جليس من ذكرني » .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنْ لَمْ يَجِدِ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾
المتطهرين ﴿٢١﴾ .

يقال يحب التوابين من الذنوب ، والمتطهرين من العيوب .

ويقال التوابين من الزلة ، والمتطهرين من التوهم أن نجاتهم بالتوبة .

ويقال التوابين من ارتكاب المحظورات ، والمتطهرين من المساكنات والملاحظات .

ويقال التوابين بماء الاستغفار والمتطهرين بصوب ماء الخجل بنعت الانكسار .

ويقال التوابين من الزلة ، والمتطهرين من الغفلة .

ويقال التوابين من شهود التوبة ، والمتطهرين من توهم أن شيئاً بالزلة بل الحكم ابتداء من الله تعالى .

قوله جل ذكره : ﴿ لَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنِّي شَتَمٌ وَقَدْثُمُوا لَأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مَلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

لما كانت النفوس بوصف الغيبة عن الحقيقة أباح لها السكون إلى أشكائها إذا كان على وصف الإذن ، فلما كانت القلوب في محل الحضور حرم عليها المساكنة إلى جميع الأفيار والمخلوقات .

« وَقَدْثُمُوا لَأَنفُسِكُمْ » من الأعمال الصالحة ما ينفعكم يوم إفلاسكم ، لذلك قال :

« وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مَلَاقُوهُ » فانظروا لأنفسكم بتقديم ما يسركم وجدانه عند ربكم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

نزُّهوا ذِكْرَ رَبِّكُمْ عن ابتدائه بأي حفظ من الحفظ .

ويقال لا تجعلوا ذكر الله شَرَكاً كَأَيُّ صُطَّادٍ به حطام الدنيا .

قوله جل ذكره : ﴿ لَا يَأْخُذُكُمْ اللَّهُ بِاللُّغُو فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يَأْخُذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

ما جرت به اللسان على مقتضى السهو فليس له كثير خطرٍ في الخير والشر ، ولكن ما انطوت عليه الضمائر ، واحتوت عليه السرائر ، من قصود صحيحة ، وعزائم قوية فذلك الذي يؤخذ به إن كان خيراً فجزاءه جميل ، وإن كان شراً فعناؤه طويل .

قوله جل ذكره : ﴿لِلَّذِينَ يُؤْتُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ
أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾

إذا كان حق صحبة الأشكال محفوظاً عليك — حتى لو اختلفت به — وأخذك بحكمه :
فحق الحق أحق بأن يجب مراعاته . « فإن فاءوا » أى رجعوا إلى إحياء ما أماتوا ، واستدراك
ما ضيعوا « فإن الله غفور رحيم » فلما تقاصر لسان الزوجة — لكونها أسيراً في يد الزوج —
توكل الله — سبحانه — الأمر بمراعاة حقها فأمر الزوج بالرجوع إليها أو تسريحها .

قوله جل ذكره : ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

إن مل حق صحبتها ، وأكّد العزم على مفارقتها فإن الله مطلع على حاله وسره ، فإن بدا
له باد من ندم فلا يلبس بأركان الطلاق فإن الله سبحانه عليم أنه طلقها .
ولما كان الفراق شديداً عزى المرأة بأن قال إنه « سميع » أى سمعنا موحش تلك القالة ،
فهذا تعزية لها من الحق سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ
ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ .

أمر المطلقات بالعدة احتراماً لصحبة الأزواج ، يعنى إن انقطعت العلاقة بينكما فأقيموا
على شرط الوفاء لما سلف من الصحبة ، ولا تقيموا غيره مقامه بهذه السرعة ؛ فاصبروا حتى
يمضى مقدار من المدة . ألا ترى أن غير المدخول بها لم تؤمر بالعدة حيث لم تقم
بينهما صحبة ؟

ثم قال جل ذكره : ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ
اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ .

يعنى إن انقطع بينكما السبب فلا تقطعوا ما أثبت الله من النسب .

ثم قال جل ذكره : ﴿وَبُيِّنَ لَهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ .

يعنى مَنْ سَبَقَ له الصَّحبة فهو أحق بالرجعة لما وقع في النكاح من الثلثة
﴿ في ذلك إن أرادوا إصلاحاً ﴾ .

يعنى أن يكون القصد بالرجعة استدراك ما حصل من الجفاء لا تطويل العدة عليها بأن
يعزم على طلاقها بعدما أرجعها .

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾

يعنى إن كان له عليها حق ما أنفق من المال فلها حق الخدمة لما سلف من الحال .

﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴾ .

في الفضيلة ، ولهن مزية في الضعف وعجز البشرية .

قوله جل ذكره : ﴿ الطلاق مرتان ﴾ .

ندب إلى تفريق الطلاق لثلاث تسارع إلى إتمام الفراق ، وقيل في معناه :

إِنْ تَبَيَّنْتُ أَنَّ عَزْمَكَ قَتْلِي فَدِرْبِي أَضْيَ قَلِيلًا قَلِيلًا

ثم قال جل ذكره : ﴿ فإمساكٌ بمعروفٍ أو تسريحٌ
بإحسان ﴾ .

إما صحبة جميلة أو فرقة جميلة . فأما سوء العشرة وإذهاب لذة العيش بالأخلاق الذميمة
تفكير مَرَضِي في الطريقة ، ولا محمود في الشريعة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا
بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً ﴾ .

فإن في الخبر « العائد في هبته كالعائد في قَيْثِهِ » والرجوع فيما خرجت عنه خِصَّة .

ثم قال جل ذكره : ﴿ إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ
فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ﴾ .

يعنى إن أردت المرأة أن تتخلص من زوجها فلا جناح عليها فيما تبذل من مال ، فإن النفس تساوى لصاحبها كل شيء ، والرجل إذا فاتته صحبة المرأة فلو اعتاض عنها شيئاً فلا أقل من ذلك ، حتى إذا فاتته راحة الحال يصل إلى يده شيء من المال .

قوله جل ذكره : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾^(١)
هذه آداب يعلمكمها الله ويُسَنُّها لكم ، فحافظوا على حدوده ، وداوموا على معرفة حقوقه .
قوله جل ذكره : ﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ ﴾^(٢)

الرجل يشق عليه أن ينكح زوجة غيره فنه عن اختيار الفراق بغاية الفراق بُنية المنع^(١) لما بين أنها لا فعل له إن طارقتها إلا بأن تفعل^(٢) غاية ما يشق عليه وهو الزواج الثانى ليحذر الطلاق ما أمكنه . ثم قال « فَإِنْ طَلَّقَهَا » يعنى الزوج « فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا » يعنى تتزوج بالتزوج الأول

والإشارة فيه أن استيلاء المحبة على القلب يهون مفاصلة كل شديدة ؛ فلو انطوى الزوجان بعد الفرقة على التحسر على ما فاتهما من الوصلة ، وبندما على ذلك غاية الندامة فلا جناح عليهما أن يتراجعا ، وللرأة فى هذه الحالة كأنها (. . .)^(٣) من الزوج الأول بمكان الزوج الثانى والزوج كالآنى على نفسه فى احتمال ذلك .

ثم قال جل ذكره ﴿ إِنْ ظَنَنْتُمْ أَنْ يَفْقِدَ اللَّهُ فِتْنَتَكُمْ فَلَا تَمُوتُوا وَأَنْتُمْ قَائِلُونَ ﴾^(١)
حدودُ الله يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿

يعنى لا يعودان بعد ذلك إلى الفراق ثانياً إذا علما حاجة أحدهما إلى صاحبه ، قال قائلهم :
ولقد حلفت لئن لقيتك مرةً ألا أعود إلى فراقك ثانية

(١) وردت (بغاية المنع) والأرجح أنها (مبهمة المنع) فإن السياق يتطلب ذلك .
(٢) وردت (يفعل) والأصوب أن يعود على المرأة لأنها هى التى ستتزوج ثانية وهذا هو ما يشق على الزوج الأول .
(٣) هنا كلمة رسمها هكذا (الميشور) وربما كانت (المبتور) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا طَلَقْتِ النِّسَاءَ فَبَلِّغْنِ أَجَلَهُنَّ ۖ

فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سِرِّحُوهُنَّ

بِمَعْرُوفٍ وَلَا تَمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا

وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ

وَلَا تَتَخَفُوا آيَاتَ اللَّهِ هُرُوعًا وَادْكُرُوا

نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ

الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا

اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝

تضمنت الآية الأمر بحسن العشرة ، وترك المغايظة مع الزوجة ، والمحك على وجه اللجاج ؛
فإنما تخلية سبيل من غير جفاء أو قيام بحق الصعبة على شرط الوفاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا طَلَقْتِ النِّسَاءَ فَبَلِّغْنِ أَجَلَهُنَّ

فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ

إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ

يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ

وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ

وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝

تضمنت الآية نهى الأولياء^(١) عن مضارتهن ، وترك حية الجاهلية ، والانقياد لحكم الله
في تزويج النساء إن أردن النكاح من دون استئثار الأنفة والحية .

بل إذا رضيت بكفوي يخطبها فحرام عليكم ظلمها . والتدويب عن أوصاف البشرية بقهر
النفس أشد مجاهدة وأصدق معاملة لله .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ

كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْزِلَهُنَّ الرِّضَاعَةَ ۝

(١) الأولياء هنا من ولاية الرجل على المرأة وليست من الولاية في باب التصوف .

غاية الرحمة التي يُضرب بها المثلُ رحمةُ الأمهات ؛ فأمرَ الله سبحانه الأمهاتِ بإكمال الرحمة بإرضاع المولود حَوْلَيْنِ كاملين ، وقطعُ الرضاعة عنه قبل الحولين إشارةً إلى أن رحمة الله بالعبد أتمُّ من رحمة الأمهات .

ثم قال جل ذكره : ﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ .

يعنى الأب عليه رزقهن وكسوتهن — أى المرضعات — بالمعروف . لَمَّا يَنْبَغُ عَنْكَ وَجَبَ حَقُّهُنَّ عَلَيْكَ ، فَإِنَّ مَنْ لَكَ كُلُّهُ فَعَلَيْكَ كُلُّهُ .

ثم قال جل ذكره : ﴿ لَا تَكْلَفُ نَفْسٌ إِلَّا رُسْقَهَا ﴾
إدخارُ المستطاع يُخْلُ ، والوقوفُ — عند المعجز — عنر .
ثم قال جل ذكره : ﴿ لَا تُضَارَّ وَالِدَةُ بِوَلَدِهَا ﴾ .

فى الإرضاع وما يجب عليه .

﴿ وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ ﴾ .

يعنى الوالد^(١) بولده يعنى فيما يلزم من النفقة والشفقة . فكما يجب حق المولود على الوالدين يجب حق الوالدين على المولود .

ثم قوله جل ذكره : ﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا

وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ

أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ

عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ ،

وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا

تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

يعنى فطاماً قبل الحولين ، فلا جناح بعدما كان القصد الصلاح . اشتملت الآية على تعهد

طريق الصحبة ، وتعليم محاسن الأخلاق فى أحكام العسرة وإن من لا يَرْحَمَ لا يَرْحَمَ .

وقال صلى الله عليه وسلم لمن ذكر أنه لم يُقَبَّلْ أولاده : « إِنْ اللَّهَ لَا يَنْزِعُ الرَّحْمَةَ إِلَّا مِنْ

قَلْبِ شَقِيٍّ » .

(١) وردت (الولد) والسياق يقتضى أن تكون (الوالد) بعد أن نحدث عن (الوالدة) .

قوله جل ذكره : ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً
يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر
وعشراً فإذا بلغن أجلهن فلا جناح
عليكم فيها فعلن في أنفسهن بالمعروف
والله بما تعملون خبير﴾

لما كان حق الميت أعظم لأن فراقه لم يكن بالاختيار كانت مدة الوفاء له أطول . وكانت
عدة الوفاة في ابتداء الإسلام سنة ، ثم رُدَّت إلى أربعة أشهر وعشرة أيام لتتحق براءة الرحم
عن ماء الزوج ، ثم إذا انقضت العدة أبيح لها التزوج بزوج آخر . والميت لا يستديم وفاءه
إلى آخر العمر أحد كما قيل :

وكما تبلى وجوه في الثرى فكذا يبلى عليهن الحزن

قوله جل ذكره : ﴿ولا جناح عليكم فيها عرضتم به من
خطبة النساء أو أكننتم في أنفسكم
علم الله أنكم ستذكرونهن ولكن
لا تواعدوهن ميراً إلا أن تقولوا
قولاً معروفاً﴾

أبيح من ذلك ما كان فيه استجلاب للمودة ، وتأسيس لحال الوصلة . وحرّم منه ما فيه
ارتكاب المحظورات من إلمام يذنب أو عدة يجرم^(١).

قوله جل ذكره : ﴿ولا تعزموا عقدة النكاح حتى
يبلغ الكتاب أجله ، واعلموا أن الله
يعلم ما في أنفسكم فاحذروه واعلموا
أن الله غفور حلِيم﴾

(١) وردت بالماء والصحيح أن تكون بالجيم .

أى تنقضى عدة الأول فإن حرمة الماضى لا تضع .

قوله جل ذكره : ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ
مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً
وَمَتَّبِعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرَهُ ،
وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرَهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ
حَقًّا عَلَى الْحَسَنِينَ ﴾

إن ابتلاء تم بوصيلة^(١) أشكالكم ثم بدالكم فلا جناح^(٢) عليكم في اختيار الفرقة
— إذا أردتم — فإن الذى لا يجوز اختيار فرقته — واحد ؛ فأما صحة الخلق بعضهم
مع بعض فليس بواجب ، بل غاية وصفه أنه جائز .

ولما وقع عليهن المحكم فنصف المسئى يجب لمن ، فإن الفراق — كيفاً كان — فهو شديد ،
فجعل ما يستحق من العوض كالحلف لها عند تجرع كأس الفرقة .

فإن لم يكن مسئى فلا يخلو العقد من متعة ؛ فإن تجرع الفرقة — مجرداً عن الراحة —
بلاء عظيم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ
وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنَصِفْ
مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي
بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ، وَأَنْ تَعْفُوا
أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾

ثم ذكر أن العفو أتم وأحسن ، إما من جهة للمرأة في النصف المستحق لها ، أو من قبل
الزوج في النصف العائد إليه .

(١) وردت (بوصيلة) وربما كانت الباء زائدة وأنها (بوصلة) أشكالكم .

(٢) وردت (فلا جرح) وهي خطأ من الناسخ ، وقد صححتها (فلا جناح) طبقاً للآية ، ويحتمل
أيضاً أنها في الأصل (فلا مجرم) .

ثم قال جل ذكره : ﴿ وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنْ أَلَّاهُ

بِمَا تَعْمَلُونَ بِصِيرٍ ﴾ .

يقال من أخذ بالفضل واقتصر على الفرض فمن قريب يخل^(١) بالفرض .

ويقال نسيان الفضل يقرب صاحبه من البخل ، وإن من سُنَّةِ الكرام إذا خفيت عليهم مواضع الكرم أن يشجذوا بصائر الجود لتطالع لطائف الكرم فتتوفر دواعيهم في اقتناء أسباب الفضل .

قوله جل ذكره : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى

وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ .

المحافظة على الصلاة أن يدخلها بالمهية ، ويخرج بالتعظيم ، ويستديم بدوام الشهود بنعت الأدب ، والصلاة الوسطى (أيهم ذكرها على البيت)^(٢) لتراعى الجميع اعتقاداً منك لكل واحدة أنها هي لتلايق منك تقصير في شيء منها .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا

فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ

مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ .

أى لا تُخَلَّوْا بمناجاتي لأوقاتها على الوصف الذى أمكنكم فان ما تحسونه^(٣) من أعدائكم أنا سلطتهم عليكم ، فاذا خلوتهم بي بقلوبكم قصرت أيديهم عنكم ، وجعلت لكم الظفر عليهم ، ثم إذا زال عنكم الخوف وأمنتم فعودوا إلى استقراركم باستفراغ أوقاتكم في الاعتكاف بحضرتي سرّاً وجهرّاً .

(١) يحتمل أنها (بخل) و (مبخيل) ، فاذا عرفنا أن الصوفية عموماً يتشددون في التبعد ويتفوقون فيه على الكافة أمكن القول أن المعنى ممكن أن ينصرف إلى بخل بمعنى أن القشيري يحنو من أن الاكتفاء بالفرض قد يؤدي إلى البخل به ، وهذا بدوره يؤدي إلى أن يخل بشأنه وقد وردت بخل وبخل في السياق فيما بعد - والله أعلم .

(٢) وردت هكذا وقد تلتناها من النص دون تعديل وربما كانت (أيهم ذكرها عن البيت) .

(٣) يحتمل أن تكون (تخشونه) من أعدائكم وكلاماً مقبول ، وإن كنا نؤثر (تخشونه) لتناسب « فإن خفتم » في الآية .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَقَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ
أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى
الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ
مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

كانت عِدَّةُ الوفاة في ابتداء الإسلام سَنَةً مستديمة كقول العرب وفعلهم ذلك حيث
يقول قائلهم :

إلى الحول ثم اسم السلام عليكم ومن لبَّاك حولاً كاملاً فقد اعتذر
ثم يُسَحَّ ذلك إلى أربعة أشهر وعشرة أيام إذ لا بد من انتهاء مدة الحداد ولقد قال قائلهم :
قال : لو ريت لم أعيش قلت : نافقت فأسكت
أى حى رأيته مات وجداً بميت^(١)

قوله جل ذكره : ﴿ وَالْمُطَلَقَاتُ مَنَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا
عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ .

الإشارة ألا تجمعوا عليهن الفراق والحرمان فيتضاعف عليهن البلاء .
﴿ كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم
تعقلون ﴾ .

الدلائل ، فتأدبوا بما أشير عليكم ، وتفلحوا بما تعقلون من إشارات حكى .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ
وَهُمْ أَلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ
مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى
النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ .

(١) في الشر أخطاء كثيرة وقع فيها الناسخ لحاولنا إصلاحها بقدر الممكن ليكون مفهومًا .

لما استبعدوا قدرة الله في الإعادة أراهم في أنفسهم عياناً ، ثم لم ينفع إظهار ذلك لمن لم يشهد بصيرته في التوحيد . ومن قويت بصيرته لم يضره عدم تلك المشاهدات فإنهم تحققوا بما أخبروا ، لياً آمنوا به بالغيب .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

يعنى إنَّ مَسْكُمْ أَلَمْ فَتَصَاعِدْ^(١) مِنْكُمْ أَنْبَاءٌ فاعلموا أن الله سميع لأخباركم ، عليم بأحوالكم ، بصير بأموركم . والآية توجب تسهيل ما يقاسونه من الألم ، وقالوا :

إِذَا مَا تَمْنَى النَّاسُ رَوْحاً وَرَاحَةً تَمْنَيْتُ أَنْ أَشْكُو إِلَيْكَ فَتَسْمَعْ

قوله جل ذكره : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيضاعفه له أضعافاً كثيرة ﴾ .

يُتَمَّى القرض قرضاً لأنه يقطع^(٢) من ماله شيئاً ليعطيه للمقرض ، والمتصدق لما يقطع الصدقة من ماله سميت صدقة قرضاً ، فالقرض القرض ، ولكن هذه التسمية لحفظ قلوب الأحياء حيث خاطبك في باب الصدقة باسم القرض ولفظه .

ويقال دلت الآية على عظم رتبة الغني حيث سأل منه القرض ، ولكن رتبة الفقير في هذا أعظم لأنه سأل لأجله القرض ، وقد يسأل القرض من^(٣) كل أحد ولكن لا يسأل لأجل كل أحد . وفي الخبر « مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند أبي شحمة اليهودي على شعير أخذه لقوت عياله^(٤) أَبْصِرْ مَنْ اقترض ولأجل مَنْ اقترض ! »
ويقال القرض الحسن ما لا تتطلع عليه لجزاء ولا تطلب بسببه العوض .

(١) وردت (فتصاعد) وواضح أنها خطأ في النسخ .

(٢) أخطأ الناسخ فجاءت (يقطع) وقد اخترنا (يقطع) لتناسب القرض ... القطع كما سيذكر بعد .

(٣) وردت (من) والصحيح والملائم للسياق أن يقال (من) .

(٤) للحديث بقية (... ولم يترك ديناراً ولا درهماً ، ولم يقسم له ميراث ولم يوجد له في بيت أنثى) البخاري ومسلم والترمذي عن عائشة (توفي ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين) ، وعن البيهقي بثلاثين ماعاً من الشعير ، والترمذي والنسائي والبيهقي عن ابن عباس بمشرين ماعاً من طعام أخذه لأهله . وسنده حسن ، ولم يترك ولا درهماً ، مسلم عن عائشة .

ويقال القرض الحسن ألا يعطى على الغفلة ، وإنما يعطى عن شهود .

ويقال القرض الحسن من العلماء^(١) إذا كان عند ظهر الغنى ، ومن الأكابر إذا كان بشرط الإيثار يعطى ما لا بد منه .

ويقال القرض الحسن من العلماء عن مائتين خمسة^(٢) ، وعلى لسان القوم بذل الكل ، وزيادة الروح على ما ييندل .

قوله جل ذكره ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ .

يقبض المصدقة من الأغنياء قبض قبوله ، ويبسط عليهم بسط خلفه .

ويقال يقبض الرزق أى يُضَيِّقُ ، يبسط الرزق أى يوسع ؛ يقبض على الفقراء ليمتنحهم بالصبر ، ويبسط على الأغنياء ليطالبهم بالشكر .

ويقال يقبض تسلياً للفقراء ليطالبهم حتى لا يروا من الأغنياء ، ويبسط لثلاث يتقلدوا المية من الأغنياء .

ويقال قال للأغنياء : إذا أنا قبضت الرزق على الفقراء فلا تدرهم ، وإذا أنا بسطت عليكم فلا تروا ذلك لفضيلة لكم .

ويقال قَبَضَ القلوب بإعراضه وبسَطَها بإقباله .

ويقال القبض لما غلب القلوب من الخوف ، والبسط لما يغلب عليها من الرجاء .

ويقال القبض لقهره والبسط لبره .

ويقال القبض لسره والبسط لكشفه .

ويقال القبض للمريدين والبسط للمُرَادِينَ .

ويقال القبض للمتسابقين^(٣) والبسط للعارفين .

ويقال يقبضك عنك ثم يبسطك به ،

(١) يقصد التشيرى بالعلماء . على لسان الشريعة ، وبالأكابر - على لسان الحقيقة .

(٢) يشير بذلك إلى مقدار زكاة المال وهى ربع المشر .

(٣) ربما كانت « السابقين » إشارة إلى قوله تعالى : « السابقون السابقون أم لك المقربون » .

ويقال القبض حقه ، والبسط حظك .

ويقال القبض لمن تولى عن الحق ، والبسط لمن نجى له الحق .

ويقال يقبض إذا أشهدك ففعلك ، ويبسط إذا أشهدك فضله .

ويقال يقبض بذكر العذاب ويبسط بذكر الإيجاب .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ

بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث

لنا مَلِيكًا نقاتل في سبيل الله

قال هل عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ

القتال أَلَّا تقاتلوا ﴾ .

استقبلوا الأمر بالاختيار ، واقترحوا على نبيهم بسؤال الإذن لهم في القتال ، فلما أُجيبوا

إلى ما ضمنوه من أنفسهم ركنوا إلى التسكسل ، وعرجوا في أوطان التجادل والتغافل . ويقال

لأنهم أظهروا التصلب والجد في القتال ذباً عن أموالهم ومنازلهم حيث :

﴿ قالوا وما لنا أَلَّا نقاتل في سبيل الله

وقد أُخْرِجْنَا مِنْ ديارنا وَأَبنائنا

فلما كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تُولُوا

إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ .

فلذلك لم يتم قصدهم لأنه لم يخلص — لحق الله — عزهم ، ولو أنهم قالوا وما لنا أَلَّا نقاتل

في سبيل الله لأنه قد أمرنا ، وأوجب علينا ، فإنه سيدنا ومولانا ، ويجب علينا أمره —

لعلهم وفقوا لإتمام ما قصدوه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ

طَالُوتَ مَلِيكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ

الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ

يُؤْتِ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ

عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم
والله يُؤتي مُلكه من يشاء والله
واسع عليم ﴿

نسوا حق الاختيار فنظروا إلى الحال بعين الظاهر فاستبعدوا أن يكون طالوت ملكاً
لأنه (١) كان فقيراً لا مال له ، فبينَ لهم أن الفضيلة باختيار الحق ، وأنه وإن عديم المال فقد
زاده الله علماً ففضلكم بعلمه وجسمه ، وقيل أراد أنه محمود خصال النفس ولم يُرد عظيم البنية
فإن في المثل : « فلان اسم بلا جسم » أي ذكر بلا معنى .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال لهم نبيهم إن آية مُلكي أن

يأتبكم التابوت فيه سَكينة من ربكم
وبقية مما ترك آل موسى وآل
هارون تحمله الملائكة إن في ذلك
لآية لكم إن كنتم مؤمنين ﴿

إن الله سبحانه إذا أظهر نوراً أمدّه بتأييد من قبله ، فلما ملك طالوت عليهم أزال الإشكال
عن صفته بما أظهر من آياته الدالة على صدق قول نبيهم في اختياره ، فردّ عليهم التابوت
الذي فيه السكينة ، فاتبضت لهم آية ملكه ، وأن نبيهم عليه السلام صدّقهم فيما أخبرهم .
ويقال إن الله تعالى جعل سَكينة بني إسرائيل في التابوت الذي رَضُوا عن الألواح ،
وعصا موسى عليه السلام ، وآثار صاحب نبوتهم . وجعل سَكينة هذه الأمة (٢) في قلوبهم ،
فقال : « هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين » ثم إن التابوت كان تتداوله أيدي الأعداء
وغيرهم ؛ فمرة كان يُدفن ومرة كان يُغلب عليه فيُجمل ، ومرة يُرد ومرة ومرة . . .
وأما قلوب المؤمنين فحال بين أربابها وبينها ، ولم يستودعها ملكاً ولا نبياً ، ولا سماء
ولا هواء ، ولا مكاناً ولا شخصاً ، وقال صلى الله عليه وسلم :

(١) وردت (كأنه) وهي خطأ في النسخ .

(٢) يقصد أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

« قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن » يعنى فى قبضة الحق سبحانه ،
وتحت تغليبهِ وتصريفهِ ، وللمراد منه « القدرة » ، وشتان بين أمة سكتتهم فيما للأعداء
عليه تسكُّط وإمة سكتتهم فيما ليس لمخلوق عليه سلطان .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ
إِنَّ اللَّهَ مَبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ
مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ
مِنِي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾

الإشارة من هذه الآية أن الله سبحانه ابتلى الخلق بصحبة الخلق وبالدين والنفس ،
ومن كانت صحبته مع هذه الأشياء على حد الاضطراب بمقدار القوام ، وما لا يد منه نجا
وسلم^(١) ، ومن جاوز حد الاضطراب وانبسط فى صحبته مع شيء من ذلك من الدنيا والنفس
واخلق بموجب الشهادة^(٢) والاختيار — فليس من الله فى شيء إن كان ارتكاب محذور ،
وليس من هذه الطريقة فى شيء إن كان على جهة الفضيلة وماله منه بُدُّ .

ثم قال جل ذكره : ﴿ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ﴾

كذلك الخواص فى كل وقت يقل عددهم ولكن يجل قدرهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ
قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِالْجُنُودِ
وَجُنُودَهُ ﴾

فنظروا إلى الحال بعين الظاهر فدَخلهم شيء من رعب البشرية ، فربط الله على قلوبهم
بما ذكرهم من نصرة الحق سبحانه لأولياته إذا شاء .

(١) هذه درجة فى الاعتدال ينسب بها مذهب التشيرى ، يوفق بها بين الشريعة والحقيقة فى النظر إلى
الدنيا والنفس والناس فى عرف أرباب القلوب .
(٢) أى أن يشهد الدنيا والنفس والخلق فى شيء من الأشياء والواجب أن يشهد الله فى كل شيء ، غير
أنا لا نستبعد أنها ربما كانت فى الأصل (الشهوة) أى أنه ليس من الله فى شيء من ينظر إلى هذه الأمور
بشهوة واختيار .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهَ كَمْ مِنْ

فِتْنَةٍ قَلِيلَةٌ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ

اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

لا بهم ولكن بإذن الله ، بمشيئته وعونه ونصرته ، والله مع الصابرين بالنصرة والتأييد والقوة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا

أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ، وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا

وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾

كان أم أمورهم الصبر والوقوف للعدو ، ثم بعده النصر عليهم ، فإن الصبر حق الحق ، والنصرة نصيبهم ، فقدّموا تحقيق حقه — سبحانه — وتوفيقه لهم ، ثم وجود حظهم من النصر ، ثم أشاروا إلى أنهم يطلبون النصر عليهم — لا للانتقام منهم لأجل ما فاتهم من نصيبهم — ولكن لكونهم كافرين ، أعداء الله .

فقاموا بكل وجهٍ لله بالله ؛ فلذلك نصروا ووجدوا الظفر .

قوله جل ذكره : ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ

جَالُوتَ ، وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ

وَعَلَّمَهُ مَا يَشَاءُ ﴾

هيب الله الأعداء بطالوت لما زاده من البسطة في الجسم ولكن عند القتال جعل الظفر على يدي داود . وكان كما في القصة ربيع القامة غير عظيم الجثة ، مختصر الشخص ، ولم يكن معه من السلاح إلا مقلاع ، ولكن الظفر كان له لأن نصرته الله سبحانه كانت معه .

قوله جل ذكره : ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾

فلم يبق منهم أثر ولا عين ، وقتل داود جالوت . وداود بالإضافة إلى جالوت في الضخامة والجسامة كان بحيث لا تتوهم غلبته إياه ولكن كما قال قائلهم .

استقبلني وسيفه مسلول وقال لي واحدنا معذول^(١)

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ .

لو تظاهر الخلق وتوافقوا بأجمعهم لهلك المستضعفون لغلبة الأقوياء ولكن شغل بعضهم ببعض ليدفع بشاغلهم شرهم عن قوم .

قوله جل ذكره : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

لم يكن في علمك ولا في وسع احتياك الوقوف على هذه الغائبات من الكائنات التي سلفت ، وإنما وقفت عليها بتعريف من قبل الله سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُم عَلَى بَعْضٍ ، مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ ، وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ، وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ ، وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ .

جمعهم الرسالة ولكن تباينوا في خصائص التفضيل ، لكل واحد منهم أنوار ، ولأنوارهم مطارج ، فمنهم من هو أعلى نورا ، وأتم من الرفعة وفورا . فلم تكن فضائلهم استحقاقهم على أفعالهم وأحوالهم ، بل حكمهم بالحسنى أدركهم ، وعاقبة بالجميل تداركهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتُلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِهِمْ جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فِيهِمْ مِنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتُلُوا ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ .

(١) ربما كانت (معذول) .

ولكنهم مُصَرَّفُونَ بالمشيئة الأزلية ، ومسلوبون من الاختيار الذى عليه المدار
وبه الاعتبار . والعبودية شُدَّ نطاق الخدمة وشهود سابق القسمة .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا بِمَا رَزَقْنَاكُمْ
مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ
وَلَا شَفَاعَةٌ ، وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

يعنى اغتنموا مساعدة الإمكان فى تقديم الإحسان قبل فتور الجَلَدِ واقتضاء الأمل .

قوله جل ذكره : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَى الْقَيُّومُ ﴾ .

« الله » اسم تفرّد به الحق — سبحانه فلا مِثْلَ له فيه . قال الله تعالى : « هل تعلم له سمياً »
أى هل تعرف أحداً غيره نَسَى « الله » ؟

من اعنبر فى هذا الاسم الاشتقاق فهو كالتعارض ، فهذا اسم يدل على استحقاق صفات
الجلال لا على اشتقاق الألفاظ ، فلا يعارض ما لا يعارض فيه من الأقوال .

قوله « لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ » : إخبار عن نفى النظير والشبيه ، بما استوجب من التقديس
والتنزيه . ومن تحقق بهذه القالة لا يرى ذَرَّةً من الإثبات بغيره أو من غيره ؛ فلا يرفع إلى
غيره حاجته ، ولا يشهد من غيره ذرة ، فَيَصْدُقُ إليه انقطاعه ، ويدم لوجوده انفرادَه ،
فلا يسمع إلا من الله وبالله ، ولا يشهد إلا بالله ، ولا يُقْبَلُ إلا على الله ، ولا يشتغل إلا بالله ،
فهو محورُ عما سوى الله ، فَمَالَهُ شكوى ولا دعوى ، ولا يتحرك منه لغيره عِرْقٌ ، فاذا استوفى
الحق عبداً لم يَبْقَ للحفظ — ألبنة — مساع .

ثم إن هذه القالة تقتضى التحقق بها ، والفناء عن الموسومات بجملتها ، والتحقق بأنه
لا سبيل للخلق إلى وجود الحق — سبحانه ، فلا وصل ولا فصل ولا قُرْبَ ولا بُعْدَ ،
فإن ذلك أجمع آفاتٌ لا تليق بالقدم .

وقوله « الْحَى الْقَيُّومُ » : التولى لأمر عباده ، القائم بكل حركة ، و (المحوى)^(١) ،
لكل عين وأثر .

(١) وردت مكننا ويحتمل أن تكون فى الأصل إما (المحي) لتلازم مع (الحى) أو أن تكون
(المجرى) أى القائم أو (القيوم) على ملكة :

« لا تأخذه سنة ولا نوم » لأنه أحدي لا ترهقه غفلة ، وصمد لا تمسه علة ، وعزيز لا تقاربه قلة ، وجبار لا تميزه عزلة ، وفرد لا تضمه جثة ، ووتر لا تحده جهة ، وقديم لا تلحقه آفة ، وعظيم لا تدركه مسافة .

تَقَدَّسَ مِنْ جِوَالِهِ جِلَالُهُ ، وَجِلَالُهُ جِوَالُهُ ، وَسَنَاؤُهُ بَهَاؤُهُ ، وَبَهَاؤُهُ سَنَاؤُهُ ، وَأَزَلُهُ أَبَدُهُ ، وَأَبَدُهُ سَرْمَدُهُ ، وَسَرْمَدُهُ قَدَمُهُ ، وَقَدَمُهُ وَجُودُهُ

قوله جل ذكره : ﴿ له ما في السموات وما في الأرض ﴾
مَلِكًا وَإِبْدَاعًا ، وَخَلْقًا ، اخْتِرَاعًا .

﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾
من ذا الذي يتنفس بنفس (. م .)^(١) إلا بإجرائه ، أو يتوصل إليه من دون إذنه وإبدائه . ومن ظن أنه يتوصل إليه باستحقاق أو عمل ، أو تذلل أو أمل ، أو قرينة أو نسب ، أو علة أو سبب — فالظن وطنه والجهل مآلفه والغلط غايته والبعد قصاره .

قوله جل ذكره : ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ .
لأنه لا يخرج عن علمه معلوم ، ولا يلتبس عليه موجود ولا معدوم .

﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾ .

يعني من معلوماته ، أي تقاصرت العلوم عن الإحاطة بمعلوماته إلا بإذنه .
فأي طمع لما في الإحاطة بذاته وحقه ؟ وأنتي تجاوز الإحاطة عليه وهو لا يقطعه في عزه أمد ، ولا يدركه حد ؟ !

قوله جل ذكره : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ .
خطاب لهم على قدر فهمهم . وإلا فأى خطر للأكران عند صفاته ؟
جل قَدْرُهُ عن التعرز بعرش أو كرسي ، والتجمل بجني أو إنسي .

(١) مشتبهة في (ص) ويحتمل أن تكون مشطوبة لزيادتها فهناك شبه علامة على ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا يثوده حفظهما وهو العلي العظيم ﴾
كيف تُتَعَبُ المخلوقاتُ مَنْ خَلَقَ النِّدَّةَ والكونَ بِجملته — له سواء ؛ فلا من القليل له
نَيْسَرٌ ، ولا من الكثير عليه تَعَسَّرٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ لا إكراه في الدين ﴾

فإن الحُجَجَ لِأُثْمَةٍ ، والبراهين ظاهرة واضحة .

﴿ قد تبين الرشد من الغي ﴾

وامتاز الليل بظلامه عن النهار بضياءه ، والحقوق الأزلية معلومة ، والحدود الأولية معلولة
فهذا بنعت القدم وهذا بوصف العدم .

﴿ فن يكفر بالطاغوت ﴾

وطاغوت كل واحد ما يشغله عن ربه

﴿ ويؤمن بالله ﴾

والإيمان حياة القلب بالله

﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾

الاستمسك بالعروة الوثقى الوقوف عند الأمر والنهي ، وهو سلوك طريق المصطفى
صلى الله عليه وسلم وعلى آله .

﴿ لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾

فمن تحقق بها سرّاً ، وتعلّق بها جهرّاً فاز في الدارين وسعد في السكونين .

قوله جل ذكره : ﴿ الله ولي الذين آمنوا ﴾

الولي بمعنى المتولى لأمرهم ، والمتفرد بإصلاح شئونهم ، ويصح أن يكون الولي على وزن
فعل في معنى للمفعول فالمؤمنون يقولون^(١) طاعته . وكلاماً حق : فالأول جمع والثاني فرق ،

(١) أخطأ الناسخ فكتبها (يقولون) بالفتح ورجع أنها (يتولون) بالتاء .

وكلُّ جمعٍ لا يكون مقيداً بفرقٍ وكلُّ فرقٍ لا يكون مؤيداً بجمعٍ فذلك خطأ وصاحبه مبطل^(١)
والآية تُخفّلُ عليهما جميعاً .

﴿يُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾
يعنى بحكمه الأزلى صათهم عن الظلمات التى هى الضلال والبدع ، لأنهم^(٢) ما كانوا فى الظلمات
فقط فى سابق علمه .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ﴾

ما استهوهم من دواعى الكفر

﴿يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ
أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾
بإسنيلاء الشُّبَّةِ على قلوبهم ، فيجحدون الربوبية ، أولئك الذين بقوا عن الحق بقاء أبدياً .
ويقال يُخرجهم من ظلمات تدبيرهم إلى سعة شهود تقديره .
ويقال يُخرجهم من ظلمات ظنونهم أنهم بتوسلوت أو يصلون إليه بشيء من
سكناتهم وحركتهم .
ويقال يُخرجهم من ظلماتهم بأن يرفع عنهم ظلّ أنفسهم ويدخلهم فى ظلّ عنايته .
ويقال يخلصهم عن حسابان النجاة بهم .
ويقال يحول بينهم وبين الاعتماد على أعمالهم والاستناد إلى أحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ
أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ
رَبِّىَ الَّذِى بَحَبَّيْ وَبَعِيتَ قَالَ أَنَا أُحْبِبُّ
وَأَمِيتَ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى

(١) يقصد القشبرى من ذلك أن الفرقى ضرورى وهام ، إذ ينسقى للعبد خلاله أن يؤدى ماعليه من
فرائض ، وهذا ركن أساسى فى مذهب القشبرى وغيره من الشيوخ النقاة .
(٢) سقطت (ما) والمثنى يتطلبها .

بالشمس من المشرق قَاتِرِهَا مِنْ
المغرب فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ *

عَجَّلَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ لِأَعْدَائِهِ عَقُوبَةَ الْفِرْقَةِ قَبْلَ أَنْ يَعَاقِبَهُمْ بِالْحَرْقَةِ ، وَهَذِهِ الْعَقُوبَةُ أَشَدُّ
أَثَرًا فِي التَّحْقِيقِ — لَوْ كَانَتْ لَمْ عَيْنُ الْبَصِيرَةِ . وَإِنَّ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ أَخْبَرَ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
انْتَقَلَ مَعَ الْعَدُوِّ الْعَيْنِ مِنَ الْحُجَّةِ الصَّحِيحَةِ إِلَى أُخْرَى ، أَوْضَحَ مِنْهَا — لَا لِخَلَلٍ فِي الْحُجَّةِ —
وَلَكِنْ لِقُصُورٍ فِي فَهْمِ الْكَافِرِ ، وَمَحْكُتٌ مَنْ سُدَّتْ بَصَائِرُهُ عَنِ التَّحْقِيقِ تَضْيِيعُ الْوَقْتِ بِلَا فَائِدَةٍ
تُجْدِي ، لَا بِمَقْدَارٍ مَا يَكُونُ مِنَ الْحَاجَةِ لِأَمْرِ لَا بُدَّ مِنْهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ
عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ : أَتَىٰ يَمَجِّي هَذِهِ
اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ؟ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ
عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ : كَمْ لَبِثْتَ ؟ قَالَ :
لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ : بَلْ
لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ
وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ
وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ، وَانْظُرْ إِلَىٰ
الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا
لَحْمًا ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ : أَعْلَمُ أَنَّ
اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ سَوْأَلِ جَحْدٍ ، وَلَا قَضِيَّةَ جَهْلِ ، وَلَا دَلَالَةَ شَكٍّ فِي الْقُدْرَةِ ، فَإِنْ هَذَا الْخَبِيرُ
عَنْ عَزِيزِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَالْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِمُ الشُّكُّ وَالْجَهْلُ ، وَلَكِنَّهُ
كَانَ سَوْأَلُ تَعْجُوبٍ ، وَأَرَادَ بِهِذِهِ الْمَقَالَةَ زِيَادَةَ الْيَقِينِ ، فَأَرَاهُ اللَّهُ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ ، بِأَنَّ أَمَاتَهُ

ثم أحياء ثم بعث حماره وهو ينظر إليه ، فازداد يقيناً على يقين . وسؤالُ اليقين من الله ، والحيلةُ في ردِّ الخواطر للشكَّةُ ، دَيْدَنُ للتعرفين ، ولذلك (. . . .) ^(١) الله سبحانه عزيراً في هذه المقالة حتى قدَّر عليه ما طلب من زيادة اليقين فيه . ثم قال « واعلم أن الله على كل شيء قدير » من الإحياء والإماتة أى ازدادت معرفة بذلك ، وأراني من عظيم الآيات ما ازداد به يقيناً ؛ فإنَّ طعامه وشرابه لم يتغيرا في طول تلك المدة ، وحماره مات بلا عظام . والطعام والشراب بالتغيير أولى .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَرَأَيْتُمْ تَتُومِنُونَ ؟ قَالَ بَلَى ، وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي . قَالَ فَنَظَرْنَا فَأَنبَتُوا شَجَارَةً مِّنْ جَبَلٍ مِّنْ جُزْءٍ ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

قليل كان في طلب في زيادة اليقين ، فأراد أن يقرن حق اليقين بما كان له حاصلًا من عين اليقين ^(٢) .

وقيل استجلب خطابه بهذه المقالة إلى قوله سبحانه : « أولم تؤمن قال بلى » كنت أومن ولكنني اشتقتُ إل قولك لي أولم تؤمن ، فإن بقولك لي « أولم تؤمن » تطميناً لقلبي . والمحِبُّ أبدأً يجتهد في أن يجد خطاب حبيبه على أى وجه أمكنه . .

(١) مشقبة .

(٢) من أقوال القشيري التي تتناثر في كتبه نجد أنه ينظر للمعرفة على أنها ثلاث درجات .

١ — عقلية ونورها البرهان أو علم اليقين .

٢ — قلبية ونورها البيان أو عين اليقين ؛

٣ — كشفية ونورها العرفان أو حق اليقين ،

ويقول : (علم اليقين كالنجوم يطلع عليها بدر عين اليقين ، ولكن كل الأنوار تتبدد أمام نور حق اليقين) .

اللطائف — التعبير في التذكير ص ٧٠ — الرسالة ص ٤٣ ؛ ٤٤ والواقع أن القشيري ألزم بهذا الترتيب التزاماً دقيقاً ولم يتخل عنه في كل ما كتب .

وقيل إنه طلب رؤية الحق سبحانه ولكن بالرمز والإشارة فَمُنِعَ منها بالإشارة بقوله «واعلم أن الله عزيز حكيم» . وإن موسى — عليه السلام — لما سأل الرؤية جهرًا وقال : «رب أرني أنظر إليك» فرُدَّ بالجهر صريحًا وقيل له «لن تراني» .

وقيل إنما طلب حياة قلبه فأشير إليه بأن ذلك بذبح هذه الطيور ، وفي الطيور الأربعة طاووس ، والإشارة إلى ذبحه تعنى زينة الدنيا ، وزهرتها ، والغراب لحرصه ، والديك لمشيته ، والبط لطلبه لرزقه .

ولما قال إبراهيم عليه السلام : أرني كيف نمحي الموتى ؟ قيل له : وأرني كيف تدبج الحى ؟ يعنى إسماعيل ، مطالبة بمطالبة . فلما وُفِّى بما طُوب به وُفِّى الحق سبحانه بحكم ما طلب .
وقيل كان تحت ميعاد من الحق — سبحانه — أن يتخذ خليلاً ، وأمانة ذلك إحياء الموتى على يده ، فجرى ما جرى .

ووصل بين^(١) قصة الخليل صلى الله عليه وسلم فيما أراه وأظهره على يده من إحياء الموتى وبين عزير إذ أراه في نفسه ؛ لأن الخليل يَرَجُّحُ على عزير في السؤال وفي الحال ، فإن إبراهيم — عليه السلام — لم يَرُدَّ عليه في شيء ولكنه تَلَطَّفَ في السؤال ، وعزير كلمه كلام من يُشجِّه قوله قول المستبعد ، فأراد الحق أن يظهر له أقوى معجزة وأتم دلالة حيث أظهر إحياء الموتى على يده حين التبس على نمرود ما قال إبراهيم — عليه السلام — ربى الذى يحيى ويميت ، فقال «أنا أحيى وأميت» أراد إبراهيم أن يُريَه الله سبحانه إحياء الموتى ليعلم أنه ليس هو الذى ادَّعى .

وفي هاتين الآيتين رخصة لمن طلب زيادة اليقين من الله سبحانه وتعالى في حال النظر^(٢) .

ويقال إن إبراهيم أراد إحياء القلب بنور الوصلة بحكم التمام ، فقيل له : «أو لم تؤمن» يعنى أما تذكر حال طلبك إيانا حين كنت تقول لكل شيء رأيت «هذا ربى» فلم تدّر كيف بلغناك إلى هذه الغاية ، فكذلك يوصلك إلى ما سمعت إليه همَّتْكَ .

(١) جيل من القشيري أن يوضح التماسك والالتصاف في السياق القرآني بين قصة وقصة .

(٢) خصوصاً في مرحلة البداية من أجل تصحيح الإيمان .

والإشارة من هذا أن حياة القلب لا تكون إلا بذبح هذه الأشياء يعنى النفس ؛ فمن لم يذبح نفسه بالمجاهدات لم يحى قلبه بالله .

وفيه إشارة أيضاً وهو أنه قال قطع يديك هذه الطيور ، وفرق أجزاءها ، ثم ادعهن يأتينك سعياً ، فما كان مذبحاً بيد صاحب الخلعة ، مقطعاً مفرقاً بيده — فإذا ناداه استجاب له كل جزء مفرق . . كذلك الذى فرق الحق وشتته فإذا ناداه استجاب :

ولو أن فوقى تربة ودعوتني لأجبت صوتك ، والعظام رفأت

قوله جل ذكره : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل

الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل

في كل سنبل مائة حبة والله يضاعف

لئن يشاء والله واسع عليم ﴾ .

فالخلف لهم الجنة ، والذين ينفقون أرواحهم في سبيل الله فالخلف عنهم الحق سبحانه ، وشتان بين خلف من أنفق ماله فوجد مثوبته ، ومن أنفق حاله فوجد قربته ؛ فإنفاق المال في سبيله بالصدقة ، وإنفاق الأحوال في سبيله بملازمة الصدق ، وبنفى كل حظ ونصيب ، فترضى لجرىان حكمه عليك من غير تعيس القلب ، قال قائلهم :

أريد وصاله ويريد هجرى فأترك ما أريد لما يريد

والإنفاق على ضربين : إنفاق العابدين وإنفاق الواجدين . أما العابدون فإذا أنفقوا

حبة ضاعف لهم سبعين إلى ما ليس فيه حساب ، وأما الواجدون فكما قيل :

فلا حسن نأى به يقبلونه ولا إن أسأنا كان عندهم محو

قوله جل ذكره : ﴿ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله

ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى

لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف

عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

المن شهود ما تفعله ، والأذى تذكره — لمن أحسنت إليه — إحسانك .

ويقال ينفقون ما ينفقون ثم لا يشهدون ألبتة أفعالهم ولا أعمالهم .

ويقال كيف يمنون بشيء تستعذرونه ويستحقونه .

ويقال لا يمنون يفعلهم بل يشهدون المنة لله بتوفيق ذلك عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ

صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾

يعنى قول — للفقير المجرد — يرد به من تعرض له بإظهار العذر خير وأتم من صدقة المعجب بفعله ، وما يتبع من إلزام المنة فيه .

ويقال إقرار منك مع الله بمجزئك وجزئك ، وغفران الله لك على تلك القالة — خيرٌ مِنْ صَدَقَةٍ بِالْمَنِّ مَشُوبَةٍ ، وبالأذى مصحوبة .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ

بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يَنْفَقُ مَالَهُ رِثَاءَ

النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ تَرَابٌ

فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَ صُلْبًا لَا يَقْدِرُونَ

عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي

الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ .

إنما يُحْمَلُ جميلُ المنة من الحق سبحانه ، فأما من الخلق فليس لأحد على غيره مِنَّةٌ ؛ فإنَّ تحمل المنة من المخلوقين أعظم محنة ، وشهود المنة من الله أعظم نعمة ، قال قائلهم :

ليس إجلالك الكبار بِذُلٍّ إنما الذُلُّ أَنْ تُجِلَّ الصُّغَارَا

ويقال أفقر الخلق مَنْ ظنَّ نفسه مويراً فيبين له إفلاسه ، كذلك أقل الخلق قدراً مَنْ ظنَّ أنه على شيء فيبدو له من الله ما لم يكن يحتسبه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ
 مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيْتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ
 كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ
 فَآتَتْ أُكُلَهَا ضَعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا
 وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ *
 أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ
 مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
 الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ
 وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضُعْفَاءُ
 فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ،
 كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ
 لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

هذه آيات كثيرة ذكرها الله تعالى على جهة ضرب المثل للمخلص والمنافق : لمن أنفق
 في سبيل الله ، ولمن أنفق ماله في الباطل ؛ فهؤلاء يحصل لهم الشرف والخلف ، وهؤلاء
 لا يحصل لهم في الحال إلا الرد ، وفي المال^(١) إلا التلف . وهؤلاء ظلّ معيهم مشكوراً ،
 وهؤلاء يدعون ثبورا ويصلون سعيّاً هؤلاء تزكو أعمالهم وتنمو أموالهم وتعلو عند الله
 أحوالهم وتكون الوصلة مآلهم ، وهؤلاء حَبِطَتْ أعمالهم وخسرت أحوالهم وختم بالسوء آمالهم
 ويضاعف عليهم وبآلهم .

ويقال مثْلُ هؤلاء كالذي أنبت زرعاً فزكا أصله ونما^(٢) فصله ، وعلا فرعُه وكثر
 نفعُه . ومثْلُ هؤلاء كالذي خسرت صفقته وسرقت بضاعته وضاعت — على كبره^(٣) —

(١) وردت (المال) والصحيح أنها (المآل) على عادة القشيري في المقابلة بين ما يحدث في الدنيا
 وفي الآخرة ؛ بين الحال والمآل .

(٢) وردت (نماء) والصحيح أنها قل (نما) ليسجم التركيب الداخلي للأسلوب .

(٣) إشارة إلى ما في الآية : (وأصابه الكبر) .

حيلته وتواترت من كل وجه وفي كل وقت محنته هل يستويان مثلاً ؟ وهل
يتقاربان شَبَهاً ؟

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ
مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ
الْأَرْضِ ، وَلَا تَيَسَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ
تَنْفَقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ
تُغْنِيَا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ
غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾

لينظر كل واحد ما الذي ينفقه لأجل نفسه ، وما الذي يخرج به بأمر ربه . والذي يخرج
عليك من ديوانك : فما كان لحظك فنفاث ملكك ، وما كان لربك فخصائص مالك الذي لله
(فَالْقِيمَةُ لِقَمَّتِهِ)^(١) ، والذي لأجلك فأكثرها قيمة وأكملها نعمة .

ثم أبصر كيف يستر عليك بل كيف يقبله منك بل أبصر كيف يعوضك عليه ، بل
أبصر كيف يقبله منك ، بل أبصر كيف يمدحك بل أبصر كيف ينسبه إليك ، الكل منه
فضلاً لكنه ينسبه إليك فعلاً^(٢) ، ثم يؤني عليك عطاءه ويسمى العطاء جزاءً ، يوصحك
بتوفيقه برّاً ، ثم يملأ العالم منك شكرياً .

قوله جل ذكره : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ
بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ
وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

يَعِدُ الشَّيْطَانُ الْفَقْرَ لِفَقْرِهِ ، وَاللَّهُ يَعِدُ الْمَغْفِرَةَ لِكْرَمِهِ .

(١) وودت هكنا (فلقيته لقمته) ويحتمل ان تكون كما أثبتنا ، أو أن تكون فالقيمة لقيته
بدليل ما بعدها .

(٢) تأمل كيف يرى القشيري قيمة العمل الإنساني : لأنه على الحقيقة فضل من الله ولكن من
الناحية النسبية فعل للانسان . . . وهذه مسألة هامة تنفرع عنها قضايا كلامية كثيرة يختلف فيها
عن المعتزلة .

الشيطانُ يعدمُ الفقرَ فيشيرُ عليكم بإحرازِ المعلوم ، ويقالُ يشيرُ عليكم — بطاعته — بالحرص ؛ ولا فقرَ فوقه .

يعدمُ الفقرُ بالإحالة على تدبيركم واختياركم .

يعدمُ الفقرُ بنسيان ما تَعَوَّدْتُمُوهُ من فضله — سبحانه^(١) .

ويقالُ يعدمُ الفقرُ بأنه لا يزيدُ شكائَكَ .

ويقالُ يعدمُ الفقرُ بتعليق قلبك بما لا محتاج إليه .

ويقالُ بالنيليس عليك رؤية كفايته .

« ويأمرُكم بالفحشاء » أى الرغبة فى الدنيا ، ويقالُ بالأسباب التى تقوى الحرص ، ويقالُ بكثرة الأمل ونسيان القناعة ، ويقالُ بمنابذة الشهوات ، ويقالُ بإيثار الحظوظ ، ويقالُ بالنظر إلى غيره ، ويقالُ بإخطار شئء سواه ببالك .

ويقالُ بالانحطاط إلى أوطان الرُّخص والتأويلات بعد وضوح الحق .

ويقالُ بالرجوع إلى ما تركه الله

« والله يعدمُ مغفرة منه وفضلاً » : الفضل الموعود — فى العاجل — القناعة ، وفى الآجل الثواب والجنان والرؤية والرضوان و (. . . .)^(٢) والغفران .

ويقالُ فى العاجل الظفر بالنفس ، ويقالُ فتح باب العرفان ، ونشر بساط القرب ، والتلقى لمكاشفات الأُس .

قوله جل ذكره : ﴿ يُوْنِى الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ

الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا

وَمَا يَدْرِي إِلَّا أُولَ الْأَلْبَابِ ﴾

(١) أضفنا (سبحانه) ليمتنع اللبس وهى غير موجودة فى (س) .

(٢) هنا لفظة مشتبهة أقرب ما تكون إلى (العفو) ولكتنا آثرنا عدم إثباتها فى النص لعدم التأكد .

الحكمة : يحكم عليكم خاطرُ الحقِّ لا داعى النفس ، ونحكم عليكم قواهر الحق لا زواجر الشيطان .

ويقال الحكمة صواب الأمور .

ويقال هي ألا تحكم عليك رعونات البشرية .

(ومن لا حكم له على نفسه لا حكم له على غيره) (١) .

ويقال الحكمة موازنة أمر الله تعالى ، والسفاهة مخالفة أمره .

ويقال الحكمة شهود الحق والسفاهة شهود الغير

قوله جل ذكره : ﴿ وما أنفقتم من نفقةٍ أو نذرتم من نذرٍ فإن الله يعلمه وما للظالمين من أنصارٍ ﴾

قوم توعدهم بعقوبته ، وآخرون توعدهم بمثوبته .. وآخرون توعدهم بعلمه ؛ فهؤلاء العوام (٢) وهؤلاء الخواص . قال تعالى : « واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا » فلا شيء يوجب سقوط العبد من عين الله كخالفته لعهوده معه بقلبه ، فليحذر للمريد من إزلال (٣) نفسه في ذلك غاية الحذر .

قوله جل ذكره : ﴿ إن تبدوا الصدقات فنعىها ، وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ، ويكفر عنكم من سياتركم ، والله بما تعملون خبير ﴾

(١) ربما وقع الناسخ في خطأ حين وضع هذه الجملة في هذا المكان ، والأقرب أن تكون بعد كلمة (زواجر الشيطان) فنحن نعرف من مذهب القشيري أنه يرى أن الشيطان لا يملك أن يفرى الخلق (لأنه لو كان قادراً على ذلك لكان يمسك على الهداية نفسه ، ومن عجز أن يحافظ على نفسه كان في إغراء غيره أشد عجزاً) قال تعالى : « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان » .

(٢) العوام هنا تنصرف إلى الموهودين بالثوبة والمتوعدين بالعقوبة .

(٣) (إزلال) بالزاي معناها الايقاع في الزلة والتسبب في ارتكابها ، أوضحناها حتى لا نلتبس (بإذلال) ومع ذلك فيمكن قبول (إذلال) بالذال إذا فهمنا أن سقوط العبد من عين الله هو (ذلة) لنفسه .

إِنْ أَظْهَرْتَ صَحْبَتَكَ مَعَنَا وَأَعْلَنْتَ فَلَقَدْ جَوَّدْتَ وَأَحْسَنْتَ ، وَإِنْ حَفَظْتَ سِرَّنَا عَنْ دُخُولِ الْوَسَائِطِ بَيْنَنَا صُنْتَ شَرُوطَ الْوَنَادِ ، وَشَيَّدْتَ مِنْ بِنَاءِ الْوَصْلَةِ الْعِمَادِ .

قوله جل ذكره : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ ، وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾

لَكَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ ، وَالْوَاءُ الْمَعْقُودُ ، وَالرَّتَبُ الشَّرِيفُ ، وَالْمَنَازِلُ الْعَالِيَةُ ، وَالسَّنَنُ لِلرَّضِيَّةِ . وَأَنْتَ سَيِّدُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ، وَلَا يَدَانِيكَ أَحَدٌ — فَضلاً عَنْ أَنْ يَسَامِيكَ ، وَلَكِنْ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ فَالْهُدَايَةُ مِنْ خَصَائِصِ حَقِّنَا ، وَلَيْسَ لِلْأَغْيَارِ مِنْهُ شُطْبَةٌ . يَا مُحَمَّدُ : أَنْتَ تَدْعُوهُمْ وَلَكِنْ نَحْنُ نَهْدِيهِمْ ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ ، يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعْفِفِ ، تَعْرِفُهُمْ بِسِيَامِهِمْ ، لَا يسْأَلُونَ النَّاسَ الْخَافَ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾

أَخَذَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانُ الْحَقِيقَةِ كُلِّ طَرِيقٍ ، فَلَا هُمْ فِي الشَّرْقِ مَذْهَبٌ ، وَلَا هُمْ فِي الْغَرْبِ مَضْرِبٌ . كَيْفَا نَظَرُوا رَأَوْا سِرَادِقَاتِ التَّوْحِيدِ مُحَدَّقَةً بِهِمْ :

كَأَنَّ فُجَاجَ الْأَرْضِ ضَاقَتْ بِرَحْبِهَا عَلَيْهِمْ فَمَا تَزْدَادُ طَوَلاً وَلَا عَرْضاً

(١) مِنْ هَذِهِ الْفَقْرَةِ يَتَضَحُّ مَوْقِفُ التَّصَوُّفِ الْإِسْلَامِيِّ الْحَقِّ فِي نَظَرَتِهِ إِلَى الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَلَيْسَ فِي الْأَمْرِ — كَمَا تَرَى — جَوْحٌ أَوْ شَطَطٌ (قَارِنِ ذَلِكَ بِنَظَرَةِ ابْنِ عَرَبِيٍّ وَتَلَامِيذِهِ) .

ولا يسلم لهم نفس مع الخلق ، وأنتى بذلك ولا خَلَقَ ۱ ۱ وإذا لم يكن فإثبات ما ليس
شركاً (سقا) (١) في التوحيد .

والفقير الصادق واقف مع الله بالله ، لا إشراف للأجانب عليه ، ولا سبيل لمخلوق إليه
تنظره عين الأغيار في لبسة سوى ما هو به ، قال تعالى : « يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف » ،
فأما من كان ذا بصيرة فلا إشكال عليه في شيء من أحوالهم . تعرفهم يا محمد — أنت —
بسيام ، فليست تلك السياء مما يلوح للبصر ولكنها سياء تدركها البصيرة . لا إشراف عليهم
إلا بنور الأحدية .

ويقال « تعرفهم بسيام » : استبشار قلوبهم عند انكسار نفوسهم ، وصياح أسرارهم إلى
العرش (نشاطاً عنه) عند قبول ظاهرهم عن الاتعاش (٢) .

ويقال تكسر الظاهر عند تكسر الباطن وبالعكس من هذه لا يسألون الناس إلحافاً ،
فإن جرى منهم من الخلق بدون الإلحاف سؤال — لما يشير إليه دليل الخطاب — فذلك
صيانة لهم ولسر قصتهم ، لئلا يلاحظهم الخلق بعين السؤال ، وليس على سرهم ذرة من
الإثبات للأغيار (٣) .

ويقال : « أخصروا في سبيل الله » : وقفوا على حكم الله ، وأخصروا نفوسهم على طاعته
وقلوبهم على معرفته ، وأرواحهم على محبته ، وأسرارهم على رؤيته .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرٌ مِمَّنْ عِنْدَ رَبِّهِمْ
وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

مادام لهم مال لا يفترون ساعة عن إنفاقه ليلاً ونهاراً ، فإذا نفد المال لا يفترون عن شهوده
لحظة ليلاً ونهاراً .

(١) مشبهة وقد أثرنا أن نقلها كما هي وربما كانت (سقا) أي علة في التوحيد .

(٢) العبارة فيها شيء من غموض نتيجة اشتباه ما بين القوسين ولكن المراد — والله أعلم — أنه بينما
يبدو ظواهرهم ذابلة بحكم التواضع والانكسار فإن أسرارهم جادة في التسبيح من حول العرش .

(٣) هنا يبدو التفسير متأثراً بتعاليم أهل الملامة النيسابورية .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ

إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ

مِنَ الْمَسِّ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ

مِثْلَ الرِّبَا ، وَأَحْلَىٰ لِلَّهِ الْبَيْعُ وَحَرْمٌ

الرِّبَا ، فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ

فَاتَّبَعَهَا فَهُوَ مَسْلُوفٌ ، وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ

وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ

هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿

مَنْ أَعْرَضَ عَنِ الْأَمْرِ ، وَرَخَّصَ لِنَفْسِهِ بِمَا يَسُوْلُهُ لَهُ خَاطِرُهُ مِنَ التَّأْوِيلِ فَلَا اسْتِقْلَالَ لَهُمْ
فِي الْحَالِ وَلَا اتِّعَاشَ فِي الْمَالِ ، خَسِرُوا فِي عَاجِلِهِمْ وَلَمْ يَرْجِعُوا فِي آجِلِهِمْ .

وَمَنْ اتَّبَعَ بِزَوَاجِرِ الْوَعْظِ ، وَكَبَّحَ لِحَاوِسِّ الْهَوَى ، وَلَمْ يُطْلِقْ عَنَانَ الْإِصْرَانِ فَلَهُ الْإِمْهَالُ
فِي الْحَالِ ، فَإِنْ عَادَ إِلَى مَذْمُومِ تِلْكَ الْأَحْوَالِ فَلْيَنْتَظِرْ وَأَوْشَكَ الْاسْتِئْصَالَ وَفَجَاءَهُ النَّكَالُ .

قوله جل ذكره : ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ

وَاللَّهُ لَا يَحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿

مَا كَانَ بِإِذْنٍ مِنْهُ —سُبْحَانَهُ— مِنَ التَّصَرُّفَاتِ فَفَقَرُونَ بِالْخَيْرَاتِ ، وَمَصْحُوبٌ بِالْبَرَكَاتِ .

وَمَا كَانَ بِمُتَابَعَةِ الْهَوَى يُسَلِّطَ عَلَيْهِ الْحَقَّ ، وَكَانَتْ عَاقِبَةُ أَمْرِهِ الْخُسْرَانِ

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرٌ

عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

يَحْزَنُونَ ﴿

إِنَّ الَّذِينَ كَانُوا لَنَا يَكْفِيهِمْ مَا يَجِدُونَ مِنَّا ، لَا نَضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا

مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿

الاكتفاء بموعد الرب خيرٌ للمسلم من تعليق قلبه بمقصود نفسه .

ومقصودك من تساويات النفس ، وموعدك مما ضمنه الحق .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنْ

اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ

أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾

إن صاحب الإصرار ليس له عندنا وزن ولا مقدار ، ولا قدرٌ ولا أخطار .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى

مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ

إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

إذا تقرر عند القاضى إفلاس المحبوس فلا تحل له استدامة حبسه ، وإن ظهرت لدى الحق

حجة المفلس فذلك مرتين بحق خصمه ، ولكنه فى إهمال وإنظار . والرب لا يحكم بهذا علينا ،

فعلمه بإعسارنا وعجزنا ، وصدق افتقارنا إليه وانقطاعنا له — يرحمنا .

قوله « إلى ميسرة » : ليس للمفلس وجه يحصل له منه شيء إلا من حيث ما جعل

الله سبحانه من سهم الغارمين ، فأما من جهة الغلات فالغلة تدخل من رقاب الأموال والعقد ..

وأنتى للمفلس به ١٩

وأما الربح فى التجارة من تقليب رأس المال والتصرف فيه .. فأنتى للمفلس به ١٩

مابقى للمفلس إلا قول من قال من الفقهاء (.)^(١) وإن كان ضيقاً ،

فذلك لمن بقيت له منة الحراك أما للمفلس عن قوته — كما هو مفلس عن ماله — مابقى له وجه

إلا ما يسبب له مولاه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ

ثُمَّ تُوفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ

لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

(١) هنا عبارة مطبوعة .

الرجوع على ضربين : بالأبشار والنفوس غداً عند التوفى ، وبالأسرار والقلوب فى كل نفسٍ محاسبة ؛ نقدٌ ووعد ، فنقدٌ مطالبة أحقُّ بما سيكون فى القيامة من وعده .

وقال للموام : « واتقوا يوماً » وقال للخواص : « وإياى فاتقون »

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَيْتُمْ بِدِينٍ

إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ

بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ

أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ

وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ

رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ

كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ ضَعِيفًا

أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْلَ

فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ، وَاسْتَشْهِدُوا

شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا

رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ

مِنَ الشَّهَادَةِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ

إِحْدَاهُمَا الْآخَرَى وَلَا يَأْبَ الشَّهَادَةُ

إِذَا مَا دُعُوا ، وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ

تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ

ذَلِكَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ

وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ

تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُوتَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ

عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ،

وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ، وَلَا يُضَارَّ

كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ إِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ

فُسُوقٌ بِكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ

الله ، والله بكل شيء عليم * وإن
كنتم على سفرٍ ولم تجدوا كاتباً
فرهانٍ مقبوضة فإن أمن بعضكم
بعضاً فليؤد الذي آؤثن أمانته
وليتق الله ربه ولا تكتبوا
الشهادة ومن يكتبها فإنه آثم
قلبه والله بما تعملون عليم .

أمر الله سبحانه الخلق بالقيام بالصدق ، وعلمهم كيفية معاملاتهم فيما بينهم ، والأخذ
بالاحتياط والاستشهاد لئلا يجري — بعضهم على بعض — حيفاً ، وذلك من مقتضى رحمته
سبحانه عليهم ، وموجب رفقته بهم كيلا يتخاصموا . فأمر بتحصين الحقوق بالكتابة
والإشهاد ، وأمر الشهود بالتحمل ثم بالإقامة .

ومن شرع اليوم ما يقطع الخصومة بينهم فبالحرى أن يجري ما يرفع في الآخرة آثار
الخصومة^(١) بينهم ، وفي الخبر المنقول : تواهبوا فيما بينكم فقد وهبت منكم مالى عليكم ،
فإن الكريم إذا قدر غفر .

وفى شرع من الدين^(٢) رفق بأرباب الحاجات ، لأن الحاجة تمس فيحمله الحال على
الاحتياط ، ويضيق به الصدر عن الاحتمال ، ويعينه حفظ التجميل عن الكدية والسؤال ، فأذن
له في الاستدانة ليَجْبُرَ أمره في الحال ، وينتظر فضل الله في المال ، وقد وعد على الإداة
الثواب الكثير ، وذلك من لطفه تعالى .

قوله جل ذكره : ﴿لله ما في السموات وما في الأرض
وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه
يحاسبكم به الله فيفر لِمَن يشاء﴾

(١) وردت (الحكومة) ونظن أنها خطأ في النسخ وأن الأصل (الخصومة) .

(٢) ضبطناها هكذا وذلك هو الملائم لسياق .

وينب من يشاء والله على كل شيء
قدير .

من المعاني والدعاوى ، ويقال من القصور والرغائب ، وفنون الحوائج والمطالب .

ويقال ما « تبديه » : العبادة ، « وما تخفيه » : الإرادة .

ويقال ما « تخفيه » : الخطرات و « ما تبديه » : « العبارات » .

ويقال ما « تخفيه » : السكنات والحركات^(١)

ويقال الإشارة فيه إلى استدامة المراقبة واستصحاب المحاسبة ، فلا تغفل^(٢) خطرة
ولا تحمل وقتك نفسك^(٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ
وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ
وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ أَحَدٍ
مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا
غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ .

هذه شهادة الحق — سبحانه — لنبيه — صلى الله عليه وسلم وعلى آله — بالإيمان ،
وذلك أتم له من إخباره عن نفسه بشهادته .

ويقال آمَنَ الخلق كلهم من حيث البرهان وآمن الرسول — عليه السلام —
من حيث العيان .

ويقال آمَنَ الخلق بالوسائط وآمن محمد — صلى الله عليه وسلم — بغير واسطة .

(١) ربما كانت في الأصل « تخفيه » السكنات « وتبديه » الحركات وسقطت تبديه من النسخ .
(٢) وردت (تنقل وربما صحت على أساس أن تنقل (بمعنى تنجس) أو بمعنى استخدام العقل ، وهو
في هذه الحالة آفة تعرض للفناء الكامل .
(٣) ضبطناها هكذا لأن الالتقاء إلى (النفس) أمانة عدم اكتمال الفناء .

ويقال هذا خطاب الحق معه ليلة المعراج على جهة تعظيم القدر فقال « آمن الرسول » ،
ولم يقل آمنت ، كما تقول لعظيم الشأن من الناس : قال الشيخ ، وأنت تريد قلت .
ويقال آمن الرسول والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، ولكن شتان بين
إيمان وإيمان ، الكل آمنوا استدلالاً ، وأنت يا محمد آمنت وصلاً .

قوله جل ذكره ﴿ لَا يَكُفُّ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾
لكمال رحمته بهم وقهم على حد وسعهم ودون ذلك بكثير ، كل ذلك رفق منه وفضل .
﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ ﴾

من الخيرات .

﴿ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾

ما تكسبه من التوبة التي تنجى من كسب (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ
عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلُنَا ، رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا
مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾

كان إذا وقعت حاجة كلموه بلسان الوسطة . قالوا « يا موسى ادع لنا ربك » وهذه
الامة قال لهم : « وقال ربكم ادعوني أستجب لكم » .

وكانت الامم (السالفة) (٢) إذا أذنبوا احتاجوا إلى مضي مدة لقبول التوبة ، وفي هذه
الامة قال صلى الله عليه وسلم : « الندم توبة » .

وكانت الامم السالفة منهم من قال اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، وهذه الامة اختصت بإشراق
أنوار توحيدهم ، وخصائضهم أكثر من أن يأتي عليه الشرح .

(١) قد يبدو للوهلة الأولى ان القشيري في استخراج إشارته من (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت)
يتجه إيجاباً بخالفاً للتفسير التقليدي ، ولكن الواقع ان إشارة القشيري مرتبطة بمذهبه في أن الله خالق
كل شيء حتى أفعال البعاد ، فهو خالق التوبة وحين يتقبلها تعود (على) العبد ، انظر مثلاً تفسيره (ويتوب
عليكم) من سورة النساء .. من هذا الكتاب .

(٢) (السالفة) موجودة في الهوامش فأنتنتها في موضعها من المتن .

قوله جل ذكره : ﴿وَاعْفُ عَنَّا﴾

في الحال

﴿وَاعْفِرْ لَنَا﴾

في السَّال

﴿وَارْحَمْنَا ، أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا

عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾

في جميع الأحوال إذ ليس لنا أحد سواك ، فأنت مولانا فاجعل النصر لنا على ما يشغلنا عنك .

ولما قالوا « ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا » خَسَفَ الله ذنوبهم بدل خسف المتقدمين ، فأبدل ذنوبهم حسنات بدل مسخهم ، وأمطر عليهم الرحمة بدل ما أمطر على المتقدمين من الحجارة .

والحمد لله رب العالمين .

السورة التي يذكر فيها آل عمران

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »

اختلف أهل التحقيق في اسم « الله » هل هو مشتق من معنى أم لا ؟ فكثير منهم قالوا إنه ليس بمشتق من معنى ، وهو له سبحانه على جهة الاختصاص^(١) ، يجري في وضعه مجرى أسماء الأعلام في صفة غيره ، فاذا قرع بهذا اللفظ أسماء أهل المعرفة لم تذهب فهمهم ولا علومهم إلى معنى غير وجوده سبحانه وحقه . وحق هذه القالة أن تكون مقرونة بشهود القلب فاذا قال بلسانه « الله » أو سمع بأذانه شهد بقلبه « الله » .

وكما لا تدل هذه الكلمة على معنى سوى « الله » لا يكون مشهوداً قائلها إلا « الله » فيقول بلسانه « الله » ، ويعلم بفؤاده « الله » ، ويعرف بقلبه « الله » ، ويحب بروحه « الله » ،

(١) وردت (الاقتصاص) .

ويشهد بسرّه « الله » ، ويشملق^(١) بظاهره بين يدي الله ، ويتحقق بسرّه الله ، ويخلو بأحواله الله وفي الله ؛ فلا يكون فيه نصيب لغير الله ، وإذا أشرف على أن يصير محوّا في الله بالله تداركه الحق سبحانه برحمته فيكاشفه بقوله^(٢) الرحمن الرحيم استبقاء لمهجّتهم أن تنلف ، وإرادة في قلوبهم أن تنق ؛ فالتلف سنة منه سبحانه لثلاثي أولياؤه بالسكينة .

قوله جل ذكره : ﴿الم * الله﴾

أشار بقوله ألف إلى قيامه بكفايتك على عموم أحوالك ، فأنت في أسر الغفلة لا تهتدي إلى صلاحك ورشدك ، وهو بحري ما يجبرك ، وكاف بما ينصرّك ، فبغير سؤالك — بل بغير علمك بحالك — يكفيك من حيث لا تشع ، ويعطيك من غير أن تطلب .

والإشارة من اللام إلى لطفه بك في خفي السر حتى أنه لا يظهر عليك محل المنّة فيما يشبك فيه . والإشارة من الميم لمواقفة جريان التقدير بمتعلقات الطلبية من الأولياء ، فلا يتحرك في العالم شيء ، ولا تظهر ذرة إلا وهو بمحل الرضا منهم حتى أن قائلاً لو قال في قوله : « كل يوم هو في شأن » إن ذلك الشأن تحقيق مراد الأولياء — لم يكن ذلك بعيد .

ويقال تفرّق عن القلوب — باستماع هذه الحروف المقطعة التي هي خلاف عادة الناس في التخاطب — كل معلوم ومرسوم ، ومعتاد وموهوم ، من ضرورة أو حسن أو اجتهاد ، حتى إذا خلت القلوب عن الموهومات والمعلومات ، وصنى الأسرار عن المعنادات والمعهودات برّد هذا الاسم وهو قوله : « الله » على قلب مقدّس من كل غدير ، وسير مصنى عن كل كيف ؛ فقال « الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم » .

فهو الذي لا يلوه فيشتغل عنك ، ولا يسهو فتبقى عنه ، فهو على عموم أحوالك رقيب سرّك ؛ إن خلوت فهو رقيبك ، وإن توسّطت أنخلق فهو رقيبك^(٣) ، وفي الجملة — كيفادارت بك الأحوال — فهو حييبك .

(١) إستخدم القشيري هذا الفعل في موضع مماثل عند قوله (تذكير ماسلف من الإنعام فتح لباب التلق في اقتضاء أمثاله في المستقبل) وفي موضع آخر (فيجعله صدق الإرادة على التلق والتضرع من ٢٤٨ من هذا الجزء .

(٢) وردت (بتو) .

(٣) وردت فهو (قريبك) والمعنى يحتملها ولكن الانسجام في الأسلوب يتطلب (رقيبك) مكررة

قوله جل ذكره : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ .

وما كنت يا محمد تدري ما الكتاب ، ولا قصة الأحباب ، ولكنها صادفك اختيار أزل
فألقاك في أمرٍ عجيبٍ شأنه ، جليُّ برهانه ، عزيزٍ محله ومكانه .

﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ .

أى محققاً لموعوده لك في الكتاب على السنة الرسل عليهم السلام .

﴿ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ من قبل

هدى للناس وأنزل الفرقان ﴿ .

أى إنا وإن أنزلنا قبلك كُتُباً على المرسلين فما أخلينا كتاباً من ذِكرِكَ ، قال قائلهم :

وعندى لأحبائنا القائمين صحائفُ ذِكرِكَ عنوانها

وكما أتمنا بك أنوار الأنبياء زيناً بذكرِكَ جميع ما أنزلنا من الأذكار .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ

شديد ﴾ .

وهو ذلُّ الحجاب ، ولكنهم لا يشعرون .

« والله عزيز » على أوليائه « ذو انتقام » من أعدائه ، عزيز يطلبه كل أحد ، ولكن

لا يجده — كثيراً — أحد .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ

وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ .

لا يتنفس عبداً نفساً إلا والله سبحانه وتعالى مُحْصِيهِ^(١) ، ولا تحصل في السماء والأرض

ذرة لا وهو سبحانه مُحَدِّثُهُ ومُبْدِيهِ ، ولا يكون أحد بوصف ولا نعت إلا هو متوليهِ .

هذا على العموم ، فأما على الخصوص : فلا رَفَعَ أحدٌ إليه حاجةً إلا وهو قاضيها ،

ولا رجع أحدٌ إليه في نازلةٍ إلا وهو كافٍها .

(١) وردت (محببة) وهي خطأ من الناسخ .

قوله جل ذكره : ﴿ هو الذى يُصَوِّرُكُمْ فى الأرحام
كيف يشاء ﴾ .

هذا فيما لا يزال من حيث الخلق ، وهو الذى قدّر أحوالكم فى الأزل كيف شاء ،
وهذا فيما لم يزل من حيث القضاء والقسم .

﴿ لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾

فلا يُعَقَّبُ حكمه بالنقض ، أو يُعَارَضُ تقديره بالإهمال والرفض .

قوله جل ذكره : ﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه

آيات محكمات هن أم الكتاب
وأخر متشابهات فأما الذين
فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه
منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ،
وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون
فى العلم يقولون آمنا به ، كل من
عند ربنا ، وما يذكر إلا أولوا
الألباب ﴾

جنس عليهم الخطاب ؛ فمن ظاهر واضح تنزيهه ، ومن غامض مشكل تأويله . القسم
الأول لبسط الشرع واهتداء أهل الظاهر ، والقسم الثانى لصيانة الأسرار عن اطلاع الأجانب
عليها ، فسيل العلماء الرسوخ فى طلب معناه على ما يوافق الأصول ، فما حصل عليه للموقوف
فمقابل بالقبول ، وما امتنع من التأثير فيه بمحاول الفكر سلّوه إلى عالم الغيب .

وسيل أهل الإشارة والفهم إلقاء السمع بحضور القلب ، فاستنح لفهومهم من لائح
التعريفات بنوا (عليه)^(١) إشارات الكشف .

(١) لى ص (بنوا على) والأصوب (بنوا عليه) حتى تناسك العبارة لأن الإشارة تلبنى على التعريف .

إن (طلوبوا)^(١) باستدابة السروطى السّر تخارصوا عن النطق ، وإن أمروا بالإظهار والنشر أطلقوا بيان الحق ، ونطقوا عن تعريفات الغيبة ، فأما الذين أيدوا بأنوار البصائر فستضيئون بشعاع شمس الفهم ، وأما الذين ألبسوا غطاء الريب ، وحرموا لطائف التحقيق ، فتقسم بهم الأحوال وتترجم بهم الظنون ، ويطيحون فى أودية الريب والتليس ، فلا يزدادون إلا جهلاً على جهل ، ونفوراً على شك .

قوله جل ذكره : ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾

ومن وجد علمه من الله فيكون إيمانهم بلا احتمال جولان خواطر التعجيز بل عن صريحات الظهور ، وصافيات اليقين . وأما أصحاب العقول الصاحبة فى صحبة التذكر ، لظهور البراهين و (. . .)^(٢) أحكام التحصيل .

قوله جل ذكره : ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ﴾

ما ازدادوا قرباً إلا ازدادوا أدباً ، واليأذى إلى التباعد أقوى أسباب رعاية الأدب^(٣) .
ويقال حين صدقوا فى حسن الاستغاة أمدوا بأنوار الكفاية .

قوله جل ذكره : ﴿ ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد ﴾

اليوم جمع الأحباب على بساط الاقتراب ، وغداً جمع الكافة لمحل الثواب والعقاب ،

(١) فى س (طالبوا) والأوفق أن تبنى للمجهول مثل (أمروا) التى بعدها ، لأن فاعليتهم جيلئذ مفقودة .

(٢) مشبهة .

(٣) ربما يقصد القشيري من هذه العبارة أنهم أبدأ طامعون فى الهداية محتاجون - لا لأعمالهم - بل لفضل الله ، ومهما أسبغ عليهم يشعرون بأنهم ما زالوا بعيدين عن التمام ، وعلى هذا التفسير تنسجم هذه العبارة مع سابقتها « ما ازدادوا قرباً إلا ازدادوا أدباً » .

اليوم جمع الأسرار لكشف الجلال والجمال ، وغداً جمع الأبرار لشهود الأحوال ، ومقاساة ما أخبر عنه من تلك الأحوال .

قوله جل ذكره : ﴿ إِن الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُفْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴾

فلا فداء ينفعهم ، ولا غناء يدفعهم ، ولا مال يُقبلُ منهم ، ولا حجاب يُرفع عنهم ، ولا مقال يسمع فيهم ، بهم يُسعرُ الجحيم ، ولم الطرد الأليم ، والبعد والحجيم .

قوله جل ذكره : ﴿ كَذَّابٌ آَلَ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

أصرُّوا في العتوِّ على سننهم ، وأدمنَّا لهم في الانتقام سنننا ، فلا عن الإصرار أقلموا ، ولا في البيار طمعوا ، ولعمري إنهم هم الذين ندموا وتَحَسَّرُوا على ما قدَّموا — ولكن حينما وجدوا الباب مسدوداً ، والندم عليهم مردوداً .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُنْحَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾

أخبرهم أنهم يفوتهم حديث الحق في الآجل^(١) ، ولا تكون لهم لذة عيش في العاجل ، والذي يلقونه في الآخرة من شدة العقوبة بالحرقة فوق ما يصيبهم في الدنيا من الغيبة عن الله والفرقة^(٢) ، ولكن سقيمت البصائر فلم يحسوا بأليم العقاب .

(١) يشير القشيري بهذا إلى الآية الكريمة « لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكهم » .
(٢) أما الخواص فيرون رؤية الله منتهى آملهم ، وصداء عنهم أشد عليهم من عذاب السعير ، يقول البسطامي : « لله خواص من عباده لو حجبتهم في الجنة عن رؤيته ساعة لاستغاثوا بالخروج من الجنة كما يستغيث أهل النار من النار »

قوله جل ذكره : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنِىَ التَّقَاتِ ۖ تَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأًى الْعَيْنِ ۖ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولَى الْأَبْصَارِ ۝ ﴾

إذا أراد الله إِمضاء أمرٍ قَلَّ الكثير في أعين قوم ، وكَثُرَ القليل في أعين قوم ، وإذا لبَّس على بصيرة قوم لم ينفعهم نفاذ أبصارهم ، وإذا فتح أسرار آخرين فلا يضرهم السداد بصائرهم^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۚ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۗ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ۝ ﴾

يذكر بعض الشهوات على ما سواها مما هو في معناها ، وفي الجملة ما يحجبك عن الشهود فهو من جعلها . وأصعب العوائق في هذه الطريق الشهوة الخفية . وأداء الطاعات على وجه الاستحلاء معدودٌ عندم في جملة الشهوة الخفية . ومن المقاطع المشكلة السكون إلى ما يلقاك به من فنون تقرييك ، وكأنه في حال ما يناجيك يناغيك ، فإنه بكل لطيفة يصفك (فيطريك)^(٢) وتحنها خُدْعٌ خافية . ومن أدركته السعادة كشفه بشهود جلاله وجماله (لا)^(٣) بإثباته في لطيف أحواله وما يخصه به من أفضاله وإقباله .

(١) من هنا نفهم أن ترتيب ملكات الاطلاع عند التشيرى هو على هذا النحو : البصر ثم البصيرة ثم السر
(٢) مستدركة في الهامش فأثبتناها في موضعها .
(٣) نظن أن (لا) زائدة لأن السعادة التي تدرك العبد لا تتم إلا (بإثباته في . .) .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أَنبِئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ لِلَّذِينَ
اتَّقُوا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ
مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ
بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾

بَيْنَ فَضِيلَةِ أَهْلِ التَّقْوَى عَلَى أَرْبَابِ الدُّنْيَا ، فَقَالَ : هَؤُلَاءِ لَهُمْ مُتَابَعَةٌ لِلنَّبِيِّ وَمُوَافَقَةٌ لَهُوَ
وَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ؛ أَنْزَلَ كُلَّ قَوْمٍ مَنَزِلَهُ ، وَأَوْصَلَهُ
إِلَى مَا لَهُ أَهْلُهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا فَاغْفِرْ لَنَا
ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾

أَيُّ يَنْقُطِعُونَ إِلَيْنَا بِالْكَلِمَةِ ، وَيَتَضَرَّعُونَ بَيْنَ أَيْدِينَا يَذْكُرُ الْحَنِّ وَالرِّزْيَةَ ، أُولَئِكَ
يُنَالُونَ مِنَ الْقُرْبَةِ وَالْخُصُوصِيَّةِ ، وَالْدَّرَجَاتِ الْعُلَى ، وَالْقِسْمِ الْمَرْضِيَّةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَائِتِينَ
وَالْمُتَّقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾

الصَّبْرُ حَبْسُ النَّفْسِ ، وَذَلِكَ عَلَى ثَلَاثِ مَرَاتِبٍ :

صَبْرٌ عَلَى مَا أُمِرَ بِهِ الْعَبْدُ ، وَصَبْرٌ عَمَّا نَهِيَ عَنْهُ وَصَبْرٌ هُوَ الْوُقُوفُ تَحْتَ جَرِيَانِ حَكْمِهِ
عَلَى مَا يَرِيدُ ؛ إِمَّا فِي فَوَاتِ مَحْبُوبِكَ أَوْ هَجُومِ مَا لَا تَسْتَطِيعُهُ ^(١) .

فَإِذَا تَرَقَّيْتَ عَنْ هَذِهِ الصِّفَةِ - بِالْأَلَا تَصِيْبُكَ مُشَقَّةٌ أَوْ تَنَالُ رَاحَةً - فَذَلِكَ رِضًا لَا صَبْرًا ^(٢) .
وَيُقَالُ الصَّابِرِينَ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ ، وَالصَّادِقِينَ ، فِيمَا عَاهَدُوا اللَّهَ .
وَالْقَائِتِينَ ، بِنَفْسِهِمْ بِالْإِسْتِقَامَةِ فِي مَحَبَّةِ اللَّهِ .

(١) فَوَاتِ الْمَحْبُوبِ صَدْعٌ عَنْكَ وَهَجْرٌ لَكَ ، وَالْمُحْجُومُ الَّذِي لَا تَسْتَطِيعُهُ هُوَ الَّذِي (يَرُدُّ عَلَى الْقَلْبِ بِقُوَّةِ
الْوَقْتِ مِنْ غَيْرِ تَصْنَعٍ مِنْكَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَصَرَّفَهُ الْهَوَا جَمٌّ وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ فَوْقَ مَا يَفْجُوهُ حَالًا وَقُوَّةً ، أُولَئِكَ
سَادَاتُ الْوَقْتِ) الرِّسَالَةُ ص ٤٤ .
(٢) لَاحِظِ الْفَرْقَ بَيْنَ الرِّضَا وَالصَّبْرِ .

و « المستغفرين » عن جميع ما فعلوه لرؤية تقصيرهم في الله^(١)

ويقال : « الصابرين » بقلوبهم و « الصادقين » بأرواحهم و « القانتين » بنفوسهم ، و « المستغفرين » بالسنتهم .

ويقال « الصابرين » على صدق القصود و « الصادقين » في العهود و « القانتين » بحفظ الحدود و « المستغفرين » عن أعمالهم وأحوالهم بمجد استيلاء سلطان التوحيد .

ويقال « الصابرين » الذين صبروا على الطلب ولم يتعللوا بالهرب ولم يحنثوا من التعب ، وهجروا كل راحة وطلب . وصبروا على البلوى ، ورفضوا الشكوى ، حتى وصلوا إلى المولى ، ولم يقطعهم^(٢) شيء من الدنيا والعنى .

و « الصادقين » الذين صدقوا في الطلب فقصدوا ، ثم صدقوا حتى وردوا ، ثم صدقوا حتى شهدوا ، ثم صدقوا حتى وجدوا ، ثم صدقوا حتى فقدوا . . فترتيبهم قصود ثم ورود ثم شهود ثم وجود ثم خمود^(٣) .

و « القانتين » الذين لازموا الباب ، وداوموا على تجميع الاكتاب ، وتركوا المحاب ، ورفضوا الأصحاب إلى أن تحققوا بالاقتراب .

و « المنفقين » الذين جادوا بنفوسهم من حيث الأعمال ، (ثم جادوا بميسورهم من الأموال)^(٤) ، ثم جادوا بقلوبهم بصدق الأحوال ، ثم جادوا بترك كل حظ لهم في العاجل الآجل ، استهلاكاً عند القرب والوصال بما لقوا من الاضطلام والاستئصال^(٥) .

و « المستغفرين » عن جميع ذلك إذا رجعوا إلى الصحو عند الاسحار يعني ظهور الإسفار ، وهو فجر القلوب لا فجر يظهر في الأقطار .

(١) قارن ذلك بما يحكيه المناوي في (طبقاته) وابن الجوزي في (صفة الصفوة) عن رابعة أنها كانت تردد : (استغفارنا يحتاج إلى استغفار لعدم الصدق فيه) .

(٢) فواطع الدنيا معروفة أما فواطع العقي فهي تعليق العمل المبدول بالاجر ، إما الطمع في المثوبة أو الخوف من العقوبة .

(٣) هذا تلخيص دقيق للمعراج الروحي ينبغي أن تشمل عنده لحسن فهمه واستيعابه .

(٤) مستدركة فيما بين السطور فأثبتتها في موضعها .

(٥) الاستئصال هو الذي عبر عنه القشيري في رسالته بقوله : (كأس تصطبهم منهم وتغنيهم وتختطفهم ولا تبقيهم ، كأس لا تبقى ولا تذر ، نعوذ بالكلية ، ولا تبقى شظية من آثار البشرية) الرسالة ص ٤٣

قوله جل ذكره : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾

أى عَلَّمَ اللَّهُ وأخبر الله وَحَكَّمَ اللَّهُ بأنه لا إله إلا هو ، فهو شهادة الحق للحق بأنه الحق ، وأَوَّلُ مَنْ شَهِدَ اللَّهُ — الله ، فشَهِدَ فى آزاله بقوله وكلامه وخطابه الأزلى ، وأخبر عن وجوده الأحدى ، وكونه الصمدى ، وعونه القيومى ، وذاته الديمومى ، وجلاله السرمدى ، وجلاله الأبدى . فقال : « شهد الله » ثم فى آبابه ، « شهد الله » أى بَيَّنَّ اللَّهُ بما نَصَبَ من البراهين ، وأثبت من دلائل اليقين ، وأوضح من الآيات ، وأبدى من البينات . فكلُّ جزء من جميع ما خلق وفطر ، ومن كتم العدم أظهر ، وعلى ما شاء من الصفة الذاتية حصل ، من أعيان مستقلة ، وآثار فى (ثانى)^(١) وجودها مضحكة ، وذوات للملافة قابلة ، وصفات فى المحال متعاقبة — فهو لوجوده مُفَصِّحٌ ، ولربوبيته موضح ، وعلى قِدَمِهِ شاهد ، وللعقول مُغَيِّرٌ بأنه واحد ، عزيز ، ماجد ، شهد سبحانه بجلال قدره ، وكِمال عزه ، حين لا يجد ولا جهود^(٢) ولا عرفان لخلق ولا عقل ، ولا وفاق ، ولا كفر ، ولا حدثان ، ولا غير ، ولا إلحاد ، ولا شرك ، ولا فهم ولا فكر ، ولا سماء ولا فضاء ، ولا ظلام ولا ضياء ، ولا وصول للمزدوجات^(٣) ، ولا فضول باختلاف الآفات .

قوله جل ذكره : ﴿ والملائكة ﴾

لم يؤيد شهادته بوحدانيته بشهادة للملائكة بل أسعدهم وأبدَّهم ، حين وفقهم بشهادته وسدَّهم ، وإلى معرفة وحدانيته أرشدهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وأولوا العلم ﴾

وهم أولياء بنى آدم إذ علموا جلال قدرته ، وعرفوا نعت عزته فأكرمهم حيث قرن شهادته بشهادتهم ، فشهدوا عن شهود وتعيين ، لا عن ظن وتخمين ، إن لم يدركوه — اليوم —

(١) ربما كانت فى الأصل فى (شاذ) وجودها ... بتخفيف المز .

(٢) ربما كانت فى الأصل (جعود) ، ويحتمل أنها (جهود) فيكون المقصود الجهود الإنسانية الكمية .

(٣) ربما قصد منها كل شيء وضده ، وربما كانت (للدرجات) .

ضرورة وحسباً ، لم يعتقدوه ظناً وحنساً ؛ تعرّف إليهم فعرفوه ، وأشهدهم فلذلك شهدوا ،
ولو لم يقل لهم إنه من هو لآ عرفوا من هو .

ولكن العلماء يشهدون بصحة عقولهم ، والمؤحّدون يشهدون بعد خلودهم ؛ فهم
كما قيل :

مُسْتَهْلَكُونَ بَقَرِ الْحَقِّ قَدْ هَمَدُوا وَاسْتَنْطَقُوا بَعْدَ افْتِنَائِهِمْ بِتَوْحِيدِ

فَالْمُجَرِّي عَلَيْهِمْ مَا يَبْدُو مِنْهُمْ — سَوَاهِمُ ، وَالْقَائِمُ عَنْهُمْ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ وَبِهِ — غَيْرُهُمْ ، وَلَقَدْ
كَانُوا لَكُنْهِمُ بَانُوا ، قَالَ قَائِلُهُمْ :

كِتَابِي إِلَيْكُمْ بَعْدَ مَوْتِي بَلِيلَةٌ وَلَمْ أُدْرِ أَنِّي بَعْدَ مَوْتِي أَكْتُبُ

وأولو العلم على مراتب : فَمِنْ عُلُومٍ نَعْتُهُ وَفَاقَ وَرَهْبَانِيَّةَ ، وَمِنْ عَالَمٍ وَصَفَهُ فَنَاءَ وَرَبَّانِيَّةَ ،
وعالم يعرف أحكام حلاله وحرامه ، وعالم يعلم أخباره وسننه وآثاره ، وعالم يعلم كتابه ويعرف
تفسيره وتأويله ، ومحكمه وتنزيله ، وعالم يعلم صفاته ونعوته ويستقوى حججه وتوحيده بحديث
يخرجه (. . .) (١) ، وعالم لاطفه حتى أحضره ثم كاشفه فقهره ، فالاسم باقي ، والعين محو ،
والحكم طارق والعبد محق ، قال قائلهم .

بَنُو حَقٍّ غَدُوا بِالْحَقِّ صِرْفًا فَنَعْتَ الْخَلْقِ فِيهِمْ مُسْتَوْرٌ

وليست الإشارة من هذا إلا إلى فنائهم عن إحساسهم ، وعند علمهم بأنفسهم ، فأما
أعمالهم (٢) أعيانهم فمخلوقة ، وما يفهم بذواتهم من أحوالهم فمبسوقة ، وذات الحق لا توصف
بقبول حدثان ، وصفات ذاته لا تقبل اتصالاً بالغير ولا انفصالاً عن الذات ، تقدّس الحق
عن كل ضدّ وندّ ، ووصل وفصل ، وجمع وفرق ، وعين وخلق ، وملك وفلك ، ورسم
وأثر ، وعبد وبشر ، وشمس وقر ، وشخص وغَير .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ .

(١) مشبهة .

(٢) ترجيح أنه في الأصل (وأعيانهم) وأن الواو سقطت من النسخ أي أنهم وما يصنعون — من خلق
الله ، وذلك الأصل من الأصول الكلامية عند القشيري .

الدينُ الذي يرتضيه ، والذي حكم لصاحبه بأنه يجازيه ويمليه ، وبالفضل يُلْقِيهِ — هو الإسلام .

والإسلام هو الإخلاص والاستسلام ، وما سواه فردود ، وطريق النجاة على صاحبه مسدود .

قوله جل ذكره : ﴿ وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب ﴾ .

جاءهم العلم الذي عليهم حجة ، لا للمعرفة التي لها بيان ومحجة ، فأصروا على الجحود ، لأنهم حُجِبُوا عن محل الشهود

قوله جل ذكره : ﴿ فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن ، وقل للذين أوتوا الكتاب والأمين أسلمتم ، فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد ﴾ .

طَالِعُهُمُ بَعَيْنُ التَّصْرِيفِ كَيْلًا يَفْتَرِقُ بَكَ الْحَالُ فِي شُهُودِ اخْتِلَافِهِمْ وَتَبَايُنِ أَطْوَارِهِمْ ؛ فَإِنَّ مَنْ طَالَعَ الْكَائِنَاتِ بَعَيْنَ الْقُدْرَةِ عِلْمٌ أَنَّ الْمُشْتَدَّ لِلْكَلِّ — عَلَى مَا اخْتَصَّ بِهِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْكَلِّ — وَاحِدٌ .

فَأَذَعُهُمْ جَهْرًا بِجَهْرِ ، وَاشْهَدْ تَصْرِيفَنَا لِإِلَهِامِ سِرًّا بِسِرِّ ، وَاشْغُلْ لِسَانَكَ بِنَصَحِهِمْ ، وَفَرِّغْ قَلْبَكَ عَنْ حَدِيثِهِمْ ، وَأَفْرِدْ سِرَّكَ عَنْ شُهُودِهِمْ ، فَلَيْسَ الَّذِي كَلَفْنَاكَ مِنْ أُمُورِهِمْ إِلَّا الْبَلَاغُ ، وَالْمُجَرِّى لِلْأُمُورِ وَالْمُبْدِى — نَحْنُ .

قوله جل ذكره : ﴿ إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ، ويقتلون الذين

يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم
بعذاب أليم .

إن الذين ربطناهم بالخلدان ووسمناهم بوصف الحرمان — أخبرهم بأن إعراضنا عنهم
مؤبد ، وأن حكمنا سبق بنقلهم عن دار الجنان إلى دار المهوان ، من الخلدان والحرمان
إلى العقوبة والنيران .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك الذين حبّطت أعمالهم
في الدنيا والآخرة وما لهم من
ناصرين ﴾

أولئك الذين ليس لهم — اليوم — توفيق بأعمالهم ، ولا غداً لتحقيق لأمالهم ، وما ذلك
إلا لأنهم فقدوا في الدارين نصرتنا ، ولم يشهدوا عزّاًنا وقدرتنا .

قوله جل ذكره : ﴿ ألم ترّ إلى الذين أوتوا نصيباً من
الكتاب يُدْعَوْنَ إلى كتاب الله
ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم
وهم معرضون ﴾

امتنعناك بدعوة من سبق علمنا بأنهم لا يستجيبون ، فاصبر على ما أمرت فيهم ، واعلم
سوء أحوالهم ، فإنهم أهل التولى عن الإجابة ، لأنهم فقدوا منا حسن التجلي بسابق الإرادة .

قوله جل ذكره : ﴿ ذلك بأنهم قالوا لن تمسّنا النار
إلا أياماً معدودات ، وغرّم في دينهم
ما كانوا يفترون ﴾

عاقبناهم في الدنيا بالاستدراج حتى حكموا لأنفسهم بالنجاة وتخفيف العقاب ، وسوف
يملون تضاعف البلاء عليهم ، ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون .
ظن المخطئون حكماً . . .

﴿ فكيف إذا جعناهم ليوم لا ريب
فيه ووفيت كل نفس ما كسبت
وهم لا يُظلمون ﴾

هذه كلمة تعجب لما أخبر به عن تعظيم الأمر ، وتفخيم الشأن عند بهتة عقولهم ودهشة
أسرارهم ، وإتقطاع دواعيهم ، وانخلاع قلوبهم من مكانها ، وتراقبها إلى تراقبهم ، ثم ما يلقونه
من الحساب والعقاب ، والعذاب والعقاب ، وعدم الإكرام والإيجاب ، وما في هذا الباب .
وقيامة الكفار يوم الحشر ، وقيامه الأحياء في الوقت ، ولشرح هذا تفسير طويل (١)
قوله جل ذكره : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ ﴾

«اللهم» معناها يا الله واليم في آخرها بدل عن حرف النداء وهو يا . فهذا تعليم الحق كيفية
الثناء على الحق ، أى صفنى بما أستحقه من جلال القدر فقل : يا مالك الملك لا شريك لك
ولا معين ، ولا ظهير ولا قرين ، ولا مقاسم لك فى الذات ، ولا مساهم فى الملك ،
ولا معارض فى الإبداع .

﴿ تَوَكَّلْ عَلَى الْمَلِكِ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ
لِلْمَلِكِ مَنْ تَشَاءُ ﴾

حتى نعلم أن الملك لك ، والمليك من المخلوقين من تدلل له ، ومزوع الملك من تكبر
عليه ، فتجمل الخلق فى تدللهم للحق ، وعزهم فى محوهم فيه ، وبقاؤهم فى فناهم به
﴿ وتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ ﴾

بِعِزِّ ذَاتِكَ .

﴿ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ﴾

بِخِذْلَانِكَ

وتعز من تشاء بأن تهديه ليشهدك ويوحده ، وتذل من تشاء بأن يجحدك ويفقدك . وتعز

(١) من كلام القشيري فى هذا الخصوص فى موضع آخر من هذا الكتاب :
(والقيامة عند هؤلاء تقوم كل يوم غير مرة بالهجر والنوى والفراق ، وليس لها كشف غير سبحانه)

من تشاء بيمن إقبالك ، وتذل من تشاء بوحشة إعراضك . وتعز من تشاء بأن توليه بك ،
وتذل من تشاء بأن توحشه عنك . وتعز من تشاء بأن تشغله بك ، وتذل من تشاء بأن تشغله
عنك . وتعز من تشاء بسقوط أحكام نفسه ، وتذل من تشاء بغلبة غاغة نفسه . وتعز من تشاء
بطوالع ألسه وتذل من تشاء بطوارق^(١) نفسه . وتعز من تشاء ببسطه بك ، وتذل من تشاء
بقبضه عنك .

وتؤنى للملك من تشاء بشد نطاق خدمتك ، وتترزع الملك ممن تشاء بنفيه عن بساط
عبادتك^(٢) . تؤنى للملك من تشاء بإفراذ سره لك وتترزع الملك ممن تشاء بأن تربط قلبه
بمخلوق ، وتعز من تشاء بإقامته بالإرادة ، وتذل من تشاء برده إلى ما عليه أهل العادة .

﴿ بيدك الخير ﴾

ولم يذكر الشر حفظاً لأداب الخطاب ، وتفاوتاً بذكر الجليل ، وتطيراً من ذكر السوء .

﴿ إنك على كل شيء قدير ﴾

من الحجب والجذب ، (والنصرة)^(٣) والخذلان ، والأخذ والرد ، والفرق والجمع ،
والقبض والبسط .

قوله جل ذكره : ﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُوجِلُ النَّهَارَ

فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ

وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ، وترزق من

تشاء بنغير حساب ﴾

(١) الطوارق في اللغة ما يطرق بالليل ، وروى عن النبي (ص) أنه كلن يدعو : « وأعوذ بك من شر
طوارق الليل والنهار إلا طارقاً يطرق بخير » .

وعن بعض المشايخ : يطرق معنى علم من علوم أهل الحقائق فلا أدعاه أن يدخل قلبي إلا بعد أن أحضرته
على الكتاب والسنة . (المبع للطومى ص ٤٢٢) .

(٢) وردت (عبادك) والأصوب أن يقال (عبادتك) لأن العبودية لا تلتقي عن مخلوق ، أما العبادة
فهى حالة مخصوصة يمان عليها العبد أو لا يمان ، فالعبد إما في العبادة أو في المادة :

(٣) أضفنا هذه الكلمة من عندنا حتى يتم الانسجام الداخلى للأسلوب ويكون المعنى أوضح ، ونحن
في هذه الإضافة - كدأبتنا دائماً - متمثلين النهج القدى يسلكه القشيري في مثل هذا الموضع .

تولج الليل في النهار حتى يَغْلِبَ سلطانُ ضياءِ التوحيد فلا يَبْقَى من آثار النفس وظلماتها شيء ، وتولج النهار في الليل حتى كأن شمسَ القلوب كُسِفَتْ ، أو كأن الليل دام ، وكان الصبح قُد .

وتخرج الحى من الميت حتى كأن الفترة لم تكن ، وعهد الوصال رجع فتيًا ، وعودُ القلوب صار غصًا طريًا :

وتخرج للميت من الحى حتى كأن شجرة البرم أورقت شوكًا وأزهرت شوكة ، وكان الياثى لم يجد خبرًا ، ولم يشم ريحًا ، وتقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة .

﴿ وترزق من تشاء بغير حساب ﴾

حتى لا (كدر)^(١) ولا جهد ولا عرق جبين ، ولا تعب يمين . ليله روح وراحة ، ونهاره طرب وبهجة ، وساعاته كرامات ، ولحظاته قربات ، وأجناس أفعاله على التفصيل لا يحصرها لسان ، ولا يأتي على استقصاء كتبها عبارة ولا بيان .

وفيا لو حنا من ذلك تقيبه على طريق كيفية الإفصاح عنه .

ويقال لما قال : « وتزرع للملك من تشاء انكسر تخار كل ظان أنه ملك لأنه شاهد ملكه يمرض للزوال فعلم أن التذلل إليه في استبقاء ملكه أولى به من الإعجاب والإدلال .

ويقال الملك في الحقيقة — من لا يشغله شيء بالالتفات إليه عن شهود من هو الملك على الحقيقة .

قوله جل ذكره : ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء

من دون المؤمنين ﴾

من حقائق الإيمان للوالة في الله والمعاداة في الله .

وأولى من تسومه الهجران والإعراض عن الكفار — نفسك ، فإنها مجبولة على

(١) زوج أنها (كد) بدون راء ، ومع ذلك فالعنى يتقبل كليهما .

المجوسية حيث تقول : لى ومنى وبى^(١) ، وقال الله تعالى . « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ^(٢) » .

وإن الإيمان فى هذه الطريقة عزيز ، ومن لا إيمان له بهذه الطريقة من العوام — وإن كانوا قد بلغوا من الزهد والجهد مبلغاً عظيماً — فليسوا بأهل لموالاةك ، والشكل بالشكل أليق .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾^(١) ويحذركم الله نفسه ، وإلى الله المصير ﴿

صحبة الحق سبحانه وقربته لا تكون مقرونة بصحبة الأضداد وقربتهم — ألبنة .
« ويحذركم الله نفسه » : هذا خطاب للخواص من أهل المعرفة ، فأما الذين نزلت رُبَّتْهُمْ من هذا فقال لهم : « واتقوا النار التى . . . » وقال : « واتقوا يوماً ترجعون . . . » إلى غير ذلك من الآيات .

ويقال : « يحذركم الله نفسه » أن يكون عندهم أنكم وصلتم ؛ فإن خفايا المكر تغرى الأكاير ، قال قائلهم :

وَأَمِنْهُ فَاتَّحَ لِي مِنْ مَأْمِي مَكْرًا ، كَذَا مَنْ يَأْمِنُ الْأَحْبَابَا

ويقال « يحذركم الله نفسه » لأن يجرى فى وهم أحد أنه يصل إليه مخلوق ، أو يسطأ بساط العزِّ قَدَمُ همة بشر ، جلَّتْ الأحدية وعزَّتْ !
وإن من ظن أنه أقربهم إليه فى الحقيقة أنه أبعدهم عنه .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إِنْ تَحْفُوا مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تَبْدُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِى السَّمَوَاتِ ﴾

(١) وإلى هذا يشيرون حين يقولون (التوحيد إسقاط الباءات) الرسالة ص ١٤٩ . لأن التوحيد الحق لا يفتفى شعورك بما سوى الموحَّد ، ولكن النفس مجبولة على الدعوى . وهذا شرك خفى .
(٢) سورة التوبة آية ١٢٣ .

وما في الأرض والله على كل شيء
قدير *

لا يَمُزُّبُ معلوم عن علمه ، فلا تَحْكُمُ من نازلة بك تسوءك ، فمن قريب سيأتيك الغوث
والإجابة ، وعن قريب سيزول البلاء والمحنة ، وَيُعْجِلُ المدد والكفاية .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ
خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ
لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ .

وَدَّ أهل الطاعات أَنْ لو استكثروا منها ، وَوَدَّ أهل المخالفات أَنْ لو كبجوا لجأهم عن
الركض في مباديهم ، قال قائلهم :

ولو انني أُعْطِيتُ من دهرى المني وما كلُّ مَنْ يُعْطَى المني بِعُسْدُرٍ
لَقُلْتُ لأيامٍ مَضَيْنِ : ألا ارجى وقلتُ لأيامٍ أُتَيْنِ ألا ابعدى

قوله جل ذكره : ﴿ ويحذركم الله نفسه والله رءوف
بالعباد ﴾ .

الإشارة من قوله : « ويحذركم الله نفسه » للعارفين ، ومن قوله « والله رءوف بالعباد »
للمستأنفين ، فهؤلاء أصحاب العنف والمنوة ، وهؤلاء أصحاب التخفيف والسهولة .

ويقال لما قال : « ويحذركم الله نفسه » اقتضى أسمع هذا الخطاب تحويلهم^(١) فقال
مقرؤنا به « والله رءوف بالعباد » لتحقيق تأميلهم ، وكذلك سُنَّه يطعمهم^(٢) في
عين ما يروعههم .

ويقال أفنهم بقوله « ويحذركم الله نفسه » ثم أحيهم وأبقاهم بقوله « والله رءوف بالعباد »

(١) ربما يقصد القشيري تحويلهم من الخوف إلى الرجاء ، فيمد أن خوفهم نفسه أطمعهم في رافته .
(١) وردت (يطعمهم) وواضح أنها خطأ في النسخ فأصلعناه بما يلائم السياق .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي
يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ
غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

« تحبون الله » فرق ، و « يحببكم الله » جمع .

« تحبون الله » مشوب بالعلّة ، و « يحببكم الله » بلا علة ، بل هو حقيقة الوصلة .
ومحبة العبد لله حالة لطيفة يجدها من نفسه ، وتحمله تلك الحالة على موافقة أمره على الرضا دون
الكراهية ، وتقضى منه تلك الحالة إثاره — سبحانه — على كل شيء وعلى كل أحد .
وشرط المحبة ألا يكون فيها حظٌ بحال ، فمن لم يَفَنَّ عن حظوظه بالكلية فليس له من
المحبة شظية .

ومحبة الحق للعبد إرادته إحسانه إليه ولطفه به ، وهي إرادة فضلٍ مخصوص ، وتكون
بمعنى ثنائه سبحانه عليه ومدحه له ، وتكون بمعنى فضله المخصوص معه ، فعلى هذا تكون
من صفات فعله .

ويقال شرط المحبة امتحاء كليتك عنك لاستهلاكك في محبوبك ، قال قائلهم .

وما الحب حتى تنزف العين بالبكا وتخرس حتى لا تجيب للناديا

وهذا فرق^(١) بين الحبيب والخليل ؛ قال الخليل : « فمن تبعني فإنه مني » .

وقال الحبيب : « فاتبعوني يحببكم الله » .

فإن كان مُتَّبِعُ الخليل « منه » إفضالاً فإن متابع الحبيب محبوب الحق سبحانه ،
وكفى بذلك قرينة وحالا .

ويقال قطع أطاع الكافة أن يسلم لأحد نفس إلا ومقتدام وإمامهم سيد الأولين والآخرين
محمد صلى الله عليه وسلم .

ويقال في هذه الآية إشارة إلى أن المحبة غير معلولة وليست باجتلاب طاعة ، أو التجرد

(١) وردت (فراق) وهي خطأ من الناسخ ، إذ المراد التفرقة بين موقف المصطفى (ص) وإبراهيم
عليه السلام .

عن آفة لأنه قال يحبكم الله ويفرلكم ذنوبكم ، بين أنه يجوز أن يكون عبده له فنون كثيرة
ثم يحب الله ويحبّه الله .

ويقال قال أولاً : « يحبكم الله » ثم قال : « ويفرلكم ذنوبكم » والوار يقتضى الترتيب
ليُعلم أن المحبة سابقة على الغفران ؛ أولاً يحبهم ويحبونه (وبعده) يفر لهم ويستغفرونه ،
فالمحبة توجب الغفران لأن العفو يوجب المحبة .

والمحبة تشير إلى صفاء الأحوال ومنه حبّ الأسنان^(١) وهو صفاؤها .

والمحبة توجب الاعتكاف بحضرة المحبوب في السر .

ويقال أحب البعير إذا استناخ فلا يبرح بالضرب .

والحب حرقان حاء وباء ، والإشارة من الحاء إلى الروح ومن الباء إلى البدن ، فالحب
لا يدّخر عن محبوبه لا قلبه ولا بدنه .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا

فإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ .

أمرهم بالطاعة ثم قال : « فإن تولوا » أى قصّروا فى الطاعة بأن خالفوا ، ثم قال : « فإن الله
لا يحب الكافرين » لم يقل العاصين بل قال الكافرين ، ودليل الخطاب أنه يحب المؤمنين
وإن كانوا عصاة^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنْ اللَّهُ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ

إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾

ذرية بعضها من بعض والله

سميع عليم ﴾

اتفق آدم وذريته فى الطينة ، وإنما الخصوصية بالاصطفاء الذى هو من قبيله ، لا بالنسب
ولا بالسبب .

(١) وردت (الإنسان) وهى خطأ من الناسخ (أنظر الرسالة ص ١٥٨) .

(٢) فالؤمن العاصى منزلة بين المنزلتين : الإيمان والكفر . فى نظر القشبرى المتكلم .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ قَالَت امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾
فلما وضعتها قالت رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا
أُنْثَىٰ ، والله أعلم بما وضعت ، وليس
الذكر كالأنثى ، وإني سميتها مريم
وإني أعيندها بك وذريتها من
الشیطان الرجیم ۞ .

المحرر الذي ليس في رق شيء من المخلوقات ، حرره الحق سبحانه في سابق حكمه عن
رق الاشتغال بجميع الوجوه والأحوال . فلما نذرت أم مريم ذلك ، ووضعتها أنثى خجلت ،
فلما رأتها قالت « ربّ إني وضعتها أنثى » وهي لا تصلح أن تكون محرراً فقال تعالى :
« والله أعلم بما وضعت » ولمعنى ليس الذكر كالأنثى في الظاهر ، ولكن إذا تقبلها الحق
- سبحانه وتعالى - طلع عنها كل أعجوبة .

ولما قالت « إني نذرت لك ما في بطني محرراً » قالت « فتقبل مني » باستعجاب ،
وظهرت آثار القبول عليها وعلى ابنها ، ونجا بحديثها عالم وهلك بسببها عالم ، ووقعت الفتنة
لأجلهما في عالم .

قالت : « وإني سميتها مريم وإني أعيندها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » استجارت
بالله من أن يسكون للشيطان في حديثها شيء بما هو الأسهل ، لتنام مأم به من أحكام القلوب .

قوله جل ذكره : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا
نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۝ ﴾

حيث بلغها فوق ما تمنّت أمها ، ويقال تقبلها بقبول حسن حتى أفرد لها لطائفه ،
وتولّاها بما تولى به أوليائه ، حتى أفضى جميع من في عصرها العجب من حسن توليه أمرها ،
وإن كانت بنتاً .

ويقال القبولُ الحسنُ حينَ تربيته لهما مع علمه — سبحانه — بأنه يُقال فيه بسببها ما يُقال ، فلم يُبالِ بِقُبْحِ مقال الأعداء .

أجد الملامة في هوالكِ لذِبةً حُبّاً لذكرك فليلمني اللومُ

وكما قيل :

ليقل من شاء ما شاء فإني لا أبالي

ويقال القبول الحسن أن ربّهما على نعت العصمة حتى كانت تقول : « إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً » .

« وأنبأها نباتاً حسناً » حتى استقامت على الطاعة ، وآثرت رضاه — سبحانه — في جميع الأوقات ، وحتى كانت الثمرة منها مثل عيسى عليه السلام ، وهذا هو النبات الحسن ، وكفلها زكريا . ومن القبول الحسن والنبات الحسن أن جعل كافلها والقيّم بأمرها وحفظها نبياً من الأنبياء مثل زكريا عليه السلام ، وقد أوحى الله إلى داود عليه السلام : « إن رأيتَ لي طالباً فكنْ له خادماً » .

قوله جل ذكره : ﴿ كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ

وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ، قَالَ : يَا مَرْيَمُ

أَنَّى لَكَ هَذَا ؟ قَالَتْ : هُوَ مِنِّي

عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ

بغير حساب ﴾ .

من أمارات القبول الحسن أنها لم تكن توجد إلا في المحراب ، ومن كان مسكنه وموضعه الذي يتعبّد فيه وهناك يوجد المحراب — فذلك عبّدٌ عزيز .

ويقال من القبول الحسن أنه لم يطرح أمرها كلّهُ وشغلّها على زكريا عليه السلام ؛ فكان إذا دخل عليها زكريا ليتعهدّها بطعام وجدّ عندها رزقاً ليعلّم العاملون أن الله — سبحانه — لا يُلقِي شُغْلَ أوليائه على غير^(١) ، ومن خدم ولياً من أوليائه كان هو في رفق الولي لا إله

(١) وردت على (عين) وهي خطأ في النسخ :

تكون عليه مشقة لأجل الأولياء . وفي هذا إشارة لمن يخدم الفقراء أن يعلم أنه في رفق الفقراء .
ثم كان زكريا عليه السلام يقول : **أَتَى لَكَ هَذَا ؟** لأنه لم يكن يعتقد فيها امتحاق تلك
للنزلة ، وكان يخاف أن غيره يغلبه ويتهمز فرصة تعهدها ويسبقه بكفاية شغلها ، فكان يسأل
ويقول : **أَتَى لَكَ هَذَا ؟ ومن أتاك به ؟**

وكانت مريم تقول : **هو من عند الله** لا من عند مخلوق ، فيكون لزكريا فيه راحتان :
إحداها شهود مقامها وكرامتها عند الله تعالى ، والثانية أنه لم يغلبه أحد على تعهدها ، ولم يسبق
به . قوله « **كلما دخل عليها زكريا المحراب** » فلفظة **كلما** للتكرار ^(١) وفي هذا إشارة : وهو أن
زكريا عليه السلام لم يندّر **تعهدّها** — وإن وجد عندها رزقا — بل كل يوم وكل وقت كان
يتفقد حالها لأن كرامات الأولياء ليست مما يجب أن يدوم ذلك قطعاً ، فيجوز أن يظهر الله
ذلك عليهم دائماً ، ويجوز ألا يظهر ، فما كان زكريا عليه السلام يعتمد على ذلك فيترك تفقد
حالها ، ثم كان يجدد السؤال عنها بقوله : **« يا مريم أتى لك هذا ؟ »** لجواز أن يكون الذي
هو اليوم لا على الوجه الذي كان بالأمس ، فإنه لا واجب على الله سبحانه ^(٢)

وقوله : **« إن الله يرزق من يشاء بغير حساب »** إيضاح عن عين التوحيد ، وأن رزقه
للعباد ، وإحسانه إليهم بمقتضى مشيئته ، دون أن يكون مُمَلَّلاً بطاعتهم ووسيلة عباداتهم .

قوله جل ذكره : **﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾**

أى لما رأى كرامة الله سبحانه معها ازداد يقيناً على يقين ، ورجاء على رجاء ، فسأل الولد
على كبر سنه ، وإجابته إلى ذلك كانت تقضاً للعادة .

(١) أى لتكرار زيارة زكريا لها مرة بعد مرة .

(٢) هنا إشارة دقيقة تتصل بمذهب التشيرى — الذى يخالف المعتزلة — أنه لا وجوب على الله فى إجابة
المطيع ، لأن طاعة المطيع ليست زينة لله ، ومعصيته ليست شيئاً لله ، وإنما المول عليه فضل الله وهذا
لا علاقة له ، ولا وجوب على الله فيه .

ويقال إن زكريا عليه السلام سأل الولدَ ليكونَ عوناً له على الطاعة ، ووارثاً من نسله في النبوة ، ليكون قائماً بحق الله ، فلذلك استحق الإجابة ؛ فإن السؤال إذا كان لحق الحق — لا لحظ النفس — لا يكون له الرد^(١) .

وكان زكريا عليه السلام يرى الفاكهة الصيفية عند مريم في الشتاء ، وفاكهة الشتاء عندها في الصيف ، فسأل الولد في حال الكبر ليكون آية ومعجزة .

قوله جل ذكره : ﴿ فَتَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ ﴾ .

لما سأل السؤال ، ولأزم الباب أتته الإجابة .

وفيه إشارة إلى أن من له إلى الملوك حاجة فعليه بملازمة الباب إلى وقت الإجابة .

ويقال حكم الله — سبحانه — أنه إنما يقبل بالإجابة على من هو مُعَاتِقٌ لخدمته ، فأما مَنْ أَعْرَضَ عن الطاعة ألقاه في ذلّ الوحشة .

قوله جل ذكره : ﴿ أَنْ اللَّهُ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

قيل سمّاه يحيى حياة قلبه بالله ، ولسان التفسير أنه حيى به غفر أمه .

ويقال إنه سبب حياة من آمن به بقلبه .

قوله : مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ : أن تصديقه بكلمة « الله » فيما تعبد به أو هو مكوّن بكلمة الله .

وقوله « وسيداً » : السيّد من ليس في رق مخلوق ، تحرّر عن أسر هواه وعن كل مخلوق ، ويقال السيد من تحقق بعلويته سبحانه ، ويقال السيد من طاق أهل عصره ، وكذلك كان يحيى عليه السلام .

(١) الرد هنا معناها الرفض .

ويقال سيد لأنه لم يطلب لنفسه مقاما ، ولا شاهدًا لنفسه قَدْرًا . ولما أخلص في تواضعه
لله بكل وجه رَقَّاه على الجملة ، وجعله سيدا للجميع .

وقوله « وحسورا » أى مُتَعَمِّقا من الشهوات ، مكفيا أحكام البشرية مع كونه من جملة
البشر . ويقال متوقيا عن المطالبات ، مانعا نفسه عن ذلك تعززا وتقربا ، وقيل منعه
استتصالات بواده الحقائق عليه فلم يبق فيه فضلٌ لحظٌّ .

« ونبيا من الصالحين » أى مستحقا لبلوغ رتبهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ رَبِّ أُنَّى يَكُونُ لِي غَلامٌ
وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ
قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ .

قيل كان بين سؤاله وبين الإجابة مدة طويلة ولذلك قال : أُنَّى يَكُونُ لِي غَلامٌ ؟

ويحتمل أنه قال : بأى استحقاقٍ منى تكون لى هذه الإجابة لولا فضلك ؟

ويحتمل أنه قال أُنَّى يَكُونُ هذا : أَعْلَى وجه التبنى أم على وجه التناسل ؟

ويحتمل أنه يكون من امرأة أخرى سوى هذه التى طفت فى السن أو من جهة
التسرى بمملوكة ؟ أم من هذه ؟

فقيل له : لا بَلَّ مِنْ هَـنْه ؛ فَإِنكَا قاسيتا وحشة الافراد معا ، فكذلك تكون بشارة
الولد لكما جميعا .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ

أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ﴾

طلب الآية ليعلم الوقت الذى هو وقت الإجابة على التعيين لا لشكٍ له فى أصل الإجابة .

وجعل آية ولايته^(١) فى إمساك لسانه عن المخلوقين مع انطلاقها مع الله بالتسبيح ، أى
لا تمتنع عن خطابى فأنى لا أمتنع أولياى من مناجاتى .

(١) وردت (دلالتہ) وقد تكون مقبولة فى المعنى أيضا .

قوله جل ذكره : ﴿واذكر ربك كثيرا﴾ .

بقلبك ولسانك في جميع أوقاتك .

﴿وسبح بالعشي والإبكار﴾ .

في الصلاة الدائمة .

قوله جل ذكره : ﴿واذ قالت الملائكة يا مريم إن الله

اصطفاك وطهرتك واصطفاك على

نساء العالمين﴾ .

يجوز أن يكون هذا ابتداء خطاب من الملائكة على مريم من قبلهم رفعا بشأنها ، ويجوز أن تكون قد سمعت كلامهم وشاهدتهم ، ويجوز أنها لم تشاهدهم وأنهم هتفوا بها : إن الله اصطفاك بتفضيلك ، وإفرادك من أشكالك وأندادك ، وطهرتك من الفحشاء والمعاصي بجعل المعصية ، وعن مباشرة الخلق^(١) ، واصطفاك على نساء العالمين في وقتك .

وفائدة تكرار^(٢) ذكر الاصطفاء : الأول اصطفاك بالكرامة والمنزلة وعلو الحالة والثاني اصطفاك بأن تحلت ببس على السلام من غير أب ، ولم تشبهك امرأة — ولن تشبهك — إلى يوم القيامة ، ولذلك قال « على نساء العالمين » .

قوله جل ذكره : ﴿يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي

مع الراكعين﴾ .

لازمي بساط العبادة ، وداومي على الطاعة ، ولا تقصري في استدامة الخدمة ، فكما أفردك الحق بمقامك ، كوني في عبادته أو حد زمانك .

قوله جل ذكره : ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك

(١) ربما يقصد القشيري من ذلك أنه أبداها عن أن يباشرها الزوج شأن نساء العالمين .

(٢) لاحظ كيف يلتبس القشيري معنى متجدداً لكلمة تتكرر بلفظها — لأنه لا يرى أن في القرآن تكراراً إلا لداع متجدد .

وما كنتَ لديهم إذ يُلقون
أقلامهم أيهم يكفلُ مريمَ وما كنتَ
لديهم إذ يختصمون ﴿١﴾

أى هذه القصص نحن عرفنا كهاو (خا) طبنالك بمعانيها ، وإن قصصنا نحن عليك
هذا — فعزيزُ خطابنا ، وأعزُّ وأتمُّ من أن لو كنتَ مشاهداً لها .

قوله جل ذكره : ﴿١﴾ إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله
يُبشِّرُكِ بكلمةٍ منه اسمُه المسيح
عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا
والآخرة ومن المقربين . وَيُكَلِّمُ
الناسَ في المهدِ وكهلاً ومن
الصالحين ﴿٢﴾

لم يُبشِّرْها بنصيب لها في الدنيا ولا في الآخرة من حيث الحفظ ، ولكن بشَّرها
بما أثبت في ذلك من عظيم الآية ، وكونه نبياً لله مؤيداً بالمعجزة .

ويقال عرِّفها أن مَنْ وقع في تغليب القدرة ، وانتهى عند حكمه يلقى من عجائب القدرة
ما لا عهد به لأحد . ولقد عاشت مريم مدةً بحمى الصيت ، والاشتهار بالعفة ، فشوش
عليها ظاهر تلك الحال بما كان عند الناس بسبب استحقاق ملام ، ولكن — في التحقيق —
ليس كما ظنَّه الأغبياء^(١) الذين سكروا أبصارهم من شهود جريان التقدير .

وقيل إنه (.....)^(٢) عرِّفها ذلك بالتدرج والتفصيل ، فأخبرها أن ذلك
الولد يعيش حتى يُكَلِّمَ الناس صبيهاً وكهلاً ، وأن كيد الأعداء لا يؤثر فيه .
وقيل كهلاً بعد نزوله من السماء .

ويقال ربط على قلبها بما عرِّفها أنه إذا لم ينطق لسانها بذكر براءة ساحبها يُنطقُ الله
عيسى عليه السلام بما يكون دلالة على صدقها وجلالها .

(١) وردت (الأغبياء) والمعنى والبقا يرفضانها .

(٢) مشبهة .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ

وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ، قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ
يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾

كما شاهدت ظهور أشياء ناقضة للعادة في رزقنا فكذلك ننقض العادة في خلق ولدٍ من
غير مسيس بشر .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا ﴾

أَيُّ أَرَادَ إِمضَاءَ حُكْمٍ .

﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾

فَلَا يَتَعَسَّرُ عَلَيْهِ إِبْدَاءٌ وَلَا إِنْشَاءٌ .

ولما بسطوا فيها لسان الملامة أنطق الله نبيي عليه السلام وهو ابن يومٍ حتى قال :

﴿ أَنَّى قَدْ جِئْتُمْ بَآيَةً مِنْ رَبِّكُمْ ﴾

قوله جل ذكره : ﴿ وَيُعَلِّمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ

وَالْإِنْجِيلَ * وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي

إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُمْ بَآيَةً مِنْ

رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ

كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ

طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ

وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ

وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ

فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ

إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾

وتلك آياته الظاهرة ، ودلالاته القاهرة الباهرة من إحياء الموتى ، وإبراء الأكـ

والأبرص ، والإخبار عما عملوه مُسرِّين به ، إلى غير ذلك من معجزاته . وأخبر أنه

مصدق لما تقدمه من الشرائع ، ومختص بشريعة تنسخ بعض ما تقدمه ، وأقرم على البعض — على ما نطق به تفصيل القرآن .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ ﴾ الآية .

حين بلغهم الرسالة واختلفوا — فمنهم من صدقه ومنهم من كذبه وهم الأكثرون — علم أن النبوة لا تنفك عن البلاء وتسليط الأعداء ، فقطع عنهم قلبه ، وصدق إلى الله قصده ، وقال لقومه : مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ لِيَسَاعِدُونِي عَلَى التَّجَرُّدِ لِحَقِّهِ وَالْخُلُوصِ فِي قَصْدِهِ ؟ فقال مَنْ أبسطت عليهم آثار العناية ، واستخلصوا بآثار التخصيص : نحن أنصار الله ، آمنا بالله ، واشهد علينا بالصديق ، وليس يشكلك (١) شيء مما نحن فيه .

﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبِعْنَا الرُّسُولَ
مَا كَتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾

وأما الباقون فجدُّوا في الشقاق ، وبالفوا في العداوة ، ودشوا له المكائد ، ومكروا ولكن أذاقهم الله وبال مكرهم ، فتوهموا أنهم صلبوا عيسى عليه السلام وقتلوه ، وذلك جهل منهم ، ولَبَّسُ عَلَيْهِمُ . فَاللَّهُ — سبحانه — رفع عيسى عليه السلام نبيه ووليّه ، وحَقَّ الطَّرْدُ وَاللَّعْنُ عَلَى أَعْدَائِهِ ، وَهَذَا مَكْرُهُ بِهِمْ :
﴿ وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ، وَاللَّهُ خَيْرُ

الْمَاكِرِينَ ﴾

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ﴾
الإشارة (٢) فيه إني متوفيك عنك ، وقابضك منك ، ورافعك من نعوت البشرية ، ومطهرك من إرادتك بالكلية ، حتى تكون مُصَرِّقًا بِنَا لَنَا ، ولا يكون عليك من

(١) ترجح أنها في الأصل : « يشكلك (علينا) شيء مما نحن فيه » ، لأن هذا الترجيح يقوى المعنى ، إذ يفصح عن مدى صحة إيمانهم ، أما إذا كانت (عليك) فيكون المعنى أن أنصاره طمأنوه عن أنفسهم ، وطلبوا إليه ألا يتشكك (عليه) أمر من أمورهم ، بدليل ما أفصحوا عنه في الآية التالية .
(٢) تخدم هذه الإشارة في إبراز وتدعيم واحدة من أخطر قضايا الفكر الديني .

اختيارك شيء ، ويكون إسبال التولى عليك قائماً عليك . وبهذا الوصف كان يظهر على يده إحياء الموتى ، وما كانت تلك الأحداث حاصلة إلا بالقدره — جَلَّتْ .
ويقال طَهَّرَ قلبه عن مطالعة الأغيار ، ومشاهدة الأمثال والآثار ، في جميع الأحوال والأطوار .

﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ
كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾

بالنصرة والقهر والحجة .

ومنبعوه مَنْ لم يُبَدِّل دِينَهُ وَمَنْ هو على عقيدته في التوحيد — وهم المؤمنون ، فَبِهِمْ على الحق ، إلى يوم القيامة لهم النصرة ، ثم إن الله سبحانه يحكم — يوم القيامة — بينه وبين أعدائه . فَأَمَّا الْكُفَّارُ فِي الْحَجِيمِ وَأَمَّا لِلْمُؤْمِنِينَ فَنُورٌ فِي النَّعِيمِ .

قوله جل ذكره : ﴿ ذَلِكَ تَتْلُو عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ
وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾

ذلك تتلوه عليك يا محمد ، نعرفك معانيه بما نوحى إليك ، لا بتكلفك ما تصل إلى عليه ، أو بتعلُّك من الأمثال ، أو استنباطك ما تتزع من الاستدلال .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ
آدَمَ ... ﴾ الآية

خَصَّيْمَا^(١) بتطهير الروح عن التناسخ في الأصلاب وأفرد آدم بصفة البدء ، وعيسى عليه السلام بتخصيص نفخ الروح فيه على وجه الإعزاز ، وهما وإن كانا كبيرى الشأن فنقص الحدثان والمخلوقية لازم لهما :

﴿ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾

قوله جل ذكره : ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ... ﴾ الآية

(١) وردت (خصما) والصحيح خصيما لمودة الفعل على آدم وعيسى عليهما السلام .

الحق من ربك يا محمد ، فلا تُشكَّنْ في أنه — سبحانه — لا يمثله في الإيجاد أحدٌ ، ولا على إثبات بينه لمخلوق قدرة . والموجودات التي (...)^(١) وجودها عن كتم العدم — من الله مبدؤها وإليه عودها .

قوله جل ذكره : ﴿ فَنَحْجُوكَ فِيهِ ... ﴾ الآية
يعنى بعدما ظهرت على صديق ما يقال لك ، وتَحَقَّقَتْ بقلبك معرفة ما خاطبك ، فلا تحشم من حملهم على المباهلة ، وثق بأن لك القهر والنصرة ، وأنا توليناك ، وفي كنف قُرْبنا آويناك ، ولو أنهم رغبوا في هذه المباهلة لأحرقت الأودية عليهم نيراناً مؤججة ، ولكن أخر الله — سبحانه — ذلك عنهم لعله يبين في أصلابهم من المؤمنين^(٢) .
والإشارة في هذه الآية لِمَنْ نزلت حالك عن أحوال الصديقين ، فإنه إذا ظهرت أنوارهم انخست آثار هؤلاء فلا إقرار ، ولا عنهم آثار .

قوله جل ذكره : ﴿ إِن هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ﴾
لا يتسلط على شواهد التوحيد غبار شبهة ، ولا يدرك سر حكمة وهم^(٣) مخلوق ، ولا يدانيه معلوم يحصره الوجود ، أو موهوم يصوره التقدير^(٤) .

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾
فإن تولوا — يا محمد — فإنه لا ثبات عند شعاع أنوارك لشبهة مبطل .
« فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ » إِمَّا يَجْتَاحُهُمْ^(٥) ، أَوْ يَحْلُمُ^(٦) حتى إذا استمكن ظنونهم يأخذهم بقتة وهم لا يتصرون .

(١) مشبهة .

(٢) هذا تعليل ممتنع لإمهال المخالفين .

(٣) وردت (وهو) وهي خطأ من الناسخ ، ونظن أن الأصل (وهم) وهي مناسبة للسياق .

(٤) للقشيري عبارة في نفس الموضوع وردت في مستهل رسالته : « وكل ما تصوره الأوهام فأنه

بخلاف ذلك » .

(٥) وردت (يجتاحهم) وهي خطأ من الناسخ .

(٦) وردت (ويحكم) والملائم للمعنى (أو يحلم) من الحلم ، ويكون المعنى على هذا الأساس أنه إما أن

يعجل بانتقامه فيجتاحهم أو يحلمهم بحلمه ثم يفتشهم .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ
سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ الآية

هي كلمة التوحيد وإفراد الحق سبحانه في إنشاء الأشياء بالشهود .
وقوله : « أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ » : لا تطالع بسرك مخلوقاً . وكما لا يكون غيره معبودك
فينبغي ألا يكون غيره مقصودك ولا مشهودك ، وهذا هو اتقاء الشرك ، وأنت أول الأغيار
الذين يجب ألا تشهدم .

« وَلَا يَتَّخِذْ بَعْضُنَا آرِبَابًا » ويظهر صدق هذا بترك المدح والذم لهم .
ونفى الشكوى والشك عنهم ، وتنظيف السر عن حسابان خرة من الحو والإثبات منهم
قال صلى الله عليه وسلم « أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَتْهَا الْعَرَبُ قَوْلُ لَبِيدٍ » .

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ وكل نعيم لا محالة زائل^(١)
فإن الذي على قلوبهم من المشاق أشد . وأما أهل البداية فالأمر مضيق عليهم في الوظائف
والأوراد ، فسيلهم الأخذ بما هو الأشق والأصعب ، لفراغهم بقلوبهم من المعاني^(٢) ، فمن
ظن بخلاف هذا فقد خلط .

والإشارة من هذه الآية أيضاً في قوله جل ذكره :

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ
فِي إِبْرَاهِيمَ ﴾ . . . الآية .

ضرب على خليله — صلوات الله — تقاب الضئنة وحجاب الغيرة ، فقطع سببه عن
جميعهم بعد ادعاء الكل فيه ، وحكم بتعارض شبهاتهم ، وكيف يكون إبراهيم — عليه السلام —
على دين من أتى بعده ١٢ إن هذا تناقض من الظن .
ثم قال :

﴿ مَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجِّجَتُمْ فِيهَا لَكُمْ

(١) رواه الشيخان عن أبي هريرة .

(٢) المقصود من (المعاني) هنا كل ما تميل إليه النفس ، والنفس عمل المطولات .

به علم ، فلم تُحاجون فيما ليس لكم به

علم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴿

يعنى ما كان فى كتابكم له بيان ، ويصح أن يكون لكم عليه برهان ، فخصّهم فى ذلك
إمّا بحق وإمّا بباطل ، فالذى ليس لكم البتة عليه دليل ولا لكم إلى معرفته سبيل فكيف
تصدّيق للحكم فيه ، وأدعاء الإحاطة به ؟

قوله جل ذكره : ﴿ ما كان لإبراهيم يهودياً ولا نصرانياً

ولكن كان حنيفاً مسلماً ﴾

الحنيف المستقيم على الحق ، والأحنف هو للمستقيم فى حلقة الرُّجل ، ويسى مائل القدم
بذلك على التفاضل^(١) . وإبراهيم عليه السلام كان حنيفاً لا مائلاً عن الحق ، ولا زائغاً عن الشرع ،
ولا معرجاً على شئ فيه نصيب للنفس ، فقد سلم ماله ونفسه وولده ، وما كان له به جملة —
إلى حكم الله وانتظار أمره .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ

اتبعوه ، وهذا النبي ، والذين آمنوا ،

والله وليُّ المؤمنين ﴾

لما تفرقت الأهواء والبدع وصار كل حزب إلى خطأ آخر ، بقى أهل الحق فى كل عصر
وكل حين ووقت على الحجة المثلى ، فكاتبوا حزباً واحداً ، فبعضهم أَوَّلَى ببعض . وإبراهيم
صاحب الحق ، ومن دان بدينه — كمثل رسولنا صلى الله عليه وسلم وأُمته — على الدين الذى
كان عليه إبراهيم عليه السلام وهو توحيد الله سبحانه وتعالى .

« والله وليُّ المؤمنين » لأنهم تولّوا دينه ، ووافقوا توحيده ، وولاية الله إنما تكون
بالعون والنصرة والتخصيص والقربة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ

لَوْ يَضُلُّوكُمْ وَمَا يَضُلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ﴾

من حلّت به فتنة ، وأصابته محنة ، واستهوته غواية — رضى لجميع الناس ما حلّ به ،

(١) فكلية حنيف من الأضداد = مستقيم ومائل .

فأهل الكتاب يريدون بالمؤمنين أن يزيغوا عن الحق ، ولكن أباي الله إلا أن يتم نوره ،
وأن يعود إليهم وبإل فعلهم .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ
بآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾

قِيلَ^(١) بعثه — صلى الله عليه وسلم — على صحة نبوته^(٢) ، فما الذي يحملكم على غيكم
حتى جحدتم ما علمتم ؟

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ
بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴾

تكتُمون الحق في شأن محمد عليه السلام وأنتم تعلمون أنه النبي الصادق ، وهل هذا
إلا حكم الخذلان وقضية الحرمان ، ثم أخبر أن منهم من ينافق في حاله ، فيريد أن يدفع عنه أذى
المسلمين ، ولا يخالف إخوانه من الكافرين ، فتواصوا فيما بينهم بموافقة الرسول عليه السلام
والمسلمين جهراً ، والخلوص في عقائدهم الفاسدة بعضهم مع بعض سراً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
آمَنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَيَّ الَّذِينَ آمَنُوا
وَجَاءَ النَّهَارُ وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ ﴾

فبين الله سبحانه أن نفاقهم كشف للمسلمين ، وأن ذلك لا ينفعهم أمّا في الدنيا فلا اطلاع
الله نبيه عليه السلام والمؤمنين — عليه ، وأمّا في الآخرة فلنفقد إخلاصهم فيه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَوَمِّنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ الآية .

(١) في ص (قيل) وهي خطأ في النسخ ، ويكون المعنى أنتم — يا أهل الكتاب — تشهدون قبل بعثه
على صحة نبوته ...

(٢) في ص (نبوة) وهي خطأ في النسخ .

يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا ابْتِدَاءً أَمْرٍ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ لِلْمُسْلِمِينَ ، وَالْإِشَارَةُ فِيهِ أَلَّا تَعَاشِرُوا
الْأَضْدَادَ ، وَلَا تَفْشُوا أَسْرَارَكُمْ لِلْأَجَانِبِ .

﴿ قُلْ إِنْ الْفَضْلُ بِيَدِ اللَّهِ ﴾

فَهُوَ الَّذِي يَخْتَصُّ مِنْ يَشَاءُ بِأَتَوَارِ التَّعْرِيفِ ، وَيَخْتَصُّ مِنْ يَشَاءُ بِالْخِذْلَانِ وَالْحَرَمَانِ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ

ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾

يَخْتَصُّ مِنْ يَشَاءُ بِفَنُونِ إِنْعَامِهِ ، فَالرَّحْمَةُ عَلَى هَذَا سَبَبٌ لِتَخْصِيسِ النِّعَةِ لِمَنْ أَرَادَهُ . وَلَا بُدَّ
مِنْ إِضْهَارِ فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَخْتَصُّ بِالرَّحْمَةِ مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَجْرَى الرَّحْمَةُ بِمَجْرَى السَّبَبِ فَالرَّحْمَةُ عَلَى هَذَا
التَّأْوِيلِ تَكُونُ بِمَعْنَى النُّبُوَّةِ وَتَكُونُ بِمَعْنَى الْوَلَايَةِ .

وَبِمَعْنَى الْعَصْمَةِ وَجَمِيعِ أَقْسَامِ الْخَيْرَاتِ الَّتِي يَخْتَصُّ — بِشَيْءٍ مِنْهَا — عَبْدًا مِنْ عِبَادِهِ ،
فَيَدْخُلُ تَحْتَ قَوْلِهِ : يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ ، أَيْ بِنِعْمَتِهِ .

فَقَوْمٌ اخْتَصَّ بِنِعْمَةِ الْأَخْلَاقِ وَقَوْمٌ اخْتَصَّ بِنِعْمَةِ الْأَرْزَاقِ ، وَقَوْمٌ اخْتَصَّ بِنِعْمَةِ الْعِبَادَةِ
وآخَرِينَ بِنِعْمَةِ الْإِرَادَةِ ، وَآخَرِينَ بِتَوْفِيقِ الظُّوَاهِرِ وَآخَرِينَ بِمَطَاءِ الْأَبْشَارِ ، وَآخَرِينَ بِمِلْقَاءِ
الْأَسْرَارِ ، قَالَ تَعَالَى : « وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا » .

وَيُقَالُ لَمَّا سَمِعُوا قَوْلَهُ : « يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ » ، عَلِمُوا أَنَّ الْوَسَائِلَ لَيْسَتْ بِهَادِيَةٍ (١) ،
وَلَمَّا أَمَرَ بِالْإِبْتِدَاءِ وَالْمَشِيشَةِ .

وَيُقَالُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ بِالنِّهَمِ عَنْهُ فَمَا يَكْشِفُهُ بِهِ مِنَ الْأَسْرَارِ وَيُلْقِيهِ إِلَيْهِ مِنْ
فَنُونِ التَّعْرِيفَاتِ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ

بِقَنْطَارٍ يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ . وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ

تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ ﴾ .. الْآيَةُ

(١) وَصَدَّقَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ حِينَ قَالَ : « إِنَّهُ لَنْ يَدْخُلَ أَحَدُكُمْ الْجَنَّةَ عَمَلُهُ ، قَالُوا : وَلَا أَنْتَ
يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : وَلَا أَنَا . إِلَّا أَنْ يَتَغَدَّنِيَ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ » رَوَاهُ الشَّيْخَانُ عَنْ عَائِشَةَ

أخبر أنهم — مع ضلالهم وكفرهم — متفاوتون في أخلاقهم ، فكلُّهم خَوَنَةٌ في أمانة الدِّين ، ولكنَّ منهم من يرجع إلى سداد للعامة ، ثم وإن كانت معاملتهم بالصدق فلا ينفعهم ذلك في إيجاب الثواب ولكن ينفعهم من حيث تخفيف العذاب ؛ إذ الكفار مُطَالَبُونَ بتفصيل الشرائع ، فإذا كانوا في كفرهم أقلَّ ذنباً كانوا بالإضافة إلى الأخسرين أقلَّ عذاباً ، وإن كانت عقوبتهم أيضاً مؤبَّدة .

ثم يبيِّن أنه ليس الحكم إليهم حتى إذا :

﴿ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيْنَ سَبِيلٌ ﴾

فلا تجري عليهم هذه الحالة ، أو تنفعهم هذه القالة ، بل الحكم لله تعالى .

قوله جلَّ ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَدْوِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ

ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي
الْآخِرَةِ وَلَا يَكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ
إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَزَكِّيهِمْ ، وَلَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

الذين آثروا هوامهم على عُقْبَاهُمْ ، وقدَّموا منافعهم على موافقة مولاهم أولئك لا نصيب لهم في الآخرة ؛ فللاستمتاع بما اختاروا من العاجل خسروا في الدارين .

بقوا عن الحق ، وما استمتعوا بحظٍّ ، جَمَعَ عليهم فنون اليمِّحَن ولكنهم لا يدرون ما أصابهم : لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكِّيهم ، ثم مع هذا يُخَلَّدُهم في العقوبة الأبدية .

قوله جلَّ ذكره : ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ

بِالْكِتَابِ لِيُخَسِّبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ ،
وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ ، ويقولون
هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ
اللَّهِ ، ويقولون عَلَى اللَّهِ الْكُذْبُ
وَمَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

الإشارة من هذه الآية إلى المبطلين في الدعاوى في هذه الطريقة .

يزينون العبارات ، ويطلقون ألسنتهم بما لا خبرَ في قلوبهم منه ، ولا لهم بذلك تحقيق ،
تليسياً على الأغبياء والعوام وأهل البداية ، يوهمون أن لهم تحقيق ما يقولونه بألسنتهم .
قال تعالى في صفة هؤلاء « لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب » ، كذلك أرباب
التليس والتدليس ، يروّجون قائلهم على المستضعفين ، فأما أهل الحقائق فأسرارهم عندهم
مكشوفة .

قال الله تعالى « ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » ، أى يعلمون أنهم كاذبون ،
كذلك أهل الباطل والتليس في هذه الطريقة يتكلمون عن قلوب خربة ، وأسرار محجوبة ،
نعوذ بالله من استحقاق للقت !

قوله جل ذكره : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ
وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ ، ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ
كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ ،
وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ
تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ
تَدْرُسُونَ ﴾ .

أى ليس من صفة مَنْ اخترناه للنبوّة واصطفيناه للولاية أن يدعو الخلق إلى نفسه ،
أو يقول بإثبات نفسه وحظّه ، لأن اختياره — سبحانه — إياهم للنبوّة يتضمن عصمتهم عمّا
لا يجوز ، فتجوز ذلك في وصفهم مُتَأَنٍّ لِحَالِهِمْ ، وإنما دعاء الرسل والأولياء — للخلق —
إلى الله سبحانه وتعالى ، وهو معنى قوله تعالى : « ولكن كونوا ربّانيين » أى إنما أشار بهم
على الخلق بأن يكونوا ربّانيين ، والربّانى منسوبٌ إلى الرب كما يقال فلان دقيانى ولحيانى
... وبابه .

وهم العلماء بالله العلماء في الله القائمون بفنائهم عن غير الله ، المستهلكة حظوظهم ،
المستغرقون في حقائق وجوده عن إحساسهم بأحوال أنفسهم ، ينطقون بالله ويسمعون بالله ،
وينظرون بالله ، فهم بالله محو عمّا سوى الله .

ويقال الرباني من ارتفع عنه ظلُّ نفسه ، وعاش في كنف ظلِّه — سبحانه .
ويقال الرباني الذي لا يُشَبِّهُ غيرَ ربه مَوْحِدًا ، ولا يشهد ذرة من المحو والإثبات لغيره .
أو من غيره .

ويقال الرباني من هو يَحَقُّ في وجوده — سبحانه — ومحو عن شهوده ، فالقائم عنه
غَيْرُهُ ، والمُجَرِّى لِيَا عليه سواه .

ويقال الرباني الذي لا تُؤَثِّرُ فيه تصارييف الأقدار على اختلافها .
ويقال الرباني الذي لا تُغَيِّرُهُ محنة ولا تُضَرُّهُ نعمة — فهو على حالة واحدة
في اختلاف الطوارق .

ويقال الرباني الذي لا يتأثر بورود واردة عليه ، فَمَنْ استنطقته رقة قلبٍ ، أو استمالة
هجومٍ أمرٍ ، أو تفاوتت عنده أخطار حادث — فليس رباني .

ويقال إنَّ الرباني هو الذي لا يبالى بشيء من الحوادث بقلبه وسيره ، ومن كان لا يقصر
في شيء من الشرع بفعله .

« بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون » من توالى إحسانى إليكم ، وتضاعف
نعمتى لديكم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا يأمرم أن تتخذوا الملائكة
والنبيين أرباباً أيا أمركم بالكفر بعد
إذ أنتم مسلمون ﴾ .

أى لا تنسبون إليهم ذرة من الإثبات في الخير والشر .

ويقال يرفكم حدَّ البشرية وحقَّ الربوبية .

ويقال يأمرم بتوقيهم من حيث الأمر والشرعية ، وتحقير قدر الخلق — بالإضافة^(١)
إلى الربوبية . « أيا أمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون » أيا أمركم بإثبات الخلق بعد
شهود الحق ؟

(١) وتحقير قدر الخلق (بالإضافة إلى الربوبية) معناها (بالنسبة إلى) جلال الربوبية وعظمتها .

ويقال «أيامكم بمطالعة الأشكال، ونسبة المحدثان إلى الأمثال، بعد أن لاحت في أسراركم أنوار التوحيد، وطلعت في قلوبكم شمس التفريد».

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ...﴾ الآية

أخذ الله ميثاق محمد صلى الله عليه وسلم على جميع الأنبياء عليهم السلام، كما أخذ ميثاقهم في الإقرار بربوبيته — سبحانه، وهذا غاية التشريف للرسول عليه السلام، فقد قرّن اسمه باسم نفسه، وأثبت قدره كما أثبت قدر نفسه، فهو أوجد الكفاية في الرتبة، ثم سهل سبيل الكفاية في معرفة جلاله بما أظهر عليه من المعجزات.

﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

الإشارة فيه: فمن حاد عن سنته، أو زاغ عن اتباع طريقته بعد ظهور دليله، ووضح معجزته فأولئك هم الذين خبثت درجاتهم، ووجب المقت عليهم لجحدهم، وسقوطهم عن تعلق العناية بهم.

قوله جل ذكره: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ...﴾ أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً...﴾

من لاحظ على غير الحقيقة، أو طالع سواه في توم الأهلية^(١) كراء السراب ظنه ماء فلما أتاه وجده هباء. ومغالط الحسابات مقطعة مشككة فمن حلّ بها نزل بوادٍ قفر.

«وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً» لإجراء حكم الإلهية على وجه القهر عليهم.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا،

(١) الأهلية معناها الاستحقاق، استحقاق كل تقديس، ولا نستبعد أنها في الأصل الألوهية لأن السياق يسير متحدثاً عن البشر الذين يقولون فناس كونوا عباداً لنا، وعن الملائكة والنبين ووجوب عدم اتخاذهم أرباباً.

وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل
 وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي
 موسى وعيسى والنبيون من ربهم
 لا نفرّق بين أحدٍ منهم ونحن
 له مُسلمون *

آمنّا بالله لا بنفوسنا أو حولنا أو قوتنا .

وآمنّا بما أنزل علينا بالله ، وأنّا لا نفرّق بين أحدٍ منهم — بالله سبحانه — لا بحولنا
 واختيارنا ، وجهدنا^(١) واكتسابنا ، ولولا أنه عرفّنا أنه من هو ما عرفنا وإلا فتي
 علينا ذلك^(٢) .

قوله جل ذكره : * ومن يتنغ غير الإسلام ديناً قلن
 يُقبل منه وهو في الآخرة من
 الخاسرين * .

من سلّك غير الخلود تحت جريان حكمه سيلاً زلّت قدمه في هذه^(٣) من المغاليط
 لا مدى لقعرها .

ويقال من توّسل إليه شيء دون الاعتصام به فخُسرانه أكثر من ربحه .
 ويقال من لم يَفْزَ عن شهود الكل لم يصل إلى من به الكل .
 ويقال من لم يَمْشِ تحت راية المصطفى صلى الله عليه وسلم المُعْظَم في قدره ، المُعَلَّى في وصفه ،
 لم يُقبل منه شيء ولا ذرة .

قوله جل ذكره : * كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد

(١) وردت (وجهدنا) وهي خطأ من الناسخ .

(٢) قارن ذلك بعبارة ذي النون المصري : عرفت ربي بربي ولولا ربي ما عرفت ربي . (الرسالة

ص ١٥٦) .

(٣) أخطأ الناسخ حين كتبها (وحدة) بلحاء .

لِيَمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ
.....،..... الآية ﴿

مَنْ أْبْعَدَهُ عَنْ اسْتِحْقَاقِ الْوَصْلَةِ فِي مَاقَبِ حِكْمِهِ فَقِيَّ يَرْبِهِ مِنْ بَسَاطَةِ الْخِدْمَةِ بِفَعْلِهِ فِي وَقْتِهِ ؟
ويقال : الذي أقصاه (١) حكم (الأول) (٢) متى أدناه صدق العمل ؟ والله غالبٌ على أمره .

قوله جل ذكره : ﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ
وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمِينَ﴾

أولئك قصارى حالهم ما سبق لهم من حكمه في ابتداء أمرهم ، ابتداءً ومرداً القسمة ،
ووسائطهم الصدُّ عن الخدمة ، ونهايتهم المصير إلى الطرد والمنلة .

﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَخَفُونَ عَنْهُمْ الْعَذَابُ
وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾

خالدِينَ في تلك المنلة لا يفتقر عنهم العذاب لحظة ، ولا يخفف دونهم الفراق ساعة .
﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾
أولئك هم الذين تداركنهم الرحمة ، ولم يكونوا في شق السبق من تلك الجملة ، وإن كانوا
في توهم الخلق من تلك الزمرة .

قوله جل ذكره : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ
نَمُ زِدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ
وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾

الإشارة منه : أن الذين رجعوا إلى أحوال أهل العادة بعد سلوكهم طريق الإرادة ،

(١) وردت (أقصاء) ونحن نرجح أن تكون (أقصاء) بالصاد حتى تتلاءم مع (أدناه) التي جاءت
بعدها — فذلك أقرب إلى طبيعة أسلوب القشيري في هذا السياق .
(٢) مكنا كتبها الناسخ ، ونحن نميل إلى أنها في الأصل (الأزل) .
فالقشيري يعتقد أن الأقسام سبقت في الأزل وأن قيمة الإنسان مرتبة بذلك .

وآثروا الدنيا ومطاوعة الهوى على طلب الحق سبحانه وتعالى ، ثم أنكروا على أهل الطريقة ، وازدادوا في وحشة ظلماتهم — لن تُقبلَ توبتهم ، « وأولئك هم الضالون » عن طريق الحق فإنه لا يقبل الأمانة بعد ظهور الخيانة . وعقوبتهم أنهم على عمر الأيام لا يزدادون إلا نفرة قلب عن الطريقة ، ولا يتحسرون على ما فاتهم من صفاء الحالة . ولو أنهم رجعوا عن إصرارهم لها لُقبِلت توبتهم ، ولكن الحق سبحانه أجرى سنته مع أصحاب الفترة في هذه الطريقة إذا رجعوا إلى أصول العادة ألا يتأبفوا على ما مضى من أوقاتهم .

قال تعالى : « وتقلب أفتدنتهم وأبصارهم كالم يؤمنوا به أول مرة » وإن المرتد عن الإسلام لأشدَّ عداوة للمسلمين من الكافر الأصلي ، فكذلك الراجع عن هذه الطريقة لأشدَّ إنكاراً لها وأكثر إعرافاً عن أهلها من الأجنبي عنها .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنِّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ
فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةٌ مِنَ الْأَرْضِ
ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ .

الإشارة منه : لمن مات بعد فترته — وإن كانت له بداية حسنة — فلا يحشر في الآخرة مع أهل هذه القصة ، ولو تشفع له ألف عارف ، بل من كمال السكر به أنه يلقي شبهه في الآخرة على غيره حتى يتوهم معارفه من أهل المعرفة أنه هو — فلا يخطر ببال أحد أنه ينبغي أن يشفع له .

قوله جل ذكره : ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ
وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾

لما كان وجود البر مطلوباً ذكر فيه « مِنْ » التي للتبويض فقال : « مما تحبون » ، فمن أراد البر فلينفق مما يحبه أى البعض ، ومن أراد البار فلينفق جميع ما يحبه . ومن أنفق محبوبه من الدنيا وجد مطلوبه من الحق تعالى ، ومن كان مربوطاً بحظوظ نفسه لم يحفظ بقرب ربه . ويقال إذا كنت لاتصل إلى البر إلا بإفناق محبوبك فتى تصل إلى البار وأنت تؤثر عليه حظوظك . « وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم » منهم من ينفق على ملاحظة الجزاء

والعوض ، ومنهم من ينفق على مراقبة دفع البلاء والحزن ، ومنهم من ينفق اكتفاء بعلمه ،
قال قائلهم :

ويتهز للمعروف في طلب العلى لتذكر يوماً — عند سلمى — شمائله
قوله جل ذكره : ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ
إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ
قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ ، قُلْ فَأَتُوا
بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *
فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ
بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

الأصل في الأشياء ألا يشرع فيها بالتحليل والتحريم ، فما لا يوجد فيه حدٌ فذلك من
الحق — سبحانه — توسعة ورفقة إلى أن يحصل فيه أمر وشرع ؛ فإنَّ الله — سبحانه —
وسَّعَ أحكام التكليف على أهل النهاية^(١) ، فسبيلهم الأخذ بما هو الأسهل تمام ما هم به من أحكام
القلوب ، فإن الذي على قلوبهم من المشاق أشد . وأما أهل البداية فالأمر مضيقٌ عليهم في
الوظائف والأوراد ؛ فسبيلهم الأخذ بما هو الأشق والأصعب لفراغهم بقلوبهم من المعاني ،
فمن ظنَّ بخلاف هذا فقد غلط .

والإشارة من هذه الآية أيضاً في قوله : « فمن افتري على الله الكذب » إلى أحوال
أهل الدعاوى والمغاليط ؛ فإنهم يخلون بنفوسهم فينسبونها إلى الله — سبحانه — هواجسها ،
والله يرى عنها . وعزيزٌ عبدٌ يفرق بين الخواطر والهواجس .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ
حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ الخروج إلى الله بالكلية ، والتسليم لحكمه من غير أن تبقى بقية ؛ فأثبت
ذرة في الحسبان من الحدثان شركاً — في التحقيق .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي

(١) أهل النهاية هم العوام ، وأهل البداية هم الخواص .

بِسْكَ مُبَارَكًا وَهَدَى الْعَالِينَ •
 فِيهِ آيَاتٌ يَنْتَظِرُ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ
 دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا، وَفِيهِ عَلَى النَّاسِ
 حِجَابٌ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا،
 وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيرٌ
 الْعَالِينَ ✽

البيت حَجَرَةٌ وَالْعَبْدُ مَدْرَةٌ، فَرَبَطَ الْمَدْرَةَ بِالْحَجَرَةِ، فَالْمَدْرُ مَعَ الْحَجَرِ .
 وَتَعَزَّزَ وَتَقَدَّسَ مَنْ لَمْ يَزَلْ .

وَيُقَالُ الْبَيْتُ مَطَافُ النُّفُوسِ، وَالْحَقُّ مَسْبَحَانَهُ مَقْصُودُ الْقُلُوبِ ।

البيت أطلال وآثار وإنما هي رسوم وأحجار ولكن :

تلك آثارنا تدلُّ علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

ويقال البيت حجر، ولكن ليس كل حجر كالذي يجالس من الحجر .

حَجَرٌ وَلَكِنْ لِقُلُوبِ الْأَحْبَابِ مَزْعِجٌ بَلْ لَا كِبَادَ الْقُرَاءِ مَنْفِجٌ^(١)، لَا بَلْ لِقُلُوبِ قَوْمٍ
 مُشْلِجٌ مَبْهِجٌ، وَلِقُلُوبِ الْآخَرِينَ مَنْفِجٌ مَزْعِجٌ .

وَمِنْ عَلَى أَصْنَافٍ : بَيْتٌ هُوَ مَقْصِدُ الْأَحْبَابِ وَمَزَارِمٌ، وَعِنْدَهُ يَسْمَعُ أَخْبَارَهُمْ
 وَيَشْهَدُ آثَارَهُمْ .

بَيْتٌ مَنْ طَالَعَهُ بَعَيْنُ التَّفَرُّقَةِ عَادَ بِسَرٍّ خَرَابٌ، وَمَنْ لَاحَظَهُ بَعَيْنُ الْإِضَافَةِ حَظَى بِكُلِّ تَقْرِيبٍ
 وَإِيجَابٍ، كَمَا قِيلَ :

إِنْ الدِّيارُ — وَإِنْ صَنَعْتَ — فَإِنَّ لَهَا عَهْدًا بِأَحْبَابِنَا إِذْ عِنْدَهَا نَزَلُوا

بَيْتٌ مَنْ زَارَهُ بِنَفْسِهِ وَجَدَ الْطَافَةَ، وَمَنْ شَهِدَهُ بِقَلْبِهِ نَالَ كَشُوفَاتِهِ .

(١) نَفِجُ الْأَرْبَةِ أَثَارُهُ وَالنَّاجَةُ الرِّيحُ الشَّدِيدَةُ، فَيَكُونُ مَعْنَى مَنْفِجٍ شَدِيدِ الْإِثَارَةِ .

ويقال قال سبحانه : « وطهر بيتي » وأضافه إلى نفسه ، وقال هاهنا : « إن أول بيت وضع للناس » وفي هذا طرف من الإشارة إلى عين الجمع ^(١) .

وسميت (بكة) لازدحام الناس ، فالكل يتناجزون على البدار إليه ، ويزدحمون في الطواف حوالية ، ويبدلون للهج في الطريق ليصلوا إليه .

والبيت لم يخاطب أحداً منذ بُني بُنية ، ولم يستقبل أحداً بخطوة ، ولا راسل أحداً بسطر في رسالة ، فإذا كان البيت الذي خلقه من حجر — هذا وصفه في التمزز ^(٢) — فما ظنك بمن البيت له . قال صلى الله عليه وسلم مخبراً عنه سبحانه : « الكبرياء ردائي والعظمة إزاري » .

ويقال إذا كان البيت المنسوب إليه لا تصل إليه من ناحية من نواحيه إلا بقطع للمفاوز وللتناهات فكيف تطمع أن تصل إلى رب البيت بالهويني دون تحمل المشقات ومفارقة الراحة ؟ ١

ويقال لا تعلق قلبك بأول بيت وضع لك ولكن أفرّد سيرك لأول حبيب آثر .
ويقال شتان بين عبد اعتكف عند أول بيت وضع له وبين عبد لازم حضرة أول عزيز كان له .

ويقال ازدحام الفقراء بهمهم حول البيت ليس بأقل من ازدحام الطائفين بقدمهم ، فالأغنياء يزورون البيت ، ويطوفون بقدمهم ، والفقراء يبقون عنه فيطوفون حوله بهمهم .
ويقال الكعبة بيت الحق سبحانه في الحجر ، والقلب بيت الحق سبحانه في السر ، قال قائلهم :

لست من جملة المحبين إن لم أجعل القلب بينه والمقام
وطوافي إجمالة السر فيه وهو ركني إذا أردت استلاما
فالطائف تطوف بقلوب العارفين ، والحقائق تتكف في قلوب الموحدين ، والكعبة مقصود العبد بالحج ، والقلب مقصود الحق بإفراده إياه بالتوحيد والوجد .

(١) وبما كان في الأصل (... الإشارة إلى عين الجمع ، « وأول بيت وضع للناس » إشارة إلى الفرق) في الأول نسب البيت إلى نفسه ، وفي الثاني أشار إلى وضعه للناس .
وسقطت هذه العبارة الأخيرة من النسخ .
(٢) وردت (التمزز) والسياق يتطلب (التمزز) .

قوله جل ذكره : ﴿مباركاً مهدى للعالمين﴾

بركاته اتصال الألفاظ والكشوفات ، فمن قصده بهمة ، ونزل عليه بقصده هداً إلى طريق رُشده .

قوله جل ذكره : ﴿فيه آيات بينات﴾

ولكن لا تدرك تلك الآيات بأبصار الرؤوس ولكن ببصائر القلوب ، ومقام إبراهيم — في الظاهر — متأثر بقدمه ، وفي الإشارة : ما وقف الخليل عليه السلام بهمة .
ويقال إن شرف مقام إبراهيم لأنه أثر الخليل ، ولأثر الخليل خطر عظيم .

قوله جل ذكره : ﴿ومن دخله كان آمناً﴾

يقال من دخل مقام إبراهيم كان آمناً ، ومقام إبراهيم التسليم ، ومن كان مسلماً أموره إلى الله لم يبق له اختيار ، وكان آمناً ؛ فالأمن ضده الخوف ، والخوف إنما يكون على ألا يحصل مرادك على ما تريد ، فإذا لم تكن للعبد إرادة واختيار فأى مسأغ للخوف في وصفه ؟

ويقال إن الكناية^(١) بقوله (دخله) راجعة إلى البيت ، فمن دخل بيته — على الحقيقة — كان آمناً ، وذلك بأن يكون دخوله على وصف الأدب ، ولا محالة أدب دخول البيت تسليم الأمور إلى رب البيت ، فإن من لم يكن صاحب تسليم فهو معارض للتقدير . ودخول البيت إنما الأدب فيه أن يكون دخولا على التسليم دون المعارضة والنزاع فيؤول إلى المعنى المتقدم .

وإن جعلت الإشارة من البيت إلى القلب فمن دخل قلبه سلطان الحقيقة أمين من توازع البشرية وهو اجس غافة النفس ، فإن من التجأ إلى ظل الملك لم ينط إلى محنورا .

ويقال لا يكون دخول البيت — على الحقيقة — إلا بخروجك عنك ، فإذا خرجت عنك صح دخولك في البيت ، وإذا خرجت عنك أميت .

ويقال دخول بيته لا يصح مع تعربك في أوطانك ومماهدك ، فإن الشخص الواحد

(١) يقصد بها ضمير الغائب في (دخله) .

لا يكون في حالة واحدة في مكانين ، فمن دخل بيت ربه فبالحرى أن يخرج عن معاهد^(١) نفسه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَنُفِخْ فِي الصُّورِ نَفْخًا وَنُفِخْ فِي الصُّورِ نَفْخًا ﴾

استطاع إليه سبيلاً ﴿

شرط النقي ألا يدخر عن البيت شيئاً من ماله ، وشرط الفقير ألا يدخر عن الوصول إلى بيته نفساً من روحه .

ويقال الاستطاعة فنون ، فستطيع بنفسه وماله وهو الصحيح السليم ، ومستطيع بغيره وهو الزمن للعصوب ، وثالث غفل الكثيرون عنه وهو مستطيع بربه وهذا نمت كل مخلص مستحق فإن بلاياه لا تحملها إلا مطاياها .

ويقال حج البيت فرض على أصحاب الأموال ، ورب البيت فرض على الفقراء فرض حتم ، فقد ينسد الطريق إلى البيت ولكن لا ينسد الطريق إلى رب البيت ، ولا يمنع الفقير عن رب البيت .

ويقال الحج هو القصد إلى من تعظمه : فقاصد بنفسه إلى زيارة البيت ، وقاصد بقلبه إلى شهود رب البيت ، فشتان بين حج وحج ، هؤلاء تحلهم عن إحرامهم عند قضاء منسكهم وأداء فرضهم ، وهؤلاء تحلهم عن إحرامهم عند^(٢) شهود ربهم ، فأما القاصدون بنفوسهم فأحرموا عن للعبادات من محرمات الإحرام ، وأما القاصدون بقلوبهم فإنهم أحرموا عن المساكنت وشهود الغير وجميع الأنام .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ذَلِيلٌ ﴾

ضرب رقم الكفر على من ترك حج البيت ، ووقعت بسبب هذا القول قلوب العلماء في كد التأويل ، ثم قال : « فإن الله غفر عن العالمين » وهذا زيادة تهديد تدل على زيادة تخصيص .

ويقال إن سبيل من حج البيت أن يقوم بآداب الحج ، فإذا عقد بقلبه الإحرام يجب أن

(١) أى مألوقات نفسه .

(٢) وردت (عن) والصحيح (عند) .

يفسخ كلَّ عَقْدٍ يَصُدُّه عن هذا الطريق ، وينقض كلَّ عزم يردّه عن هذا التحقيق ، وإذا طَهَّرَ
تَطَهَّرَ عن كلِّ دَنَسٍ من آثار الأغيار بماه الخجل ثم بماه الحياء ثم بماه الوفاء ثم بماه الصفاء ،
فإذا تَجَرَّدَ عن ثيابه تَجَرَّدَ عن كلِّ ملبوسٍ له من الأخلاق الذميمة ، وإذا لَبَّى بلسانه وجب
ألا تبقى شَعْرَةٌ مِنْ بَدَنِهِ إِلَّا وقد استجابت لله . فإذا بلغ الموقف وقف بقلبه وسِرِّه حيث
وقفه الحق بلا اختيار مقام ، ولا تعرض لتخصيص ؛ فإذا وقف بعرفات عرف الحق سبحانه ،
وعرف له تعالى حقّه على نفسه ، ويتعرَّف إلى الله تعالى بِتَبَرُّيهِ عن مُنْتَه (١) وحوْلِهِ ،
والحقُّ سبحانه يتعرَّف إليه بِمَنْتَه وطَوْلِهِ ، فإذا بلغ المشعر الحرام يذكر مولاه بنسيان نفسه ،
ولا يصحُّ ذكره لربه مع ذكره لنفسه ، فإذا بلغ مِنِّي نَفَى عن قلبه كلَّ طَلَبٍ ومُنَى ، وكلَّ
شهوة وهوى .

وإذا رمى الجمار رمى عن قلبه وقذف عن سره كلَّ علاقة في الدنيا والعقبى .
وإذا ذبح ذبح ذبح هواه بالكلية ، وتقرَّب به إلى الحق سبحانه ، فإذا دخل الحرم عزَّم
على التباعد عن كلِّ مُحَرَّم على لسان الشريعة وإشارة الحقيقة .
وإذا وقع طَرَفُهُ على البيت شهد بقلبه ربَّ البيت ، فإذا طاف بالبيت أخذ سِرَّهُ بالجولان
في اللسكوت

فإذا سعى بين الصفا والمروة صَفَّى عنه كلَّ كدورة بشرية وكلَّ آفة إنسانية .
فإذا حَلَقَ قطع كلَّ علاقة بقيت له .
وإذا تحلل من إحرام نفسه وقصده إلى بيت ربه استأنف إحراماً جديداً بقلبه ، فكما
خرج من بيت نفسه إلى بيت ربه يخرج من بيت ربه إلى ربه تعالى .
فمن أكل نُسكَه فإتما عمل لنفسه ، ومن تكاسل فإنَّ الله غنى عن العالمين وقال صلى الله
عليه وسلم : « الحاج أشعث أغبر » ، فمن لم يتحقق بكمال الخضوع والذوبان عن كليته فليس
بأشعث ولا أغبر .

(١) ضبطناها هكذا لأن القشيري يميز بين (المينة) للحق و (المُنْتَه) للبعد .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ

بآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ ﴾

الخطاب بهذه الآية لنا كيد الحجة عليهم ، ومن حيث الحقيقة والقهر يسد الحجة عليهم ،
فهم مدعوون — شرعاً وأمرأ ، مطرودون — حُكماً وقهراً .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ

عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُؤْهَا

عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ

عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

كيف يصد غيره مَنْ هو مصدودٌ في نفسه ؟ إن في هذا لَئِيراً للربوبية .

قوله جل ذكره ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا

مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم

بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾

الوحشة ليست بلازمة لأصحابها ، بل هي متعدية إلى كل من يحوم حول أهلها ، فمن أطاع

عدو الله إلى شؤم صحبة (الأعداء)^(١) ألقاه في وهدته .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ

آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ، وَمَنْ

يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ ﴾

لا ينبغي لمن أشرقت في قلبه شموسُ العرفان أن يوقع الكفرُ عليه ظلاً ، فإنه إذا أقبل

النهارُ من هاهنا أدبر الليلُ من هاهنا .

وقوله : ﴿ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ مِنْ وَجَدَ الْعَصَمَةَ مِنَ اللَّهِ ، فَأَمَّا

(١) مكتوبة (إلا) وسقطت بقية الكلمة فأكلناها (الأعداء) وربما (الأجانب) أو ما في معناها

طبقاً لما نعرفه عن اتجاه التشيرى في مواضع مماثلة .

مَنْ لَمْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَتَى يَعْتَصِمُ بِاللَّهِ ؟ فَالْهُدَايَةُ مِنْهُ فِي الْبِدَايَةِ تَوْجِبُ اعْتِصَامَكَ فِي النِّهَايَةِ ، لَا الْاعْتِصَامُ مِنْكَ يوجبُ الْهُدَايَةَ .

وَحَقِيقَةُ الْعِصْمِ صِدْقُ الْأَجْوَدِ إِلَيْهِ ، وَدَوَامُ الْفِرَارِ إِلَيْهِ ، وَاسْتِصْحَابُ الْاسْتِغَاثَةِ إِلَيْهِ . وَمَنْ كَشَفَ عَنْ سِرِّهِ غِطَاءَ التَّفَرُّقَةِ تَحَقَّقَ بِأَنَّهُ لَا لَغَيْرِ اللَّهِ خُزْةٌ أَوْ مِنْهُ سَيِّئَةٌ ، فَهَذَا الْإِلْسَانُ يَعْتَصِمُ بِهِ مِمَّنْ يُعْتَصَمُ بِهِ ؛ قَالَ سَيِّدُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ : « أَعُوذُ بِكَ مِنْكَ » .

وَمَنْ اعْتَصَمَ بِنَفْسِهِ دُونَ أَنْ يَكُونَ مُحَوَّاً عَنْ حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ فِي اعْتِصَامِهِ — فَالشِّرْكُ وَطَنُهُ وَلَيْسَ بِشَعْرٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ﴾ .

حَقُّ التَّقْوَى أَنْ يَكُونَ عَلَى وَفْقِ الْأَمْرِ لَا يَزِيدُ مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ وَلَا يَنْقُصُ .

هَذَا هُوَ الْمُعْتَمِدُ مِنَ الْأَقَاوِيلِ فِيهِ ، وَأَمْرُهُ عَلَى وَجْهَيْنِ : عَلَى وَجْهِ الْحُكْمِ وَعَلَى وَجْهِ النَّدْبِ وَكَذَلِكَ الْقَوْلُ فِي النَّهْيِ عَلَى قَسْبَيْنِ : تَحْرِيمٍ وَتَنْزِيهِ ، فَيَدْخُلُ فِي جُمْلَةِ هَذَا أَنْ يَكُونَ حَقُّ تَقَاتِهِ أَوَّلًا اجْتِنَابَ الزَّلَّةِ ثُمَّ اجْتِنَابَ الْغَفْلَةِ ثُمَّ التَّوَقُّيُّ عَنْ كُلِّ خَلَّةٍ ثُمَّ التَّنَقُّيُّ مِنْ كُلِّ عِلَّةٍ ، فَإِذَا تَقَيَّيْتُ عَنْ شُهُودِ تَقْوَاكَ بَعْدَ اتِّصَافِكَ بِتَقْوَاكَ فَقَدْ انْتَقَيْتُ حَقَّ تَقْوَاكَ .

وَحَقُّ التَّقْوَى رَفْضُ الْعَصْيَانِ وَتَقْيُّ النِّسْيَانِ ، وَصُونَ الْمَهْرُودِ ، وَحِفْظُ الْحُدُودِ ، وَشُهُودُ الْإِلَهِيَّةِ ، وَالْإِسْلَاحُ عَنْ أَحْكَامِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَالْحَمْدُ نَحْتِ جَرِيَانِ الْحُكْمِ بَعْدَ اجْتِنَابِ كُلِّ جُرْمٍ وَظَلَمٍ ، وَاسْتِشْعَارُ الْآفَةِ عَنْ التَّوَسُّلِ إِلَيْهِ بِشَيْءٍ مِنْ طَاعَتِكَ دُونَ صَرْفِ كَرَمِهِ ، وَالتَّحَقُّقُ بِأَنَّهُ لَا يَقْبَلُ أَحَدًا بِعِلَّةٍ وَلَا يَرُدُّ أَحَدًا بِعِلَّةٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ .

لَا تُصَادِفَنَّكَ الْوَفَاةُ إِلَّا وَأَنْتُمْ بِشَرَطِ الْوَفَاءِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ .

واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم
أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم
بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا
حفرة من النار فأنقذكم منها ،
كذلك يُبَيِّنُ الله لكم آياته
لعلكم تهتدون * .

الاعتصامُ بحبله — سبحانه — التمسك بآثار الواسطة — العزيز صلوات الله عليه —
وذلك بالتحقق والتعلق بالكتاب والسنة .

ويصح أن يقال : الخواص يُقال لهم « اعتصموا بحبل الله » ، وخاص الخاص قيل لهم
« واعتصموا بالله » ، ولينرجع عند سوانحه إلى اختياره واحتياله ، أو فكرته واستدلالة ،
أو معارفه وأشكاله ، والتجأ إلى ظل تدبيره ، واستضاء بنور عقله وتفكيره^(١) — فرفع عنه
ظل العناية ، وموكل إلى سوء حاله .

وقوله : « ولا تفرقوا » : التفرقة أشد العقوبات وهي قرينة الشرك .

وقوله : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء » . وكانوا أعداء حين كانوا قاطعين
بخطوطهم ، مُعْرِجِينَ على ضيق البشرية ، متزاحمين بمقتضى شح النفوس .

« فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ » : بالخلاص من أسر المكنونات ، ودفع الأخطار عن أسرارهم ،
فصار مقصودهم جميعاً واحداً ، فلو ألف ألف شخص في طلب واحد — فهم في الحقيقة واحد .
« فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا » نعمته التي هي عصمته إياكم ، إخواناً مُتَّفِقِينَ القصد والمهمة ،
متفانين عن حظوظ النفس وخبايا البخل والشح .

« وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ » : بكونكم نحت أسر مَنَّاكم ، ورباط
حظوظكم وهواكم .

(١) واضح أن القشيري يرى أن الالتجاء إلى العقل والفكر كوسيلة للوصول يعد قاطعاً من القواطع ،
لأن العقل آفات — ذكرها القشيري في مواضع مختلفة — تجعله غير جدير بأن يعتمد عليه العبد في معرفة
الحقائق العليا ، وإن مهمة العقل عند هذا الباحث لا تتجاوز منطقة البداية — عند تصحيح الإيمان .

فَأَتَقَذِّكُمْ مِنْهَا : بنور الرضاء ، والحدود عند جريان القضاء ، وتلك حقاً هي المكاة
المُعْطَى والدرجة الكبرى ، ويدخل في هذه الجملة تركُّ السكون إلى ما منك من المناقب
والثقي ، ولعلل والحجا ، والتحصيل والنهي ، والفرار إلى الله — عز وجل — عن كل
غير وسوى .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى
الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ
عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾
هذه إشارة إلى أقوام قاموا بالله لله ، لا تأخذهم لومة لائم ، ولا تقطعهم عن الله
استنامة إلى حلة ، وقفوا بجلتهم على دلالات أمره ، وقصروا أنفاسهم واستغرقوا أعمارهم
على تحصيل رضاء ، عملوا لله ، ونصحوا الدين لله ، ودعوا خلق الله إلى الله ، قَرَّبَتْ
تجارُتهم ، وما خسرت صفتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا
وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ
وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾
هؤلاء أقوام أظهر عليهم في الابتداء رقوم الطلب ، ثم وسَّهم^(١) في الانتهاء بكي
الفرقة ، فباتوا في شق الأحباب ، وأصبحوا في زمرة الأجانب^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ
وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ
وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ
فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ
﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وَجُوهُهُمْ
فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

(١) الرقم نعت يجري في الابتداء والوسم نعت يجري في الأبد بما جرى في الأزل .
(٢) تأمل الدقة في استعمال (باتوا) وكيف تعبر عن البداية ؛ ثم (أصبحوا) لتعبر عن النهاية .

أرباب الدَّعَاوَى تسودُ وجوههم ، وأصحاب اللعاني تبيض وجوههم ، وأهل
الكشوفات غداً تبيضُ بالإشراق وجوههم ، وأصحاب الحجاب تسودُ بالحجبة وجوههم ،
فتعلوها غيرةً ، وترهقها قنطرة .

ويقال من ابيض — اليوم — قلبه ابيض . — غداً — وجهه ، ومن كان بالضد
فحالته العكس .

ويقال من أعرض عن الخلق — عند سواتحه — ابيض وجهه بروح التفويض ،
ومن علق بالأغيار قلبه عند الحوائج اسودَّ عيانه بغبار الطمع ؛ فأما الذين ابيضت وجوههم
ففي أنس وروح ، وأما الذين اسودَّت وجوههم ففي محن ونوح .

قوله جل ذكره : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تُلَوِّحُ عَلَيْكَ بِالْحَقِّ
وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴾
والله ما في السموات وما في الأرض
والى الله ترجع الأمور ﴿

نُديمُ مخاطبتنا معك على دوام الأوقات في كل قليل وكثير ، علامة لسبيل الوداد :
﴿ وما الله يريد ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴾ وأنى يجوز الظلم في وصفه تقديراً ووجوداً — والخلق
كلهم خلقه — والحكمُ عليهم حُكمه ؟
والله ما في السموات وما في الأرض ملكاً ، والى الله ترجع الأمور حُكماً .

قوله جل ذكره : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ
تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ
الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾

لما كان المصطفى صلوات الله عليه أشرف الأنبياء كانت أُمَّتُه — عليه السلام —
خير الأم . ولما كانوا خير الأم كانوا أشرف الأم ، ولما كانوا أشرف الأم كانوا
أشوق الأم . فلما كانوا أشوق الأم كانت أعمارهم أقصر الأعمار ، وخلقهم آخر
الخلق لئلا يطول مُكثهم تحت الأرض . وما حصلت خيريتهم بكثرة صلواتهم

وعباداتهم ، ولكن بزيادة إقبالهم ، وتخصيصه لإمام . ولقد طال وقوف المتقدمين بالباب ولكن لما خرج الإذن بالدخول تقدم المتأخرون .

وكم - باسطين إلى وصلينا أكفهم لم ينالوا نصيباً

قوله جل ذكره : ﴿ تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾

المعروف خدسه الحق ، والمنكر صحبة النفس .

المعروف إيثاق حق الحق ، والمنكر اختيار حفظ النفس .

المعروف ما يزيلك إليه ، والمنكر ما يحجبك عنه .

وشرط الأمر بالمعروف أن يكون متصفاً بالمعروف ، وحق الناهي عن المنكر أن يكون منصرفاً عن المنكر .

﴿ ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم ، منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ﴾

لو دخل الكافة تحت أمرنا لوصلوا إلى حقيقة العز في الدنيا والعقبى ، ولكن بعدوا عن القبول في سابق الاختيار فصاروا أكثرهم موسوماً بالشرك .

قوله جل ذكره : ﴿ لن يضرؤكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينتصرون ﴾

إن الحق سبحانه وتعالى لا يسلط على أوليائه إلا بمقدار ما يصدق إلى الله فرارهم ، فإذا حق فرارهم أكرم لديه قرارهم ، وإن استظالوا على الأولياء بموجب حساباتهم انعكس الحال عليهم بالصغار والمهوان .

قال جل ذكره : ﴿ ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا ﴾

إِلَّا بِحَبْلٍ مِنْ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ
النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبِ اللَّهِ *
وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ،
وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍ ، ذَلِكَ
بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ *

عَلَّمَ الْمَجْرَانِ لَا يَنْكُتُمْ ، وَرَحْمَةُ الْبُعْدِ لَا تَنْخَفِي ، وَدَلِيلُ الْقَطِيعَةِ لَا يَسْتَرِي ، فَهَمُ فِي صَغَارِ
الطُّرْدِ ، وَذُلُّ الرَّدِّ ، يَعْتَبِرُ بِهِمْ أُولُو الْأَبْصَارِ ، وَيَفْتَرُّ بِهِمْ أَضْرَابُهُمْ مِنَ الْكُفَرِ الْفُجَّارِ .

قوله جل ذكره : ﴿ لِيَسْأَوْا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾
أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ
وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ
عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ
وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ *

كَمَا غَايَرَ بَيْنَ النُّورِ وَالظُّلَامِ مَنَاقِبَ تَضَادَ فَكَذَلِكَ أُثْبِتَ مَنَاقِبَ بَيْنَ أَحْوَالِ الْأَوْلِيَاءِ
وَأَحْوَالِ الْأَعْدَاءِ ، وَمَتَى يَسْتَوِ الضِّيَاءُ وَالظُّلْمَةُ ، وَالْيَقِينُ وَالشُّكُّ ، وَالْوَصْلَةُ وَالْفُرْقَةُ ، وَالْبَعَادُ
وَالْأَلْفَةُ ، وَالْمَعْتَكِفُ عَلَى الْبَسَاطِ وَالْمَنْصَرِفُ عَنِ الْبَابِ ، وَالْمُنْتَصِفُ بِالْوَلَاءِ وَالْمُنْحَرِفُ عَنِ
الْوَفَاءِ ؟ هِمَاهُ يَلْتَقِيَانِ ! فَكَيْفَ يَتَفَقَّانِ أَوْ يَسْتَوِيَانِ ؟ !

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ ﴾
وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ *

لَنْ يَخِيبَ عَنْ بَابِهِ قَاصِدٌ ، وَلَمْ يَخْسَرْ عَلَيْهِ (تَاجِرٌ) ^(١) ، وَلَمْ يَسْتَوْحِشْ مَعَهُ مُصَاحِبٌ ،
وَلَمْ يَنْزِلْ لَهُ طَالِبٌ .

(١) هَكَذَا فِي م ، وَرَبَّمَا اسْتَوْحَاهَا الْقَشِيرَى مِنَ الْآيَةِ (اشْتَرَوْا الْفُلَالَهَ بِالْهَدَى فَارَبَحْتَ نِجَارَتِهِمْ)
فَيَكُونُ الْمَعْنَى — وَاللَّهُ أَعْلَمُ — مِنْ آثَرِ اللَّهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَقَدْ رَبِحْتَ نِجَارَتَهُ وَمَا خَسِرَ .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ
أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ،
وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ ﴾

لا في الحال لم بدل ولا في المال عنهم خلف . في عاجلهم خيروا ، وفي آجلهم في قطع
وهجر ، وبلاء وخسر ، وعذاب ونكر :

تَبَدَّلْتُ وَتَبَدَّلْنَا وَاحْشِرْهُ لِمَنِ ابْتِغَى عِوَضًا لِسُلَى فَلَمْ يَجِدْ

قوله جل ذكره : ﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ
حَرَثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ
وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ
يُظْلَمُونَ ﴾

ما وجدوا ميراث ما بذلوا لغير الله إلا حشرات متتابعة ، وما حصلوا من حساباتهم إلا على
عن مترادفة ، وذلك جزاء من أعرض وتولى

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً
مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ،
وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ ، قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ
مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ، وَمَا تُخْفِي صدورُهُمْ
أَكْبَرُ ، قَدْ يَبَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ
كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

الركون إلى الضد — بعد تبين للشاق — إغاة على الحال بما يبلغه كيد العدو ، فأشار
الحق — سبحانه — على المسلمين بالتحرز عن الاعتراض ، وإظهار البراءة عن كل غير ،
ودوام الخلوص للحق — سبحانه — بالقلب والسر . وأخير أن مضادات القوم للرسول

صلى الله عليه وسلم أصلية غير طارئة عليهم ، وكيف لا ؟ وهو صلوات الله عليه محل الإقبال
ومحل الإعراض . ومتى يجتمع الليل والنهار ؟

قوله جل ذكره : ﴿ هَاتِمُ أَوْلَاءُ نَحْبُونَهُمْ وَلَا يَجْبُونَكُمْ ،
وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ، وَإِذَا
لَقَوْكُمْ قَالُوا : آمَنَّا ، وَإِذَا خَلَوْا
عَصَوْا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾

أَنْتُمْ بِقَضِيَّةِ كَرَمِكُمْ تَصْنَوْنَ — عَنِ السَّكَدَوَاتِ — قُلُوبُكُمْ ؛ فَتَغْلِبُكُمْ الشَّقَّةُ عَلَيْهِمْ ،
وَمَنْ — لَعْنَتُهُمْ وَخُلْفَتُهُمْ — يَكِيدُونَ لَكُمْ مَا اسْتَطَاعُوا ، وَلِفَرْطِ وَحْشَتِهِمْ لَا تَدْرُسُ مِنْهُمْ
إِلَّا قَطَرَاتٌ غِيْظُهُمْ . فَفَرَّغْ — يَا مُحَمَّد — قَلْبَكَ مِنْهُمْ .

﴿قُلْ مَوْتُوا بَغِیْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِیْمُ
بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

دَعَهُمْ يَتَفَرَّدُوا بِمِثَاقِ مَا نَدَا خَلْقَهُمْ مِنَ الْغَيْظِ ، وَاسْتَرِيحُوا بِقُلُوبِكُمْ عَمَّا يَمْحُلُ بِهِمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ
أَوَّلَىٰ بِعِبَادِهِ ؛ يُوَصِّلُ إِلَى مَنْ يَشَاءُ مَا يَشَاءُ .

قوله جل ذكره : ﴿ إِن تَنسَوْنَ حَسَنَةَ تَسْوَمٍ ،
وإن تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ،
وإن تصبروا وتتقوا لا يَضُرَّكُمْ
كَيْدُهُمْ شَيْئًا ، إِن اللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ
عَظِيمٌ ﴾

الإشارة من هذه الآية إلى المنصرفين عن طريق الإرادة ، الراجعين إلى أحوال أهل العادة ؛ لا يعجبهم ^(١) أن يكون لمريد نفاذ ، وإذا رأوا فترةً لقاصِد استراحوا إلى ذلك . وإنَّ الله — بفضله وِمنَّته — يُتِمُّ نوره على أهل عنايته ، ويَدْرُ الظالمين الزائنين ^(٢) عن سبيله في عقوبة بعامهم ، لا يبالي بما يستقبلهم .

(١) أخطأ الناسخ إذ كتبها (لا يسجيم) والسياق والمعنى يرفضانها .

(۲) وردت (الدائمين) بالتحاف وهي خطأ من النسخ.

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ

الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ، وَاللَّهُ

سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

أَقَامَهُ — صلى الله عليه وسلم — بتبويته الأماكن للقتال ، فانتدب لذلك بأمره ثم أظهر في ذلك الباب مكنونات سيره ، فالمدار على قضائه وقدره ، والاعتبار بإجرائه واختياره .

قوله جلَّت قدرته : ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا

وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ

لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

يُثَرِّدُ الْجَمِيعَ فِي صِدَارِ الْاِخْتِيَارِ ؛ كَأَنَّ الْأَمْرَ إِلَيْهِمْ فِي نَفْيِهِمْ وَإِثْبَاتِهِمْ ، وفعلهم وتركهم ، وفي الحقيقة لا يتقلبون إلا بتصرف القبض ، وتقليب القدرة (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ

فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ ﴾ .

تذكير ماسلف من الإِنْعَامِ فَتَحْ لِبَابِ التَّمَلُّقِ فِي اقْتِضَاءِ أَمْثَالِهِ فِي الْمُسْتَأْنَفِ (٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ

أَنْ يُبَدِّلَ اللَّهُ رِبَّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ

مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُتَرَلِّينَ * بَلَى ، إِنْ

تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّنْ فَوْرِهِمْ هَذَا

يُبَدِّلْ اللَّهُ رِبَّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ

الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾

كَانَ تَسْكِينُ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ لِقَلْبِ الْمُصْطَفَى — صلى الله عليه وسلم — بلا واسطة من الله

(١) خلاصة معنى هذه العبارة التي قد تبدوا غامضة — أن التعبير القرآني ظاهره نسبة الأفعال للإنسان — وهذا من وجهة نظر الصوفي تعبیر بالفرق ، والحقيقة أن كل شيء مرجعه إلى الله حيث يكون التعبير عنه بالجمع ، وقد تقدم معنى الجمع والفرق في هامش آخر .

(٢) المستأنف = المستقبل .

— سبحانه ، والربط على قلوب المؤمنين بواسطة الرسول صلى الله عليه وسلم — فلو لا بقية بقيت عليهم ملودهم في حديث النصره إلى إنزال الملك ، وأنى بحديث الملك — والأمر كله بيد الملك ١٩ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ ، وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ .

أجرى الله — سبحانه — سنته مع أوليائه أنه إذا ضفت نياتهم ، أو تناقضت (١) إرادتهم أو أشرفت (٢) قلوبهم على بعض فترة — أراهم من اللطاف ، وفنون الكرامات ما يقوى به أسباب عرفاتهم ، وتؤكد به حقائق يقينهم .

فعلى هذه السنة أنزل هذا الخطاب . ثم قطع قلوبهم وأسرارهم عن الأغيار بالكلية فقال : « وما النصر إلا من عند الله » .

قوله جل ذكره : ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴾ .

إن الله لا يثبت بأوليائه عدواً ، فالؤمن وإن أصابته نكبة ، فعدوه لا محالة يكبه (٣) الله في الفتنه والعقوبة .

قوله جل ذكره : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ، أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ، أَوْ يُعَذِّبُهُمْ ، فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ .
والله ما في السموات وما في الأرض ، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم .

(١) وردت (تناقضت) ولا يمنع أن تكون بالصاد حتى ينسجم النقص مع النصف .

(٢) وردت بالثاف وهي خطأ في النسخ .

(٣) هكذا في (ص) وهي صحيحة ولكننا لا نستبعد أن تكون في الأصل (يكبه) حيث جاء هذا الفعل في الآية الكريمة التي نحن بصدد ما .

الإله من له الأمر والنهي ، فلما لم يكن له في الإلهية نظير لم يكن له — (صلى الله عليه وسلم)^(١) — من الأمر والنهي شيء .

ويقال جرّده — بما عرفه وخاطبه — عن كل غير ونصيب ودعوى ، حيث أخبر أنه ليس له من الأمر شيء ، فإذا لم يجوز أن يكون لسيد الأولين والآخرين شيء من الأمر فمن نزلت رتبته عن منزلته فمتى يكون له شيء من الأمر ؟

ويقال استأثر (يستر عبادته في حكمه^(٢)) فقال أنا الذي أتوب على من أشاء من عبادي وأعذب من أشاء ، والعواقب عليك مستورة ، وإنك — يا محمد — لا تدري سرى فيهم .

ويقال أقامه في وقت مقاماً فقال : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » رمى بقبضة من التراب فأصاب جميع الوجوه ، وقال له في وقت آخر : « ليس لك من الأمر شيء » ثم زاد في البيان فقال : « والله ما في السموات وما في الأرض » . فإذا كان الملك ملكه ، والأمر أمره ، والحكم حكمه — فمن شاء عذبه ، ومن شاء قرّبه ، ومن شاء هداه ، ومن شاء أغواه .

قوله جل ذكره : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا

أضعافاً مضاعفةً واتقوا الله لعلكم
تفلحون ﴾ واتقوا النار التي أعدت
للكافرين ﴾ .

حرّم الربا على العباد ومنه إقراض الواحد باثنين تستردّهما ، وسأل منك القرض الواحد بسبعائة إلى مالا نهاية له ، والإشارة فيه أن الكرم لا يليق بالخلق وإنما هو صفة الحق سبحانه .
« واتقوا النار التي أعدت للكافرين » : دليل الخطاب أن المؤمنين لا يُعذب بها ، وإن عذب بها مدّة فلا يُخلّد فيها .

قوله جل ذكره : ﴿ وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون ﴾

(١) أضعفناها لتوضيح المعنى .

(٢) ربما كانت في الأصل هكذا (بسر حكمه في عبادته) لأنه بعد قليل يقول (لا تدري سرى فيهم) أي أن المستأثر به هو السر ، وكذلك كلمة (ستر عبادته) مرفوضة فالأولى أنه يستر الحكم ، أو العواقب كما جاء بعد قليل .

قَرَنَ طاعة الرسول صلوات الله عليه بطاعة نفسه تَشْرِيقًا لِقَدْرِهِ ، وتَخْفِيفًا عَلَى الْأُمَّةِ
حيث رَدُّهُمْ إِلَى صَحْبَةِ شَخْصٍ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، فَإِنَّ الْجَنْسَ إِلَى الْجَنْسِ أَسْكَنُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ
وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ .

أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يَنْفَقُونَ
فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ
الْفَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ
يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ *

معناه سارعوا إلى عملٍ يوجب لكم المغفرة ، فتقسمت القلوب وتوهمت أن ذلك أمرٌ
شديد فقال صلى الله عليه وسلم : « الندم توبة » وإنما توجب المغفرة التوبة لأن العاصي
هو الذي يحتاج إلى الغفران .

والناس في المسارعة على أقسام : فالعابدون يسارعون بقدَمِهِمْ في الطاعات ، والعارفون
يسارعون بهممهم في القربات ، والعاصون يسارعون بندمهم بنَجَرِ عِجْزِ الحسرات . فَمَنْ سَارَعَ
بِقَدَمِهِ وجد مثوبته ، ومن سَارَعَ بِهِمِهِ وجد قربته ، ومن سَارَعَ بِنَدَمِهِ وجد رحمة .

ولما ذكر الجنة وصفها بسعة العرض ، وفيه تنبيه على طولها لأن الطول في مقابلة العرض ،
وحين ذكر المغفرة لم يذكر الطول والعرض ، فقوموا قالوا : المغفرة من صفات الذات وهي بمعنى
الرحمة فعلى هذا فمغفرته حُكْمُهُ بالتجاوز عن العبد وهو كلامه ، وصفة الذات تنقدس عن
الطول والعرض .

ومن قال : مغفرته من صفات فعله قال لكثرة الذنوب لم يصف الغفران بالنهاية ، إشارة
إلى استغراقه جميع الذنوب .

قوله جل ذكره . ﴿ الَّذِينَ يَنْفَقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ *

لا يدخرون عن الله شيئاً ، ويؤثرونه على جميع الأشياء ، ينفقون أبدانهم على الطاعات
وفنون الأوراد والاجتهاد ، وأموالهم في إفشاء الخيرات وإبتغاء القربات بوجوه الصدقات ،

وقلوبهم في الطلب ثم دوام المراجعة ، وأرواحهم على صفاء المحببات والوفاء على عموم الحالات ،
وينفقون أسرارهم على المشاهدات في جميع الأوقات^(١) ، ينتظرون إشارات المطالبات ،
متشمرين للبدار إلى دقيق المطالعات^(٢)

قوله : « والكاظمين الغيظ » : يتجاوزون عن الخلق لملاحظاتهم إياهم بعين النسبة ،
وأقوام يحلمون على الخلق علماً بأن ذلك بسبب جرمهم فيشهدونهم بعين التسلط ، وآخرون
يكظمون الغيظ تحقّقاً بأن الحق سبحانه يعلم ما يقاسون فيهنّ عليهم التحمل ، وآخرون فنوا
عن أحكام البشرية فوجدوا صافي الدرجات في الذلّ لأن نفوسهم ساقطة فانية ، وآخرون
لم يشهدوا ذرة من الأغيار في الإنشاء والإجراء ، فعملوا أن للنشئ الله ؛ فزالت خصوماتهم
ومنازعاتهم مع غير الله لأنهم لمّا أفردوه بالإبداع اتقادوا لحكمه ؛ فلم يروا معه وجهاً غير
التسليم لحكمه ، فأكرمهم الحق سبحانه ببرّ الرضاء ، فقاموا له بشرط الموافقة .
قوله « والعافين عن الناس » فرضاً^(٣) رأوه على أنفسهم لا فضلاً منهم على الناس ،
قال قائلهم :

رُبَّ رَايِمٍ لِي بِأَحْجَارِ الْأَذَى لَمْ أَجِدْ بُدّاً مِنَ الْعُطْفِ عَلَيْهِ

« والله يحب المحسنين » والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه .. هذا في معاملة الحق ،
وأما في معاملة الخلق فالإحسان أن تدعّ جميع حقك بالكلية كم كان على من كان ، وتقبل
(. . .)^(٤) منه ولا تقلده في ذلك منة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا
أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا
لذُنُوبِهِمْ ، وَمَنْ يَغْفِرَ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ،

(١) سقطت الواو فأثبتناها .

(٢) أخطأ الناسخ إذ كتبها (المطالبات) أيضاً ، ونظراً لأن المطالعة مرتبطة بالكشف والكشف
مرحلة متأخرة . فقد تركنا الأولى (المطالبات) وصوبنا الثانية (المطالعات) .

(٣) وردت (قرضاً) والصواب بالقاء فهكذا يرشدنا السياق ، والشاهد الشرعي بعده .

(٤) مثلية .

ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون *

أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم

وجنات تجري من تحتها الأنهار

خالدين فيها ونعيم أجر العاملين ﴿١﴾

أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام « قُلْ لِلظُّلُمَةِ حَقٌّ لَا يَذْكُرُونِي فَإِنِّي أُوجِبْتُ أَنْ أَذْكُرَ مَنْ ذَكَرَنِي ، وَذِكْرِي لِلظُّلُمَةِ بِالْعَنَةِ » . وقال لظُلْمَةِ هذه الأمة :

« أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله » ثم قال في آخر الآية : « ومن يغفر الذنوب إلا الله » .

ويقال فاحشة كلُّ أحد على حسب حاله ومقامه ، وكذلك ظلمهم . وإن خطور المخالفات ببال الأكابر كيغفلوا من الأغيار ، قال قائمهم :

أنت عيني وليس من حق عيني غفص أجفاتها على الأقداء^(١)

فليس الجرم على البساط كالتنب على الباب .

ويقال فعلوا فاحشة بركونهم إلى أفعالهم ، أو ظلموا أنفسهم بملاحقة أحوالهم ، فاستغفروا لذنوبهم بالتبري عن حركاتهم وسكناتهم علماً منهم بأنه لا وسيلة إليه إلا به ، فخلصهم من ظلمات نفوسهم . وإن رؤية الأحوال والأفعال لظلمات عند ظهور الحقائق ، ومن طهره الله بنور العناية صانه عن التورط في المغاليط البشرية^(٢) .

« أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم » برّدّم إلى شهود الربوبية ، وما سبق لهم من الحسن في سابق القصة .

« وجنات تجري من تحتها الأنهار » مؤجلاً من الفرديس ، ومُعجلاً في روح المباحات وتمام الأتس .

قوله جل ذكره : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قِبَلِكُمْ سُنَنٌ فْسيروا ﴾

(١) البيت لابن الرومي يمتدح صديقه أبا القاسم التوذي الشطرنجي .

(٢) القشيري في هذه الفقرة متأثر بتعاليم أهل الملامة النيسابورية الذين يملنون حرباً لا هوادة فيها على كل دعوى للنفس حتى لينحاولون ستر حياتهم الباطنية بفعل ما يوجب ملامة الناس ، وكل ذلك في سبيل كسر النفس وعدم استعمار العبد لأي فضل منه :

في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة
المكذبين * هذا بيان للناس وهدى
وموعظة للمتقين *

يعنى اعتبروا بمن سلف ، وانظروا كيف فعلنا بمن وآلى وكيف انتقمنا من عادى ،
وقوله تعالى « هذا بيان للناس » : بيان لقوم من حيث أدلة العقول ، ولآخرين من حيث
مكاشفات القلوب ، ولآخرين من حيث تجلى الحق فى الأسرار .

قوله جل ذكره : * ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون
إن كنتم مؤمنين *

يعنى إذا قلتم بالله (ووصلتم^(١)) بالله فلا ينبغي أن تخافوا من غير الله ، ولا تهنوا
ولا تضعفوا فإن النصره من عند الله ، والغالب الله ، وما سوى الله فليس منهم ذرة
لا منهم سينة .

قوله : « إن كنتم مؤمنين » أى ينبغي للمؤمن ألا تظله مهابة من غير الله .

قوله جل ذكره : * إن ينسئكم قرح فقد مس القوم
قرح مثله ، وتلك الأيام نداؤها بين
الناس وليعلم الله الذين آمنوا
ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب
الظالمين *

إن نالكم فينا مشقة فالذين تقدموكم لقوا مثل ما لقيتم ، ومثوا بمثل ما به منيتم ، فمن صبر
منهم ظفر ، ومن ضجر من حبل ما لقي خسر ، والأيام نوب والحالات دؤل ، ولا يخفى
على الحق شيء .

قوله جل ذكره : * وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق
الكافرين *

(١) لا نستبعد أنها (وصلتم) من صال يصول ، ويدعم ذلك حرف الجر بعده ، وكذلك السياق .

اختبارات الغيب سبك^(١) للبعد فباختلاف الأطوار يخلصه من المشائب فيصير كالذهب الخالص لا خبث فيه ، كذلك يصفو عن العلل فيتخلص لله .

« ويمحق الكافرين » في أودية التفرقة . (وأما الزبد فيذهب جفاء)^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَلْمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾

من ظن أنه يصل إلى محل عظيم من دون مقاساة الشدائد ألقته أمانيه في مهواة الهلاك ، وإن من عرف قدر مطلوبه سهل عليه بذل مجهوده : (٠٠٠ ٠٠٠) وهو بلداته على من يظن بخلق العذار^(٣) وقال قائلهم :

إذا شام الفتي برق الماني فأمون فائت طيب الرقاد

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾

طوارق التمني بعد الصبر على احتمال للشاق ولكن :

إذا انسكبت دموع في خدود تبين من بكى^(٤) من تباكى

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أَتُكَلِّمُ الَّذِينَ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ

(١) وودت (شيك) وترجح أنها (سبك) فالسبك يدغم ذلك .

(٢) ترجح أن هذه الآية موضوعة هنا خطأ وأن مكانها عقب (لا خبث فيه) ليتناسك المعنى .

(٣) هكذا في (ص) والصحيح أنه :

وما جاد دهر بلذاته على من يظن بخلق العذار

وهو لأبي نواس في ملاحاة له مع مسلم بن الوليد .

(٤) جاءت في الشطر (تبين من بكى) وهي خطأ في النسخ .

على حقيقه فلن يضُرَّ الله شيئاً
وسيجزى الله الشاكرين ﴿

إن الرسل موقوفون حيناً وقِفُوا ، ونخبِرون عما عُرِفُوا بمقدار ما عَرَفُوا ؛ فإذا أُيدُوا
بأنوار البصائر أطلعوا على مكنونات السرائر بلطائف التلويح بمقدار ما أُعطُوا من الإشراف
بوظائف البلوغ .

« أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ » لما تَوَقَّعَ للصطفى - صلى الله عليه وسلم -
سقطت البصائر إلا بصيرة الصديق رضى الله عنه فأمدَّه الله بقوة السكينة ، وأفرغ عليه قوة
التولى فقال . « مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ » فصار الكلُّ مهوَّرين تحت سلطان
قائه لما انبسط عليهم من نور حالته ، كالشمس بطلوعها تندرج في شمعها أنوار الكواكب
فيستتر فيها مقادير مطارح شعاع كل نجم .

وإنما قال : « أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ » لأنه صلى الله عليه وسلم مات . وقيل أيضاً لأنه قال :
« مَا زَالَتْ أَكَلَةُ خَيْبَرَ تَعَاوَدُنِي فَبِذَا أَوَانَ قَطَعْتَ أَبْهَرِي »^(١)

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ
إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُوَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ
ثَوَابَ الدُّنْيَا نَفْسُهُ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ
ثَوَابَ الْآخِرَةِ نَفْسُهُ مِنْهَا وَسَيَجْزِي اللَّهُ
الشَّاكِرِينَ ﴾ .

الأنفاس محصورة ؛ لازيادة فيها ، ولا نقصان منها .

« وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نَفْسُهُ مِنْهَا » : للصالحين العاقبة وللآخرين الغفلة .

« وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نَفْسُهُ مِنْهَا » : وثواب الآخرة أوله الغفران ثم الجنان ثم الرضوان .

(١) وفي البخارى بلفظ « مَا أَرَادَ أَجْدَا أَلْمِ الطَّعَامِ الَّتِي أَكَلَتْ بِخَيْرٍ فَبِذَا أَوَانَ وَجِئَتْ انْقِطَاعُ
أَبْهَرِي مِنْ ذَلِكَ السَّمِ ؟ » قال القرطبي : « وَهَذَا قَالَهُ فِي مَرَضٍ مَوْتَهُ » .

(٢) أخطأ الناسخ إذ أضاف (وسيجزى الله) وقد التبس عليها ختام الآية السابقة .

« وسيجزي الله الشاكرين » : وجزاء الشكر الشكر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ
كَثِيرًا فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا
وَاللَّهُ يَحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ .

إن الذين درجوا على الوفاء ، وقاموا بحق الصفاء ، ولم يرجعوا عن الطريق ، وطالبوا
نفوسهم بالتحقيق ، وأخذوا عليها بالتضييق والتدقيق — وجدوا محبة الحق سبحانه ميراث
صبرهم ، وكان الخلف عنهم الحق عند نهاية أمرهم ، فـ^(١) زاغوا عن شرط الجهد ، ولا زاغوا
في حفظ العهد ، وسلموا نسلياً ، وخرجوا عن الدنيا وكان كل منهم للعهد مقبلاً مستديماً ، وعلى
شرط الخدمة والوداد مستقبلاً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا
اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا ،
وَتَبَتْ أْقْدَامُنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ
الكَافِرِينَ ﴾ .

تحققوا بحقائق المعنى فخرسوا^(٢) عن إظهار الدعوى ، ثم نطقوا بلسان الاستغفار ،
ووقفوا في موقف الاستحياء ، كما قيل :

يَتَجَنَّبُ الْآثَامَ ثُمَّ يَخَافُهَا فَكَأَنَّمَا حَسَنَاتُهُ آثَامُ

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَتَانَا اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا ﴾

وأقل ذلك القناعة ثم الرضا ثم العيش معه ثم الألس في الجلوس بين يديه ثم كمال الفرح
بلقائه ، ثم استقلال السر بوجوده .

(١) أخطأ الناسخ إذ نقلها (فلما زاغوا) وهذا بخلاف المعنى المراد ، والصحيح (فما)

(٢) وردت بالخاء والصواب أن تكون بالخاء ، فالمعنى يتطلب ذلك ويقوى به .

﴿ وَحَسَنُ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ، وَاللَّهُ يَجِبُ
الْمَحْسِنِينَ ﴾ .

يعنى دخولهم الجنة وهم محررون عنها ، غير داخلين فى أسرها .

ويقال ثواب الدنيا والآخرة الغيبة عن الدارين برؤية خالقها^(١) .

ولما قال « ثواب الدنيا » قال فى الآخرة « وحسن ثواب الآخرة » فوجب أن يكون
لثواب الآخرة مزية على ثواب الدنيا حيث خصه بوصف الحسن ، وتلك المزية دوامها وتماها
وتمازها ، وأنها لا يشوبها ما ينافيها ، ويوقع آفة فيها .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ
كَفَرُوا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا
خاسرين ﴾ بل الله مولاكم وهو خير
الناصرين ﴾ .

يعنى إن طاعتم الأضداد جرؤكم إلى أحوالهم^(٢) ، فالتقوكم فى ظلماتهم ، بل الله مولاكم :
تلصركم ومعينكم وسيدكم ومصلح أموركم ، « وهو خير الناصرين » : لأنه يعينكم على أنفسكم
ليكفئكم شرها ، ومن سواه يزيد فى بلائكم إذا ناصروكم لأنهم يعينون أنفسكم عليكم .
« وهو خير الناصرين » لأن من سواه يمن عليك بنصرته إياك ، وهو يجازيك على
استنصارك به .

ويقال كل من استنصرت به احتجت إلى أن تعطيه شيئاً من كرائمك ثم قد
ينصرك وقد لا ينصرك ، فإذا استنصرت — سبحانه — يعطيك كل لطيفة ، ولا يرضى
بالأ ينصرك .

قوله جل ذكره : ﴿ سَلِّقُوا قُلُوبَ الَّذِينَ كَفَرُوا

(١) الغيبة فى المصطلح الصوفى من مقوماتها ألا يحس العبد بواود من تذكر ثواب أو تفكر
فى عقاب ، وعلى حسب الغيبة عن الخلق يكون (حضور) العبد بالحق .
(٢) وردت (أحوالكم) وهذا خطأ فى النسخ .

الرعبَ بما أشركوا بالله ما لم ينزل
به سلطاناً ومأوامم النار ويئس
مشوى الظالمين *

إنَّ الله سبحانه خصَّ نبيَّنا — صلى الله عليه وسلم — بإلقاء الرعبِ منه في قلوب
أعدائه ، قال عليه السلام : « نُصِرْتُ بِالرَّعْبِ » . فكذلك أجرى هذه السُّنة مع أوليائه ؛
يطرح الهيبة منهم في القلوب ، فلا يكاد يكون محق إلا ومنه — على المبطلين وأصحاب
الدعوى والتمويه — هيبةٌ في القلوب وقهرٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذَا
تَحْسَبُوهُمْ بِأَيْدِيهِمْ فَإِذَا فَشِلُّوا
وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأُمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ
مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ ﴾

(إنه سبحانه يجازيك على استنصارك به ، ويقال كل من استنصرت به احتجت إلى أن
عطيه شيئاً من كرائمك ثم قد ينصرك وقد لا ينصرك ، فاذا استنصرت به — سبحانه —
يعطيك كل لطيفة ، ولا يرضى ألا ينصرك) . (١)

الإشارة من هذه الآية إلى أن الحق سبحانه أقام أوليائه بحق حقه ، وأقدمهم عن تحصيل
حظوظهم ، وقام سبحانه بكفائتهم بكل وجه ، فمن لازم طريق الاستقامة ، ولم يزغ عن حده
ولم يزغ في عهده ، فإنه سبحانه يصدق وعده له بجميل الكفاية ودوامها ، ومن ضلَّ عن
الاستقامة — ولو خطوة — عثر في مشيته ، واضطربت عليه — بمقدار جرِّمه — حاله
وكفايته ، فمن زَادَ زَيْدَ لَهْ ، ومن نَقَصَ نَقْصَ لَهْ .

قوله جل ذكره : ﴿ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾

(١) ما بين القوسين سبق وروده عند تفسير « وهو خير الناصرين » في ختام الآية قبل السابقة ،
ولا ندري هل أعادها القسري هنا لتفسير « ولقد صدقكم الله وعده » أم أن الناسخ قد وقع في التكرار
سهواً أثناء الكتابة ؟

يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم
ليبتليكم ولقد عفا عنكم ، والله
ذو فضل على المؤمنين ﴿٢٨٦﴾

قيمة كل أحد إرادته ؛ فمن كانت همته الدنيا فقيمتُه خسيصة حقيرة كاللدينا ،
ومن كانت همته الآخرة فشريف خطره ، ومن كانت همه ربانية فهو سيد وقته .

ويقال من صفا عن إرادته وصل إليه ، ومن وصل إليه أقبل — بلطفه — عليه ،
وأزلفه بمحل الخصوصية لديه .

قوله : « ثم صرفكم عنهم » : الإشارة منه أنه صرف قوماً عنه فشغلهم بغيره عنه ،
وآخرون صرفهم عن كل غير فأفردهم له ؛ فالزاهدون صرفهم عن الدنيا ، والماعبدون
صرفهم عن اتباع الهوى ، والمريدون صرفهم عن المني ، والموحدون صرفهم عما هو
غيرٌ سوى .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلَوْنِ عَلَى أَحَدٍ
وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ فَأَتَابَكُمْ
غَمًّا بِغَمٍّ لَّنْكِلا تَعْمُرُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ
وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ
* ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ
أَمْنَةً نُعَاسًا يَفْشِي طَائِفَةً مِنْكُمْ ،
وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ
بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةُ يَقُولُونَ
هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ، قُلْ إِنْ
الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ؛ يَخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ
مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا
مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا ، قُلْ

لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين
كُتِبَ عليهم القتلُ إلى مضاجعهم
وليبتلي الله ما في صدوركم ،
وليحصن ما في قلوبكم ، والله عليم
بذات الصدور * .

قوله : « إذ تصعدون » الإشارة من هذه الآية لأقوام تقع لهم فترة ، ودواعي الحق سبحانه — من أنفسهم ، ومن جميع الأقطار حتى كأنَّ الأحجارَ من الشوارع والذين من الجدران — تناديه : لا تفعل يا عبد الله ! وهو مُصِرٌّ في لِيَّه ، مقيمٌ على غِيَّه ، جاحدٌ لما يعلم أنه هو الأحقُّ والأولى من حاله ، فإذا قضى وطره واستوفى بهيمته ، فلا محالة يمسك من إرسال عنانه ، ويقف عن ركضه في ميدانه ، فلا يحصل إلا على أنفاسٍ منصاعدة ، وحسراتٍ متواترة ؛ فأورثه الحقُّ — سبحانه — وحشةً على وحشة . حتى إذا طال في التحسر مقامه تداركه الحقُّ — سبحانه — بجميل لطفه ، وأقبل عليه بحسن عطفه ، وألقاه من ضيق أسره ، ونقله إلى سعة عفوه وفضله ، وكثيرٌ من هؤلاء يصلون إلى محل الأكابر ثم يقفون بالله لله (.)^(١) ويقومون بالله لله بلا انتظار قريب ولا ملاحظة ترحيب .

قال تعالى : « ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنةً نعاساً يغشى طائفةً منكم وطائفةً قد أهمتهم أنفسهم ، يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية » : فأهل التحقيق والتوحيد يصلون بعد فتراتهم^(٢) إلى القول بترك أنفسهم ، وغسل أيديهم منهم ، ورفع قلوبهم عنهم فيعيشون بالله لله ، بلا ملاحظة طمع وطلبة ، بل على عقيدة اليأس عن كل شيء . عليه أكّدوا العهد ، وبدّلوا اللحظ^(٣) ، وتركوا كل نصيب وحظ ، وهذه صفة من أنزل عليه الأمانة .

فأما الطائفة التي أهمتهم أنفسهم — فبقوا في وحشة نفوسهم ، ومن عاجل عقوبتهم سوء

(١) مشتبه .

(٢) وردت (فتراتهم) بالطاء والأصوب أن تكون بالياء لأن الفترة وقت مناساة ومعاناة فهي تتلاءم مع (وتجرع حسراتهم) .

(٣) اللحظ هنا معناها الملاحظة ، ملاحظة النفس أو ملاحظة العوض .

عقيدتهم في الطريقة بعد إيمانهم بها ، قال تعالى : « وَقُلُوبُ أَفْئَسَتْهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ كَامًا يَوْمَنُوا بِـ
لَوْلَ مرة » .

والإشارة في قوله تعالى : « هل لنا من الأمر من شيء » لهؤلاء أنهم يتحيرون في أمرهم
فلا إقبال لهم على الصواب بالحقيقة ، ولا إعراض بالكلية ، يحيلون فقرتهم على سوء اختيارهم ،
ويضيفون صفوة - لو كانت لقلوبهم - إلى اجتهدهم ، ويفسّون ربهم في الحالين ، فلا يبصرون
تقدير الحق سبحانه . قال تعالى :

« قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ » : فَمَنْ عَرَفَ أَنَّ الْمُنْشَأَ اللَّهُ السِّلْخَ عَنْ اخْتِيَارِهِ وَأَحْوَالِهِ
كَالسِّلْخِ الشَّعْرِ عَنِ الْمَجِينِ ، وَسَلَّمَ أُمُورَهُ إِلَى اللَّهِ بِالْكُلِيَّةِ . وَأَمَارَةٌ مَنْ تَحْقُقُ بِذَلِكَ أَنَّ
يَسْتَرِجُ مِنْ كَدِّ تَدْبِيرِهِ ، وَيَعِيشُ فِي سَعَةِ شُهُودِ تَقْدِيرِهِ .

وقوله : « يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك » : لم يُخْلِصُوا فِي عَقَائِدِهِمْ ، وَأَضْمَرُوا خِلَافَ
مَا أَظْهَرُوا ، وَأَعْلَنُوا غَيْرَ مَا سَتَرُوا ، وَأَحَالُوا الْكَائِنَاتِ عَلَى أَسْبَابِ تَوْهَمِهَا .

قال تعالى : « قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِلَى مِضَاجِهِمْ » :
أَخْبَرَ أَنَّ التَّقْدِيرَ لَا يَزَاحِمُ^(١) ، وَالْقَدَرُ لَا يُكَابِرُ ، وَأَنَّ الْكَائِنَاتِ مَحْتَمَةٌ ، وَأَنَّ اللَّهَ
غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ .

وقوله : « وليبلى الله ما في صدوركم » : فَأَمَّا أَهْلُ الْحَقَائِقِ فَإِنَّهُ تَعَالَى يَنْتَزِعُ مِنْ قُلُوبِهِمْ
كُلَّ آفَةٍ وَحُجْبَةٍ ، وَيَسْتَخْلَصُ أَسْرَارَهُمْ بِالْإِقْبَالِ وَالزُّلْفَةِ ، فَتَصْبِحُ قُلُوبُهُمْ خَالِصَةً مِنَ الشَّوَابِ ،
صَافِيَةً عَنِ الْعِلَاقِ ، مُنْفَرِدَةً لِلْحَقِّ ، مُجَرَّدَةً عَنِ الْخَلْقِ ، مُحَرَّرَةً عَنِ الْحِفْظِ وَالنَّفْسِ ، ظَاهِرَةً
عَلَيْهَا آثَارُ الْإِقْبَالِ ، غَالِبًا عَلَيْهَا حُسْنُ التَّوَلَّى ، بَادِيَةً فِيهَا أَنْوَارُ التَّجَلَّى .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى

الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ
بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ
عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ »

(١) وردت بالهاء والصواب أن تكون بالهاء .

الإشارة من هذه الآية إلى أحوال من حَقِّمَتْ إِرَادَتُهُمْ ، وَضَعَفَتْ نِيَّاتُهُمْ ، وقادهم الهوى ،
وَمَلَكَتْهُمْ الْفَتْرَةُ .

قَابَلَهُمْ نَصْحُ النَّاصِحِينَ ، ودعوة للنبي ، ووساوس الشياطين فركنوا إلى الغيبة ، وآثروا
الهوى على التقى فبقوا عنه ، ولم يتهنؤوا بما آثروه عليه .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ
كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا
فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى ، لَوْ كَانُوا
عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْمَلَ اللَّهُ
ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحِبُّ
الْمُحْسِنِينَ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

مَنْ تَعَوَّدَ أَنْ يَتَلَهَّفَ عَلَى مَاضِيهِ وَسَالَفِهِ ، أَوْ يَتَدَبَّرَ فِي مُسْتَقْبَلِهِ وَآئِفِهِ ، فَأَقْلَبُ عَقُوبَةً لَهُ ضَيْقُ
قَلْبِهِ فِي تَفْرِيقَةِ الْمَمُومِ ، وَامْتِحَاءِ نَعْتِ الْحَيَاةِ^(١) عَنْ قَلْبِهِ لِفُتْكِهِ وَقَالَتِ لَيْتَ كَذَا وَلَعَلَّ كَذَا ،
وَعَمْرَةُ الْفِكْرَةِ فِي لَيْتَ وَلَعَلَّ — الْوَحْشَةُ وَالْحَسْرَةُ وَضَيْقُ الْقَلْبِ وَالتَّفْرِيقَةُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمُ
لَنَغْفِرَ اللَّهُ مِنْكُمْ وَلَنَجْزِيَنَّكُمْ
مِمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وَلَئِنْ مُتُّمُ أَوْ قُتِلْتُمْ
لِإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾

بذل الروح في الله خير من الحياة بغير الله ، والرجوع إلى الله خير لمن عرف الله من
البقاء مع غير الله ، وما يؤثره العبد على الله فغير مبارك ، إِنْ شِئْتَ : والدنيا ،
وإِنْ شِئْتَ : والعقبى .

قوله « وَلَئِنْ مُتُّمُ أَوْ قُتِلْتُمْ لِإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ » : إِذَا كَانَ لِلْمُصِيرِ إِلَى اللَّهِ طَابَ الْمَسِيرُ

(١) حياة القلب عمارته بالله وقد وردت في مطلع الإشارة التالية ، ولا يستبعد أنها (الحياة) فهي
مقبولة أيضاً .

إلى الله : وإنَّ سَفَرَهُ إِلَيْهِ بَعْدَهَا نَحْطُ رَحَالَنَا لِمُقَاسَاتِهَا أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ ۱
 قوله جل ذكره . ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ
 فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ
 حَوْلِكَ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ ، وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ،
 وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ، فَإِذَا عَزَمْتَ
 فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
 الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ .

جَرَّدَهُ عَنْ أَوْصَافِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَأَفْرَدَهُ بِمَا أَلْبَسَهُ مِنْ نَعْتِ الرَّبُوبِيَّةِ ، وَأَخْبَرَ أَنَّ مَا يُلَوِّحُ
 إِلَيْهِ مِنْ أَنْوَارِ التَّوَلَّى ، لَا مِنْ آثَارِ الْوَفَاقِ وَالتَّبَرُّيِّ ، وَلَوْلَا أَنَّهُ اسْتَخْلَصَهُ بِمَا أَلْبَسَهُ وَإِلَّا مَتَى
 كَانَ بِنَاكَ الصِّفَةُ ؟ ۱

وَيُقَالُ إِنَّ مِنْ خَصَائِصِ رَحْمَتِهِ — سُبْحَانَهُ — عَلَيْهِ أَنْ قَوَّاهُ حَتَّى صَحِّبَهُمْ ، وَصَبَرَ
 عَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ إِلَيْهِمْ ، وَعَلَى مَا كَانَ يِقَاسِيهِ مِنْ اخْتِلَافِهِمْ — مَعَ سُلْطَانِ مَا كَانَ مُسْتَغْرِقًا لَهُ
 وَجَمِيعِ أَوْقَاتِهِ مِنْ اسْتِبْلَاقِ الْحَقِّ عَلَيْهِ ، فَلَوْلَا قُوَّةُ إِلَهِيَّةِ اسْتَأْثَرَهُ الْحَقُّ بِهَا وَإِلَّا مَتَى أُطَاقَ صَحْبُهُمْ ؟ ۱
 أَلَا تَرَى إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا كَانَ قَرِيبَ الْعَهْدِ بِسَمَاعِ كَلَامِهِ كَيْفَ لَمْ يَصْبِرْ عَلَى
 مُخَاطَبَةِ أَخِيهِ فَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجْرُهُ إِلَيْهِ ؟

وَيُقَالُ لَوْلَا أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَاهِدَهُمْ مَحْوًا فِيمَا كَانَ يَجْرِي عَلَيْهِمْ مِنْ أَحْكَامِ
 التَّصْرِيفِ ، وَتَحَقَّقَ أَنَّ مَنْشَأَهَا اللَّهُ — لَمَّا أُطَاقَ صَحْبُهُمْ .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ : لَوْ سَقَيْتَهُمْ صِرْفَ
 شَرَابِ التَّوْحِيدِ غَيْرَ مَمْزُوجٍ بِمَا فِيهِ لَمْ حَظُّ لَتَفَرَّقُوا عَنْكَ ، هَائِمِينَ عَلَى وَجْهِهِمْ ، غَيْرَ
 مُطِيقِينَ لِلْوُقُوفِ لِحُظَّةٍ ، ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ ﴾ فِيمَا يَكُونُ تَقْصِيرًا مِنْهُمْ فِي حَقِّكَ وَتَوْفِيرَكَ ،
 وَمَا عَثَرَتْ عَلَيْهِ مِنْ تَفْرِيطِهِمْ فِي خِدْمَتِنَا وَطَاعَتِنَا — فَانْتَصِبْ لَهُمْ شَفِيعًا إِلَيْنَا .

وَيُقَالُ ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ ﴾ فَاعْفُ — أَنْتَ — عَنْهُمْ فَإِنْ حَكَكَ حَكْمُنَا ، فَأَنْتَ لَا تَعْفُو
 إِلَّا وَقَدْ عَفَوْنَا . ثُمَّ رَدَّهُ عَنْ هَذِهِ الصِّفَةِ بِمَا أَثْبَتَهُ فِي مَقَامِ الْعِبُودِيَّةِ ، وَتَقَلَّهُ إِلَى وَصْفِ التَّفَرُّقَةِ

فقال : ثم قِفْ في محل التذلل مبتهلاً إلينا في استغفارهم . وكذا سُنَّتُهُ — سبحانه — مع أنبيائه عليهم السلام وأوليائه ، يرُدُّهم من جمع إلى فرق ومن فرق إلى جمع ، فقوله : « فاعف عنهم » جمع ، وقوله : « واستغفر لهم » فرق .

ويقال « فاعف عنهم » ونجاوز عنهم في حقوقك ، ولا تكتفِ بذلك ما لم تستغفر لهم إكالا للكرم ؛ ولهذا كان يقول : « اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون » .

ويقال ما يُقَصِّرُون في حَقِّكَ تَعَلَّقْ به حَقَّان : حَقِّكَ وحَقِّي ، فاذا عفوت أنت فلا يكني هذا القَدْرُ بل إنْ لَمْ أَتَجَاوِزْ عنهم في حَقِّي كانوا مستوجبين للعقوبة ؛ فمن أَرْضَى خِصْمَهُ لَا يَنْجِبِرْ حَالُهُ ما لم يغفر الله له فيما ترك من أمره .

وقوله « واستغفر لهم وشاورهم في الأمر » أي أثبت لهم محلاً ؛ فإنَّ المعفو عنه في صدور الخجلة لا يرى لنفسه مقام الكرامة ، فاذا شاورهم أزلت عنهم انكسارهم ، وطببت لهم قلوبهم .

ويقال تَجَنَّسُوا في أحوالهم : فَمِنْ مُقَصِّرٍ في حَقِّهِ أَمْرٍ بِالْعَفْوِ عنه ، ومن مرتكب لذنوبه أَمْرٍ بِالِاسْتِغْفَارِ له ، ومن مطيع غير مقصر أَمْرٍ بِمُشَاوَرَتِهِ .

ثم قال : « فاذا عزمت فتوكل على الله » أي لا^(١) تتكل على رأى مخلوق وِكل الأمور إلى ، فإننا لا نُخْلِيكَ عن تصريف القبضة بحال .

وحقيقة التوكل شهود التقدير ، واستراحة القلوب عن كد التدبير .

« إن الله يحب المتوكلين » يذيقهم بَرْدَ الكفاية ليزول عنهم كل لُغْبٍ^(٢) وَنَصَبٍ ، وإنه يعامل كلاً بما يستوجبه ؛ فقومٌ يقضيهم — عند توكلهم — بعطائه ، وآخرون يكفيهم — عند توكلهم — ببلقائه ، وقوم يرضيهم في عموم أحوالهم حتى يكتفون ببقائه ، ويقفون معه به له — على تلوينات^(٣) قَدَرِهِ وقضائه .

(١) سقطت (لا) من النسخ .

(٢) وردت (لقب) بالثقاف والصواب أن تكون (لغب) بالعين ، وربما كانت في الأصل (تعب)

(٣) اللفظة رديئة الخط ، ويحتمل أنها (تقلبات) ، وتلوين الأحوال مصحوب — حسب الاصطلاح

الصوى — يتقلب الأحوال ، ولهذا قالني يتقبل كلا اللفظين .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِن يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ،
وإن يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ
مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

المؤمنون نصرته لم بالتوفيق للأشباح ثم بالتحقيق للأرواح .

ويقال ينصركم الله بتأييد الظواهر وتسديد^(١) السرائر .

ويقال للنصرة إنما تكون على العدو ، وأعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك .
والنصرة على النفس بأن تهزم دواعي مُنتهاها بعواصم رحمته حتى تنفّض جنود الشهوات بهجوم
وفود المنازلات فتبقى الولاية لله خالصة من شبهات الدواعي التي هي أوصاف البشرية ،
وشهوات النفوس وأمانيتها ، التي هي آثار الحجة وموانع القربة .

« إن يخذلكم » الخذلان التخلية مع المعاصي ، فمن نصره قبض على يديه عن تعاطي
المكروه ، ومن خذله ألقى حبله على غاربه ، ووكّله إلى سوء اختياره ، فيفترق عليه الحال
في أودية الشهوات ، فمرة يُشرّق غير محتشم ، وتارة يُغرّب غير مُحترَم ، ألا ومن سببه الحق
فلا آخذ بيده ، ومن أسله^(٢) فلا يجير له .

« وعلى الله فليتوكل المؤمنون » : في وجدان الأمان عند صدق الابتهاال ، وإسبال
ثوب^(٣) العفو على هناة الجرم عند خلوص الالتجاء ، بالنبرى من المنّة والحول .

ويقال لما كان حديث النصره قال : « فلا غالب لكم » ، ولما كان حديث الخذلان
لم يقل « فلا ناصر لكم » بل قال بالتلويح والرمز : « فمن ذا الذي ينصركم من بعده » :
وفي هذا لطيفة في مراعاة دقائق أحكام الخطاب .

(١) من السداد .

(٢) أي أسله إلى نفسه :

(٣) وودت (ثواب) ، والملائم للأسبال : (ثوب) ولذلك آثرناها .

قوله جل ذكره : ﴿ وما كان لنبي أن يغفل ومن يغفل يات بما غل يوم القيامة ، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾

نَزَّهَ (١) أحوال الأنبياء عن الدَّكْسِ بالحيانات ، فمن حَمَلْنَاهُ من الرِّسالة إلى عبادنا بوصليها إلى مستحقها واجباً ، ولا يعتنى بشأن حِمْمٍ له مِنْ دُونِ أَمْرِنَا ، ولا يمنع نصيب أحدهم أمرناه بإيصاله إليه ، بمقتضى ينطوى عليه . ألا ترى كيف قال : « اذهب فواره » لأبي طالب لما قال له أمير المؤمنين علي رضي الله عنه : مات عمك (٢) الضال . وكيف قبل الوحش قاتل حمزة لما أسلم ؟

ويقال ما كان لنبي من الأنبياء صلوات الله عليهم أن يضع أسرارنا في غير أهلها ، بل يُنْزِلُونَ كل أحده عند ما يستوجه ، وفي الأثر « أَمْرُنَا أَنْ تُنْزَلَ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ »

قوله جل ذكره : ﴿ أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَيُنْسِ الْمَصِيرَ * هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾

لا يستوى مَنْ رَضِيَ عنه في آزاله وَمَنْ سَخَطَ عليه فخذله في أحواله ، وجعله منكلاً على أعماله ، ناسياً لشهود أفضاله ، واتباع الرضوان بمفارقة ما رُجِرَ عنه ، ومعاينة ما أُمرَ به ، فَمَنْ تَجَرَّدَ عن المزجور ، وتجلد في اعتناق الأمور فقد اتبع الرضوان ، واستوجب الجنان .

(١) أخطأ الناسخ فكتبها (تزح) بالخاء :

(٢) « اذهب فواره » هكذا أخرجه ابن سعد وابن عساكر عن علي رضي الله عنه :

وفي السيرة الحلبية : إن هذا الحديث أخرجه أيضاً أبو داود والنسائي وابن الجارود وابن خزيمة عن علي قال : لما مات أبو طالب أخبرني النبي (ص) بموته فبكى وقال : « اذهب فواره » .

وانظر أيضاً « أسنى المطالب في نجات أبي طالب » لزيني دحلان ط طهران سنة ١٣٨٢ (ص ٤١) .

« هم درجات عند الله » : أى هم أصحاب درجات فى حكم الله ، فمن سعيد مقرب ، ومن شقي مبعد .

قوله جل ذكره : ﴿ لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾

أجزل لديهم العارفة ، وأحسن إليهم النعم حيث أرسل إليهم مثل المصطفى سيد الورى صلوات الله عليه وعلى آله ، وعرفهم دينهم ، وأوضح لهم براهمينهم ، وكان لهم بكل وجه فلا نعمة شكروا ، ولا حقه وقروا ، ولا بما أرشدهم استبصروا ، ولا عن ضلالتهم أقصروا .. هذا وصف أعدائه الذين جحدوا واستكبروا . وأما للمؤمنون فتقلدوا المنَّة فى الاختيار ، وقابلوا الأمر بالسبع والطاعة عن كنه الاقتدار ، فسعدوا فى الدنيا والعقبى ، واستوجبوا من الله الكرامة والزلى .

قوله جل ذكره : ﴿ أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم ، إن الله على كل شيء قدير ﴾

عادة الخلق نسيان ما منهم من الخطأ والعصيان ، والرجوع إلى الله بالهمة فيما يتصل بهم من الحزن والخسران ، وفنون المكارة والافتتان ، وإن من تعاطى (. . .) (١) الإجرام فحقيق ألا ينسى حلول الانتقام .

قوله جل ذكره : ﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعان فباذن

(١) مشبهة .

الله وليعلم المؤمنين • وليعلم الذين
 ناققوا وقيل لهم تعالوا قالوا
 في سبيل الله أو اذفموا قالوا : لو نعلم
 قتالاً لا تبغناكم ، هم لكفر
 يومئذ أقرب منهم للإيمان ، يقولون
 بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، والله
 أعلم بما يكتمون *

هوّن على المؤمنين وأصحاب البصائر ما لقوا من عظيم الفتنة يوم أحد ، بأن قال إن ذلك
 أجمع كان بإذن الله ، وإنّ بلاء يصيب بإذن الله لمن العسل أحلى ، ومن كل نعيم أشهى .
 ثم أخبر أن الذين لم يكن لهم في الصحبة خلوص كيف تعللوا وكيف تسكسلوا :
 وكذا للؤلؤ إذا أراد قطعة ملّ الوصال وقال كان وكانا

قوله تعالى : « يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم » فلا جرّم (سقوا العسل ودسّوا له
 فيه الحنظل) (١) ، ومكروا ومكر الله والله خبر الماكرين .

قوله جل ذكره : ﴿والذين قالوا لإخوانهم وقعدوا
 لو أطاعونا ما قتلوا قلّ قدرهوا من
 أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾

الذين ركنوا إلى ما سوّلت لهم نفوسهم من إيثار الهوى ، ثم اعترضوا على من يصرف
 أحكام القضاء وقالوا لو تحرّزّا عن البروز للقتال لم يسقطوا عن درجة السلامة .. كذمومة
 تلك الظنون ، ولذاهبة عن شهود التحقيق تلك القلوب .

(١) هكذا يمكن أن تقرأ هذه العبارة لو بنى الفعلان فيها للمعوم ، أما لو بنىا للمجهول فإن الجزء الثانى
 منها يكون (ودس لهم فيه الحنظل) . فالفاعل فى الحالة الأولى يكون ضميراً يعود على المنافقين ، ونائب
 الفاعل فى الحالة الثانية يكون المولى عز وجل وما جاء فى النسخة (س) يرجع الثانية ، وإن كنا
 نميل للأولى .

قُلْ لَمْ — يا محمد — استديموا لأنفسكم الحياة ، وادفعوا عنها هجوم الوفاة !

ومتى تقدرون على ذلك ؟ هيهات هيهات !

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

أَمْوَاتًا بَلْ أحياء عند ربهم يرزقون

فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ

وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ

مَنْ خَلْفَهُمْ إِلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ

وَلَأَمٌّ يَحْزَنُونَ ﴾

الحياة بذكر الحق بعد ما تتلف النفوس في رضا الحق أنتم من البقاء بنعمة الخلق مع

النجبة من الحق .

ويقال إن الذي وارثه الحى الذى لم يزل فليس يميت — وإن قُتِلَ :

وإن كانت العبدان للموت أنشئت قتل امرئ في الله — لاشك — أفضل

قوله : « ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم » : من علم أن أحياءه ينتظرونه

وهم في الرقة والنعمة لا يهنأ بعيش دون التأهب والإلمام بهم والتزول عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِ

وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

عِلَّةُ استبشارهم وموجبه فضل من الله ونعمة منه ، أى لولا فضله ونعمته بهم وإلا متى

استبشروا ؟ فليس استبشارهم بالنعمة إنما استبشارهم بأنهم عبادُه وأنه مولاهم^(١) ، ولولا فضله

ونعمته عليهم لما كانت لهم هذه الحالة .

(١) يقول الدقاق — شيخ القشيري وصهره — ليس أشرف من العبودية ، ولا اسم أنتم للمؤمن من الاسم له بالعبودية ، وقد وصف بها الرسول (ص) في أشرف أوقاته في الدنيا ، قال تعالى « فأوحى إلى عبده ما أوحى » .

لا تدعى إلا بيا عبدا فإنه أشرف أسمائى (الرسالة ص ١٠٠)

قوله جل ذكره : ﴿الذين استجابوا لله والرسول من

بعد ما أصابهم القرع للذين أحسنوا

منهم واتقوا أجر عظيم﴾

للاستجابة مزية وفضيلة على الإجابة من حيث الإشارة لا من مقتضى العريية^(١) وهو أنه يستجيب طوعاً لا كرهاً ، فهم استجابوا لله من غير انطواء على تحمل مشقة بل بإشارة القلب وعبة الفؤاد واختيار الروح واستجلاء^(٢) تحمل الحكم . فالاستجابة للحق بوجوده ، والاستجابة للرسول — عليه السلام — بالتخلق بما شرع من حدوده .

استجابة الحق بالتحقق بالمصفاة في حق الربوبية ، واستجابة الرسول عليه السلام بالوفاء في إقامة العبودية .

« من بعد ما أصابهم القرع » : في ابتداء معاملهم قبل ظهور أنوار التجلي على قلوبهم ، وابتسام الحقائق في أسرارهم .

« للذين أحسنوا منهم » : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ... » — وهو للشاهدة والتقوى — « فإن لم تكن تراه فإنه يراك »^(٣) — وهو المراقبة في حال المجاهدة .
« أجر عظيم » لأهل البداية مؤجلاً ، ولأهل النهاية مُعجلاً .

قوله جل ذكره : ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس

قد جمعوا لكم فاعشوهم فزادهم إيماناً

وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾

لم يلتبس على ظواهرهم شيء من أحوال الدنيا إلا افتتحت لهم — في أسرارهم — طوابع من الكشوفات ، فازدادوا يقيناً على يقين .

(١) أى على مقتضى صيغ الاشتقاق في اللغة .

(٢) في ص (استجلاء) والصواب أن تكون بالخاء .

(٣) « أعبد الله كأنك تراه ... » رواه الطبراني عن أبي الدرداء ، وحسن البيهقي سنده ، وضعفه المنذرى . قال الحافظ العراقي : رجاله ثقات وفيه انقطاع « أعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » ، واحسب نفسك في الموتى ، واتق دهوة المظلوم « وفي الحلية عن زيد بن أرقم .

ومن أمارات اليقين استقلالُ القلوب بالله عند انقطاع التُّمْنِي من الخلق في توم
الإنجاد والإمارة .

قوله جل ذكره : ﴿ فَاتَّقِلْبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلِهِ
لَمْ يَحْسَسْهُمْ سُوءٌ ، وَاتَّبِعُوا رِضْوَانِ اللَّهِ
وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾

كنا سُنَّة الحق — سبحانه — مع مَنْ صَدَّق في التجائه إليه أن يهد مقلبه في ظل كفايته ،
فلا البلاء يحسه ، ولا العناء يصيبه ، ولا النصب ^(١) يُظِلُّه .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ
أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ ، وَخَافُوا إِن
كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾

الإشارة في تسليط دواعي الشيطان على قلوب الأولياء صدق فرارهم إلى الله ، كالصبي الذي
يخوف بشيء يفرغ الصبيان ، فإذا خاف لم يهتد إلى غير أمه ، فإذا أتى إليها آوَتْه إلى نفسها ،
وضمته إلى تحرها ، وألصقت بخدمته خدما .

كذلك العبد إذا صدق في ابتاله إلى الله ، ورجوعه إليه عن مخالفته ، آواه إلى كنف
قربته ، وتداركه بحسن لطفه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي
الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُوا اللَّهَ شَيْئًا ،
يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِظًّا فِي
الْآخِرَةِ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

زاد في قوة قلبه بما جدَّ له من تأكيد العهد ، بأنه لا يُشْمِتُ به عدواً ، ولا يُوَصِّلُ
إليه من رقبيلهم سوءاً .

(١) في من (النصيب) والصواب (النصب) فالنصب يتطلب ذلك .

(٢) هنا أضلَّف الناصخ — سهواً — لفظة (الله) لحذفها .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ

لَنْ يَضُرُوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ

أَلِيمٌ ۝

إِنْ أَضْرُّوا فَمَا أَضْرُّوهُ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ ، وَإِنْ أَصْرُّوا فَمَا أَصْرُّوا إِلَّا عَلَى خُسْرَانِهِمْ :

فَمَا نَحْنُ عَذْبُنَا بِمُعَذِّرِ دِيَارِهِمْ وَلَا نَحْنُ سَاقِتُنَا إِلَيْهِمْ نَوَازِعُ

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا يَتَحَسَّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ مَا بُعِثَ

لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا بُعِثَ لَهُمْ لِيُزَادُوا

إِنَّمَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝

من تمام المكر بهم ، وللبالغة في عقوبتهم أننا نعدّ بهم وهم لا يشعرون ، نستدرجهم من

حيث لا يعلمون ؛ بُعِثَ لَهُمْ فَيُظَنُّونَ ذَلِكَ إِنْعَامًا ، وَلَا يُحْسِبُونَهُ انتِقَامًا ، فإذا برزت لهم كوامنُ

التقدير عند مغاراتها علموا أنهم لفي خسران ، وقد اتضح لكلّ ذى بصيرة أن ما يكون

سببَ العصيان وموجبَ النسيان غيرُ معدودٍ من جملة الإنعام .

قوله جل ذكره : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى

مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ

الطَّيِّبِ ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ

عَلَى الْغَيْبِ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ

رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ ، فَآمِنُوا بِاللَّهِ

وَرُسُلِهِ ، وَإِنْ تَوَلَّوْا وَتَنَقَّوْا فَلَكُمْ

أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝

جمعهم اليوم من حيث الأشخاص والمباني ، ولكنه فرقهم في الحقائق والمعاني ؛ فبين

طَيِّبَةٍ سَجِيَّتُهُ ، ومن خبيثة طَيِّبَتُهُ . وهم وإن كانوا مشائب^(١) ففي بصيرة الخواص هم ممتازون^(٢) .

(١) مشائب = أخلاط .

(٢) ممتازون هنا مرتبطة بالفعل (يميز) الذي في الآية الكريمة أى لانهم معروفون عندنا ؛ يميز
طبيهم مهما كانوا أخلاطاً .

« وما كان الله ليطلعكم على الغيب » : فإن أسرار الغيب لا تظهر للمتوكلين بأدناس البشرية ، وإن الحق سبحانه مستأثر بعلم ما جلّ وقلّ ، فيختص من يشاء من أنبيائه بمعرفة بعض أسرارهِ :

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمْ

الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شرٌّ لهم ، سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا به يوم القيامة ، والله ميراث السموات والأرض ، والله بما تعملون خبير ﴾

من أثر شيناً على الله لم يبارك له فيه ؛ فلا يدوم له — في الدنيا — بذلك استمتاع ، ولا للعقوبة عليه — في الآخرة — عنه دفاع .

والبخل — على لسان العلماء — منع الواجب ، وعلى مقتضى الإشارة إبقاء شيء ولو ذرة من المال أو نفساً من الأحوال .

قوله جل ذكره : ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ

الله فقير ونحن أغنياء ، سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ، ونقول ذوقوا عذاب الحريق ﴾ ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلامٍ للعبيد ﴾

هذا الخطاب لو كان بين المخلوقين لكان شكوى . والشكوى إلى الأولياء من الأعداء سنةٌ الأحباب .

ويقال علم أن في المؤمنين من يغتاب الناس ، وذلك قبيح من قائلهم ، فأظهر قُبْحاً فوق ذلك ليتصاغر قبح قول المؤمنين بالإضافة إلى قبح قول الكفار ، فكأنه قال : لئن قبحت قائلهم في الاغتياب فأقبح من قولهم قول الكفار حيث قالوا في وصفنا ما لا يليق بنعمتنا .

وقيه أيضاً إشارة إلى الدماء إلى الخلق ، والنجاوز عن الخضم ، فإن الله — سبحانه —
لم يسلبهم ما أولام مع قبيح ما ارتكبوه من التقصير في حقوقه .

قوله : « سنكتب ما قالوا » : هذه الكلمة من موجبات الخجلة لأهل التقصير بأدق
إشارة ؛ يعنى أنهم وإن نسوا أحوالهم وأقوالهم فإننا ننشر لهم ما كتبنا عليهم قال قائلهم :

صمائمُ عِنْدِي لِلْعَنَابِ طَوِيَّتُهَا سَتُنَشِّرُ يَوْمًا وَالْعَنَابُ يَطُولُ
سَأَصْبِرُ حَتَّى يَجْمَعَ اللَّهُ بَيْنَنَا فَإِنْ نَلْتَقِ يَوْمًا فَسَوْفَ أَقُولُ

قوله : « ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد » هذا لو كان من مخلوق
مع مخلوق/الأشبه العنبر مما عمله به ، فكأنه — سبحانه — يقول : « عبيد : هذا الذى تلقاه
— اليوم — من العقوبة لأن الذنب لك ، ولولم تفعله لما عذبتك » .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَرِدَ عَنِ الْبَنَى

أَلَا تَوَدُّ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِينَا بَقُرْبَانٍ
تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ
قَبْلِ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِى قُلْتُمْ ، فَلَمْ
تَنْتَهُمُ أَنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

تقولوا على الله — سبحانه — فيما تعلوا به من ترك الإيمان ، فقالوا : لقد أمرنا ألا نصدق
أحدًا إلا لو أتانا بقربان يتقرب به إلى السماء ، وتنزل نار من السماء ، فتأخذ القربان عيانًا ببصر ،
فقال تعالى : قل لم إن من تقدمنى من الأنبياء عليهم السلام أتوكم بما اقترحتم على من القربان ،
ثم لم تؤمنوا ، فلو أجبتمكم إليه لن تؤمنوا بي أيضاً ؛ فإن من أقصته السوابق — فلو خاطبته
الشمس بلسان فصيح ، أو سجدت له الجبال فرآها بلحظ صحيح — لم يبلغ العرفان في قلبه ،
وما ازداد إلا شكاً على شك .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّنْ

قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ
وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ .

أى عادة الكفار تكذيب الرسل : وعلى هذا النحو درج سلفهم ، ويهديم
اقتدى خلفهم .

قوله جل ذكره : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ
أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحِرَ
عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ،
وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾

أى كأس الموت توضع على كف كل حي فمن نحلها طيبةً نفسه أوزنته سُكَّرَ الوجد ،
ومن تجرَّعها على وجه التعبس ، وقع في وهدة الرد ، ووُصِمَ بِكَيْ الْقَدَّةِ ، ثم يوم القيامة :
فمن أُجبر من النار وصل إلى الراحة الكبرى ، ومن صُلِّي بالسعير وقع في المحنة الكبرى .
« وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » : لأن ما هو آتٍ قريب .

قوله جل ذكره : ﴿ لَتَبْلُوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ
وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى
كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ
مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ .

كفاهم أكثر أسباب الضرر بما أخبرهم عن حلولها بهم قبل الهجوم ، وعرفهم أن خير
الأمرين لهم إثبات الصبر واختيار السكون تحت مجارى الأقدار .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ
وَلَا تَكْفُرُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ
وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَيَّسَ
مَا يَشْتَرُونَ ﴾

أخبر أنهم أبرموا عهداً أن لا يزولوا^(١) عن وفائه ، ولكم تقضوا أسباب الذمائم بما صاروا إليه من الكفران ، ثم تبين أن ما اعتاضوا من ذهب الدين من أعراض يسيرة لم يبارك لهم فيه .

قوله جل ذكره : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ، فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

إن من باشر رؤية الخلق قلبه ، ولا حظهم بسره فلا تظن أن عقوبتهم مؤخره إلى يوم القيامة ، بل ليسوا من العذاب — في الحال — بمفازة ، وأي عذاب أشد من الرد إلى الخلق والحجاب عن الحق ؟

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاقِفٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

الإشارة من هذه الآية هاهنا إلى غناه — سبحانه — عما في الكون ، وكيف يحتاج إليهم ؟ ! ولكنهم لا يجدون عنه خلفاً ، ولا عليه بدلاً .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم .

الآيات التي تعرف الحق سبحانه وتعالى بها إلى العوام هي التي في الأقطار من العبر والآثار ، والآيات التي تعرف بها إلى الخواص فالتى في أنفسهم . قال سبحانه : ﴿ سَتَرْنَاهُمْ

(١) وردت (ان لا يزالوا) وترجيح انها في الأصل (ان لا يزولوا) لأن هذه مناسبة للراد من الآية ، ومن سياق المعنى ، ولو كان حرف الجر (على) بعدها لقبنا (لا يزالوا) .

آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم ، فالآيات الظاهرة توجب علم اليقين ، والآيات الباطنة توجب عين اليقين .

والإشارة من اختلاف الليل والنهار إلى اختلاف ليالي العباد ؛ فليالي أهل الوصلة قصيرة ، وليالي أهل الفراق طويلة ؛ فهذا يقول :

شهور ينقضين وما شعرنا بأنصاف لمن ولا سرار
ويقول :

صباحك مكر والمساء خمار فنت وأيام السرور قصار
والثاني يقول :

ليالي أقر الطاعنين (. . . .) شكوت ليل العاشقين طويل
وثالث ليس له خبر عن طول الليل ولا عن قصره فهو لما غلب عليه يقول :
لست أدرى أطل ليلي أم لا ؟ كيف يدري بذاك من يتقل ؟
لو تفرغت لاستطالة ليلي ورعيت النجوم كنت محلاً

قوله تعالى : « لأولى الأبواب » : أولو الأبواب هم الذين صحت عقولهم عن سُكر الغفلة .
وأما من كان كذلك أن يكون نظره بالحق ؛ فإذا نظر من الحق إلى الحق استقام نظره ،
وإذا نظر من الخلق إلى الحق انتكست نعمته ، واقلبت أفكاره مؤرثة للشبهة .

قوله تعالى : « الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً . . . » الآية :

استغرق الذكر جميع أوقاتهم ؛ فإن قاموا فبذكركه ، وإن قعدوا أو ناموا أو سجدوا
فجعله أحوالهم مستهلكة في حقائق الذكر ، فيقومون بحق ذكره ويقعدون عن إخلاف أمره ،
ويقومون بصفاء الأحوال ويقعدون عن ملاحظتها والدعوى فيها ^(١) .

ويذكرون الله قياماً على بساط الخدمة ثم يقعدون على بساط القرية .

ومن لم يسلم في بداية قيامه عن التقصير لم يسلم له قعود في نهايته بوصف الحضور .

(١) القشيري هنا مستفيد من رأى استاذه الإمام ابن فورك في « قياماً وقعوداً » في الآية الكريمة
(الرسالة ص ١١١) .

والذكر طريق الحق — سبحانه — ثم سلك المريدون طريقاً أصبح وأوضح من طريق
الذكر ، وإن لم يكن فيه سوى قوله : « أنا جليس من ذكرني » لكان ذلك كافياً .

والذاكرون على أقسام ، وذلك لتباين أحوالهم : فذكر يوجب قبض الذاكر لما يذكره
من نقص سلف له ، أو قبض حصل منه ، فيمنعه خجله عن ذكره ، فذلك ذكر قبض .

وذكر يوجب بسط الذاكر لما يجد من لذائذ الذكر ثم من تقرب الحق إياه بمجمل
إقباله عليه .

وذاكر هو محو في شهود مذكوره ، فالذكر يجري على لسانه عادة ، وقلبه مضطرب
فيما بداله .

وذاكر هو محل الإجلال يأتي من ذكره ويستقندر وصفه^(١) ، فكأنه لتصاغره عنه
لا يريد أن يكون له في الدنيا والآخرة (ثناء)^(٢) ولا بقاء ، ولا كون ولا بهاء ، قال قائلهم :

ما إن ذكرتك إلا هم يلعنني قلبي وروحي وسرى عند ذكركا
حتى كأن رقيباً منك يهتف بي إياك ويمحك والتذكاري إياكا

والذكر عنوان الولاية ، وبيان الوصلة ، وتحقيق الإرادة ، وعلامة صحة البداية ، ودلالة
صفاء النهاية ، فليس وراء الذكر شيء ، وجميع الخصال المحمودة راجعة إلى الذكر ، ومُنشأة
عن الذكر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا ﴾

التفكير نعمة كل طالب ، وثمرته الوصال بشرط العلم ، فإذا سلم الذكر عن الشوائب

(١) هذا النوع من الذكر يلتقي بتعاليم أهل الملامة النيسابورية الذين لا ينتظرون لأي عمل إلا من
حيث رؤية التعبير فيه .

(٢) ربما كانت (فناء) وإن كان المعنى يتقبل كليهما .

ورد صاحبه على مناهل التحقيق ، وإذا حصل الشهود والحضور مما صاحبه عن الفكر إلى حدود الذكر ، فالذكر سرمد^(١) .

ثم فكر الزاهدين في فناء الدنيا وقلة وفائها لطلابها فيزدادون بالفكرة زهداً فيها .
وفكر العابدين في جيل الثواب فيزدادون نشاطاً عليه ورغبة فيه .
وفكر العارفين في الإلاه والنعم فيزدادون محبةً للحق سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ سُبْحَانَكَ قَعْنَا نَارًا ﴾

التفسير يشير إلى سبوح الأسرار في بحار التعظيم .

قوله جل ذكره : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخُلُ النَّارَ فَقَدْ

أُخْزِيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾

مَنْ ابْتَلَيْتَهُ فِي الْآجِلِ بِالْحُرْقَةِ فَقَدْ أُخْزِيْتَهُ ، وَمَنْ ابْتَلَيْتَهُ بِالْفِرْقَةِ فِي الْعَاجِلِ فَقَدْ أَشْقَيْتَهُ ،
وَمَنْ أَوْلَيْتَهُ يَمُنُّ الْوَصْلَةَ فَقَدْ آوَيْتَهُ وَأَذْنَبْتَهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَمَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ

أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ، رَبَّنَا فَاغْفِرْ

لَنَا ذُنُوبَنَا ، وَكُفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا

مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾

يعنى أجبنا الداعي ولكن أنت الهادي ، فلا تَكِلْنَا إلينا ، ولا ترفع ظل عنايتك عنا .

والإيمان الدخول في موجبات الأمان ، وإنما يؤمن بالحق من أمته الحق ، فأمان

الحق للعبد — الذى هو إجارته — يوجب إيمان العبد بالحق الذى هو تصديقه ومعرفته .

(١) [سأل أبو عبد الرحمن السلى الشيخ النفاق . أذكر أم أم الفكر ؟

فقال النفاق : ما الذى يقع لك منه ؟

فأجاب السلى : عندي الذكر أم من الفكر لأن الحق سبحانه يوصف بالذكر ولا يوصف بالفكر

وبما وصف به الحق سبحانه أم مما اختص به الخلق فاستحسنه النفاق [الرسالة ص ١١١ .

وقد ذكرنا هذه الرواية هنا : أولا لتوضح الفرق بين الذكر والفكر وثانياً لتبرر قول القشيري :

(الذكر سرمد) أى مستدام .

« وتوفنا مع الأبرار » : وهم المختصون بحقائق التوحيد ، القائمون لله بشرائط
التفريد ، الواقفون مع الله بخصائص التجريد .

قوله جل ذكره : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رِسَالِكَ
وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ
لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾

حَقَّقْ لَنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى أَلْسِنَةِ الْوَسَائِطِ^(١) مِنْ إِكْمَالِ التَّعْمَى (.....)^(٢) وَغُفْرَانِ
كُلِّ مَا سَبَقَ مِنَّا مِنْ مَنَابِعَاتِ الْهَوَى .

قوله جل ذكره : ﴿ فَاسْتَجِبْ لَهُمْ رِبِّهِمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ
عَمَلًا عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى
بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا
وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَوْذُوا
فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ
عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ
تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا
مَنْ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ
الثَّوَابِ ﴾

كيف لا يستجيب لهم وهو الذي لَقَّيْنَاهُمُ الدَّعَاءَ ، وهو الذي ضمن لهم الإجابة ، ووَعَدُهُ
جَمِيلُ الثَّوَابِ عَلَى الدَّعَاءِ زَائِدٌ عَلَى مَا يَدْعُونَ لِأَجْلِ الْحَوَائِجِ .

« فالذين هاجروا » : يعنى الديار والمزار ، وجميع المخالفين والمواقفين من الأغيار .
« وأخرجوا من ديارهم » : إلى مفارقة معاہدم من مألوفاتهم .
« وأوذوا في سبيل » : عَيَّرُوا بالفقر والملام ، وفتنوا بفنون الحن والآلام .

(١) يقصد الرسل عليهم السلام .

(٢) مثلية .

« وَقَاتِلُوا وَقُتِلُوا » : ذاقوا من اختلاف الأطوار الحلو والمر .
« لَا كُفِرَ عَنْهُمْ سِيئاتِهِمْ » : يعنى لنعطيتهم فوق آمالهم وأكثر ، مما استوجبوه
بأعمالهم وأحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ لَا يَغْرَبُكَ قَلْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي
الْبِلَادِ . مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ بِهِمْ
وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾

لا تتداخلك تهمة بأن لم عندنا قدراً وقيمة إنما هي أيام قلائل وأنفاس معدودة ،
ثم بعدها حسرات مترادفة ، وأحزان متضاعفة .

قوله جل ذكره : ﴿ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ
تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ
خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴾

الذين وبخناهم بذلك الفرقة بثبت حالتهم ، والذين زفوا قدماً لأجلنا فنعمت الحالة
والزلفة ؛ وصلوا إلى الثواب المقيم ، وبقوا في الوصلة والتعيم ، وما عند الله مما ادخرنا لهم
خير مما آملوه باختيارهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ
يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ
إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ اللَّهُ لَا يَشْرُونَ بآيَاتِ
اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ
عِنْدَ رَبِّهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ
الْحِسَابِ ﴾

يريد من ساعدتهم القسمة بالحسنى فهم مع أولياء الله نعمة كما كانوا معهم قسمة .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا

وَرَابِطُوا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ ﴿١﴾

الصبر فيما تفرد به العبد ، والمصابرة مع العدو .

والرباط نوع من الصبر ولكن على وجه مخصوص .

ويقال أول الصبر التصبر ، ثم الصبر ثم المصابرة ثم الأصبطبار وهو نهاية^(١) .

ويقال اصبروا على الطاعات وعن المخالفات ، وتصابروا في ترك الهوى والشهوات ،
وقطع المنى والعلاقات ، ورابطوا بالاستقامة في الصلابة في عموم الأوقات والحالات .

ويقال اصبروا بنفوسكم وصابروا بقلوبكم ، ورابطوا بأسراركم .

ويقال اصبروا على ملاحظة الثواب ، وصابروا على ابتغاء القربة ، ورابطوا في محل
الدنو والزلفة — على شهود الجمال والعزة .

والصبر مُرَّةٌ مَذَاقُهُ إِذَا كَانَ الْعَبْدُ يَتَحَسَّاهُ عَلَى الْغَيْبَةِ ، وَهُوَ لَذِيذٌ طَعْمُهُ إِذَا شَرِبَهُ عَلَى
الشهود والرؤية .

« وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » : الْفَلَاحُ الظَّفَرُ بِالْيُفْيَةِ ، وَهَمَّتُهُمُ الْيَوْمَ الظَّفَرُ
بِنَفْسِهِمْ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَتِمُّ خَلَاصُهُمْ ، وَإِذَا ظَفَرُوا بِنَفْسِهِمْ ذَبَحُوهَا بِسِوْفِ الْمَجَاهِدَةِ ،
وَصَلَبُوهَا عَلَى عِيدَانِ الْمَكَابِدَةِ ، وَبَعْدَ فَنَائِهِمْ عَنْهَا يَحْصُلُ بِقَاوِمِهِمُ بِاللَّهِ .

(١) يمكن أن يجد القارئ في صنيع القشيري حول مادة (ص ب ر) انه — وهذا شأنه دائماً —
يحاول أن يؤسس المصطلح الصوفي على دعائم لغوية تعتمد على الفروق الدقيقة بين صيغ الاشتقاق المختلفة
من المادة الواحدة ؛ فصيغة المفاعلة فيها المشاركة ، وصيغة التفضل فيها تكلف يلائم البداية وهكذا .

السورة التي يذكر فيها النساء

بسم الله الرحمن الرحيم.

اختلفوا في الاسم عن ماذا اشتق ؛ فمنهم من قال إنه مشتق من السمو وهو العلو . ومنهم من قال إنه مشتق من السمة وهي الكفة .

وكلاهما في الإشارة : فمن قال إنه مشتق من السمو فهو اسم من ذكره سمت رتبته ، ومن عرفه سمت حاله ، ومن صحبه سمت همته ؛ فسمو الرتبة يوجب وفور المثوبات والمبارك ، وسمو الحالة يوجب ظهور الأنوار في الأسرار ، وسمو المهنة يوجب التحرز عن رِقِّ الأغيار .

ومن قال أصله من السمة فهو اسم من قصده وسم بسمة العبادة^(١) ، ومن صحبه وسم بسمة الإرادة ، ومن أحبه وسم بسمة الخواص ، ومن عرفه وسم بسمة الاختصاص . فسمة العبادة توجب هيبة النار أن ترمى صاحبها بشررها ، وسمة الإرادة توجب حشمة الجنان أن تطمع في استرقاق صاحبها - مع شرف خطرها ، وسمة الخواص توجب سقوط العُجب من استحقاق القربة للماء والطينة على الجملة^(٢) ، وسمة الاختصاص توجب امتناع الحكم عند استيلاء سلطان الحقيقة ..

ويقال اسم من أصله مما عنده (عن) الأوهام قدره (سبحانه)^(٣) . ومن فاصله وسم بكي الفرقة قلبه .

(١) هنا حدث اضطراب من الناسخ فإخطأ في النقل وقد وثبنا الكلام في النصف الأول من الفقرة حسب الترتيب الوارد في النصف الثاني منها والذي يبدأ « فسمة العبادة توجب الخ » . ذلك الترتيب الذي يتماشى مع المذهب العام للتشيرى في كل مصنفاته .

(٢) يقصد تشريف الإنسان على جملة المخلوقات ، فالإنسان وحده - دون سائر الكائنات - هو الذي خوطب بلياد الذكر والمحبة مع الحق جل شأنه .

(٣) وضعا (عن) و (سبحانه) ليتنع ألبس ، وما غير موجودين في النص (يقول التشيرى في رسالته : ما يصوره وهما فاقه بخلاف ذلك) .

وعلى هذه الجملة يدل اسمه .

قوله جل ذكره : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝﴾ .

الناس اسم جنس ، والاشتقاق فيه غير قوى . وقيل معى الإنس إنساً لظهوره ^(١) . فعلى هذه الإشارة : يَأْمَنُ ظَهْرُكُمْ عَنْ كُتْمِ الْعَدَمِ بِحُكْمِ تَكْلِيفِي ، ثم خصصتُ مَنْ شِئْتُ مِنْكُمْ بِتَشْرِيفِي ، وحرمتُ مَنْ شِئْتُ مِنْكُمْ هِدَايَتِي وَتَعْرِيفِي : وقلنتكم إلى ماشئتُ بل أوصلتكم إلى ماشئتُ بِحُكْمِ تَصْرِيفِي .

ويقال لم أظهِرْ مَنْ الْعَدَمِ أَمْثَالَكُمْ ، ولم أظهِرْ عَلَى أَحَدٍ مَا أَظْهَرْتُ عَلَيْكُمْ مِنْ أَحْوَالِكُمْ .
ويقال سَبَّيْتُ لِسَانًا لِنِسَائِكَ ، فَإِنْ لَسَيْتُنِي فَلَا شَيْءَ أَخْسَ ^(٢) مِنْكَ ، وَإِنْ نَسَبْتُ ذَكَرِي فَلَا أَحَدَ أَحَطُّ ^(٣) مِنْكَ

ويقال مَنْ نَسِيَ الْحَقَّ فَلَا غَايَةَ لِمَحْنَتِهِ ، وَمَنْ نَسِيَ الْخَلْقَ فَلَا نِهَايَةَ لِمَلُوكِ حَالَتِهِ

ويقال يقول الْمُتَذَرِّبِينَ : يَأْمَنُ أَلْسِيَّتَ عَهْدِي ، وَرَفَضْتُ وَدِي ، وَتَجَاوَزْتُ حَدِّي حَانَ لَكَ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى بَابِي ، لِنَسْنَحِي لَطْفِي وَلِمُجَاجِي . ويقولُ الْعَارِفِينَ ، يَأْمَنُ لَسِيَّتَ فِينَا حَقَّكَ ، وَصُتَّ عَنْ غَيْرِنَا لِحَقِّكَ وَلَلْفُتَّكَ — لَقَدْ عَظَّمْ عَلَيْنَا حَقَّكَ ، وَوَجَبَ لَدَيْنَا نَصْرُكَ ^(٤) ، وَجَلَّ عِنْدَنَا قَدْرُكَ . .

(١) حتى يقابل (الجن) لاختلافه . وربما كان قصد القشيري إلى ذلك .

(٢) وردت (أخس) بالصاد ، وربما يقبلها على أساس أن الله يعاتب عبده : إِنْ نَسَيْتُنِي فَأَنْتَ رَهْمُ ذَلِكَ (أخس الكائنات بمحبي) .

(٣) وردت (أحسن) بالضاد وربما كانت أحسن .

(٤) وجب واستوجب والابحباب عند القشيري ترد بمعنى الاستحقاق ، وعليها أن تتأمل الدقة في استعمال (لدينا) ولم يقل (علينا) فلا وجوب على الله — بخلاف المتره .

ويقال يا من أُرِست^(١) بنسيم قرّبي ، واستروحت إلى شهود وجهي ، واعتزّزت بجلال قدرى — فأنت أجلّ عبادى عندي .

قوله : « اتقوا ربكم » : التقوى جماع الطاعات ، وأوله ترك الشرك وآخره اتقاء كل غير ، وأول الأغيار لك نفسك ، ومن اتقى نفسه وقف مع الله بلا مقام ولا شهود حال ، و (وقف) لله . . لا لشهود حظ في الدنيا والعقبى .

قوله : « الذى خلقكم من نفس واحدة » : وهو آدم عليه السلام ، وإذا كنا مخلوقين منه وهو مخلوق باليد فنحن أيضا كذلك ، لما ظهرت مزية آدم عليه السلام به على جميع المخلوقين والمخلوقات فكذلك وصفنا ، قال تعالى : « أولئك هم خير البرية » .

ولفظ « النفس » للعموم والعموم يوجب الاستغراق .

قوله : « وخلق منها زوجها » : حكم الحق — سبحانه — بمساكنة الخلق مع الخلق لبقاء النسل ، ولرد المثل إلى المثل فربط الشكل بالشكل .

قوله . « وبثّ منها رجالا كثيرا ونساء » : تعرّف إلى العقلاء على كمال القدرة بما ألاح من براهين الربوبية ودلالات الحكمة ، حيث خلق جميع هذا الخلق من نسل شخص واحد ، على اختلاف هيتهم ، وتفاوت صورهم ، وتباين أخلاقهم ، وإن اثنين منهم لا يتشابهان ، فلكل وجه في الصورة والخلق ، والهمة والحالة ، فسبحان من لا حدّ لقدوراته ولا غاية لمعلوماته .
ثم قال : « واتقوا الله » تكرير الأمر بالتقوى يدل على تأكيد حكمه .

وقوله : « نساء لون به والأرحام » : أى اتقوا الأرحام أن تقطعوها ، فمن قطع الرحم قطع ، ومن وصلها وصل .

« إن الله كان عليكم رقيبا » : مطلعا شهيدا ، يعد عليك أنفاسك ، ويرى حواسك ، وهو متولّ خطراتك ، ومنشئ حركاتك وسكناتك . ومن علم أنه رقيب عليه فبالحرى أن يستحي منه .

(١) لاحظ كيف يربط القشيري بين الناس (والأنسر) بعد أن ربطها (بالإنس) فدار الكلام كله على لفظة (الناس) التي وردت في الآية الكريمة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبْدِلُوا

الْخَيْثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ

إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾

مَنْ أَقِيمَ بِمَحَلِّ الرِّعَايَةِ فِجَاءً عَلَى رِعِيَّتِهِ فَخَصَّهُ رَبُّهُ بِفَائِدَةٍ — مَبْعَاهُ — يَنْتَقِمُ لِعِبَادِهِ مَا لَا يَنْتَقِمُ لِنَفْسِهِ . قَوْلِي الْيَتِيمَ إِنْ أَنْصَفَ وَأَحْسَنَ لِحَقِّهِ عَلَى اللَّهِ ، وَإِنْ أَسَاءَ وَتَعَدَّى فَخَصَّهُ اللَّهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ

فَانْكَحُوا مَا طَلَبَ لَكُمْ مِنْ النِّسَاءِ

مَتًى وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ ، فَإِنْ خِفْتُمْ

أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ

أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعْرُؤُوا *

وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾

أَبَاحَ اللَّهُ لِلرِّجَالِ الْأَحْرَارِ التَّزْوِجَ بِأَرْبَعٍ فِي حَالَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَأَوْجَبَ الْعَدْلَ بَيْنَهُنَّ ، فَيَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَرَاعِيَ الْوَاجِبَ فَإِنْ عَلِمَ أَنَّهُ يَقُومُ بِحَقِّ هَذَا الْوَاجِبِ آثَرَ هَذَا الْمُبَاحِ ، وَإِنْ عَلِمَ أَنَّهُ يَقْصُرُ فِي الْوَاجِبِ فَلَا يَتَعَرَّضُ لِهَذَا الْمُبَاحِ ، فَإِنْ الْوَاجِبَ مَسْثُولٌ عَنْهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا

فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴾

دَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ طَعَامَ الْفَتَيَانِ ^(١) وَالْأَسْخِيَاءَ مَرِيءٌ لَأَنَّهُمْ لَا يُطْعِمُونَ إِلَّا عَنْ طَيِّبِ نَفْسٍ ،

وَطَعَامُ الْبَخْلَاءِ رَدِيءٌ ^(٢) لَأَنَّهُمْ يَرُونَ أَنْفُسَهُمْ ، وَإِنَّمَا يُطْعِمُونَ عَنْ تَكَلُّفٍ لَا عَنْ طَيِّبِ نَفْسٍ .

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « طَعَامُ السَّخِيِّ دَوَاءٌ وَطَعَامُ الْبَخِيلِ دَاءٌ » .

(١) الْفَتَيَانُ جَمْعُ فَتَى . وَالْفَتْوَةُ أَصْلٌ مِنْ أَصُولِ الصُّوفِيَّةِ عِمَادُهُ الْإِيثَارُ وَالْبَذْلُ وَالصَّفْحُ وَالْعَفْوُ ، وَالْأَنْفَاءُ عَمَّا فِي الْكَوْنِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَحَاسِنِ السُّلُوكِ الَّتِي يَبْقَى النَّفْسُ أَنْ تَرْضَاهَا ، وَأَنْ تَتَحَلَّى بِهَا حَتَّى يَنْهَبُ الْعَبْدُ لِمَا هُوَ أَجَلٌ وَأَعْظَمُ ، وَأَنْ يَكُونَ إِثَارُهُ لِلَّهِ وَبَذْلُهُ لِلَّهِ وَرُوحُهُ لِلَّهِ ، لِأَنَّ مِنْ يَوْمَرٍ بِالْإِثَامِ ذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ لِلْمَخْلُوقِ لَا يَفْضُنُ بِأَضْعَافِهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْحَقِّ .

(٢) مُشْتَبِهَةٌ وَلَكِنَّمَا أَقْرَبُ مَا تَكُونُ إِلَى (رَدِيءٍ) وَتَدْرُجُ وَضْعَهَا مَعَ التَّحَفُّظِ وَالْمَعْنَى بِتَقْبَلُهَا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ
اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ، وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا
وَأَكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾

السُّفَهَاءُ من يَمُنُّكَ عن الحَقِّ ، وَيُسْفِكُكَ عن الرِّبِّ .

وَالسُّفَهَاءُ من العِيَالِ وَالْأَوْلَادِ من تَوَثَّرَ حُظُوظُهُمْ عَلَى حَقُوقِ اللَّهِ تَعَالَى .

قوله : « الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا » : حِفْظُ التَّجَلُّلِ فِي الْحَالِ أَجْدَى عَلَيْكُمْ مِنَ التَّعَرُّضِ
لِلتَّبَذِ وَالسُّؤَالِ ، وَالْكَدْبَةِ وَالْإِحْتِيَالِ . وَإِنَّمَا يَكُونُ الْبَذَلُ خَيْرًا مِنَ الْإِمْسَاكِ عِنْدَ تَحَوُّرِ
الْقَلْبِ وَالثَّقَةِ بِالصَّبْرِ . فَأَمَّا عَلَى نِيَةِ الْكَدْبَةِ وَأَنْ تَجْعَلَ نَفْسَكَ وَعِيَالَكَ كَلًّا عَلَى النَّاسِ فَحِفْظُكَ
مَا جَعَلَهُ اللَّهُ كِفَايَةً لِنَفْسِكَ أَوَّلَى ، ثُمَّ الْجُودُ بِفَاضِلِ كِفَايَتِكَ .

قوله : « وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَأَكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا » : إِذَا كَانَ ذَاتُ يَدِكَ يَتَسَعُ
لِكِفَايَةِ يَوْمِهِمْ وَيَفْضُلُ^(١) فَلَا تَدَّخِرْهُ غَمًّا تَدْعُو إِلَيْهِ حَاجَتُهُمْ مَطْلُوكَ خَشْيَةً قَطْرٍ فِي الْغَدِ ،
فَإِنْ ضَاقَتْ يَدُكَ عَنِ الْإِنْفَاقِ فَلَا يَنْتَعِنُ^(٢) لِسَانُكَ بِالْقَبِيحِ مِنَ الْمَقَالِ .

وَيُقَالُ إِذَا دَعَتْكَ نَفْسُكَ إِلَى الْإِنْفَاقِ فِي الْبَاطِلِ فَأَنْتَ أَسْفَهُ السُّفَهَاءِ فَلَا تُطِيعُ نَفْسَكَ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَابْتَاعُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا
النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا
فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ، وَلَا تَأْكُلُوهَا
إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا ، وَمَنْ
كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ
فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ
إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى
بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾

(١) يَفْضُلُ وَفَاضِلٌ هُنَا بِمَعْنَى يُزِيدُ وَزِيَادَةٌ .

(٢) لَا حِظَّ الْمَقَابِلَةِ الْجَبِيلَةِ فِي تَعْبِيرِ التَّشْبِيرِ بَيْنَ (ضَاقَتْ يَدُكَ) وَ (وَيَتَعَنُّ لِسَانُكَ)

إيناس الرشد العفة والديانة ، والسخاء والضيافة ، وصحبة الشيوخ ، والحرص على مشاهدة الخير ، وأداء العبادات على قضية الأمر .

ويقال الرشيد من اهتدى إلى ربه ، وعندنا نسخ له (حاجة) من حوائجه لا يسأل على حوله وقوته ، وتديره واختياره .

قوله جل ذكره : ﴿ للرجال نصيب مما ترك الوالدان

والأقربون وللنساء نصيب مما ترك

الوالدان والأقربون مما قلّ منه

أو كثر نصيباً مفروضاً ﴾

حكم الميراث لا يختلف بالفضل والمنقبة ، ولا يتفاوت بالعيب والنقص والذنب ؛ فلو مات رجل وخلف ابنين تساويان في الاستحقاق وإن كان أحدهما برّاً تقيّاً والآخر فاجراً عصياً ، فلا للتقى زيادة لتقواه ، وللفاجر بخس لفجوره ، والمعنى فيه أن الميراث ابتداء عطية من قبل الله ، فيساوى فيه البر والفاجر . كذلك حكم الإيمان ابتداء عطية للمسلمين : قال الله تعالى : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا » ، ثم قال : « فمنهم ظالم لنفسه ومنهم ... » الآية .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا حضر القسمة أولو القربى

واليتامى والمساكين فارزقوهم منه

وقولوا لهم قولاً معروفاً ﴾

يريد إذا حضر قسمة الميراث ذوو السهمان^(١) والمستحقون ، وحضر من لا نصيب لهم في الميراث من المساكين فلا يحرمهم من ذلك . فإن كان المستحق مؤلّياً عليه ، فعِدوهم وعداً جميلاً وقولوا : « إذا بلغ الصبي قلنا له حتى يعطيك شيئاً » وهذا معنى قوله : « وقولوا لهم قولاً معروفاً » . وفي هذا إشارة لطيفة للمذنبين إذا حضروا لمرسته غداً ، والحق سبحانه ينفر للطيعين ويعطيهم ثواب أعمالهم ، فمن كان منكم من فقراء المسلمين لا يحرمهم الفقران

(١) السهمان ج سهم .

إن شاء الله بعدما كانوا من أهل الإيمان ، وكذلك يوم القسمة لم تكن حاضراً ، ولا لك استحقاق سابق فبفضله ما أهلك لمعرفته مع علمه بما يحصل منك في مستأنف أحوالك من ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوا مِنْ

خلفهم ذرية ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ

فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً ﴾

بَيِّنَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ الَّذِي يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَدْخُرَهُ لِعِيَالِهِ ^(١) التَّقْوَى وَالصَّلَاحَ لَا الْمَالَ ، لِأَنَّهُ

لَمْ يَقُلْ فَلْيَجْمَعُوا الْمَالَ وَلْيَكْثُرُوا لَمْ الْعَقَارَ وَلْيَخْلِفُوا الْأَثَاثَ بَلْ قَالَ : « فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ »
فَإِنَّهُ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى

ظُلُمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا

وَيَصِيلُونَ سَمِيرًا ﴾

إِنَّمَا تَوَلَّى الْحَقَّ سَبْحَانَهُ خَصْمِيَّةَ الْيَتِيمِ ، لِأَنَّهُ لَا أَحَدَ لِلْيَتِيمِ غَيْرُهُ ، وَكُلُّ مَنْ وَكَّلَ أَمْرَهُ
إِلَيْهِ فَتَبَرَّأَ مِنْ حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ فَالْحَقُّ سَبْحَانَهُ يَنْتَقِمُ لَهُ بِمَا لَا يَنْتَقِمُ لِنَفْسِهِ ^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلَ

حَقِّ الْأُنثَى إِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ

اِثْنَيْنِ فَلِلْمِثْلَيْنِ ثُلَاثَا مِثْلٌ وَإِنْ كَانَتْ

وَاحِدَةً فَلِلْمِثْلِ النِّصْفُ وَلِلْأَبَوِيهِ لِكُلِّ

وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ

لَهُ وَلَدٌ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَتُهُ

أَبَوَاهُ فَلِلْأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ

فَلِلْأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي

بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾

(١) وردت (العبارة) وهي خطأ في النسخ .

(٢) هذه إشارة موجبة إلى الأولياء ، فهم لا سند لهم من جاء أو سلطان أو مخلوق فإذا تعرضوا

لِلْأَذَى تَوَلَّى اللَّهُ عَنْهُمْ خَصْمَةً لِلْأَذَى .

الوصية هاهنا بمعنى الأمر ، فانه سبحانه جعل الميراث بين الورثة مستحقاً بوجهين :

١. — الفرض ٢ — التعصيب ، والتعصيب أقوى من الفرض لأن العَصْبَةَ قد تستغرق جميع المال أما أكثر الفروض فلا يزيد على الثلثين ، ثم إن القصة تبدأ بأصحاب الفروض وهم أضعف استحقاقاً ، ثم العَصْبَةُ وهم أقوى استحقاقاً . قال صلى الله عليه وسلم :

« مَا أَبَقْتُ الْفَرَائِضَ فَلِأَوَّلَى عَصْبَةٍ ذَكَرْتُ »^(١) كذلك أبدأ سنته ، كما في قوله تعالى :

« ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا » أعطاهم الكتاب بلفظ الميراث ثم قدم الظالم على السابق ، وهو أضعف استحقاقاً إظهاراً للكرم مع الظالم لأنه مُنْكَسِر القلب ولا يحتمل وقته طول المدافعة .

وقوله « لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَى » . لو كان الأمر بالقياس لكانت الأنثى بالتفضيل أولى لضعفها ، ولعجزها عن الحراك ، ولكن حُكْمَهُ — سبحانه — غير مُعْلَلٍ^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنْ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ غَلِيظًا حَكِيمًا ﴾

الأبناء ينفعونكم بالخدمة ، والآباء بالرحمة ، الآباء في حال ضعفك في بداية عمرك ، والأبناء في حال ضعفك في نهاية عمرك .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ ، فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يَوْصِينَ بِهِ أَوْ دَيْنٍ ، وَلَهُنَّ الرُّبْعُ

(١) صحيح البخاري ٨ من ٢٦٩ « أَلْحَقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا فَإِنْ بَقِيَ فَهُوَ لِأَوَّلَى رَجُلٍ ذَكَرَ »
(٢) تحتاج هذه العبارة إلى بعض توضيح . وربما كان أفضل تحديد لها ما يذكره ذو النون المصري :
« علة كل شيء صنعه ، ولا علة له » ثم ما يوضحه أبو نصر السراج في اللمع حيث يقول : « معنى هذا القول — والله أعلم — أن وجود النقصان في كل شيء مصنوع كائن ، لأنه لم يكن مكاناً ، وليس له صنع العمانع لمصنوعاته ، علة ، وقال بعضهم :
يا شفاى عن السفاهة وإن كنت علة (اللمع ص ٤٤٠)

مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ ،
 فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّنُنُ
 مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا
 أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً
 أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ
 وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا
 أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثَّلَاثِ
 مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ
 غَيْرِ مُضَارٍّ ، وَصِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ

عَلِيمٌ حَلِيمٌ *

الإشارة في ثبوت الميراث للأقربين من الورثة بالنسب؛ والسبب أن الميت إذا مات تحمل
 القريب أحزانه فموضع الله الوارث على ما يقاسيه ويخامر قلبه من التوجع مال الموروث . .
 وكذا سُنَّته — سبحانه — التعويض على مقاساة الأذى — جوداً منه لا وجوباً عليه (١) —
 كما تؤم قومه . وكلُّ مَنْ كَانَ أَقْرَبَ نَسَباً أَوْ أَقْوَى سَبَباً مِنَ الْمَيِّتِ كَانَ أَكْثَرَ اسْتِحْقَاقاً
 لميراثه ، وفي معناه أنشدوا :

وما بات مطوياً على أريحية (. . . .)

(. . .) عقب النوى * موت القتي ظل مغرماً (٢)

قوله جل ذكره : * تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ
 وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ

(١) يلح التشير دائماً في نبي كل وجوب على الله ، كما لاحظنا ذلك في مواضع شتى بينما لا يمنع المعتزلة من
 وجوب للتوبة للمطيع — عليه ، ووجوب العقوبة للعاصي — عليه .
 (٢) توجد في البيت كلمات فارسية (انسكه شاد شود در عطاء اذن) =
 أصبح حينئذ مسروراً بالعطاء . ومعنى البيت غير واضح .

تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك
الفوز العظيم * .

حدوده : أوامره ونواهيه ، وما تعبد به عباده .

وأصل العبودية حفظ الحدود ، وصون اليهود ، ومن حفظ حده لم يصبه مكروه ولا آفة ،
وأصل كلُّ بلاء مجاوزة الحدود .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ
حدوده بدخله ناراً خالداً فيها وله
عذاب مهين ﴾

وإنما هما عقوبتان : معجلة ومؤجلة ، ويقترن بهما جميعاً البذل ؛ فلو اجتهد الخلاق على إذلال
للمعاصي بمثل الذل الذي يلحقهم بارنسكاب العصية لم يقدموا^(١) عليها : لذلك قال قائلهم :
من بات^(٢) ليلاً^(٣) بذنب أصبح وعليه مذلته ، فقلت ومن أصبح مُبرأً^(٤) بغير ظل
وعليه مهابته

قوله جل ذكره : ﴿ وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نَسَائِكُمْ
فَأُشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ مِنْكُمْ
فَإِنْ شَهِدُوا فَأُصْبِحُوا فِي الْبُيُوتِ
حَتَّى يَتَوَقَّاهُنَّ الْهُتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ
لَهُنَّ سَبِيلاً ﴾ .

إنما اعتبر في ثبوت الفاحشة — التي هي الزنا — زيادة الشهود إسبالات لستر الكرم .

(١) وردت (لم يقدموا) واللائم للمعنى أن تكون (لم يقدموا) مما يرجح أن النسخ قد أخطأ .

(٢) وردت (من مات) والسياق يقتضى (بات) ، (وأصبح) ، وظل . . .

(٣) وردت (مسلماً) وهي خطأ من النسخ .

على إتمام العباد ، فإن إقامة الشهود — على الوجه الذى فى الشرع لإثبات تلك الحالة — كالتَّعَدُّ (١) .

وفى قوله — صلى الله عليه وسلم — لما عز لما قال له : يا رسول الله — صلوات الله عليك — إننى زينتُ فطهرُنى . فقال : لعلك قبلت .. ثم قال فى بعض المرات : « استنكوه » (٢) .
فى هذا أقوى دليل لما ذكرت من إسبالة السر على الأعمال القبيحة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَأَنذِرْهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾

الأمر بفنون العقوبات لهم على فعل ذلك أبلغ (٣) شئ فى الردع والمنع منه بالرفع ، لعل العبد يحذر ذلك فلا يستحق التعذيب الأعظم .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (٤) .

لأستغفار مع الإصرار (٥) ؛ فإن التوبة مع غير إقلاع سمه الكذابين .

وقوله : « السوء بجهالة » : يعنى عملاً عملاً الجَهَال .

(١) يدل هذا رأى — فى نظرنا — أولاً على فهم صائب لما وراء الحدود الشرعية من مرام بعيدة ، ويدل ثانياً على سعة صدر الصوفية فى الصفح عن أرباب الخطايا ، وستر مآيب الخلائق ، ولقد أحسن الحسن البصرى حين قال : النصيحة على الملأ فضيحة .

(٢) وفى صحيح البخارى ج ٨ ص ٢٩٨ عن ابن عباس : لما أتى معاوية بن مالك النبی (ص) قال له لعلك قبلت أو غمزت أو نظرت ... الخ قال نعم فعند ذلك أمر برجمه (ومعنى استنكوه : أى ابجشوا فى فقه عن نسكبة الحجر فربما يكون ثملاً) .

(٣) وردت (بلغ) وهى خطأ فى النسخ

(٤) أخطأ الناسخ فى كتابة الآية فجاءت (من قريه) ، (السوء بجهالة) .

(٥) أخطأ الناسخ فكتبها (الاسرار) بالسين والمعنى يرفضها .

وذنب كل أحدٍ يليق بحاله ، فالخواص ذنوبهم حسباتهم أنهم بطاعتهم يستوجبون محلاً وكرامة ، وهذا وَهْنٌ في المكاة ؛ إذ لا وسيلة إليه إلا به .

قوله « ثم يتوبون من قريب » : على لسان أهل العلم : قبل الموت ، وعلى لسان المعاملة : قبل أن تعود النفس ذلك فيصير لها عادة ، قال قائلهم :

قلتُ للنَّفْسِ إنْ أردتِ رجوعاً فارجعي قبل أن يُسدَّ الطريقُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وليست التوبة للذين يعملون

السيئات حتى إذا حضر أحدهم

للموت قال إني تبتُ الآن

ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك

أُعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أليماً ﴾

يعنى إذا كُشِفَ النِّطَاقُ وصارت المعارف ضرورية^(١) أُغْلِقَ بابُ التوبة ؛ فإن من شرط التكليف أن يكون الإيمان غيبياً . ثم إن في هذه الطريقة إذا عُرِفَ بالخيانة لا يشم بعده حقيقة الصدق . قال داوود — عليه السلام — في آخر بكائه لما قال الله تعالى لِمَ تَبْكِي يا داوود ، وقد غفرت لك وأرضيت خصك^(٢) وقبلت توبتك ؟

نقال : إلهي ، الوقت الذي كان بي رُدُّه إليَّ

فقال : هيهات يا داوود ، ذاك وُدٌّ قد مضى !!

وفي معناه أنشدوا :

فَخَلَّ سَبِيلَ الْعَيْنِ بَعْدَكَ لِلْبُكَاءِ فليس لأيام الصفاء رجوعٌ

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَجِلُّ لَكُمْ

(١) المعرفة الضرورية — عند القشيري — هي التي تنال في الانتهاء أما في الابتداء فهي معرفة كسبية والأولى تشبه الشمس والثانية تشبه الراج ، فإذا طلعت الشمس انبسط شعاعها على الراج (الرسالة ص ١٤٩)

(٢) وردت (خصك) ولكن الإرضاء حسبنا نعلم من قصة داود كان لخصمه ، لذلك رجحنا أن تكون (خصمك) فأرضاه الخصم ملائم لقبول التوبة والغفران

أَنْ تَرْتُوا النِّسَاءَ كَرَاهًا وَلَا تَمْسُوهُنَّ
 لَتَنْهَبُوا بَعْضُ مَا آتَيْنَهُنَّ إِلَّا
 أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ،
 وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ
 فَمَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ
 فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿

التلييسُ على المستضعفين ، والتدليسُ على أهل السلامة والوداعة من المسلمين — غيرُ
 محودين عند الله . فمن تماط ذلك انتقم الله منه ، ولم يبارك له فيها ينخزل من أموال الناس
 بالباطل والاحتيال . ومن استعصر خصمه في الله فأهون ما يماقبه الله به أن يحرمة الوصول
 إلى ما يأمل من محبوبه .

وقوله : « وعاشروهن بالمعروف » : أى بتعاليم الدين والتأديب بأخلاق المسلمين وحُسنِ
 الصحبة على كراهة النفس ، وأن تحتمل أذاهن ولا تحملن كلف خدمتك ، وتتغامى عن
 مواضع خجلتهن .

قوله : « فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَمَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا . . . » كل ما كان على نفسك أشق
 كانت طاقته أهناً وأمرأ .

واعلم أن الحق سبحانه لم يُطْلِعْ أحداً على غيبه ، فأكثر ما يعافه الإنسان قد تكون
 الخيرة فيه أتم . وقد حكم الله — سبحانه — بأن مخالفة النفس توصل صاحبها إلى أعلى
 المنازل ، وبمكس ذلك موافقتها ، كما أن مخالفة القلوب توجب عمى البصيرة ، وبمكس ذلك
 موافقتها .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ
 زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قَنْطَارًا ،
 فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ
 بِهَتَاةٍ وَإِنَّمَا مِثْلًا * وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ

الأختين إلا ما قد سلف إن الله
كان غفورا رحيما *

تكلّف انتزاع المعاني التي لأجلها حصل هذا التحريم محال من الأمر ؛ لأن الشرع
غير مُعَلَّل^(١) ، بل الحق تعالى حرم ما شاء على من شاء ، وكذلك الإباحة ، ولا علة
للشرائع بحال ، ولو كانت المحرمات من هؤلاء محلات [محرمات]^(٢) لكان ذلك سائغا .

قوله جل ذكره : ﴿ والمحصنات من النساء إلا ما مَلَكَتْ
أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، وَأُحِلَّ
لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا
بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ
فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ
أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ
فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ،
إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلَيْكُمْ حَكِيمًا * .

إذا حافظت الحدود ، وراعى العهد ، وحصل التراضى بين النساء بحكم الشرع فلا يكون
فيه للخلق خصيصة ، ولا من الحق سبحانه منه تبعية ، فذلك مباح طلق .

قوله جل ذكره : ﴿ ومن لم يستطع منكم طَوْلاً أَنْ
يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمَنَاتِ فَمَنْ
مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْيَاكُمْ
الْمُؤْمَنَاتِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ
بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ
أَهْلِهِنَّ ، وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ
مُحْصَنَاتٍ غَيْرِ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَخَدَّاتٍ

(١) نطن أن هذه النظرة التي يأخذ بها التشيرى أمور التشريع قابلة للنقاش .

(٢) هذه كلمة زائدة ولم يثبتها النسخ إلى زيادتها ، وربما كانت في الأصل : « والمحلات محرمات » وحدث سقوط

أَخَذَانِ فَإِذَا أَحْصَيْنِ فَإِنْ أَتَيْنِ
بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنِ نَصْفُ مَا عَلَى
الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِأَنَّهُنَّ خَسِرْنَ
الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *

الرخص جعلت للمستضعفين ، فأما الأقوياء فأمرهم الجِدَّة ، والأخذ بالاحتياط والتضييق ؛
إذ لا شغل لهم سوى القيام بحق الحق ، فإن كان أمر الظاهر يشغلهم عن مراعاة القلوب فالأخذ
في الأمور الظاهرة بالسهولة والأخف أولى من الاستقصاء فيما يمنع من مراعاة السر ، لأنه ترك
بعض الأمور لما هو الآثم والأجل ، فمن نزلت درجته عن الأخذ بالأوثق والأحوط فبإباح له
الانحدار إلى وصف الترخص^(١) .

ثم قال في آخر الآية : « وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ » : يبنى على مقاساة ما فيه الشدة ، وفي
هذا نوع استمالة للمبيد حيث لم يقل اصبروا بل قال : « وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ » .

قوله جل ذكره : ﴿ يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَجْمَعًا وَيُطَهِّرَ الصَّالِحِينَ ﴾
الذين من قبلكم ويتوب عليكم
والله عليم حكيم *

لما عرف النبي — صلى الله عليه وسلم — وأمنته أخباراً من مضي من الأمم ، وما عملوا ،
وما عاملهم به انتظروا ما الذي يفعل بهم ؛ فإن فيهم أيضاً من ارتكب ما لا يجوز ، فقالوا : ليت
شعرنا بأى نوع يعاملنا ... أبا نخسف أو بالمسخ أو بالعذاب أو بماذا ؟

فقال تعالى : « وَيُذْهِبُ عَنْكُمْ رِجْسَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ » نعر فكم ما الذي عملنا بهم .

(١) القاعدة « أن الله يحب أن تؤتى رخصته كما تؤتى عزائمه » ولكن التشيرى يرى بالنسبة لأرباب
الأحوال أن (الرخصة في الشريعة للمستضعفين وأصحاب الحوائج والأشغال ، وهؤلاء الطائفة (الصوفية)
ليس لهم شغل سوى القيام بحقه سبحانه ، ولهذا قيل إذا انحط الفقير من درجة الحقيقة إلى رخصة الشريعة
فقد فسح الله تعالى ، ونقض عهده فيما بينه وبينه سبحانه) الرسالة ص ١٩٩ .

« ويتوب عليكم ، أما أنتم فأتوب عليكم ، أما من تقدم فلقد دمرت عليهم :
ويقال « يريد الله ليبين لكم » : أى يكشفكم بأسراره فيظهر لكم ما خفى على غيركم .
ويقال يريد الله ليبين لكم انفرادَه — سبحانه — بالإيجاد والإبداع ، وأنه ليس
لأحد شئ . »

« ويهديكم سنن الدين من قبلكم » طريقة الأنبياء والأولياء وهو التفويض والرضاء ،
والاستسلام للحكم والقضاء .

وقيل « ويتوب عليكم » أى يتقبل توبتكم بعدما خلق توبتكم ، ثم يُثيبُكم على ما خلق
لكم من توبتكم ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاللَّهُ يَرِيدُ أَنْ يُتُوبَ عَلَيْكُمْ ، وَيُرِيدُ
الَّذِينَ يُتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا
مِيلًا عَظِيمًا ﴾ يريد الله أن يخففَ
عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴿ .

عزل بهذا الحديث حديث الأولين والآخرين .

ومن أراد الله توبته فلا يُشمت به عدواً ، ولا يناله في الدارين سوء .

« ويريد الذين يتبعون الشهوات . . . » : إرادتهم منكوسة ، وهى عند إرادة الحق
— سبحانه — ضائعة مردودة .

« ويريد الله أن يخفف عنكم » : يعنى ثقل الأوزار بمواترة الأوراد إلى قلوبكم ، ويقال
يريد الله أن يخفف عنكم مقاساة المجاهدات بما يلج لقلوبكم من أنوار المشاهدات .

ويقال يريد الله أن يخفف عنكم أتعاب الخدمة بحلاوة الطاعات .

ويقال يخفف عنكم كلف الأمانة بحملها عنكم .

(١) واضح من هذا الكلام أن الفضل كله لله ، هو الذى يخلق توبة العبد وهو الذى يليه على توبته ،
وقد ربطنا بين هذا وبين ما ذكره التفسيرى عند (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) التى جاء ذكرها
فيما سبق (من هذا الكتاب ص ٢١٦)

ويقال يخفف عنكم أتعاب الطلب بروح الوصول .

« وخلق الإنسان ضعيفاً » : وصف بهذا فقرهم وضُرَّهم ، و (. . .) ^(١) بها عذرهم .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ

بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً

عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ

إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَنْ يَفْعَلْ

ذَلِكَ عَدُوًّا غُلَامًا فَظَلَمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ

نَارًا ، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۝

كل نفقة كانت لغير الله فهي أكل مالٍ بالباطل .

ويقال القبض إذا كان على غفلة ، والبذل إذا لم يكن بمشهد الحقيقة ^(٢) ، فكل ذلك

باطل ، « وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ » : يعني بارتكاب الذنوب ، ويقال تعريضها لمساخطته سبحانه .

ويقال بنظركم إليها وملاحظتكم إياها .

ويقال باسئحسانكم شيئاً منها بإيثارها دون رضاء الحق .

ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فإننا لا نُخْلِيهِ مِنْ عِقَابٍ شَدِيدَةٍ ، وهو أَنْ نَكَلِّهَا إِلَى

صَاحِبِهَا ، وَنَلْقَىٰ حَبْلَهَا عَلَىٰ غَارِبِهَا .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ

نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ

مُدْخَلَ كَرِيمٍ ۝

الكبائر — على لسان العلم — هاهنا الشُّرْكُ بالله ، وعلى بيان الإشارة أيضاً الشُّرْكُ

(١) مشبهة .

(٢) والبذل إذا لم يكن بمشهد الحقيقة ، أى لو كان ما قبله وأنت تشهد نفسك دون أن تشهد الحق ، فهو عمل ضائع ، لأنك حينئذ ستحسب قدراً لنفسك .

الْخَفِيِّ . ومن جملة ذلك ملاحظة الخلق ، واستحلاء قبولهم ، والتودد إليهم ، والإغماض على حق الله بسببهم ^(١) .

ويقال إذا سلم العهد فما حصل من مجاوزة ^(٢) الحد فهو بعيد عن التكفير .
ويقال أكبر الكبائر إثباتك نفسك فإذا شاهدت نفيها ^(٣) تَخَلَّصْتَ ^(٤) من أسر المحن . « وندخلكم » في أموركم « مدخلا كريماً » إدخالاً حسناً لا ترون منكم دخولكم ولا خروجكم وإنما ترون المَصْرَفَ لكم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَسْتَنُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ

عَلَى بَعْضٍ ، لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا
اَكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا
اَكْتَسَبْنَ ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ،
إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾ .

لسان المعاملة أن الأمر بالتعنى لا بالنفى ، ولسان التوحيد أن الأمر بالحكم والقضاء لا بالإرادة والمشي . ويقال اصلكوا سبيل من تقدمكم في قيامكم بحق الله ، ولا تتعرضوا لنيل ما خُصَّوا به من فضل الله . قوموا بحق مولاكم ولا تقوموا بمناجاة هواكم واختيار مناكم .
ويقال لا تستنوا ^(٥) مقام السادة دون أن تسلكوا سبيلهم ، وتلازموا سيرهم ، وتعملوا عملهم .. فإن ذلك جورٌ من الظن .

ويقال كن طالب حقوقه لا طالب نصيبك على أى وجه شئت : دنيا وآخرة (وإلاً) ^(٦)
أشركت في توحيديك من حيث لم تشعر .

(١) ربما يشترك كثير من الباحثين في هذا الرأي مع القشيري ولكنه عند أهل الملامة عنصر أساسى وخطير في تعاليمهم ، حيث يزيد إلى درجة استجلاب سخط الناس ولومهم للعبد .
(٢) وردت (بالراء) وهى خطأ فى النسخ ، ويكون المعنى إن الله يفتر بمجاوزة الحد على شرط سلامة العهد وعدم الشرك .

(٣) ووردت (فنيها) وهى خطأ فى النسخ .
(٤) وردت بالناء المربوطة لا المفتوحة وهى خطأ فى النسخ .
(٥) وردت بالهاء لا بالميم والصحيح أنها بالميم ويتأيد ذلك بقوله بعد قليل (لا تستنّ مقامات الرجال) .
(٦) إضافة من يستقيم المعنى ، إذ واضح أنها سقطت من النسخ .

ويقال لا تفتنّ مقامات الرجال فإن لكل مقام أهلاً عند الله ، وهم معدودون ، فما لم يمت واحد منهم لا يورث مكانه غيره ، قال تعالى : « جعلكم خلائف » والخليفة من يخلف من تقدمه ، فإذا تمنيّت مقام ولي من الأولياء فكأنك استعجلت وفاته ، على الجملة تمنيت أو على التفصيل ، وذلك غير مُسلم .

ويقال خودك تحت جريان حكمة — على ما سبق به اختياره — أخطى لك من تعرضك لوجود مناك ، إذ قد يكون خفك في مَنيتك .

ويقال مَنْ لم يودّب ظاهره بفنون للعاملات ، ولم يهذّب باطنه بوجوه^(١) المنازلات فلا ينبغي أن يتصدّى لنيل المواصلات ، وهيئات هيات متى يكون ذلك !

« واسألوا الله من فضله » : الفرق^(٢) بين التمني وبين السؤال من فضله من وجوه : يكون التمني للشيء مع غفلتك عن ربك ، فتتني بقلبك وجود ذلك الشيء من غير توقعه من الله ، فإذا سألت الله فلا محالة تذكره ، والآخر أن السائل لا يرى استحقاق نفسه فيحيله صدق الإرادة على التملق والتضرع ، والتمني يخلو عن هذه الجملة .

والآخر أن الله نهى عن تمنّي ما فضل الله به عبده إذ معناه أن يسلب صاحبك ما أعطاه ويعطيك إياه ، وأباح السؤال من فضله بأن يعطيك مثل ما أعطى صاحبك .

ويقال لا تمنّ العطاء وسلّ الله أن يعطيك من فضله الرضا بفقد العطاء وذلك أتم من العطاء ، فإن التحرّر من رِق الأشياء أتم من تملكها .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلِكُلِّ جَمَلًا مَوَالِي مِمَّا نَزَكَ

الوالدان والأقربون والذين هَقَدَتْ

إِيمَانُكُمْ فَأَتَوْهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ

كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ۝

جعل للعاقدة في ابتداء الإسلام نظيرة النسب في ثبوت لليراث بها فنسخ حكم الميراث

(١) وردت (بوجوده) والصواب أن الدال زائدة لبثلام المعنى مع (فتون) كذلك فإن (بوجوده المنازلات) غير مستقيمة .

(٢) لاحظ كيف ترى بحوث القشيري التي من هذا القبيل علوم اللغة والبلاغة .

وبقي حكم الاحترام ، فإذا كانت للماقدة بين الناس بهذه اللثابة فما ظنك بالمعاهدة مع الله ؟ .
قال الله تعالى : « رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » وأنشدوا :

إن الألى ماتوا على دين الهوى وجدوا المنية مهلاً معسولاً

قوله جل ذكره : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله

بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من
أموالهم ، فالصالحات قانتات حافظات
للغيب بما حفظ الله ، واللاتي يخافون
شوزهن فيظوهن واهجروهن في
المضاجع واضربوهن فإن أظعنكم
فلا تبغوا عليهن سبيلاً إن الله كان
عليها كبيراً » .

خص^(١) الرجال بالقوة فزيد بالمثل عليهم ؛ فالحمل على حسب القوة . والعبرة بالقلوب
والهم لا بالنفوس والجثث .

قوله : « واللاتي يخافون شوزهن فيظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن » : أي
ارتقوا في تهذيبن بالتدريج والرفق ، وإن صلح الأمر بالوعظ فلا تستعمل العصا بالضرب ،
فالآية تتضمن آداب العشرة .

ثم قال : « فإن أظعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً » : يعني إن وقفت في الحال عن سوء
العشرة (.....)^(٢) ورجعت إلى الطاعة فلا تنتقم منها عما سلف ، ولا تمتنع من
قبول عذرهما والتأني عليها .

يقال : « فلا تبغوا عليهن سبيلاً » بمجاوزتك عن مقدار ما تستوجب^(٣) من قمتك .

(١) جاءت (حشر) أي أخطأ الناسخ فنقل نقطة الحاء إلى الضاد .

(٢) هنا ثلاث كلمات رائدة وضع الناسخ علامة مميزة للتنبيه على ضرورة حذفها لتكرارها بدون داع .

(٣) أي تستحق المرأة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا
حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا
إِنْ يَرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ،
إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ .

يقال لك عليها الطاعة بالبدن ، فأماً المحبة والميل إليك بالقلب فذلك إلى الله ،
فلا تسكنها مالا يرزقك الله منها ، فإن القلوب بقدره الله ، يُحِبُّ إِلَيْهَا مَنْ يَشَاءُ ، وَيُبْغِضُ
إِلَيْهَا مَنْ يَشَاءُ .

ويقال « فَإِنْ أَطَعْتُمْكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلًا » أى لا تنسَ وفاءها فى الماضى بنادر^(١)
جفاء يبدو فى الحال فربما يعود الأمر إلى الجليل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا
وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى
وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ
ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ
بِالْجُنُبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ
أَيْمَانُكُمْ . إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ
كَانَ مُخْتَلًا فُخْرًا ﴾ الذين يبخلون
ويأمرؤن الناس بالبخل ويكتمون
ما آتاهم الله من فضله وأعتدنا
للكافرين عَذَابًا مُهِينًا ﴾

قوله « وَاعْبُدُوا اللَّهَ » : العبودية معاقبة الأمر ومفارقة الزجر^(٢) .

« وَلَا تَشْرِكُوا » الشُّرْكُ تجلُّيه اعتقادُ معبودٍ سواه ، وخَفِيَّةٌ : ملاحظةُ موجودٍ سواه ،

(١) لا نستبعد أنها وبما كانت فى الأصل (ببادر) والمعنى يتقبل (نادر) و (بادر) فكلاما يدل على قدر
من الخفاء لا يستحق الاهتمام ويستوجب العفو .
(٢) أى طاعة ما أمرك به وترك ما نهاك عنه .

والتوحيد أن تعرف أن الحادثات كلها حاصلةٌ بالله ، فأثمةٌ به ، فهو مجريها ومنشيها ومبقيها ،
وليس لأحد قوة ولا شظية ولا سينة ولا شمة من الإيجاد والإبداع .

ودقائق الرياء وخفايا المصانعات وكوامن الإعجاب والعمل على رؤية الخلق ، واستحلاء
مدحهم والذبول تحت رذم وذمهم — كل ذلك من الشبرك الخلقى .

قوله : « وبالوالدين » الإحسان إلى الوالدين على وجه التدرج إلى محبة فإنك أمرت
أولاً بحقوقهما لأنها من جنسك ومنهما تربيتك ، ومنهما تصل إلى استحقاق زيادتك وتتحقق
بمعرفتك . وإذا صلحت للصحبة والعشرة مع ذوى القربى والفقراء والمساكين واليتامى
ومن فى طبقتهم — رُقيتَ عن ذلك إلى استيجاب محبته — سبحانه .

قوله : « والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب . . . الآية » من جيرانك
(. . .)^(١) فلا تؤذهما بعصيانك ، وراعى حقهما بما تولى عليهما من إحسانك .

فإذا كان جار دارك مستوجباً للإحسان إليه ومراعاة حقه فجار نفسك — وهو قلبك —
أولى بالأفضلية ولا تغفل عنه ، ولا تُمكن حلول الخواطر الرديئة به .

وإذا كان جار نفسك هذا حكه فجار قلبك — وهو روحك — أولى أن تحامى على
حقها ، ولا تُمكن لما يخالفها من مساكنتها ومجاورتها . وجار روحك — وهو سرك —
أولى أن ترعى حقه ، فلا تُمكنه من الغيبة عن أوطان الشهود على دوام الساعات .

قوله : « وهو معكم أينما كنتم » الإشارة منه غير ملتبسة على قلوب ذوى التحقيق .

قوله : « الذين يبخلون . . . الآية » : البخل على لسان العلم منع الواجب ، وعلى بيان
الإشارة ترك الإيثار فى زمان الاضطراب . وأمرُ الناس بالبخل معناه منعهم عن مطالبات
الحقائق فى معرض الشفقة عليهم بموجب الشرع ، وبيان هذا أن يقع بلسانك الاسلاخ عن
الملائق وحذف فضولات الحالة فمن نصحه بأن يقول : « ربما لا تقوى على هذا ، ولأن تكون
مع معلومك الحلال أولى بأن تصير مكدياً ، وربما تخرج إلى سؤال الناس وأن تكون كلاً على

(١) مشبهة .

المسلمين — ويرَوِي له في هذا الباب الأخبار والآثار أمثال هذا « قلولا يُخْلَهُ ^(١) المستكن في قلبه لأعانه بهيمته فيما يسنح لقلبه ^(٢) بَدَلْ أَنْ يَمْنَعَ عَنْهُ مَا (يُجِبُّ) أَنْ يَقُولَ فِي مَعْرِضِ النَّصِيحِ . وَمِنْ كَانَتْ هَذِهِ صِفَتُهُ أَدْرَكَهُ عَاجِلُ الْمَقْتِ حَيْثُ أَطْلَقًا شَرُّهُ إِرَادَةُ ذَلِكَ الْمُسْتَفْضَعِ بِمَا هُوَ عِنْدَ نَفْسِهِ أَنَّهُ نَصِيحَةٌ وَشَفِيقَةٌ فِي الشَّرْعِ .

وقوله : « وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ » : إِنْ كَانَ اللَّهُ أَغْنَاهُمْ عَنْ طَلَبِ الْفَضِيلَةِ بِمَا خَوَّلَهُمْ وَأَتَاهُمْ كَتَمُوا ذَلِكَ طَمَعًا فِي الزِّيَادَةِ عَلَى غَيْرِ وَجْهِ الْإِذْنِ . وَيُقَالُ يَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِذَا سَأَلَهُمْ مَرِيدٌ شَيْئًا عِنْدَهُمْ فِيهِ نَجَاتُهُ ، وَضَنُوا عَلَيْهِ بِإِرْشَادِهِ .

ويقال بخُلِ الْأَغْنِيَاءَ يَمْنَعُ النِّعْمَةَ ، وَيَخْلُ الْفُقَرَاءَ يَمْنَعُ الْهَمَةَ .

قوله جل ذكره : * وَالَّذِينَ يَنْفَقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا *

أَدْخَلَ هَؤُلَاءَ أَيْضًا تَحْتَ قَوْلِهِ : « إِنْ كَانَ اللَّهُ لَا يُجِبُّ مِنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا » فَعَقِبَتْهُمْ فِي الْعَاجِلِ أَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنْ جِهَةِ تَحْيِيئِهِ ، وَكَفَى بِذَلِكَ مَحْنَةً .

وَالْمُخْتَالُ الَّذِي يَنْظُرُ إِلَى نَفْسِهِ وَالْمَرَاتِي الَّذِي يَنْظُرُ إِلَى أَبْنَاءِ جِنْسِهِ ، وَكِلَاهُمَا مُسَوِّمَانُ بِالشَّرْكِ الْخَفِيِّ وَاللَّهُ لَا يُجِبُّ لِلْمُشْرِكِينَ . وَالْفَخُورُ مِنَ الْإِبِلِ كَالْمَصْرَاةِ مِنَ الْغَنَمِ وَهُوَ الَّذِي سُدَّتْ أَخْلَافُهُ لِيَجْتَمَعَ فِيهَا الدَّرُّ ^(٣) فَيَتَوَهَّمُ لِلْمُشْتَرِي أَنْ جَمِيعَ ذَلِكَ مُعَادَا لَهَا وَلَيْسَ كَذَلِكَ ، فَكَذَلِكَ الَّذِي يَرَى مِنْ نَفْسِهِ حَالًا وَرَتَبَةً وَهُوَ فِي ذَلِكَ مَدْعٍ وَهُوَ الْفَخُورُ ، وَاللَّهُ لَا يُجِبُّ ، وَكَذَلِكَ الْمَرَاتِي الَّذِي يَنْفَقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ .

(١) حَاولَ بَعْضُهُمْ أَنْ يَصَحِّحَهَا فِي الْهَامِشِ فَعُطِنَ أَنَّ صَوَابَهَا (تَجَلَّه) وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا (يَخْلَهُ) .
(٢) يَسْتَعْمِلُ الْقَشِيرِيُّ الْفِعْلَ (يَسْنَحُ) لِلدَّلَالَةِ عَلَى مَا يَرِدُ الْقَلْبَ مِنْ خَوَاطِرٍ قَدْ تَصَبَّحَ هَوَاجِسَ فَنَشَدَهُ نَحْوُ الْمَلَاتِقِ وَالْحَلَاتِقِ ، وَقَدْ نَكُوْنُ الْهَامَا مِنْ قَبْلِ الْحَقِّ سَبْعَانَهُ فَتَهْدِيهِ السَّبِيلَ .
(٣) الدَّرُّ = الْإِبْنُ الْغَرِيرُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم
الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان
الله بهم علياً ﴾

ليس في إيمانهم بالله عليهم مشقة ، بل لو آمنوا وصلوا إلى عز الدنيا والآخرة ، ولا يحملهم
على الإعراض عنه إلا قلة الوفاء والحرمة .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْلِبُ مُثْقَلُ خَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ
حَسَنَةٌ يضاعفها وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ
أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

لا ينقص من ثوابهم شيئاً بل يبتدئهم — من غير استحقاقهم — بفضله ، ويضاعف
أجورهم على أعمالهم ؛ فأما الظلم فمحالٌ تقديره في وصفه لأن الخلق خلقه ، والمُلك ملكه .
والظلم من يعتدى حداً رُسيمَ له — وهو في وصفه محالٌ لعزّه في جلال قدره .

قوله جل ذكره : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ
بشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا *
يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا
الرَّسُولَ لو تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ
وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾

إذا كان الرسول — صلى الله عليه وسلم — الشهيد على أمته ، وهو الشفيع لهم ، فإنما
يشهد بما يُبغى للشفاعة موضعها .

قوله تعالى : « يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا . . . » الآية : يحصلون على ندم ثم لا ينفعهم ،
ويعضون على أناملهم ثم لا يسكن عنهم جزعهم ، فيتقنمون بخيمار الذل ، وينقلبون إلى أوطان
الحن^(١) والضر .

(١) وردت (المحسن) والسين زيادة من الناسخ والمصواب (الحن) .

قوله جل ذكره : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ
وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ
وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى
تَغْتَسِلُوا ، وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى
سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ
أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً
فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا
بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا
غَفُورًا ﴾

النَّهْيُ عَنْ مَوْجِبِ السُّكْرِ مِنَ الشَّرَابِ لَا مِنَ الصَّلَاةِ ، أَيْ لَا تَصَادِفُكُمْ الصَّلَاةُ وَأَنْتُمْ
بِصِفَةِ السُّكْرِ ، أَيْ امْتَنَعُوا عَنْ شُرْبِ مَا يُسَكِّرُ فَإِنَّكُمْ إِنْ شَرَبْتُمْ مَكْرَمًا ، ثُمَّ إِذَا صَادَفَكُمْ
الصَّلَاةُ عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ لَا تُقْبَلُ مِنْكُمْ صَلَاتُكُمْ .
وَالسُّكْرُ ذَهَابُ الْعَقْلِ وَالْإِسْتِشْعَارِ ، وَلَا تَصَحُّ مَعَهُ لِلنَّجَاةِ مَعَ الْحَقِّ .
الْمُصَلِّيُ يَنَاجِي رَبَّهُ ؛ فَكُلُّ مَا أَوْجِبَ لِلْقَلْبِ الذَّهُولُ عَنِ اللَّهِ فَهُوَ مُلْحَقٌ بِهَذَا مِنْ حَيْثُ
الْإِشَارَةُ ؛ وَلَاجِلِ هَذِهِ الْجُمْلَةِ حَصَلَ ، وَالسُّكْرُ عَلَى أَقْسَامٍ :
فَسُكْرٌ مِنَ الْخَمْرِ وَسُكْرٌ مِنَ الْغَفْلَةِ لَاسْتِيْلَاءِ حُبِّ الدُّنْيَا .

وَأَصْعَبُ السُّكْرِ سَكْرُكَ مِنْ نَفْسِكَ فَهُوَ الَّذِي يُلْقِيكَ فِي الْفِرْقَةِ عَنْهُ ، فَإِنْ مَنَّ سُكْرٌ مِنَ الْخَمْرِ
فَقَصَارَاهُ الْفِرْقَةُ — إِنْ لَمْ يُفْقَرْ لَهُ . وَمَنْ سَكِرَ مِنْ نَفْسِهِ فَحَالُهُ الْفِرْقَةُ — فِي الْوَقْتِ — عَنِ الْحَقِيقَةِ .
فَأَمَّا السُّكْرُ الَّذِي يُشِيرُ إِلَيْهِ الْقَوْمُ ^(١) فَصَاحِبُهُ مُحْفُوظٌ عَلَيْهِ وَقْتُهُ حَتَّى يَصِلَى وَالْأَمْرُ
مُخَفَّفٌ عَلَيْهِ : (فَإِذَا خَرَجَ عَنِ الصَّلَاةِ هَجَمَ عَلَيْهِ غَالِبُهُ فَاخْتَلَفَهُ عَنْهُ وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مُحْفُوظًا) ^(٢)
عَلَيْهِ أَحْكَامُ الشَّرْعِ (فَشَوْبٌ بِمَحْظٍ) ^(٣) .

(١) أَيْ السُّكْرُ عِنْدَ الصُّوْفِيَّةِ .

(٢) هَذَا الَّذِي بَيْنَ قَوْسَيْنِ مُسْتَدْرِكٌ فِي هَامِشِ الصَّفْحَةِ وَضَعْتُهُ فِي مَوْضِعِهِ مِنَ النَّصِّ .

(٣) (فَشَوْبٌ بِمَحْظٍ) وَضَعْنَا هَاتَيْنِ اللَّفْظَتَيْنِ هُنَا مُسْتَفِيدَيْنِ مِنْ أَقْوَالِ الْقَشِيرِيِّ فِي مَوَاضِعٍ مُنَاطِرَةٍ =

وقوله تعالى : « ولا جُنُباً إلا عابري سبيل . . . الآية » : أذن للمضطر أن يترخص في عبور المسجد وهو على وصف الجنابة ، فإذا عرج زائداً على قدر الضرورة فمُعَاتَبٌ غير معذور ، وكذلك فيما يحصل من معاذير الوقت في القيام بشرائط الوقت فرفوعة عن صاحبه المطالبة به .

ثم إنه — سبحانه — بفضل جملة التيمم بدلاً من الطهارة بالماء عند عَوَزِ الماء كذلك النزول إلى ساحات الفرق عن ارتقاء ذرة^(١) الجمع — بِقَدَرِ ما يحصل من الضعف — بِدَلِّ لأهل الحقائق .

ثم إن التيمم — الذي هو بِدَلُّ الماء — أعمُّ وجوداً من الماء ، وأقلُّ استعمالاً من الأصل ، فإن كل من كان أقرب كانت المطالبات عليه أصعب .

ثم في الظاهر أمرنا باستعمال التراب وفي الباطن باستشعار الخضوع واستدامة الذبول^(٢) . وردَّ التيمم إلى التقليل ، وراعى فيه صيانة لرأسك عن التراب ولقدمك ؛ فإنَّ العزَّ بالمؤمن — ومولاه باستحقاق الجلال — أولى من الذلِّ لما هو مفلس فيه من الحال ، ولئن كان إفلاسه عن أعماله يوجب له التذلل ففرقانه بجلال سيده يوجب كل تعزُّز وتجمل .

قوله جل ذكره ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنْ

الْكِتَابِ يَشْكُرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ

أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ * وَاللَّهُ أَعْلَمُ

بَأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيّاً وَكَفَى

بِاللَّهِ نَصِيراً * مِنَ الَّذِينَ هَادُوا

يُخَوِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ

وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ

غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لِيّاً بِأَلْسِنِهِمْ

== في مصنفاته الأخرى ، وذلك نظراً لاتباعهم الكلمتين هنا لرداءة خط النسخ (انظر حديث القشيري عن السكر في الرسالة ص ٤١) .

(١) ترجع أنها في الأصل (ذروة الجمع) وأن الواو قد سقطت من النسخ .

(٢) لأن فيه تذكيراً للانسان بأصله .

وَمَعْنًا فِي الدِّينِ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا
سَيِّئًا وَأَطَعْنَا وَاسْتَعِزَّوْا بِأَنْظُرِنَا
لَكُنْ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ
لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ
إِلَّا قَلِيلًا ﴿١﴾

ومكروا مكرًا ولم يشعروا وجهة مكرم أن أعطوا الكتاب ثم حرموا بركات الفهم
حتى حرفوا وأصرّوا .

قوله : « من الذين هادوا . . . » الآية : تركوا حشمة الرسول — صلى الله عليه وسلم —
ورفضوا حرمة ، فعوقبوا بالشك في أمره ، ولذلك لم يترك أحد حشمة (محشم)^(١) إلا حيل
بينه وبين نيل بركات صحبته وزوائد خدمته . ولو أنهم عاجلوا في نفي ما داخلهم من الحسد
وقابلوا حاله بالتبجيل والإعظام لوجدوا بركات متابعته ، فأسعدوا به في الدارين ، وكيف
لم يكونوا كذلك وقد أقصتهم السوابق فأقعدتهم القسمة عن بساط الخدمة ؟ وإن من قدمت
به الأقدار لم ينهض به الاحتيال .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا
بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلُ
أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى
أُدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ
السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾

صرف القلوب عن الإرادة إلى أحوال أهل العادة حتى كانت دواعيه يتوفر في رفض
الدنيا فعاد لا يصبر عن جميعها^(٢) ومنعها .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنْ اللَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرَ

(١) ترجيح أن هذه الكلمة زائدة من النسخ ، أو ربما كان الأصل (حشمةٌ مُحْتَشَمٌ) .

(٢) وردت (جميعها) وهي خطأ في النسخ .

مادون ذلك لمن يشاء ، ومن
يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً *

العوام طولبوا بترك الشرك الجلي ، والخواص طولبوا بترك الشرك الخفي ، فمن توسل
إليه بعمله ويظنه منه ، أو توهم أن أحكامه — سبحانه — معلولة بحركاته وسكناته ، أو راعى
خلقاً أو لاحظ نفساً فوطنه الشرك عند أهل الحقائق (١) .

والله لا يغفر أن يُشرك به وكذلك من توهم أن مخالفته حصلت من غير تقديره فهو
ملتحق بهم .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ
بِاللَّهِ يَزْكُوا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ وَلَا يُلْظَمُونَ
فَتِيلًا ﴾ انظر كيف يفترون على
الله الكذب ، وكفى به إثماً
مبيناً *

من ركن إلى تزكية الناس له ، واستحلى قبول الخواص له — فضلاً عن العوام — فهو
من زكى نفسه ، ورؤية النفس أعظم حجاب ، ومن توهم أنه يشكك في يزكى نفسه : بأوراده
أو اجتهاده ، بحركاته أو سكناته — فهو في غطاء جهله .

قوله : « انظر كيف يفترون . . . » الآية : الإشارة إلى من أطلق لسان الدعوى من
غير تحقيق ، والمفتري — في قائلته في هذا الأمر — لا ينطق بشيء إلا أجبه الآذان
وانزجرت له القلوب ، فإذا سكت عاد إلى قلب خراب .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا
مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجَبِيتِ
وَالطَّاغُوتِ ، وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا
هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا

(١) يقول زكريا الأنصاري شارح الرسالة : (من كانت أفعاله لله تعالى وشاهدتها طاعة له تعالى فهو
في التفرقة ومن شاهدتها جارية عليه فضلاً من الله فقد شاهدتها بالله فهو في الجمع) هامش (٣٩) .

سيلا * أولئك الذين لَعَنَهُمُ اللَّهُ ،
وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فْلَنٌ تَجَدَّ لَهُ
نَصيراً ﴿١﴾

طاغوتُ كُلِّ أَحَدِ نَفْسِهِ وهواه وَجِبْتُهُ و (.....) (١) مقصوده من الأغيار ، فمن
لاحظ شخصاً أو طالع سيباً أو عرجاً على عِلَّةٍ أو أطاع هوىً ، فذلك جِبْتُهُ و طاغوته . وأصحاب
الجبب والطاغوت يستوجبون اللعن ؛ وهو الطرد عن بساط العبودية ، والحجاب عن
شهود الربوبية .

قوله جل ذكره : ﴿ أَمْ لَمْ نَصِيبْ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا
لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا * أَمْ
يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ
مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا
عَظِيمًا * فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ
مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكُفِيَ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾

مَنْ جُبِلَ عَلَى الشُّحِّ لَا يَزْدَادُ بِسَعَةِ يَدِهِ إِلَّا تَأْسَفًا عَلَى رَاحَةِ يَنَاحِيهَا الْخَلْقُ ، كَانَ مَنْ شَرِبَ
قَطْرَةَ مَاءٍ قَدْ تَحَسَّى بِلِ رَشَفٍ مِنْ مَاءِ حَيَاتِهِ !

قوله : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ ﴾ : بل ينكرون تخصيص الحق سبحانه لأوليائه
بما يشاء حسداً من عند أنفسهم فلا يقابلونهم بالإجلال ، وبنَّةُ اللَّهِ سبحانه مع أوليائه مضت
بالتعزيز والتوقير لهم . ودأبُ الكافرين جرى بالارتياح في القدرة ؛ فمنهم من آمن بهم ،
ومنهم من ردَّ ذلك وجحد ، وكفى بعقوبة الله منتقماً عنهم .

قوله : ﴿ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴾ : الملْكُ العظيم معرفة الملِك ، ويقال هو الملْكُ
على النفس .

ويقال الإشراف على أسرار المملكة حتى لا يخفى عليه شيء .

ويقال الاطلاع على أسرار الخلق .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الدِّينَ كَفَرُوا بآيَاتِنَا سَوْفَ

نُصْلِيهِمْ نَارًا كَلَّمَا فَضِجَتْ جُلُودُهُمْ

بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا

العَذَابَ * إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا

حَكِيمًا ﴾

الإشارة منه إلى الجاحدين لآيات الأولياء ؛ يُقيمهم بوصف الصغار ويبقيهم في وحشة

الإنكار^(١) ؛ كَلَّمَا لَح لِقَولِهِمْ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ^(٢) جَرَّمْهُمْ إِنْكَارُهُمْ إِلَى تَرْكِ الْإِيمَانِ بِهَا

والإضرار بأهلها على وجه الاستبعاد ، فهم مؤبدة عقوبتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَمْ يَكُنْ فِيهَا

أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا

ظَلِيلًا ﴾

هم اليوم في ظل الرعاية ، وغداً في ظل الحماية والكفاية ، بل هم في الدنيا والعقبى

في ظل العناية .

والناس في هذه الدنيا متفاوتون : فمنهم من هو في ظل رحمته ، ومنهم من هو

في ظل رعايته ، ومنهم من هو في ظل كرامته ، ومنهم من هو في ظل عنايته ، ومنهم من

هو في ظل قربته .

(١) وردت (الأفكار) بالفاء والصواب — حسب المعنى والسياق — وكما جاء بعد قليل في (وجرم إنكارهم) أن تكون (الإنكار) .

(٢) يقصد من (القصة) : التصوف وأهله .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا
الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ، وَإِذَا حَكَمْتُمْ
بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ *
إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ
كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾

ردُّ الأمانات إلى أهلها تسليم أموال^(١) الخلق لهم بعد إشرافك عليها بحيث
لا تفسد عليهم .

ويقال لله — سبحانه وتعالى — أماناتٌ وضَعَهَا عِنْدَكَ ؛ فردُّ الأمانة إلى أهلها
تسليمها إلى الله — سبحانه — سالمةً مِنْ خِيَانَتِكَ فِيهَا ؛ فالخيانة في أمانة القلب ادعاؤك
فيها ، والخيانة في أمانة السرِّ ملاحظتك إياها .

والْحُكْمُ بَيْنَ النَّاسِ بِالْعَدْلِ تسوية القريب والبعيد في العطاء والبذل ، وألا تحملك مغامرة
حقِّدٍ على انتقامٍ لنفسٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ
فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى
اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ
تَأْوِيلًا ﴾ .

قَرَنَ طاعته بطاعة الرسول — صلى الله عليه وسلم — تفخيلاً لشأنه ورفعاً لِقَدْرِهِ .
وأما أولو الأمر — فعلى لسان العلم — السلطان ، وعلى بيان المعرفة العارف ذو الأمر
على المستأنف ، والشيخُ أولو الأمر على المرید ، وإمامُ كل طائفة ذو الأمر عليهم .

(١) وردت (أحوال) والصواب أنها (أموال) لأن الأحوال لا تكون ودائع للناس عندك بل أموالهم

ويقال الولي أولى بالمريد (من المريد) ^(١) للمريد .

قوله : « فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله » على لسان العلم — إلى الكتاب والسنة ، وعلى بيان التوحيد فوض ذلك ووكلَ علمه إلى الله سبحانه ، وإذا اختلف الخاطران في قلب المؤمن فإن كان له اجتهد العلماء تأمل ما يسنح لخاطره بإشارة فهمه ، ومن كان صاحب قلب ووكلَ ذلك إلى الحق — سبحانه — وراعى ما خوطب به في سرائره ، وألقيَ — بلا واسطة ^(٢) — في قلبه .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قِبَلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ .

أظهروا الإخلاص ، وناققوا في السر ، ففضحهم — سبحانه — على لسان جبريل عليه السلام بقوله : « يريدون أن يتحاكوا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به » أى يرفضوه . فمن حاد عن طريقه ورجع إلى غير أستاذه استوجب الحرمان والدم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا إِلَى مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴾ .

كل شئ سوى كلمة الحق فهو خفيف على المنافقين ، فأما التوحيد فلا يسمع كلمته إلا مخلص ، وأهل الفترة في الله وأصحاب النفرة لا يسمعون ما هو الحق ؛ لأن خلاف الهوى يشقُّ على غير الصديقين . وكما أن ناظر الخلق ^(٣) لا يقوى على مقابلة الشمس فكذلك

(١) هذا استدراك موجود في هامش الصفحة أثبتناه في موضعه من النص .

(٢) تأمل جيدا (بلا واسطة) فهذا وصف هام للمعرفة عند الصوفية ، يميزها ويكشف جوهرها .

(٣) أى العين .

الناقون لم يطبقوا الثبات له — صلى الله عليه وسلم — فلذلك كان صدودهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فكيف إذا أصابهم مُصيبةٌ بما

قدّمت أيديهم ثم جاءوك يَخْلِفُونَ

بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً ﴾ .

تَضَرُّعُ غير المخلص عند هجوم الضرر^(١) لا أصل له ، فلا ينبغي أن يكون به اعتبار لأن

بقاءه إلى زوال المحنة ، والمصيبة المعطى ترك المبالاة (بما يحصل من التقصير)^(٢) .

ويقال من المصيبة أن يحقك وقتك فيما لا يجدى عليك^(٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم

فأعرض عنهم وعظّمهم وقل لهم في

أنفسهم قولاً بليغاً ﴾ .

أَبْطَأَ لم لسان الوعظ بمقتضى الشفقة عليهم ، ولكن انقيض بقلبك عن المبالاة بهم

والسكون إليهم ، واعلم^(٤) أن من لا نكون نحن له لا يفي عنه أن تعينه^(٥) شيئاً .

قوله جل ذكره : ﴿ وما أرسلنا من رسولٍ إلا ليطاع بإذن

الله ولولا أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك

فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول

لوجدوا الله تواباً رحيماً ﴾ .

ما أمرنا الرسل إلا بدعوة الخلق إلينا .

(١) وردت (الضرورة) والصواب (الضر) فالعنى يقتضى ذلك ويؤيد أن الخطأ في النسخ .

(٢) ما بين قوسين شكلة وجدناها ضرورية لتوضيح المعنى فاستفدنا مما جاء في موقف مشابه في الرسالة

من ٣٤ حيث يقول (وترك المبالاة بما يحصل منك من التقصير خروج عن الدين) .

(٣) من أقوالهم في الوقت : الوقت مبرد يسحقك ولا يحقك ، والوقت سيف فكما أن السيف قاطع

فلوقت بما بمعنى الحق ويجريه غالب .

(٤) وردت (ما علم) وهي خطأ في النسخ ، وربما كانت (فاعلم) في الأصل واشتبهت على الناسخ .

(٥) (أن تعينه) المصدر المؤول من ان والفعل (أى عونك له) يقع فاعلاً للفعل (يفي) .

وقوله : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك » . لو جعلوك ذريعتهم لوصلوا إلينا ، ويقال
لو لازموا التذلل والافتقار وركبوا مطية الاستغفار لأناخوا بقوة المبار .

قوله جل ذكره : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك ﴾

فما شَجَرَ بينهم ثم لا يجدوا في
أنفسهم حرجاً مما قضيت ،
وَيُسَلِّمُوا تسليماً .

سَدَّ الطريق — إلى نفسه — على الكفاة إلا بعد الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ،
فَمَنْ لم يَمْشِ تحت رايته فليس له من الله نفس .

ثم جعل من شرط الإيمان زوال المعارضات بالكلية بقلبك .

قوله : « ثم لا يجدوا . . . » : فلا بُدَّ لك من (. . .) ^(١) تلك المهالك بوجه ضاحك ،
كما قال بعضهم :

وحبيب إن لم يكن منصفاً كنت منصفاً أتحمسى له الأمر وأستقيه ما صفا
إن يقل لي إني شقّ اخترت رضا لا تكلفاً .

قوله جل ذكره : ﴿ ولو أنا كتبنا عليهم أن اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾

أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه
إلا قليل منهم ، ولو أنهم فعلوا
ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشدّ
تتينا * وإذا لا يبنام من لدنا أجر
عظيماً * ولهديناهم صراطاً مستقيماً ﴿

أخبر عن سُقْمِ إخلاصهم وقوة إفلاسهم ، ثم أخبر الله بعمله بتقصيرهم .

خلام عن كثير من الامتحانات ثم قال ولو أنهم جنحوا إلى الخدمة ، وشدوا نطاق الطاعة

(١) هنا كلمة ناقصة ربما كانت (مواجهة) أو (مقابلة) تلك المهالك بوجه ضاحك .

لكن ذلك خيراً لهم من إصرارهم على كفرهم واستكبارهم . ولو أنهم فعلوا ذلك لآتيناهم من عندنا ثواباً عظيماً ، ولأرشدناهم صراطاً مستقيماً ولأوليناهم عطاءً مقبلاً .

والأمر — على بيان الإشارة — يرجع إلى مخالفة الهوى وذبح النفوس بمنعها عن المألوفات ، والخروج من ديار (تَقَبُّلُ النَّفْسِ)^(١) ، ومفارقة أوطن (إرادة)^(٢) الدنيا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ

مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ مِنَ النَّبِيِّينَ
وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ
وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ
مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عِلْمًا ۝

جعل طاعة المصطفى — صلى الله عليه وسلم — مفتاح الوصول إلى مقامات النبيين والصديقين والشهداء على الوجه الذي يصح للأمة وكفى له عليه السلام بذلك شرفاً .

ثم قال : « ذاك الفضل من الله » : جرد عليهم محلهم عن كل علة واستحقاق وسبب ؛ فإن ملاح لهم وأصابهم صرف فضله وابتداء كرمه .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ

فَإِنْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ وَفِرُوا جَمِيعًا ۚ
وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لِيُبَدِّلَنَّهُ فَاِنْ أَصَابَكُمْ
مُصِيبَةٌ قَالُوا قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ
مَعَهُمْ شُهَدَاءَ ۚ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ
مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ
بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَأْلَتْنِي كُنْتُ مَعَهُمْ
فَأَفُوزُ فَوْزًا عَظِيمًا ۝

(١) وضع الناصخ (تقبل النفس) في مكان خاطيء . يهيم المعنى إذ وضعها قبل (على بيان الإشارة) والصواب أن تكون في مكانها الذي اخترناه حتى يستقيم السياق .

(٢) وردت (اراد) بدون همز للألف وبدون ناء مربوطة فاخترنا (إرادة) لملاءمتها للسباق .

الفرار إلى الله من صفات القاصدين ، والفرار مع الله من صفات الواصلين ؛ فلا يجد الفرار مع الله إلا من صدق في الفرار إلى الله . والفرار من كل غير شأن كل مؤحد .
قوله تعالى : « وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لِبَطْنٍ ... » الآية : أى لم تستقر عقائدهم على وصف واحد ، فكانوا مرتبطين بالخطوط ؛ فإذا رأوا مكروهاً بطلت المسلمين شكروا وقالوا : الحمد لله الذى حفظنا من متابعتهم فكان يصيبنا ما أصابهم ، وإن كانت لكم نعمة وخير سكنوا إليكم ، وتمنوا أن لو كانوا معكم ، خسروا فى الدنيا والآخرة : فهم لا كافر قبيح ولا مؤمن مخلص .

قوله : « كَانَ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ » : يعنى طرحوا حشمة الحياة فلم يراعوا حرمتكم .
قوله جل ذكره : ﴿ قُلِّيقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ، وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

مَنْ لَمْ يَقْتُلْ نَفْسَهُ فِي نَفْسِهِ لَا يَصِحُّ جِهَادُهُ بِنَفْسِهِ ؛ فأولاً (إخراج خطر الروح) ^(١) من القلب ثم تسليم النفس للقتل .

وقوله « فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » يعنى بقاؤنا بعده خير له من حياته بنفسه لنفسه ، قال قائلهم :

ألست لى عِوضاً منى ؟ كفى شَرَفًا فإ وراهك لى قصدٌ ومطلوب

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴾

(١) هكذا فى النسخة (م) وربما كان المقصود أنك لا تستطيع أن تبدل نفسك إلا إذا قويت على قهرها والتهوين من خطرهما .

أى شيء يمنعكم عن القتال في سبيل الله ؟ وما الذى لا يرغّبكم في بذل للمهجة (١) لله ؟
وماذا عليكم لو بذلتم أرواحكم في الله والله ؟ أتخافون أن تُخسروا على الله ؟ أم لا تعلمون أنكم
تُحسرون إلى الله ؟ فلم لا تكتفون ببقائه بعد فنائكم في الله ؟

قوله جل ذكره : ﴿ والذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله
والذين كفروا يقاتلون في سبيل
الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان
إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ﴾

المخلصون لله لا يؤثرُونَ شيئاً على الله ، ولا يضرّون بشيء عن الله ، فهم أبدأ على نفوسهم
لأجل الله ، والذين كفروا على العكس من أحوال المؤمنين . ثم قوام وشجعهم بقوله :
« فقاتلوا أولياء الشيطان » أى لا تُخسروا لم غفلة ، فإن منوليكم وكافيكم على أعدائكم .

قوله جل ذكره : ﴿ ألم تر إلى الذين قبل لم كفوا
أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا
الزكاة فلما كتب عليهم القتال
إذا فريق منهم يخشون الناس
كخشية الله أو أشد خشية وقالوا
ربنا لم كتبت علينا القتال
لولا أخرتنا إلى أجل قريب ﴾

أخرجوا أيديكم عن أموركم ، وكلوها إلى مبدءكم .

ويقال اقصروها عن أخذ الحرام والنصرف فيه .

ويقال امتنعوا عن الشهوات .

ويقال « كفوا أيديكم » إلا عن رفعها إلى الله في السؤال بوصف الابتهاال .

(١) وردت (المهجة) بالحاء وهذا خطأ في النسخ وصوابها (المهجة) لملأ منها لسياق .

فلما كتب عليهم القتال استنقلوا أمره ، واستعجلوا لطفه . والعبودية في ترك الاستنقال ،
ونفي الاستعجال ، والتباعد عن التبرم والاستنقال .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ

خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾

مَكَّنَّكَ مِنَ الدُّنْيَا ثُمَّ قَالَ : « قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ » ، فلم يعد هاشبنا لك ثم لو تصدقت منها
بِشْقٍ تَمْرَةٍ لَتَخَلَّصْتَ مِنَ النَّارِ ، وحظيت بالجنة ، وهذا غاية الكرم .

واستقلال الكثير من نفسك — لأجل حبيبك — أقوى أمارات مُحِبِّكَ .

ويقال لما زهدتم في الدنيا قللها في أعينهم ليهون (عليها ^(١)) تركها .

ويقال قل متاع الدنيا بجملتها قليل ، والذي هو نصيبك منها أقل من القليل ، فحق
يناقشك لأجلها (بالتحليل) ^(٢) ، لو سلم عهدك من التبديل ؟

وإذا كانت قيمة الدنيا قليلة فأخس من الخسيس من رضى بالخسيس بدلاً عن النفيس .

وقد اختلف المؤمن من الكون بالتدرج . فقال أولاً : « قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ

خَيْرٌ » (فأحفظهم) ^(٣) عن الدنيا بالعقبى ، ثم سلهم عن الكونين بقوله : « والله خير وأبقى » .

قوله جل ذكره : ﴿ أَيُّهَا تَكُونُوا يَدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ

وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بَرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ، وَإِنْ

تُصِيبُهُمْ حَسَافَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ

عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا

هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

فَمَا لِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادِرُونَ

بِفَقْهُوْنِ حَدِيثًا ﴾

(١) الضمير في (عليها) يعود على أعينهم ، وربما كانت في الأصل (عليهم) فيعود الضمير على الزهاد .

(٢) ترجح أنها في الأصل (التحليل) إشارة إلى قوله (ص) حلالها حساب وحرامها عقاب .

(٣) ترجح أنها في الأصل (فاختطفهم) عن الدنيا بالعقبى ثم سلهم . . . فهذا أقرب إلى مراحل تدرج
الفناء الصوفي .

للموت فرح للمؤمن ، فالتعبير عن قُرْبِهِ بِشَارَةٍ لَهُ ، لآتِهِ سَبَبٌ يوصله إلى الحق ، ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه .

ويقال إذا كان الموت لا بد منه فلا استسلام لحكمه طوعاً خيراً من أن يحمل كرها .

ثم أخبر أنهم — لضعفِ بصرهم ومرض عقائدهم — إذا أصابهم حسنة فرحوا بها ، وأظهروا الشكر ، وإن أصابهم سيئة لم يهتدوا إلى الله فجرى فيهم العروق المجوسية^(١) فأضافوه^(٢) إلى المخلوق ، فرد عليهم وقال : قل لم يأمركم كل من عند الله خلقاً وإبداعاً ، وإنشاء واختراعاً ، وتقديراً وتيسيراً .

قوله جل ذكره : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكُنِيَ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾

ما أصابك من حسنة فمن الله فضلاً ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك كسباً وكلاهما من الله سبحانه خلقاً^(٣)

قوله جل ذكره : ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾

هذه الآية تشير إلى الجمع لحال الرسول — صلى الله عليه وسلم — فقال سبحانه طاعته طاعتنا ، فمن تقرب منه تقرب منا ، ومقبوله مقبولنا ، ومردوده مردودنا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ

(١) لعل القسري يقصد بذلك إلى أنهم بنسبتهم شيئاً لغير الله يشركون ، ويتأولون عن التوحيد .

(٢) أخطأ الناسخ فنقلها (فأذاقوه) فهو بناها بما يلائم السياق .

(٣) هذا تلخيص دقيق لرأى القسري فيها يصيب العباد .

عندك بَيَّتَ طائفةٌ منهم غير الذي
تقولُ ، والله يكتب ما يُبَيِّتُونَ ،
فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ، وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ،
وَكُنْ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١﴾

يعنى إذا حضرك^(١) استسلموا فى مشاهدتك ، فإذا خرجوا انقطع عنهم نور إقبالك ،
فعادوا إلى ظلمات ، كما قالوا :

إذا ارعوى عاد إلى جهله كذى الضنى عاد إلى نكسة

قوله جل ذكره : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ
عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا
كَثِيرًا ﴾ وإذا جاءهم أمرٌ من الأمن
أو الخوف أذاعوا به ولو ردُّوه
إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم
لَعَلَّهِ الَّذِينَ يَسْتَبِطُونَهُ مِنْهُمْ ،
وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ
لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾

تدبرُ إشارة المعاني بفصوص الأفكار ، واستخراجُ جواهر المعاني بدقائق الاستنباط .

قوله : « وإذا جاءهم أمرٌ . . . » : لما كانوا غافلين عن الحق لم يكن لهم من ينقل إليه
أسرارهم فأظهروا السرَّ بعضهم لبعض . فأما المؤمنون فعالمُ أسرارهم مولاهم ، وما يسنح لهم
خاطبُوه فيه فلم يحتاجوا إلى إذاعة السرِّ لمخلوق ؛ فسامعُ نجواهم الله ، وعالمُ خطابهم الله .

قوله تعالى : « ولو ردُّوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم . . . » أى لو بَشُّوا^(٢)

(١) أخطأ الناسخ فنقلها (حفروك) فصوبناها بما يلائم السياق .

(٢) كتبها الناسخ (نبوا) فصوبناها بما يلائم السياق : (بنوا أسرارهم) .

أسرارهم عند من هو (. . .)^(١) ومن هو من أهل القصد لأزالوا عنهم الإشكال ، وأمدوم بنور الهداية والإرشاد^(٢) .

« ولولا فضل الله » مع أوليائه لهموا في كل وادٍ من التفرقة كأشكالهم في الوقت .
قوله جل ذكره : ﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ، عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴾

إِسْتَقِيمَ معنا بتسليم الكل منك إلى أمرنا ؛ فإنك — كما لا يقارنك أحدٌ في رتبك لعلوك على الكل — فنحن لا نكلف غيرك بمثل ما تكلفت ، ولا نُحْمِلُ غيرك ما نحملت لانفرادك عن أشكالك في القدوة^(٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا ، وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِينًا ﴾

الشفيع بخلص المشفوع له حاله . ويستوجب الشفيع — من الله سبحانه على شفاعته — عظيم الرتبة ، ومن سعى في أمرنا بالفساد نُحْمِلُ الوزرَ واحتقبت الائم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِنَحِيَةٍ فَمِنْ بَعْدِهَا بِأَحْسَنَ

(١) مشقة ، وما بعدها قد يكتفى عنها .

(٢) في هذا الحصوص بحث النشوى في إحدى وصاياه على ألا يفضى المرید بذات نفسه إلا لأواب الطريقة من الشيوخ ؛ إذ يقبح بالمرید أن ينتسب إلى مذهب غير هذه الطريقة . فحجج أهلها — في مسائلهم — أظهر من حجج كل أحد ، وقواعد مذاهم أقوى من قواعد كل مذهب ، والذي للناس غيب فهو لهم ظهور فهم من أهل الرصال ، والناس أهل استدلال الرسالة ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

(٣) لا نستبعد أيضاً أنها في الأصل (القدرة) لتلائم التكليف والتحمل ؛ والمعنى يتحمل (القدوة)

و (القدرة) .

منها أوردوها إن الله كان على كل
شئ حسيباً *

تعليم لهم حسن العشرة وآداب الصحبة . وإن من حملك فضلاً صار ذلك — في ذمتك —
له قرضاً ، فأما زدت على فعله وإلا فلا تنقص عن مثله .

قوله جل ذكره : ﴿ الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم
القيامة لا ريب فيه ومن أصدق
من الله حديثاً ﴾

هذا الخطاب يتضمن نفيًا وإثباتًا ، فالنفي يعود إلى الأغيار ويستحيل لغيره ما نفاه ،
والإثبات له بالإلهية ويستحيل له النفي فيما أثبتته .

قوله جل ذكره : ﴿ فما لكم في المنافقين فئتين والله
أرؤسهم بما كسبوا أثر يدون
أن تهتدوا من أضل الله ، ومن
يضل الله فلن نجد له سبيلاً ﴾

(. . .) (١) العهد فيهم أنهم أعدائي ، لا ينالون مني في الدنيا والعقبى رضائي ، وإنكم
لا تنفذون بهمكم من أقمته بقسمتي (٢) فإن المدار على القسم دون (. . .) (٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ وادُّوا لو تكفرون كما كفروا
فكونون سوءاً فلا تتخذوا منهم
أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله
فإن تولوا فخذوهم واقتلوا حيث
وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً
ولا نصيراً * إلا الذين يصلون

(١) مثلية .

(٢) أي ما قسمته له في سابق الأزال لا قدرة لمخلوق على تغييره .

(٣) سقطت كلمة من الناسخ ربما كانت (الاحتيال) وربما كانت (المهم) فكلاماً يفيد أنه لا منجاة
لإنسان بعمله وحده بل المدار على القسمة .

إلى قوم ينسك وبينهم ميثاق
أو جاءكم حصرت صدورهم أن
يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء
الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فإن
اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم
السلم فما جعل الله لكم عليهم
سبيلاً

الإشارة إلى أرباب التخليط والأحوال السقيمة يتمنون أن يكون الصديقون منهم ،
وهيات أن يكون لناهم تحقيق ، وما دام المخالفون لكم غير موافقين فبائنوهم وخالفوهم
ولا تطابقوهم بحال ، ولا تعاشرهم ، ولا تتخذوا منهم ولدا ولا نصيراً ، وموافقك لك
في قصدك خير لك من مخالف على الكره تعاشره .

قوله : « إلا الذين يصلون إلى قوم . . . » الإشارة من هذه الآية أن عند الاعتذار
أذن في معاشره في الظاهر^(١) رفقاً بالمستضعفين .

« فإن اعتزلوكم . . » الإشارة منه أنه إذا عاشركم من ليس من أهل القصة معرجين
في أوطان نصيبهم فلا تدعوهم إلى طريقكم وسللوا لهم أحوالهم . فإن أمكنكم أن تلاحظوهم
بعين الرحمة بحيث تؤثر فيهم همتكم^(٢) وإلا فسللوا لهم أحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ستجدون آخرين يريدون أن
يأمنوك ويأمنوا قومهم كلأردوا
إلى الفتنه أركسوا فيها فإن لم
يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا
أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث

(١) أي أن الصلوة والمعاشره ينبغي ألا يصل أمرهما إلى حد المساكنة ، لأن صلوة الحق أو إلى من كل
غير . . . وهذا ميلاً نادى به القشيري وطبقه على نفسه إبان محنة الأليمه .
(٢) وردت (همتهم) وهي خطأ من الناسخ لأن اللحن يتطلب (همتكم)

تَقِفُسُوهُمْ وَأُولِئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ
عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١﴾

إن من وام الجمع بين الضدين خاب سعيه ، ولم يرتفع عزمه ، فكما لا يكون شخص واحد
مناقفاً ومسلماً لا يكون شخص واحد مريداً للحق ومقياً على أحكام أهل العادة . فإن الإرادة
والعادة ضدان^(١) ، والواجب مبينة الأضداد ، ومجانبة الأجانب .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا
إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً
فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ
إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ
مِنْ قَوْمٍ عَدُوٌّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ
قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَّةٌ
مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ
فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ
تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .

خفف أمر الخطأ على فاعله حتى حُلَّ موجب قتل الخطأ على العاقلة ؛ فالخواص عاقلة
المستضعفين من الأمة ، وأهل المعرفة عاقلة المريدين ، والشيوخ عاقلة الفقراء ؛ فسيبيلهم أن
يُحِلُّوا أثقال المستضعفين فيها بنوهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ
جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ
وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ .

كما يُحَرِّمُ قتلُ غيرك عليك بحرِّمُ قتلُ نفسك عليك ، ومن اتبع هواه سعى في دَمِ
نفسه ، ومن لم ينصح مريداً بحسن وعظه ولم يُعِنْهُ بهمة فقد سعى في دمه ، وهو مأخوذ بحاله

(١) الناس — عند القشيري — لما أهل العادة أو أهل الإرادة .

وخلق^(١) بأن تكون له عقوبة الأذية بالألا يتمتع بما ضنّ به على المرئيين من أحواله : ولقد قال — سبحانه — : يادّود إذا رأيت لى طالباً فكن له (خادماً)^(٢)

قوله جل ذكره : ﴿ يا أيها الذين آمنوا^(٣) إذا ضربتم في سبيل الله فتبَيَّنُوا ولا تقولوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لستَ مؤمناً تبغون عرضَ الحياة الدنيا فعندَ الله مغانمٌ كثيرة ، كذلك كنتم مِن قبل فَنَّا اللهُ عَلَيْكُمْ فتَبَيَّنُوا إِنَّ اللهَ كانَ بِمَا تعملون خبيراً ﴾ .

عاشِرُوا الناسَ على ما يُظهِرون من أحوالهم ، ولا تتفرَّسوا فيهم بالبطلان ؛ فإنَّ متوَلَّى الأسرارِ اللهُ^(٤) . هذا إذا كان غرضُ فاسدٍ يحملكم عليه من أحكام النفس ، فأما من كان نظره بالله ولم ينسِرْ عليه شيءٌ ، فليحفظ سِرَّ الله فيما كُشِفَ به ، ولا يظهر لصاحبه ما أراد الله فيه .

قوله جل ذكره : ﴿ لا يستوى القاعدون من المؤمنين غيرُ أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضلُ الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ، وكلاً وَعَدَ اللهُ الحسنى ، وفضلَ اللهُ المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ﴾ درجاتٍ

(١) وردت (وحقيقة بأن) وصوابها وحقيق بان ولكنا آثرنا (وخلق بأن) حتى يتمتع اللبس .

(٢) مشتبه هنا ولكنها واضحة في موضع سبق (انظر تفسير آية وأنبتها نباتاً حسناً ص ٢٢٧)

(٣) سقطت (آمنوا) من الناسخ فأثبتناها .

(٤) تدل هذه النظرة على ساحة الصوفية واتساع صدورهم ، فالأصل عندهم أن كل الناس طيبون ، ويجب أن نحسن الظن بهم جميعاً ، ونتقبل ظواهرهم ناركين أسرارهم للولى سبحانه .

منه ومَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ
غَفُوراً رَحِيماً * .

الحقُّ سبحانه جمع جميع أوليائه في أفضاله لكنه غَايَرَ بينهم في الدرجات ، فَمِنْ غَفِيٍّ
ومن عبدٍ هو أَغْنَى منه ^(١) ، ومنٌ كبيرٍ ومن هو أكبر منه ، هذه الكواكب دُرِّيَّة ولكن
القمرَ فوقها ، وإذا طلعت الشمسُ بهرت الجميع بنورها !

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي
أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا
مُتَضَمِّنِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ
تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَهَاجِرُوا
فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ
مَصِيرًا * .

الإشارة منه إلى من أدركه الأجل وهو في أسرِ نَفْسِهِ وفي رِقِّ شهواته — ليس له عذر
حيث لم يهاجر إلى ظِلِّ قُرْبَتِهِ ليتخلَّصَ مِنْ هَوَى نَفْسِهِ ^(٢) إذ لا حجابَ بينك وبين هذا
الحديث إلا هواك .

قوله جل ذكره : ﴿ إِلَّا الْمُتَضَمِّنِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ
وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ
سَبِيلًا * فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ
عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا * .

الإشارة منه إلى الذين مَلَكَتْهُمْ المَعَانِي فأفتتهم عنهم ، فَبَقُوا مُضَرِّفِينَ لَهُ ، لا لهم حَوْلٌ
ولا قوة ، يبدو عليهم ما يُجَرِّيه — سبحانه — عليهم ، فهم بعد عود نفوسهم بحق الحق يحوُّ
عَنِهِمْ ، فلا يهتدون إلى غيره سبيلاً ، ولا يَتَنَفَّسُونَ لغيره نَفْسًا .

(١) واضح أن القشيري يقصد الغنى في الأحوال لا الغنى في الأموال فليس لهذه كبير قيمة .

(٢) وردت هكذا (هو انقسه) فصوبناها .

ويقال على موجب ظاهر الآية إن الذين أقعدتهم الأعذار عن الاختيار فمضى أن يفضّل الحق — سبحانه — عليهم بالعفو .

قوله جل ذكره : ﴿وَمَنْ هَاجَرَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَآغِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ، وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾

مَنْ هَاجَرَ فِي اللَّهِ عَمَّا سِوَى اللَّهِ ، وصحح قصده إلى الله وَجَدَ فسحة في عفو السَّكْرَمِ ، ومقيلًا في ذرى القبول ، وحياة وَسَعَةً في كنف القرب .

والمهاجر — في الحقيقة — من هجر نفسه وهواه ، ولا يصح ذلك إلا بانسلاخه عن جميع مراداته ، وَمَنْ قَصَدَهُ ثُمَّ أَدْرَكَهُ الْأَجَلُ قَبْلَ وُصُولِهِ فَلَا يَنْزِلُ إِلَّا بِسَاحَاتِ وَصْلِهِ ، ولا يكون محطُّ روحه إلا أوطان قربه .

قوله جل ذكره : ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾

الْقَصْرُ فِي الصَّلَاةِ سُنَّةٌ فِي السَّفَرِ ، وكان في ابتداء الشرع عند الخوف^(١) ، فأقر ذلك مع زوال الخوف رفقا بالعباد ، فلما دخل الفرض القصر لأجل السفر عوضوا بإباحة النفل في السفر على الراحة أينما توجهت به دابته من غير استقبال ، فكذلك الماشي ؛ ليعلم أن الإذن

(١) لأن في مبدأ الإسلام بعد الهجرة كان غالب أسفارهم مخوفة . بل ما كانوا ينهضون إلا إلى غزو علم ، أو في سرية خاصة ، وسائر الأحيان حرب للإسلام وأهله . . . ويرى ابن عمر أن هناك فرقا بين صلاة السفر وصلاة الخوف ، وهو يحتاج على قصر الصلاة في السفر وبراء في صلاة الخوف .
(تفسير القرآن العظيم ج ١ ص ٥٤٦) لابن كثير .

في المناجاة مستديمٌ في كل وقت ؛ فإن أردتَ الدخولَ فتي شئت ، وإن أردتَ التباعدَ مترخصاً
فلك ما شئت ، وهذا غاية الكرم ، وحفظُ سُنَّةِ الوفاء ، وتحقيقُ معنى الولاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقِمْ لَهُمُ الصَّلَاةَ
فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا
أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا
مِنْ وَرَائِكُمْ وَلِتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى
لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا
حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ، وَذُ الَّذِينَ كَفَرُوا
لَوْ تَغْلِبُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ
فَيَمْيَلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ،
وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى
مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا
أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ
أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾

تدل هذه الآية على أن الصلاة لا ترتفع عن العبد مادام فيه نفسٌ من الاختيار لا في الخوف
ولا في الأمن ، ولا عند غلبات أحكام الشرع إذا كنت بوصف التفرقة ، ولا عند استيلاء
سلطان الحقيقة إذا كنت بعين الجمع .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا
وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ
فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ
عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾

الوظائف الظاهرة موقته^(١) ، وحضور القلب بالذكر مسرمد غير منقطع ؛ أما بالرسوم

(١) أي حسب ميقات .

فوقنا دون وقت ، وأما بالقلوب فإياكم والغبية عن الحقيقة لحظة كيف اختلفت بكم الأحوال ..
الذكرُ كيف كنتم وكما كنتم ، وأما الصلاة فإذا اطأتم .

قوله جل ذكره : « ولا تهنؤا في ابتغاء القوم . إن
تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما
تألمون وترجون من الله ما لا يرجون
وكان الله عليماً حكيماً » :

قوموا بالله وليكن ^(١) استنادكم في جهادكم إلى الله .

« إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون » : القومُ شاركوكم في إحساس الألم ، ولكن خالفوكم
في شهود القلب ، وأنتم تشهدون ما لا يشهدون ، وتجدون لقلوبكم ما لا يجدون ، فلا ينبغي
أن تستأخروا عنهم في الجد والجهد .

قوله جل ذكره : ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق
لنحكم بين الناس بما أراك الله
ولا تكن للخائنين خصيماً *
واستغفر ^(٢) الله إن الله كان غفوراً
رحيماً * .

لم يأمر ^(٣) بالحكم بينهم على عني ولكن بما أراك الله ^(٤) أي كاشفك به من أنوار
البصيرة حتى وقفت عليه بتعريفنا إياك وتسديدنا لك ، وكذلك من يحكم بالحق من أمك .
قوله : « ولا تكن للخائنين خصيماً » : أي لا تناضل عن أرباب الحظوظ ولكن مع

(١) أخطأ الناسخ إذ كتبها (ولا يكن) .

(٢) أخطأ الناسخ إذ كتبها واستغفروا .

(٣) وردت (لم يأمركم) والصواب (لم يأمرك) لأن الخطاب كله موجه إلى الرسول (ص) .

(٤) يحتاج من ذهب من علماء الأصول بهذه الآية على أنه صلى الله عليه وسلم كان له أن يحكم بالاجتهاد ،
وفيما رواه أبو داود من حديث أسامة بن زيد عن رجلين من الأنصار اختصما إلى الرسول (ص)
في مواريث بينهما قد درست وليس عندهما بيعة . . . ينتهي الحديث على النحو التالي .

« إني إنما أتقى بينكما رأي فيما لم يزل عليّ فيه » .

أبناء الحقوق ، ومن جنح إلى الهوى خان فيما أودع نفسه من التقوى ، ومن ركن إلى أنواع نوزاع النى خان فيما طولب به من الحياء لا اطلاع للولى^(١) .

« واستغفر الله » لأمتك ؛ فإننا قد كفيْنَاكَ حديثك بقولنا : ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَالًا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ عَجِيبًا ﴾ .

هم المؤثرون حظوظهم على حقوقه ، والراضون بالتعريج في أوطان هوام دون النقلة إلى منازل الرضا ، إن الله لا يحب أهل الخيانة فيندلم — لا جرم — ولا يكرمهم .
قوله : « يستخفون من الناس » الغالب على قلوبهم رؤية الخلق ولا يشعرون أن الحق مُطْلِعٌ على قلوبهم أولئك الذين وَسَمَّ الله قلوبهم بوسم الفرقة .

قوله جل ذكره : ﴿ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ .

أى تدفع عنهم — بحرمتك — لأنك فيهم ، فكيف حالهم يوم القيامة إذ زالت عنهم بركاتكم أيها المؤمنون ١٢

(٢) (يقال إن سبب نزول هذه الآية أن رجلا شك أن طعة بن أبيرق سرق درعه ، فلما رأى السارق ذلك ألقى الدرع في بيت رجل برى ، وقال لنفر من عشيرته إني غيبت الدرع في بيت فلان ، فانطلقوا إلى النبي (ص) ليلا فقالوا : يا نبي الله إن صاحبنا برى . وإن صاحب الدرع فلان وقد أحطنا بذلك علما فاعذر صاحبنا على ردوس الناس وجادل عنه ، فإتته إن لم يعصمه الله بك يهلك . فقام رسول الله (ص) فبراه وعذره على ردوس الناس ، فأُنزل الله هذه الآية) وقد حرصنا على إثبات سبب نزولها لأن ما بعدها من الآي مرتبط بهذه الواقعة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

« ثم » : حرفٌ يدل على التراخي ؛ أى يرجون^(١) عزمهم فى البطالات والمخالفات ثم فى آخر أعمارهم يستغفرون الله .

وقوله « يجد الله » : الوجود غاية الحديث^(٢) ، والعاصى لا يطلب غير الغفران ، ولكن الله — سبحانه يوصله إلى النهاية بفضله — إذا شاء ، فَسُنَّتُهُ تحقيق ما فوق المأمول لمن رجاه .

قوله جل ذكره . ﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .

الحق غفي^٣ عن طاعة المطيعين ، وزلة^(٣) العاصين ، فمن أطاع فحظه حصل ، ومن عصى فحظه أخذ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيثًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ .

من نسب إلى برىء ما هو صفته من المخازى عكس الله عليه الحال ، وألبس ذلك البرىء ثوب محاسن راميهِ ، وسحب ذيل العفو على مساويه ، وقلبَ الحال على للمتعدى بما يفضحه بين أشكالهِ ، فى عامة أحواله .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ

(١) وردت (يرجون) بالراء والصواب بالزاي

(٢) (التواجد بداية والوجود نهاية والوجد واسطة ، وسمت الأستاذ أبا على الدقاق يقول :

التواجد يوجد استيعاب المبد ، والوجد يوجب استغراق المبد ، والوجود يوجب استهلاك المبد فهو كمن شهد البحر ثم ركب البحر ثم هرق فى البحر) الرسالة ص ٣٧ .

(٣) وردت (ذلة) بالتال والصواب أن تكون بالزاي لأن المناسب للسياق لفظ ضد الطاعة .

لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ
وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ
مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ
وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١﴾ .

الفضلُ إحسانٌ غيرُ مستحقٍّ^(١) ، والإشارة ههنا — من الفضل — إلى عصيته إياه ، فالحقُّ — سبحانه — عَصَمَهُ تَخْصِيصًا لَهُ بِتِلْكَ الْعِصَةِ ، وَكَأَيْ عَصَمَهُ عَنْ تَرْكِ حَقِّهِ — سُبْحَانَهُ — عَصَمَهُ بَأَنْ كَفَّ عَنْهُ كَيْدَ خَلْقِهِ فَقَالَ : « وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ .. » الْآيَةُ .
كَلَّا ، لَنْ يَكُونَ لِأَحَدٍ سَبِيلٌ إِلَى إِضْلَالِكَ فَأَنْتَ فِي قَبْضَةِ الْعِزَّةِ ، وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ، وَمَا يَضُرُّونَكَ بِشَيْءٍ ، إِذَا الْمَحْفُوظُ مَنَاحِرُوسٌ عَنْ كُلِّ غَيْرٍ ، وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ اخْتَصَّكَ بِإِنْزَالِ الْكِتَابِ ، وَاسْتَغْلَصَكَ بِوُجُوهِ الْاِخْتِصَاصِ وَالْإِيجَابِ ، وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ، وَلَمْ يَمْنِ عَلَيْكَ بِشَيْءٍ بِمِثْلِ مَا مَنَّ بِهِ عَلَى مَنْ خَصَّهُ بِهِ مِنَ الْعِلْمِ . وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ أَرَادَ بِهِ عِلْمَهُ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ — بِاللَّهِ بِجَلَالِهِ ، وَعِلْمَهُ بِعِبُودِيَّةِ نَفْسِهِ ، وَمَقْدَارِ حَالِهِ فِي اسْتِحْقَاقِ عِزِّهِ وَجَمَالِهِ .

وَيَقَالُ عَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ مِنْ آدَابِ الْخِدْمَةِ إِذْ لَمْ تَكُن مُلْتَبِسًا عَلَيْكَ مَعْرِفَةُ الْحَقِيقَةِ .
وَيَقَالُ أَغْنَاكَ عَنْ تَعْلِيمِ الْأَغْيَارِ حَتَّى لَا يَكُونَ لِأَحَدٍ نُورٌ إِلَّا مُقْتَسَبًا مِنْ نُورِكَ ، وَمَنْ لَمْ يَمْشِ تَحْتَ رَايَتِكَ لَا يَصِلْ إِلَى جَمِيعِ بَرٍّ نَا ، وَلَا يَحْظِي بِقُرْبِنَا وَوَصْلِنَا .

« وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا » : فِي الْآبَادِ ؛ أَنْكَ كُنْتَ — لَنَا بِشَرَفِ الْعِزِّ وَكَرَمِ الرِّبُوبِيَّةِ فِي الْأَزَالِ — مَعْلُومًا . وَيَقَالُ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ مِنْ عُلُوقِ رُتْبَتِكَ عَلَى الْكَافَةِ .
وَيَقَالُ « عَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ » أَنَّ أَحَدًا لَا يَقْدَرُ قَدْرَنَا إِلَّا بِمَقْدَارِ مُوَافَقَتِهِ لِأَمْرِنَا
قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ ﴾

(١) لأن الفضل معناه الزيادة ، فربما يرمى القشيري إلى أنه غير مستحق بسبب ذلك ؛ لأنه يفوق المستحق

إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ
أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ
ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ
نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١﴾

أفضل الأعمال ما كانت بركاته تتمدى صاحبه إلى غيره ؛ ففضيلة الصدقة يتعدى نفعها إلى من تصل إليه ، والفتوة أن يكون سعيك لغيرك ، ففي الخبر : « شَرُّ النَّاسِ مَنْ أَكَلَ وَحْدَهُ » وكلُّ أصناف الإحسان ينطبق عليها لفظ الصدقة .

قال صلى الله عليه وسلم في قَصْرِ الصلاة في السفر : « هذه صدقة تصدقها الله عليكم فاقبلوا صدقته » (١)

والصدقة على أقسام : صدقتك على نفسك ، وصدقتك على غيرك ؛ فأما صدقتك (على نفسك) فحملها على أداء حقوقه تعالى ، ومنعها عن مخالفة أمره ، وقصرُ يدها عن أذية الخلق ، وصونُ خواطرها وعقائدها عن السوء . وأما صدقتك (٢) على الغير فصدقةٌ بالمال وصدقة بالقلب وصدقة بالبدن .

فصدقة بالمال بإتفاق النعمة ، وصدقة بالبدن بالقيام بالخدمة ، وصدقة بالقلب بحسن النية وتوكيد المهمة .

والصدقة على القراء ظاهرة لا إشكال فيها ، أما الصدقة على الأغنياء فتكون بأن نجود عليهم بهم ، فنقطع رجاءك عنهم فلا تطمع فيهم .

وأما للمعروف : فكلُّ حَسَنٍ في الشرع فهو معروف ، ومن ذلك إنجاد المسلمين وإسعادهم فيما لهم فيه قربة إلى الله ، وزلنى عنده ، وإعلاء النواصي بالطاعة .

(١) هكذا رواه مسلم وأهل السنن من حديث ابن جريج عن عبد الرحمن بن هيد الله بن أبي عمار . وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح . وقال علي بن المديني هذا حديث حسن صحيح من حديث عمر بن الخطاب ، ولا يحفظ إلا من هذا الوجه ورجاله معروفون .

(٢) ما بين القوسين استدراك في الهامش وضعناه في موضعه من النص حسب العلامة الميزة .

ومن تصدّق بنفسه على طاعة ربه ، وتصدّق بقلبه على الرضا بحكمه ، ولم يخرج بالانتقام لنفسه ، وحثّ الناس على ما فيه نجاتهم بالهداية إلى ربه ، وأصلح بين الناس بصِدِّقه في حاله . — فإنّ لسانَ فعله أبلغ في الوعظ من لسانِ نطقه ، فهو الصّدِّيق في وقته . ومن لم يؤدّب نفسه لم يتأدّب به غيره ، وكذلك من لم يهذّب حاله لم يهذّب به غيره .

« ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله » غير سائل به مالا أو حائز لنفسه به حالاً فعن قريب يبلغ رتبة الإمامة في طريق الله ، وهذا هو الأجر الموعود في هذه الآية (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾

خواطر الحق سفراؤه تعالى إلى العبد ، فمن خالف إشارات ما طولب به من طريق الباطن استوجب عقوبات القلوب ، ومنها أن يعقَى عن إِبْصارِ رُشده . وكما أن يخالف الإجماع عن الدين خارجٌ فخالف ما عرف من الحقيقة بعد ما تبين له الطريق — ماقط .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنْ اللَّهُ لَا يَغْفِرَ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرَ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ * إن يدعون من دونه إلا إنا أنا وإنا يدعون إلا شيطانا مريداً * لعنه الله وقال لا تأخذين من عبادك نصيباً مفروضاً * ولا ضلّتهم ولا آمنّهم ولا أمرهم فليبتكن آذان الأنعام ولامرهم فليغيثن خلق الله ،

(١) نلاحظ في هذه الفقرة أنّ القشيري يوجه — بطريق غير مباشر — لومه إلى بعض الوعاظ المخترفين الذين ظهروا في عصره وقبل عصره .

وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّنْ دُونِ
اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مِّينًا ﴿١﴾

قوله «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ» : إثبات الغير في توهم ذرة من الإبداع عين
الشرك ، فلا للعفو فيه مسامح . وما دون الشرك فالعفو فيه مسامح ، ومن توهم إلى سبحانه
بما توهم من نفسه فقد أشرك من حيث لم يعلم . كلاً ، بل هو الله الواحد .

قوله : «إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَانًا» : أوقفوا على الجمادات تسميات^(١) ، وانخرطوا
في سلك التوهم ، وركنوا إلى مغاليط الحسبان ، فضّلوا عن الحقيقة .

«وإن يدعون إلا شيطانا مريداً لعنه الله» ، أى ما يدعون إلا إبليس الذى أبعد
الحق عن رحمته ، وأسحقه^(٢) ببعدة ، وما إبليس إلا مُقَلَّبٌ في القبضة على ما يريد المنشئ ،
ولو كان به ذرة من الإثبات لكان به شريكا في الإلهية . كلاً ، إنما يُجْرَى الحق
— سبحانه — على الخلق أحوالاً ، ويخلق^(٣) عقيب وساوسه للخلق ضللاً ، فهو الهادى
والمُضِلُّ ، وهو — سبحانه — المُصَرِّفُ للكل ، فيخلق (. . .)^(٤) في قلوبهم عُقْبَـبَـ
وساوسه إليهم طول الآمال ، ويُحَسِّنُ في أعينهم قبس الأفعال ، ثم لا يجعل لأمانيتهم تحقيقاً ،
ولا يعقب لما أمّلوه تصديقاً ، فهو تعالى مُوجِدُ تلك الآثار جملةً ، ويضيفها إلى الشيطان مرةً ،
وإلى الكافر مرةً ، وهذا معنى قوله : «وَلَا ضَلالَهُمْ وَلَا مَنِينَهِمْ» . . . الآية ومعنى قوله تعالى
«يَعْدَمُ وَيَمْنِيهِمْ»

قوله جل ذكره : ﴿يَعْدُمُ وَيَمْنِيهِمْ وَمَا يَعْدُمُ الشَّيْطَانُ
إِلَّا غُرُورًا ۖ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ
وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾

(١) واضح من كلام القشيري أنه يفهم الإنان على أنها الأوثان ، وممكننا عن عائشة . وروى عن
بعض الصحابة أنها الملائكة إشارة إلى قوله تعالى في موضع آخر (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن
إنانا) . وعن الحسن : الإنان كل شيء ميت ليس فيه روح .

(٢) في النسخة ص (استحقه) وهي خطأ في النسخ .

(٣) يؤكد القشيري نسبة خلق كل شيء لله ، وتجريد الشيطان من كل سلطان .

(٤) مشتبه .

الذين قسم لهم الضلالة في الحال حكم عليهم بالعقوبة في المال^(١) ، ولولا أنه أظهر ما أظهر
بقدرته وإلامى كانت شظية من الضلالة والهداية لأربابها ١٩ والوقوف على صدق التوحيد
عزيز ، وأرباب التوحيد قليل .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات

سندخلهم جنات تجري من تحتها
الأنهار خالدون فيها أبداً وعد الله
حقاً ومن أصدق من الله قيلاً ﴾

الذين أسعدناهم حكماً وقولاً ، أنجدناهم حين أوجدناهم كرماً وطولاً ، ثم إننا نحقق لهم
الموعود من الثواب ، بما نكرمهم به من حسن المآب .

قوله جل ذكره : ﴿ ليس بآمانتكم ولا أمانى أهل

الكتاب من يعمل سوءاً يجز به
ولا يجز له من دون الله ولياً
ولا نصيراً * ومن يعمل من
الصالحات من ذكر أو أنثى وهو
مؤمن فاولئك يدخلون الجنة
ولا يظلمون شيئاً ﴾

من ذرع الخنظل لم يجتن الورد والعبر^(٢) ، ومن شرب السم الزعاف لم يجد طعم العسل ،
كذلك من ضيع حق الخدمة لم يستمكن على بساط القربة ، ومن وسم بالشقوة لم يرزق
الصفوة ، ومن نفتت القضية^(٣) فلا ناصر له من البرية .

قوله : ﴿ ومن يعمل من الصالحات . . . الآية . من تعني في خدمتنا لم يبق عن نيل

(١) وردت (المال) وصوابها (المال) .

(٢) المهر - الياسمين وقيل النرجس (لسان العرب ج ٢٠ ص ٥٣٦) ط بيروت .

(٣) القضية مقصود بها القضاء ، قضاء الله .

نعمتنا ، بل من أغنيائه^(١) في طلبنا أكرمناه بوجودنا ، بل من جرّ عناه كأس اشتياقنا أنلناه
أنس لقائنا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ
لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ
حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾
والله ما في السموات وما في الأرض
وكان الله بكل شيء محيطاً

لا أحد أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله ، يعني أفرد قصده إلى الله ، وأخلص عقده لله
عنا سوى الله ، ثم استسلم في عموم أحواله لله بالله ، ولم يدخر شيئاً عن الله ، لا من ماله
ولا من جسده ، ولا من روحه ولا من جلده ، ولا من أهله ولا من ولده ، وكذلك كان حال
إبراهيم عليه السلام .

وقوله « وهو محسن » : الإحسان — بشهادة الشرع — أن تعبد الله كأنك تراه ،
ولا بد للعبد من بقية^(٢) من عين الفرق حتى يصح قيامه بمحقوقه . — سبحانه — لأنه إذا حصل
(مستوفى)^(٣) بالحقيقة لم يصح إسلامه ولا إحسانه ، وهذا اتباع إبراهيم عليه السلام الحنيف
الذي لم يبق منه شيء على صف الدوام .

وقوله « واتخذ الله إبراهيم خليلاً » : جرّد الحديث عن كل سعي وكدي وطلب وجهي
حيث قال : « واتخذ الله إبراهيم خليلاً » ، فُعلِمَ أَنَّ الْخَلَّةَ لُبْسَةٌ يُلبَسُهَا الْحَقُّ لَا صِفَةٌ
يكتسبها العبد .

(١) ربما كانت (عنياء) بالعين أي من احتمل الفناء في سبيلنا لتلازم (جرّ عناه كأس) أما (أغنياء)
بالغين فيكون معناها أوجدنا فيه الفناء عما سوانا .

(٢) أي لا بد أن يرد إلى الفرق الثاني حتى يستطيع أن يقوم بالفرائض الواجبة عليه في أوقاتها .

(٣) هكنا جاءت في النسخة من وربما كانت في الأصل (مساس) بالحقيقة ، فنحن نعرف عن مذنب
التشيري في هذا الخصوص أن العبد ينبغي أن يحافظ على الشريعة مهما كانت الظروف ، وأي مساس
بالشريعة بدعوى الاصطلاح أو الفناء — فردود ، وهو آية تقص في صدق صاحبه .

ويقال التحليل المحتاج^(١) بالسكينة إلى الحق في كل نفس ليس له شيء منه بل هو بالله الله في جميع أنفاسه وأحواله ، اشتقاقاً من الخلّة (التي هي التخصّصة وهي الحاجة)^(٢) .

ويقال إنه من الخلّة التي هي المحبة ، والخلّة أن تبشّر المحبة جميع أجزائه ، وتتخلل سيره حتى لا يكون فيه مساع للغير .

فلما صفاه الله — سبحانه — (عليه السلام) عنه ، وأخلّاه منه نصبة للقيام بحقه بعد امتحانه^(٣) عن كل شيء ليس الله سبحانه .

ثم قال : « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً . . . »^(٤) : لا يلبي الحاج إلا الله ، وهذه إشارة إلى جمع الجمع^(٥) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ

يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَأَمَّى النِّسَاءِ الَّلَاتِي لَا تُؤْتَوْنَ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلنِّسَاءِ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ۖ

نهام عن الطمع الذي يحملهم على الحيف والظلم على المستضعفين من النّسوان واليتامى ، وبين أن المنتقم به لهم الله ، فمن راقب الله فيهم لم يخسر على الله بل يجد جميل الجزاء ، ومن تجاسر عليهم قاسى لذلك أليم البلاء .

(١) يشير التفسيرى بذلك إلى محاولة فريق من العترة صرف الخلّة عن كل ما يتطرق إليها من دلالة حية ، والنماسهم ذلك في الشعر القديم وقد نبهنا إلى ذلك في هامش سبق .

(٢) هذه العبارة مكررة خطأ من الناسخ .

(٣) وردت (بعد امتحانه) بالنون وقد صوبناها إلى (امتحائه) أى بعد وصوله إلى المحو .

(٤) آية ٢٧ سورة الحج

(٥) وردت (جميع الجمع) والصواب (جمع الجمع)

قوله جل ذكره : ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا
أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ
يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ، وَالصُّلْحُ
خَيْرٌ ، وَأُخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ ،
وَإِنْ تَحْسَبُوا تَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ
بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝﴾

محبة الخلق بعضهم مع بعض إن تجردت عن حديث الحق فإنها تتعرض للوحشة والملامة ،
ومما زجة النفرة والسامة . فمن أعرض عن الله بقلبه أعرض الخلق عن مراعاة حقه ، وخرج
الكافة عليه باستصغار أمره . واستحقار قدره . ومن رجع إلى الله بقلبه ، استوى له
— في الجملة والتفصيل — أمره ، واتسع^(١) لاحتفال ما يستقبل من سوء خلق الخلق صدره
فهو يسحب^(٢) ذيل الغفور على هتات جميعهم ، ويؤثر الصلح بترك نصيبه وتسليم نصيبهم
قال الله تعالى : « والصلح خير » .

واتضاعك في نفسك عن منافرة من بخاصك أجدى عليك ، وأخرى لك من تطاولك
على خصمك باغياً الانتقام ، وشهود مالك في مزبة المقام . وأكثر المناقطين في أسرى
هذه المحنة .

قوله تعالى : « وأخضرت الأنفس الشح . . . » : وشح النفس قيام العبد بحظه .
فلا محالة من حجب عن شهود الحق رداً إلى شهود النفس .
قوله تعالى : « وإن تحسنوا » : يعني يكن ذلك خيراً لكم . والإحسان أن تعبد الله
كأنك تراه .

« وتبتغوا » : يعني عن رؤيتكم مقام أنفسكم ، وشهود قدركم ، يعني وأن تروا ربكم ،
وتتقوا برؤيته عن رؤية قدركم .

(١) وردت (والتسع) وهي خطأ في النسخ
(٢) وردت (ويستحب) وهي خطأ النسخ .

« إن الله كان بما تعملون خبيراً » : يعنى إذا فتنتم عنكم وعن عملكم ، فكفى بالله
عليماً بعد فتنائكم ، وكفى به موجداً عقب امتحانكم^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَنْ ﴾^(٢) تستطيعوا أن تعدلوا بين

النساء ولو حرصتم ، فلا تميلوا كُلَّ

الميل فتدروها كالمعلقة وإن

تصلحوا وتتقوا فإن الله كان

غفوراً رحيماً ﴿

يعنى أنكم إذا (. . . .)^(٣) فى أموركم انعكس الحال عليكم ، وانعكس صلاح ذات
بينكم فساداً لكم ، فإذا قمتم بالله فى أموركم استوى العيش لكم ، وصفا عن الكدر وقتكم .

ويقال من حكم الله بنقصان عقله فى حاله^(٤) فلا تقندرون أن تجبروا نقصانهم بكفائتكم .

قوله تعالى « فلا تميلوا كل الميل » : يعنى لا تزيغوا عن نهج الأمر . تفوقوا حينما وقفتكم ،
وأفقدوا فيما أمرتكم .

وقوله : « فتدروها كالمعلقة » يعنى أنكم إذا منعتموهن عن صحبة أغياركم ثم قطعتم
عنهن ما هو حظوظهن منكم أضررتن من الوجهين ؛ لا منكم نصيب ، ولا إلى غيركم سبيل ،
وإن هذا الحيف عظيم . والإشارة^(٥) من هذا أنه إذا انسد عليك طريق حظوظك فتح
— سبحانه — عليك شهود حقه ، ووجود لطفه ؛ فإن من كان فى الله تلفه فالحق
— سبحانه — خلفه ، وإن تصلحوا ما بينكم وبين الخلق ، وتشقوا فيما بينكم وبين الحق
فإن الله غفور لعيوبكم ، رحيم بالعفو عن ذنوبكم .

(١) وردت (امتحانكم) وهى خطأ فى النسخ فالامتحان يرادف الفناء .

(٢) وردت (وإن) وهى خطأ فى النسخ .

(٣) مشبهة ، وزجج أنها كلمة تساوى فى المعنى (قتم بأنفسكم) لتقابل ما جاء بعد (فإذا قمتم بالله) .

(٤) يشير القشيري بذلك الى النساء .

(٥) أسلوب القشيري فى هذه الإشارة فى حاجة منا الى وهى وتيقظ ، فالحظوظ للعبد ، والحقوق للحق ،
والشهود للحق والوجود يكون للطف . والمفردة — بمعنى التغطية — تكون لليب ، والعفو — الإزالة — يكون
للذنوب ؛ واليب قديمى مغطى ولكن الذنب يزول .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ
سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴾ .

الصعبة التي لا بُدَّ منها محبة القلب مع دوام افتقار إلى الله ؛ إذ الحقُّ لا بُدَّ منه . فأما
الأغيار فلا حاجة لبعضهم إلى بعض إلا من حيث الظاهر ، وذلك في ظنون أصحاب التفرقة ،
فأما أهل التحقيق فلا تجرية لهم أن حاجة الخلق بجملتها إلى الله سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاللَّهُ مَافِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ ،
وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ مَافِي السَّمَاوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا
حَمِيدًا ﴾ .

كُلُّ الكفاية بالرجوع إليه ، وبجانبه مَنْ سِوَاهُ ، والوقوف على أمره ، ولكن فريقاً وُفِّقَ
وفريقاً خُدِّلَ . ثم عرَّفَ أهل التحقيق أنه غَفِيٌّ عن طاعة كلِّ وليٍّ ، وبريء عن ^(١) زلة ^(٢)
كل غوى .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاللَّهُ مَافِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ .

قَطَعَ الأسرار عن التعلُّق بالأغيار بأن عرَّفَهم انفرادهم بملك مافي الـ ذات والأرض ، ثم
أطمعهم في حسن تولُّيه ، وقيامه بما يحتاجون إليه بحمِلِ اللطف وحسن الكفاية بقوله :
« وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا » يصلح بملك حاله ولا يختزل مالك .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ
وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى
ذَلِكَ قَدِيرًا ﴾ .

(١) قبل (عن) واو زائدة غذفناها

(٢) وردت (ذلة) بالذال والمصواب أن تكون هنا بالزاي .

من استغنى عنه في آزاله فلا حاجة له إليه في آبائه . ويقال لا يحتاج إلى أحد والعبد لا يستغنى عنه في نفسه .

ويقال لانهاية للتقدورات فإن لم يكن عمرو قزياً ، وإن لم يكن عبد فعييد ، والذي لا يتكلم عنه ولا خلف فهو الواحد الأحد .

قوله جل ذكره : ﴿ مَنْ كَانَ يَرْيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ شَهِيدًا بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ .

لما علقوا قلوبهم بالعاجل من الدنيا ذكرهم حديث الآخرة ، فقال « فعند الله ثواب الدنيا والآخرة » تعريفاً لهم أن فوق همهم من هذه الخسيسة^(١) ما هو أعلى منها من نعيم الآخرة ، فلما سبقت إلى الآخرة قصودهم قطعهم عن كل مرسوم^(٢) ومخلوق بقوله : « والله خير وأبقى »^(٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ اللَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا . فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ .

(١) يقصد الدنيا بهذا الوصف

(٢) الرسم - كما يقول أبو نصر السراج في مله - هو ما رسم به ظاهر الخلق برسم العلم ورسم الخلق فيمتحن بإظهار سلطان الحق عليه .

سئل الجنيد عن رجل غاب اسمه وذهب وصفه واحتجى رسمه فقال : نعم عند مشاهدته قيام الحق له بنفسه لنفسه في ملكه ، فيكون ذلك معنى قوله امتحى رسومه يعني علمه وفعله المضاف إليه ينظره إلى قيام الله له في قيامه (اللع ص ٤٢٧) .

(٣) آية ٧٣ سورة طه

القسط العدل ، والقيام بالله العدل بإيفاء حقوقه من نفسك ، وامتنفاء حقوقه من كل من هو لك عليه أمر ، وإلى تحصيل ذلك الحق سبيل إما أمر بمعروف أو زجر عن مكروه أو وعظ بنصح أو إرشاد إلى شرع أو هداية إلى حق .

ومن بقي لله عليه حق لم يباشر خلاصة التحقيق سره الله .

وأصل الدين^(١) إثبات حق الحق على حق الخلق ، فمن أثر على الله — سبحانه أحداً إما والداً أو أمّاً أو ولداً أو قريباً أو نسبياً ، أو أدخر عنه نصيباً فهو بمنزل عن القيام بالقسط .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ

وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ

وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ،

وَمَنْ يَكْفُر بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ

وِرَسُولِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا

بَعِيدًا ۝ ١٠٠ ۝

يأيها الذين آمنوا من حيث البرهان آمنوا من حيث البيان إلى أن تؤمنوا من حيث الكشف والعيان .

ويقال يأيها الذين آمنوا تصديقاً آمنوا تحقيقاً بأن نجاتكم بفضله لا بإيمانكم .

ويقال يأيها الذين آمنوا في الحال آمنوا باستدامة الإيمان إلى المآل^(٢)

ويقال يأيها الذين آمنوا آمنوا وراء كل وصل وفصل^(٣) ووجد وققد .

(١) بهذا نستطيع أن نجد صلة رسم بين لفظي (الدين) و (الدِّين) إذ يكون لكل منهما ارتباط على نحو ما — بالحق وصاحب الحق .

(٢) وردت (المال) وهي خطأ في النسخ ، فالتصود بالحال : الدنيا ، والمآل : النقي

(٣) الوصل منناه لحوق الغائب . وقال بجي بن معاذ : « من لم يعم عينيه عن النظر إلى ما تحت العرش لم يصل إلى ما فوق العرش » . يعني لم يلحق ما فاتته من مرآة الذي خلق العرش . وقال الشبلي : من زعم أنه واصل فليس له حاصل .

والفصل فوت الشيء المرجو من المحبوب .

قال بعضهم فرح الاتصال بمزوج يترج الاتصال (المع ص ٤٢٢)

ويقال يأيا الدين آمنوا باستعمال أدلة العقول آمنوا إذا أنتمم بعقوة الوصول ، واستمكنت
منكم حيرة البديهة^(١) وغلبات الذهول^(٢) ثم أقفتم عن تلك الغيبة فآمنوا أن الذي كان غالباً
عليكم كان شاهد الحق لا حقيقة الذات^(٣) فإن الصمدية منزلة متقدمة عن كل قرب وبعد ،
ووصل وفصل .

قوله جل ذكره : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ

كَفَرُوا ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ
اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا *
بَشَرٌ لِّلنَّاقِثِينَ أَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * .

الذين تبدلت بهم الأحوال فقاموا وسقطوا ثم انتعشوا ثم ختم بالسوء أحوالهم ، أولئك
الذين قصصهم^(٤) سطوة العزة حكماً ، وأدركتهم شقاوة القسمة خاتمة وحالاً — فالحق سبحانه
لا يهديهم لقصد ، ولا يدهم على رشد ، فبشروهم بالفرقة الأبدية ، وأخبرهم بالعقوبة السرمدية .

قوله جل ذكره : ﴿الَّذِينَ يَتَخَذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ

دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أِيْنَتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ
فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا * وَقَدْ نَزَّلَ
عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا تَحَمَّضْتُمْ
آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا
فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي
حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ ،

(١) الحيرة بديهة ترد على قلوب العارفين عند تأملهم وحضورهم وتفكيرهم تمنحهم عن التأمل والفكرة ،
وقال الواسطي : حيرة البديهة أجل من سكون التولي عن الحيرة (اللمع ص ٤٢١) .

(٢) الغلبات عند قوة الرقة والانفلات من دواعي الهوى والنفس ، عند قوة رغبة الطالب إذا لاح له
أعلام المزيد في حال طلبه المطلب ، فلوطن أن مطلوبه وراء بحر سبعه أو في نيه سلكه بالهجوم عند غلبات
الإرادة وقوة سلطان المطالبة عليه (اللمع ص ٤١٧) .

(٣) هذا تنبيه هام وخطير يدحض به المضللين والأدعياء ، أولئك الذين شن عليهم التشيخي هجومه العنيف
في مسئل « رسالته » والذين أساءوا إلى التصوف وأهله .

(٤) القسم : الكسر . حكى عن الرقاق أنه قال : لو أن الماصي كانت شيئاً اخترته لنفى ما أجزني
ذلك لأن ذلك يشبهني ، وإنما قسم ظهري حين سبق لي منه ذلك . (اللمع ص ٤٣٤) .

إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ النَّاقِثِينَ وَالْكَافِرِينَ
فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا * .

من اعتصم بمخلوق فقد التجأ إلى غير مجير ، واستند إلى غير كفٍ ، وسقط في مهواة
من الغلط بعيد قعرها ، شديد مكرها . أيتقنون العِزَّ عند الذي أصابه ذل التكوين ١٩ متى
يكون له عزٌّ على التحقيق ؟ ومن لا عزٌّ له يلزمه فكيف يكون له عز يتعدى إلى غيره ؟

ويقال لاندري أى حالتهم أقبح : طلب العز وهم في ذل القهر وأسر القبض أم حسابان
ذلك وتوهمه من غير الله ؟

ويقال مَنْ طَلَبَ الشَّيْءَ مِنْ غَيْرِ وَجْهِهِ الْإِخْفَاقُ ^(١) غَايَةُ جَهْدِهِ ، وَمَنْ رَامَ الْغَنَى ^(٢) فِي
مَوَاطِنِ الْفَاقَةِ الْإِمْلَاقُ قَصَارَى كَدِّهِ .

ويقال لو هُدُّوا بوجدان العِزِّ لما صُرِفَتْ قُصُودُهُمْ إِلَى مَنْ لَيْسَ بِيَدِهِ شَيْءٌ مِنَ الْأَمْرِ .
قوله : « فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا » العِزُّ على قسمين : عزٌّ قديمٌ فهو لله وصفًا ، وعزٌّ حادثٌ
يختص به سبحانه من يشاء فهو له — تعالى — مِلْكًا ومنه لطفًا ^(٣) .

قوله « وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ » الآية : لا تجاوروا أرباب الوحشة فإن
ظلمات أنفسهم تعدى إلى قلوبكم عند استنشاقكم ما يرُدُّون من أنفاسهم ، فن كان بوصفٍ ما
منحققًا شاركة حاضروه فيه ؛ فجليسٌ مَنْ هو في أنسٍ مستأنسٍ ^(٤) ، وجليسٌ مَنْ هو في ظلمةٍ
مستوحشٍ .

ويقال هجران أعداء الحق فرضٌ ، ومخالفة الأضداد ومفارقتهم دين ، والركون إلى
أصحاب الغفلة قرعٌ بابِ الفرقة

(١) وردت (الأحقاف) وهي خطأ في النسخ إذ المقصود الحية والإخفاق .

(٢) أخطأ الناسخ فكتبها بالالف هكذا : (الغنى) .

(٣) يتساءل القشيري في كتابه « التعبير في التذكير » تحت اسم « العِزُّ » : فإن قيل كيف الجمع
بين قوله تعالى : « مَنْ كَانَ يَرِيدَ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا » وقوله تعالى « وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ »
ثم يجيب : لا تنافي بينهما فإن العِزَّ الذي لرسول والمؤمنين هو لله تعالى ملكًا وخلقًا ، وعِزُّه — سبحانه —
وتعالى — له وصفًا ، فإذا المراد لله تعالى .

(٤) أخطأ الناسخ إذ كتبها (مستأنف) ولا معنى لها هنا والصواب (مستأنس) لتقابل (مستوحش)

قوله : « إنكم إذن مثلهم » : أوضح برهان على سريرة (. . .) (١) صحيحة من يقارنه (٢) وعشرة من يخادنه ؛ فالشكل مقيد بشكله ، والفرع منتشر عن أصله .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْنَةٌ مِنْ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُمُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾

لَا عَدَمُوا الإخلاص في الحقيقة ، وما ذقوا فيما استشعروا من العقيدة ، امتازوا (٣) عن المسلمين في الحكم ، وباينوا الكافرين في الاسم ، وواجب على أهل الحق التحرز عنهم والتحفظ منهم ، ثم ضمن لهم — سبحانه — جميل الكفاية بقوله : « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً » (٤) وهذا على العموم ؛ فإن وبال كيدهم إليهم مصروف ، وجزاء مكرم عليهم موقوف ، والحق — من قبل الحق سبحانه — منصور أهل ، والباطل — بنصر الحق سبحانه — مجتث أصله .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنْ الْمُنَافِقِينَ يَخَادِعُونَ اللَّهَ فَمَا يُخَادِعُ اللَّهَ شَيْئًا ﴾ وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس

(١) مشتبهة ولا بد أنها كلمة بمعنى (المرء) أو (الشخص) . . . ونحوها

(٢) يقارنه هنا معناها أن يكون له قرين .

(٣) امتازوا هنا معناها افترقوا بعلامات مخصوصة

(٤) قال على رضى الله عنه لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً يوم القيامة حين يحكم الله بينهم ، فلا يكون للكافرين سبيل إلى حجة . ويرى غيره أن الله لن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً في الدنيا فلن يستطيعوا عليهم نصراً بالكلية ، ولكن قد يحصل لهم ظفر في بعض الأحيان على بعض الناس ولكن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة . (ابن كثير ص ٥٦٧)

ولا يذكرون الله إلا قليلاً *
 مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ
 وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ
 تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا *

خداع المنافقين : إظهار الوفاق في الطريقة واستثمار الشرك في العقيدة .

وخداع الحق إياهم : ما توهموه من الخلاص ، وحكموا به لأنفسهم من استحقاق الاختصاص ،
 فإذا كُشِفَ الغطاء أيقنوا أن الذي ظنُّوه شراباً كان سراًباً ، قال تعالى : « وبدا لهم من الله
 ما لم يكونوا يحتسبون » (١) .

وقوله : « وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا . . . » الآية : علامة النفاق وجود النشاط عند
 شهود الخلق ، وفتور العزم عند قوات رؤية الخلق .

وقوله : « مذبذبين بين ذلك . . . » الآية : أخس الخلق من يدع (٢) صدار العبودية ،
 ولم يجد سبيلاً إلى حقيقة الحرية (٣) ، فلله من العز شظية ، ولا في الغفلة عيشة هنية .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا
 الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ،
 أُرِيدُونَ أَنْ يُجْعَلُوا عَلَىٰكُمْ
 سُلْطَانًا مُبِينًا ﴾

(١) آية : ٤٧ سورة الزمر .

(٢) وردت (تدع) والصواب (يدع) لأن الكلام ليس خطاباً ، ومعناها ترك .

(٣) حقيقة الحرية إشارة إلى نهاية التحقق بالعبودية لله تعالى ، وهو ألا يملكك شيء من المكنونات
 وغيرها ، فتكون حراً إذا كنت لله عبداً ، كما قال بشر الحافي لرى السقطي رحمه الله فيها حكى عنه أنه قال :
 إن الله تعالى خلقك حراً فكن كما خلقك ، لا تزأر أهلك في الحضر ، ولا وقتك في السفر ، اعمل لله ،
 ودع الناس عنك .

وقال الجنيد : آخر مقام العارف الحرية .

وقال بعضهم : لا يكون العبد عبداً حقاً ويكون لما سوى الله مسترقاً (الجمع من ٤٥٠) .

كرّر^(١) عليهم الوعظ ، وأكّد بمباينة الأعداء عليهم الأمر ، إبلاغاً في الإنذار ، وتغليظاً في الزجر ، وإلزاماً للحجة (. . . .)^(٢) موضع العذر .

قوله : « أتريدون أن تجعلوا الله عليكم سلطاناً مبیناً » : توعدّهم على موالاتهم للكفار بما لم يتوعدّ على غيره من المخالفات ، لما فيه من إشار الغير على المعبود ؛ وإشار النير على المحبوب من أعظم الكبائر في أحكام الوداد . فإذا شغل من قلبه محلاً — كان للمؤمنين — بالأغيار استوجب ذلك العقوبة فكيف إذا شغل محلاً من قلبه — هو الحق — بالغير ؟ !
والعقوبة التي توعدّهم بها أن يكلمهم وما اختاروه من موالات الكفار ، ويثسّ البديل
كذلك من بقي (عن)^(٣) الحق تركه مع الخلق ؛ فيتضاعف عليه البلاء للبقاء عن الحق والبقاء مع الخلق ، وكلاهما شديد من العقوبة .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَهُمْ صَبِيحًا » .

دلّت الآية على أن المنافق ليس بمُستأمن لأنّ الإيمان ما يوجب الأمان ، فالؤمن يتخلّص بإيمانه من النار ، فما يكون سبب وقوعه في الدرك الأسفل من النار لا يكون إيماناً ، ويقال هذا لتحقيق قوله : « والله خير للماكرين » أي مكرّه فوق كل مكرٍ . لما أظهر للمنافق ما هو مكر مع المؤمنين كانت عقوبتهم أشد من عقوبة من جاهر^(٤) بكفره .

ويقال تقلبهم^(٥) في آجلهم^(٦) إلى أشد ما هم عليه في عاجلهم ، لما في الخبر : « من كان

(١) نعرف من مذهب القشيري أنه لا يميل إلى القول بال تكرار في القرآن الكريم ، ولعل أبسط نتائج هذا المذهب أنه لا يرى في البسلة التي تأتي في مستهل كل سورة بلفظها — أي شيء من التكرار ، بل هي عنده متجددة بما يتلاءم والسورة ، لأجل هذا تستوقفنا هنا كلمة : « كرر » وتندبر الأسباب القوية التي أرجع إليها التكرار .
(٢) مشبهة .

(٣) وردت (من) ولكن المعنى يرفضها قطعاً ويؤيد (عن) خصوصاً وقد جاءت (هن) في العبارة التالية التي هي بمثابة نتيجة للجزء الأول من الكلام .

(٤) وردت (جاهد) بالدال والصواب ان تكون (جاهر) بالراء فالمعنى يقتضيه ذلك .
(٥) وردت هكذا (مثلهم) بتقطة محذوفة فوق الحرف الأول ثم ثلاث نقط فوق الغاف وربما أراد الناسخ أن يحذف النقطة الثالثة فأخطأ وحذف النقطة التي فوق النون .
(٦) وردت (آجلهم) والصواب (آجلهم) .

بجالة لقي الله بها ، فالمنافق — اليوم — في الدرك الأسفل من الحجر^(١) فكذلك ينقلون إلى الدرك الأسفل من النار . والدرك الأسفل من الحجر — اليوم — لهم ما عليهم من اسم الإيمان وليس لهم من الله شظية وهذا هو البلاء الأكبر .

ويقال استوجبوا الدرك الأسفل من النار لأنهم صحبوا اليوم اسم الله الأعظم لا على طريقة الحرمة . ويقال استوجبوا ذلك لأنهم أساءوا الأدب في حال حضورهم بالسنتهم ، وسوء الأدب يوجب الطرد .

قوله جل ذكره ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ .

لم يشترط كل هذه الشرائط في رجوع أحدٍ عن جرمه ما اشترط في رجوع المنافقين عن نفاقهم لصعوبة حالهم في كفرهم . وبعد تحصيلهم هذه الشروط قال لهم : « فأولئك مع المؤمنين » ولم يقل من المؤمنين ، وفي هذا إشارة أيضاً إلى نقصان رتبهم وإن تداركوا بإخلاصهم ما سبق من آقهم ، وفي معناه أشدوا :

وَالْعُنُورُ مَبْسُوطَةٌ وَلَكِنَّا شَتَانُ بَيْنَ الْعُنُورِ وَالشُّكْرِ

ويقال إن حرف (مع) للمصاحبة ، فإذا كانوا مع المؤمنين استوجبوا ما يستوجب جماعة المؤمنين ، فالتوبة هنا أى رجعوا عن نفاقهم ، وأصلحوا — بصدقهم في إيمانهم ، واعتصموا بالله بالنبرؤ من حولهم وقوتهم ، وشاهدوا المنّة الله عليهم حيث هدام ، وعن نفاقهم نجاتهم . قوله : « وأخلصوا دينهم لله » : ونجاتهم بفضل ربهم لا بإيمانهم في الحال ، ورجوعهم عن نفاقهم فيما مضى عليهم من الأحوال .

ويقال أخلصوا دينهم لله وهو دوام الاستعانة بالله في أن يثبتهم على الإيمان ، ويمصهم عن الرجوع إلى ما كانوا عليه من النفاق .

(١) ترجح أنها (الحجر) بالهاء ويتأيد ذلك بقوله فيما بعد (ليس لهم من الله شظية) .

ويقال تابوا عن النفاق ، وأصلحوا بالإخلاص في الاعتقاد ، واعتصموا بالله باستدعاء التوفيق وأخلصوا دينهم لله في أن نجاتهم بفضل الله ولطفه لا بإتيانهم بهذه الأشياء — في التحقيق .

قوله جل ذكره : ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ .

هذه الآية من الآيات التي توجب حسن الرجاء وقوة الأمل ، لأنه جعل من أمارات الأمان من العقوبات شيتين اثنتين : الشكر والإيمان ، وهما خصلتان يسيرتان خفيفتان ؛ فإن الشكر قالة ، والإيمان حالة ، ولقد هوّن السبيل على العبد حين^(١) رضى منه بقالته وحالته . والشكر لا يصح إلا من المؤمنين فأما الكافر فلا يصح منه الشكر ؛ لأن الشكر طاعة والطاعة لا تصح من غير المؤمن .

وقوله : ﴿ وَأَمَنْتُمْ ﴾ يعنى في المال ؛ فكأنه بين أن النجاة إنما تكون لمن كانت عاقبته على الإيمان ، فمعنى الآية لا يعذبكم الله عذاب التخليد^(٢) إِنْ شَكَرْتُمْ فِي الْحَالِ وَأَمَنْتُمْ فِي الْمَالِ . ويقال إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمَنْتُمْ صدقتم بأن نجاتكم بالله لا بشركم وبإيمانكم .

ويقال الشكر شهود النعمة من الله والإيمان رؤية الله في النعمة ، فكأنه قال : إِنْ شَاهَدْتُمْ النِّعْمَةَ مِنْ اللَّهِ فَلَا يَقْطَعَنَّكُمْ شُهُودُهَا عَنْ شُهُودِ الْمُنْعِمِ

وقوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ أى والله شاكر عليم ، ومعنى كونه شاكرًا أنه مَدَحٌ للعبد ومُشْهَدٌ عليه بما يفعله لأن حقيقة الشكر وحده الثناء على المُحْسِنِ بذكر إحسانه ؛ فالعبد يشكر الله أى يثنى عليه بذكر إحسانه إليه الذى هو نعمته عليه ، والربُّ يشكر للعبد أن يثنى عليه بذكر إحسانه الذى هو طاعته له ، فإن الله يثنى عليه بما يفعله من الطاعة مع علمه بأن له ذنوبًا كثيرة .

ويقال بشكره — وَإِنْ عَلِمَ أَنَّهُ سِيرَجٌ فِي الْمُسْتَأْنَفِ إِلَى قَبِيحِ أَعْمَالِهِ .

(١) وردت (من) وترجع أنها في الأصل (حين)

(٢) وردت (التخليل) وترجع أنها (التخليد) فهو وصف عذاب جهنم .

ويقال يشكره لأنه يعلم ضعفه ، ويقال يشكره لأنه يعلم أنه لا يعصى وقصده مخالفة ربه
ولكنه يذنب لاستيلاء أحوال البشرية عليه من شهوات غالبية .
ويقال يشكره لأن العبد يعلم في حالة ذنوبه أن له رباً يغفر له .

قوله جل ذكره : ﴿ لَا يَحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ
إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً ﴾

قول المظلوم في ظلمه — على وجه الإذن له — ليس بسوء في الحقيقة ، لكنه يصح
وقوع لفظة السوء عليه كقوله تعالى : « وجزاء سيئة سيئة مثلها »^(١) والجزاء ليس بسيئة .

ويقال مَنْ عَلِمَ أَنْ مَوْلَاهُ يَسْمَعُ اسْتِجَاباً مِنَ النُّطْقِ بِكَثِيرٍ مِمَّا تَدْعُو نَفْسَهُ إِلَيْهِ .

ويقال الجهر بالسوء هو ما تسمعه نفسك منك فيما تحدث في نفسك من مساءة الخلق ؛
فإن الخواص يحاسبون على ما يتحدثون في أنفسهم^(٢) بما (يعد)^(٣) لا يطالب به كثير من
العوام فيما يسمع منهم الناس .

قوله : « إِلَّا مَنْ ظَلَمَ » : قيل ولا من ظلم . وقيل معناه ولكن مَنْ ظلم فله أن يذكر
ظلمه بالسوء^(٤) .

ويقال من لم يؤثر مدح الحق على القسح في الخلق فهو المغبون في الحال .

ويقال من طالع الخلق بعين الإضافة إلى الحق بأنهم عبيد الله لم ينسط فيهم لسان اللوم ؛

(١) الآية ٤٠ سورة الشورى .

(٢) من ذلك ما يحكيه القشيري في كتابه « التعبير في التذكير » عن الشبلي حيث يقول : « قال بعضهم كنت مع الشبلي — رحمه الله — ففتح له بمنديل حسن فربك بكم بيت فقال لي : كفن هذا الكلب بهذا المنديل . وعدت إليه فقال لي فقلت ما أمرتك به ؟ فقلت : لا . فلم يقل لي شيئاً فقلت له : ما سبب ذلك الذي أمرتني به ؟ فقال : عندما مروت به استذنته واستقيته ، فتوديت في سرى : ألسنا نحن خلقناه ؟ فأمرتك بذلك كفارة لما خطر لي » .

(٣) ربما كانت هذه اللفظة (يعد) زائدة ، أو سقطت (لا) قبلها فيكون معنى (لا يعد) لا يحسب ولا يعتبر

(٤) من ابن عباس : إن الله لا يحب أن يدعو أحد على أحد إلا أن يكون مظلوماً فإنه قد أُرخص له . وعن الحسن البصري يكنى أن يقول للمظلوم « اللهم أعني عليه واستخرج حق منه » وفي رواية عنه أنه قد أُرخص له أن يدعو على من ظلمه من غير أن يعتدي عليه .

يقول الرجل لصاحبه : « أنا أحتَمِلُ من (. . . .) »^(١) خدمتك حرمة لك ما لا أحتمله من ولدى ، فإذا كان مثل هذا معهوداً بين الخلق فالعبد بمرعاة هذا الأدب — بينه وبين مولاه — أولى .

ويقال لا يحب الله الجهر بالسوء من القول من العوام ، ولا يحب ذلك بخطوره^(٢) من الخواص .

ويقال الجهر بالسوء من القول من العوام أن يقول في صفة الله ما لم يَرِدْ به الإذن والتوفيق . والجهر بالسوء من القول في صفة الخلق أن تقول ما ورد الشرع بالمنع منه ، وتقول في صفة الحق ما لا يتصف به فإنك تكون فيه كاذباً ، وفي صفة الخلق عن الخواص ما اتصفوا به من النقصان — وإن كنت فيه صادقاً .

قوله « وكان الله سميعاً عليماً » : سميعاً لأقوالكم ، عليماً بعيوبكم ، يعني لا تقولوا للأغيار ما تعلمون أنكم بمثابتهم .

ويقال سميعاً لأقوالكم عليماً ببراءة ساحة من تقولتم عليه ، فيكون فيه تهديد للقاتل — لبريء الساحة — بما يتقول عليه .

ويقال سميعاً : أيها الظالم ، عليماً : أيها المظلوم ، تهديد لهؤلاء وتبشير لهؤلاء .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنْ تَبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ ، أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءِ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾

« إن تبدوا خيراً » تخلقوا بأداب الشريعة ، وتخفوه تحقيقاً بأحكام الحقيقة .

« أو تعفوا عن سوء » أخذنا من الله ما ندبكم إليه من محاسن الخلق .

« فإن الله كان عفوًّا » لميوبكم « قديراً » على تحصيل محبوبكم وتحقيق مطلوبكم .

ويقال إن تبدوا خيراً لتكونوا للناس قدوة فيما تُسْنُون وما تعينون غيركم على ما يهدون به من سلوك سُنَّتكم ، وإن تخفوه اكتفاءً بعلمه ، وصيانة لنفوسكم عن آفات التصنع ، وثقة

(١) مشبهة .

(٢) أي (بأن يخطر عليهم خاطر) فعقوبة العوام على النطق والقول وعقوبة الخواص على (الخاطر)

بأن^(١) من يعملون^(٢) له يرى ذلك ويعلمه منكم ، وإن تغفوا عن سوء أى تتركوا ما تدعوكم إليه نفوسكم^(٣) فالله يجازيكم بعفوه على ما تفعلون ، وهو قادر على أن يبتليكم بما ابتلى به الظالم ، فيكون تحذيراً لهم من أن يغفلوا عن شهود الميثة ، وتنبهاً على أن يستعينوا أن يسلبوا العصمة ، وأن يُخَذَّلُوا حتى يقعوا فى الفتنة والمحنة .

ويقال إن تبدوا خيراً فتحسنوا إلى الناس ، أو تخفوه بأن تدعوا لهم فى السر ، أو تغفوا عن سوء إن ظلمتم .

ويقال من أحسن إليك فأبد معه خيراً جهرآ ، ومن كفاك شرآ فأخلص بالولاء والدعاء له سرآ ، ومن أساء إليك فاعف عنه كرماً وفضلاً ؛ تجد من الله عفوه عنك عما ارتكبت ، فإن ذنوبك أكثر ، وهو قادر على أن يعطيك من الفضل والإتمام مالا تصل إليه بالانتصاف من خصمك ، وما تجده بالانتقام^(٤) .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ
وَيَقُولُونَ نُوْمِنُ بِبَعْضِ وَنَكْفُرُ
بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا
بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ أولئك هم
الْكَاْفِرُونَ حقاً وأعدنا للْكَاْفِرِينَ
عَذَابًا مُهِينًا ﴾

أخبر عنهم أنهم أضافوا إلى قبيح كفرهم ما عُدَّ من ذمهم فعلهم ، ثم بين أنه

(١) أخطأ الناسخ فكتبها (باب)

(٢) مستدركة فى الهامش (تعملون) لأنها فى المتن (تعملون) والصلاب ما جاء فى الهامش

(٣) إشارة القشيري هنا فى حاجة منا إلى تدبر ، فهو يبدأ أولاً بالنفس ، ثم ينتقل إلى الناس ، ذلك لأنه حسب ما نعرف عنه يعتبر صراعك مع نفسك هو الميدان الأول الذى ينبغي أن يسلط فيه أهواءك وأطماعك ودعواك ؛ هى أعدى أعدائك ، ثم تأتى من بعد ذلك علاقاتك خارج نفسك أى مع الناس .

(٤) واضح من هذا مقدار ما يتمتع به الصوفية من رحابة الصدر ولين الجانب وسماحة الطبع .

ضاعف^(١) من عذابهم ما كان جزاء جرمهم ، لِيَتَعَلَّمَ أَنَّهُ لَأَهْلُ الْفَسَادِ بِالْمُرْصَادِ .
 قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا
 بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ
 أَجُورُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾

لما آمنوا بجميع الرسل ، وصَدَقُوا في جميع ما أمروا به استوجبوا القبول وحسن الجزاء .
 وتقاصر الإيمان عن بعض الأعيان كتقاصره عن بعض الأزمان ، فكما أنه لا يقبل إيمان من
 لم يستغرق إيمانه جميع (. . . .)^(٢) إلى آخر ما له — كذلك لا يقبل إيمان من لم يستغرق
 إيمانه جميع (من)^(٣) أمرًا بالإيمان به ؛ إذ جعل ذلك شرط تحقيقه وكماله . فبالإشارة في هذا أن
 من لم يخرج عن عهدة الإلزام بالكلية فليس له من حقيقة الوصل شظية ، قال صلى الله عليه
 وسلم : « الحج عرفة »^(٤) فمن قطع للمسافة — وإن كان من فج عميق — ثم بقي عن عرفات
 بأدنى بقية لم يُدرك الحج .

وقال صلى الله عليه وسلم : « المَكَاتِبُ عَبْدٌ مَا بَقِيَ عَلَيْهِ دَرَمٌ »^(٥)
 قوله جل ذكره : ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنِزِّلَ
 عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا
 مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا

(١) وودت (أضعف) وهي خطأ من الناسخ ، ولا بد أن تكون (ضاعف) العذاب لأن جزاء الكافرين
 عذاب مبين وهو ذلك الدنيوي الموصول بالذل الأخرى .

(٢) مشبهة .

(٣) ترجح أنها في الأصل (ما) أمر بالإيمان به منعاً للبس ، ويمكن أن تقبل (من) على أنها
 مرتبطة بالرسل .

(٤) « الحج عرفه من جاء قبل طلوع الفجر من ليلة فتبدا أدرك الحج أيام منى ثلاثة فمن تسجل في يومين
 فلا إثم عليه و من تأخر فلا إثم عليه (الامام أحمد في مسنده وأبو عدي في الكامل والحاكم في مستدركه
 والبيهقي في السنن) ٢/٣٥٨ منتخب كثر العيال .

(٥) « المكاتب عبد ما بقي عليه من كتابته شيء » .

مفتاح كنوز السنة (مادة المتق) للدكتور ا . فسنك ط لجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية ، ومراجعته
 سنن أبي داود كتاب ٢٨ باب ١ وسنن ابن ماجه كتاب ١٩ باب ٣ وموطأ مالك كتاب ٣٩ ومسنند أحمد
 ٢٠ ص ١٧٨ ، ١٨٤ .

اللَّهُ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ
بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ
مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ
وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا *

اشتملت الآية على جنسين من قبيح ما فعلوه : أحدهما سؤالهم الرؤية والثاني عبادة العجل
بعد ما ظهرت لهم الآيات الباهرة .

فأما سؤالهم الرؤية فذموا عليه لأنهم اقترحوا عليه ذلك بعد ما قطع عندهم بإقامة
المعجزات ، ثم طلبوا الرؤية لا على وجه التعليم ، أو على موجب التصديق به ، أو على ما يحملهم
عليه شدة الاشتياق ، وكل ذلك سوء أدب .

الإشارة فيه أيضاً أن مَنْ يكتفى بأن يكون العجلُ معبودَه — متى — يسلم له أن يكون
الحقُّ مشهودَه ؟

ويقال القومُ لم يباشِرُ العرفانُ أسرارهم فلذلك عكفوا بمقولهم^(١) على ما يليق بهم من
محدودٍ جوزوا أن يكون معبودهم .

قوله جل ذكره : * وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا *

حجة ظاهرة ، بل تفرداً صانه من التمثيل والتعطيل .

والسلطان المبين التحصيل والتنزيه المانع من التعطيل والتشبيه .

ويقال السلطان المبين القوة بسماع الخطاب من غير واسطة .

(١) هذا كلام له أهمية تصوى في تحديد مدى تقدير القشيري لقيمة العقل .
فنحن نعرف من مذهبه في المعرفة أن العقل يعول عليه فقط في البداية ، يقول في رسالته ص ١٩٧
(نحب البداءة بتصحيح اعتقاد بين المبد وبين الله تعالى صاف عن الظنون والشبه خال من الضلال والبدع
صادر عن البراهين والحجج) ولكن العقل بعدئذ غير جذير بمواصلة الصعود إلى ما هو أعلى من ذلك لأنه
يصاب بأفات (التجويز والتحير والتوم والتعدد) ويناط بغير العقل من الملكات الأخرى وهي القلب والروح
والسر وعين السر أو سر السر أن تواصل القصور نحو القدرى العليا . فإشبه الذين يريدون تطبيق الوسائل
العقلية على الربوبية بمن عبدوا العجل ! وعكفوا بمقولهم على المحدود !

ويقال السلطان المبين لهذه الأمة غداً ، وهو بقاؤهم في حال لقائهم — قال صلى الله عليه وسلم : « لا تضامون في رؤيته »^(١) — في خبر الرؤية .

قوله جل ذكره : ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾

ما زادم في الظاهر آية إلا زادوا في قلوبهم جحداً ونكراً ، فلم تنفعهم زيادة نصيب الإعلام ؛ لما لم تفتح لشهودها بصائر قلوبهم ، قال تعالى : « وما تنفي الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون »^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغْيًا حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

معناه لارتكابهم هذه المناهي ، ولا تصافهم بهذه المخازي ، أحللتناهم منازل الهوان ، وأنزلنا بهم من العقوبة فنون الألوان .

ويقال لحَقُّهُمْ شُؤْمُ المخالفات حالة بعد حالة ، لأن من عقوبات المعاصي الخذلان لغيرها من ارتكاب المناهي ؛ فَبِنَقْضِهِمِ الميثاق ، ثم لم يتوبوا ، جرَّهم إلى كفرهم بالآيات ، ثم لشُؤْمِ كفرهم خذِلُوا حتى قتلوا أنبياءهم — عليهم السلام — بغير حق ، ثم لشُؤْمِ ذلك تجاسروا حتى ادَّعَوْا شِدَّةَ النِّفْثِ ، وقالوا : قلوبنا أوعية العلوم ، فَرَدَّ اللَّهُ عليهم وقال : « بل طبع الله عليها بكفرهم » فَحَجَبَهُمْ عَنْ محلِّ العرفان ، فعمهوا في ضلالهم .

(١) « ... إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر »

البخاري كتاب ٩ باب ١٥ و ٢٦ وكتاب ٦٥ سورة ٤ مفتاح كنوز السنة ص ٥٧

(٢) آية ١٠١ سورة يونس

قوله جل ذكره : ﴿وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً﴾ وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبهة لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا * بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً *

بجاوزة الحدّ ضلالٌ ، كما أن النقصان والنقصار عن الحقّ ضلالٌ ، قَوْمٌ ^(١) تقوّلوا على مريم وبرموها بالزنا ، وآخرون جاوزوا الحدّ في تعظيمها فقالوا : ابنها ابنُ الله ، وكلا الطائفتين وقعوا في الضلال .

ويقال مريم — رضى الله عنها — كانت وليّة الله ، فشقيّ بها فرقتان : أهل الإفراط وأهل التفريط . وكذلك كان أولياؤه — سبحانه — فمفسكرهم يشقى بترك احترامهم ، والذين يعتقدون فيهم مالا يستوجبونه يشقّون بالزيادة في إعظامهم ، وعلى هذه الجملة درج الأَكْذَرُونَ من الأكابر .

قوله تعالى : ﴿وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه... يقيناً بل رفعه الله﴾ .

قوله تعالى : ﴿وما صلبوه ولكن شبهة لهم... عزيزاً حكيماً﴾ قبل أوقع الله شبهة ^(٢) على الساعى به فقتل وصليب مكانه ، وقد قيل : من حفر بئراً لأخيه وقع فيها ^(٣)

(١) خطأ الناسخ فكتبها (فقوموا) .

(٢) وردت (شبهة) بالناء المربوطة والصواب (شبهه) .

(٣) اختار ابن جرير أن شبه عيسى أتي على جميع أصحابه ، وكانوا اثني عشر رجلاً (ذكر أسماء) ومنهم ليودس ركريا يوطا . ويقول ابن اسحق (نقلاً عن رواية نصرانية) أن ليودس مقابل ثلاثين درهماً هو الذي دل الأعداء على عيسى بأن قبّله ساعة دخولهم فأخذوه فصلبوه . انتهت الرواية .
تعليق : هذه الرواية التي اعتمد عليها ابن اسحق تنفق مع ما جاء في الأناجيل الأربعة وليودس هذا هو يهوذا الاسخريوطي .

وقيل إن عيسى عليه السلام قال : مَنْ رَضِيَ بَأَن يُلْقَى عَلَيْهِ شَبْهِي فَيُقْتَلَ دُونِي فَلَهُ الْجَنَّةُ ،
فرضى به بعضُ أصحابه ^(١) ، فيقال لما صبر على مقاساة التلف لم يعد من الله الخلف ^(٢) ،
قال الله تعالى : « إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا » ^(٣) .

ويقال لما صَحَّتْ صَحْبَةُ الرَّجُلِ مَعَ عِيسَى — عَلَيْهِ السَّلَام — بِنَفْسِهِ صَحْبَةً بِرُوحِهِ ، فَلَمَّا
رُفِعَ عِيسَى — عَلَيْهِ السَّلَام — إِلَى مَحَلِّ الزَّلْفَةِ ، رَفَعَ رُوحَ هَذَا الَّذِي فَدَاهُ بِنَفْسِهِ
إِلَى مَحَلِّ الْقَرْبَةِ ^(٤) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا ﴾
به قبل موته ، ويوم القيامة يكون
عليهم شهيدا ﴿

لما حكم بأن لا أمانَ لهم في وقت اليأس لم ينفعهم الإيمان في تلك الحالة ، فَعَلِمَ أَنَّ الْعِبْرَةَ
بأمان الحق لا بإيمان العبد .

قال جل ذكره : ﴿ قَبِضْهُمْ مِنَ الدِّينِ هَادُوا حَرَّمْنَا
عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أَهَلَّتْ لَمْ وَبِصَدَّتْ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا * وَأَخَذَ
الرُّبَا وَقَدْ نُهِوا عَنْهُ وَأُكْلِهِمْ أَمْوَالِ
النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ
مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

(١) عن ابن اسحق عن رجل كان نصرانياً وأسلم أنه ذكر له أن عيسى حين جاءه من الله إني رافلك
قال يا منتر الحواريين : أيكم يحب أن يكون رفيق في الجنة حتى يشبه للقوم في صورتي فيقتلوه في مكان
فقال أحدم واسمه سرجس : أنا يا روح الله . قال : فاجلس في مجلسي بجلوس فيه ، ورفع عيسى (عم)
فدخلوا على سرجس وصلبوه .

وفي رواية لسعيد بن جبير عن ابن عباس اتفاق كبير مع ذلك دون ذكر اسم (سرجس) .
(٢) أخطأ الناس إذ نقلها (الخلق) بالقاف .

(٣) آية ٣٠ سورة الكهف .

(٤) في تعبير القشيري ذكاء ، ففي حالة عيسى قال (رفع) دون أن يحدد كيفية الرفع ، أبا الجسد أم بالروح
أم بهما معاً ، وفي حالة الثاني قال (رفع روحه) ، ونقهم — من حيث المصطلح — أن الزلفة أقوى من القرية .

يقال ارتكاب المحظورات يوجب تحريم للباحات .

فمن ركب محظوراً بظاهره حُرِّمَ^(١) ما كان يجده من الأحوال للباحة ، والآلاف الحاصلة في سرائره .

قوله جل ذكره : * لكن الراسخون في العلم منهم
والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك
وما أنزل من قبلك ، والمقيمين
الصلاة ، والمؤتُونَ الزكاة ، والمؤمنون
بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم
أجراً عظيماً *

الراسخ في العلم هو ألا يكون في الدليل مُقْلَداً ، كما لا يكون في الحكم مقلداً ، بل يضع
النظر موضعه إلى أن ينتهي إلى حد لا يكون: للشك في عقله مساغ .

ويقال الراسخ في العلم من يرتقى عن حد تأمل البرهان^(٢) ويصل إلى حقائق البيان .

ويقال الراسخ في العلم أن يكون بعلمه عاملاً حتى يفيد عمله عِلْمَ ما خفي على غيره ، ففي الخبر :
« من عمل بما علمه ورثه الله علم ما لم يعلم »^(٣) .

وخص « المقيمين الصلاة » في الإعراب فنصبَ اللفظ بإضمار أعني على المدح لما للصلاة
من التخصيص من بين العبادات لأنها تالية الإيمان في أكثر المواضع في القرآن ، ولأن الله

(١) أخطأ الناسخ حين كتبها (جرم) بالجيم والصواب أن تكون بالخاء لا ارتباطها بتحريم المباحات
فما سبق .

(٢) أي ينبغي ألا يكف الإنسان على العقل وحده بل عليه أن يرتقى عن هذا الحد .

(راجع الهامش الذي يتناول هذه القضية من هذا الكتاب)

(٣) أورده أبو نعيم في حلية الأولياء عن أنس بن مالك .

ويرى أبو نصر السراج أن هذا العلم الموروث هو علم الإشارة ، فيكشف الله سبحانه قلوب أصفياه المعاني
المنخورة ، والطائف والأسرار المخزونة وغرائب العلوم وطرائف الحكم في معاني القرآن ... اللع من ١٤٧
(كتاب المستنبطات) .

— سبحانه — أمر الرسول صلى الله عليه وسلم (بها) ^(١) ليلة المراج بغير واسطة جبريل عليه السلام ... وغير هذا من الوجوه .

قوله تعالى « أجزاً عظيماً » : الأجر العظيم هو الذي يزيد على قدر الاستحقاق بالعمل .

قال جل ذكره : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا

إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا

إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ

ويعقوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ

وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ، وَأَتَيْنَا

دَاوُدَ زَبُورًا ۚ

إفراد النبي صلى الله عليه وسلم من الأنبياء بالإيمان لإفرادهم بالتخصيص والفضيلة ؛ فأفرد نوحاً على ما استحقه من المقام وأفرد رسولنا عليه السلام على ما استحقه هو ، فاشتركا في الإفراد لكنها تباينا في الفضيلة على حسب المقام ، فتفرّد واحد من بين أشكاله بغير فضائل ، وتفرّد آخر من بين أضرابه ^(٢) بألف فضيلة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ

وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ

مُوسَى تَكْلِيمًا ۚ

سنة الله في أوليائه ستر قوم ، وشهر قوم ، وبذلك جرت سنة أيضاً في الأنبياء عليهم السلام — أظهر أسماء قوم وأجل تفصيل آخرين . والإيمان واجب بجميع الأنبياء جملة وتفصيلاً ، كما أن الاحترام واجب لجميع الأولياء جملة وتفصيلاً ، وكذلك أحوال العباد ستر عليهم بعضاً وأظهر لهم بعضها ، فما أظهرها لهم — طالبهم بالإخلاص فيها ، وما سترها

(١) إضافة وضعناها ليناسك المعنى .

(٢) وردت (أخرايه) بالحاء وهي خطأ في النسخ والصواب (أضرابه) أي (أشكاله) التي سبقت ، والفترة كلها غير واضحة ، وقد أثبتناها كما هي .

عليهم — فلا تله غار^(١) على قلوبهم من ملاحظة أحوالهم تأهيلاً لم للاختصاص بمحقق
أفردهم بمعانيها .

« وكلم الله موسى تكليماً » : إخبار عن تخصيصه إياه باستماع كلامه بلا واسطة .

قوله جل ذكره : ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾

وقف الخلق عند مقاديرهم ؛ ويئن أنه أرسل إليهم الرسل فتفردوا عليهم إلى اجتناب
ثوابهم ، واجتناب ما فيه استحقاق عذابهم ، وأنه ليس للخلق سبيل إلى راحة بطلبونها
ولا إلى آفة يجتنبونها إما في الحال أو في المال .

قوله جل ذكره : ﴿ لَيْسَ لَكَ عَلَى النَّاسِ حُجَّةٌ بَعْدَ

الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

أني يكون لمن له إلى الله حاجة على الله حجة ؟ ولكن الله خاطبهم على حسب عقولهم .

قوله جل ذكره : ﴿ لَكِنَّا نَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ

بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى

بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾

سأله الله عن تكذيب الخلق إياه بما ذكره من علم الله بصدقه ، ولذلك قال : « وكفى

بِاللَّهِ شَهِيدًا » .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ إِنَّ الَّذِينَ

كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ

لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا *

إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ،

وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا *

(١) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (ص) : إن الله ينفار وإن المؤمن ينفار وغيرة الله تعالى أن
يأتي العبد المؤمن ما حرم الله تعالى عليه ، الرسالة ص ١٢٦ وقال القشيري : إذا وصف الحق سبحانه بالغيرة
فمعناه أنه لا يرضى بمشاهدة الغير معه فيها هو حق له من طاعة عبده . (الرسالة نفس الصفحة) .

جعل صدم المؤمنين (من) ^(١) اتباع الحق نظير كفرهم بالله ، والله تعالى عظم حقوق أوليائه كتعظيم حق نفسه ، ثم قال : « إن الذين كفروا وظلموا » جعل ظلمهم سبيل كفرهم ، فعلق استحقاق العقوبة المؤبدة عليها جميعاً . والظلم — وإن لم يكن كالكفر في استحقاق وعيد الأبد — فليشؤم الظلم لا يبعد أن يخذله الله حتى يوافق ربه على الكفر .

قوله جل ذكره ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

« يا أهل الكتاب » : أخبر أنه سبحانه غني عنهم ، فإن آمنوا فحفظوا أنفسهم اكنسبوها وإن كفروا ^(٢) فبلاياهم لأنفسهم اجتلبوها . والحق — تعالى — منزّه الوصف عن (الجمل) ^(٣) لوافق أحد ، والنقص بخلاف أحد .

قوله : « وإن تكفروا فإن لله ما في السموات والأرض » يعني إن خرجوا عن استعمال العبودية — فعلاً ، لم يخرجوا عن حقيقة كونهم عبيده — خلقاً ، قال تعالى : « إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً » ^(٤)

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكُلُّهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾

(١) ربما كانت (عن) فهكذا في الآية الكريمة .

(٢) في النسخة (وإن لم تكفروا) ولكنها مصححة باستدراك في الهامش (وإن كفروا) وهو الأصوب .

(٣) نظن أن الناسخ قد أخطأ في نقل هذه الكلمة فإن من عادة القشيري في مثل هذا السياق أن يذكر أن طاعة المطيع ليست زينة للحق ، ومعصية العاصي ليست شيناً له ، لأجل هذا ترجح أن العبارة هنا تستقيم لو كانت (والحق تعالى منزّه الوصف عن الكمال لوافق أحد وعن النقص لخلاف أحد) .

(٤) آية ٩٣ سورة مريم .

فَأَمِينُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ، وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً
انْتَهَوْا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ
سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ، لَهُ مَا فِي
السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ
وَكِيلًا * .

عُلُوُّهُمْ فِي دِينِهِمْ جَرِيَّتُهُمْ عَلَى مَقْتَضَى حِسَابِهِمْ ؛ حَيْثُ وَصَفُوا — بِمِثَابَةِ الْخَلْقِ —
مَعْبُودَهُمْ ، ثُمَّ مَنَاقَضْتَهُمْ ؛ حَيْثُ قَالُوا الْوَاحِدَ ثَلَاثَةً وَالثَّلَاثَةَ وَاحِدًا^(١) ، وَالتَّمَادِي فِي الْبَاطِلِ لَا يَزِيدُ
غَيْرَ الْبَاطِلِ .

قَوْلُهُ جَلْ ذَكَرَهُ : * لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ
عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ
وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ
فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا * فَأَمَّا الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ
أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ *

كَيْفَ يَسْتَنْكِفُ عَنْ عِبَادَتِهِ وَبِالْعِبُودِيَّةِ شَرَفُهُ ، وَكَيْفَ يَسْتَكْبِرُ عَنِ التَّنْذِلِ
وَفِي اسْتِكْبَارِهِ تَكَلُّفُهُ ، وَلِهَذَا الشَّانَ نَطَقَ الْمَسِيحُ أَوَّلَ مَا نَطَقَ بِقَوْلِهِ : إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ، وَتَجَمَّلَ الْعَبِيدُ
فِي التَّنْذِلِ لِلسَّادَةِ ، هَذَا مَعْلُومٌ لَا تَدْخُلُهُ رَيْبَةٌ^(٢) .

وَقَوْلُهُ : « وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ » لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ أَفْضَلُ مِنَ الْمَسِيحِ ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا خَاطَبَهُمْ
عَلَى حَسَبِ عَقَائِدِهِمْ ، وَالْقَوْمُ اعْتَقَدُوا تَفْضِيلَ الْمَلَائِكَةِ عَلَى بَنِي آدَمَ .

(١) الثَّلَاثَةُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مَقْصُودًا مِنْهَا : اللَّهُ وَالْمَسِيحُ وَمَرْيَمُ ، وَإِمَّا — كَمَا وَرَدَ فِي الْأَنْجِيلِ — الْأَبُ
وَالابْنُ وَالرُّوحُ الْقُدُسُ ، وَسَوَاءٌ انْصَرَفَتْ إِلَى هَؤُلَاءِ أَمْ إِلَى أَوَّلِكَ فَإِنَّهُ شَرَكُ بَعْضِ تَوَلَّى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ
تَقْبِيدَهُ فِي مَوَاضِعَ شَقٍّ .
(٢) وَرَدَّتْ (رَيْبَةٌ) وَلَا نَحْسَبُ أَنَّ لَهَا مَعْنَى هُنَا ، وَنُوجِّحُ أَنَّهَا فِي الْأَصْلِ (رَيْبَةٌ) أَيْ هَذَا مَعْلُومٌ
لَا شَكَّ فِيهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكَبرُوا

فيعذبهم عذاباً أليماً ، ولا يجدون لهم

من دون الله ولياً ولا نصيراً ﴾

العذاب الأليم ألا يصلوا إليه ^(١) أبداً بعدما عرفوا جلاله ، فإذا صارت معارفهم ضرورية ^(٢) فإنهم يعرفون أنهم عنه بقوا ^(٣) ، فحسراتهم حينئذ على ما فاتهم أشد عقوبة لهم .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾

البرهان ما لاج في سرائرهم من شواهد الحق .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مبيناً ﴾

وهو خطابه الذي في تأملهم معانيه حصول استبصارهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ ^(٤) واعتصموا به

فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ﴾

« سيدخلهم في رحمته » : والسين للاستقبال أي يحفظ عليهم إيمانهم في المال ^(٥) عند التوفى ، كما أكرمهم بالعرفان والإيمان في الحال .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

(١) أي يقطع بينهم وبين رؤيته سبحانه ، وفي هذا يقول ذو النون (خوف النار إذا قيس إلى خوف القطع عن المحبوب كقطرة الماء تنذف في أعظم المحيطات .

ويقول بعضهم : إلهي إذا شئت أن تعذبني فألقني إلى النار ولا تعذبني بهذا الحجاب .

(٢) قلنا من قبل في هامش سابق - نقلا عن مذهب القشيري : إن المعرفة في البداية كسبية وفي الانتهاء ضرورية ، ومعنى الكلام هنا أنهم يحرمون من أعظم الأشياء متعة بعد ما لاحت لهم بعض المعارف . . وذلك غاية في التعذيب .

(٣) (عنه بقوا) البقاء عن الله سبحانه أشد أنواع العقاب .

(٤) سئطت (بالله) من الناسخ فأثبتناها في موضعها .

(٥) وردت (المال) ويلزم وضع المد على الألف لتسكون (المال) وقد تكرر هذا في مواضع كثيرة فيما سبق .

هذه الهداية هي إكرامهم بأن عرفوا أن هذه الهداية من الله لهم فضل لا لأنهم استوجبوها بطلبهم وجهدهم ، ولا بتعبهم وكدهم^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يَفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ
 إِنْ أَمْرٌ هَلْكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ
 فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا
 إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ
 فَلَهُمَا الشُّلْثَانُ مِمَّا تَرَكَ ، وَإِنْ كَانُوا
 إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ
 حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ، يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ
 تَقْضُوا وَآلَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

قطع الخصومة بينهم في قسمة^(٢) الميراث فيما أظهر لهم من النص على الحكم ، فإن المال محبب إلى الإنسان ، وجبكت النفوس على الشح ؛ فلو لم ينص على مقادير الاستحقاق (لقابله الاشياء)^(٣) في الاجتهاد ، فكان يؤدي ذلك إلى التجاذب والتواشب ؛ فحسم تلك الجملة بما نص على المقادير في الميراث قطعاً للخصام . ولتوريثه للنسوان — وإن لم يوجد منهن الذب عن العشرة — دلالة على النظر لضعفهن . وفي تفضيل الذكور عليهن لما عليهم من تحمل^(٤) المؤن وكذا السعي في تحصيل المال ، والقيام عليهن .

-
- (١) يهدف القشيري دائماً إلى أن يعود بكل شيء إلى فضل الله ، وأن يشعر العبد دائماً بأن عمله ليس وحده كافياً للنجاة . فإذا طالع العبد نفسه في شيء ما ففي ذلك وبال عليه .
 (٢) وردت (بالصاد) والصواب أن تكون بالسين ، وربما كانت (قضية) في الأصل .
 (٣) هكذا في النسخة (م) و ترجح أنها في الأصل (لقابله الاشياء) في الاجتهاد أي ان النص على الموارد يزيل كل اشتباه ينجم من الاجتهاد .
 (٤) وردت (يحمل) و ترجح أنها في الأصل : (حل) فقبلها جار .
 (حاشية) لم يتعرض القشيري لمعنى (الكلاله) ولقد كنا نود لو أوضح الرأي فيها ، خصوصاً وأن موضوعها منهم ، وتسمى هذه الآية الأخيرة من سورة النساء بآية الصيف ، قال الإمام أحمد : حدثنا أبو نعيم حدثنا مالك يعني ابن مثنى يقول سمعت الفضل بن عمرو عن إبراهيم عن عمر بن الخطاب قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكلاله فقال : « يكفبك آية الصيف » فقال لأن أكون سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها أحب إلى من أن يكون لي حر النعم .

السورة التي تذكر فيها المائدة

بسم الله الرحمن الرحيم

تتضمن الفناء والغيبة ، وسماع الرحمن الرحيم
يوجب الحضور والأوبة ، والحضور يتضمن البقاء والقربة .

فمن أسمعه « بسم الله » أدهشه في كشف جلاله ، ومن أسمعه « الرحمن الرحيم » غيَّشه
بِلُطْفِ أفضاله .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾

« يا » حرف نداء ، و « أى » اسم منادى ، « ما » تنبيه ، و « الذين آمنوا » صلة
للمنادى . ناداهم قبل أن يدام ، وسمَّاهم قبل أن يرام ، وأهلَّهم في آزاله لِمَا أوصَلهم إليه
في آباده .

شَرَّفهم بقوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا » ، وكَلَّفهم بقوله « أَوْفُوا » ، وَلَمَّا عَلِمَ أَنَّ التكليف
يوجب المشقة قَدَّمَ التشريف بالثناء على التكليف الموجب للعناء .

ويقال الإيمانُ صنفان : أحدهما يشير إلى عين الجود ، والثاني إلى بذل الجهود .
فَبَذَلُ الجهودِ خِدْمَتُكَ ، وعَيْنُ الجودِ قِسْمَتُهُ ؛ فبخدمتك عناه الأشباح ، وبقسمته
ضياء الأرواح .

وحقيقة الإيمان تحقق القلب بما أخبر من الغيب .

ويقال « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا » : يَا مَنْ دَخَلُوا فِي إِيمَانِي ، مَا وَصَلْتُمْ إِلَى أَمَانِي إِلَّا بِسَابِقِ إِحْسَانِي .
ويقال يَا مَنْ فَتَحَتْ بَصِيرَتُهُمْ لَشُهُودِ حَقِّ حَقِّ لَا يَكُونُوا كَنِ أَعْرَضَتْ عَنْهُمْ مِنْ خَلْقِي .

= وذكر الإمام أحمد بإسناد آخر أكثر صحة مما سبق .

ومن الأقوال التي ذكرت عن الكلالة أنها مأخوذة من الإكليل الذي يحيط بالراس من جوانبه
ولهذا فسرها أكثر العلماء بمن يموت وليس له ولد ، ومن الناس من يقول الكلالة من لا ولد له كما دلت
عليه الآية (إن امرؤ هلك ليس له ولد) .

(١) أضفناها لأن السياق يستدعيها ، إذ ترجح أنها سقطت في النسخ .

قوله جل ذكره : ﴿أوفوا بالعقود﴾

كُلُّ مُكَلَّفٍ مُطَالَبٌ بالوفاء بمقده ، والعقد ما أزمك بسابق إيجابه ، ثم وفَّقَكَ — بعدما أظهرَكَ عند خطابه — بجوابه^(١) ، فأنبرم المقدم بحصول الخطاب ، والقبول بالجواب .
ويدخل في ذلك — بل يلتحق به — ما عَقَدَ القلبُ معه سِرًّا بَـسِرًّا ؛ من خلوص له أضمره ، أو شيء تبينه ، أو معنى كوشف به أو طولب به فقبِله .

ويقال الوفاء بالعهد بصفاء القصد ، ولا يكون ذلك إلا بالتبرُّى من اللئنة ، والتحقق بتولي الحق — سبحانه — بلطائف اللبنة^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَيْمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُنْتَلَى

عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾

تحليل بعض الحيوانات وإباحتها من غير جُرْمٍ سَبَقَ منها ، وتحريم بعضها وللنع من ذبحها من غير طاعة حصلت منها — دليلٌ على ألاَّ عِلَّةَ لِمَنَعِهِ .

وحرَّم الصيد على للمُحَرِّم خصوصاً لأنَّ للمُحَرِّم منجرُودٌ عن نصيب نفسه بقصده إليه ، فالأليق بصفاته كُفُّ الأذى عن كل حيوان .

قوله جل ذكره : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾

لا حَجَرَ عليه في أفعاله ، فيخصُّ من يشاء بالنعى ، ويفرد من يشاء باليلوى ؛ فهو يُغْضِي الأمور في آباده على حسب ما أراد وأخير وقضى في آزاله .

قوله جل ذكره : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾

الشعائر معالم الدين ؛ وتعظيم ذلك وإجلاله خلاصة الدين ، ولا يكون ذلك إلا بالاستسلام عند هجوم التقدير ، والتزام الأمر بجميل الاعتناق ، وإخلال الشعائر (يكون) بالإخلال بالأوامر .

قوله جل ذكره : ﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ

وَلَا الْقُلَائِدَ﴾

(١) يشير التشيرى إلى قوله تعالى يوم القدر : « أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ » قالوا بلى .

(٢) يفرِّق التشيرى بين لبنة لعبد واللبنة للحق .

تعظيم المكان الذى عظمه الله ، وإكرامُ الزمان الذى أكرمه الله . وتشريف الإعلام على ما أمر به الله — هو المطلوب من العبيد أمراً ، والمحجوب منه حالاً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا آمِنُ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَتَفَوَّنُوا فَضلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً ﴾

وبالحري لمن يقصد البيت ألا يخالف رب البيت .

والابتغاء للفضل والرضوان بتوقى موجبات السخط ، ومجانبة العصيان .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدَّكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا ﴾

وإذا خرجتم عن أمر حقوقنا فارجموا إلى استجلاب حظوظكم ، فأما ما دمنتم تحت قهر بطشنا فلا نصيب لكم منكم ، وإنكم لنا .

قوله « وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ . . . » أى لا يحملكم بغض قوم لأنهم صدوكم عن المسجد الحرام على ألا تجاوزوا حد الإذن فى الانتقام ، أى كونوا قاطعين بنا ، منجدين عن كل نصيب وحظ لكم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ .

البرُّ فعلٌ ما أمرت به ، والتقوى تركٌ ما زُجرت عنه .

ويقال البرُّ إيثار حقه — سبحانه ، والتقوى تركُ حظِّك .

ويقال البرُّ موافقة الشرع ، والتقوى مخالفة النفس .

ويقال المعاونة على البرِّ بحسن النصيحة وجيل الإشارة للمؤمنين ، والمعاونة على التقوى بالتبض على أيدي الخطائين بما يقتضيه الحال من جميل الوعظ ، وبلغ الزجر ، وتمام المنع على ما يقتضيه شرط العلم .

والمعاونة على الإثم والعدوان بأن تعمل شيئاً مما يقتدى بك لا يرضاه الدين ، فيكون قولك الذى تفعله ويقتدى بك (فيه) سُنَّةً تظهرها و(عليك) نِيْوُ وِزْرُهَا . وكذلك المعاونة

على البر والتقوى أى الانصاف بحميل الخصال على الوجه الذى يُقْتَدَى بك فيه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ .

العقوبة ما تعقب الجرم بما يسوء صاحبه . وأشد العقوبة حجاب المُعَاقِبِ عن شهود المُعَاقِبِ ؛ فَإِنَّ تَجَرُّعَ كَاسَاتِ الْبَلَاءِ بِشُهُودِ الْمُبْلِي أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ وَالشَّهْدِ .

قوله جل ذكره : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكَ الْمَيْتَةُ وَاللَّهُمُّ وَالْحُمْ خُزِيرٌ ﴾ .

وأكل الميتة أن تتناول من عَرَضَ أخيك على وجه الغيبة^(١) ، وليس ذلك مما فيه رخصةٌ بحالٍ لا بالاضطرارٍ ولا بالاختيارٍ ، وغير هذا من المَيْتَةِ مباحٌ في حالِ الضرورة .

ويقال كما أن في الحيوان ما يكون المزكى منه مباحاً والميتة منه حراماً فكذلك من ذبح نفسه بسكاكين المجاهدات وطهر نفسه — مباحٌ قربه ، حلال صحبته . ومن ماتت نفسه في ظلمة غفلته حتى لا إحساس له بالأمور الدينية فخيئته نفسه ، محظورٌ قربه ، حرام معاشرته ، غير مباركٍ صحبته .

وإن السلف سموا الدنيا خنزيرةً ، ورأوا أن ما يُلْهِى قربه ، ويُنْسَى للمعبود ركوته ، ويحمل على العصيان جنوحه — فهو مُحَرَّمٌ على القلوب ؛ ففي طريقة القوم حبُّ الدنيا حرامٌ على القلوب ، وإن كان إمساكُ بعضها حلالاً على الأبدان والنفوس .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنَقَةُ وَالْمُوقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ ﴾ .

كما أن للذبح على غير اسمه ليس بطيبٍ فَمَنْ بَدَّلَ رُوحَهُ فِيهِ وَجَدَ رُوحَهُ مِنْهُ ، ومن تهاشته كلاب الدنيا ، وقلته مخالب الأطماع ، وأسْرَتْهُ مطالبُ الأغراض والأعراض — فحرام ماله على أهل الحقائق في مذهب التعرز ، فللشريعة الظرف والتقدير .

وأما المنخنقة فالإشارة منه إلى الذى ارتبك في حبال المنى والرغائب ، وأخذته خناقٌ

(١) يشير القشيري بذلك إلى قوله تعالى : « أَيْحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ... » .

الطمع ، وخنقته سلاسل (الحرس) ^(١) فحرامٌ على السالكين سلوك خطتهم ، ومحظور على المريدين متابعة مذهبهم .

وأما الموقوذة فالإشارة منها إلى تقوس جُبلت على طلب الخسائس حتى استملكها كلها فهي التي ذهبت بلا عوض حصل منها ، وأمثال ذلك حرامٌ على أهل هذه القصة .

والإشارة من المتردية إلى من هلك في أودية التفرقة ، وعى عن استبصار رشد الحقيقة ؛ فهو يهيم في مفاوز الظنون ، وينهك في مناهات المني .

والإشارة من النطيحة إلى من صارَعَ الأمثال ، وطارع الأشكال ، وناطح كلاب الدنيا فخطوه بكلب حرصهم ، وهزموه بزيادة تكلمهم ، وكذلك الإشارة من :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وما أكل السبع إلا ما ذكّيتُم ﴾ .
وأكلة السبع ما ولنت فيه كلاب الدنيا ، فإن الدنيا جيفة ، وأكلة الجيف الكلابُ ويستثنى منه الزكي وهو ما تقرر من متاع الدنيا لله ؛ لأن زاد المؤمنين من الدنيا : ما كان لله فهو محمود ، وما كان للنفس فهو مذموم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وما ذُبحَ على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ﴾ .

فهو ما أُرصدَ لغير الله ، ومقصودُ كلِّ حريصٍ — بموجب شرعه — معبودُه من حيث هواه قال الله تعالى . « أفرايت من اتخذ إلهه هواه » يعنى اتخذ هواه إلهه .

« وأن تستقسموا بالأزلام » ، الإشارة منه إلى كل معاملة ومُصاحبة يُنيتُ على استجلاب الحظوظ الدنيوية — لا على وجه الإذن — إذ القمار ذلك معناه . وقلّت المعاملات المجرّدة عن هذه الصفة فيما نحن فيه من الوقت .

قوله جلّ ذكره : ﴿ ذلِكُمْ فَسْقٌ ﴾

أى إيثار هذه الأشياء انسلاخ عن الدين .

(١) وردت (الحرس) ومى خطأ فى النسخ .

قوله جل ذكره : ﴿ اليوم يئس الذين كفروا من

دينكم فلا تخشوهم واخشون ﴾

أى بعدما أزمحتم عن قلوبكم آثار الحسبان ، وتحققتم بأن المتفرد بالإبداع نحن ، فلا تلاحظوا سوى ، ولا يظللن قلوبكم إشفاق من غيرى .

ويقال إذا كانت البصائر متحققة بأن النفع والضر ، والخير والشر لا تحصل شظية منها إلا بقدرة الحق — سبحانه ، فمن المحال أن تنطوى — من مخلوق — على رغب أو رهب .

قوله جل ذكره : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾

إكمال الدين — وقد أضافه إلى نفسه — صوته العتيقة عن النقصان ؛ وهو أنه لما أزعج قلوب المتفرفين لطلب توحيد أملاكها بأنوار تأييده وتسديده ، حتى وضعوا النظر موضعه من غير تقصير ، وحتى وصلوا إلى كمال العرفان من غير قصور .

ويقال إكمال الدين تحقيق القبول في المال ، كما أن ابتداء الدين توفيق الحصول في الحال ؛ فلولاه توفيقه لم يكن للدين حصول ، ولولا تحقيقه لم يكن للدين قبول .

ويقال إكمال الدين أنه لم يبق شيء يعلو الحق — سبحانه — من أوصافه وقد علمك .

ويقال إكمال الدين أن ما تقاصر عنه عقلك من تعيين صفاته — على التفصيل — أكرمك بأن عرفك ذلك من جهة الإخبار .

وإنما أراد بذكر « اليوم » وقت نزول الآية . وتقييد الوقت في الخطاب بقوله « اليوم » لا يعود إلى عين إكمال الدين ، ولكن إلى تعريفنا ذلك الوقت .

والدين موهوب ومطلوب ؛ فالمطلوب ما أمكن تحصيله ، والموهوب ما سبق منه حصوله .

قوله جل ذكره : ﴿ وأنعمت عليكم نعمتي ﴾

النعمة — على الحقيقة — ما لا يقطعك عن المنعم بل يوصلك إليه ، والنعمة المذكورة

ها هنا نعمة الدين ، وإتمامها وفاء المال ، واقتران الغفران وحصوله . فإكمال الدين بتحقيق المعرفة ، وإتمام النعمة بتحصيل المغفرة . وهذا خطاب لجماعة المسلمين ، ولا شك في مغفرة جميع المؤمنين ، وإنما الشك يعتري في الآحاد والأفراد هل يبقى على الإيمان ؟

قوله جل ذكره : ﴿ وَرَضِيتْ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾

وذلك لما قَسَمَ لِلْخَلْقِ أَدْيَانَهُمْ ؛ فخصَّ قومًا باليهودية ، وقومًا بالنصرانية ، إلى غير ذلك من النحلِ واللِّلِ ، وأفرد المسلمين بالتوحيد والغفران .

وقدَّم قومُ الإِكمالِ على الإِتمامِ ، فقالوا : الإِتمام يقبل الزيادة ، فلذلك وَصَفَ به النعمة لقبول النعم للزيادة ، ولا رتبة بعد الكمال فلذلك وصف به الدين .

ويقال لا فرق بين الدين والنعمة المذكورة ها هنا ، وإنما ذُكِرَ بلفظين على جهة التأكيد ، ثم أضافه إلى نفسه فقال : « نعتي » وإلى العبد فقال : « دينكم » . فوجهُ إضافته إلى العبد من حيث الاكتساب ، ووجه إضافته إلى نفسه من حيث الخلق . فالدين من الله عطاء ، ومن العبد عناء^(١) ، وحقيقة الإسلام الإخلاص والالتقياد والخضوع لجرىان الحكم بلا نزاع في السر .

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ

لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

الإشارة من هذه الآية أنه لو وقع لسالك فترة ، أو لمريد في السلوك وقفة ، ثم تنبه لعظيم واقعه فبادر إلى جميع الرجعة باستشعار التحسر على ما جرى تدارَكَتْهُ الرحمة ، ونظر الله — سبحانه — إليه بقبول الرجعة .

والإشارة من قوله « غير متجانف لإثم » أي غير معرَّجٍ على الفترة ، ولا مستديم لعقدة الإصرار ، وبمحتمل أن يكون معناه من نزل عن مطالبات الحقائق إلى رخص العلم لضعف وجدّه في الحال فربما تجرى معه مُساهلةٌ إذا لم يفسخ عقد الإرادة .

(١) هذه العبارة تساوى في المعنى ما سبق ذكره أن « الدين موهوب ومطلوب » والمقصود بالعناء أن الدين معاناة وممارسة من جانب العبد .

قوله جل ذكره : ﴿ يسألونك ماذا أحلّ لهم قلّ

أحلّ لكم الطيبات وما علّمت من

الجوارح مكليين تعلّونهنّ مما علّمكم

الله ، فكلوا مما أمسكن عليكم ،

واذكروا اسم الله عليه ، واتقوا الله

إن الله سريع الحساب ﴾

لما علموا أن الحسن من أفعالهم ما ورد به الأمر وحصل فيه الإذن تعرّفوا ذلك من

تفصيل الشرع ، فقال : « يسألونك ماذا أحلّ لهم » ثم قال :

« قل أحلّ لكم الطيبات » وهو الحلال الذي تحصل من تناوله طيبة القلوب فإنّ أكل

الحرام يؤجّب قسوة القلب ، والوحشة مقرونة بقسوة القلب ، وضياء القلوب وطيب

الأوقات متصل بصون الخلق عن تناول الحرام والشبهات .

وقوله : « وما علّمت من الجوارح مكليين » : ولما كان الكلب المعلّم تركّ حظه ،

وأمسك ما اصطاده على صاحبه حلت فريسته ، وجاز اقتناؤه ، واستغرق في ذلك حكم خساسته

فكذلك من كانت أعماله وأحواله لله — سبحانه — مختصة ، ولا يشوبها حظ تجلّ رتبته

وتعلو حالته .

ويقال حسن الأدب يلحق الأخسة برتبة الأكابر ، وسوء الأدب يرّد الأعرزة

إلى حالة الأصاغر .

ثم قال : « واذكروا اسم الله عليه » : بين أنّ الأكل — على الغفلة — غير مرضي

عنه (في القيمة)^(١)

« واتقوا الله إن الله سريع الحساب » بحيث لا يشغله شأن عن شأن ، وسريع الحساب

— اليوم — مع الأحاب والأولياء ، فهم لا يسأخون في (الخطوة)^(٢) ولا في اللحظة ،

معجل حسابهم ، مضاعف — في الوقت — ثوابهم وعقابهم .

(١) وضعت (في القيمة خطأ) بعد سريع الحساب وقد أثبتناها في موضعها الصحيح .

(٢) وبما كانت في الأصل (الخطرة) بالراء فالأكابر يحاسبون على أدق خاطر يخطر على قلوبهم .

قوله جل ذكره ﴿اليوم أُحِلُّ لَكُمْ الطيباتُ وطعامُ
الذين أوتوا الكتابَ حِلٌّ لَكُمْ
وطعامكم حِلٌّ لَهُمُ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ
الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا
آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ
مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَخَدِّينَ أَخْدَانٍ ،
وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ
وهو في الآخرة مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿

ليس الطَّيِّبُ ما تستطيبه النفوس، ولكن الطيب ما يوجد فيه رضا الحق — سبحانه —
فتوجد عند ذلك راحة القلوب .

« وطعام الذين أوتوا الكتاب حِلٌّ لكم » : القَدَرُ الذي بيننا وبينهم من الوفاق في إثبات
الربوبية لم يَعرَّ من أثرٍ في القربة فقال الله تعالى : « ولتجدنَّ أقربهم مودةً للذين آمنوا الذين
قالوا إنا نصارى » (١)

وكذلك الأمر في المحصنات من نسائهم . وأُحِلَّ الطعامُ والذبيحةُ بيننا وبينهم من الوجهين
فيحلُّ لنا أكل ذبائحهم ، ويجوز لنا أن نطعمهم من ذبائحنا ، ولكن التزوج بنسائهم يجوز لنا ،
ولا يجوز تزوجهم بنسائنا لأن الإسلام يعلو ولا يُعلَى .

ثم قال « محصنين غير مسافحين » يعني إناهم وإن كانوا كفاراً فلا تجب صحتهم بغير
نكاح تعظيماً (٢) لأمر السفاح ، وتنبيهاً على وجوب مراعاة الأمر من الحق . وكذلك
« ولا متخذي أخدان » لأنه إذا لم يجر تعلق قلبك بالمؤمنين على وجه المخادنة فتى يسلم ذلك
مع الكفار الذين هم الأعداء ؟

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ

(١) آية ٨٧ سورة المائدة .

(٢) تعظيماً هنا معناها تهويلاً واستبشاعاً .

فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق
وامسحوا برءوسكم وأرجلكم
إلى السكبين ❊

كما أن في الشريعة لا تصح الصلاة بغير الطهور فلا تصح — في الحقيقة — بغير طهور .
وكما أن للظاهر طهارة فلاسرائر أيضاً طهارة ، وطهارة الأبدان بماء السماء أى للطر ، وطهارة
القلوب بماء الندم والخجل ، ثم بماء الحياء والوجل .

وكما يجب غسل الوجه عند القيام إلى الصلاة يجب — في بيان الإشارة — صيانة الوجه
عن التبذل للأشكال عن طلب خسائس الأعراض .

وكما يجب غسل اليدين في اليدين في الطهارة يجب قصرهما عن الحرام والشبهة .

وكما يجب مسح الرأس يجب صونه عن التواضع والخفض لكل أحد .

وكما يجب غسل الرجلين في الطهارة يجب صونهما في الطهارة الباطنة عن التنقل فيما لا يجوز

قوله جل ذكره : ❊ وإن كنتم جنبا فاطهروا وإن كنتم

مرضى أو على سفر أو جاء أحد

منكم من الغائط أو لمستم النساء فلم

تجدوا ماء فميسوا صعيدا طيبا

فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ❊

كما يقتضى غسل جميع البدن في الطهارة . كذلك في الطهارة الباطنة ما يوجب الاستقصاء ؛
وذلك عندما تقع للمريد فترة فيقوم بتجديد عقده ، وما كيد عهده ، والتزام عزامة ، وتسليم
وقت ، واستدامة ندامة ، واستشعار خجل .

وكما أنه إذا لم يجد المتطهر الماء ففرضه التيمم فكذلك إذا لم يجد المريد من يفيض عليه
صوب همة ، ويغسله بركات إشارته ، ويعينه بما يشوب به من زيادة حالته — اشتغل
بما تيسر له من اقتفاء آثارهم ، والاستراحة إلى ما يجد من سالف سيرهم ، وما ورد
من حكاياتهم

وكأن فرض التيمم على الشطر والنقصان فكذلك المطالبات على إصفاء هذه الحالة تكون أخف لأنه وقت الفترة وزمان الضعف .

قوله جل ذكره : ﴿ ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ﴾
وتلوح من هذه الجملة الإشارة إلى أنه إذا بقي المريد عن أحكام الإرادة فليحفظ رجليه
بساحات العبادة ، فإذا عديم اللطائف في سرائره فليستدبر الوظائف على ظاهره ، وإذا لم يتحقق
بأحكام الحقيقة فليستخلق بآداب الشريعة ، وإن لم يتخرج عن تركه الفضيلة فلا يدنس تصرفه
بالحرام والشبهة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولكن يريد ليظهركم ﴾

أي يظهر ظواهركم عن الزلة بعصيته ، ويظهر قلوبكم عن الغفلة برحمته .
ويقال يظهر سرائركم عن ملاحظة الأشكال ، ويظهر ظواهركم عن الوقوع
في شباك الأشغال .

ويقال يظهر عقائدكم عن أن تتوهوا تدنس المفادير بالأعلال .

قوله جل ذكره : ﴿ وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون ﴾
إتمام النعمة على قوم بنجاة نفوسهم ، وعلى آخرين بنجاتهم عن نفوسهم ، ومشتان بين
قوم وقوم .

ويقال إتمام النعمة في وفاء العاقبة ؛ فإذا خرج من الدنيا على وصف العرفان والإيمان
فقد تمت سعادته ، وصفت نعمته .

ويقال إتمام النعمة في شهود المنعم ؛ فإن وجود النعمة لكل أحد ولكن إتمامها
في شهود المنعم .

قوله جل ذكره : ﴿ واذكروا لله عليكم وميثاقه
الذي واتاكم به ﴾

الإشارة منه إلى التعريف السابق الذي لولاه ما علمت أنه من هو .

ويقال أمرهم بتذكّر ما سبق لهم من القسم وهم في كتم العدم ، فلا للأغيار عنهم خبر ،

ولا لهم عين ولا أثر ، ولا وقع عليهم بصيرة ، وقد (سحاهم)^(١) بالإيمان ، وحكم لهم بالنفرا
قبل حصول العصيان ، ثم لما أظهرهم وأحياهم عرفهم التوحيد قبل أن كلفهم الحدود ، وعرض
عليهم بعد ذلك الأمانة وحذرهم الخيابة ، فقابلوا قوله بالتصديق ، ووعدوا من أنفسهم الوفاء
بشرط التحقيق ، فأمدتهم بحسن التوفيق ، وثبتتهم على الطريق ، ثم شكرهم حيث أخبر عنهم
بقوله جل ذكره : « إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا » .

ثم قال : « وَاتَّقُوا اللَّهَ » : يعنى فى تقضى ما أبرتم من العقود ، والرجوع عما قدمتم من
العهد ، « إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » لا يخفى عليه من خطرات قلوبكم ونيات صدوركم .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ
شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ﴾

لا يُعَوِّقُكُمْ حُصُولُ نَصِيبٍ لَكُمْ فِي شَيْءٍ عَنِ الْوَفَاءِ لَنَا ، والقيام بما يتوجب عليكم
من حقنا .

ويقال من لم يقسط عنه مواعد رغائبه ، ولم يحج عنه نواجم شهواته ومطالبه لم يتم لله بحق
ولم يفي لواجباته بشرط .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى
أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى
وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

أى لا تحملكم ضغائن صدوركم على الحلول بجنابات الخيف فإن مرتفع الظلم ورفيعه ،
ومواضع الزيف مهلكة .

ثم صرح بالأمر بالعدل فقال : « اعدلوا » ولا تكون حقيقة العدل إلا (بالعدل)^(٢)
عن كل حظ ونصيب .

(١) ترجح أنها فى الأصل (وَسَمَّاهُمْ) فالوسم فى الاصطلاح تتعلق بالأول وهذا يتفق مع السياق .

(٢) وردت (بالعدوان) والصواب أن تكون (بالعدل) كما هو واضح .

والعدلُ أقربُ إلى التقوى ، وأجلُّوزُ أقربُ من الردى ، ويوقعُ عن قريبٍ
في عظيمِ البلوى .

قوله جل ذكره : ﴿ وعد الله الذين آمنوا و عملوا
الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم ﴾

والمغفرة لا تكون إلا للذنوب ، فوصفهم بالأعمال الصالحات ، ثم وعدهم المغفرة ليُعلم أن
العبد تكون له أعمال صالحة وإن كانت له ذنوب تحتاج إلى غفرانها ، بخلاف ما توهم من قال
إن المعاصي تحبط الطاعات .

ويقال بين أن العبد وإن كانت له أعمال صالحة فإنه يحتاج إلى عفوهِ وغفرانه ،
ولولا ذلك لهلك ، خلافاً لمن قال إنه لا يجوز أن يعذبَ البريء ، ويجب أن يشب
المحسنين^(١) .

ويقال لو كان ثوابُ المحسنين واجباً ، وعقوبةُ البريء غيرَ حسنة لكان التجاوزُ عنه
واجباً عليه ، ولم يكن حينئذ فضل يمن به عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا
أولئك أصحاب الجحيم ﴾ .

لهم عقوبتان : معجلة وهي الفراق ، ومؤجلة وهي الاحتراق .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله
عليكم إذ كنتم قومٌ يبسطوا إليكم
أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا
الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ .

يذكركم ما سلف لهم من نعم الدفع^(٢) وهو ما قصر عنهم أيدي الأعداء ، وذلك من أمارات

(١) يشير الفشيري بذلك إلى أقوال المعتزلة بوجوب إثابة المطيع ومعاقبة العاصي — على الله . فلا وجوب —
في نظره — على الله ، وإنما كل شيء منه فضل ، ولا قيمة لعمل العبد بجانب هذا الفضل .
(٢) يميز الفشيري بين نعمتين : نعمة دفع ونعمة نفع .

العناية . ولقد بالغ في الإحسان إليك مَنْ كَانَ يُظْهِرُ لَكَ الْغَيْبَ مِنْ غَيْرِ التَّمَسُّكِ أَوْ سَبْقِ شَفَاعَةِ فَيْكَ ، أَوْ رَجَاءِ نَفْعٍ مِنَ الْمُسْتَأْنَفِ ^(١) مِنْكَ ، أَوْ حَصُولِ رَيْحٍ فِي الْحَالِ عَلَيْكَ ، أَوْ وَجُودِ حَقٍّ فِي الْمُسْتَأْنَفِ لَكَ .

ثم قال : « وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ » يعني كما أحسنت إليكم في السالف من غير استحقاق فانتظروا جميل إحساني في (الغابر) ^(٢) من غير (استيجاب) ^(٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ﴾ .

يذكرهم حُسْنَ أَفْضَالِهِ مَعَهُمْ ، وَقُبْحَ (فعلهم) ^(٤) فِي مَقَابِلَةِ إِحْسَانِهِ بِنَقْضِهِمْ عَهْدَهُمْ .
وعرف المؤمنين — تحذيراً لهم — ألا يَنْزِلُوا مِنْزِلَتَهُمْ فَيَسْتَوْجِبُوا مِثْلَ مَا اسْتَوْجِبُوهُ مِنْ عِقَابِهِمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ لَنْ أَقْنِمَ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ ﴾ .

أَي لَنْ أَقْنِمَ بِحَقِّي لِأَوْصِلَنَّ إِلَيْكُمْ حِفْظَ ظَنِّكُمْ ، وَلَنْ أَجْلَتُمْ أَمْرِي فِي الْعَاجِلِ لِأَجْلَنِّي قَدْ رَكِمَ فِي الْأَجَلِ .

وإقامة الصلاة أن تشهد مَنْ تعبد به ، ولذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « اعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ » .

ويقال إقامة الصلاة شرطها أَنْ تُقْبَلَ عَلَى مَنْ تَنَاجِيهِ بِأَنْ تَسْتَقْبِلَ الْقَطْرَ الَّذِي الْكُفَّةُ فِيهِ .
وَأَمَّا إِنَاءُ الزَّكَاةِ فَحَقُّهُ أَنْ تَكْسِبَ الْمَالَ مِنْ وَجْهِهِ ، وَتَصْرِفَهُ فِي حَقِّهِ ، وَلَا تَمْنَعِ الْحَقَّ

(١) أَي مَا يُمْكِنُ أَنْ تَقْدِمَهُ مِنْ طُلُوبَاتِ الْمُسْتَعِيلِ ، فَاللهُ فَعَى عَنْهُ .

(٢) نَرْجِعُ أَنَّهَا (لِلْحَاضِرِ) حَتَّى يَنْسَجِمَ السِّيَاقُ فَإِنَّ (الْغَابِرَ) وَ (السَّالِفَ) بِمَعْنَى (الْمَاضِي) .

(٣) يَعْنِي اسْتَحْقَاقَ .

(٤) وَرَدَتْ (فَعْلُهُمْ) بِمَعْنَى زَائِدَةٍ مِنَ النَّاسِخِ .

الواجب فيه عن أهله ، ولا تؤخر الإيتاء عن وقته ، ولا تُخرج الفقير إلى طلبه فإنَّ الواجب عليك أن توصل ذلك إلى مستحقه .

وتعزير^(١) الرسل الإيمان بهم على وجه الإجلال ، واعتناق أمرهم بتمام الجِد والاستقلال ، وإيثارهم عليك في جميع الأحوال .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَقْرَضَ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ .

الأغنياء ينفقون أموالهم في سبيل الله ، والفقراء يبذلون مهجتهم وأرواحهم في طلب الله ، (فأولئك)^(٢) عن مائتي درهم يُخْرِجُونَ خَمْسَةً ، وهؤلاء لا يدخرون عن أمره نفساً ولا ذرة .

قوله جل ذكره : ﴿ لَا كِفْرَ عَنْكُمْ مِثْنَاتِكُمْ وَلَا دَخْلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ .

التكفير هو الستر والتغطية ، وإنه يستر الذنوب حتى عن (العاصي)^(٣) فيمحو من ديوانه ، وينسى الحَقْظَةَ سِوَالف عَصِيَانِهِ . وينفي عن قلبه تذكر ما أسلفه ، ولا يوقفه في العرصة على ما قدَّم من ذنبه ، ثم بعد ذلك يدخله الجنة بفضلِه كما قال : ﴿ وَلَا دَخْلَ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ ، كما قيل :

ولمنا رضوا بالعفو عن ذي زلة حتى أنالوا كفه وازدادوا

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾

فَمَنْ جَحَدَ هَذِهِ الْأَيَادِي بَعْدَ انْصَاحِهَا فَقَدْ عَدَلَ عَنْ تَهَجُّجِ أَهْلِ الْوَفَاءِ ، وَحَادَ عَنْ سَنَنِ أَصْحَابِ الْوَلَاءِ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَبِمَا تَقَضَّيْتُمْ مِثْقَالَهُمْ أَعْدَاءُكُمْ ﴾

جعل جزاء العصيان الخذلان للزيادة في العصيان .

(١) وردت (وتزعم) والصحيح (وتعزير) والوزر في اللغة الرد ومعناها هنا رددتم عنهم أعداءهم ونصرتهم .

(٢) وردت (فهؤلاء) وقد جعلناها أولئك إشارة إلى البعيد لتمييز كل فريق .

(٣) وردت (العاصي) بالميم والصواب بدونها فهكذا يتطلب السياق .

قوله جل ذكره : ﴿وجعلنا قلوبهم قاسيةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ
عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾

وتحريفهم الكلم عن مواضعه نوعٌ عصيان منهم ، وإنما حرّفوا لقسوة قلوبهم . وقسوة
القلب عقوبة لهم من قِبَلِ اللَّهِ تعالى على ما تقضوه من العهود ، وتقض العهد أعظمُ وزرٍ يلم به
العبد ، والعقوبة عليه أشدُّ عقوبة يُعاقَبُ بها العبد ، وقسوة القلب عدم التوجع مما يُمتَحَنُ به
من الصدِّ ، وعن قريبٍ يُمتَحَنُ بِمَحَنَةِ الرَّدِّ بعد الصدِّ^(١) ، وذلك غاية الفراق ، ونهاية البعد .
ويقال قسوة القلب أولها فَقْدُ الصِّفَةِ ثم استيلاء الشهوة ثم جريان الهفوة ثم استحكام
القسوة ، فإن لم يتفق إقلاع عن هذه الجملة فهو تمام الشقوة .

ومن تحريف الكلم — على بيان الإشارة — حَلُّ الكلم على وجوهٍ من التأويل مما تسوّل
لصاحبه نفسه ، ولا تشهد له دلائل العلم ولا أصله^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾

أَوَّلُ آفَاتِهِمْ نسيانهم ، وما عصوا ربهم إلا بعد ما نسا ، فالنسيان أول العصيان ،
والنسيان حاصلٌ من الخذلان .

قوله جل ذكره : ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ
إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾

الخيانة أمرها شديد وهي من الكبار أبعد ، وعليهم أشدُّ وأصعب . ومن تعود اتباع
الشهوات ، وأُشْرِبَ في قلبه حُبُّ الخيانة فلا يزال يعيش بذلك الخُلُقَ إلى آخر عمره ،
اللهم إلا أن يجودَ الحقُّ — سبحانه — عليه بجميل اللطف .

قوله جل ذكره : ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ
الْحَسَنِينَ﴾

قد يكون موجب العفو حقارة قدر المعفو عنه إذ ليس كلُّ أحدٍ أهلاً للعقاب . وللصفح

(١) من هنا نفهم أن (الرَّد) عند القشيري أقرب وأشدُّ وقفاً من (الصد) ،
(٢) هنا أصل من أصول التأويل المقبول في نظر القشيري ، وهو في الوقت نفسه يوضح صفة
في التفسير الإشاري .

على العفو مزية وهي أن في العفو رفع الجناح ، وفي الصفح إخراج ذكر الإثارة من القلب ،
فمن تجاوز عن الجاني ، ولم يلاحظه — بعد التجاوز — بعين الاستحقار والازدراء
فهو صاحب الصفح .

والإحسان تعميمٌ — للجمهور — بإسداء الفضل .

قوله جل ذكره : ﴿ ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا
ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به
فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى
يوم القيامة وسوف ينبئهم الله
بما كانوا يصنعون ﴾

الإشارة في هذه الآية أن النصارى أثبت لهم الاسم بدعواهم فقال : « قالوا إنا نصارى »
وسموا نصارى لتناصرهم ، وبدعواهم حرقوا وبدلوا ، وأما المسلمون فقال : « هو سمّاكم
المسلمين »^(١) .

كما قال : « ورضيت لكم الإسلام ديناً »^(٢) فلا جرم ألا يسموا بالتناصر . ولما سمّاكم
الحق بالإسلام ورضي لهم به ضامنهم عن التبديل فعصموا .

ولما استمكن منهم النسيان أبدلوا بالعداوة فيما بينهم ، وفساد ذات البين ، فأرباب
الفيلة لا ألفة بينهم . وأهل الوفاء لا مباينة لبعضهم من بعض ، قال صلى الله عليه وسلم :
« المؤمنون كنفس واحدة »^(٣) ، وقال تعالى في صفة أهل الجنة : « إخواناً على سرر
متقابلين »^(٤) .

(١) آية ٧٨ سورة الحج ،

(٢) آية ٢ سورة المائدة .

(٣) في رواية الإمام مسلم عن النعمان بن بشير .

المؤمنون كرجل واحد إن اشتكى رأسه اشتكى كله ، وإن اشتكى عينه اشتكى كله . . . » صحيح

مسلم ج ٤ ص ٢٧١ .

(٤) آية ٤٤ سورة الصافات .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا
يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ
مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾

وصف الرسول — صلى الله عليه وسلم — بإظهار بعض ما أخفوه ، وذلك علامة على صدقه ؛
إذ لو لا صدقه لما عرِفَ ذلك . ووصفه بالعفو عن كثير من أفعالهم ، وذلك من أمارات خلقه ؛
إذ لو لا خلقه لما فعل ذلك ؛ فأظهر ما أبداه دليل علمه ، والعفو عما أخفى برهانه جلّه .

قوله جل ذكره : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ
مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ
رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ
الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ
إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

أنوار التوحيد ظاهرة لكنها لا تغنى عند فقد البصيرة ، فمن استخلصه بتقديم العناية
أخرجه من ظلمات التفرقة إلى ساحات الجمع فاستحى عن سرّه شواهد الأغيار ، وذلك نعت
كل من وقف على الحجة المثلى .

قوله جل ذكره : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ
الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ
اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ
ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَفِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ،
وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، وَاللَّهُ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

مَنْ اشتملت عليه أرحامُ الطوامث متى يارقه نقصُ الخلقة ؟
وَمَنْ لاحت عليه شواهدُ التغيُّرِ أُنَّى يليق به نعت الربوبية ؟

ولو قَطَعَ البقاء عن جميع ما أوجد فأى نقص يعود إلى العبد ؟

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ

اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ

بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِر لِمَن يَشَاءُ

وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ، وَاللَّهُ مَلِكُ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ

الْمَصِيرُ ﴿

النبوة (١) تقتضى المجانسة ، والحقُّ عنها مُنَزَّهٌ ، والمحبةُ بين المتجانسين تقتضى الاحتفاظ والمؤانسة ، والحقُّ سبحانه عن ذلك مُقَدَّسٌ .

فردُّ الله — سبحانه — عليهم فقال تعالى : « بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ » .

وال مخلوق لا يصلح أن يكون بعضاً للقديم ؛ فالقديم لا بعض له لأن الأحدية حقه ، فإذا لم يكن له عدد لم يجز أن يكون له ولد . وإذا لم يجز له ولد لم يجز — على الوجه الذى اعتقدوه — بينهم وبينه محبة .

ويقال فى الآية إشارة لأهل المحبة بالأمان من العذاب والعقوبة به لأنه قال : « قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ » .

ويقال بين فى هذه الآية أن قصارى الخلق إمّا عذاب وإمّا غفران ولا سبيل إلى شيء وراء ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا

يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى قُرْآنٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَنْ

تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ،

قَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ

شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿

(١) وردت (النبوة) وهى خطأ فى النسخ لأن الإشارة عائدة إلى ما جاء فى الآية :
« نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ »

يقال في : كل زمان تقع فترة في سبيل الله ثم تتجدد الحال ، ويُعَمُّ الطريق بإبداء السالكين من كتم العدم ، ولقد كان زمان الرسول - صلى الله عليه وسلم - أكثر الأزمنة بركة ، فأحيا بظهوره ما اندرس من السيل ، وأضاء بنوره ما انطمس من الدليل ، وبذلك من عليهم ، وذكركم عظيم نعمته فيهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ ﴾

كان الأمر لبني إسرائيل - على لسان نبيهم - بأن يتذكروا نعمة الله عليهم ، وكان الأمر لهذه الأمة ^(١) - بخطاب الله لا على لسان مخلوق - بأن يذكروه فقال : « فاذكروني أذكركم » ^(٢) وشتان بين من أمره بذكره - سبحانه - وبين من أمره بذكر نعمته ! ثم جعل جزاء من ثوابه الذي هو فضله ، وجعل جزاء هذه الأمة خطابه الذي هو قوله تعالى : « فاذكروني أذكركم » .

قوله جل ذكره : ﴿ وَجَعَلَكُمْ مَلُوكًا ﴾

الْمَلِكُ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ مَنْ عَبَدَ لِلْمَلِكِ الْحَقِيقِيِّ .

ويقال الْمَلِكُ مَنْ مَلَكَ هَوَاهُ ، والعبد من هو في رِقِّ شهواته .

ويقال « جعلكم ملوكا » : لم يخرجكم إلى أمثالكم ، ولم يجعلكم عن أنفسكم بأشغالكم ، وسَهَّلَ إليه سبيلكم في عموم أحوالكم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَتَاكُمْ مَالٌ يَؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْمَالِينَ ﴾

لأن آتى بني إسرائيل بمقتضى جوده فقد أغنى عن الإتياء هذه الأمة فاستقلوا بوجوده ، والاستقلال بوجوده أتم من الاستغناء بمقتضى جوده .

(١) يقصد أمة المصطفى صلى الله عليه وسلم .

(٢) آية ١٥٢ سورة البقرة .

قوله جل ذكره : ﴿ يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة
التي كتب الله لكم ﴾

من الفرق بين هذه الأمة وبين بني إسرائيل أنه أباح لهم دخول الأرض المقدسة على الخصوص
فقال : « يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم » ثم إنهم لم يدخلوها إلا بعد مدة ،
وبعد جهد وشدة ، وقال في شأن هذه الأمة « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض
يرثها عبادي الصالحون »^(١) فأولئك كتب لهم دخول الأرض كتابة تكليف ثم قصرُوا ،
وهذه الأمة كتب لهم جميع الأرض على جهة التشریف ، ثم وصلوا إلى ما كتب لهم وما قصرُوا .
وقال : « ادخلوا الأرض المقدسة » وقال لهذه الأمة : « هو الذي جعل لكم
الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه »^(٢) فهؤلاء ذلل لهم وسهل عليهم ،
وأولئك صعب عليهم الوصول إلى ما أمرهم فيها أنزل الله عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تتردوا على أديباركم فتنقلبوا
خاسرين ﴾

الارتداد على قسمين : عن الشريعة وإقامة العبودية وذلك يوجب عقوبة النفوس بالقتل ،
وعن الإرادة وذلك يوجب الشقوة — التي هي الفراق — على القلوب .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين
وإننا لن ندخلها حتى يخرجوا منها
فإن يخرجوا منها فإننا داخلون ﴾

لاحظوا الأغيار بعين الحساب فتوهموا أن شيئاً من الحداث ، وداخلتهم هواجم الرعب
فأصروا على ترك الأمر . ومن طالع الأغيار بأنوار البصائر شاهدتهم في أسر التقدير قوالب
متعربة عن إمكان الإيجاد ، ولم يقع على قلبه ظل النوم .

قوله جل ذكره : ﴿ قال رجالان من الذين يخافون أنعم

(١) آية ١٠٠ سورة الأنبياء .

(٢) آية ١٥ سورة المائدة .

اللهُ عليهما ادخلوا عليهم الباب
فإذا دخلتموه فإنكم غالبون *

أنعم الله (عليهما) ^(١) بأنوار العرفان فلم يحتشما من المخلوقين ، وعلمنا أن من رجع إليه
بنعت الاستكفاء تداركته عواجل الكفاية ثم قال :

(وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين)

أى من شأن المؤمنين أن يتوكلوا ، وينبغى للمؤمن أن يتوكل .

ويحتمل أن يقال التوكل من شرط الإيمان . وظاهر التوكل الذى لعوام المؤمنين العلم بأن
قضاءه لا راد له ، وحقائق التوكل ولطائفه التى لخواص المؤمنين شهود الحادثات بالله ومن الله
ولله ، فإن من فقد ذلك انتفى عنه اسم الإيمان .

قوله جل ذكره : * قالوا يا موسى إنا لن نخلقها أبداً

ماداموا فيها *

من أقصته سوابق التقدير لم يزد تواتر (العظة) ^(٢) إلا نفوراً وجحوداً .

قوله جل ذكره . * فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا

قاعدون *

تركوا آداب الخطاب فصروا بيان الجحد ولم يحتشوا من مجاهرة الرد .

قوله جل ذكره * قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي

فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين *

لما ادعى أنه يملك نفسه عرف عجزه عن ملكه لنفسه حيث أخذ برأس أخيه
يجرّه إليه .

ويقال . لا أملك إلا نفسي أى لا أدخرها عن البذل فى أمرى . لا أملك إلا أخى فإنه
لا يؤثر نفسه عن الذى أكلفه من قبيلك .

(١) (عليهما) زيادة أضفناها ليتضح المعنى .

(٢) وردت (العظة) والمعنى يرفضها ويتطلب (العظة) التى وردت فى الآيات السابقة .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُخِرمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً

يَتِيمُونَ فِي الْأَرْضِ ، فَلَا تَأْسَ عَلَى

الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

مجاهرة الرد تعجل العقوبة ؛ فإن من ما كرّر الحقيقة أبدت الحقيقة له من مكان التقدير ما يُلجِئُهُ إلى التطوُّح في أوطان الذُلِّ .

ويقال حيرهم في مفاوزهم حتى عموا عن القصد ؛ فصاروا يبيتون حيث يصبحون ، بعد طول التعب وإدانة السير ، وكذلك من حيرهُ الله في مفاوز القلب يتقلب ليلاً ونهاراً في مطارح الظنون ثم لا يحصل إلا على مناهل الخيرة ، فيحطون بحيث يرحلون عنها ، فلا وجه للرأى الصائب يلوح لهم ، ولا خلاص من بعده للتجويز يساعدهم ، والذي التجأ إلى شهود العسدية استراح عن ثقله فكره ، ووقع في رُوح الاستبصار بعد أتعاب التوهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ

قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ

يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ﴾ .

كانت الدنيا مجذافيرها في أيديهما فحسد أحدهما صاحبه ، فلم يصبر حتى أسرع في شيء بائتلافه ، وحين لم يُقبلُ قربانه اشتد حسده على صاحبه ، ورأى ذلك منه فهدّده بالقتل . فأجابه بنطق التوحيد .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

يعنى إِنَّمَا يُتَقَبَّلُ الْقُرْبَانُ مِنْ^(١) طالع في قربان مساعدة القدرة ، وألقى توهم كونه باستحقاقه واستيجابه .

قوله جل ذكره : ﴿ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَى يَدِّكَ لَتَقْتُلَنِي مَا أَنَا

بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي

أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

(١) وردت (من) وهي خطأ في النسخ .

لئن بدأتني بالإثارة^(١) لم أقابلك كأوصاف أهل الجهل بل أكلُ أمرى إلى من بيده
مقاليد الأمور .

قوله جل ذكره : ﴿إني أريد أن تبوءاً بإثمي وإثمك
فتكون من أصحاب النار وذلك
جزاء الظالمين﴾ .

نحقق بأن العقوبة لا حجة به على ما يسلفه من الذنب فرضى بانتقام الله دون
انتقامه لنفسه .

وقوله : « أن تبوء بإثمي وإثمك » الذي تستوجه بسبب قتلك إياي ، فأضافه إلى نفسه ،
وإذا رأى المظلوم ما يحل بالظالم من أليم البلاء يهون عليه ما يقاسيه ويطيب قلبه .

قوله جل ذكره : ﴿فطوَّعتُ له نفسه قتل أخيه فقتله
فأصبح من الخاسرين﴾ .

لا تستولي هواجس النفوس على صاحبها إلا بعد استتار مواعظ الحق ، فإذا توالى
العزائم الرديئة ، واستحكمت القصور الفاسدة من العبد صارت دواعي الحق خفية مغشورة .
والنفس لا تدعو إلا (إلى)^(٢) اتباع الشهوات ومتابعة المعصية^(٣) ، وهي مجبولة
على الأخلاق المجوسية . فمن تابع الشهوات لا يلبث أن ينزل بساحات الندم ثم لا ينفعه ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿فبعث الله غراباً يبحث في الأرض
ليريه كيف يوارى سوءة أخيه قال
يا ويلنا أعجزت أن أكون مثل هذا
الغراب فأواري سوءة أخى فأصبح
من النادمين﴾ .

١ . وردت (الإشارة) والملائم أن تكون (الإثارة) .

٢ . سقطت (إل) من الناسخ والمعنى يستلزمها .

٣ . وردت (المعصية) ولا معنى لها هنا وإنما الملائم (المعصية) .

إرادة الحق — سبحانه — وصولُ الخلقِ إلى لطف الاحتياط في أسباب التعيش ، فإذا أشكل عليهم وجهٌ من لطائف الحيلة سبَّب الله شيئاً يُعرِّفهم ذلك به .

قوله جل ذكره ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لُمْسِرُونَ ﴾ .

هذا قريب مما قال النبي صلى الله عليه وسلم :

« من سنَّ حسنةً فله أجرُها وأجرُ من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سنَّ سيئةً فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة »^(١) .

قوله جل ذكره : « إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

السعي في الفساد على ضربين : بالظاهر وعقوبته معلومة في مسائل الفقه بلسان العلم ، وفي الباطن وعقوبته واردة على الأسرار ، وذلك بقطع ما كان متصلاً من واردات الحق ، وكسوف شمس العرفان ، والستر بعد الكشف ، والحجاب بعد البسط . والحجاب استعمار

(١) في رواية مسلم عن جرير بن عبد الله : (. . من سنَّ في الإسلام سنة حسنة فعمل بها كتب له مثل أجر من عمل بها ولا يتقص من أجورم شيئاً ، ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعدد كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا يتقص من أوزارم شيئاً) ٤٠ ص ٢٠٥٩ طبع الحلبي .

الوحشة بعد الأُنس ، وتبديل توالي التوفيق بصنوف الخذلان ، والنفي على بساط العبادة^(١) .
والإخراج إلى متابعة النفوس ، وذلك — والله — خِزْيٌ عظيم وعذابٌ أليم .

قوله جل ذكره : ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا

عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

من أقلع عن معاصيه ، وارتدع عن ارتكاب مساويه ، قبل أن يهتك عنه ستر السداد
لا تقام عليه — في الظاهر — حدودُ الشريعة لاشتباهاها على الإمام ، ولا يؤاخذ الحق سبحانه
بقضايا إجرامه أخذاً بظاهر ما يثبت من حاله مآله في استيجاب السداد ، فإذا بدا للإمام^(٢)
جُرْمُهُ أَقْبَمَ عَلَيْهِ الْحَدُّ وَإِنْ تَقَنَّعَ بِنِقَابِ التَّقْوَى .

وكذلك إذا سقط العبد عن عين الله لم يصل بعده إلى ما كان عليه من معارضة تقرب
الحق — سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا

إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ

لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾

ابتغاء الوسيلة التبري عن الحول والقوة ، والتحقق بشهود الطول والمنة .

ويقال ابتغاء الوسيلة هو التقريب إليه بما سبق لك من إحسانه .

ويقال الوسيلة ما سبق لك من العناية القديمة .

ويقال الوسيلة اختياره لك بالجميل .

ويقال الوسيلة خلوص (العقد)^(٣) عن الشك .

ويقال ابتغاء الوسيلة استدامة الصدق في الولاء إلى آخر العمر .

ويقال ابتغاء الوسيلة تجريد الأعمال عن الرياء ، وتجريد الأحوال عن الأعجاب ، وتخليص

النفس عن الحفظ .

(١) أي الإخراج من نطاق الإرادة إلى نطاق العبادة .

(٢) وردت (للايمان) وهي خطأ في النسخ إذ الإمام هو الذي يقيم الحد .

(٣) وردت (العقد) وربما كانت (العقل) فهو الذي يصاب بآفة الشك ، وكلاماً مقبول في الحديث .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ
جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوهُ مِنْ عَذَابِ
يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تَقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

اليوم — يقبل من الأحباب مثقال ذرة ، وغداً — لا يقبل من الأعداء ملء الأرض
ذهباً ، كذا يكون الأمر .

ويقال إفراط العدو في التقرب موجبٌ للعنت ، وتستر الولي^(١) في التودد إحكامٌ
لأسباب الحب .

قوله جل ذكره : ﴿ يَرِيدُونَ أَن يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا
يُخَارَجُونَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾

كما أن الأعداء لا يغيص لهم من النار كذلك المبعثون عن التوفيق كلما أرادوا إقلاعاً
عن التهنك أدركهم — من فجأة الخذلان — ما يركسهم في وهدة العناء .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا
جِزَاءً بِمَا كَسَبَا ، نَكَالاً مِنْ اللَّهِ ،
وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

لو أن ولياً من الأولياء سرق نصاباً من جرّة ، ووجد فيه استحقاق القطع ، أقيم عليه
الحدُّ كما يقام على المتهنك ، ولا يسقطُ الحدُّ لصلاحه . والإشارة فيه أن أمرَ الملك مُقابلٌ
بالتمظيم ، بل كل من كان أعلى رتبةً فخطرُه أتمُّ وأخفى ، والمطالبةُ عليه أشدُّ^(٢) . فلا يستخفنَّ
أحدُ الإمام بركةً ونحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ

(١) وردت (المولى والصواب أن تكون (المولى) ضد (العدو) حسبما نعرف من أسلوب القشيري

(٢) لأن أصحاب الرتبة الكبيرة بهم اقتداء ؛ فطبيهم وزرم ووزر من تبعهم .

فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنْ اللَّهُ
غَفُورٌ رَحِيمٌ *

من استوفى أحكام التوبة فتدأرك ما ضيعه ، ونعم على ما صنعته ، وأصلح من أمره
ما أفسده — أقبل الله عليه بفضله فغفره ^(١) ، وعاد إليه باللفظ فجبره .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ
لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

بَيَّنَّ أَنَّهُ لَا يُعَذِّبُ مَنْ يَعْذِّبُ بَعْلَةً ، وَلَا يَرْحَمُ مَنْ يَرْحَمُ بَعْلَةً ، وَإِنَّمَا يَتَصَرَّفُ فِي عِبْدِهِ
بِحَقِّ مُلْكِهِ ، وَأَنَّ الْحُكْمَ حُكْمُهُ ، وَالْأَمْرَ أَمْرُهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ
يَسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا
آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ
الَّذِينَ هَادُوا سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَاعُونَ
لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ بِحُرْفٍ وَلَا كَلِمَةٍ
مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ
هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ،
وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ
مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ﴾

مَنْ أَقْصَاهُ الْحَقُّ عَنْ مَحَلِّ التَّقَرُّبِ ، وَأَرْخَى لَهُ عَنَانَ الْإِمْهَالِ وَكَلَّهُ إِلَى مَكْرِهِ ، وَلَبَسَ
عَلَيْهِ حَالَهُ وَسِرَّهُ ، فَهُوَ يَنْهَمُكَ فِي أَوْدِيَةِ حَسْبَاتِهِ ، وَإِنَّمَا يَسْعَى فِي أَمْرِ نَفْسِهِ فَيَعْمَلُ بِمَا يَعُودُ
إِلَيْهِ وَبِإِلَهِهِ ، فَأَمَرَ نَبِيِّهِ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — بِتَرْكِ الْمَبَالَاةِ بِأَمْسَالِهِمْ ، وَقَلَّةِ الْإِهْتِمَامِ
بِأَحْوَالِهِمْ ، وَعَرَّفَهُ أَنَّهُمْ بِمَعْزِلٍ عَنْ رَحْمَتِهِ ؛ وَإِنْ مَنْ رَدَّتْهُ الْقَسَمَةُ الْأَزَلِيَّةُ لَا تَنْفَعُهُ الْأَعْلَالُ

(١) هغره أى غطاء وستر خطاياهم .

في الاستقبال ، فقال : « ومن يرد الله فتنه قلن تملك له من الله شيئاً » يعنى إن أهله الله للحرمان ، وقيدته بشباك الخلدان فشغاعة الأغيار فيه غير مقبولة ، ولطائف القبول إليه غير موصولة .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك الذين لم يرد الله أن
يطهر قلوبهم ﴾

أولئك الذين لم تعجن طينتهم بما السعادة فحببوا على نجاسة الشرك فإن عدم الطهارة الأصلية لا يتنقى بفنون للمعاملات .

ويقال : « من يرد الله فتنه » : مَنْ أرسل عليه غاغة الهوى ، وسلط عليه نوازع المني ، وأذله (. . .)^(١) القضاء ، فليس يلقى عليه غير الشقاء .

قوله جل ذكره : ﴿ لهم في الدنيا خزيٌ ولهم في الآخرة
عذابٌ عظيم ﴾

وَرَدُّوا من الهوان إلى الهوان ، ووَعِدُوا بالفراق ، وَرُدُّوا إلى الاحتراق ، فلا تدرى
أى حالهم أقرب من استيعاب الفل ؟ بدايتهم في الرد أم نهايتهم في الشرك والجحد ؟

قوله جل ذكره : ﴿ مماعون للكنب أكالون للشفث

فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض

عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك

شيئاً وإن حكمت فاحكم بينهم

بالتسط إن الله يحب المتسطين ﴾

يعنى إنهم طرحوا حشمة الدين ، وقنعوا بالخطوط الخسيسة واكتفوا (بالأعواض)^(٢)

(النذرة)^(٣) ، فإذا نجا كوا إليك فأحلبهم من حلك على ما يستحق أمثالهم من (الأزال)^(٤) ،

(١) مشبهة .

(٢) الأعواض جمع عوض وربما كانت في الأصل (الأعراض) جمع محرض ، وكلاماً مقبول .

(٣) (النذرة) أى القليلة الهينة ولا نستبعد أنها (العنلة) أى الخسيسة وعند ذلك تكون الكلمة

التالية رقم (٤) الأنزال جمع نذل ، وليس بمسبغ أن تكون الأزال أى الإحلال فيكون السياق

(فأحلبهم من حلك على ما يستحق أمثالهم من الإحلال = الأزال . من قولهم خللت بالكان أى زلت به) .

وربما كان المقصود بالأزال ما سبق لهم من القسمة .

وَأَنْتَ مُخَيِّرٌ فِيهَا تَرِيدُ ؛ فَسِوَاهُ أَقْبَلْتَ عَلَيْهِمْ فَحَكَمْتَ أَوْ أَعْرَضْتَ فَرَدَدْتَ فَالْإِخْتِيَارُ لَكَ .
قوله : « إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُقْسَطِينَ » : الإِقْسَاطُ الْوُقُوفُ عَلَى حَدِّ الْأَمْرِ مِنْ غَيْرِ
(حَنْفٍ)^(١) إِلَى الْحِظِّ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ
فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾

يعنى أنهم قارفوا الجحد ، وأصرُّوا على الغي ، وتعودوا الإعراض عن الإيمان ،
فحتى تؤثر فيهم دعوتك ، وقد سُدَّتْ مسامعهم عن القبول ، وطُبِعَ على قلوبهم
سابقُ الحكم ؟

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ
يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ
هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا
اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا
عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴾ .

يخبر أنه استحفِظَ بنى إسرائيل التوراة فخرَّفوها ، فلما وَكَلَّ إليهم حفظها ضيَعوها .
وأما هذه الأمة فخصَّهم بالقرآن ، وتولَّى — سبحانه — حفظه عليهم فقال : « إِنْ أَنْفَكْنَا
نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ »^(٢) فلا جرم لو غيَّرَ واحدٌ حركةً أو سكوناً من القرآن لنادى
الصبيان بتخطيئه .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ وَخَشَوِ اللَّهَ ﴾ .
إِنَّ الْخَلْقَ تَجْرَى عَلَيْهِمْ أَحْكَامُ الْقُدْرَةِ وَأَقْسَامُ التَّصْرِيفِ ؛ فَالْخَشْيَةُ مِنْهُمْ فَرْعٌ مِنَ الْحَالِ ،
فَإِنْ مِنْ لَيْسَ لَهُ شَغْلِيَّةٌ مِنَ الْإِيجَادِ فَأَتَى تَصَحُّهُ مِنْهُ الْخَشْيَةُ ۚ

(١) حنف — ميل وليس بمسبغد أن تكون في الأصل (حيف) إلى الحظ وكلاما مقبول .

(٢) آية ٩ سورة الحجر

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ
يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ
هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ .

لَا تَأْخُذُوا عَلَى جَعْدٍ^(١) أُولِيَاءِي وَالرُّكُونَ إِلَى مَا فِيهِ رِضَاءُ أَعْدَائِي عِوَضًا بِسِيرًا فَتَبَقُوا
بِذَلِكَ عَفَى ، وَلَا يُبَارَكُ لَكُمْ فِيهَا تَأْخُذُونَ مِنَ الْعِوَضِ .

« وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ . . . » فَمَنْ أَخَذَ بِغَيْرِهِ حَكْمًا ، وَلَمْ يَجِدْ — نَحْتِ جَرِيَانِ حَكْمِهِ —
رِضَى وَاسْتِسْلَامًا^(٢) فِي شِرْكِهِ خَامِرًا قَلِيلًا ، وَكَفَرٍ قَارَنَ سِرِّهِ . وَهِيَآتُ أَنْ يَكُونَ عَلَى سَوَاءٍ !
قوله جل ذكره : ﴿ وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ

وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ
بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ
بِقِصَاصٍ ، فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ
لَهُ ، وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ
فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

بَيِّنُ أَنْ اعْتِبَارَ الْعَدَالَةِ كَانَ حَتْمًا فِي شَرْعِهِمْ ، وَلَمَّا جَنَحُوا إِلَى التَّضْيِيعِ اسْتَوْجِبُوا الْمَلَامَ .
« فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ » ، يَعْنِي فَمَنْ آثَرَ تَرْكَ مَالِهِ بِاعْتِنَاقِ الْعُقُومِ لَمْ يَخْسِرْ عَلَيْنَا بِاسْتِجَابِ
الشُّكْرِ ، وَمَنْ أَبَى إِلَّا تَمَادِيًا فِي إِجَابَةِ دَوَاعِي الْهَوَى فَهُمْ الَّذِينَ وَضَعُوا الشَّيْءَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ ؛
أَيَّ اسْتَبَدَلُوا بِلِزُومِ الْحَقَائِقِ مُتَابِعَةً الْحُظُوظِ ، وَبِإِثَارِ الْغَتْوَةِ مُوَافَقَةً الْبُشْرِيَّةِ^(٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ
مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ

(١) وَرَدَتْ (جَعْد) بِالْهَاءِ وَالْمَلَامُ أَنْ تَكُونَ (جَعْد) فَهَكَذَا تَشِيرُ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ ، وَكَذَلِكَ السِّيَاقُ ؛
إِنْ رِضَاءُ الْأَعْدَاءِ بِقَابِلِهِ جَعْدُ الْأَوْلِيَاءِ .

(٢) وَرَدَتْ (وَاسْتِسْلَامًا) وَالصَّوَابُ (اسْتِسْلَامًا) أَيَّ أَيِّ اعْتِبَادًا وَطَاعَةً .

(٣) لِأَنَّ مِنْ عَنَاصِرِ الْغَتْوَةِ — عِنْدَ الصُّوفِيَةِ — الْبَذْلَ وَالْإِثَارَ وَالتَّضْعِيقَ

وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ
وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ
وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١﴾

يعنى أتبعناهم بعيسى ابن مريم ، وخصصناه بالإنجيل ، وفى الإنجيل تصديق لما تقدمه ،
وتحقيق لما أوجب الله وألزمه ، فلا الدينَ قضوا حقه ، ولا الإنجيل عرفوا فرضه ، ولا الرسول
حفظوا أمره ؛ ففسقوا وضلوا ، وظلموا وزلوا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَنَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ
فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ
هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ .

قال الله تعالى فى هذه السورة ^(١) : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون »
وقال فى موضع آخر « ... فأولئك هم الظالمون » وقال فى هذه الآية « ... فأولئك هم الفاسقون »
أما فى الأول فقال : « ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً . . . فأولئك هم الكافرون » لأن من لم
يحكم بما أنزل الله فهو جاحد والجاحد كافر .

وفى الثانى قال : « وكتبنا عليهم أن النفس بالنفس فأولئك هم الظالمون »
لأن من جاوز حد القصاص واعتبار المائلة ، وتعدى على خصمه فهو ظالم لأنه ظلم بعضهم
على بعض .

وأما هاهنا فقال : « وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون »
أراد به معصية دون الكفر والجحد ^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأُنْزِلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ
مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ
وَمُهَيِّئًا عَلَيْهِ ﴾

(١) وردت فى هذه (الآية) والصواب أن تكون (السورة) لأن التشىري التى نظرة شاملة على آية
واحدة ذات نهايات شتى فى السورة كلها .
(٢) وهذه هى المتزلة بين الكفر والإيمان — كما يسميها بعض علماء الكلام .

قدّم تعريفه — صلى الله عليه وسلم — قصص الأولين على تكليفه باتباع ما أنزل الله عليه لئلا يسلك سبيل من تقدّمه فيستوجب ما استوجبوه .

قوله جل ذكره : ﴿ فاحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً ، ولو شاء الله لجعلكم أمةً واحدةً ، ولكن لئبلوكم فيما آتاكم ﴾

لا تملكك مودة قريب أو حميم ، واعتنق ملازمة أمر الله — تبارك وتعالى — بترك كل نصيب لك .

ثم قال : « لكل جعلنا شرعةً ومنهاجاً » ، يعني طريقةً وسنةً ؛ أى أفردنا كل واحدٍ منكم — معاشر الأنبياء — بطريقة ، (وأماً^(١)) أنت فلا يدانيك في طريقتك أحد ، وأنت المقدم على الكافة ، والمفضل على الجملة ، ولو شاء الله لسنوى مراتبكم ، ولكن غير بينكم ابتلاءً ، وفصلٌ بعضكم على بعض امتحاناً .

قوله جل ذكره : ﴿ فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾

مسارعة كل أحدٍ على ما يليق بوقته ؛ فالعابدون تقدمهم من حيث الأوراد ، والعارفون همهم من حيث المواجد^(٢) .

ويقال استباق الزاهدين برفض الدنيا ، واستباق العابدين بقطع الهوى ، واستباق العارفين بنفى النوى ، واستباق الموحدين بترك الوردى ، ونسيان الدنيا والمعنى .

(١) وردت (ولما) وهى خطأ فى النسخ

(٢) وقع النسخ فى تكرار عبارة (والعارفون ..) غذفناها

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ
اللَّهُ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ
أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ
اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾

قُمُ بِاللَّهِ فِيما تَحْكُم بَيْنَهُمْ ، وَأَقِمْ حَقُوقَهُ فِيما تُؤَخِّرُ وَتَقْدِمُ ، وَلَا تَلَاخِظْ الْأَغْيَارَ فِيما
(تُؤْثِرُ) (١) أَوْ تُذَرِّ ، فَإِنِ الْكُلُّ مَحْوٌ فِي التَّحْقِيقِ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ
أَن يَصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ، وَإِنَّ
كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴾

يعنى (عظهم) (٢) بلسان العلم فإنَّ أبَوًا قبولاً فشاهدتهم بعين الحكم . ويقال : أشدُّدُ
عليهم باعتناق لوازم التكليف ، فإنَّ أَعْرَضُوا فَمَآيَنَهُمْ بِعَيْنِ التَّصْرِيفِ ؛ فَإِنَّ الْحَقَّ
— سبحانه — بشرط التكليف يلزمهم ؛ وبحكم التصريف يؤخِّرهم ويقدمهم ، فالتكليف
فيما أوجب ، والتصريف فيما أوجد ، والعبرة بالإيجاد والإيجاب .

قوله جل ذكره : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ، وَمَنْ
أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِّلْقَوْمِ
يُوقِنُونَ ﴾

أَيُودُونَ فِي ظِلْمَةِ الْحِجَابِ وَوَحْشَةِ الْإِتِّبَاسِ بَعْدَ مَا سَطَعَ فَجْرُ الْعِرْفَانِ ، وَطَلَعَتْ شَمْسُ
التَّحْقِيقِ ، وَانْهَتَكَ أَسْتَارُ الرِّيبِ ؟

وَيَقَالُ أَيُطْلَبُونَ مِنْكَ أَنْ تُجِيدَ عَنِ الْمَحَبَةِ الْمَثَلِيَّ ، وَقَدْ اتَّضَحَتْ لَكَ الْبَرَاهِينُ
وَتَجَلَّى الْيَقِينُ ؟

وَيَقَالُ أَيُطْمَعُونَ فِي اسْتِثَارِ الْحَقَائِقِ فِي السَّرَائِرِ وَقَدْ تَجَلَّتْ شَمْسُ الْيَقِينِ ؟

(١) وردت (تؤثر) بالشين وهى خطأ فى النسخ
(٢) وردت (عظهم) بزيادة ميم وهى خطأ فى النسخ .

ويقال أتُحسبون أن (. . .)^(١) ظلمة الشك لها سلطان ، وقد مَتَّعَ نهارُ الحقائق^(٢) :
... كلاً ، فإن ذلك محال .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ
وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ
وَمَن يَتَوَلَّمْ مِنْكُم فَأِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

لا تَجْنَحُوا إِلَى الْمَوَالَةِ مَعَ أَعْدَائِهِ — صِبْغَانِهِ — إِيثَاراً لِلسُّكُونِ إِلَى الْحِظِّ ، أَوْ احْتِشَاماً
مِنَ الْقِيَامِ لِلْحَقِّ ، أَوْ رُكُوناً إِلَى قَرَابَةِ نَسَبٍ ، أَوْ اسْتِحْقَاقاً لِمُدَّةِ حَيِّمٍ ، أَوْ تَهِيَّباً مِنْ اسْتِحْشَاشِ
صَدِيقٍ . بل صَمَمُوا عَقُودَكُمْ عَلَى التَّبَرُّيِّ مِنْهُمْ بِكُلِّ وَجْهٍ فَهُمْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَالضَّدِيَّةُ
بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ قَائِمَةٌ إِلَى الدِّينِ^(٣) . « وَمَن يَتَوَلَّمْ مِنْكُم » التَّحَقُّقُ بِهِمْ ، وَانْخِرَاطُ فِي سِلْكِهِمْ ،
وَعُدٌّ فِي جَمَلَتِهِمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ
يَسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ
تَصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ
بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا
عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾
ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين
أقسموا بالله جهنم إيمانهم إنهم لكم
حيطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين ﴾

(١) مشقبة

(٢) متوع النهار اصطلاح صوفي يتحدث القشيري عنه في مواضع أخرى من هذا الكتاب ضمن اللوائح
واللوامع والطوالع .

(٣) قائمة إلى الدين أي راجعة إلى اختلاف دينهم عنكم ، وربما سقطت من النسخ كلمة يوم قبل (الدين)
فيكون المعنى : إن العداوة بينكم وبينهم قائمة دائمة إلى يوم الدين .

يعنى إن الذين سقمت ضمائرهم ، وضعت في التحقيق بصائرهم تسبق إلى قلوبهم مداراة^(١) الأعداء خوفاً من معاداتهم ، وطمعاً في المأمول من محبتهم ، ولو استيقنوا أنهم في أسر العجز وذل الإعراض ونفى الطرد لأملوا الموعود من كفاية الحق ، والمعهود من جميل رعايته ، ولكنهم حجبوا عن محل التوحيد ؛ ففترقوا في أودية الحسبان والظنون ، وعن قريب يأتبكم الفرج — أيها المؤمنون ، وتُرزقون الفتح بحسن الإقبال ، والظفر بالمستول لسابق الاختيار ، فيشعرون الندم ، ويقاسون الألم ، وأنتم (تعلمون)^(٢) رؤوسكم بعد الإطراق ، وتصفون لكم مشارب الإكرام ، وتضيء بزواهر القرب مشارق القلوب . حينئذ يقول الذين آمنوا هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم ليعينون بأبصارهم ما تحقوه بالغيب في أسرارهم ، ويصلون من موعودهم إلى ما يوفى ويربو على مقصودهم .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ .

جعل صفة من لا يرتد عن الدين أن الله يحبه ويحب الله ، وفي ذلك إشارة عامة للمؤمنين لأنه يجب أن يُعلم أن من كان غير مرتد فإن الله يحبه . وفيه إشارة دقيقة فإن من كان مؤمناً يجب أن يكون لله محباً ، فإذا لم تكن له محبة فالخطر بصحة إيمانه . وفي الآية دليل على جواز محبة العبد لله وجواز محبة الله للعبد .

ومحبة الحق للعبد لا تخرج عن وجوه : إما أن تكون بمعنى الرحمة عليه أو بمعنى اللطف والإحسان إليه ، والمدح والثناء عليه .

أو يقال إنها بمعنى إرادته لتقريبه وتخصيص محله .

وكما أن رحمته إرادته لإنعامه فمحبتة إرادته لإكرامه ، والفرق بين المحبة والرحمة على هذا القول أن المحبة إرادة إنعام مخصوص ، والرحمة إرادة كل نعمة فتكون المحبة أخص من الرحمة ،

(١) وودت (هراة) ، وبالرجوع إلى كتب التفسير ساعدتنا على اختيار (مداراة) (انظر تفسير وجدى) .

(٢) وودت (تعلمون) والملائم أن تكون (تعلمون) رؤوسكم بعد الإطراق .

واللفظان يعودان إلى معنى واحد فإن إرادة الله تعالى واحدة وبها يريد سائر مراداته ، وتختلف أسماء الإرادة باختلاف أوصاف المتعلق .

وأما محبة العبد لله — سبحانه — فهي حالة لطيفة يجدها في قلبه ، وتحمله تلك الحالة على إيثار^(١) موافقة أمره ، وترك حفظ نفسه ، وإيثار حقوقه — سبحانه — بكل وجه .
وتحصل العبارة عن تلك الحالة على قدر ما تكون صفة العبد في الوقت الذي يعبر عنه ؛ فيقال المحبة ارتياح القلب لوجود المحبوب ، ويقال المحبة ذهاب الحجب بالكلية في ذكر المحبوب ، ويقال المحبة خلوص المحب لمحبه به بكل وجه ، والمحبة بلاء كل كريم ، والمحبة نتيجة الهمة فمن كانت منه أعلى فحبته أصنى بل أوفى بل أعلى

ويقال المحبة سُكْرٌ لا صحوّ فيه ودَهَشٌ في لقاء المحبوب يوجب التعطّل عن التمييز ، ويقال المحبة بلاء لا يُرَجَى شفاؤه ، وسقام لا يعرف دواؤه . ويقال المحبة غريمٌ يلازمك لا يبرح ، ورفيقٌ من المحبوب يستوفى له منك دقائق الحقوق في دوام الأحوال ، ويقال المحبة قضية توجب المحبة ؛ فحبة الحق أوجبت محبة العبد^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ يَجِبُهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

لولا أنه يحبهم لما أحبوه ، ولولا أنه أخبر عن المحبة فأنّى تكون للطينة ذِكْرُ المحبة ؟ ثم بين الله تعالى صفة المحبين فقال « أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ » . يبدلون المهنج في المحبوب من غير كراهة ، ويبذلون الأرواح في الذب عن المحبوب من غير ادخار شظية من اليسور .

(١) وردت خطأ (إيسار) بالسين

(٢) كلام القشيري في المحبة هنا لا يكاد يختلف كثيراً عن كلامه عنها في (الرسالة)

ثم قال تعالى في صفتهم : « يجاهدون في سبيل الله » أى يجاهدون بنفوسهم من حيث استدامة الطاعة ، ويجاهدون بقلوبهم بقطع المنى والمطالبات ، ويجاهدون بأرواحهم بحذف العلاقات ، ويجاهدون بأسرارهم بالاستقامة على الشهود في دوام الأوقات .
ثم قال : « لا يخافون لومة لائم » أى لا يلاحظون نُصَحَ حميم ، ولا يركنون إلى استقلال حكم ، ولا يمنحون إلى حظ ونصيب ، ولا يزيغون عن سَنَنِ الوفاء بحال .
ثم بين — سبحانه — أن جميع ذلك إليه لا منهم فقال : « وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسعٌ عليم » متفضلٌ عليهم يَمُنُّ بِمَنْ يَخُصُّ بذلك من عباده .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾

الولى أى الناصر ، ولا موالاة بين المؤمنين وبين أعداء الحق — سبحانه — . فأعداء الحق هم أعداء الدين .
و « إنما » حرفٌ يقتضى أن ما أعداء بخلافه ، وأعدى عدوك نفسك — كما فى الخبر —
وَمَنْ عَادَى نَفْسَهُ لَمْ يَخْرُجْ بِالْمُخَاصَةِ عَنْهَا مَعَ الْخَلْقِ وَالْمَعَارِضَةِ فِيهَا مَعَ الْحَقِّ (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾

الفائزون على حظوظهم الذين هم خصم للحق على أنفسهم لا خصم لأنفسهم على مولاهم ، والغلبة بالحجة والبرهان دون اليد .
ويقال من قام لله بصدق انخنس دونه كلُّ مُبْطِل . ويقال إذا طلعت أنوار الحق أدبر ليل أهل الباطل .

(١) أى إن من خاصم نفسه لم تتم بينه وبين الناس ولا بينه وبين الحق خصومة من أجل نفسه فقد انتفت حظوظها بالكلية وأسلها لربه بلا معارضة .

قوله جل ذكره : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبَآئِ مَنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمُ وَالْكَفَّارُ أَولِيَاءُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُم مَّؤْمِنِينَ﴾

نَبِّهَهُمْ عَلَى وَجوب التحيز عنهم والتميز منهم ، فَإِنِ المخالف في العقيدة لَا يكون موافقاً في الحقيقة .

ويقال أَمَرَهُم بِأَن يلاحظوهم بعين الاستصغار كما لاحظوا دين المسلمين بعين الاستحقار .

قوله جل ذكره : ﴿وَإِذَا نَادَيْتُم إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُوءًا وَلَعِبَآئِ ذَلِكَ بَأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾

الأذانُ دعاءٌ إلى محلِّ النجوى ، فَمَنْ تَحَقَّقَ بِعَلْوِ المحلِّ فسمعَ الأذانَ يوجب له رُوحَ القلب واسترواح الروح ، ومن كان محجوباً عن حقيقة الحال لاحظَ ذلك بعين اللعب وأدركه بسمع الاستهزاء ، وذلك حكمُ الله : غَيْرَ بين عباده على ما يشاء .

قوله جل ذكره : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِبُونَ مِنَّا إِلَّا أَن آَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾

مالنا عندكم عيبٌ إلا أننا نتحققنا أننا محو في الله ، (وَأَنَّ الكائنات حاصلة بالله ولا تتقن أثرًا سوى الله في الله) ^(١) ، وهذا — والله — عيبٌ زائلٌ ، وتقصُّ ليس له — في التحقيق — حاصل .

قوله جل ذكره : ﴿قُلْ هَلْ أَنْبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً

(١) ما بين القوسين موجود في الهامش أثبتناه في موضعه من النص حسب العلامة الميزة .

عند الله من نعمة الله وغضب عليه
وجعل منهم القردة والخنازير وعبد
الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضل
عن سواء السبيل ﴿

يعنى أخس من المذكورين قدرًا ، وأقل منهم خطراً من سقط عن عين الله فأذله ، وأبعده
عن نعم التخصيص فأضله ، ومنعه عن وصف التقريب وأبعده ، وحجبه عن شهود
الحقيقة وطرده .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا جاءكم قالوا آمنا وقد دخلوا
بالكفر وهم قد خرجوا به والله
أعلم بما كانوا يكتمون ﴾

أظهروا الصدق ، وفي التحقيق ناققوا ، وانفضحوا من حيث أوهموا ولبسوا ، فلا حالهم
بقيت مستورة ، ولا أسرارهم كانت عند الله مكبوتة ^(١) ، وهذا نعم كل مبطل . وعند
أرباب الحقائق أحوالهم ظاهرة في أنوار فراستهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وترى كثيراً منهم يسارعون
في الإثم والعُدوان وأكليم السُّحْتِ لبئس
ما كانوا يعملون ﴾

تمسكتهم الأطماع فاستهوتهم في مناهات العناء ، وذلك نعم كل (طالم) ^(٢) في غير
مطعم ؛ ذل حاضر ، وصغار مستول .

قوله جل ذكره : ﴿ لولا ينههم الربانيون والأحبار عن
قولهم الإثم وأكليم السُّحْتِ لبئس
ما كانوا يصنعون ﴾

(١) وردت (مكتوبة) والصواب أن تكون مكبوتة لتلائم مستورة التي سبقت .

(٢) ربما كانت (طامع) في غير مطعم وربما كانت (ضالم)

الرباني من كان لله وبالله ؛ لم تبق منه بقية لغير الله .

ويقال الرباني الذي ارتقى عن الحسود .

والرباني من توفى الآفات ثم ترقى إلى الساعات ، ثم تلقى ما كُشف به من زوائد القربات ،
فخلا عن نفسه ، وصفا عن وصفه ، وقام لربه وبربه .

وقد جعل الله الربانيين تالين للأنبياء الذين هم أولو الدين ، فهم خلفاء ينهون الخلق
بممارسة أحوالهم أكثر مما ينهونهم بأقوالهم ، فإنهم إذا أشاروا إلى الله حقق الله ما يؤمسون إليه ،
وتحقق ما علقوا همهم به .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَفْلُوءَةٌ غُلَّتْ

أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ، بل يدها

مبسوطتان يُنفِقُ كيف يشاء وليزیدن

كثيراً منهم ما أنزل إليك من

ربك طغياناً وكفراً ، وألقينا بينهم

العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة

كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله

ويسعون في الأرض فساداً ، والله

لا يحب المفسدين .

صغر سوء قالة الموحدين — في اغتيال بعضهم لبعض بعد ما كانوا بالتوحيد قائلين

وبالشهادة ناطقين — بالإضافة إلى ما قاله الكفار من سوء القول في الله ؛ يعني أنهم وإن

أساءوا قولاً فلقد كان أسوأ قولاً منهم من نسبنا إلى ما نحن عنه مُتره ، وأطلق في وصفنا

ما نحن عنه مُقدس .

ثم إن الحق — سبحانه قال : « غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا » فلا ربح الصديق يشمون ،

ولا نفساً من الحق يمجدون .

ثم أثنى على نفسه فقال : « بل يدها مبسوطتان »^(١) أى بل قدرته بالغة ومشيتته نافذة ، ونعمته سابعة وإرادته ماضية .

ويقال « بل يدها مبسوطتان » أى يرفع ويضع ، وينفع ويدفع ، ولا يخلو أحدٌ عن نِعَمِ النفع وإن خلا عن نعم الدفع .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴾

إنما وعدم الغفران بشرط التقوى . ودليل الخطاب يقتضى أنه لا يغفر لمن لم يتق منهم . وقال لظالمى هذه الأمة : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه »^(٢) ثم قال فى آخر الآية : « جنات عدن يدخلونها » أى أهل التقوى لأنه هو أهل المغفرة ، فإن تركتم التقوى فهو أهل لأن يغفر ويقال لو أنهم راعوا أمرنا أصلحنا لهم أمرهم ، ولكنهم وقفوا فوقفوا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْ أَنََّّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾

أى لو سلكوا سبيل الطاعة لو سّعنا عليهم أسباب المعيشة وسهّلنا لهم الحال حتى إن ضربوا بيمين ما لقوا غير اليمين ، وإن ذهبوا يسرة ما وجدوا إلا اليسر .

قوله جل ذكره : ﴿ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾

المقصد الواقف على حدّ الأمر ؛ لا يُقَصَّرُ فيُنْقِصُ ، ولا يُجَاوِزُ فيزيد .

(١) لاحظ كيف يزوله القشبرى (اليد) ليعبد عنها كل دلالة حسية ويجعلها من الأوصاف الالهية .

(٢) آية ٣٢ سورة ناطر

ويقال المقتصد الذي تساوى في همته القدر والوجود في الحادثات .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ
مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ
رِسَالَتَهُ ﴾

لا تكتم شيئاً مما أوحينا إليك ملاحظاً لغيره ، إذ لا غير — في التحقيق — إلا رسوم
موضوعة ، وأحكام القدرة عليها جارية .

ويقال يبين لكافة أنك سيد ولد آدم ، وأن آدم دون لوائك .
ويقال ببلغ ما أنزل إليك أني أغفر للعصاة ولا أبالي ، وأرد من المطيعين من شئت
ولا أبالي .^(١)

قوله جل ذكره : ﴿ وَاللَّهُ يَمُصُّكَ مِنَ النَّاسِ إِنْ اللَّهُ
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾

يحفظ ظاهره من أن يمسك أذام ، فلا يتسلط بعد هذا عليك عدو ، أو يصون سره
عنهم حتى لا يقع عليه احتشام منهم .

ويقال يمصك من الناس حتى لا تفرق في بحر التوهم ؛ بل تشاهدم كما هم ؛ وجوداً
بين طرفي العدم .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ
حَتَّى تَقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ
إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ
مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا
وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾

(١) يتضح من هذه الإشارة شيان : أولهما مدى إتساع صدور الصوفية للناس ونظرتهم المتفائلة إلى سعة
الرحمة الإلهية مما يطمئن العصاة ويحمس على التوبة ، وثانيهما مدى مخالفة القشيري للمعتزلة في مسأله وجوب
المتوبة أو العقوبة على الله سبحانه ، فلا وجوب — عنده — على الله بخلافهم .

أى ليس انتعاشكم ولا نظام معاشكم ، ولا قَدْرُكم فى الدنيا والعُقبى ، ولا مقداركم
ولا منزلكم فى حال من حالاتكم إلا بمراعاة الأمر والنهى ، والمحافظة على أحكام الشرع .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا
وَالصَّابِقُونَ وَالنَّصَارَى مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يُحْزَنُونَ ﴾

يَبَيِّنَ أَنَّهُمْ — وَإِنْ نَجَّسَتْ أَحْوَالُهُمْ — فَبِعِدْمَةِ تَجَمُّعِهِمْ أَصُولُ التَّوْحِيدِ فَلَهُمُ الْأَمَانُ مِنَ
الْوَعِيدِ ، وَالْفَوْزُ بِالْمَزِيدِ .

قوله جل ذكره : ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ
وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ رُسُلًا كَلَّمَاءَ جَاءَهُمْ
رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا
كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾ وَحَسِبُوا
أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ
اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ
مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾

داروا مع الهوى فوقعوا فى البلاء . وَمِنْ أَمَارَاتِ الشَّقَاءِ الْإِصْرَارُ عَلَى مُتَابَعَةِ الْهَوَى ،
وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً ، فَعَمُوا وَصَمُوا . وَاغْتَرَوْا بِطُولِ الْإِمِهَالِ فَأَصْرَوْا عَلَى قُبُوحِ الْأَعْمَالِ ،
فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ فَجَاءَةُ الْإِتْقَامِ لَمْ يَنْفَعِهِمُ النَّدَمُ ، وَبَرَّحَ بِهِمُ الْأَلَمُ .

قوله جل ذكره : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ
ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ
اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ
بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ
النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾

سَقِمَتْ بَصَائِرُهُم وَالتَّبَسَتْ عَلَيْهِمُ أَمَارَاتُ الْحُدُوثِ ، فَخَلَطُوا فِي عَقَائِدِهِمْ اسْتِحْقَاقَ أَوْصَافِ الْقِدَمِ بِنَعْوَتِ الْحُدُوثِ !

قوله جل ذكره : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثٌ ثَلَاثَةٌ وَمِنْ إِلَهِ إِلَّا إِلَهٌُ وَاحِدٌ ، وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

بلغ الخذلانُ بهم حداً أَنْ كَابَرُوا الضَّرُورَةَ فَحَكَمُوا الْوَاحِدَ بِأَنَّهُ ثَلَاثَةٌ ، وَلَا يَخْفَى فُسَادُ هَذَا عَلَى مَجْنُونٍ . . . فَكَيْفَ عَلَى عَاقِلٍ ۱۹ .

قوله : « أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » لَمْ يُفْلِقْ بَابَ التَّوْبَةِ عَلَيْهِمْ — مَعَ قُبْحِ أَقْوَالِهِمْ ، وَفُسَادِ عَقَائِدِهِمْ — تَضْعِيفاً^(١) لِأَمَالِ الْمُؤْمِنِينَ بِخَصَائِصِ رَحْمَتِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿مَا لِلْمَسِيحِ ابْنِ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَا كِلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نَبِّئُ لَمْ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ .

مَنْ اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ الْأَرْحَامُ ، وَتَنَاوَبَتْهُ الْآثَارُ لِلتَّعَاقُبِ أَنَّى يَلِيقُ بِوَصْفِ الْإِلَهِيَّةِ ؟
ثُمَّ مَنْ مَسَّتْهُ الْحَاجَةُ حَتَّى اتَّصَفَ بِالْأَكْلِ وَأَصَابَتْهُ الضَّرُورَةُ إِنْ أَنْ يَخْلُصَ مِنْ بَقَايَا الطَّعَامِ فَأَنَّى يَلِيقُ بِهِ اسْتِجَابُ الْعِبَادَةِ وَالْقَسْمِيَّةُ بِالْإِلَهِيَّةِ ؟

انظر — يا محمد — كيف نَزِيدُ فِي إِبْضَاحِ الْحُجَّةِ وَكَيْفَ تَلَبَّسَ عَلَيْهِمْ سُلُوكُ الْحُجَّةِ ؟

(١) تَضْعِيفاً أَيْ جَمْعُهَا مُضَاعَفَةٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

تعليقُ القلوب — بدون الرب — في استدفاع الشر واستجلاب الخير بمحقق للوقت فيها لا يُجْدِي ، وإذهابُ العمر فيها لا يُغْنِي ؛ إذ المتفردُ بالإيجاد يرى عن الأنداد .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ الْحَبِيلِ ﴾ .

التعمقُ في الباطل قطعُ لآمال الرجوع ؛ فكلما كان بُعدُ المسافةِ مِنَ الْحَقِّ أَمَّ كَانَ اليأسُ من الرجعةِ أَوْجَبَ ، وَتَسْبَعُ الضلالةُ شرًّا مِنْ مبتدِعِهَا ؛ لِأَنَّ المبتدِعَ يَبْنِي وَالتَّسْبِيعَ يُنْمِ البناءُ ، وَمَنْ بِهِ كَمَالُ الشَّرِّ شَرٌّ مِنْ مَنْهُ ابْتِدَاءُ الشَّرِّ .

قوله جل ذكره : ﴿ لَمَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ .

أَمَرَ الْأَنْبِيَاءَ — عَلَيْهِمُ السَّلَامُ — حَتَّى ذَكَرُوا الْكَفَارَ بِالسُّوءِ ، وَأَمَّا الْأَوْلِيَاءُ فَخَصَّهِمْ بِذِكْرِ نَفْسِهِ فَقَالَ : « هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ » (١) ؛ فَلَعْنَةُ الْكَفَارِ بِلِسَانِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَذِكْرُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْجَمِيلِ بِلِسَانِ الْحَقِّ — مَبْجَانَهُ ، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ ذِكْرًا بِالسُّوءِ لَكَانَ فِيهِ اسْتِحْقَاقُ فَضِيلَةٍ ، فَكَيْفَ وَهُوَ ذِكْرُ بِالْجَمِيلِ ؟ وَلَقَدْ قَالَ قَائِلُهُمْ :

لئن ساءني أن تلقني بمساءي قد سررتني أني خطرتُ ببالكا

قوله جل ذكره : ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَبَّهُونَ عَنْ مَسْكَرٍ

(١) آية ٤٢ سورة الأحزاب .

فَعَلُوهُ^(١) لَيْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ *

الرضا بمخالفة أمر الحبيب موافقة للمخالف ، ولا أنفة بعد تميز الخلاف . والسكوت عن جفاء تعامل به كرم ، والإغضاء عما يُقال في محبوبك دناءة .

قوله جل ذكره : ﴿ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَقُولُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيْسَ بِمَا قَدَّمْتُمْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ .

شرُّ خِصال اللثام مطابقةً بمن يصاد الصديق ، فإذا كان سخط الله في موالاته أعدائه ، فرحمته — سبحانه في معاداة أعدائه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ .

صرح بأن موافق من ناوئك^(٢) آثار التباعد عنك ؛ إذ لو كانت بينكما شهرة غير منقطعة لأخلصت^(٣) في موالاته ، وأخلص في مصافاتك .

قوله جل ذكره : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عداوةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مودةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيصِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ .

يَبَيِّنُ أَنَّ صفة العداوة وإن كانت تجمعهم فعداوة بعضهم تزيد على بعض ، وبقدر

(١) سقطت (فعلوه) من النسخ فائتتها .

(٢) وردت (ناوئك) وربما كانت في الأصل (ناواك) والتبست على النسخ فظنها لا ما .

(٣) أخطأ النسخ فكتبها (لأخلصت) .

ما للنصارى من التَّرهيب أثر فيهم (بالمقاربة) ^(١) من أهل الحق ؛ فإنهم وإن لم ينتفعوا بهم من حيث الخلاص فقد ذكروا الله سبحانه — بمقاربة أهل الاختصاص .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾

هذه صفة من نظر إليه الحق نظر القبول ، فإذا قرَّعتْ نَحْمَقُهُمْ دعوة الحق ابتسمت البصيرة في قلوبهم ، فسكنوا إلى المسوع لما وجدوا من التحقيق .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴾

وأى عذر لنا في التمرج في أوطان الارتباب ، وقد فجلت لقلوبنا الحجج ؟ ثم ما تؤمله من حُسن العاقبة . متى بدونه يمكن أن نطلبه ؟

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَنبَأَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾

لَمَّا صَدَّقَتْ آمالهم قابليها بالتحقيق ، سَنَّةٌ مِنْهُ — سبحانه — ألا ينجيب راجيه ، ولا يرد مؤمله ^(٢) ، وإنما علَّق الثواب على قول القلب الذى هو شهادة عن شهوده ، فأما النظر المنفرد عن البصيرة فلا ثواب عليه ولا إيجاب ^(٣) .

(١) وردت (بالقدرة) والعرب أن تكون (المقاربة) فقد وردت كذلك فيما بعد إشارة إلى ما في الآية (أقربهم مودة) وربما قيلنا (بالمقارنة) على أساس مقارنة النصارى باليهود .
(٢) وردت (مؤله) وهي خطأ في النسخ .
(٣) لاحظ هنا قبة الإيمان النظرى بالقياس إلى الإيمان القبلى بمنزى فأن في التسامح الدينى .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا

أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾

(هذا) أثر الإعراض عن الأعداء في مقابلة أثر الإقبال على الأولياء معجلاً ومؤجلاً .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا

طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ، وَلَا تَعْتَدُوا

إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾

من أمارات السعادة الوقوف على حد الأمر ؛ إن أباح الحق شيئاً قبله ، وقابله

بالخشوع ، وإن حظر شيئاً وقف ولم يتعرض للجحود . . .

ومما أباحه من الطيبات الاسترواح إلى نسيم القرب في أوطان الخلوة ، وتحريم ذلك : إن

استبدل تلك الحالة بالخلطة دون العزلة ؛ والعشرة دون الخلوة ، وذلك هو العدوان العظيم

والخسران المبين .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلالاً

طَيِّباً ، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ

مُؤْمِنُونَ ﴾

الحلال الضافي بأن يأكل العبد ما يأكل على شهوده — سبحانه — فإن نزلت الحالة

عن هذا فعلى ذكره — سبحانه — فإن الأكل على الغفلة حرام في شريعة الإرادة .

قوله جل ذكره : ﴿ لَا يُوَاحِدُكُمْ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ

وَلَكِنْ يُوَاحِدُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ

فَكَفَلْتُمْهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ

مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ

أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقِيَّةٍ ، فَمَنْ

لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، ذَلِكَ

كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا

أَيَّمَانَكُمْ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ
آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١﴾

الإشارة منه إلى وقت يغلب على قلبك التعطش إلى شيء من إقباله أو وصاله ،
فَتُقَسِّمُ عليه بجماله أو جلاله أن يرزقك شظية من إقباله ، فكذلك في شريعة الرضا
نوع من اليمين ، فيعفو عنك رحمة عليك لضعف حالك . والأولى الذوبان والحمود بحسن
الرضا تحت ما يُجْرَى عليك من أحكامه في الرد والصد ، وأن تؤثر استقامتك في أداء
حقوقه على إكرامك بحسن تقريبه وإقباله ، كما قال قائلهم :

أُرِيدُ وَصَالَهُ وَيُرِيدُ هَجْرِي فَأَتْرُكُ مَا أُرِيدُ لِمَا يَرِيدُ

وَمِنَ اللَّغْوِ فِي الْيَمِينِ — عِنْدَهُمْ — مَا يَجْرَى عَلَى لِسَانِهِمْ فِي حَالِ غَلَبَاتِ الْوَجْدِ مِنْ
تَجْرِيدِ الْعَهْدِ وَتَأْكِيدِ الْعَقْدِ ، فيقول :

وَحَقُّكَ مَا نَظَرْتُ إِلَى سِوَاكَ ، وَلَا قُلْتُ بِغَيْرِكَ . . . وَلَا حُلْتُ عَنْ عَهْدِكَ ،
وَأَمْثَالُ هَذَا . . .

وَكُلُّهُ فِي حَكْمِ التَّوْحِيدِ لِنُورِهِ ، وَعَنْ شُهُودِ عَهْدِ الْأَخْذِيَةِ سَهْوِهِ . . . وَمَنْ أَنْتَ
فِي الرَّفْعَةِ حَتَّى تَقْدِمَ نَفْسَكَ ؟ وَأَيْنَ فِي الدَّارِ دِيَارٌ حَتَّى تَقُولَ بِتَرْكِهِ أَوْ تَتَحَقَّقَ بِوَصْلِهِ
أَوْ هَجْرِهِ ؟ كَلَّا . . . بَلْ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ^(١) .

وَكَمَا أَنَّ الْكُفَّارَةَ الشَّرْعِيَّةَ إِمَّا عِثْقٌ أَوْ إِطْعَامٌ وَإِمَّا كِسُوفَةٌ فَإِنْ لَمْ تَسْنُطْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ
أَيَّامٍ : فَكُفَّارَتُهُمْ — عَلَى مَوْجِبِ الْإِشَارَةِ — إِمَّا بِذَلِ الْوَجْدِ بِحَكْمِ الْوَجْدِ ، أَوْ بِذَلِ الْقَلْبِ
بِصَحَّةِ الْقَصْدِ ، أَوْ بِذَلِ النَّفْسِ بِدَوَامِ الْجَهْدِ ، فَإِنْ عَجَزْتَ فَأَمْسَاكُ وَصِيَامُ عَنْ
الْمُنَاهِي وَالزَّوَاجِرِ .

قوله جل ذكره : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ

(١) وشبهه بذلك قول الشبلي حين مثل عن التوحيد (من أجاب عن التوحيد بالمبارة فهو ملحد ،
ومن أشار إليه فهو تنوي ، ومن أومأ إليه فهو عابد وثن ، ومن نطق فيه فهو غافل . . . وكل ما ميزتموه
بأوهامكم وأدركتموه بقولكم في آتم معانيكم فهو مصروف مردود إليكم ، يحدث مصنوع مثلكم »
الرسالة ص ١٤٩ .

والأنصاب والأزلام رجس من عمل
الشیطان فاجتنبوه لعلکم تفلحون ﴿١﴾

الحمر ما خامر العقل ، والحمر حرام .

والإشارة فيه أنه يزيد نفاذ العقل بما يوجب عليه من الالتباس .

ومن شرب من خمر الغفلة فسكره أصعب ؛ فشرب الغفلة يوجب البعد عن الحقيقة .
وكما أن من سكر من خمر الدنيا ممنوع عن الصلاة فمن سكر من خمر الغفلة فهو محجوب
عن المواصلات .

وكما أن من شرب من خمر الدنيا وجب عليه الحد فكذلك من شرب شراب الغفلة
فعليه الحد إذ يضرب بسياط الخوف .

وكما أن السكران لا يُقام عليه الحد ما لم يُفق فالغافل لا ينجح فيه الوعظ ما لم ينته .
وكما أن مفتاح الكبائر شرب الحمر (فالغفلة) ^(١) أصل كل زلة ، وسبب كل ذلة وبدء
كل بُعد وحجة عن الله تعالى .

ويقال لم يحرم عليه الشراب في الدنيا إلا وأباح له شراب القلوب ؛ فشرب الكبائر
محظور (وشراب الاستئناس مبذول ، وعلى حسب المواجد حظى القوم بالشراب) ^(٢) ، وحيثما
كان الشراب كان السكر ، وفي معناه أُنشدوا :

فما مل ساقها وما مل شارب عقار لحاظ كأسه يسكر اللبا
فصحوك من لفظي هو الوصل كله وسرك من لحظي يبيح لك الشربا

وحُرّم الميسر في الشرع ، وفي شريعة الحب القوم مقهورون ؛ فمن حيث الإشارة أبدانهم
مطروحة في شوارع التقدير ، يطؤها كل عابر سبيل من الصادرين من عين المقادير ، وأرواحهم
مستباحة بحكم القهر ، عليها خرجت القرعة من (. . .) ^(٣) الحكم ، قال تعالى « فساهم
فكان من المدحضين » ^(٤) .

(١) أضفنا (الغفلة) وليست موجودة في النص ليتضح المعنى .

(٢) ما بين القوسين مثبت في الهامش نقلناه إلى موضعه حسب العلامات .

(٣) مشتبه . (٤) آية ١٤١ سورة الصافات .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا يَرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ
الْمَدَاوِلَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْحَرِّ وَالْمَيْسِرِ
وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ
فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ .

طال بُعدكم عن الحقيقة فقاموا الهوان في مطارح الغربة ، وصاروا سخرة للشيطان ؛ فبقوا
الصلاة التي هي محل النجوى وكال الراحة ، وَفَسَدَتْ ذَاتُ بَيْنِهِمْ بِمَا تَوَلَدَ مِنْ
الشحناء والبغضاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ
وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا إِنَّمَا عَلَى
رَسُولِنَا الْبَلَاغُ لِلْبَيِّنِ ﴾ .

كلما كان العبد أعرف بربه كان أخوف من ربه ، وإنما يتقى الحذر عن العبد عند تحقيق
الوعد بقوله : « أولئك لهم الأمن » (١) وذلك عند دخول الجنة . وحقيقة الحذر نهوض القلب
بدوام الاستغاثة مع مجاري الأنفاس .

قوله جل ذكره : ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا
مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ
اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ
يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

من حافظ على الأمر والنهي فليس للعبة يتناولها من الخطر ما يضائق فيها ، وإنما المقصود
من العبد التأدب بصحبة طريقه سبحانه ، فإذا اتقى الشرك تعرف ، ثم اتقى الحرام فما تصرف ،
ثم اتقى الشح فأثر وما أمرف .

(١) آية ٨٢ سورة الأنعام .

وقوله « ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا... » يعنى اتقوا للنعم^(١) وأحسنوا للخلق — وهذا للعموم . ثم اتقوا شهود الخلق؛ فأحسن الشهود الحق ، والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه — وهذا للخواص .

والله يحب المحسنين أعمالاً والمحسنين (آمالاً)^(٢) والمحسنين أحوالاً .

قوله جل ذكره : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ

من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم *
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتقام *

أباح الصيد لمن كان حلالاً^(٣) ، وحرّم الصيد على المحرم الذى قصده زيارة البيت . والإشارة فيه أن من قصد بيتنا فينبغى أن يكون الصيد منه فى الأمان ، لا يتأذى منه حيوان بحال ، لذا قالوا : البرّ من لا يؤذى الذر ولا يضر الشر .

ويقال الإشارة فى هذا أن من قصدنا فعليه نبتذ الأطماع جملة ، ولا ينبغى أن تكون له مطالبة بحال من الأحوال .

(١) أى منع الإحسان .

(٢) ترجيح أنها فى الأصل (أموالا) .

(٣) الحلال = الخارج من الإحرام (المنجد : مادة حل) .

وكما أنَّ الصيدَ على المُحرِّم حرامٌ إلى أن يتحلل فكذلك الطلب والطمع والاختيار -
على الواجد - حرامٌ ما دام مُحَرِّماً بقلبه .

ويقال العارفُ صيدُ الحق ، ولا يكون للصيد صيد .

وإذا قَتَلَ المُحرِّمُ الصيدَ فعليه الكفَّارة ، وإذا لاحظ العارفُ الأغيارَ ، أو طمع أو رغب
في شيء أو اختار لَزِمَتَهُ الكفَّارة ، ولكن لا يُكْتَفَى منه بجزء المثل ، ولا بأضعاف أمثال
ما تصرف فيه أو طمع ، ولكن كفَّارته تجرده - على الحقيقة - عن كل غير ، قليل أو كثير ،
صغير أو كبير .

قوله جل ذكره : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ
مَتَاعاً لَكُمْ وَالسِّيَارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ
صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ
الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

حُكْمُ الْبَحْرِ خِلَافُ حُكْمِ الْبَرِّ . وإذا غرق العبدُ في بحار الحقائق سَقَطَ حُكْمُهُ ، فصيد
البحر مباح له لأنه إذا غرق صار محوًّا ، فما إليه ليس به ولا منه إذ هو محوٌّ ، واللهُ
غالبٌ على أمره .

قوله جل ذكره : ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِبْلًا
لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ
وَالْقِلَاعَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ
مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ
اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

حَكْمُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ - بأن يكون بينه - اليومَ ملجأً يلوذ به كل مؤمِّل ، ويستقيم
ببركات زيارته كلُّ مائلٍ عن نهج الاستقامة ، ويستنجح بابتهاله هنالك كلُّ ذي أَرْبٍ .

والبيتُ حَجَرٌ والعبدُ مَدَرٌ ، والحق سُبْحَانَهُ ربط للدر بالحجر ليُعْلَمَ أنه الذي لم يَزَلْ
لا سبيل إليه للحدثان والغير .

قوله جل ذكره : ﴿اعلموا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

شديد العقاب للأعداء ، غفور رحيم للأولياء .

ويقال شديد العقاب للخواص بتمجيل الحجاب إن زاغوا عن الشهود لحظة ، غفور رحيم للعوام إن رجعوا إليه بتوبة وحسرة .

قوله جل ذكره : ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ * قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾

للتفرّد بالإلهية الله . والرسول — وإن جلّ قدره — فليس عليه إلا البلاغ وهو أيضاً (بتسييره) ^(١) .

قوله : « قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ » : الخبيث ما اكتسبه الغافل عن الله تعالى في حالة اكتسابه ، والطيب ما اكتسبه على شهود الحق .
ويقال الخبيث ما لم يُخْرِجْ منه حق الله تعالى ، والطيب ما أُخْرِجَ منه حقه — سبحانه .
ويقال الخبيث ما ادخرته لنفسك ، والطيب ما قدّمته لأمره .

قوله جل ذكره : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْأَلُونَ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾

(١) لا نسبعد أيضاً أنها ربما كانت في الأصل (بتسييره) ، وكلاماً مقبول في السياق .

إذا أسبل عليكم ستر اللطف فلا تتعرضوا لعلم أخفى عنكم ، فيتنفص (بالتج ...)^(١)
- عليكم - عيشكم .

ويقال لا تعرضوا للوقوف على محل الأكابر - حيث لا تستوجبون ذلك - فيسوءكم
تقاصر رتبكم .

ويقال إذا بدا من الإعراض علم فاطلبوا له عندكم وجهاً من (التغال)^(٢) ولا تطلبوا
أسرار الباري ، وادكنوا إلى روح المني في استدفاع ما (ظلكم)^(٣) ولا تبحثوا عن سر
ذلك ، وراعوا الأمر مجملًا .

قوله جل ذكره : ﴿ قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا
بها كافرين ﴾

يعني توهم قوم أنهم محروون عن التأثير فيما يصادفهم من تجاة التقدير ، وذلك منهم ظن ،
كما يقول بعضهم :

تبين يوم البين أن اعتزامه على الصبر من إحدى الفنون الكواذب
قوله جل ذكره : ﴿ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة
ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين
كفروا يفترون على الله الكذب
وأكذهم لا يعقلون ﴾

هذه أحكام ابتدعوها ، فردهم الحق - سبحانه - عن الابتداع ، وأمرهم بحسن
الاتباع ، وأخبر أن ما صدر من عاداتهم لا يعد من جملة عباداتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله ﴾

(١) بقية الكلمة مشتبه ولكنها أقرب ما تكون إلى (التجسس) وهي مقبولة هكذا في السياق ؛
أي لا نجعلوا التجسس ومحاولة معرفة الأمور ينفس عليكم عيشكم .
(٢) هكذا في النسخ ونرجح أنها في الأصل (التأويل) وإن كانت بعيدة في الرسم .
(٣) أي ما غشيتكم من سحب الإعراض .

وإلى الرسول قالوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا
عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم
لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون ﴿١﴾

إذا هتفت بهم دواعي الحق بالجنوح إلى وصف الصديق صدّهم عن الإجابة ما مروا عليه
من سهولة (التقليد) ^(١) ، وإن أسلافهم الذين واقفهم لم يكونوا إلا في ضلال .

قوله جل ذكره : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ
لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ
إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فُتَبِّحُكُمْ بِمَا
كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

يكفي الفقير أن يعيش وقد جبر بعض (كسره) ^(٢) ، فأما إذا ادّعى التقسم أو الطمع
في إنجاده من سواء فحال من (الحدث) ^(٣) والظن .

ويقال من يفرغ إلى غيره يتشاغل عن نفسه ، ومن اشتغل بنفسه لم يفرغ إلى غيره .

قوله جل ذكره : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا
حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ
إِثْنَانُ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ
غَيْرِكُمْ إِنْ أَتَمَّ ضَرْبُكُمْ فِي الْأَرْضِ
فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسَبُوهمَا
مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَتُقِيمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرَيْتُمْ
لَا لَشْرَى بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى
وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّكِنَ

(١) وردت (التقليد) والصواب (تقليد) آباؤهم واسلافهم كما في الآية .

(٢) وردت (كثره) بالثاء والصواب : جبر (كسره) بالسين .

(٣) ربما كانت في الأصل (الحدث) لتعني مع الظن .

الآمين * فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا
إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ
الَّذِينَ اسْتَحَقُّ عَلَيْهِمُ الْأُولَٰئَانِ
فَيَقْسَمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ
شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ
الظَّالِمِينَ * ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا
بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهٍ أَوْ يَخَافُوا أَنْ
تُرَدُّ أَيْمَانُ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ
وَاسْمِعُوا ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الْفَاسِقِينَ *

حكم هذه الآية كان ثابتاً في الشرع ونسخ ، وفي بيان التفسير تفصيله .

والنسخ هو الإزالة ، وذلك جائز في العبادات .

ومعنى النسخ يوجد في سلوك المرئيين ؛ فهم في الابتداء فرضهم القيام بالظواهر من
حيث المجاهدات ؛ فإذا لاح لهم من أحوال القلوب شيء آلت أحوالهم إلى مراعاة القلوب
فتسقط عنهم أوراد الظاهر ، فهو كالنسخ من حيث الصورة .

قال تعالى : « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » ^(١) . واتصافهم بمراعاة
التلويح أنهم بتأديبهم بأحكام المعاملات ^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ يوم يجمع الله الرسل فيقول
ماذا أُجِيبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ
أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾

يكشفهم بنعت الجلال فتتخس فهمهم وعلومهم حتى ينطقوا بالبراءة عن التحقيق

(١) آية ١٠٦ سورة البقرة .

(٢) أي أن مراعاة الحقيقة تتم بمراعاة الشريعة .

ويقولون : « لا علم لنا » ، وهكذا تكون الحالة غداً : مَنْ قَالَ لشيءٍ ، أو مَالٍ لشيءٍ مما يكون
 نعماً بمخلوق فعند ظهوره وابل للتعزُّز تتلاشى الجملة ، فالملائكة يقولون : « ما عبدناك
 حق عبادتك » والأنبياء يقولون : « لا علم لنا » .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اذْكُرْ
 نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَبَدْتُكَ
 بِرُوحِ الْقُدُسِ تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي الْمَهْدِ
 وَكَلَّأُوا إِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ
 وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ
 الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا
 فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ
 الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ
 الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ
 عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ
 الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنَّا هَذَا
 إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾

التذكيرُ بوجوه النعم يستخرج خلاصة الحب والهيبة في المذكور (١) ، وكلُّ وقتٍ للأحباب
 بمعنى يصير لهم حديثاً يتلى من بعدهم : إما عليهم وإما عنهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ
 آمَنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ
 بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾

(١) أعلى درجات الذكر أن يبقى التذكر في المذكور وفيها ينتقل العبد من مرتبة ذكر النعم
 إلى ذكر المنعم . فكان التشيرى يقصد بإشارته إلى أن تذكير عيسى واهمه بالنعم التي وردت في الآية تحت
 لها على الارتقاء من مرحلة النظر إلى النعم إلى مرحلة النظر إلى صاحبها سبحانه وتعالى ، وحبّه والهيبة فيه .

وإنما خصهم بالوحي إليهم إلهاماً وإكراماً لانبساط ضياء عيسى عليهم^(١) ، وفي الأثر :
« هم القوم لا يشقى بهم جليس » .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتمنا ونكون عليها من الشاهدين *

طلبوا المائدة لتسكن قلوبهم بما يشاهدونه من عظيم الآية وعجيب المعجزة ، فعذروا وأجيبوا إليها ؛ إذ كان مرادهم حصول اليقين وزيادة البصيرة .
ويقال كل يطلب سؤله على حسب ضرورته وحالته ، فمنهم من كان سكونه في مائدة من الطعام يجدها ، ومنهم من يكون سكونه في (فائدة)^(٢) من الموارد يردُّها ، وعزيز منهم من يجد الفناء^(٣) عن برهان يتأمله ، أو بيان دليل يطلبه .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا ، وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ *

شَّتَان بين أمة طلب لهم نبيهم سكوتاً بإنزال المائدة عليهم ، وبين إمة بدأهم - سبحانه -

(١) وهذا يطابق فكرة الفشيري في الولاية وكيف انها ملحقة بالمعجزة ، فما يظهر على الولي من كرامة هو بركة النبي الذي الولي من امته وعصره .
(٢) ربما كانت (مائدة) ليم التقابل بين المائتين الحسية والمعنوية .
(٣) ربما كانت (الفناء) اي يجد الاستثناء عن كل برهان ودليل ، وتمنع (الفناء) بالفناء على معنى أن فناء في الله لا يحوجه إلى برهان أو دليل . .

بأنزال السكينة عليهم ، من غير سؤال أحد ، قال الله تعالى : « هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم »^(١)

وقال فى صفتهم « وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً »^(٢)

وفرق بين من زيادة إيمانه بآياته التى تتلى عليهم وبين من يكون سكونهم إلى كرامات وعطايا تُبَاحُ لهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قال الله إني مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾

أجابه إلى سؤاله لهم ، ولكن توعدهم^(٣) باليم العقاب لو خالفوا بعده ليعلم السالكون أن المراد إذا حصل ، وأن الكرامة إذا تحققت — فالخطر أشد والحال من الآفة أقرب ، وكلما كانت الرتبة أعلى كانت الآفة أخفى ، وعن الأكابر إذا حلت جلّت .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب ﴾

للمراد من هذا السؤال إظهار براءة صاحبه عما نسب إليه من الدعاء إلى القول بالتثليث ، فهذا ليس خطاب تعنيف بل هو سؤال تشریف .

(١) آية ٤ سورة الفتح .

(٢) آية ٢ سورة الأنفال .

(٣) وردت (يوعدهم) .

ثم إن عيسى — عليه السلام — حفظ أدب الخطاب فلم يُزكِّ نفسه ، بل بدأ بالثناء على الحق — سبحانه — فقال : تنزيهاً لك ! إنني أنزهك عما لا يليق بوصفك .

ثم قال : « ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق » أي إني إن كنت مخصوصاً من قبلك بالرسالة — وشرط النبوة العصمة — فكيف يجوز أن أفعل ما لا يجوز لي ؟ .

ثم إني « إن كنت قلته فقد علمته » . كان واضحاً بأن الحق — سبحانه — عليم بنزاهته من تلك القالة .

« تعلم ما في نفسي » : أي علمك محيطٌ بكل معلوم .

« ولا أعلم ما في نفسك » أي لا أطلع على غيبك إلا بقدر ما تُعرفني بإعلامك . « إنك أنت علام الغيوب » الذي لا يخرج معلوم عن علمك ، ولا مقدور عن حكمتك .

قوله جل ذكره : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أُمِرْتُ بِهِ أَنْ

اعبدوا الله ربِّي وربكم وكنتم عليهم

شهداء ما دمت فيهم فلما توفيتني

كنتم أنتم الرقيب عليهم وأنت

على كل شيء شهيد ﴾

مادعوتهم إلا لعبادتك ، وما أمرتهم إلا بتوحيديك وتقديسك ، وما دمت حياً فيهم

كنت (. . .)^(١) على هذه الجملة ، فلما فارقتهم كان تصرفهم في قبضتك على

مقتضى مشيئتك ، فأنت أعلم بما كانوا عليه من وصفي وفاقهم وخلافهم ، ولعمري

اقتصادهم^(٢) وإسرافهم .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنْ تَعَذُّبِهِمْ فَأَنْتَ عِبادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ

فَأَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

(١) مثلية .

(٢) الاقتصاد هنا معناها الاعتدال .

يَبَيِّنُ أَنَّ حَكْمَ الْمَوْلَى فِي عِبِيدِهِ نَافِدٌ بِحَكْمِ إِطْلَاقِ مُلْكِهِ ، فَقَالَ إِنَّ تَعْذِيبَهُمْ بِحَسَنِ مِنْكَ تَعْذِيبُهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ عِبَادُكَ ، وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أَيْ الْمُعِزُّ لَهُمْ بِمَغْفِرَتِكَ لَهُمْ .

وَيَقَالُ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ الَّذِي لَا يَضُرُّكَ كُفْرُهُمْ .

وَيَقَالُ « الْعَزِيزُ » الْقَادِرُ عَلَى الْإِتْقَامِ مِنْهُمْ فَالْعَفْوُ (عِنْدَ) ^(١) الْقُدْرَةُ سِمَةُ الْكَرَمِ ، وَعِنْدَ الْعَجْزِ أَمَارَةُ الذُّلِّ .

وَيَقَالُ إِنَّ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَعَزُّ مِنْ أَنْ (تَتَجَبَّلَ) ^(٢) بِطَاعَةِ مُطِيعٍ أَوْ تَنْتَقِصَ ^(٣) بِزِلَّةٍ عَاصٍ . وَقَوْلُهُ « الْحَكِيمُ » رَدُّ عَلَى مَنْ قَالَ : غَفَرَانَ الشُّرْكَ لَيْسَ بِصَحِيحٍ فِي الْحِكْمَةِ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صَدَقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾

مَنْ تَعَجَّلَ مِيرَاثَ صَدَقَةٍ فِي دُنْيَاهُ مِنْ قَبُولِ حَصْلِ لَهُ مِنَ النَّاسِ ، أَوْ رِيَاسَةٍ عَقَدَتْ لَهُ ، أَوْ نَفْعٍ وَصَلَ إِلَيْهِ مِنْ جَاهٍ ^(٤) أَوْ مَالٍ . فَلَا شَيْءَ لَهُ فِي آجَلِهِ مِنْ صَوَابِ صَدَقَةٍ ، لِأَنَّ الْحَقَّ — سُبْحَانَهُ — نَصَّ بِأَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَنْفَعُ فِيهِ الصَّادِقِينَ صَدَقَهُمْ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

وَرِضَاهُ الْحَقُّ — سُبْحَانَهُ — إِبْثَاتٌ مَحَلٌّ لَهُمْ ، وَثَنَاءٌ عَلَيْهِمْ وَمَدْحٌ لَهُمْ ، وَتَخْصِيمُهُمْ بِأَفْضَالِهِ وَفَنُونِ نَوَالِهِ . وَرِضَاؤُهُمْ عَنِ الْحَقِّ — سُبْحَانَهُ — فِي الْآخِرَةِ وَصَوْلُهُمْ إِلَى مَنَامٍ ، فَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَالنَّجَاةُ الْكُبْرَى .

(١) وَرَدَتْ (هُنَّ) وَهِيَ خَطَأٌ فِي النُّسخِ .

(٢) وَرَدَتْ (تَتَجَبَّلُ) وَهِيَ خَطَأٌ فِي النُّسخِ .

(٣) وَرَدَتْ (تَنْتَقِصُ) بِالضَّادِ وَهِيَ خَطَأٌ فِي النُّسخِ .

(٤) وَرَدَتْ (جَارِهِ) وَهِيَ خَطَأٌ فِي النُّسخِ .

قوله جل ذكره : ﴿ اللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَمَا فِيهِنَّ ﴾

تَمْدَحُ الْحَقُّ — سبحانه — بقدرته القديمة الشاملة لجميع المقدورات ، الصالحة لإيجاد
المصنوعات ، ولم يتجمل بإضافة غير إلى نفسه من اسم أو أثر ، أو عين أو طلل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

من الإبعاد والإسعاد ، والصد والرد ، والدفع والنفع ، والقمع والمنع .

السورة التي تذكر فيها الأنعام

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »

باسمه استنارت القلوب واستقلت ، وباسمه زالت الكروب واضحلت ، وبرحمته عرفت
الأرواح وارتاحت ، وبا (. . .) ^(١) انْخَسَتْ العقول فطاحت .

ويقال باسم الله نال كل مؤمل مأموله ، وبرحمة الله وجد كل واجد وصوله .

قوله جل ذكره : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ

وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ

كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾

بدأ الله — سبحانه — بالثناء على نفسه ، فحمد نفسه بثنائه الأزلي وأخبر عن سنائه

الصمدى ، وعلائه الأحدي فقال : « الحمد لله » .

وقوله عز وجل : « الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ » : « الَّذِي » إشارة و « خَلَقَ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ » عبارة . استقلت الأسرارُ بسماع « الَّذِي » لتحقيقها بوجوده ، ودوامها

لشهوده ، واحتاجت القلوب عند سماع « الَّذِي » إلى سماع الصلة لأن « الَّذِي » من الأسماء

الموصولة بكون القلوب تحت ستر الغيب فقال : « خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ »

(١) مشتبه .

قوله جل ذكره ﴿وجعل الظلمات والنور﴾ ثم الذين كفروا
بهم يعدلون ﴿

خَلَقَ ظِلْمَةَ اللَّيْلِ وَضِيَاءَ النَّهَارِ ، وَوَحْشَةَ الْكُفْرِ وَالشِّرْكَ ، وَنُورَ الْعِرْفَانِ وَالْإِسْتِبْصَارِ .
وَيُقَالُ جَعَلَ الظُّلُمَاتِ نَصِيبَ قَوْمٍ لَا لُجْرَمٍ سَلَفَ ، وَالنُّورَ نَصِيبَ قَوْمٍ لَا لَاسْتِحْقَاقٍ
سَبْقَ ، وَلَكِنَّهُ حُكْمٌ بِهِ جَرَى قَضَاؤُهُ .

وَيُقَالُ جَعَلَ ظُلُمَاتِ الْعَصِيَانِ مَحَنَةً قَوْمٍ ، وَنُورَ الْعِرْفَانِ نَزْهَةً قَوْمٍ .

قوله جل ذكره : ﴿هو الذي خلقكم من طينٍ ثم قضى
أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ
تَمْتَرُونَ﴾

أَبْتُ الْأَصْلَ مِنَ الطِّينِ وَأَوْدَعَهَا عَجَائِبَ (السِّر) (١) ، وَأَظْهَرَ عَلَيْهَا مَا لَمْ يَظْهَرْ عَلَى مَخْلُوقٍ ،
فَالْعِبْرَةُ بِالْوَصْلِ لَا بِالْأَصْلِ ؛ فَالْوَصْلُ قُرْبَةٌ وَالْأَصْلُ تَرْبَةٌ ، الْأَصْلُ مِنْ حَيْثُ النُّطْفَةُ وَالْقَطْرَةُ ،
وَالْوَصْلُ مِنْ حَيْثُ الْقَرِيبَةُ وَالنَّصْرَةُ .

قوله « ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ » : جَعَلَ لِلْإِمْتِحَانِ أَجَلًا ، ثُمَّ جَعَلَ لِلْإِمْتِحَانِ
أَجَلًا ، فَأَجَلُ الْإِمْتِحَانِ فِي الدُّنْيَا ، وَأَجَلُ الْإِمْتِحَانِ فِي الْعُقْبَى .

وَيُقَالُ ضَرَبَ لِلطَّلَبِ أَجَلًا وَهُوَ وَقْتُ الْمَهَلَةِ ، ثُمَّ عَقِبَهُ بِأَجَلٍ بَعْدَهُ وَهُوَ وَقْتُ الْوَصْلَةِ ؛ فَالْمَهَلَةُ
لَهَا مَدًى وَمُنْتَهَى ، وَالْوَصْلَةُ بِهَا مَدًى وَلَا مُنْتَهَى ؛ فَوْقَ الْوُجُودِ لَهُ ابْتِدَاءٌ وَهُوَ حِينَ تَطْلُعُ
شَمْسُ التَّوْحِيدِ ثُمَّ يَنْسَرِمُدُ (٢) فَلَا غُرُوبَ لَهَا بَعْدَ الطَّلُوعِ .

قوله جل ذكره : ﴿وهو الله في السموات وفي الأرض
يعلم سرُّكم وجهركم ويعلم ما تكسبون﴾ .

(١) إِمَّا أَنْ تَكُونَ (السِّر) جَمْعُ سِيرَةٍ أَوْ تَكُونَ (السِّر) مَصْدَرُ سَارٍ يَسِيرُ ، وَلَا نَسْتَبِدُّ .
أَنهَا فِي الْأَصْلِ (السِّر) فَالْسِرُّ — كَمَا يَقُولُ صَاحِبُ اللَّحْ — هُوَ خَفَاءٌ بَيْنَ الْعَدَمِ وَالْوُجُودِ (اللَّحْ ص ٤٣٠)
(٢) وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الشَّيْخُ :

تَسْرِمُدٌ وَقْتُ فَيْكِ وَهُوَ مَسْرَمُدٌ وَافْتِئْتَنِي عَنِّي فَصَرْتُ بِمَجْدٍ
(اللَّحْ ص ٤٤٢)

وهو الذى هو معبودٌ مَنْ فى السماء ، مقصودٌ مَنْ فى الأرض ، وهو الموجود قبل كل سماء
وفضاء ، وظلام وضياء ، وشمس وقر ، وعين وأثر ، وغير وغير .

قوله جل ذكره : ﴿ وما تأتيتهم من آية من آيات ربهم إلا
كانوا عنها معرضين ﴾ .

أى لا يزيدهم كشفًا ولطفًا إلا قابله جحدًا وكفرًا ، ولا يؤريهم إقبالًا إلا قابله
بإعراض ، ولا يلقاهم بسطًا إلا (. . . .)^(١) باتقباض .

قوله جل ذكره : ﴿ فقد كذبوا بالحق لما جاءهم
فسوف يأتيتهم أنباء ما كانوا به
يستهزون ﴾ .

إنهم أصرُّوا على الخلافِ مستكبرين ، وعن قريب يقاسون وبال أمرهم ، ويدوقون
غيب جحيم .

قوله جل ذكره : ﴿ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من
قرون مكناهم فى الأرض ما لم
نمكِّن لكم وأرسلنا السماء عليهم
مدراراً وجعلنا الأنهار تجري من
تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا
من بعدهم قرناً آخرين ﴾ .

يعنى مَنْ تقدَّمهم كانوا أشدَّ تمكناً فى إيماننا ، وأكثر نصيباً - فى الظاهر - من
أقوالنا ؛ سهَّلنا لهم أسباب المعاش ، ووسَّعنا عليهم أبواب الانتعاش ، فحين وطَّئوا على كواذب
المنى قلوبهم ، وأدركوا من الدنيا محبوبهم ومطلوبهم فتحنا عليهم من مكامن التقدير ، وأبرزنا
لهم من شرامض الأمور ما فزعوا عليه من الندم ، وذاقوا دونه طعم الألم . ثم أنشأنا من بعدهم
قرناً آخرين ، وأورثناهم مساكنهم ، وأسكناهم أمانهم ، فلما انخرطوا - فى النى - عن

(١) مشبهة .

سلكهم ، الحقنهم في الإهلاك بهم ، سُنَّةٌ منا في الانتقام قضيناها على أعدائنا ، وعادةٌ في الإكرام أجريناها لأوليائنا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ كُلِّ فَتٍّ لَفُتِّنَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

يُخْبِرُ عَنْ كَمَالِ قُدْرَتِهِ فِي إِبْدَاءِ مَا يَرِيدُهُ بَعْدَ مَا قَضَىٰ لَهُمُ الضَّلَالَةَ ، فَلَوْ أَشْهَدَهُمْ كُلُّ دَلِيلٍ ، وَأَوْضَحَ لَهُمْ كُلَّ سَبِيلٍ مَا أَزْدَادُوا إِلَّا تَمَادِيًّا فِي الضَّلَالِ وَالنَّفَرَةِ ، وَانْهَمَاكَ فِي الْجَهْلِ وَالغَىِّ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ نَحْمَ لَا يُنْظَرُونَ ﴾ .

بَيِّنَ أَنَّ الْعِبْرَةَ بِالْقِسَةِ دُونَ الْاِعْتِبَارِ بِالْحُجَّةِ ، وَمَا يَفْنَى السَّرَاجُ عِنْدَ مَنْ فَقَدَ الْبَصَرَ ؟ كَذَلِكَ مَا تَفْنَى الْحُجَجُ عِنْدَ مَنْ عَدِمَ عَنَايَةَ الْأَزَلِ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴾ .

مَنْ لَمْ يُقَدِّسْ سِرَّهُ لَبَسَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُ بِرُسُلِي مِنْ قَبْلِكَ فَخَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ .

أَيَّ سَبَقَكَ — يَا مُحَمَّد — مَنْ كَذَّبَ بِهِ كَمَا كُذِّبْتَ ، فَخَقَّ لَهُمْ نَصْرُنَا ، فَانْتَقَمْنَا مِنْ نَاوِهِمْ ، فَعَادَ إِلَيْهِمْ وَبَالَ كَيْدِهِمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

قُلْ دُخُوا فِي الْأَرْضِ ، وَسِيحُوا فِي سِيرِكُمْ فِيهَا مِنَ الطُّولِ وَالْعَرْضِ ، ثُمَّ انظُرُوا هَلْ أَفَلَّتْ مِنْ حِكْمِنَا أَحَدٌ ، وَهَلْ وَجَدَ مِنْ دُونِ أَمْرِنَا مُلْتَحِدًا (١) ؟ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لَيْنَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

قُلْ اللَّهُ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ

لِيَجْزِيَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ

فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ

لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

سَلِّمُ هَلْ فِي الدَّارِ دِيَارٌ ؟ وَهَلْ لِلْكَوْنِ — فِي التَّحْقِيقِ — عِنْدَ الْحَقِّ مَقْدَارٌ ؟ فَإِنْ بَقُوا
عَنْ جَوَابِ يَشْفِي ، فَقُلْ : اللَّهُ فِي الرِّبُوبِيَّةِ يَكْفِي .

قوله : « كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ » : أَخْبَرَ وَحَكَّمَ وَأَرَادَ عَلَى حَسَبِ مَا عَلِمَ ، فَمَنْ تَعَلَّقَ
بِنَجَاتِهِ عِلْمُهُ سَبَقَ بِدَرَجَاتِهِ حُكْمُهُ ، وَمَنْ عَلِمَهُ فِي آزَالِهِ أَنَّهُ يَشْفِي فَيَقْدِرُ شِقَاتِهِ فِي الْبَلَاءِ يَبْقَى .

قوله جل ذكره . ﴿ وَهُوَ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

الْحَادِثَاتُ لِلَّهِ مِلْكًا ، وَبِاللَّهِ ظُهُورًا ، وَمِنْ اللَّهِ بَدَأٌ ، وَإِلَى اللَّهِ رَجُوعًا . وَهُوَ « السَّمِيعُ ،
لَا نَيْنَ الْمُشْتَاقِينَ ، « الْعَلِيمُ » بِحَيْنِ الْوَاجِدِينَ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ اتَّخَذَ وَلِيًّا فَاطِرَ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

أَبَدَ مَا أَكْرَمَنِي بِجَمِيلِ وَلَايَتِهِ أَتَوَلَّى غَيْرَهُ ؟ وَبَعْدَ مَا وَقَعَ عَلَى ضِيَا عَنَايَتِهِ أَنْظُرُ فِي الدَّارَيْنِ
إِلَى أَحَدٍ ؟ إِنَّ هَذَا مُحَالٌ فِي الظَّنِّ وَالتَّقْدِيرِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾

لَهُ نَتُّ الْكَرَّمِ فَلِذَلِكَ يُطْعَمُ ، وَلَهُ حَقُّ الْقِدَمِ فَلِذَلِكَ لَا يُطْعَمُ .

(١) المتعدد = الملجأ لأن اللاجئ يلجأ إليه (المتجهد) .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي

عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

أى إني بعجزى متحقق ، ومن عذاب ربى مُشَقِّق ، وبتابعة أمره مُتَخَلِّق .

قوله جل ذكره : ﴿ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَجَحَ

وَذَلِكَ الْفَوْزُ لِلْبَينِ ﴾

من أدركه سابقُ عنايته صَرَفَ عنه للاحق عقوبته .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ يَسْسَلْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ

إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

إنه مَنْ ينجيك من البلاء ، ومن يُلقيك فى العناء . وإذ للتفرّد بالإبلاغ واحد فالأغيارُ
كلهم أفعاله ؛ وإن الإيجاد لا يصلح من الأفعال .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ

الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾

عَلَتْ رُتْبَةُ الْأَحَدِيَّةِ صِفَةُ الْبَشَرِيَّةِ ، فهذا لم يزل وهذا لم يكن فصل (١) . ومتى يكون

بقاء للحدثان مع وضوح سلطان التوحيد ؟

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ

شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا

الْقُرْآنُ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ

لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى

قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ

وَأِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾

(١) وبشير آخر هذا واجب الوجود وهذا ممكن الوجود — كما يقول أهل الفلسفة .

غَلَبَتْ شَهَادَةُ الْحَقِّ — سُبْحَانَهُ — فَهُمْ إِذَا أَقْبَلُوا يَشْهَدُونَ فَلَا تَحِيطُ بِحَقَائِقِ الشَّيْءِ عُلُومُهُمْ ، وَالْحَقُّ — سُبْحَانَهُ — هُوَ الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ ، ثُمَّ أَخْبَرَهُ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ مَبْعُوثٌ إِلَى السَّكَافَةِ وَمَنْ مَبْجُودٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

أَحَاطَ عَلَيْهِمْ بِصَدَقِ الْمَصْطَفَى — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — فِي نُبُوءَتِهِ ، وَلَكِنْ أَدْرَكْتَهُمُ الشَّقَاوَةُ الْأَزَلِيَّةُ فَعَقَدَتْ أَلْسِنَهُمْ عَنِ الْإِقْرَارِ بِهِ ، فَجَحَدُوهُ جَهْرًا ، وَعَلِمُوا صِدْقَهُ سِرًّا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾
شَوَّمُوا الْخُدْلَانَ بَلَّغَ بِالنَّكَايَةِ فِيهِمْ مَا جَرَّمَهُمْ إِلَى الْإِصْرَارِ عَلَى الْكُذْبِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ، ثُمَّ لَمْ يَسْتَحْيُوا مِنْ إِطْلَاعِهِ ، وَلَمْ يَخْشَوْا مِنْ عَذَابِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَبِیَوْمٍ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَائُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾

يَجْمَعُهُمْ لِيَوْمِ الْحَشْرِ وَالنَّشْرِ ، لَكِنَّهُ يَفْرُقُهُمْ فِي الْحُكْمِ وَالْأَمْرِ ، فَالْبَعْثُ بِجَمْعِهِمْ وَلَكِنْ الْحُكْمُ يَفْرُقُهُمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا : وَاللَّهِ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾^(١)

هَذَا الَّذِي أَخْبَرَ عَنْهُمْ غَايَةَ التَّرَدُّدِ ، حَيْثُ جَحَدُوا مَا كَذَّبُوا فِيهِ وَأَقْسَمُوا عَلَيْهِ ، وَلَوْ كَانَ لَهُمُ بِاللَّهِ عِلْمٌ لَتَحَقَّقُوا بِأَنَّهُ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَوْلَاهُمْ وَعُقْبَاهُمْ ، لَكِنْ الْجَهْلُ الْغَالِبُ عَلَيْهِمْ اسْتَنْطَقَهُمْ بِمَا فِيهِ فَضْأَتْهُمْ .

(١) أَخْطَأَ النَّاسِخُ فَكَتَبَهَا (مَشْرُوعِينَ) بِالْتَّعَافِ .

قوله جل ذكره : ﴿ افطر كيف كذبوا على أنفسهم
وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ .

هذه كلمة تعجب ؛ يعنى إن قصتهم منها ما هو محل التعجب لامثالكم .

قوله جل ذكره : ﴿ ومنهم من يستمع إليك وجعلنا
على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي
آذانهم وقراً ﴾ .

بين أن السمع — فى الحقيقة — ممع القبول ، وذلك عن عين اليقين يصدر ، فأما سميع
الظاهر فلا عبرة به .

ويقال من ابتلاه الحق بقلب مطبق ، ووضع فوق بصيرته غطاء التليس لم يزد ذلك
إلا نفرة على نفرة .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن يروا آية لا يؤمنوا بها
حتى إذا جاءوك يجادلوك يقول
الذين كفروا إن هذا إلا أساطير
الاولين ﴾ .

يعنى من أقصته القصة الأزلية لم تنعشه الحيلة الأبدية^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وهم ينهون عنه وينأون وإن يهلكون
إلا أنفسهم (و) ﴾^(٢) ما يشعرون ﴾ .

فى هذه الآية إشارة صعبة (لمن)^(٣) يدعو إلى الحق جهراً ثم لا يأتى بذلك سرّاً .

ويقال خالفت أحوالهم قضايا أقوالهم ، وجرى إجرامهم مجرى من ألقوا حبالهم على
غاربيهم ، وكذلك من أبعد عن القصة لم يقربه فعله .

(١) تساوى هذه العبارة فى المعنى ما يأتى بعد قليل (وكذلك من أبعد عن القصة لم يقربه فعله) .

(٢) سقطت الواو من النسخ فأثبتناها .

(٣) وردت (لم) وهى خطأ فى النسخ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا
يَالَيْتَنَّا زُودُوا وَلَا نُكْتَبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا
وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

يعنى حين ينتجز للعبد ما وعده له من القربة يشغل من شاء بنوع من العلة حتى لا يطلع أحد
على محل الأسرار .

قوله جل ذكره : ﴿ بَلْ بَدَأَ لِمَ مَا كَانُوا يَخْفَوْنَ مِنْ قَبْلِ
وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ
لَكَاذِبُونَ ﴾ وقالوا إن هي إلا حياتنا
الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴾ .

غداً يوم تهتك الأستار ، وتظهر الأسرار — فكم من مجلّل بشوب تقواه ، ويحكم له
معارفه بانه زاهد في دنياه ، راغب في عقباه ، محب لمولاه ، مفارق لهواه ، فيكشف الأمر عن
خلاف ما فهموه ، ويفتضح عندهم بغير ما ظنوه .

وكم من متهتك ستر بما أظهر عليه ا ظن الكل أنه خليع العذار هيئ الأعلال ، مشوش
الأسرار ، فظهر لذوى البصائر جوهره ، وبدت عن خفايا الستر حقيقته^(١) .

ثم قال : « وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ » أخبر عما علم أنه لا يكون أنه لو كان كيف
كان يكون ، فقال لو رُدُّ أهل العقوبة إلى دنياهم لعادوا إلى جحدهم وإنكارهم ، وكذلك
لو رُدُّ أهل الصفاء والوفاء إلى دنياهم لعادوا إلى أحسن أعمالهم :

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ
أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ ؟ قَالُوا : بَلَىٰ وَرَبِّنَا

(١) لاحظ كيف ان التشيرى متأثر إلى حد كبير بتعاليم الملامية ، فأهل الملامية يقومون بأعمال
تستوجب ملامة الناس ستراً لأسرارهم وصوغاً لأحوالهم قصداً إلى محاربة دعوى النفس ، والاكتفاء بعلم
الحق بأحوالهم وحقائقهم .

قال : فدوقوا العذاب بما كنتم
تَكْفُرُونَ .

يا حسرة عليهم من موقف الخجل ، ومحل مقاساة الوجل ، وتذكر تقصير العمل !
فهم واقفون على أقدام الحسرة ، يقرعون أسنان الندم حين لا ندم ينفعهم ، ولا شكوى
تُسمع منهم ، ولا رحمة تنزل عليهم .

وحين يقول لهم : أليس هذا بالحق ؟ يُقِرُّون كارهين ، ويصرخون بالتبري عن كل غير
قوله جل ذكره : ﴿ قد خسر الذين كذبوا بقاء الله حتى
إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا
على ما فرطنا فيها ، وهم يحملون أوزارهم
على ظهورهم ألا ساء ما يزرون ﴾
وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار
الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ؟
قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون
فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين
بآيات الله يجحدون ﴾

خسران وأى خسران ! لم يخسروا مالا ، ولا مقاماً ولا حالاً ، ولكن كما قيل :
لعمرى لئن أنزفت دمي فإنه لفرقة من أفنيت في ذكره عمرى
للصيبة لهم والحسرة على غيرهم ، ومن لم يعرف جلال قدره متى تأسف على ما يفوته من
حديثه وأمره !

وقوله : « وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو » : ما كان للنفس فيه حظ ونصيب اليوم فهو
من الدنيا ، وما كان من الدنيا فإنه — لا محالة — يلبيك عن مولاك ، وما يشغلك عن الحق
ركونه فغير مبارك قريب .

قوله : « قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن
الظالمين بآيات الله يجحدون » : هذه تعزية للرسول — صلى الله عليه وسلم

وتسلية . أى قد نعلم ما قالوا فيك وهم إنما قالوا ذلك بسببنا ولأجلنا . ولقد كُنتَ عظيمَ الجاه
فيهم قبل أن أوقنا عليك هذا الرقم ؛ وكانوا يسمونك محمداً الأمين ، فإن أصابك ما يصيبك
فَلِأَجْلِ حَدِيثِنَا ، وَغَيْرِ ضَائِعٍ لَكَ هَذَا عِنْدَنَا ، وَحَالُكَ فِينَا كَمَا قِيلَ :

أشاعوا لنا في الحى أشنع قصة . وكانوا لنا سلفاً فصاروا لنا حرباً

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا

عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ

نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ

جَاءَكَ مِنْ نَبَأِى الْمُرْسَلِينَ ﴾

يعنى إِنَّ مَنْ سَلَكَ سَبِيلَنَا صَبَرَ عَلَى مَا أَصَابَهُ مِنْ حَدِيثِنَا ، فَلَا خَسِرَتْ فِينَا صَفْقَتُهُ ،
وَلَا خَفِيتْ عَلَيْنَا حَالَتُهُ ، وَمَا قَابَلَ حُكْمَنَا مِنْ عَرَفْنَا إِلَّا بِالْمُهْجِ ، وَمَا حَمَلُوا مَا لَقُوا فِينَا
إِلَّا عَلَى الْحَدَقِ :

إِنَّ الْأَلَى مَاتُوا عَلَى دِينِ الْهَوَى وَجَدُوا الْمَنِيَةَ مِنْهَا مَسُولاً

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ كَانَ كِبَرٌ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ

اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغَى نَفَقًا فِي الْأَرْضِ

أَوْ سُلًى فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيهِمْ بَأْيَةٌ ،

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدَى

فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾

لفرط شفقته — صلى الله عليه وسلم — استقصى في التماس الرحمة من الله لهم ، وحمل على
قلبه العزيز بسبب ما علم من سوء أحوالهم ما أثر فيه من فتون الأحران . فعرّفه أنهم مُبْعَدُونَ
عن التقريب ، منكوبون بسالف القسمة .

ولو أراد الحق — سبحانه — تَلَقَّفَ عنهم ، ولو شاء أن يهديهم لكان لهم مقبل في
الصدور ، ومشوى على النشاط ، ولكن مَنْ كَبَسَتْهُ الْعِزَّةُ لَمْ تَنْعِشْهُ الْحِيلَةُ .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى

يُبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾

مَنْ فَقَدْ الاسْتِمَاعُ فِي سِرَائِرِهِ عَدِمَ تَوْفِيقَ الْإِتِّبَاعِ بِظَاهِرِهِ ، وَالْإِخْتِيَارُ السَّابِقُ فِي مَعْلُومِهِ
— سُبْحَانَهُ — غَالِبٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ

قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً

وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

استزادوا من المعجزات وقد حصل من ذلك ما يذبح العنبر ، ولم يعلموا أن الله المانع لهم

فلولا ما (. . .) (١) من بصائرهم لما تَوَاهَمُوا من عدم دلائلهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَائِرٍ

يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ

مَافَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ

ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾

يعنى تساوت المخلوقات ، وتمائلت المصنوعات في الحاجة إلى المنشئ : في حال الإبداع

ثم في حال البقاء ، وكذلك جميع الصفات النفسية والنعوت الذاتية توقفت عن الإيجاد

والاختيار ، فإما من شيء من عينٍ وأثر ، ورسم وطلل . . . إلا وهو على وحدانيته شاهدٌ ،

وعلى كون أنه مخلوق . . . دليلٌ ظاهرٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّ

وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ، مَنْ يَشَأُ اللَّهُ

يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأُ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ ﴾

الذين فاتهم العناية الأزلية سدَّ الحرمانُ أسماعهم ، وغشى الخذلانُ أبصارهم .

(١) مشبهة وربما كانت (سد) فهي في الخط إلى ذلك أقرب .

والإرادة لا تُعارض ، وللمشيئة لا تزام^(١) ، والحق — سبحانه — في جميع الأحوال غالب .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أَرَأَيْكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ ، أَعْبَرُوا اللَّهَ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ * بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتُنسون ما تُشركون *

إذا مسكم الضر ، ونائبكم أمر فين ترومون كشفه ؟ ومن الذي تؤملون لطفه ؟ مخلوقاً شرقياً أم شخصاً غربياً ؟ أم ملكاً سماوياً أم عبداً أرضياً ؟

ثم قال : ﴿ بل إياه تدعون ﴾ : أي إنكم — إن تذللتم بنفوسكم أو فكرتم طويلاً بقلوبكم — لن تجدوا من دونه أحداً ، ولا عن حكمه ملتجداً ، فتعودون إليه في استكشاف الضر ، واستلطاف الخير والبر ، كما قيل :

ويرجى إليك — وإن تنامت ديارى عنك — معرفة الرجال

و قد تركناك للذي تريد فمضى إن خبرته أن تعودا

فإذا جربت الكل ، وذقت الملو والحر ، أفضى بك الضر إلى بابه ، فإذا رجعت بنت الانكسار ، وشواهد الذل والاضطرار ، فإنه يفعل ما يريد : إن شاء أتاح البسر وأزال العسر ، وإن شاء ضاعف الضر وعوض الأجر ، وإن شاء ترك الحال على ما (قبل)^(٢) السؤال والابتهاال .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد أرسلنا إلى أممٍ من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم ينضرعون ﴾ *

(١) وردت (تزام) بإلقاء وهي خطأ في النسخ

(٢) وردت (قبل) وهي خطأ في النسخ .

يخبر عن سالف سنته في أبداء الأمم وما أوجب لمن أطاعه منهم من النعم والكرم ،
وما أحلّ بمن خالفه من الألم وفتون النعم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا
وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ
الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فلما
نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم
أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا
بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم
مبلسون ﴿

يعنى أنهم لما أظلمهم البلاء ، فلو رجعوا يجميل التضرع وحسن الابتهاال والتلق
لكشفنا عنهم المحن ، ولأفتحنا لهم المكن ، ولكن صدم الخذلان عن العقبي فأصروا على
تمردهم ، فقست قلوبهم وتضاعفت أسباب شقوتهم .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ يخبر عن خفي مكره بهم ، وكيف أنه
استدرجهم ، ثم أذاقهم وبال أمرهم فقال : لما طالت عن الحضرة غيبتهم ، ولم تنجح
مواظبتنا فيهم سهلنا لهم أسباب العوافي وصيبنا عليهم عزالي (١) النعم ، وفتحنا لهم أبواب
الرفاهية ، فلما استمكن الرجاء من قلوبهم أخذناهم بغتة وعذبناهم فجأة ، وأذقناهم حسرة
فإذا هم من الرحمة قانطون ، ولما خامر قلوبهم — من أسباب الوحشة عن الاستراحة بدوام
للنجااة — آيسون .

قوله جل ذكره : ﴿ فَقَطِّعْ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا
والحمد لله رب العالمين ﴾

فلم يلبثوا إلا يسيراً حتى لم يبق منهم عين ولا أثر ، ولم يرَ حديث منهم أو خبر ،

(١) المزالي : يقال أنزلت السماء هزاليها إشارة إلى شدة وقع المطر

والله — سبحانه وتعالى — بنعت العِزِّ واستحقاق الجلال لا عن فقْدِهِم له استيعاش ،
ولا بوجودهم استرواح أو استبشار^(١)

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ
وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ
غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ
نُصَرِّفُ الْآيَاتِ نَمْ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾

عرّفهم محلّ عجزهم ، وحقيقة حاجتهم إلى القدرة القديمة لدوام فقرهم .
وحذّرهم فقال : إِنْ لَمْ يُدِمْ عَلَيْهِمْ نِعْمَةُ أَسْمَاعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ، ولم يوجبْ لهم ما ألبسهم
من العوائق — بكل وجهٍ في كل لحظة — فمن الذي يهب ما سلبه ، أو يضع ما منعه ، أو يعيد
ما نفاه ، أو يرُدُّ ما أبداه ؟ كلا . . . بل هو الله تعالى .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ
بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ ﴾^(٢)

يقول إِنْ عَجَلَ مَوْعِدُهُ لَكُمْ مِنَ الْعِقَابِ أَفْتَرُونَ أَنْ غَيْرَ الْمُسْتَوْجِبِ يُبْتَلَى ؟ أو أَنْ
الْمُسْتَحِقَّ لَهُ يَجِدُ مِنْ دُونِهِ مَهْرَبًا وَمَتَجَى ؟ إِنْ هَذَا مُحَالٌ مِنَ الظَّنِّ .

قوله جل ذكره ، ﴿ وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ
وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ
فَلَاخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ *
وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يُمْسِكُهُمُ الْعَذَابُ
بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾

(١) فالحق — سبحانه — لا يلحقه زين بطاعة المطيع ولا شين بمعصية العاصي .

(٢) أخطأ الناسخ فكتبها (الظالمين)

يعنى ليس أمرنا لم إلا بالتزام ما فيه تجاههم ، ثم بجميل الوعد لهم ، ومفارقة ما فيه هلاكهم ، ثم بأليم العقوبة فى الأجل ما يحصل من خلافهم .

فَمَنْ آمَنَ وَصَدَّقَ آبْنَجَزْ نَالَهُ الْوَعْدُ ، وَمَنْ كَفَرَ وَجَحَدَ عُلُوضًا عَلَيْهِ الْأَمْرُ ، وَأَدْخَلْنَا عَلَيْهِ الضَّرَّ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ ،

وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبُ ، وَلَا أَقُولُ لَكُمْ

إِنِّ مَلَكٌ إِنَّا تَبِيعُ إِلَّا مَا يُوْحَى

إِلَى قُلْ هَلْ يَسْتَوِ الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ

أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾

يعنى قل لهم إني لا أتخطئ خطئ ، ولا أتمدِّي حدِّي ، ولا أثبتُ من ذات نفسى شيئاً ، وإنما يقال لى أبلغتُ ؟ وأقول : أَجَلٌ ، أَوْصَلْتُ .

ثم قال : « قل هل يستوى الأعمى والبصير » : هل يتشاكل الضوء والظلام ؟ وهل يتماثل الجحْدُ والتوحيد ؟ كلا . . . لا يكون ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأُنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا

إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ

وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

الإِندَارُ إعلَامٌ بمواضع الخوف ، وإنما خص الخائفين بالإِندَار كما خص المتقين بإضافة الهدى إليهم حيث قال : « هدى للمتقين » لأن الاتِّباع والاتِّباع بالتقوى ، والإِندَار اختص بهم .

ويقال : الخوف هاهنا العلم ، وإنما يخاف من علم ، فأما القلوب التى هى تحت غطاء الجهل

فلا تباشرها طوارقُ الخوف .

قوله : « من دونه من ولي ولا شفيع » يعنى كما أنه لا ناصر لهم من الأغيار فلا معتمد لهم

من أفعالهم ، ولا مستند من أحوالهم ، ولا (يؤمنون)^(١) شيئاً سوى صرف العناية

وخصائص الرحمة .

(١) الصواب أن تكون (يأمنون) لأن ما بعدها منصوب ، ولو كانت يؤمنون لكان ما بعدها مجروراً ، والسياق يقوى اختيار (يأمنون) .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم

بالفداء والعشي يريدون وجهه

ما عليك من حسابهم من شيء

وما من حسابك عليهم من شيء

فتطردم فتكون من الظالمين ﴾

هذه وصية له — صلى الله عليه وسلم — في باب الفقراء والمستضعفين ، وذلك لما قصرُوا لسان المعارضة عن امتدفاع ما كانوا يصدده من أمر إخلاء الرسول — صلوات الله عليه وسلامه — بمجلسه منهم ، وسكنوا متضرعين بقلوبهم بين يدي الله أراد أن يُبين له أثر حسن الابتهاال فتولى — سبحانه — خصيمتهم .

وقال : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالفداء والعشي يريدون وجهه » : لا تنظر يا محمد إلى خرقهم على ظاهرهم وانظر إلى حرقهم في سرائرهم^(١) ويقال كانوا مستورين بحالتهم فظهرهم بأن أظهر قصتهم ، ولولا أنه — سبحانه — قال « يريدون وجهه » فشهد لهم بالإرادة وإلا فن يتجاسر أن يقول إن شخصاً مخلوقاً يريد الحق سبحانه ؟

ويقال إذا كانت الإرادة لا تتعلق — في التحقيق — إلا بالحدوث ، وحقيقة الصمدية متقدمة عن الاتصاف بالحدثان ، فمن المعلوم أن هذه الإرادة ليست بمعنى المشيئة ، ولا كاشتقاق أهل اللغة لها^(٢) .

فيقال تكلم الناس في الإرادة : وأكثر تحقيقها أنها احتياج يحصل في القلوب يسلب

(١) واضح من كلام القشيري اتصاف هذا النفر بصفات كثيرة تدنو بهم من أهل التصوف ، وهكذا نجد أن السهروردي في مقدمة « عوارفه » يوضح أن سبب نزول هذه الآية في أهل المشقة الذين كانوا يلامون صفة مسجد المدينة وليس لهم شغل سوى العبادة وتلاوة القرآن وكان أحدهم إذا ركب قبض بيديه مخافة أن تبدو عورته لتمزق ثوبه . . . الخ (عوارف المعارف ص ٤٧) .

(٢) يقول القشيري في هذا المعنى في « رسالته » : المرید — على موجب الاشتقاق — من له إرادة كالعالم من له علم ، لأنه من الأسماء المشتقة ، ولكن المرید — في عرف هذه الطائفة — من لا إرادة له ، فن لم يتجرد عن إرادته لا يكون مریداً (الرسالة ص ١٠١)

القرار من العبد حتى يصل إلى الله ؛ فصاحب الإرادة لا يهدأ^(١) ليلاً ولا نهاراً ، ولا يجد من دون وصوله إليه — سبحانه — سكناً ولا قراراً ، كما قال قائلهم :

ثم قطعتُ الليلَ في مهمّةٍ لا أسداً أخشى ولا ذيباً
يفلبنى شوقى فأطوى السرى ولم يزلْ ذو الشوق مغلوباً

ويقال تقيّدت دعوتهم بالغداة والعشيّ لأنها من الأعمال الظاهرة ، والأعمالُ الظاهرة مؤقتة ، ودامت إرادتهم فاستغرقت جميع أوقاتهم لأنها من الأحوال الباطنة ، والأحوال الباطنة سرمدية غير مؤقتة ، فقال : « يدعون ربهم بالغداة والعشيّ » ثم قال : « يريدون وجهه » أى يريدون وجهه فهى فى موضع الحال^(٢) .

ويقال أصبحوا ولا سؤال لهم من دنياهم ، ولا مطالبة من عقابهم ، ولا هم سوى حديث مولاهم ، فلما تجردوا لله تحضت عناية الحق لهم ، فتولّى حديثهم وقال : ولا تطردم — يا محمد — ثم قال : ما عليك من حسابهم من شيء ؛ فالفقير خفيف الظهر لا يكون منه على أحد كثير مشونة ؛ قال تعالى : « ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء » . لا تطالب بحسابهم ولا يطالبون بحسابك ، بل كلٌّ يتولى الحق — سبحانه — حساباً ؛ فإن كان أمره خيراً فهو ملاقيه ، وإن كان شراً فهو مقاسيه .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾

أما الفاضل فليشكر ، وأما المفضول فليصبر .

ويقال سبيل المفضول على لسان المحبة الشكر ، ولا يتقاصر شكره عن شكر الفاضل ، قال قائلهم فى معناه :

أتانى منك سببك لى فسئى أليس جرى بفيك اسمى ؟ فسئى

(١) وردت (ولا يهدى) والصواب أن تكتب (ولا يهدأ) منأ لبس .

(٢) أى لأن الجملة الفعلية (يريدون وجهه) تعرب حالا

وقال آخر :

وإن فؤاداً بعثه — لك شاكرٌ وإن دماً أجرته — لك حامدٌ
قوله جل ذكره : ﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآيتنا فقل
سلامٌ عليكم ﴾

أحله محل الأكبر والسادة ، فإن السلام من شأن الجاني إلا في صفة الأكبر ، فإن الجاني
أو الآتي ينكت لمية المآتي حتى يتبدى ذلك المقصود بالسؤال ، فعند ذلك يجيب الآتي .
ويقال إذا قاسوا تعب المجيء فأزل عنهم المشقة بأن قل : « سلام عليكم » .
ويقال السلام هو السلامة أى فقل لهم سلام عليكم ؛ سلمتم في الحال عن الفرقة وفي المال
عن الحرقة ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾
إن وكل بك من كتب عليك الزلة فقد تولى بنفسه لك كتابة الرحمة .
ويقال كتب بمعنى حكم ، وإنه ما حكم إلا بما علم .
ويقال كتابته لك أزلية ، وكتابته عليك وقتية ، والوقتية لا تبطل الأزلية .

قوله جل ذكره : ﴿ أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة
ثم تاب من بعده وأصلح فأنه
غفورٌ رحيم ﴾

يعنى من تعاطى شيئاً من أعمال الجهال ثم سوف في الرجوع والأوبة قابلناه ، يعنى من
تعاطى شيئاً بحسن الإمهال وجميل الأفضال ، فإذا عاد بتوبة وحسرة أقبلنا عليه بكل
لطف وقبول .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك نفضل الآيات ولتستبين
سبيل المجرمين ﴾ .

(١) أى سلمتم في الدنيا من عذاب نأبه وهجره ، وسلمتم في الآخرة من عذاب جهنم ذات الحريق .

نزِيل الإِشْكَالِ ، وَنُقْصِحُ^(١) طَرِيقَ الاسْتِدْلَالِ ، وَنُطْلِعُ شُمُوسَ التَّوْحِيدِ ، وَنُعِدُّ أَهْلَهُ
بِحَسَنِ التَّأْيِيدِ ، وَنَسِمْ قُلُوبَ الْأَعْدَاءِ بِوَسْمِ الْخُذْلَانِ ، وَنَذِيقُهُمْ شَوْمَ الْحَرَمَانِ لِثَلَا يَبْقَى لِأَحَدٍ
عَذْرٌ ، وَلَا فِى الطَّرِيقِ إِشْكَالٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إِنِّى نُهُيتُ أَنْ أُعْبَدَ الَّذِينَ
تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ
أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ
الْمُهِنِينَ ﴾ .

يعنى صرّح بالاعتراف بمجمل ما خصصناك به من وجوه العصمة والنعمة ، وأخبرهم أنك
فى كنف الإيواء مُتَقَلِّبٌ ، وفى قبضة (الصون) مُصَرَّفٌ ؛ فلا للهوى عليك سلطان ، ولالك
من محل التحقيق تباعد أو عن الحضور غيبة .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إِنِّى عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى وَكَذَّبْتُمْ
بِهِ مَا عِنْدِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ
الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ
الْفَاصِلِينَ ﴾ .

قُلْ إِنْ اللَّهَ — سبحانه — لم ينادرنى فى قطر الطلب والتباس التحير ، وأغنانى عن
(كَذِّ)^(٢) الاستدلال ، وَرَوَّحْنِى بِشُمُوسِ الْحَقِيقَةِ . وَلَئِنْ بَقِيتُمْ فى ظِلْمَةِ الْإِلْتِبَاسِ فَلَيْسَ لى
قدرة على إزالة ما مُنِنْتُمْ به من التحير ، ونفى ما امْتَحَنْتُمْ به من الجهالة والتردد .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ
لَقَضِىَ الْأَمْرَ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ
بِالظَّالِمِينَ ﴾ . وعنده مفاتح الغيب

(١) من الانصاح وهو الإيابة والايضاح .

(٢) وردت (قد) والقعود عن الاستدلال وكده — حسبما نعرف من أسلوب القشيري فى مثل
هذا الموضع .

لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما في البر
والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها
ولا حبيّة في ظلمات الأرض ولا رطب
ولا يابس إلا في كتاب مبين . ﴿

لو قدرتُ على إبداء ما طلبتم من إقامة البراهين لأجبتكم إلى كل ما اقترحتم على —
شفقةً عليكم ، لكن للتفرّد بالحكم لا يُعارضُ فيما يريد .

« وعنده مفاتيح الغيب » : المفتاح ما به يرتفع الغلق ، والذي يحصل مقصود كل أحد ،
وهو قدرة الحق — سبحانه ، فإنّ التأثير لما في الإيجاد ، والوصوفُ بقدرة الإيجاد هو الله ؛
ويقال أراد بهذا شمول علمه ، أي هو المتفرّد بالإحاطة بكل معلوم ، وقطعاً لا يُسأل عن
شيء ، ولا يخفى عليه شيء .

ويقال عندك مفاتيح^(١) الغيب وعنده مفاتيح الغيب فإن آمنت بغيبه مدّ الشمس
على غيبك .

قوله جل ذكره ﴿ وهو الذي يتوفّاكم بالليل ويعلم
ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه
ليُقضى أجلٌ مسّى ثم إليه مرجعكم
ثم ينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ .

إنه يتوفّى الأنفس في حال النوم وفي حال الوفاة ، وكما أنه لا يعاقبك بالليل فإنه لا يعذبك
— إذا توفّاك — على ما جرحت بالنهار مع علمه بأفعالك ، فبالحرى ألا يعذبك غداً
— إذا توفّاك — على ما علمه من قبيح أحوالك .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو القاهر فوق عباده ويرسلُ

(١) نسبة المفاتيح إلى الانسان — إن صحّ — أن التشبیه قائلها — يمكن تأويلها على أنها جمع مفتاح مصدر
مبني بمعنى الفتح والفتوح وما من فضل الله ، ولكنها بالنسبة إلى المفاتيح الإلهية كنسبة ضوء المصباح
إلى ضوء الشمس ، إذا ظهر شعاع الشمس غمر ضوء المصباح . . . هكذا نفهم من السياق — والله أعلم .

عليكم حَفَظَةٌ حتى إذا جاءَ أَحَدَكمُ
الموتُ توفَّتُهُ رُسُلُنا وهم لا يَفِرُّونَ ﴿١﴾ .

فوق عبادته بالقهر والرفعة ، وفوقهم بالقدرة على أن يُعَذِّبَهُم من فوقهم بإِزالِ العقوبة
عليهم والسخطة .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ ، أَلَا
لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾ .

رَدُّهم إِلَى نفسه . وما غابوا عن القبضِة .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِنْ ظِلْمَاتِ الْبَرِّ
وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ
أُتِيجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ
الشَّاكِرِينَ ﴾ .

تذكير النعمة يوجب الزيادة في المحبة ، فإنه إذا عرف جيلًا أسداه تمكن من
قلبه الحب .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ اللَّهُ يُنْجِيكُمْ مِنْهَا وَمَنْ كُلِّ
كُوبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾

للمنفردُ بالقدرة على إيجادكم اللهُ ، والذي هو (الْخَلْفَ) (١) عما يفوتكم اللهُ ، والذي
حكمَ بِنجاتكم اللهُ ، والذي يأخذ بأيديكم كلما عثرتم اللهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ
عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ
تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا ﴾

إذا أراد اللهُ هلاك قومٍ أمرَ البلاء حتى يحيط بهم سرادقه كما يحيط بالكفار عذاباً إذا

(١) وردت (الخلق) بالكاف وهي خطأ في النسخ .

أدرّكهم العقوبة ، وخرج بعضهم على بعض ؛ حتى يتبرأ التابع من المتبوع ، والمتبوع من التابع .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ ،
انظُرْ كَيْفَ نَصَرَفَ الْآيَاتِ لِعَلِّهِمْ
يَفْقَهُونَ ﴾

لا طعمَ أَرَدَ الإنسان من طعم الإنسان : إن شئتَ من الولاية والمحبة ، وإن شئتَ في العداوة والبغضة ؛ فَمَنْ مُنِيَ بالبغضة مع أشكاله تنغصَّ عليه عَيْشُهُ في الدنيا ، وَمَنْ مُنِيَ بحبة أمثاله تكدر عليه حاله مع المولى ، ومن صانه عن الخلق فهو المحفوظ (المعاني) (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ
قُلْ لستُ عليكم بوكيل * لِكُلِّ
نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾

يعنى قل لهم إنما على تبليغ الرسالة ، فأما تحقيق الوصلة بالوجود والحال فَمِنْ خصائص القدرة وأحكام المشيئة الأزلية .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ
فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى
يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾

لا توافقهم في الحالة ، ولا ترد عليهم ببسط القالة . ذَرَّهُمْ ووحشهم بِحُسْنِ الإعراض عنهم ، والبعد عن الإصغاء إلى تهاويشهم بِحُسْنِ الاقتباس .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ
بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾

(١) المحفوظ (المعاني) أى محفوظة معانيه ، وربما كانت فى الأصل (المعاني) بالفاء المفتوحة أى المصون عن كل أذى وعلّة .

أَيُّ إِنَّ بَدَرَ مِنْكَ تَغَافُلٌ فَتَدَارِكُتَهُ بِحَسَنِ التَّذَكُّرِ وَجَمِيلِ التَّنَبُّهِ ، فَاجْتَهِدْ أَلَا (نزل^(١))
فِي تِلْكَ الْغَلْطَةِ قَدَمُكَ ثَانِيَةً لِّثَلَا تَقَاسَى أَلِيمَ الْعُقُوبَةِ مِنَّا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ
مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرٌ لِّعَلَّهُمْ
يَتَّقُونَ ﴾

أَيُّ مَنْ كَانَ نَقِيًّا (١ الثوب)^(٢) عَنْ ارْتِكَابِ الْإِجْرَامِ يُعْزَلُ يَوْمَ نَشْرِهِ عَنْ مِلَاقَةِ
تِلْكَ الْأَلَامِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَمِبًا
وَلَهُوَ غُرَّتُهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَّرَ بِهِ
أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ
لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ،
وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلٌّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ
مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا
لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ
بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾

أَيُّ كَلِّهِمْ وَمَا اخْتَارُوهُ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لَهُمْ (مِنْ خَفِيٍّ الْمَكْرِ مَا إِذَا أَطْلَنَاهُ بِهِمْ كَسَرْنَا
عَلَيْهِمْ)^(٣) نُخَارِ الْوَهْمَ وَالْغِلْظَةَ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أُنَدِّعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ
مَا لَا يَنْفَعُنَا . وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى
أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي

(١) وردت (نذل) بالذال والصواب أن تكون بالزاي (نزل) أي تقع فهذا هو الملائم للسياق .

(٢) وردت (الثوب) والصواب أن تكون (الثوب) فهو الذي يوصف بالنقاء .

(٣) ما بين القوسين موجود في هامش الورقة أثبتناه في موضعه حسب العلامة المبينة .

استهوت الشياطينُ في الأرض ،
حيرانَ ، له أصحابٌ يدعونهُ إلى
الهُدَى ائْتِنَا * قُلْ إِنْ هُدَى اللَّهُ
هُوَ الْهُدَى ، وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ
لربِّ العالمين *

أى كان الكفار يدعون المسلمين إلى الرجوع عن الدين والموءد إلى الشرك ، فقال
لهم الله : قل لهم — يا محمد — : أَنُؤْتِرُ الضلالَ على الهدى بعد طلوع شمس البرهان ؟
ونَدَعُ الطريقة المثلى بعد ظهور البيان ؟ ونترك عقوة الجنة وقد نزلناها ؟ ونطلب
الجحيم مشوى بعد ما كُفيناها ؟ إِنَّ هذا بعيدٌ من المعقول ، محالٌ من الظنون .
وكيف يساعد أتباعُ الشيطانِ مَنْ وَجَدَ الخلاصَ من صحتهم ، وأبصر النفى
من صفتهم ؟

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُواهُ وَهُوَ الَّذِي
إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ .

أى أَمَرْنَا بملازمة محل المناجاة لأن اللسان إن تَوَدَّ نجوى السلطان متى ينطق
(بمكاملة) ^(١) الأَخْسَرُ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ
بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ
الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ
عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ
الْخَبِيرُ ﴾ .

يعنى أنه لا يعترض على قدرته — سبحانه — حدوث مقصود ، ولا يتقاصر حكمه عن
تصريف موجود .

(١) وردت (مكاملة) والأوفق بالنسبة لسان أن تكون (مكاملة) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ
أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ
فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ .

الأصل منهم في الجحود ، والنَّسْلُ منصّف بالتوحيد ، والحقّ — سبحانه —
يفعل ما يريد .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ
مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ .

لاطفه بسابق العناية ، ثم كاشفه بإلاحق الهداية فأراه من دلالات توحيده ما لم يبق
في (قضاء)^(١) سرّه شظية من غبار العيب ، فلما صحا من غيم التجوز^(٢) سما سرّه فقال
بنى الأغيار جملة ، وتبرأ عن الجميع ولم يفادر منها تهمة .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ
هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ
الْأَفْلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا
قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ
يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً
قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ
قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾

(١) وبما كانت (قضاء) بالفاء فالقبار والقيم يلفقان بالقضاء .

(٢) المقصود من ذلك ما أصاب إبراهيم من اضطراب ، وهنا افقه دكية من القشيري حيث أراد وصف
العقل بالتجوز لانهصار دائرته في نطاق الحس ، وعدم استطاعته تجاوز هذا النطاق لأنه معند عليه .

يعنى أحاطت به (سجوف) ^(١) الطلب ، ولم يتجل له بعد صباح الوجود ، فطلع نجم العقول
فشاهد الحق سره بنور البرهان ، فقال : هذا ربى ثم يزيد فى ضيائه فطلع له قمر العلم فطالعه
بشرط البيان ، « فقال هذا ربى » .

ثم (أسفر) ^(٢) الصبح وتمع النهار فطلعت شمس (العرفان) ^(٣) من برج شرفها فلم يبقَ
للطلب مكان ، ولا للتجويز حكم ، ولا للهمة قرار فقال : « يا قوم إني برى مما تشركون »
إذ ليس بعد العيان ريب ، ولا عقيب الظهور ستر .

ويقال قوله — عند شهود الكواكب والشمس والقمر — « هذا ربى » إنه كان يلاحظ
الآثار والأخبار بالله ، ثم كان يرى الأشياء لله ومن الله ، ثم طالع الأغيار محواً فى الله .

قوله جل ذكره : ﴿ إني وجهت وجهي للذي فطرَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا
مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

أفردت قصدى لله ، (وطهرت) ^(٤) عقدى عن غير الله ، وحفظت عهدي فى الله ،
وخلصت وجدى بالله ، فأبى الله بالله ، بل (محو) ^(٥) فى الله والله الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وحاجته قومه قال أنم حاجوني فى الله
وقد هدأن ولا أخاف ما تشركون
به إلا أن يشاء ربى شيئاً وسيع ربى
كل شيء علماً أفلا تتذكرون ﴾ .

يعنى قال لهم أترومون ستر الشمس بإسبال أكمامكم عليها أو تريدون أن تجروا ذبولكم
وأن تسدلوا سجوفكم على ضياء النهار وقد تعالى سلطانه وتعالى بيانه ؟

(١) سجوف جمع سَجَفَ ورسَجَف وهو الستر ، وأرخى الليل سجوفه أى ظلمته .

(٢) وردت (أسفر) والصواب أن تكون (أسفر) الصبح .

(٣) لاحظ كيف طبق القشرى نظريته فى المعرفة على ندرج إبراهيم (عم) فى الوصول إلى حقيقة
الألومية من عقاية ونورها البرهان إلى قلبية ونورها البيان إلى كشفية ونورها العرفان ،

(٤) وردت (ظهرت) بالطاء والصواب أن تكون بالطاء

(٥) وردت (م هو) بالهاء والصواب أن تكون بالحاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وكيف ^(١) أخاف ما أشركتم ولا تخافون

أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به
عليكم سلطاناً فأى الفريقين أحق
بالأمن إن كنتم تعلمون ﴾

يعنى وأى خوف يقع على قلبى ظلّه ولم أَلَمْ بِشِرْكٍ ولم أُنَجِّح قطُّ إلى جحد ؟ وأنتم
ما شئتم رائحة التوحيد فى طول عمركم ، ولا ذقم طعم الإيمان فى سالف دهركم ، ثم بسوء
ظنكم نجاسرتهم وما ارعويتم ، وخسرتم وما باليتهم . فأينما أولى أن يُعْلِنَ بسرّه ما هو بصدده
من سوء مكرّه وعاقبة أمره ؟

قوله جلّت قدرته : ﴿ الذين آمنوا ولم يَلْبِسُوا إيمانهم
بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾

أى الذين أشاروا إلى الله ثم لم يرجعوا إلى غير الله ؛ فإن من قال « الله » ثم رجع
بالتفضيل — عند حاجاته أو مطالباته أو شىء من حالاته إلى غير الله فخصمه — فى الدنيا
والعقبى — الله .

والظلم — فى التحقيق — وضع الشىء فى غير موضعه ، وأصعبه حساب أن من الحدّثان
ما لم يكن وكان ؛ فإنّ المنشئ ، الله ، والمُجَرِّى الله ، ولا إله إلا الله ، وسقط ما سوى الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع
درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ﴾

أشار إلى ترقّيه من شهود آياته إلى إثبات ذاته ، وذلك ترتيب أهل السلوك فى وصولهم
إلى الله ، فالتحق بالآيات التى هى أفعاله ومراعاة ذلك وهى الأولى ؛ ثم إثبات صفاته
وهى الثانية ، ثم التحقق بوجوده وذاته وهو غاية الوصول ، فبرسومه يعرف العبد نعمته ،
وبنعوته يعرف ثبوته ^(٢) .

(١) أخطأ الناسخ إذ كتبها (فكيف)

(٢) للقشبرى كتابان (ترتيب السلوك) و (المقامات الثلاث) لم تصل بعد أيدينا إليها ، أولها توجد
منه مخطوطة بالفاتيكان والثانى استعاره بعضهم من مكتبة جامعة القاهرة ولم يردّه ، فهل يمكن أن نحس أن
هذه الفقرة خلاصة مفتضية لوجه نظره فى ترتيب مقامات السلوك وعددها .

قوله جل ذكره : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ
وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ
وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ
نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى
وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ
﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا
وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ وَمِنْ
آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ
وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿ ذَلِكَ
هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ
عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

ذَكَرَ عَظِيمُ الْمِنَّةِ عَلَى كَافَّةِهِمْ — صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، وَبَيَّنَّ أَنَّهُ لَوْلَا تَخْصِصُهُ إِيَّاهُمْ
بِالتَّعْرِيفِ ، وَتَفْضِيلِهِ لَهُمْ عَلَى سِوَاهُمْ بِغَايَةِ التَّشْرِيفِ ، وَإِلَّا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ اسْتِجَابٌ وَلَا اسْتِحْقَاقٌ .
ثُمَّ قَالَ : « ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَعْمَلُونَ » يَعْنِي لَوْ لَا حَظُّوْا غَيْرَآ ، أَوْ شَاهَدُوا
— مِنْ دُونِنَا — شَيْئًا ، أَوْ نَسَبُوا شُظْيَةً مِنَ الْخُذْثَانِ — إِلَى غَيْرِ قُدْرَتِنَا — فِي الظُّهُورِ لِثَلَاثِي
مَا أَسْلَفُوهُ مِنْ عِرْفَانِهِمْ وَإِحْسَانِهِمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ — سُبْحَانَهُ — لَا يَغْفِرُ الشِّرْكَ بِحَالٍ ، وَإِنْ كَانَ
(يَغْفِرُ) ^(١) مَا دُونَهُ لِمَنْ أَرَادَ .

قوله جل ذكره : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ
وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا
هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَّسُوا بِهَا
بِكَافِرِينَ ﴾

(١) وَرَدَتْ (يَغْفِرُ) وَالصَّوَابُ (يَغْفِرُ) طَبَقًا لِلآيَةِ (إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ غَيْرُ الشِّرْكِ) . . . (الخ) .

يعنى إن أعرض قومك — يا محمد — فليس كل من (. . . .)^(١) على الجحود
أظهرناهم ، بل كثير من عبادنا نزَّهنا — عن الجحود — قلوبهم ، وَعَجَّنَّا بِمَاءِ السَّعَادَةِ طِينَتَهُمْ
وهم لا يحيدون عن التوحيد لحظةً ، ولا يزيغون عن التحصيل شئاً .

قوله جل ذكره : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ

اِقْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا
إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾

أُولَئِكَ الَّذِينَ طَهَّرَ اللَّهُ عَنْ الْجُحْدِ أَسْرَارَهُمْ ، وَرَفَعَ عَلَى السَّكَافَةِ أَقْدَارَهُمْ ، فَاقْتَفَى
— يا محمد — هداهم ، فَإِنْ مَنْ سَلَكَ الْجَادَّةَ آمِنَ مِنَ الْعَنَاءِ .

قوله جل ذكره : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا

مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّنْ شَيْءٍ قُلْ
مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ
مُوسَى نُورًا وَهَدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ
قُرْآنًا تُبْدُونَهَا وَتُنْخَفُونَ كَثِيرًا
وَعُلِمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ
قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾

مَنْ تَوَهَّم أَنْ الْعُلُومَ^(٢) تَحِيطُ بِجَلَالِهِ فَالْإِحَاطَةُ غَيْرُ سَائِفَةٍ فِي نَعْتِهِ ، كَمَا أَنَّ الْإِدْرَاكَ غَيْرُ
جَائِزٍ فِي وَصْفِهِ ، وَكَأَنَّ الْإِشْرَافَ مُحَالٌ عَلَى ذَاتِهِ .

ثم قال : « قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا » أَيْ سَلَّمَ عَنْ الْأَحْوَالِ ،
وَخَاطَبَهُمْ فِي مَعَانِي أَحْكَامِ الرُّسُومِ وَالْأَطْلَالِ ، فَإِنْ بَقُوا فِي ظُلْمَةِ (الْحَيْرَةِ)^(٣) فَقُلْ : اللَّهُ تَعَالَى ،
ثُمَّ ذَرْهُمْ . يَعْنِي صَرِّحَ بِالْإِخْبَارِ عَنِ التَّوْحِيدِ ، وَلَا يَهْوِلُ لَكَ تَعَادِيهِمْ فِي الْبَاطِلِ ، فَإِنَّ تَمْوِيهَاتِ
الْبَاطِلِ لَا تَأْثِيرَ لَهَا فِي الْحَقَائِقِ .

(١) مشبهة .

(٢) يقصد بها علوم العقل .

(٣) وردت (الجبرة) والخطأ في النقط .

قوله جل ذكره : ﴿ وهذا كتاب أنزلناه ، مباركٌ
مُصَدِّقٌ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ
الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ
بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ
يَحَافِظُونَ ﴾

كتابُ الأحبابِ عزيزُ الخطرِ جليلُ الأثرِ ، فيه سلوة^(١) عند غلبات الوجد ، ومن بقى
عن الوصول تذلل للرسول ، وقيل :

وَكُتِبَتْ حَوْلِي لَا تَفَارِقُ مَضْجِعِي وَفِيهَا شِفَاءٌ لِلَّذِي أَنَا كَاتِمٌ
كَأَنِّي مَلْحُوظٌ مِنَ الْجِنِّ نَظَرَةً وَمِنْ حَوَالِي الرُّقَى وَالتَّهَامُ

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا
أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ
وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ
وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ
الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ
أَخْرِجُوا أَنْفُكُمْ الْيَوْمَ تَجْزَوْنَ
عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى
اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ
تَسْكِبُونَ ﴾

يعنى إن الذين يَنْزِلُونَ منزلة المُحدِّثِينَ ، ولم تلق إلى أسرارهم خصائصُ الخطاب —
فالحق — سبحانه عنهم برىء . والتَّسْمِيعُ بما لم يَنْلُ كلابس ثوبي زور ، وفي معناه أنشدوا .
إذا اشتبكت دموع في خدود نبيّن مَنْ بَكَى مِنْ تَبَاكِي

(١) وردت (سلوة) بالصاد وهي خطأ في النسخ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ
أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ
ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَ كُمُ الَّذِينَ
زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ لَقَدْ تَقَطَّعَ
بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنتُمْ
تَزْعُمُونَ ﴾

دَخَلْتَ الدُّنْيَا بِمُخْرَقَةٍ ، وَخَرَجْتَ مِنْهَا بِمُخْرَقَةٍ ، أَلَا وَتِلْكَ الْخُرْقَةُ أَيْضًا (.....) (١) ،
وَمَا دَخَلْتَ إِلَّا بِوَصْفِ التَّجَرُّدِ ، وَلَا خَرَجْتَ إِلَّا بِحُكْمِ التَّفَرُّدِ . ثُمَّ الْأَثْقَالُ وَالْأَوْزَارُ ، وَالْأَحَالُ
وَالْأَوْضَارُ لَا يَأْتِي عَلَيْهَا حَصْرٌ وَلَا مَقْدَارٌ ؛ فَلَا مَالَكُمْ أَغْنَىٰ عَنْكُمْ وَلَا حَالَكُمْ يَرْفَعُ مِنْكُمْ ،
وَلَا لَكُمْ شَفِيعٌ يُخَاطِبُنَا فِيكُمْ ؛ فَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ، وَتَفَرَّقَ وَصْلُكُمْ ، وَتَبَدَّدَ شَمْلُكُمْ ،
وَتَلَاشَىٰ ظَنُّكُمْ ، وَخَانَكُمْ — فِي التَّحْقِيقِ — وَسَعْيُكُمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ
الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ
الْحَىِّ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ فَإِنِّي تُؤَفِّكُونَ ﴾

مُوجِدٌ مَا فِي الْعَالَمِ مِنَ الْأَعْيَانِ وَالْآثَارِ وَالرُّسُومِ وَالْأَطْلَالِ يُسَلِّطُ الْعَدَمَ عَلَىٰ مَا يَرِيدُ مِنْ
مُصْنُوعَاتِهِ ، وَيُحْكَمُ بِالْبَقَاءِ لِمَا يَرِيدُ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ ، فَلَا لِحْكَهَ رَدٌّ ، وَلَا لِحَقَّهُ جَعْدٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا
وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ
الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾

وَمَا فَلَقَ صَبِيحَ الْكَوْنِ فَأَشْرَقَتْ الْأَنْوَارُ كَذَٰلِكَ فَلَقَ صَبِيحَ الْقُلُوبِ فَاسْتَنَارَتْ بِهِ
الْأَسْرَارُ ، وَكَأَنَّ اللَّيْلَ سَكَنًا لِتَسْكُنَ فِيهِ النُّفُوسُ مِنْ كَدِّ التَّصَرُّفِ عَنْ أَسْبَابِ الْمَعَاشِ

(١) مشبهة .

كذلك جعل الليل مَكْنًا للأحباب يَسْكُنُونَ فيه إلى روح المناجاة إذا هدأت العيون
من الأغيار .

وجعل الشمس والقمر يجريان بحسبان^(١) معلوم على حد معلوم ، فالشمس بوصفها مذ
خُلِقَتْ لم تنقص ولم تزد ، والقمر لا يبقى ليلة واحدة على حالة واحدة فأبدأ في الزيادة
والنقصان ، ولا يزال ينمو حتى يصير بدرًا ، ثم يتناقص حتى لا يرى ، ثم يأخذ في الظهور ،
وكذلك دأبه دائماً إلى أن تنقُصَ عليه المادة .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا
بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا
الآيات لقوم يعلمو ﴾

كما أن نجوم السماء يهتدى بها في الفلوات فكذلك نجوم القلوب يهتدى بها في معرفة رب
الأرضين والسوات .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة
فستقر ومستودع قد فصلنا الآيات
لقوم يفقهون ﴾

ذكرهم وصفهم حين خلقهم من آدم عليه السلام . وكما أن للنفوس والأبشار مستقراً
ومستودعاً فللأمرار والضائر مستقر ومستودع ، فمن عبدي مستقر قلبه أوطان الشهوات
والمنى ، ومن عبدي مستقره موقع الزهد والتقى ، ومن عبدي مستقره — حيث لا مسكن
ولا مأوى — وراء الوري^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذي أنزل من السماء ماء
فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا

(١) وردت (بحسبان) بالميم والصواب أن تكون (بحسبان)
(٢) أى في حال الفناء يتلشى في الوجود الذي لا تحده حدود .

منه خَضِرًا نُخْرِجُ منه حَبًّا
 مُتْرَاكِبًا ، وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا
 قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ
 وَالزَّيْتُونِ وَالرَّيَّانِ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ
 مُتَشَابِهٍ ، انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ
 وَيَنْبَغِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ
 يُؤْمِنُونَ *

تجاست أجزاء الأرض وتواققت أقطار الكون ، وتباين النبات في اللون والطعم
 واختلفت الأشياء ، ودل كل مخلوق بلسان فصيح ، وبيان صريح أنه بنفسه غير مُستقل .

قوله جل ذكره : * وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم
 وخرقوا ^(١) له بنين وبنات بغير علم
 سبحانه وتعالى عما يصفون *

مُدَّت بصائرهم فاكتفوا بكل منقوصٍ أن يعبدوه ، وتلك عقوبة لأرباب الغفلة عن الله
 «إلى صُحِّلَتْ» .

قوله جل ذكره : * بديع السموات والأرض أنى يكون
 له ولد ولم تكن له صاحبةً وخلق
 كل شيء وهو بكل شيء عليم *

البديع الذى لا مثل له ، أو هو المنشئ لا على مثال ، وكلاهما في وصفه مستحق .
 والواحد يستحيل له الولد لاقضائه البعضية ، والتوحيد ينافيه .

قوله جل ذكره : * ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو

(١) خَرَقَ الْإِلَاقَ = اختلفه ، أو من خرف الثوب إذا شقه فيكون المعنى : (اشتقوا له) وإشارة
 لشعري تعتمد على المعين .

خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدْهُ وَهُوَ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ *

تَعْرِفُ إِلَهُهُم بِآيَاتِهِ ، ثُمَّ تَعْرِفُ إِلَهُهُم بِصِفَاتِهِ ، ثُمَّ كَاشِفُهُم بِحَقَائِقِ ذَاتِهِ .
فَقَوْلُهُ : « لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ » تَعْرِيفٌ لِلْسَادَاتِ وَالْأَكْبَارِ ، وَقَوْلُهُ : « خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ »
تَعْرِيفٌ لِلْعَوَامِّ وَالْأَصَاغِرِ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ
وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾

قَدَّسَ الصِّدْقَ عَنْ كُلِّ لَحْوٍ وَدَرَكٍ ، فَاتَى بِالْإِدْرَاكِ وَلَا حُدَّ لَهُ وَلَا طَرَفٌ ۚ
« وَهُوَ اللَّطِيفُ » الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ ، « الْخَبِيرُ » الَّذِي أَحَاطَ عَلَيْهِ بِكُلِّ مَعْلُومٍ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بِصَافِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ
أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا
وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ ﴾

أَوْضَحَ الْبَيَانَ وَأَلَحَّ الدَّلِيلَ ، وَأَزَاحَ الْعِكْلَ وَأَنَارَ السَّبِيلَ ، وَلَكِنْ قِيلَ :
وَمَا اتَّفَعُ أَخِي الدُّنْيَا بِمَقْلَتِهِ إِذَا اسْتَوَتْ عِنْدَهُ الْأَنْوَارُ وَالظُّلُمُ

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
دَرَسَتْ وَلُبِّيْنَهُ لَنُؤْمِرَ بِمَعْلُومٍ ﴾

أَوْ قَعَّ الْفِتْنَةَ فِي قُلُوبِهِمْ فَخَنَسَتْ عَلَيْهِمُ الْأَحْوَالُ : فَمِنْ شُبْهَةٍ دَاخَلَتْهُمْ وَمِنْ حَبْرَةٍ مَلَكَتْهُمْ .
وَمِنْ تَحْقِيقِ أَدْرَاكِ قَوْمٍ ، وَتَعْرِيفِ تَوَقُّفٍ عَلَى آخِرِينَ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ
عَلَيْهِمْ حَفِيفًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾

الْعَجَبُ مِنْ أَقْرَبِ بَقْصُورِ حَالِهِ عَنْ اسْتِحْقَاقِ الْمَدْحِ بِبَقَائِهِ عَنْ مَرَادِهِ ، وَكَيْفَ يَعْصِفُ
مَعْبُودُهُ بِجَوَازِ الْأَيْدِي فِي مَلِكِهِ مَرَادِهِ ۚ

قوله جل ذكره : ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ

فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾

يعنى خاطبهم بلسان الحجة والتزام الدلائل ونفى الشبهة ، ولا تُسكِّلهم على موجب نوازع النفس والعادة ، فيَحِيلَهم ذلك على ترك الإجلال لذكر الله .

ويقال لا تطابقهم على قبائح ما يفعلون فيزدادوا جرأة في غيبيهم ، فسيكون فعلك سبباً وعلّة لزيادة كفرهم وفسقهم .

قوله جل ذكره : ﴿كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَى

رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

لُبَّسنا عليهم حقائق الأشياء حتى ظنوا القبيح جميلاً ، ولم يروا لسوء حالتهم تبديلاً ، فركنوا إلى الهوى ، ولم يميزوا بين العوافي والقبلا .

قوله جل ذكره : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ

آيَةٌ لَيُؤْمِنَنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ

عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ

لَا يُؤْمِنُونَ﴾ .

وعدرا من أنفسهم الإيمان لو شاهدوا البرهان ، ولم يعلموا أنهم تحت قهر الحكم ، وما يُغْنِي وضوح الأدلة لمن لا تساعده سوابق الرحمة ، ولواحق الحفظ بموجبات القسمة .

قوله جل ذكره : ﴿وَقَلْبُ أَفْقَدْتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَالْمُؤْمِنِينَ بِهِ

أُولَ مَرَقَدْتَهُمْ فِي طَغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾

العَجَبُ مَنْ تَبَقَّى عَلَى قَلْبِهِ شِبْهَةٌ فِي مَسْأَلَةِ الْقَدَرِ^(١) ، وَالْحَقُّ — سُبْحَانَهُ — يَقُولُ :

(١) يشير القشيري بذلك إلى القدرية الذين يقولون بخلق الأفعال ، فسموا قدرية من قبيل تسمية الشيء بضده ، بيتاسى خصومهم بالجبرية .

ويوصف القدرية بأنهم مجوس هذه الأمة ، لأنه كما أن أتباع زرادشت يعارضون خالق الخير بمبدلهم فإن هو علة الشر كذلك هم — أى القدرية — يُخْرِجُونَ أعمال الإنسان السيئة من دائرة خلق الله ، فأنه ليس هو الذى يخلق المصيبة بل إرادة الإنسان المستقلة .

« وتقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به » ، لا بل من حقائق التقلب بقاء إشكال هذا الأمر — مع وضوحه — على قلوب مَنْ هو من جملة العقلاء ، فسبحان مَنْ يُخْفِي هذا الأمر مع وضوحه ! هذا هو قهر القادر وحكم الواحد .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَاهُ إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾

لأن الآيات وإن توالى ، وشموس البرهان وإن تماثلت فمن قصته العزة وكبسته القسمة لم يَزِدْه ذلك إلا حيرة وضلالاً ، ولم يستنجز إلا الشقوة حالاً .

قوله جل ذكره ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرُهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾

كلما كان المحلُّ أعلى كانت البلياء أوفى ، والمطالبات أقوى ، فلما كانت رتبُ الأنبياء — عليهم السلام — أشرف كانت العداوة معهم أشد وأصعب .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَيَتَصَنَّنَّ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلَيَرْضَوْهُ وَلَيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴾

وكلت أسماع الكفار باللغو وقلوبهم بالسوء فرَضُوا لأنفسهم أخسَّ الأنصبا ،^(١)

قوله جل ذكره : ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي

(١) الأنصبا جمع نصيب وهو الحصة من الشيء (المنجد) .

أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ
آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ
مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
الْمُتَرَدِّينَ ﴿١﴾

قل لم أتروا آتى — بعد ظهور البيان ووضوح البرهان — أذّر اليقين ، وأوتر التخمين
وأفارق الحق ، وأقارن^(١) الحظ ؟ إن هذا محال من الظن .

قوله جل ذكره : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ حَقًّا وَعَدْلًا
لَا يُبَدِّلُ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾
تَقَدَّسَتْ عَنِ التَّغْيِيرِ ذَاتُهُ ، وَتَزَهَتْ عَنِ التَّبْدِيلِ صِفَاتُهُ . وَالْتِمَامُ يَنْفِي النِّقْصَانَ . وَكُلُّ
نَقْصَانٍ مِّنَ الْحَدِيثِ أَصْلُهُ ، وَأَتَى بِالنِّقْصِ — وَالْقِدَمُ وَصْفُهُ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ تَطِيعُ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ
يَضْلُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ
إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾
أَهْلُ اللَّهِ قَلِيلُونَ عِدَدًا وَإِنْ كَانُوا كَثِيرِينَ وَزَنًا وَخَطَرًا ، وَأَمَّا الْأَعْدَاءُ فَفِيهِمْ كَثْرَةٌ .
فَإِنْ لَا حَظَّنَّهُمْ — يَا مُحَمَّد — فَتَنُّوكَ ، وَإِنْ صَاحِبَتَهُمْ مَّنْعُوكَ عَنِ الْحَقِّ وَقَلْبُوكَ .
قوله جل ذكره : ﴿ إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ
وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

تَقَاصَرَتْ عُلُومُ الْخَلْقِ عَنِ إِدْرَاكِ غَيْبِهِ إِلَّا بِقَدْرِ مَا عَرَفَهُمْ مِنْ أَمْرِهِ ، وَالَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ
شَيْءٌ فَهُوَ الْوَاحِدُ — مَبْحَاثُهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ
كُنْتُمْ بَآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾

هَذَا فِي حَكْمِ التَّفْسِيرِ مُخْتَصٍ بِالدِّيْبِيَّةِ ، وَفِي مَعْنَى الْإِشَارَةِ مَنَعَ الْأَكْلَ عَلَى الْغَفْلَةِ ، فَإِنْ مِنْ

(١) رُبَّمَا كَانَتْ فِي الْأَصْلِ (أَقَارِفَ) بِالْفَاءِ ، وَكَلَامُهَا صَحِيحٌ فِي السِّيَاقِ .

أكل على الغفلة فما دامت تلك القوة باقية فيه فخواطره إما هواجس النفس أو وساوس الشيطان .

قوله جل ذكره : ﴿ وما لكم ألا تأكلوا مما ذُكرَ اسمُ

الله عليه وقد فصل لكم ما حَرَّمَ

عليكم إلا ما اضطررتم إليه وإن

كثيراً ليضاون بأهوائهم بغير علم

إن ربك هو أعلم بالمعتدين ﴾

يعنى أى شئ عليكم لو تركتم الغفلة ؟ وما الذى يضركم لو استدتمتم الذكر ؟

وقد تبين لكم الفرق بين أنس الذكر ووحشة الغفلة في الحال والوقت ، (ألا)^(١)

تعرفوا حكم الثواب والعقاب في المآل .

قوله جل ذكره : ﴿ وذروا ظاهرَ الإثم وباطنه إن

الذين يكسبون الإثم سيجزون

بما كانوا يقتربون ﴾

ظاهر الإثم ما للأغيار عليه اطلاع ، وباطن الإثم هو سرّ بينك وبين الله ، لا وقوف

للمخلوق عليه .

ويقال باطن الإثم خفي العقائد و (. . .)^(٢) الألفاظ .

ويقال باطن الإثم ما تمليه عليك نفسك بنوع تأويل .

ويقال باطن الإثم — على لسان أهل المعرفة — الإغماض عما لك فيه حظ ، ويقال باطن

الإثم — على لسان أهل المحبة — دوام التفاضي عن مطالبات الحب ؛ وإن بناء مطالبات الحب

على التجنى والقهر^(٣) ، قال قائلهم :

(١) وردت (إلى) وهي خطأ في النسخ .

(٢) مشتبهة .

(٣) وفي هذا المعنى أنشدوا ،

بني الحب على القهر فلو عدل المحبوب يوماً لسمع

ليس يستحسن في شرع الهوى عاشق بطلب تأليف الحبيب

إذا قلت : ما أذنبت ؟ قالت مجيبة :

حياتك ذنب لا يقاس به ذنب

ويقال أسبغت عليكم النعم ظاهراً وباطناً ، فنفروا الإثم ظاهراً وباطناً ، فإن من شرط الشكر ترك استعمال النعمة فيما يكون إثمًا ومخالفة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ يَدًا كَرُّ اسْمِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لِيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ .

ما كانت (....) (١) من الأحوال عاصياً ولربّه ناسياً فتوقيه شرط عند أصحاب (....) (٢) .

ثم قال : « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم » فهذا يدل على أن من توقى ذلك انحدرت له خواطره ، وانقطعت عنه خواطر الشيطان . وأصل كل قسوة متابعة الشهوات ، ومن تعود متابعتها فليودع صفة القلب .

قوله جل ذكره : ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ، كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

الإيمان عند هؤلاء القوم حياة القلب بالله . وأهل الغفلة إذ لهم الذكر فقد صاروا أحياء بعد ما كانوا أمواتاً ، وأرباب الذكر لو اعتراهم نسيان فقد ماتوا بعد الحياة . والذي هو في أنوار القرب وتحت شعاع العرفان وفي روح الاستبصار لا يدانيه من هو في (أسر) (٣) الظلمات ، ولا يساويه من هو رهين الآفات .

(١) مشبهة .

(٢) مشبهة .

(٣) وردت (أصر) بالصاد وقد آثرنا (أسر) لتلائم (رهين) الآفات .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَارَ
مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ
إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

لَبَّسْنَا عَلَيْهِمْ حَقَائِقَ التَّوْحِيدِ ، وَسَوَّلْتُ لَهُمْ ظُنُونَهُمْ أَنَّ بِهِمْ شَطِيئَةً مِنَ الْحَرِّ وَالْإِثْبَاتِ ؛
فَانْهَكُوا ظُلُمَانَهُمْ أَنْهُمْ يَمْكُرُونَ ، وَهُمْ فِي التَّحْقِيقِ مُخَادَعُونَ ، وَسَيَعْلَمُونَ حِينَ لَا يَنْفَعُهُمْ عِلْمٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى
تُنَزِّلَ مِثْلَ مَا أَنْزَلْتَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ
أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ
الَّذِينَ أُجْرِمُوا صَعَارٌ عِنْدَ اللَّهِ
وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴾ .

بعد إزاحة العلة ، وبيان الحجة ، وبزوال الشبهة (فالتعلُّل)^(١) باستزادة البصيرة
(إعلام)^(٢) عن سوء الأدب ، وذلك منهم من التعدي ؛ لمساواة مَنْ جَاءَ بالاستحقاق بِمَنْ
جَاءَ بنوعٍ من تسويلات النَّفْسِ يوجب مقاساة الهوان . وملازمة الحدود ، وترك التعدي
على الحق قضية التوفيق .

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ
صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ .

الْمُسْلِمُ لَا يَتَحَرَّكُ فِي بَاطِنِهِ عِرْقٌ لِلْمَنَازَعَةِ مَعَ التَّقْدِيرِ ، فَإِنَّ الْإِسْلَامَ يَقْتَضِي تَسْلِيمَ الْكُلِّ
بِلا استثناء ، وَمَنْ اسْتَنْقَلَ شَيْئاً مِنَ التَّكْلِيفِ أَوْ بَقِيَ مِنْهُ نَفْسٌ لِكِرَاهِيَةِ شَيْءٍ فَيَعُدُّ غَيْرَ
مُسْلِمٍ مُحْكَمٍ .

ويقال نورٌ في البداية هو نور العقل ، ونورٌ في الوسائط هو نور العلم ونور في النهاية هو

(١) وردت (فالتعليل) والسياق يتطلب (التعلل) فيها يقوى ويتضح .
(٢) وردت (إعلام) ولا معنى لها ، وترجح أنها في الأصل (إعلام) أى علامة .

نور العرفان ؛ فصاحب العقل مع البرهان ، وصاحب العلم مع البيان ، وصاحب المعرفة في حكم العيان .

ويقال مَنْ وَجَدَ أنوار الغيب ظهرت له خفايا الأمور فلا يشكل عليه شيء من ذوات الصدور عند ظهور النور ، وقال صلى الله عليه وسلم : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى » .

ويقال أول أثر لأنوار الغيب في العبد يُنبِّهه إلى تقائص قدره ومساوىء غيئه ، ثم يشغله عن شهود نفسه مما يلوح لقلبه من شهود ربه ، ثم غلبات الأنوار على سيره حتى لا يشهد السر بعد ما كان يشهد ؛ كالناظر في قرص الشمس تستهلك أنوار بصره في شعاع الشمس كذلك تستهلك أنوار البصيرة في حقائق الشهود ، فيكون العبد صاحب الوجود دون الشهود ثم بعده خمود العبد بالكلية ، وبقاء الأحدية بنمت السرمدية .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ يَرِدْ أَنْ يَضِلَّهُ يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾ .

وذلك حتى لا يسعى في غير مراد الحق سبحانه^(١) ، وحدُّ البشرية ضيق القلب ، وصاحبه في أسر الحدثان والأعلال ، ولا عقوبة أشد من عقوبة الغفلة عن الحق .

قوله جل ذكره : ﴿ وهذا صراط ربك مستقيماً قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون ﴾ .

الصراط المستقيم إقامة العبودية عند تحقق الربوبية فهو فرق مؤيدٌ يجمع ، وجمعٌ مقيدٌ بشرع ، وإثبات للعرفان بغاية الوسع ، ونبو عن المخالفات بغاية الجهد ، والتحقق بأن المجرى

(١) تبدو في هذه العبارة رائحة الحبرية . . نعم ، ولكنها جبرية الحب ، فالإرادة والمريد والمراد كلها تدور في فلك الحب ، وهذا فرق بين النزعتين الكلامية البهتة والصوفية ، عند تصديهما لهذا الموضوع .

واحدٌ لا شريك له ، ثم ترك الاعتماد ونفى الاستناد ، لاعلى (حركاته)^(١) يعتمد ، ولا إلى سكناته يستند ، (بل)^(٢) ينتظر ما يفتح به التقدير ، فإن زاغ صاحب الاستقامة لحظةً ، والتفت بمنة أو يسرة سقط سقوطاً لا ينتعش .

قوله جل ذكره : ﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ .

دار السلام أى دار السلامة ، ومن كان في رِقٍّ شئٍ من (الأغراض)^(٣) والمخلوقات لم يجد السلامة ، وإنما يجد السلامة من تحرر عن رِقِّ المسكونات ، والآية تشير إلى أن التوهم في الجنة لكنهم ليسوا في أسر الجنة ، بل تحرروا من رِقِّ كل مَكُون .

ويقال مَنْ لم يُسَلِّمْ — اليوم — على نفسه وروحه وكل ماله من كل كريمة وعظيمة تسليم وداع لا يجد — غداً — ذلك الفضل ، فمن أراد أن يُسَلِّم عليه ربه — غداً — فَلْيُسَلِّمْ على (الكون)^(٤) بجملته ، وأولاً على نفسه وروحه .

ويقال دار السلام غداً لمن سَلِمَ — اليوم — لسانه عن الغيبة ، وجَنَّاه عن الغيبة ، وأبشاره وظواهره من الزُّلَّة ، وأسراره وضائره من الغفلة ، وعقله من البدعة ، ومعاملته من الحرام والشبهة ، وأعماله من الرياء والمصانعة ، وأحواله من الإعجاب .

ويقال شرفُ قَدَرِ تلك الدار لكونها في محل الكرامة ، واختصاصها بعندية الزُّلَّة ، وإلا فالأقطار كلها ديار ، ولكن قيمة الدار بالجوار ، قال قائلهم :

إِنِّي لأحسد داراً في جوارِكُم طوبى لمن أضحي لدارك جاراً
يا ليت جارك يعطيني من داره شبراً إذا لأعطيه بِشبرِ داراً^(٥)

ويقال : وإن كانت النار منزهة عن قبول الجوار ، وليس القرب منه بنداى الأقطار ، فالإطلاقُ هذا اللفظ لقلوب الأخباب مؤنسٌ ، بل لو جاز القربُ في وصفه من حيث المسافة لم يكن لهذا

(١) وردت (حركاته) والصواب أن تكون (حركاته) لتلاءم مع (سكناته) .

(٢) أضفنا (بل) ليتضح المعنى وهي غير موجودة في النص .

(٣) (الأغراض) جمع غرض ، وليس بمستبعد أن تكون (الأغراض) يالعين جمع هرض ، وكلاماً مقول .

(٤) وردت (السكون) وهي خطأ من الناسخ .

(٥) البيت الثاني مكسور ولكننا حرصنا على اثباته كما جاء في النسخة .

كبير أثر ، وإنما حياة القلوب بهذا ، لأن حقيقته مقدسة عن هذه الصفات ؛ فهو لِأَجْلِ قلوب
الأحباب يُطلق هذا ويقع العلماء في كد التأويل ، وهذا هو أمانة الحب ، قال قائلهم :

أنا من أَجْلِكَ حُمِلْتُ الأذى الذى لا أستطيع

قوله جل ذكره : ﴿ وهو وليهم بما كانوا يعملون ﴾^(١) .

هذا شرف قدر تلك المنازل حيث قال : « وهو وليهم » لأنه إذا كان — سبحانه —
هو وليهم فإنَّ المنازل بأسرها طابت كيفما كانت ، قال قائلهم :

أهوى هواها لمن قد كان ما كنها وليس في الدار لي همٌ ولا وطَرٌّ

هو وليهم في دنياهم ، ووليهم في عقباهم ، هو وليهم في أولاهم وفي أخراهم * وليهم الذى
استولى حديثه على قلوبهم ، فلم يدع فيها لغيره نصيباً ولا سِوى * وليهم الذى هو أولى بهم
منهم * وليهم الذى آثرهم على أضراهم وأشكالهم فأثروه في جميع أحوالهم * وليهم الذى
تطلب رضاهم ، وليهم الذى لم (يَكْلَهُمْ)^(٢) إلى هوامهم ، ولا إلى دنياهم ، ولا إلى عقباهم .
وليهم الذى بأفضاله يلاطفهم ، وبجمله وجلاله يكشفهم .

وليهم الذى اختطفهم عن كل حظ ونصيب ، وحال بينهم وبين كل حميم وقريب ،
فحرَّهم عن كل موصوف ومطلوب ومحبوب ، وليهم الذى هو مؤنس أسرارهم .
مشأهده مُفْتَكَّتْ أَبصارهم ، وحضرته مرَّتْ أرواحهم .

وليهم الذى لبس لهم سواه ، وليهم الذى لا يشهدون إلا إياه ، ولا يجدون إلا إياه ، لافى
بدايتهم يقصدون غيره ، ولا فى نهايتهم يجدون غيره ، ولا فى وسائلهم يشهدون غيره^(٣)

قوله جل ذكره : ﴿ ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجنُّ
قد استكثرتُم مِنَ الإِلسِ وقال
أولياؤهم مِنَ الإِلسِ ربُّنا استمع .

(١) وقع النسخ في ثلاثة أخطاء كتابية ونقلية في هذه الآية إذ كتبها (فهو وليهم اليوم بما كانوا يكسبون)
إذ التبت عليه مع آية أخرى .

(٢) وردت (يكلهم) بزيادة ميم وهم خطأ في النسخ .

(٣) لاحظ هنا هنا الترتيب : قصود ثم شهود ثم وجود .

بعضنا ببعضٍ وبلغنا أَجَلنا الذى
أَجَلْتْ لَنَا ، قَالَ : النارُ مثواكم
خالدين فيها إلا ما شاء الله إنَّ ربَّك
حكيمٌ عليمٌ ﴿

يعتذرون فلا يسمع ، ويحتجون بما لا ينفع ، ولقد كانوا من قبل لو أتوا بأقل منه قُبِلَ
منهم ، لكن سبقت القسمة فحقت لهم الشقوة .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك نُؤَلِّ بعضَ الظالمين بعضاً
بما كانوا يكسبون ﴾

يعنى نجتمع بين الأشكال ، فالأولياء مجموعون يستمتع بعضهم ببعض ، والأعداء مجموعون
يفرُّ بعضهم من بعض .

قوله جل ذكره : ﴿ يا معشرَ الجنِّ والإنسِ ألَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ
منكم يقصُّون عليكم آياتى وينذرونكم
لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على
أنفسنا وغرَّتهم الحياة الدنيا وشهدوا
على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾

عرفهم أنه أزاح لهم العيَّلَ من حيث التزام الحجة ، لكنه حكم لهم بالشقوة فى الأزل ،
(فلبس)^(١) عليهم المحجة .

قوله جل ذكره : ﴿ ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى
بظلم أهلها غافلون ﴾

متى يصحُّ فى وصفه توهم الظلم والمُلكُ مُلكه والخلقُ خلقه ؟

ومتى يتبجح منه تصرفٌ فى شخصٍ بما أراد ، والعبد عبده والحكم حكمه ؟

(١) وردت (فلبس) وهى خطأ من الناسخ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رُبُّكَ

بِعَاقِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾

المحسن في روح الثواب متنعم ، والمذنب في نوح العذاب متألم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ

يَذْهَبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ

كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴾

« الغني » يشير إلى كشفه ، « ذو الرحمة » يشير إلى لطفه .

أخبرهم بقوله « الغني » عن جلاله ، وبقوله : « ذو الرحمة » عن أفضاله ؛ فبجلاله يكشفهم

فيُفَنِّبُهُمْ ، وبأفضاله يلاطفهم فيحييهم .

ويقال سماع غناه يوجب محوكم ، وسماع رحمته يوجب صحوكم ، فهم في سماع هذه الآية

مترددون بين بقاء وبين فناء ، وبين إكرام وبين اضطلام ، وبين تقريب وبين تدويب ،

وبين اجتياح وبين ارتياح .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنْ مَا تَوَعَّدُونَ لَأَتِيَنَّكُمْ وَمَا أَنْتُمْ

بِعُجْزِينَ ﴾

الإشارة من هذه الآية إلى قصر الأمل ، ومن قصر أمله حسن عمله ، وكل ماهوآت

ف قريب أجله .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِمِكُمْ

إِنِّي عَامِلٌ فَمَا تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ

عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾

هذا غاية الزجر لأنه تهديد وإن كان في صيغة الأمر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ

نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا

لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل

إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى
شركائهم ساء ما يحكمون *

لما بنوا قاعدة أمرهم على موجب الهوى صارت فروغهم لائقة بأصولهم ؛ فهو كما قيل .
إذا كان القضاء إلى ابن آوى فتعويل الشهود إلى القروء

قوله جل ذكره : * وكذلك زين لكثير من المشركين
قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم
وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله
ما فعلوه فذرهم وما يفترون *

وسوست إليهم شياطينهم بالباطل قبلت نفوسهم ذلك ؛ إذ الأشكال يتناصرون ،
فالنفس لا تدعو إلا إلى الأجنبية ، لأنها مدعية تنوهم أن منها شيئاً ، وأصل كل شرك
الدعوى ، والشيطان لا يوسوس إلا بالباطل والكفر ، فهم أعوان يتناصرون .
ثم قال : « ولو شاء الله ما فعلوه » صرح بأن المراد على المشيئة ، والاعتبار
(بسابق)^(١) القضية .

قوله جل ذكره : * وقالوا هذه أنعامٌ وحرثٌ حِجْرٌ
لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم
وأنعامٌ حرمت ظهورها ، وأنعام
لا يذكرون اسم الله عليها افتراء
عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون *
وقالوا ما في بطون هذه الأنعام
خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا
وإن يكن مينةً فهم فيه شركاء ،
سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم *

(١) وردت (بسائق) وهي خطأ من الناسخ إذ المقصود بما سبق من القضاء .

أخبر عن أشياء ابتدعوها على ما أرادوا ، وأمر شرعها على الوجه الذي اعتادوا ،
ثم أضافوا ذلك إلى الحق بغير دليل ، وشرعوها بلا حجة من إذن رسول ، والاشارة فيه
أن من (نجا نجوهم)^(١) في زيادة شيء في الدين ، أو نقصان شيء من شرع المسلمين فضاير
لهم في البطلان .، ينخرط في سلكهم في الطغيان .

قوله جل ذكره : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ
سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ
اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا
وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾

فسدت عليهم طريقة الثقة بالله فحملتهم خشية الفقر على قتل الأولاد ، ولذلك قال أهل
التحقيق : من أمارات اليقين وحقيقته كثرة الميل على بساط التوكل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ
مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ
وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ
وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا
مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ﴾

يعنى كما أنشأ في الظاهر جنات وبساتين كذلك أنشأ في السر جنات وبساتين ،
ونزهة القلوب أثم من جنات الظاهر ؛ فأزهار القلوب موفقة ، وشموس الأمرار مشرقة ،
وأثمار المعارف زاخرة .

ويقال كما تتشابه الثمار كذلك تتماثل الأحوال ، وكما يختلف طعمها وروائحها
مع تشاكلها من وجه ، فكذلك الأحوال مختلفة القضايا ، وإن اشتركت في كونها أحوالاً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾

(١) وردت (نجا نجوهم) وهي خطأ من الناسخ .

حَقُّ الْوَاجِبِ يَوْمَ الْحَصَادِ إِقَانَةُ الشُّكْرِ ، فَأَمَّا إِخْرَاجُ الْبَعْضِ فَبَيَانُهُ عَلَى لِسَانِ الْعِلْمِ^(١) ،
وَشُهُودُ الْمُنْعِمِ فِي عَيْنِ النِّعْمَةِ أُنْمٌ مِنَ الشُّكْرِ عَلَى وَجُودِ النِّعْمَةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ

المُسْرِفِينَ ﴾

الإسراف — على لسان العلم — مجاوزة الحد .

وعلى بيان الإشارة فالإسرافُ كُلُّ مَا أَنْفَقْتَهُ فِي حِطِّ نَفْسِكَ — ولو كانت سمسة ،
وما أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِهِ — سبحانه — فليس بإسراف ، ولو أربى على الآلاف .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حِمْلَةٌ وَفَرَسًا ﴾

يعني تسخير الحيوانات للإنسان آية مزية في الفضيلة على المخلوقات . وكما سخر الأعيان
للإنسان كذلك سخر الأزمان في تصريف الحداث لخواص الإنسان^(٢)

قوله جل ذكره . ﴿ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا

خطواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ

مُبِينٌ * ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ

اثْنَيْنِ وَمِنَ اللَّعْزَاثَيْنِ ﴾

إلى قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي

الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

الرزق لا يتخصص بالمأكولات بل هو شائع في جميع ما يحصل به الانتفاع .

وينقسم الرزق إلى رزق الظواهر ورزق السرائر ، ذلك وجود النعم وهذا شهود الكرم
بل الخلود في وجود القِدَم .

وللقلب رزق وهو التحقيق من حيث العرفان ، وللروح رزق وهو المحبة بصدق التحرر

عن الأكوان ، وللسر رزق وهو الشهود الذي يكون للعبد وهو قرين العيان .

(١) أى إخراج مقدر على حسب الميروف في الركاة .

(٢) يشير بذلك إلى ما يحدث على أيدي الأولياء من كرامات .

قوله « ثمانية أزواج من الضأن اثنين » الإشارة من ذكر الضأن أن يتأدب العبد باستدامة السكون والالتزام بحسن الخلق ، فإن الضانية مستسلمة لمن يلي عليها ، فلا بصياحها تؤذى^(١) ولا (ب...وها)^(٢) ، يعنى كذلك سبيل من وطئ هذا البساط .

وكذلك « فى الإبل آيات » منها اتقيادها لمن جرّ زمامها ، واستناختها حينما تنأخ بلا نزاع ولا اختيار . ومنها ركوبها عند الحمل ، ومنها صبرها على مقاساة العطش ، وذوبانها فى السير .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِىَّ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِثْلَهُ أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

بيّن أن الشارع الله ، والمانع عن الخلق هو الله ، وما كان من غير الله فضائع باطل عند الله . بيّن أنه إذا جاء الاضطرار زال حكم الاختيار .

قوله جل ذكره : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾

(١) فى هذه الإشارة الدقيقة نلح أن القشيري يدعو إلى إثبات الكتمان وعدم البوح بالأسرار ، وعلى ذلك كبار الشيوخ . يقول الشبلى . على أثر محنة الحلاج « كنت وابن منصور شيئاً واحداً ولكنه أظهر وأنا كُنت » .

(٢) مشتبهة ، وربما كانت (بعدوها) ، وعندئذ قد نكون العبارة فلا بصياحها تؤذى ولا بعدوها .

بَيَّنَ أَنَّ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ ضَيَّعُوهُ ؛ إِذْ لَمَّا لَمْ يَمَاقِبْهُمْ عَلَيْهِ لَمْ يَشْهَدُوا مَكْرَهُ الْعَظِيمِ فِيهَا ابْتَدَعُوهُ
مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِمْ — فَأَهْمَلُوهُ وَلَمْ يَحَافِظُوا عَلَيْهِ ، فَاسْتَوْجِبُوا عَظِيمَ الْوِزْرِ وَالْإِثْمِ الْمُهْجَرِ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ

وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ

الْمُجْرِمِينَ ﴾

الإشارة منه ببيان تخصيص الأولياء بالرحمة ، وتخصيص الأعداء بالظرد واللعنة . والصورة
الإلسانية جامعة (لهم)^(١) ولكن القسمة الأزلية فاصلة بينهم .

قوله جل ذكره ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ

مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا

مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ

قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا ، قُلْ هَلْ

عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ؟ إِنْ

تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا

تَخْرُصُونَ ﴾

كذبت قائلهم لأنها لم تصدُر عن تصديق ، قدّموا على جهالتهم وإن كانت (. . .)^(٢)

في التحقيق .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ

لَهْدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

صَرَّحَ بِأَنْ إِرَادَتَهُ — سُبْحَانَهُ — لَا تَقْصُرُ عَنْ مَرَادٍ ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ اعْتِرَاضٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ

أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا ،

(١) وردت (له) والصواب أن تكون (لهم) لتشمل الأولياء والأعداء .

(٢) مشتبهة .

فلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ، ولا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ
الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْتَدِلُونَ ﴿١﴾

أشار إلى أَنَّ مَنْ تَجَرَّدَ عَنْ بَرَهَانٍ يُصَرِّحُهُ وَيَبَيِّنُ (يُوضِّحُهُ) ^(١) فغيرُ مقبول من فاعله .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ
أَلَّا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وبالوالدين
إِحْسَانًا ، ولا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ
إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ،
ولا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا
وَمَا بَطَّنَ ، ولا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي
حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ولا تَقْرَبُوا مَالَ
الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ
أَشَدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ
بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا
وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى
وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ
لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَنَّ هَذَا
صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ، ولا تَتَّبِعُوا
السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، ذَلِكُمْ
وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢﴾

(١) وردت (يوضِّحه) والصواب أن تكون بالخاء ليقوى المعنى والموسيقى اللفظية ونرجح أن الناسخ
اشتبه عليه شكل الخاء فظنها عيناً

هذه أشياء عشرة تضمنتها هذه الآية أولها الشرك فإنه رأس المحرمات ، والذي لا يقبل معه شيء من الطاعات ، وينقسم ذلك إلى شرك جلي وشرك خفي ، فالجلي عبادة الأصنام ، والخفي ملاحظة الأنام ، بعين استحقاق الإعظام .

والثاني من هذه الخصال ترك العقوق ، وتوقير الوالدين بحفظ ما يجب من أكيدات الحقوق .

وبعد ذلك قتل الأولاد خشية الإملاق ، وإراقة دماهم بغير استحقاق .

ثم ارتكاب القواحش ما ظهر منها وما بطن ، وما بدا وما استتر ، ويدخل في ذلك جميع أقسام الآثام .

ثم قتل النفس بغير الحق ، وذلك إنما يكون لفقد شفقة الخلق .

ثم مجانبة مال اليتيم والنظر إليه بعين التكريم .

ثم بذل الإنصاف في المعاملات والتوقى من جميع التبعات^(١)

ثم الصدق في القول والعدل في الفعل .

ثم متابعة السبيل بما تشير إليه لوائح الدليل .

فمن قابل هذه الأوامر بحميل الاعتناق سعد في داريه وحظى بعظائم منزلته .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا

عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ

شَيْءٍ وَهَدَيْنَا وَرَحْمَةً لِّعِبَادِهِمُ

رَبُّهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾

يهوئن عليهم مشقة مقاساة التكليف بما ذكر من التعريف بأن الذين كانوا قبلنا كانوا

في الضعف والمجز مثلنا ، ثم صبروا فظفروا ، وأخلصوا فخلصوا .

(١) أى الاحتراز عما فيه نبهة .

قوله جل ذكره : ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك ﴾

فَاتَّبِعُوهُ ، وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

إنزال الكتاب عليهم تحقيق للإيجاب ، وإذا بقي العبد عن سماع الخطاب تسلي بقراءة الكتاب ، ومن لم يجد في قراءة القرآن كمال العيش والأفس فلأنه يقرأ ترميماً لا تحقيقاً (١)

قوله جل ذكره : ﴿ أن تقولوا إنما أنزل الكتاب

على طائفتين من قبلنا وإن كنا

عن دراستهم لغافلين ﴾ أو تقولوا

لو أننا أنزل علينا الكتاب لكنا

أهدى منهم فقد جاءكم بينة من

ربكم وهدى ورجة ﴾

أزاح كل علة ، وأبدى كل وصلة ، فلم يبق لك تعللاً ، ولا في آثار الانجاء إلى العذر موضعاً .

قوله جل ذكره : ﴿ فمن أظلم ممن كذب بآيات الله

وصدّف عنها سنجزي الذين

يصدّفون عن آياتنا سوء العذاب

بما كانوا يصدّفون ﴾

عقوبة كل جرّيم مؤجلة ، وعقوبة التكذيب معجلة ، وهي ما يوجب لقاءهم في أسر

الشك حتى لا يستقر قلبهم على شيء .

قوله جل ذكره : ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة

أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات

ربك يوم يأتي بعض آيات ربك

(١) يمكن أن يصلح هذا الرأي لتحديد موقف القشيري من قضية « السماع » ومدى تأثير القرآن والشعر في الوجدان الصوفي . انظر قصة يوسف بن الحسين الرازي (الرسالة ص ١٧١) .

لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت
من قبلُ أو كَسَبَتْ في إيمانها خيراً
قُلِ انتظروا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١﴾

أخبر أنه بعدما (أزاح) ^(١) لهم العلل اقترحوا ما ليس لهم ، و (اعتروا) ^(٢) بطول السلامة لهم ، ثم بين أنه إذا أمضى عقوبة عبدٍ حُكماً فلا معارضَ لتقديره ، ولا مُناقضَ لتديره .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنِّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾

اتفقوا بأبدانهم وافترقوا بقلوبهم ، (فكانوا) ^(٣) مجتمعين جهرًا بجهر ، منفرقين — في التحقيق — سِرًّا بسِرٍّ .

قوله : « لستَ منهم في شيء » . لا تجمعك وإياهم ، يعني شِقُّكَ شِقُّ الحقائق ، وشِقُّهم شِقُّ الباطل ، و (لا اجتماع) ^(٤) للضدين .

قوله جل ذكره : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مِثَالِهَا ﴾

هذه الحسنات للظاهر ؛ وأما حسنات القلوب فللواحد مائة إلى أضعاف مضاعفة .
ويقال الحسنة من فضله تعالى تصدُر ، وبلطفه تمحصل ، فهو يُجْرِي ، ثم يَقْبَلُ ويثني ، ثم يجازي ويعطي .

ويقال إحسانه — الذي هو التوفيق — يوجبُ إحسانك الذي هو الوفاق ، وإحسانه — الذي هو خلق الطاعة — يوجبُ لك نعت الإحسان الذي هو الطاعة ؛ فالعناء منك فعلُهُ والجزاء لك فَضْلُهُ ^(٥) .

(١) وردت (ذبح) وذبح الله وإزاحتها كلاماً مقبولاً ولكننا آثرنا أزاح لأنه استعمالها في هذا السياق قبل قليل .

(٢) وردت (اعتروا) بالعين والصواب (اعتروا) بالعين .

(٣) وردت (فكانا) فأكثنا .

(٤) وردت و (الاجتماع) والمعنى برفضها ويقبل و (لا اجتماع) .

(٥) تعبر هذه الفقرة عن موقف القشيري بالنسبة لقضية وجوب المثوبة والعقوبة على الله بالنسبة للطبع والماضي ، فيبين قول المترلة بهذا الوجوب ، برفض القشيري كل وجوب على الله ، ويعود بالأمر كله إلى الفضل الإلهي .

ويقال إحسان النفوس تَوْفِيَّةٌ الخدمة ، وإحسان القلوب حفظ الحرمه ، وإحسان الأرواح مراعاة آداب الحشمة .

ويقال إحسان الظاهر يوجب إحسانه في السرائر ، فالذى منك بمجاهدتك ، والذى إليك مشاهدتك .

ويقال إحسان الزاهدين ترك الدنيا ، وإحسان المريدين رفض الهوى ، وإحسان العارفين قطع المني ، وإحسان الموحدين التخلّي عن الدنيا والمقبي ، والاكتفاء بوجود المولى .

ويقال إحسان المبتدئين الصدق في الطلب ، وإحسان أصحاب النهاية حفظ الأدب ، فشرطُ الطلب ألا يبقى ميسورٌ إلاّ بذلّته ، وشرط الأدب ألا تسمولك همّةٌ إلى شيء إلا قطعتَه وتركته .

ويقال للزهاد والعباد ، وأصحاب الأوراد وأرباب الاجتهاد جزاء محصور معدود ، ولأهل المواجيد لقاء غير مقطوع ولا ممنوع .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

يعنى ('يُكَالُ')^(١) عليه بالكيل الذى يكيل ، ويوقفُ حيث يرضى لنفسه بأن يكون له موقفاً .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إِنِّى هَدَانِى رَبِّى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

أرشده إلى الطريق الصحيح . ولا يكون الإرشاد إليه إلا بانسداد الطرق أجمع إلى ماسواه . وَمَنْ وَجَدَ سَبِيلًا إلى مخلوق عرج في أو طان الحسبان لأن الأغيار ليس لها من الإبداع شظية ، ومن سلك إلى مخلوق سبيلاً وأبرم فيهم تأمياً أو قدّم عليهم تعويلاً ، فقد امتشعر تسويلاً ، وجرّع تضليلاً .

(١) وردت (يقال) وهى خطأ فى النسخ .

و « الصراط المستقيم » ألا ترى من دونه مثبناً لذرة ولا سنة .

و « الدين القيم » مالا تمثيل فيه ولا تعطيل ، ولا تقي للفرق الذي يشير إلى العبودية ، ولا رد للجمع الذي هو شهود الربوبية (١) .

والخفيف المائل إلى الحق ، الزائع عن الباطل ، الخائل عن ضد الحقيقة .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ

وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ

لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ

المسلمين ﴾

من كوشف بحقائق التوحيد شهد أن القائم عليه والمجرى عليه والمسك له والمنقل إياه من وصف إلى وصف ، و (. . .) (٢) عليه فنون الحدثان — واحد لا يشاركه قسيم ، وماجد لا يضارعه نديم .

ويقال من علم أنه بالله علم أنه الله ، فإذا علم أنه الله لم يبق فيه نصيب لغير الله ، فهو مستسلم لحكم الله ، لا معترض على تقدير الله ، ولا معارض لاختيار الله ، ولا معترض عن اعتناق أمر الله .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ ابْنِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ

كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ

إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى

ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّشُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ

فيه تختلفون ﴾

(١) من اقوال القشيري التي توضح مقصوده هنا : ما يكون كسباً للعبد من إقامة العبودية وما يليق باحوال البشرية فهو فرق ، وما يكون من قبل الحق من إبداء معان وإسداء لطف وإحسان فهو جمع ، فمن أشهد الحق — سبحانه — أفعاله من طاعته ومخالفاته فهو عبد بوصف التفرقة ، ومن أشهد الحق — سبحانه — ما يوليه من أفعال نفسه — سبحانه — فهو عبد يشاهد الجمع ، وإثبات الخلق من باب التفرقة ، وإثبات الحق من نعم الجمع ، ولا بد للعبد من الجمع والفرق ، فإن من لا تفرقة له لا عبودية له ، ومن لا جمع له لا معرفة له (الرسالة ص ٣٨) .

(٢) مشبهة وهي قريبة من (المجرى) .

كيف أثر عليه بدلاً وإنى لا أجد عن حكمه حولا ، وكيف أقول بغير أو ضد
أو شريك ؟ أو أقول يدونه معبود أو مقصود ؟ وإن لا حظت يمنة ما شاهدت إلا ملكه ،
وإن طالمت يسرة ما عاينت إلا ملكه ! بل إنى إن نظرت يمنة شهدت يمنة ، وإن نظرت
يسرة وجدت نحوى يسره (١) !

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذى جعلكم خلائف فى الأرض
ورفع بعضكم فوق بعض درجات
ليبلوكم فى آتاكم إن ربك سريع
العقاب وإنه لنفور رحيم ﴾

صبر التوبة إليكم ، وقصر حكم عصركم عليكم ، فأنتم المقصودون اليوم دون من هو
سواكم . ثم إنه جعلكم أصنافا ، وخلقكم أخيارا (٢) فمن مسخر له ، مرفه ، مروح ، يتعب
لأجله كثير . ومن معني ، وذى مشقة أدير عليه رأسه . وجاء البلاء ليختبركم فيها آتاكم ،
ويمتنحكم فيها أعطاكم . إن حسابكم لكم لا يحق ، وحكمه فيكم سابق . والله أعلم .

السورة التى يذكر فيها الأعراف

« بسم الله الرحمن الرحيم »

الباء مكسورة فى نفسها وعملها الخفض لأنها من الحروف الجارة للأسماء ، وهى صغيرة
القامة فى الخط ، ونقطها الذى تتميز به عن غيرها واحد وهو نهاية القلة ، ثم موضع هذه
النقطة أسفل الحرف ، فهى تشير إلى التواضع والخضوع بكل وجه .

والسين « من بسم الله » حرف ما كن فالإشارة من الباء ألا تدرك — فى الخضوع
والندال ، والجهد والتوسل — ميسورا ، ثم تسكن منتظرا للتقدير ، فإن من القبول بفضل

(١) وردت (يمنة ويسره) بناء مربوطة والصواب أن تكونا (اليمن واليسر) مضافتين
لله — سبحانه .

(٢) يقال م إخوة أخيار : أى إن أهم واحدة والآباء شئ فهم مختلفون (المنجد)

فذلك المأمول ، وإن ردَّ بحكمِ فله الحكم ، فتوافق تقديره بالموافقة في الرضا به ، إذا إليه
تشير إلى منته إن شاء ، ثم إلى موافقتك لتقديره بالرضا به إن لم يمنَّ .

ويقال الباء تشير إلى بيان قلوب أهل الحقائق بلطائف المكاشفات بما يختصهم الحق
— سبحانه — بذلك من دون الخلق ، فهم على بيانٍ مما يخفى على الخلق ، فالغيب لهم كشف ،
والخبر لهم عيان ، وما للناس علمٌ فلهم وجود .

والسين تشير إلى سرور قلوبهم عند تقريبات البسط بما (. . .)^(١) فيه من وجوه
المراعاة ؛ وصنوف لطائف المناجاة ، فهم في جنات النعيم ، وعيشٍ بسطٍ وتكريم ، ودوام
روحٍ مقيم .

والميم تشير إلى محبة الحق — سبحانه — لهم بدماً فإنها هي الموجبة لمحببتهم ، إذ عنها
صَدَرَ كُلُّ حُبٍ فبمحبتته لهم أحبوه ، وبقصده إليهم طلبوه ، وبإرداته لهم أرادوه .
ويقال نزهة أسرار الموحدين في الإناخة بعقوة بسم الله ، فمن حلَّ تلك الساحة رَتَعَ
في حدائق القدس ، واستروح إلى نسيم الأنس .
ويقال بسم الله موقف الفقراء بقلوبهم ؛ فللأغنياء موقفهم عرفات ، وللفقراء موقفهم
المكاشفات والمشاهدات .

ويقال قالة « بسم الله » ربيع الأحاب ؛ أزهارها لطائف الوصلة ، ونورُها زوائد القربة .
قوله جل ذكره : ﴿ المص ﴾ .

هذه الحروف من التشابه في القرآن على طريقة قومٍ من السلف ، والحق — سبحانه —
مستأثر بعلمها دون خلقه . وعلى طريقة قومٍ فلها معانٍ تُعرَف ، وفيها إشارات إلى أشياء
توصَف : فالألف تشير إلى ألفة الأرواح العطرة أصابت الشكلية مع بعض الأرواح العطرة ،
فهي — في التحقيق — في ذلك المعنى كالم المتحدة ؛ فمنه تقع الألفة بين المتشاكين ، ولأجل
اتحاد المقصود يتفق القاصدون .

ويقال أَلِفَ القلبُ حديثه فلم يحتمش من بذل روحه .

(١) مشتبه .

ويقال الألف مجرد من قصده عن كل غير فلم يتصل بشيء ، وحين استغنى عن كل شيء اتصل به كل شيء على جهة الاحتياج إليه .

ويقال صورة اللام كصورة الألف ولكن لما اتصلت بالحروف تعاقبتها الحركات كسائر الحروف ؛ فمرة أصبحت مفتوحة ، ومرة (مسكوة)^(١) ، ومرة مرفوعة ، وأما الألف التي هي بعيدة عن الاتصال بالعلاقات (فباقية على وصف التجرد عن تعاقب الحركات عليها فهي على سكونها الأصلي)^(٢) .

وأما الصاد فتشير إلى صديق أحوال المشتاقين في القصد ، وصدق أحوال العارفين في الوجد ، وتشير إلى صدق قلوب المريدين وأرباب الطلب ، إذ العطش نعت كل قاصد ، كما أن الدهشة وصف كل واجد .

ويقال الصاد تبدي محبة للصدور وهو بلاء الأحياء .

ويقال الصاد تطالبك بالصدق في الود ، وأمانة الصدق في الود بلوغ النهاية والكمال ، حتى لا يزيد بالبر ، ولا ينقص بالمنع .

قوله جل ذكره : ﴿ كِتَابٌ أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لَتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

كتاب الأحياء نعمة الوقت ، وشفاء لمقاساة ألم البعد ، وهو لداء الضنى مزيل ، وشفاء الشك مُقْبِل ، وقال تعالى : « فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ » ولم يقل : في قلبك ؛ فإن قلبه — عليه السلام — في محل الشهود ، ولذلك قال : ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون^(٣) وكذلك قال موسى عليه السلام : « رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي »^(٤) . وقال للمصطفى صلوات الله

(١) وردت (مسكوة) بسقوط النون وهي خطأ في النسخ .

(٢) ما بين القوسين موجود في الهامش ابتداء في موضعه من المتن حسب العلامة المميزة .

(٣) آية ٩٧ سورة الحجر .

(٤) آية ٢٥ سورة طه .

عليه : « ألم نشرح لك صدرك »^(١) . فإن القلب في محل الشهود ، وهو أبدأ بدوام أنس القرب ، قال صلى الله عليه وسلم : « تنام عيني ولا ينام قلبي »^(٢) وقال : « أسألك لذة النظر »^(٣) وصاحب اللذة لا يكون له حرج .

قوله جل ذكره : ﴿ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ .

استسلموا لمطالبات التقدير ، قفوا حينما وقفتم ، وتحققوا بما عرقتهم ، وطالعوا بما كوشفتهم ، ولا تلاحظوا غيراً ، ولا تركزوا إلى علة ، ولا تظنوا أن لكم من دونه وسيلة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فِجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنَاتٍ أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ فما كان دعواهم إذ جاءهم بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ .

يعنى كم من قرية ركنوا إلى الغفلة ، واغتروا بطول المهلة ، باتوا في (خَفَضٍ)^(٤) الدعة وأصبحوا وقد صادقتهم البلياء بفتة ، وأدركتهم القضية فجأة ، فلا بلاء كُشِفَ عنهم ، ولا دعاء يُسْمَعُ لهم ، ولا فرار نَفَعَهُمْ ، ولا صرِيحٌ أُنْقِذَهُمْ . فما زالوا يفرعون إلى الابتهاال ، ويصيحون : الويل ! ويدعون إلى كشف الضر ، ويبيكون من مسَّ السوء ؟ ! بادوا وكأنه لا عين ولا أثر ، ولا لأحد منهم (خبر)^(٥) . تلك سُنَّةُ اللَّهِ في الذين خَلَوْا من الكافرين ، وعادته في الماضين من الماردين .

(١) آية ١ سورة الشرح .

(٢) في رواية سعيد بن منصور في سننه عن ابن سعد بن الحسن مرسل : (تنام عيني ولا ينام قلبي) ص ١٢٠ الجامع الصغير .

(٣) وردت ضمن وعاء طويل رواه النسائي في سننه والحاكم في مستدرکه عن عمار بن ياسر - هكذا (. . . وأسألك لذة النظر الى وجهك) .

(٤) وردت (حفص) بالخاء والصواب أن تكون (خفض الميش) بالخاء .

(٥) وردت (خبر) بالباء والصواب أن تكون (خبر) بالباء .

قوله جل ذكره : ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين ﴾

« فلنسألن الذين أرسل إليهم » : سؤال تعنيف وتعذيب .
« ولنسأل المرسلين » : سؤال تشريف وتقريب .
« فلنسألن الذين أرسل إليهم » عن القبول فيتنقنون بذلك الخجل .
« ولنسألن المرسلين » عن البلاغ فينكلمون ببيان الهيبة ، فلكلُّ بسمة العبودية والتوقير ، والحقُّ بنعت الكبرياء والتقدير .

قوله جل ذكره : ﴿ فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين ﴾

فلنخبرنهم يوم الفصل ما هم عليه اليوم ، وتوقفهم على ما أسلفوه ، وتقييمهم في مقام الصغار ومحل الخزي ، وسيعلمون أنه لم يغيب عن علمنا صغير ولا كبير .
ويقال أجرى الحقُّ — سبحانه — سنَّته بتخويف العباد بعلمه مرة كما خوفهم بعقوبته تارة ؛ فقال تعالى : « واتقوا يوماً » ^(١) يعني العذاب الواقع في ذلك اليوم ، وقال في موضع آخر : « ويحذركم الله نفسه » ^(٢) وهذا أبلغ في التخويف ، وقال « ألم يعلم بأن الله يرى » ^(٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ﴾ * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴾

يَزِنُ أعمالهم بميزان الإخلاص ، وأحوالهم بميزان الصدق . فمن كانت أعمالهم بالرياء

(١) آية ٤٨ سورة البقرة
(٢) آية ٢٨ سورة آل عمران
(٣) آية ١٤ سورة العلق

مصحوبة لم يقبل أعمالهم ، ومن كانت أحوالهم بالاعجاب مشوبة لم يرفع أحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم

فيها معاش قليلاً ما تشكرون ﴾

سهّلنا عليكم أسباب المعيشة ، ويسّرنا لكم أحوال التصرف ، ثم أراد منكم أن تتخذوا

إليه سبيلاً ، ولم يعتص عليه مراد .

« قليلاً ما تشكرون » لاستعمالكم — في الخلاف — أبدانكم ، وإفناكم

— بالإسراف — أحوالكم ، ولاستغراقكم — في الحظوظ — أوقاتكم . فلا نعمة الفراغ

شكرتم ، ولا من مس العقوبة شكرتم خسرتم وما شعرتم !

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا

للعلائكة اسجدوا لآدم فسجدوا

إلا إبليس لم يكن من الساجدين ﴾

ثبّتناكم على النعم التي أردناكم ، وأقنناكم في الشواهد التي اخترنا لكم ؛ فمن قبيح

صورته خلقاً ومن مليح ، ومن سقيم حالته خلقاً^(١) ، ومن صحيح . ثم إنا نعرفكم سابق

آيادينا إلى أبيكم ، ثم لاحقٍ بخلافه بما بقى عريقٍ منه فيكم ، ثم ما علنا به (من مكان

يحسدكم)^(٢) ويماديكم .

قوله جل ذكره : ﴿ قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك

قال أنا خيرٌ منه خلقتني من نارٍ

وخلقته من طين ﴾

أي لولا قهر الربوبية جرى عليك وإلا فما موجبُ امتناعك عن السجود لآدم لو كنت

تعظّم أمري ؟ فيتحقق الموجدون أن موجب امتناعه عن السجود الخذلانُ الحاصلُ ، ولو ساعده

التوفيق لم يبرح بعد من السجود .

(١) ضبطنا خلقاً وخلقاً حسبما يتطلبه السياق

(٢) مكنا في م ورجح أن النسخ قد اخطأ في النقل ؛ فإين قوسين لا معنى له ، وربما كانت

في الأصل (ثم ما علنا بمن كان يحسدكم ويماديكم) والقصود إبليس كما في الآية

قال : « أنا خير منه » ادعى الخيرية ، وكان الواجب عليه — لولا الشقوة — أن يؤثر التذلل على التكبر ، لاسيما والخطاب الوارد عليه من الحق .

ثم إنه وإن سلك طريق القياس فلا وجه له مع النفس لأنه يحظر ، فلم يزد قباسه إلا في استحقاق نفيه إذ ادعى الخيرية بجوهره^(١) ، ولم يعلم أن الخيرية بحكمه — سبحانه — وقسمته .

قوله جل ذكره : ﴿ قال فاهبط منها فما يكون لك أن تكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين ﴾ .

فارق بساط القربة ؛ فإن التكبر والترفع على البساط ترك للأدب ، وترك الأدب يوجب الطرد .

ويقال من رأى لنفسه محلاً أو قيمة فهو متكبر ، والمتكبر بعيد عن الحق سبحانه ، ورؤية المقام قدح في الربوبية إذ لا قدر لغيره تعالى ، فمن ادعى لنفسه محلاً فقد نازع الربوبية .

قوله جل ذكره : ﴿ قال أنظرنى إلى يوم يبعثون ﴾ قال إنك من المنظرين .

أجاب دعاءه في الحال ولكن كان ذلك مكرراً به لأنه مكثه من مخالفة أمره إلى يوم القيامة ، فلم يزد بذلك التمكن إلا شقوة . ليعلم الكافة أنه ليس كل إجابة للدعاء نعمة ولطفاً بل قد تكون بلاء ومكرراً .

قوله جل ذكره : ﴿ قال فيما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾ .

جاءت الحقيقة بالخلاف بعدما أظهر من نفسه غاية الخلوص في العبودية ، فعلم أن جميع ما كان منه في (سالف)^(٢) حاله لم يصدر عن الإخلاص والصدق .

(١) حيث اعتبر النار خيراً من الطين .

(٢) وردت (سالك) والصواب أن تكون (سالف) أى سابق عهده قبل عصيانه .

قوله جل ذكره : ﴿ثُمَّ لَا يَأْتِيهِمْ مِنَ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ
وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ
أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ .

أخبر أنه يأخذ عليهم جوائِبهم ، ويتسلط عليهم من جميع جهاتهم ، ولم يعلم أن الحق سبحانه قادر على حفظهم عنه ، فإن ما يكيد بهم من القدرة حصل ، وبالمشيئة يوجد ، ولو كان الأمر به أو إليه لكان أولى الخلق بأن يؤثر فيه كدُّه نفسه ، وحيث لم ينفعه جهده في سالف أحواله لم يضرهم كيد بما توعدهم به من سوء أفعاله .

قوله جل ذكره : ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْهُورًا مَذْهُورًا لِمَنْ
تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ
أَجْمِينَ﴾ .

أخرجه من درجته ، ومن حالته ورتبته ، ونقله إلى ما استوجبه من طرده ولعنته ، ثم تخليده أبداً في عقوبته ، ولا يذيقه ذرة من برِّ رحمة ، فأصبح وهو مقدَّم على الجملة ، وأمسى وهو أبعد الزمرة ، وهذه آثار قهر العِزة . فأى كيد يسمع هذه القصة ثم لا يفتت ؟ .

قوله جل ذكره : ﴿وَبَا آدَمَ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ
فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا
هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ .

لما أسكن آدم الجنة خلق معه سبب الفتنة ، وهو ما أكرمه به من الزوجة . وأى نقص يكون في الجنة لو لم يخلق فيها تلك الشجرة التي هي شجرة المحنة لولا ما أخفى من مير القسمة ؟ .

قوله جل ذكره : ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ .

نسبته ما حصل منهما إلى الشيطان من أمارات العناية ، كانت الخطيئة منهما لكنه تعالى قال : «فوسوس لهما الشيطان» .

ويقال النقي آدمُ بإبليس بعد ذلك فقال له : يَا شَقِيءُ ! وَسُوسَتَ إِلَى فَعَلْتَ ! ، فقال إبليس لآدم . يَا آدَمُ ! هَبْ أَنِّي كُنْتُ إِبْلِيسَكَ فَمَنْ كَانَ إِبْلِيسِي ؟ ! .

قوله جل ذكره : ﴿ لِيُبْدِيَ لَهَا مَا وُورِيَ عَنْهَا مِنْ سَوَاءٍ لَهَا ﴾ .

وفي ذلك دلالة على عناية زائدة حيث قال : « لِيُبْدِيَ لَهَا » فلم يطلع على سوائهما غيرهما .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالَ مَا تَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينَ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ .

فاقت أنفسهما إلى أن يكونا مَلَكَينَ — لأن رتبة الملائكة كانت أعلى من رتبة آدم عليه السلام — ولكن لا تقطاع الشهوات والتمني عنهما .

ويقال لما طبعما في الخلود وقما في الحمود ، ووقما في البلاء والخوف ؛ وأصلُ كُلِّ مُحَنٍ الطَّمَعُ .

ويقال إذا كان الطمع في الجنة — وهي دار الخلود — أَوْجَبَ كُلَّ تِلْكَ المحن فالطمع في الدنيا — التي هي دار الفناء — متى يسلم صاحبه من ذلك ؟ ويقال إن يكونا إنما رُكِنَا إلى الخلود فلا لنصيب أنفسهما ، ولكن لأجل البقاء مع الله تعالى ، وهذا أولى لأنه يوجب تنزيه محل النبوة . وقيل ساعات الوصال قصيرة وأيام الفراق طويلة ، فما لبثا في دار الوصلة إلا بعضاً من النهار ؛ دَخَلَا ضَحْوَةَ النَّهَارِ وَخَرَجَا نِصْفَ النَّهَارِ ، ويقال إن الفراق عينٌ تصيب أهل الوصلة ، وفي معناه قال قائلهم :

إِنْ تَكُنْ عَيْنٌ أَصَابَتْكَ فَمَا إِلَّا لَأَنَّ الْعَيْنَ تَصِيبُ الْحَسَنَاتِ

وبقال حين تَمَّتْ لَهَا أسباب الوصلة ، وَوُطِّنَا نفوسهما على دوام القربة بدا الفراق من مكانه فأباد من شملهما (ما)^(١) انتظم ، كما قيل :

(١) وردت (فاننظم) والصواب (ما انتظم)

حين تم الهوى وقلنا سررنا وحسيناً من الفراق أمناً
بعث البين رسله في خفاء فأبادوا من شملنا ما جمعنا

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَاَسَهُمَا إِنِّي لَكَاِلَمِّنَ النَّاصِحِينَ ﴾
فدلاًهما بغرور ﴿

(حُسنُ ظنٍّ آدم — عليه السلام — حمله على سكون قلبه إلى بين العدو لأنه لم يخطر
بباله أن يكذب في يمينه بالله ، ثم لما بان له أنه دلاًهما بغرور تاب إلى الله بصدق الندم ،
واعترف بأنه أساء وأجرم ، فعلم — سبحانه — صدقه فيما ندم ، فتداركه بحميل
العفو والكرم) ^(١)

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لهُمَا
سَوَاءُهُمَا ﴾

لم يحصل استيفاء من الأكل والاستمتاع به للنفس حتى ظهرت تباشير العقاب ، وتنقص
الحال ، وكذا صفة من أثر على الحق — سبحانه — شيئاً يقيه عنه ، فلا يكون له بما أثر
استمتاع . وكذلك من ادّخر عن الله — سبحانه — نفسه أو ماله أو شيئاً بوجه من الوجوه
— لا يبارك الله فيه ، قال تعالى في صفة الأعداء : « خسر الدنيا والآخرة » .

ويقال لما بدت سوائهما احتالا في الستر ، وطبقاً بخصفان عليهما من ورق الجنة فبعدما
كانت كسوتها حلل الجنة ظلاً يستتران بورق الجنة ، كما قيل :

لله درهم من فتية بكروا مثل الملوك ، وراحوا كالمساكين
وأنشدوا : لا تعجبوا لمذلتى فأنا الذي غبت الزمان بمهجتي فأذلها

ثم إن آدم عليه السلام لم يساعده الإمكان في الاستتار بالورق إذ كانت الأشجار أجمع كلها
تنطاول وتأبى أن يأخذ آدم — عليه السلام — شيئاً من أوراقها . وقبل ذلك كان لا يلاحظ
الجنة فكان يتيه على الكون بأسره ولكنه صار كما يقال :

وكانت — على الأيام — نفسى عزيزة فلما رأت صبرى على الذل ذلت

(١) ما بين القوسين موجود في الهامش أثبتناه في موضعه من المتن .

ولما أُخْرِجَ آدَمُ مِنَ الْجَنَّةِ وَأُتْسِكِنَ الْأَرْضَ كَلَّفَ الْعَمَلَ وَالسَّيَّ وَالزَّرْعَ وَالْفَرْسَ ، وَكَانَ لَا يَتَجَدَّدُ لَهُ حَالٌ إِلَّا تَجَدَّدَ بَكَاءُهُ ، وَجِبْرِيلُ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — يَأْتِيهِ وَيَقُولُ : « أَهَذَا الَّذِي قِيلَ لَكَ : « إِنْ لَكَ إِلَّا تَجْوَعُ فِيهَا وَلَا تَعْرِى » ؟ »
فَلَمْ يَعْرِفْ قَدْرَهُ . « فَذُقْ جَزَايَا خِلَافِكَ » فَكَانَ يَسْكُنُ عَنِ الْجَزْعِ . وَيُقَالُ بَلِ الْحَكَمُ بِالْخَنُوعِ كَمَا قِيلَ :

وَجَاسَتْ إِلَى النَّفْسِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَزِيدَتْ عَلَى مَكْرُوهِهَا فَاسْتَقَرَّتْ
قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ وَطَقُّوا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾

كَانَتْ لَا تَصِلُ يَدُهُ إِلَى الْأُورَاقِ حِينَ أَرَادَ قَطَافَهَا لِيَخْصِفَهَا عَلَى نَفْسِهِ ، فَلَوْ لَمْ تَصِلْ يَدُهُ إِلَى تِلْكَ الشَّجَرَةِ — الَّتِي هِيَ شَجَرَةُ الْمَحْنَةِ — لَكَانَ ذَلِكَ عَنَاءَةً بِشَأْنِهِ ، وَلَكِنْ وَصَلَتْ يَدُهُ إِلَى شَجَرَةِ الْمَحْنَةِ ، تَمَتُّةً لِلْبَلَاءِ وَالْفِتْنَةِ ، وَلَوْ لَمْ تَصِلْ يَدُهُ إِلَى شَجَرَةِ السَّرِّ — إِبْلَاقًا فِي الْقَهْرِ — لَمَّا خَالَفَ الْأَمْرَ ، وَلَمَّا حَصَلَ مَا حَصَلَ .

« وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ » : فَكَانَ مَا دَاخَلَهُمَا مِنَ الْخَلْجِ أَشَدَّ مِنْ كُلِّ عَقُوبَةٍ ، لِأَنَّهُمَا لَوْ كَانَا فِي الْغَيْبَةِ عِنْدَ سَمَاعِ النِّدَاءِ فَإِنَّ الْحُضُورَ يُوجِبُ الْهَيْبَةَ ، فَلَمَّا نَادَاهُمَا بِالْعِتَابِ حَلَّ بِهِمَا مِنَ الْخَلْجِ مَا حَلَّ ، وَفِي مَعْنَاهُ أَنْشَدُوا :

وَإِخْجَلْنَا مِنْ وَقُوفٍ وَسَطَ دَارِهِمْ إِذْ قَالَ لِي مُغَضِبًا : مَنْ أَنْتَ يَا رَجُلٌ ؟ .
قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ قَالَا رَبُّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

اعْتَرَفَا بِالظُّلْمِ جَهْرًا ، وَعَرَفَا الْحَكَمَ فِي ذَلِكَ سِرًّا ، فَقَوْلُهُمَا : « رَبُّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا » اعْتِرَافٌ بِالظُّلْمِ مِنْ حَيْثُ الشَّرِيعَةِ ، وَعَرَفَانِ أَنَّ الْمَدَارَ عَلَى الْحَكَمِ مِنْ حَيْثُ الْحَقِيقَةِ ، فَمَنْ لَمْ يَعْتَرِفْ بِظُلْمِ الْخَلْقِ طَوَى الشَّرِيعَةَ^(١) ، وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ جَرِيَانَ حَكَمِ الْحَقِّ فَقَدْ جَعَلَ الْحَقِيقَةَ ،

(١) حَقٌّ يَكُونُ الدَّرْسُ مَلْسُوبًا لِلْإِنْسَانِ كَسَبًّا .

فلما أقرّا بالظلم قالا : « وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » نطقا على عين التوحيد حيث لم يقولوا بظلمنا خسرنا ، بل قالا : فَعَلْنَا فَإِنْ لم تغفر لنا خسرنا ، فَيَتَرَكُ غفرانك نخسر لا رتكاب ظلمنا به .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ أَهْبَطَهُمْ ، ولكنه أهبط إبليسَ عن رتبته فوقه في اللعنة ، وأهبط آدم عن بقعته فتداركته الرحمة .

ويقال لم يُخْرِجَ آدم عليه السلام من رتبة الفضيلة وإن أُخْرِجَ عن دار الكرامة ، فلذلك قال الله تعالى : « ثم اجنباه ربّه » وأما إبليس — لعنةُ الله عليه — فإنه أُخْرِجَ من الحالة والرتبة ؛ فلم ينتمش قط عن تلك السَّقْطَة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾

« ولکم فی الأرض مستقر » هذا عامٌ « ومتاع إلى حين » : أراد به إبليسَ على الخصوص . قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾

أخبر أنه يستقبلهم اختلافُ الأحوالِ في الدنيا ، ويتعاقب عليهم تفاوتُ الأطوار ، فَمِنْ عُسْرٍ وَمِنْ يُسْرٍ ، ومن خير ومن شر ، ومن حياة ومن موت ، ومن ظفرٍ ومن فؤت . . . إلى غير ذلك من الأحوال .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ ﴾

سترناكم عن الأسباب الظاهرة ، ويسرنا لكم ما تدفعون به صنوف المضار عنكم بما مَكَّنَّا لكم من وجوه النافع .

ثم قال : « ولباسُ التقوى ذلك خير » فإن اللباس الظاهر بقى آفات الدنيا ، ولباس التقوى يصون عن الآفات التي توجب سخط المولى ، ولباس التقوى بجميع أجزاء العبد وأعضائه . والنفس لباسٌ من التقوى وهو بذل الجهد والروح والقلب ، لباس من التقوى وهو صدق القصد بنفى الطمع . والروح لباس من التقوى وهو ترك العلائق وحذف العوائق . والسرُّ لباسٌ من التقوى وهو نفي المساكنات والتصاوان من الملاحظات .

ويقال تقوى العباد ترك الحرام ، وتقوى العارفين نفي مساكنة الأنام . ويقال للعوام التقوى ، وللخواص لباس التقوى عن شهود التقوى .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ﴾

من أصفى إلى وساوس نفسه بأسماع الهوى وجد الشك بين وساوس الشيطان وهاجس النفس ، ويتناصر الوسواس والهاجس وتصير خواطر القلب وزواجر العلم مضورة مقهورة — فعن قريب تشمل تلك الهواجس والوساوس صاحبها ، وينخرط في سلك موافقة الهوى فيسقط في مهواة الزلة ، فإذا لم يحصل تدارك يوشيك التوبة صارت الحالة قسوة في القلب ، وإذا قسا للقلب فارقت الحياة وتم له البلاء .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

لا يحصل للعبد احتراس من رؤية الشيطان إياه وهو عنه غائب إلا برؤية العبد للحق — سبحانه — بقلبه ، فيستغيث إليه من كيده ، فيدريه — سبحانه — في كنف عنايته فيجد الخلاص من مكر الشيطان .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ ، قل إن الله

لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله

ملا تعلمون ﴿

استروحوا في التعلل إلى سلوككم نهج أسلافهم ، فاستمسكوا بحبل واهٍ فزلت بهم أقدامُ
الفرور ، وقصوا في وهدة المحنة .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ﴾

القِسْطُ العدل ، ويقع ذلك في حق الله تعالى ، وفي حق الخلق ، وفي حق نفسك ؛ فالعدلُ
في حق الله الوقوفُ على حدِّ الأمر من غير تقصير في المأمور به أو إقدامٍ على المنهى عنه ،
ثم ألا تدخر عنه شيئاً مما خولك ، ثم لا تؤزِرَ عليه شيئاً فيما أحلَّ لك . وأما العدل مع الخلق —
فعلى لسان العلم — بذلُ الإنصاف ، وعلى موجب الفتوة ترك الانتصاف . وأما العدل في حق
نفسك فإدخال العتق عليها ، وسدُّ أبواب الراحة بكل وجه عليها ، والنهوض بخلافها على
عموم الأحوال في كل نفس .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَقِيمُوا وجوهكم عند كل مسجد

وادعوه مخلصين له الدين ﴾

الإشارة منه إلى إستدامة (شهوده في كل حالة ، وألا تنساه لحظةً في كل ما تأتبه وتذره
وتقدمه)^(١) وتأخره .

قوله جل ذكره : ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ فريقتا هدى

وفريقاً حق عليهم الضلالةُ إنهم

اتخذوا الشياطينَ أولياء من دون

الله ويَحْسَبُونَ أنهم مُبْتَدُونَ ﴿

من كانت قِسمته — مباحانه — له بالسعادة كانت فطرته على السعادة ، وكانت حالته
بنت السعادة ، ومن كانت حالته بنعت السعادة كانت عاقبته إلى السعادة ، ومن كانت القسمة
له بالعكس فالحالة بالضد ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كان بحالةٍ لقي الله بها » .

(١) ما بين القوسين موجود في المامش أثبتناه في موضعه من النص .

وجملة العلم بالقضاء والقدر أن يتحقق أنه علم ما يكون أنه كيف يكون ، وأراد أن يكون كما علم . وما علم ألا يكون — مما جاز أن يكون أرادته ألا يكون — أخير أنه لا يكون . وهو على وجه الذي أخبر ، وقضى على العبد وقدر أجرى عليه ما سبق به الحكم ، وعلى ما قضى عليه حصل العبد على ذلك الوصف ..

قوله جل ذكره : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾

على لسان العلم : يجب سترُ المَوَزة في الصلاة ، وعلى موجب الإشارة : زينة العبد بحضور الحضرة ، ولزوم السَّدَّة ، واستدامة شهود الحقيقة .

ويقال زينة نفوس العابدين آثار السجود ، وزينة قلوب العارفين أنوار الوجود ، فالعابد على الباب بنعت العبودية ، والعارف على البساط بحكم الحرية . وشتان بين عبدٍ وعبدٍ !

قوله جل ذكره : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾

الإسراف ما تناولته لك ولو بقدر سمسة .

ويقال الإسراف هو التعدي عن حدِّ الاضطرار فيما يتضمن نصيباً لك أو حظاً بأى وجه كان .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

الإشارة منها إلى زينة السرائر ، فزينة العابدين آثار التوفيق ، وزينة الواجدین أنوار التحقيق ، وزينة القاصدين ترك العادة ، وزينة العابدين حسن العبادة .

ويقال زينةُ النفوسِ صدارُ الخدمة ، وزينةُ القلوبِ حفظُ الحرمة ، وزينةُ الأرواحِ الإطراقُ بالحضرةِ باستدامةِ الهيبةِ والحشمةِ .

ويقال زينةُ اللسانِ الذكرُ وزينةُ القلبِ الشكرُ .

ويقال زينةُ الظاهرِ السجودُ وزينةُ الباطنِ الشهودُ .

ويقال زينةُ النفوسِ حسنُ للعاملةِ من حيثِ المجاهداتِ ، وزينةُ القلوبِ دوامُ المواصلةِ من حيثِ المشاهداتِ .

ومعنى قوله : « قل من حرم زينة الله التي . . . » يعنى إن الله لم يمنع هذه الزينة عن تعرض لوجدانها ، فمن تصدى لطلبها فهي مباحة له من غير تأخير قصود .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾

أرزاق النفوس بحكم أفضاله سبحانه ، وأرزاق القلوب بموجب إقباله تعالى .

ويقال أرزاق المرئيين إلهام ذكر الله ، وأرزاق العارفين الإكرام بنسيان ما سوى الله .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ

منها وما بطن والإثم والبغى بغير

الحقِّ وأن تشركوا بالله ما لم ينزل

به سلطاناً وأن تقولوا على الله

مالا تعلمون ﴾

ما ظهر منها الزُّلَّةُ ، وما بطن منها الغفلة .

ويقال ما ظهر منها كان بنسيان الشريعة ، وما بطن بإشارة الحقيقة .

ويقال لقوم ترك الرخص يكون علة ، والأولى بهم والأفضل لهم الأخذ به . وقوم

لو ركنوا إلى الرخص لقامت عليهم القيامة .

ويقال فاحشة الخواص تتبع ما لأنفسهم فيه نصيب ولو بذرة أو سِنَّة .

ويقال فاحشة الأحياء الصبر على المحبوب^(١)

(١) لأنهم عندئذ يستطيعون الصبر بعيداً عن رضا محبوبهم عز وجل . (الرسالة ص ١٦٢)

ويقال فاحشةُ الأحبابِ أن تبقى حياً وقد منيت بالفراق ، قال قائلهم :
لا عيشَ بعد فراقهم هذا هو الخطب الأجلُ

ويقال فاحشة قومٍ أن يلاحظوا غيراً بعين الاستحقاق ، قال قائلهم :
يا قُرَّةَ العين سل عيني هل اكتحلت بمنظر حسنٍ منذ غبت عن عيني ؟
ويقال فاحشة قومٍ أن تبقى لهم قطرةٌ من الدمع ولم يسكبوها للفرقة ، أو يبقى لهم نفسٌ
لم يَتَنَفَّسُوا به في حسرة ، وفي معناه أشدوا :
لئن بقيتُ في العين مئى دمةً فإني إذاً في العاشقين دخیلُ

قوله جل ذكره : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾

لكل قوم مدةٌ مضروبةٌ ، فإذا تناهت تلك المدة زالت تلك الحالة ؛ فلنعمه
المُتَرَفِّين مدةٌ ، فإذا زالت فليس بعدها إلا الشدة ، وللمُتَضَعِّفِينَ مدةٌ فإذا انقضت
تلك المدة زالت تلك الشدة .

ويقال إذا سقط قرصُ الشمس زال سلطانُ النهار فلا يزداد بعده إلا تراكم الظلمة ،
فإذا ارتحلت عساكرُ الظلام بطلوع الفجر فبعد ذلك لا تبقى فيه للنهار تهمةٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

إذا أتاكم الرُّسُلُ فلا تركنوا إلى مجوزاتِ الظنون ، واحملوا الأمرَ على الجِدِّ فإننا
— مع استغنائنا عن الأفيار ، وتقدُّسنا عن المناقع والمضار — نَطَالِبُ بِالْقَلِيلِ وَالكَثِيرِ ،
ونحاسبُ على النقيير والقطير .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا
عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ ﴾

مَنْ قَابَلَ رَبَّيْتَنَا بِالْجَحْدِ ، وَحَكَمْنَا بِالرَّدِّ ، لَقِيَ الْمَوَانَ ، وَقَلَى الْآلَامَ وَالْأَحْزَانَ ،
ثُمَّ الْعَجْزُ يُلْجِئُهُ إِلَى الْخَنُوعِ ، وَلَكِنْ بَعْدَ الْإِغْنَى لَا يَسْمَعُ ^(١)

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ
كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنْهَكُمُ
نَصِيحَتُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا
جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَهُمْ مَا يَتْلُوا آيَاتِ
اللَّهِ أَنْ كُنْتُمْ تَدَّعُونَ مِنَ دُونِ اللَّهِ ؟
قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا ، وَشَهِدُوا عَلَى
أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾

يُصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ مَا سَبَقَ لَهُمْ بِهِ الْحُكْمُ ، فَمَنْ جَرَى بِسَعَادَتِهِ الْحُكْمُ وَقَعَ عَلَيْهِ رَقْمُ
السَّعَادَةِ ، وَمَنْ سَبَقَ بِشَقَاوَتِهِ الْحُكْمُ حُقِّقَ عَلَيْهِ عِلْمُ الشَّقَاوَةِ .
وَيُقَالُ مَنْ سَبَقَتْ لَهُ قِسْمَةُ السَّعَادَةِ فَلَوْ وَقَعَ فِي قَعْرِ اللَّظَى تَدَارَكَهُ الْعَنَاءُ وَأُخْرِجَتْهُ
الرَّحْمَةُ ، وَمَنْ سَبَقَتْ لَهُ قِسْمَةُ الشَّقَاوَةِ .. فَلَوْ نَزَلَ الْفَرَادِيسُ تَدَارَكَهُ السَّخَطَةُ
وَأُخْرِجَتْهُ اللَّعْنَةُ .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ
قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ
كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا
حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ

(١) توضح هذه العبارة في ضوء ما سيرد بعد قليل هكذا : (ولكن بعد الا ينفعهم بكاء
ولا يسمع لهم دعاء) .

أُخْرَامَ لِأَوْلَامِ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا
 فَأَتَيْنَهُمُ عَذَابًا ضَعِيفًا مِنَ النَّارِ ، قَالَ
 لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ *
 وَقَالَتْ أُولَامُ لَأَخْرَامَ فَمَا كَانَ لَكُمْ
 عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذوقوا العذابَ
 بما كنتم تكسِبُونَ *

آثار إعراض الحق عنهم أوردت لهم وحشة الوقت ؛ تبرم بعضهم ببعض ، وضاق
 كل واحد منهم عن كل شيء حتى عن نفسه ، فدعا بعضهم على بعض ، وتبرأ بعضهم من
 بعض ، وكذلك صفة المطرودين .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا
 وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتُحُ لَهُمُ أَبْوَابُ
 السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ
 الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي
 الْمُجْرِمِينَ ﴾ * لهم من جهنم مهاد *

فلا دعاؤهم يُسَمِعُ ، ولا بكاءهم ينفع ، ولا بلاؤهم يكشف ، ولا عناؤهم يرفع .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٌ وَكَذَلِكَ
 نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ *

كما أحاطت العقوبات بهم في الدنيا فتدّس بالغفلة باطنهم ، وتلوّث بالزلة ظاهرهم (١) ،
 فكذلك أحاطت العقوبات بجوانبهم ؛ فمن فوقهم عذاب ومن تحتهم عذاب ، وكذلك من
 جوانبهم في القلب من ضيق العيش واستيلاء الوحشة ما يفي ويزيد على الكل .

(١) نذكر أن القشيري منذ قليل أوضح أن (ما ظهر من الفواحش هي الزلة وما بطن منها هي الغفلة)

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ
أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

رفعنا عن ظاهرهم وباطنهم كلفة العمل فبسرنا عليهم الطاعات بحسن التوفيق ، وخففنا
عنهم العبادات بتقليل التكليف .

قوله جل ذكره : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ ،
تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ﴾

طهرنا قلوبهم من كل غش ، واستخلصنا أسرارهم عن كل آفة . وطهر قلوب العارفين
من كل حظ وعلاقة ، كما طهر قلوب الزاهدين عن كل رغبة ومنية ، وطهر قلوب العابدين
عن كل تهمة وشهوة ، وطهر قلوب المحبين عن محبة كل مخلوق وعن غل الصدر — كل واحد
على قدر رتبته .

ويقال لما خلق الجنة وَكَلَّ تَرْتِيبَهَا إِلَى رِضْوَانٍ ، والعرش ولى حفظه إلى الجملة (١) ،
والكعبة سلم مفتاحها إلى بنى شيبه ، وأما تطهير صدور المؤمنين فتولاه بنفسه .
وقال : « وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ » .

ويقال إذا كان نزع الغل من الصدور من قبلة فلا محل للغرم الذي لزمهم بسبب الخصوم
حيث كان منه سبحانه وجه أدائه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا
وَمَا كُنَّا لَنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ
لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾

في قولهم اعتراف منهم وإقرار بأنهم لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه من جزيل تلك العطيات،

(١) هل المقصود بها جملة اللائكة إشارة إلى قوله تعالى : « وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ

وعظيم تلك الرتب والمقامات يجهدهم واستحقاق فعلهم ، وإنما ذلك أجمع ابتداء فضل منه ولطف .

قوله جل ذكره : ﴿ وَنُودُوا أَنْ تُلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

تسكين لقلوبهم ، وتطيب لهم ، وإلا فإذا رأوا تلك الدرجات علموا أن أعمالهم المشوبة بالنقصير لم توجب لهم كل تلك الدرجات .

قوله جل ذكره : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴾

اعترف أهل النار بحقيقة الدين ، وأقروا بسوء ما عملوا ، ولكن حين لم ينفعهم إقرار بحال من الأحوال .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيُنْهَىٰ عَنْ حُجَابٍ ﴾ .

ذلك الحجاب الذي بينهما حصل من الحجاب السابق ؛ لما حُجِبُوا في الابتداء^(١) في سابق القسمة عما خُصَّ به المؤمنون من القربة والزلفة حُجِبُوا في الانتهاء عما خُصَّ به السعداء من المغفرة والرحمة .

ويقال حجاب وأى حجاب ! لا يُرْفَعُ بحيلة ولا تنفع معه وسيلة .
حجاب سبق به الحكم قبل الطاعة والجُرم .

(١) وردت في (الابتداء) والصواب أن سابق القسمة في (الابتداء) قبل الطاعة والجُرم — كما سيأتي بعد قليل ، وكما نعرف من مذهب القشيري في هذا المصوم .

قوله جل ذكره: ﴿وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاً بسياهم﴾

هؤلاء الأشراف خصوا بأنوار البصائر اليوم فأشرفوا على مقادير الخلق بأسرارهم ،
ويشرفون غداً على مقامات الكل وطبقات الجميع بأبصارهم .

ويقال يعرفونهم غداً بسياهم التي وجدوهم عليها في دنياهم ؛ فأقوامٌ موسومون بأنوار
القرب ، وآخرون موسومون^(١) بأنوار الرد والحجب .

قوله جل ذكره : ﴿ ونادوا أصحاب الجنة أن سلامٌ

عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون ﴾

سئلوا اليوم عن النكرة والجحود ، وأكرموا بالعرفان والتوحيد .

وسئلوا غداً من فنون الوعيد ، وسعدوا بلطائف المزيد . وتحققوا أنهم بلغوا من الرتب
مالم يسمُ إليه طرفُ تأميلهم ، ولم يُحِطْ بتقصيله كُنْه عقولهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا صرفت أبصارهم تلقاء

أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع

القوم الظالمين ﴾ .

إنما يصرف أبصارهم اليومَ تقديراً عليهم عظيم المنة التي بها نجّاهم ، فيزيدون في

الاستغاثة وصدق الابتهاال ، فتكمل بهم العارفة^(٢) بإدامة ملاطفهم به من الإيواء والحفظ .

قوله جل ذكره : ﴿ ونادى أصحاب الأعراف رجالاً

يعرفونهم بسياهم قالوا ما أغنى عنكم

جمعكم وما كنتم تستكبرون ﴾

أهؤلاء الذين أقسم لا ينالهم الله

برحمة ، ادخلوا الجنة لا خوف عليكم

ولا أنتم تحزنون ﴾

(١) قال أحمد بن عطاء : (الوسم يظهر على المقبولين والمطرودين) اللع ص ٤٢٧ .

(٢) العارفة هي الفضل والمعروف والمنة .

ذلك ما يرون عليهم من غبار الرد وأمارات البعد ، وهي مما لا يخفى على ذى عينين ، فيقولون
لم : هل يُغْنِي عنكم ما كنتم إليه من أباطيلكم ، وسكنتم إليه من فاسد ظنونكم ، وباطل
تأويلكم ؟ فشاهدوا — اليوم — تخصيص الحق لمن ظننتم أنهم ضعفاؤكم ، وانظروا هل يغنى
عنكم الذين زعمتم أنهم أولياؤكم وشركاؤكم ؟

قوله جل ذكره : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ

أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا
رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا
عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ الذين اتخذوا
دينهم لهواً ولعباً وغرّتهم الحياة الدنيا
فاليوم ننسأهم كما نسأ لقاء يومهم
هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون ﴾

دلّت الآية على أن من أواخر ما يبق على الإنسان الأكل والشرب ؛ فإنهم في تلك
العقوبات الشديدة يقع عليهم الجوع والعطش حتى يتضرعون كلّ ذلك التضرع ؛ فيطلبون
شربة ماء أو لقمة طعام وهم في غاية الآلام ، والمادة — اليوم — أن من كان في ألم شديد
لا يأكل ولا يشرب ، وهذا شديد .

ثم أبصر كيف لا يسقيهم قطرة — مع استغناؤه عن تعذيبهم ، وقدرته على أن يعطيهم
ما يريدون ؛ ولكنه قهر الربوبية وعِزُّ الأحدية ، وأنه فعّال لما يريد . فكالم يرزقهم
— اليوم — من عرفانه ذرة ، لا يسقيهم غداً في تلك الأحوال قطرة ، وفي معناه أنشدوا :
وَأَقْسَنَ لَا يَسْقِينَا — الدهر — قطرةً ولو فُجِّرَتْ من أرضهن بحورُ

ويقال إنما يطلبون الماء ليبكوا به بعدما نفدت دموعهم ، وفي هذا المعنى قيل :
يَا نَارِحاً نَزَفْتُ دُمْعِي قَطِيعَتُهُ هَبْ لِي مِنَ الدَّمْعِ مَا أَبْكِي عَلَيْكَ بِهِ .
وفي هذا المعنى أنشدوا .

جرف البكاء دموعَ عينك فاستعِرْ عيناً لغيرك دمعها مدرار

مَنْ ذَا يُعِيرُكَ عَلَيْهِ نَبِيٌّ بِهَا أَرَأَيْتَ عَيْنًا لِلْبُكَاءِ تُعَارِ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا
وَغَرَّبُوهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ تَنْسَاهُمْ
كََمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا
بِآيَاتِنَا بِمُجِدِّدِينَ ﴾ .

كما تركوا أمره وضيعوه تركهم في العقوبة ، ولا (. . .) (١) فيما يشكون ، فتأتى عليهم
الأحقاب ، فلا كشف عذاب ، ولا برد شراب ، ولا حسن جواب ، ولا إكرام بخطاب
ذلك جزاء لمن لم يعرف قدر الوصلة في أوقات المهلة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَضَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ
هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

أنزلنا عليهم من الكتاب وأوحينا إليهم من الخطاب ما لو قابله بالتصديق وصاحبوه
بالتحقيق لوجدوا الشفاء من محنة البعاد ، ونالوا الضياء بقرب الوداد ، ووصلوا في الدنيا والعقبى
إلى جميل المراد ، ولكنه — سبحانه — أبى القسمة في نصيبهم إلا الشقوة .

قوله جل ذكره : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ
يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسَوْا مِنْ
قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رَبُّنَا بِالْحَقِّ
فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفْعَاءَ فَيُشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ
فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ
قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ
مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

إذا كشف جلال الغيب ، وانتفت عن قلوبهم أغطية الريب ، فلا بكاء لهم ينفع ،
ولا دعاء منهم يُسمع ، ولا شكوى عنهم ترفع ، ولا بلوى من دونهم تقطع

(١) مشبهة .

قوله جل ذكره : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى
عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ
حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنَّجُومُ
مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ
تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾

تعرّف إلى الخلق بآياته الظاهرة الدالة على قدرته وهى أفعاله ، وتعرّف إلى الخواص منهم
بآياته الدالة على نصرته التى هى أفضاله وإقباله ، وظهر لأسرار خواص الخواص بنعوته
الذاتية^(١) التى هى جماله وجلاله ، فستان بين قوم وقوم !

ثم كما يدخل فى الظاهر الليل على النهار والنهار على الليل فكذلك يدخل القبض على البسط
والبسط على القبض . ومنه الإشارة إلى ليل القلوب ونهار القلوب : فَمِنْ عَبْدٍ أَحْوَالُهُ أَجْمَعُ
قَبْضٌ ، وَمِنْ عَبْدٍ أَحْوَالُهُ أَجْمَعُ بَسْطٌ ، ومن عبد يكون مرة بعين القبض ومرة بعين البسط
كما أن بعض أقطار العالم فيها نهار بلاليل ، وفى بعضها ليل بلا نهار ، وفى بعضها ليل يدخل على
نهار ونهار يدخل على ليل .

« أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ » : فمنه الخير والشر ، والنفع والضر ، فإن له الخلق والأمر .
« تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ » هذه الكلمة جمع الدعاء لاشتغالها على إفادة معنى قَدَمِهِ ودوام
ثبوتها من حيث يُقال بِرَّكَ الطَّيْرِ على الماء .

وأفادت معنى جلالة الذى هو استحقاقه لنعوت العِزِّ لأنه قد تبارك أى تعظّم . وأشارت
إلى إسداد النعم وإتاحة الإحسان من حيث إن البركة هى الزيادة فهى جمع الثناء والمدح
للحق سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً

(١) لاحظ حرص القشيري الشديد حين يقرر أن أقصى حالات المشاهدة لا تكون مشاهدة
الذات — فقد جلت الصدية أن يستشرف من عبود ذاتها عبد ، إنما هى مشاهدة نعوت الذات :
الجمال والجلال .

إنه لا يحب للعندين * ولا تفسدوا
في الأرض بعدة إصلاحها وادعوه
خوفاً وطمعاً *

الأمر بالدعاء إذن — في التسلي — لأرباب المحنة ، فإنهم إلى أن يصلوا إلى كشف المحنة ووجود
للأموال استروحوا إلى روح النجاة في حال الدعاء ؛ والدعاء نزهة لأرباب الحوائج ، وراحة
لأصحاب المطالبات ، ومعجل من الأُنس بما (. . .)^(١) إلى القلب عاجل التقريب .
وما أخلص عبداً في دعائه إلا رَوْحٌ — سبحانه — في الوقت قلبه .

ويقال علمهم آداب الدعاء حيث قال : « تضرعاً وخفية » وهذا أدب الدعاء ؛ أن يدعوا
بوصف الافتقار والانكسار ونشر الاضطراب . ومن غاية ما تقرر لديك نعت كرمه بك أنه
جعل إمساكك عن دعائه — الذي لا بد منه — اعتداء منك .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها
وادعوه خوفاً وطمعاً ﴾

من الإفساد بعد الإصلاح إحمالُ النفس عن المجاهدات بمخلم عذارها حتى تتبع هواها
بعدما كَبَحَتْ لجأها مدةً عن العدو في ميدان اختلاف ، ومن ذلك إرسالُ القلب في أودية المني
بعد إمساكه على أوصاف الإرادة ، ومن ذلك الرجوعُ إلى الحفظ بعد القيام بالحقوق ،
ومن ذلك استشعارُ محبة المخلوق بعد تأكيد العقد معه بالأنجب سواء ، ومن ذلك الجنوحُ إلى
تتبع الرخص في طريق الطلب بعد حمل النفس على ملازمة الأولى والأشقى ، ومن ذلك
الانحطاطُ بحظٍّ إلى طلب مقام منه أو إكرام ، بعد القيام معه بترك كل نصيب
وفي الجملة : الرجوعُ من الأعلى إلى الأدنى إفسادٌ في الأرض بعد الإصلاح .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ رحمة الله قريب من المحسنين ﴾

يقال المحسنين عملاً والمحسنين أملاً ، فالأول العابدون والثاني العاصون^(٢)

ويقال المحسن من كان حاضراً بقلبه غير لاهٍ عن ربه ولا ناسياً لحقه .

ويقال المحسن القائم بما يلزم من الحقوق .

(١) مشنبة (٢) تأمل كيف يفسح الصوفية صدورهم ويفتحون أبواب الأمل أمام العصاة

ويقال المحسن الذي لم يخرج (. . .)^(١) عن إحسانه بقدر الإمكان ولو بشر كلمة .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذي يرسل الرياح بُشْرِى
بين يدي رحمته ﴾

تباشير القرب تتقدم فينادى نسيمة إلى مشام الأسرار ، وكذلك آثار الإعراض تتقدم
فتوجد ظلمة القبض في الباطن ، فظل الوحشة يتقدمها ، ونسيم الوصلة بعدها ، وفي قريب
منه قال قائلهم :

ولقد تَشَمَّتُ القضاءَ لما جئني فإذا له من راحتيك لسيم

قوله جل ذكره : ﴿ حتى إذا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا
سُقْنَاهُ لِبَلَاءٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ
فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ
نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

الإشارة منه أنه يحصل بالمهجور ما يتأذى به الصدر ويُبْرِحُ به الوجد وينحل به الجسم ،
بل يُبْطِلُ كله البعد ، فيأتيه القرب فيعود عود وصاله بعد الذبول طرياً ، ويصير دارس حاله
عقيب السقوط ندياً ، كما قال بعضهم :

كُنَّا كُنْ أَلْبِسَ أَكْفَانَهُ وَقُرْبُ النُّعْشِ مِنْ الْأَلْحَدِ
فَجَالَتْ الرُّوحُ فِي جَسَدِهِ وَرَدَّهِ الْوَصْلُ إِلَى الْمَوْلَدِ

قوله جل ذكره : ﴿ والبلاء الطَّيِّبُ يُخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ
رَبِّهِ وَالَّذِي خَبِثَ لَا يُخْرِجُ إِلَّا نَكَدًا
كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يَشْكُرُونَ ﴾

إذا زكا الأصلُ نما الفرع ، وإن خبث الجوهر لم يطب ما تحلّل منه ، وإن طاب العنصر

(١) مشبهة .

فالجزء يحاكي أصله ، والأسيرة تدل على السريرة ، فمن صفا باطن قلبه زكا ظاهراً فعله ، ومن كان بالعكس فحال بالضد .

قوله جل ذكره : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ

يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ

غَيْرُهُ ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ

يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿

بَلَّغَ الرِّسَالَةَ فَلَمْ يَنْجَعْ فِيهِمْ مَا أَظْهَرَ مِنَ الْآلَاءِ ، لَأَنَّ مَحْزُومَ الْقِسْمَةِ لَا يَنْفَعُهُ مَجْهُودُ الْحِيلَةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ

فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ

بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّنْ رَبِّ

الْعَالَمِينَ ﴿

قوله « ليس بي ضلالة » : نسبوا نوحاً — عليه السلام — إلى الضلالة ، فتولى إجابتهم

بنفسه فقال « يا قوم ليس بي ضلالة » ، ونبينا — صلى الله عليه وسلم — نُسِبَ إِلَيْهِ فتولى

الْحَقُّ — سبحانه — الرَّدَّ عَنْهُ فَقَالَ : « مَا ضَلُّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى » ^(١) فَشَتَّانَ بَيْنَ مَنْ

دَافَعَ عَنْ نَفْسِهِ ، وَبَيْنَ مَنْ دَافَعَ عَنْهُ وَتَنَّى عَنْهُ رَبُّهُ ^(٢) !

قوله جل ذكره : ﴿ أَلْبَلَّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ

وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

إِنِّي أَعْلَمُ أَنِّي وَإِنْ بَالِغَتْ فِي تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ فَمَنْ سَبَقَتْ لَهُ الْقِسْمَةُ بِالشَّقَاوَةِ لَا يَنْفَعُهُ نَصْحِي ،

وَلَا يُؤْتَرُّ فِيهِ قَوْلِي ، فَمَنْ أَسْقَطَتْهُ الْقِسْمَةُ لَمْ تَنْعَشْهُ النَّصِيحَةُ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّنْ رَبِّكُمْ

(١) آية ٢ سورة النجم .

(٢) من عادة القشيري أن يلتمس نوحاً من المقارنة بين المصطفى صلوات الله عليه وبين سائر الأنبياء ،

عليهم السلام ليظهر علو مقامه ورفعة مرتبته بينهم .

على رجلٍ منكم لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا
وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾

عجبوا من كَوْنِ شخص رسول الله ، ولم يتمجبوا من كون الصنم شريكاً لله ، هذا فرطُ
الجهالة وغاية الغباء !

قوله جل ذكره : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأْتَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ
فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا
بآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾

تسر بلوا غيبَ التكذيب لما ذاقوا طعم العقوبة ، فلم يسعدوا بما حملوه ولم يصلوا
إلى ما أملوه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ
اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ
أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ قال الملائة الذين كفروا
مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ
وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١١﴾ قَالَ
يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ
مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ
رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿١٣﴾
أَوْعِظْهُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّنْ رَبِّكُمْ
عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ ﴿١٤﴾

أخبر أنهم سلكوا طريق أسلافهم وإخوانهم ، فوقعوا في وهديهم ، ومنوا بمثل حالتهم .
فلا خير فيمن آثر هواه على رضا الله ، ولا ربحَ مَنْ قَدَّمَ هواه على حقِّ الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ
قَوْمِ نُوحٍ ﴾

جعل الله الخلق بعضهم خلفاً عن بعض، فلا ينبغي فوجاً منهم من جنسٍ إلا أقام فوجاً منهم من ذلك الجنس . فأهل الغفلة إذا اقترضوا خلفاً عنهم قوم ، وأهل الوصلة إذا درجوا خلف عنهم قوم ، ولا ينبغي للعبد أن يسمو طرف^(١) تأميله إلى محل الآ كابر فإن ذلك المقام مشغول بأهله ، فإلم تنته نوبة أولئك لا تنتهى النوبة إلى هؤلاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وزادكم في الخلق بسطة ﴾

كما زاد قوماً على من تقدمهم في بسطة الخلق زاد قوماً على من تقدمهم في بسطة الخلق ، وكما أوقع التفاوت بين شخص وشخص فيما يعود إلى المباني أوقع التباين بين قوم وقوم فيما يرجع إلى المعاني .

قوله جل ذكره : ﴿ فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ﴾

النعماء عام ، والآلاء خاص ، فلك تتضمن ترويح الظواهر ، وهذه تتضمن التلويح في السرائر ، تلك بالترويح بوجود المبار ، وهذه بالتلويح بشهود الأسرار .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا أجبنا لنعبد الله وحده ونذكر

ما كان يعبد آباؤنا فأنتنا بما تعبدنا

إن كُنت من الصادقين ﴾

طاحوا في أودية التفرقة فلم يجدوا قراراً في ساحات التوحيد ، فشق عليهم الإعراض عن الأغيار ، وفي معناه قال قائلهم :

أراك بقية من قوم موسى فهم لا يصبرون على طعام

ويقال شخص لا يخرج من غش التفرقة ، وشخص لا يجيد لحظة عن سنن التوحيد

[فهو لا يعبد إلا واحداً ، وكما لا يعبد إلا واحداً لا يشهد إلا واحداً ، قال قائلهم :

لا يهتدى قلبي إلى غيركم لأنه سدَّ عليه الطريق

قوله جل ذكره : ﴿ قال قد وقع عليكم من ربكم

(١) وردت (طرف) بالتعاقب وهي خطأ في النسخ .

رَجَسُ وَغَضَبُ أَتَجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ
مِمْتَسِكِيهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهَا
مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ
الْمُنْتَظِرِينَ ﴿١﴾

إذا أراد الله هوانَ عبدٍ طَرَحَهُ فِي مَنَازِلِ التَّفْرِقَةِ ؛ وَإِنَّ مِنْ عِلَامَاتِ غَضَبِهِ وَإِعْرَاضِهِ
رَدُّ الْعَبْدِ إِلَى شُهُودِ الْأَغْيَارِ ، وَتَفْرِيقَهُ إِلَيْهِ فِي بَحَارِ الظُّنُونِ ، إِذْ لَا تَحْصِيلَ لِلْأَغْيَارِ
فِي مَعْنَى الْإِثْبَاتِ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأُفْجِئْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا
دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا
مُؤْمِنِينَ ﴾

لأَرْتَبَهُ فَوْقَ رَتْبَةِ النَّبُوَّةِ ، وَلَا دَرَجَةَ أَعْلَى مِنْ دَرَجَةِ الرِّسَالَةِ .
وَأَخْبِر — سُبْحَانَهُ — أَنَّهُ نَجَّى هُودًا بِرَحْمَتِهِ ، وَكَذَلِكَ نَجَّى الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَتِهِ ،
لِيُعْلَمَ أَنَّ النِّجَاةَ لَا تَكُونُ بِاسْتِحْقَاقِ الْعَمَلِ ، وَإِنَّمَا تَكُونُ بِإِبْتِدَاءِ فَضْلِ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ ؛
فَمَا نَجَّى مَنْ نَجَا إِلَّا بِفَضْلِ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ
اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ
قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ
نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ
فِي أَرْضِ رَبِّكُمْ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ
فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴾

غَايِرُ الْحَقِّ — سُبْحَانَهُ — بَيْنَ الرُّسُلِ مِنْ حَيْثُ الشَّرَائِعُ ، وَجَمْعُ بَيْنِهِمْ فِي التَّوْحِيدِ ؛
فَالشَّرَائِعُ ^(١) [التي هي العبادات المختلفة ، وَلَكِنْ الْكُلُّ مَأْمُورُونَ بِالتَّوْحِيدِ عَلَى وَجْهِ وَاحِدٍ .

(١) كل هذه المساحة فيها بين القوسين موجودة في الهامش بخط دقيق جداً .

ثم أخبر عن إفضاء سنته تعالى بإرسال الرسل عليهم السلام ، وإمهال أممهم ريثما ينظرون في معجزات الرسل .

ثم أخبر عما درجوا عليه في مقابلتهم الرسل بالكذب تسلياً للمصطفى صلى الله عليه وسلم وعلى آله — فيما كان يقاسى من بلاء قومه .

قوله جل ذكره : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال ييوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾

أزاح عنهم في بسط الدلالة ، ووسع عليهم حالتهم بتمكينهم من العطايا على ما دعت إليه حالتهم .. فلا الدليل تأملوه ، ولا السبيل لازمونه ، ولا النعمة عرفوا قدرها ، ولا المنّة قدّموا شكرها ، فصادفهم من البلاء ما أدرك أشكالم .

قوله جل ذكره : ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون ﴾ قال

الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون ﴾ فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ﴾ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ فتولّى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربّي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين ﴾

أجرى الله — سبحانه — سُنَّتَهُ ألا يخص بأفضاله ، وجبيل صنعه وإقباله — في الغالب من عباده — إلا مَنْ يَسْمُو إليه طَرَفَهُ بالإجلال ، وألاً يوضح له قَدَرَهُ بين الأضراب والأشكال ؛ فأنصار كلِّ نبي إنما هم ضعفاء وقته ، ويلاحظهم أهل الغفلة بعين الاختصار ، ولكن ليس الأمر كما تذهب إليه الأوهام ، ولا كما يعتقد فيهم الأنام ، بل الجواهر مستورة في معادتها ، وقيمة المحالِّ بساكنيتها ، قال قائلهم :

وما ضرَّ نصلَ السيفِ إخلاقُ غمده إذا كان عَضْباً حيث وجهته وترأ

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كم من أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره » (١)

قوله تعالى : « ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين » الحيلة تدعو إلى وفاق الهوى ؛ فتستقل النفس قولَ الناصحين ، فيخرجون عليهم وكأن الناصحين هم العائبون ، قال قائلهم :

وكم سَقَتْ في آثاركم من نصيحةٍ وقد يستفيد البغضة المنتصح

قوله جل ذكره : ﴿ ولو طأ إذ قال لقومه أتأتون الفاحشةَ

ما سبقكم بها من أحدٍ من العالمين *
 إنكم لتأتون الرجال شهوةً من
 دون النساء بل أنتم قومٌ مُسرِفون *
 وما كان جواب قوميه إلا أن قالوا
 أخرجوه من قريبتكم إنهم أناسٌ
 يتطهرون * فأنجيناه وأهله إلا امرأته
 كانت من الغابرين * وأمطرنا عليهم
 مطراً فانظر كيف كان عاقبةُ
 المجرمين ﴾

(١) في رواية الترمذی (كم من أشعث أغبر ذي طمرین لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء ابن مالك) . الجامع الصغير ص ٢٢٧

أبالح الحق — سبحانه — في الشرع ما أراح به العذر ، فمن تخطَّ هذا الأمر وجرى على مقتضى الهوى استقبل هوانه ، واستوجب إذلاله ، واستجلب — باختياره — صفه .

قوله جل ذكره : ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءكم بينة من ربكم فآؤفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ﴾

خست هم قوم شعيب فقتلوا بالتطيف في المكيال والميزان عند معاملاتهم ، ثم إن الحق — سبحانه — لم يسألهم في ذلك ليُعلم أن الأقدار ليست من حيث الأخطار .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تقعدوا بكلِّ صراطٍ توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها هوجاء ﴾

من المعاصي ما لا يكون لازماً لصاحبه وحده بل يكون متعدياً عنه إلى غيره . ثم يقدِّر الأثر في التعدى يحصل الضرر المبتدىء^(١)

قوله جل ذكره : ﴿ واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين * وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا ﴾

(١) مثلاً يحدث في حالة البدعة ، فصاحب البدعة يحمل وزر ابتداعه ووزر من اقتدى به (انظر رأى المشيرى في كتاب التعبير تحت « البديع ») وهنا قد تكون (المبتدى) أى البادى بالابتداع وقد تكون (المقتدى) ويقصد بها من اقتدى به ، فكلاماً يتاله الضر هذا جزء اتساعه وذاك لا ابتداعه .

فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو
خير الحاكمين ﴿١﴾

مَنْ عَلَيْهِمْ بِنَكْثِ الْعَدَدِ لَأَنِّ بِالْتَّمَصِرِ وَالتَّعَاوُنِ تَمْشَى الْأُمُورُ وَيَحْصُلُ لِلرَّادِ .
ويقال كما أن كل أمرٍ بالأعوان والأنصار (خيراً أو شراً ، فلا نعمة فوق اتفاق الأنصار
في الخير ، ولا محنة فوق اتفاق الأعوان)^(١) في الشر .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ لِلْمَلَأِ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ
لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا
مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا
قَالَ أَوْ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾

كما أن (أهل)^(٢) الخير لا يميلون إلا إلى أشكالم فأهل الشر لا ينصرون إلا من رأوا
بأنه يساعدهم على ما هم عليه من أحوالهم ، والأوحد في بابه مَنْ بَايَنَ نَهْجَ أَضْرَابِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُوذَ فِيهَا إِلَّا أَنْ
يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ
عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ، رَبُّنَا افْتَحْ
بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ
الْفَاتِحِينَ ﴾

نطقوا عن صحة عزائمهم حيث قالوا : « قد افترينا على الله كذباً إن عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ » ،
ثم أقرروا بالشكر حيث قالوا : « بعد إذ نَجَّيْنَاكَ اللَّهُ مِنْهَا » ، ثم تبرأوا عن حولهم وقوتهم حيث
قالوا : « وما يكون لنا أن نعوذَ فيها إلا أن يشاء الله ربُّنا » . يعني إنْ يُلبِسْنَا لِبَاسَ الْفُلَانِ
نُرَدُّ إِلَى الصَّغْرِ وَالْهَوَانِ .

ثم اشتاقوا إلى جميل التوكل فقالوا : « على الله توكلنا » أي به وثقنا ، ومنه الخير أمَلْنَا .

(١) ما بين القوسين موجود في الهامش أثبتناه في موضعه من المتن .

(٢) وضعنا (أهل) ليتضح المعنى وهي غير موجودة في المتن .

ثم فوضوا أمورهم إلى الله فقالوا : « ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق » فتداركهم الحق
— سبحانه — عند ذلك بجميل العصمة وحسن الكفاية (١)

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ
لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا
لَخَاسِرُونَ ﴾ فَأَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ
فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِعِينَ ﴿

تواصوا فيما بينهم بتكذيب نبيهم ، وأشار بعضهم باستشعار وقوع الفتنة بمتابعته ، وكانوا
مخطئين في حكمهم ، مبطلين في ظنهم ، فعلم أن كل نصيحة لا يجب قبولها ، وكل إشارة (٢)
لا يحسن اتباعها .

قوله تعالى : « الذين كذبوا شعيباً كأن لم يفنوا فيها » كانت لهم غلبتهم في وقتهم ،
ولكن لما اندرست أيامهم سقط صيبتهم ، و (خد) (٣) ذكرهم ، وانتشع سحب من توهم أن
منهم شيئاً .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا مِنْ
الْخَاسِرِينَ ﴾

الحق غالب في كل أمر ، والباطل زاهق بكل وصف ، وإذا كانت العزة نعت من
هو أزل الوجود ، وكان الجلال حق من هو للملك قاي أثر للكثرة مع القدرة ؟ وأي خطر
للعامل مع الأزل ؟ ولقد ألدوا في قريب من هذا :

استقبلني وسيفه مسلول وقال لي واحدا معذول

قوله جل ذكره : ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ

(١) لاحظ من هذه الفترة ترتيب السلوك : محبة العزم ثم الشكر ثم التبري عن الحول والقوة
ثم التوكل ثم التفويض .

(٢) إشارة هنا معناها مشورة أي نصيحة .

(٣) وردت (خر) بالراء ، وقد هوئناها (خد) ذكرهم وليس بمستبعد أن تكون (خل)
ذكرهم لعمود الذكر وخوله بمعنى متقارب .

رسالاتِ ربِّي ونصحتُ لكم فكيف
آسى^(١) على قومٍ كافرين *

يَبَيِّنُ أَنَّهُ رَاعَى حَدَّ الْأَمْرِ ؛ فَإِذَا خَرَجَ عَنْ عَهْدَةِ التَّكْلِيفِ فِي التَّبْلِيغِ فَمَا عَلَيْهِ مِنْ إِقْرَارِهِمْ
أَوْ إِنْكَارِهِمْ ، مِنْ تَوْحِيدِهِمْ أَوْ جُحُودِهِمْ ؛ إِنَّ أَحْسَنُوا فَالْمِيرَاثُ الْجَمِيلُ لَهُمْ ، وَإِنْ أَسَاءُوا
فَالضَّرَرُ بِالتَّأَلُّمِ عَائِدٌ عَلَيْهِمْ ، وَمَالِكُ الْأَعْيَانِ أَوْلَى بِهَا مِنَ الْأَغْيَارِ ، فَالْخَلْقُ خَلْقُهُ وَالْمَلِكُ
مُلْكُهُ ؛ إِنْ شَاءَ هَدَاهُمْ ، وَإِنْ شَاءَ أَغْوَاهُمْ . فَلَا تَأْسَفْ عَلَى نَفْسٍ وَفَقْدٍ ، وَلَا أَثَرٍ مِنْ
كَوْنٍ وَوُجُودٍ^(٢)

قوله جل ذكره : * وما أرسلنا في قريةٍ مِنْ نبيٍّ
إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ
لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ * ثُمَّ بَدَّلْنَا
مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا
وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءُنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ
فَأَخَذْنَاهُمْ بِقَتَّةٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ *

حَرَّكَهُم بِالْبَلَاءِ الْأَهْوَنِ تَحْذِيرًا مِنَ الْبَلَاءِ الْأَصْعَبِ ، فَإِذَا تَمَادَوْا فِي غِيهِمْ ،
وَلَمْ يَنْتَبِهُوا مِنْ غَفْلَتِهِمْ مَدَّ عَلَيْهِمْ ظِلَالَ الْاسْتِدْرَاجِ ، وَوَسَّعَ عَلَيْهِمْ أَسْبَابَ التَّفَرُّقَةِ مَكْرًا
بِهِمْ فِي الْحَالِ ، فَإِذَا وَطَّنُوا — عَلَى مَسَاعِدَةِ الدُّنْيَا — قُلُوبَهُمْ ، وَرَكَنُوا إِلَى مَا سَوَّلَتْ
لَهُمْ مِنْ امْتِنَادِهَا ، أَبْرَزَ لَهُمْ مِنْ مَكَامِنِ التَّقْدِيرِ مَا تَقْصُّ عَلَيْهِمْ طَيْبَ الْحَيَاةِ ، وَانْدَقَ بِقَتَّةٍ
عُنُقُ السَّرُورِ ، وَشَرَّفُوا بِمَا كَانُوا يَنْهَلُونَ مِنْ كَلَسَاتِ الْمُنَى ، فَتَبَدَّلَ ضِيَاءُ نَهَارِهِمْ بِسُدُفَةِ
الْوَحْشَةِ ، وَتَكَدَّرَ صَاقِي مَشْرِيبِهِمْ بِيَدِ النُّوَابِ ، كَمَا سَبَقَتْ بِهِ الْقِسْمَةُ .

قوله جل ذكره : * ولو أنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا

(١) اخْطَأَ النَّاسِخُ إِذْ كَتَبَهَا (عسى) بِالْعَيْنِ .

(٢) رُبَّمَا كَانَ (وَوَجَدَ) فَالْوُجْدُ يُقَابِلُ الْفَقْدَ ، وَلَكِنْ حَيْثُ هُوَ هُنَا لَا يَتَحَدَّثُ عَنْ طَائِفَةِ الصُّوفِيَّةِ ،
وَلَكِنْ يَتَحَدَّثُ عَمُومًا ، فَالْوُجُودُ مُرَادِفٌ لِلْكَوْنِ .

لفتحنا عليهم بركاتٍ من السماء
والأرض، ولكن كذبوا فأخذناهم
عما كانوا يكسبون * أَفَأَمِنْ أَهْلُ
الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا
وهم نائمون *

لو آمنوا بالله، واتَّقُوا الشِّرْكَ لفتحنا عليهم بركاتٍ من السماء والأرض بأسباب العطاء
— ولكن^(١) مَسْبُوقٌ بِخلافه القضاء — وأبواب الرضاء، والرضاء أتمُّ من العطاء .
ويقال ليست العبرة بالنعمة إنما العبرة بالبركة في النعمة ، ولذا لم يَقُلْ أضعفنا لهم النعمة
ولكنه قال : باركنا لهم فيها خوفاً .

قوله جل ذكره : ﴿أَوْ أَمِنْ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ
بَأْسُنَا نُفْخِي وَهم يلعبون ﴾

أكثر ما ينزل البلاء ينزل فجأةً على غفلةٍ من أهله ، ويقال مَنْ حَذَرَ الْبَيَاتِ لم يجد
رُوحَ الرُّقَادِ .

ويقال رَبُّ لَيْلَةٍ مُفْتَتِحَةٍ بِالْفَرَحِ مَخْتَمَةٌ (بالترح)^(٢) . ويقال رَبُّ يَوْمٍ تَطْلُعُ شَمْسُهُ
من أوج السعادة قامت ظهورته على قيام الفتنة .

قوله جل ذكره : ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ
مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

يقال مَنْ عَرَفَ عُلُوَّ قَدْرِهِ — سبحانه — خَشِيَ خَفِيَ مَكْرَهُ ، وَمَنْ أَمِنَ خَفِيَ مَكْرَهُ
نَسِيَ عَظِيمَ قَدْرِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿أَوْ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ

(١) وردت (وإن سبق . . .) وعند ذلك يضطرب السياق فوجدنا أن الأوفق أن تكون
(ولكن سبق . . .) لأنهم في الآية كذبوا . . . ، ثم وضعنا الجملة المبدوءة بـ لكن بين علامتي جلة
اعتراضية ، فانتظم السياق ، ورجح أن ما صنعناه قريب من الأصل أو هو الأصل .
(٢) وردت (بالطرح) بالعطاء ، وهي خطأ من الناسخ فالترح ضد الفرح .

مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ
بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ
لَا يَسْمَعُونَ ﴿٥٥﴾

أَوْ لَا يَعْلَمُ الْغَفُورُونَ بِطُولِ سِتْرِنَا أَنْ لَوْ أَرَدْنَا لَعَجَلْنَا لَهُمُ الْإِنْتِقَامَ ، أَوْ بَلَّغْنَا فِيهِمُ
الْإِصْطِلَامَ ، ثُمَّ لَا يَنْفَعُهُمْ نَدَمٌ ، وَلَا يُشْكِي عَنْهُمْ أَلَمٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ
أَنْبِيَائِهَا وَتِلْكَ جِبَادُهُمْ رُسُلُهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا
بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ
اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴾

سلكوا طريقاً واحداً في التمرد ، واجتمعوا في خط واحد في الجحد والتبذير ؛
فلا للإيمان جَنَحُوا ، ولا عن العدوان رجعوا ، وكذلك صفة من سَبَقَتْ بِالشَّقَاءِ قِسْمَتُهُ ،
وحقت بالعذاب عليه كَلِمَتُهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ
وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾

نَجْمٌ فِي النَّدْرِ طَارِقُهُمْ ، وَأَفْلٌ مِنْ سَمَاءِ الْوَفَاءِ شَارِقُهُمْ ، فَعَدِمَ أَكْثَرُهُمْ رِعَايَةَ الْعَهْدِ ،
وحقت من الحق لهم قسمة الرد والصد .

ويقال : شَكَا مِنْ أَكْثَرِهِمْ إِلَى أَقْلِهِمْ ، فَالْأَكْثَرُونَ مَنْ رَدَّتْهُمْ الْقِسْمَةُ ، وَالْأَقْلَوْنَ
مَنْ قَبِلَتْهُمْ الْوَصْلَةُ .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِ مُوسَى نَارًا
إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾

لَمَّا انْقَضَتْ أَيَّامُهُمْ ، وَتَقَاصَّرَ عَنْ بَسَاطِ الْإِجَابَةِ إِقْدَامُهُمْ ^(١) بَعَثَ مُوسَى نَبِيَّهُ ، وَضَمَّ

(١) ويجوز أن تكون (أقدامهم) فالتشديد يستعمل وطء القدم لبساط كثيراً

إليه هارون صفيه ، فتوبلا بالكذيب والجهود ، فسلك بهم مسلك إخوانهم
في التعذيب والتبديد .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ
مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَىٰ أَلا
أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ
بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ
بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ إِن كُنتَ
جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ
مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

الرجوع إلى دعاء فرعون إلى الله بعد سماع كلام الله بلا واسطة صعب شديد ، ولكنه
لما ورد الأمر قابله بحسن القبول ، فلما ترك اختيار نفسه أيده الحق — سبحانه — بنور
التأييد حتى شاهد فرعون محوآ في التقدير فقال : « حَقِيقٌ عَلَىٰ أَلا أقول على الله إلا الحق »
فاذا لم يصح له أن يقول على الخلق ؛ فاخلق محوآ فيما هو الوجود الأزلي فأى سلطان لآثار
التفرقة في حقائق الجمع ؟

قوله : « قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » : من المعلوم
أن مجرد الدعوى لاحجة فيه ، ولكن إذا ظهر برهان لم يبق غير الاتقياد لها هو الحق ،
فمن استسلم (. . .)^(١) ، ومن جحد الحقائق بعد لوح البيان سقط سقوطا لا ينتعش .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَلْقِ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾
إنما أظهر له المعجزة من عصاه لطول (مقارنته)^(٢) إياها ، فالإسنان إلى ما ألفه أسكن
بقلبه . فلما رأى ما ظهر في العصا من الانقلاب أخذ موسى عليه السلام في الفرار لتحقيقه
بأن ذلك من قهر الحقائق ، وفي هذا إشارة إلى أن السكون إلى شيء غرة وغفلة (إيش)^(٣)

(١) لا بد أن كلمة هنا سقطت من النسخ مثل (سلم) أو (نجا) أو نحوها .

(٢) (مقارنته) هنا معناها مصاحبة لها بدليل قوله فيما بعد (إلى ما ألفه) .

(٣) (إيش) هذه كلمة دارجة استعمالها القشيري كثيراً في رسالته ومعناها (أى شيء) .

ما كان ، فإنَّ قلب العبد في قبضِ القدرة ، وهو في أمر التقلب ، وليس للطمع في الكون مساغٌ بحال .

قوله جل ذكره : ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضاءَ لِلنَّاطِرِينَ ﴾

العصا — وإن كانت معه من زمن — فيدُّه أخص به لأنها عضو له ، فكاشفَةٌ أولاً^(١) برسمهم من رُسمه ثم أشهده من ذاته في ذاته ما عرَّفَ أنه أولى به منه ، فلما رأى انقلابَ وصفٍ في يده علمَ أنه ليس بشيء من أمره بيده .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ الْمَلَأْتُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَأَإِذَا تَمُرُون ﴾

إذا أراد الله هوان عبده لا يزيد الحق حجةً إلا ويزيد لذلك البطل فيه شبهةً ، فكلما زاد موسى — عليه السلام — في إظهار للمعجزات ازدادوا حيرةً في التأويلات .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَا تُوكُ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾

توهم الناس أنهم بالتأخير ، وتقديم التدبير ، وبذل الجهد والتشهير يُغيِّرون شيئاً من التقدير بالتقديم أو بالتأخير ، ولم يعلموا أن القضاء غالبٌ ، وأن الحكم سابقٌ ، وعند حلول الحكم فلا سلطانَ للعلم والفهم ، والتسرع^(٢) والحلم . كلا ، بل هو الله الواحد القهار العلام .

(١) في هذه الإشارة نلاحظ تأثير التشيرى بالكاشفة ، فالحق سبحانه يتجلى لعبده أولاً بنعت من نعوت صفاته ثم يتجلى له بنعت من نعوت ذاته .

(٢) وردت (التسرع) حيث التبتت علامة التضعيف التي على السين على الناسخ ، والتسرع مقبول في السياق لأنه يقابل الحلم .

قوله جل ذكره : ﴿ وجاء السحرة فرعوناً قالوا إن

لنا لأجرٌ إن كنّا نحن الغالبين *

قال نعم وإنكم لمن المقربين *

قالوا يا موسى إما أن تُلقى وإما أن

نكون نحن الملقين * قال ألقوا

فلما ألقوا سحروا أعين الناس

واسترهبوهم وجاءوا بسحرٍ عظيم *

ظنوا أنهم يغلبون بما يسحرون ، ولم يعلموا أن تأثير القدرة فيهم أغلب من تأثير سحرم ،

وأنه لا يرد عنهم ما زوروه في أنفسهم من فنون مكرم فكادوا وكيد لهم ، فهو كما قيل :

ورماني بأسهم صائبات ، وتممته بهم فطاشا

فبيناهم في توهم أن الغلبة لهم ففتح عليهم — من مكان القدرة — جيش ، فوجدوا

أنفسهم — في فتح القدرة — مقهورين بسيف المشيئة .

قوله جل ذكره : ﴿ وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك

فإذا هي تلقف ما يأفكون *

فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون *

فغلبوا هنالك واتقلبوا صاغرين *

وَأَلْقَى السحرة ساجدين * قالوا

آمنّا برب العالمين * رب موسى

وهارون *

مَوْهُوا بسحرم أنهم غلبوا ، فَأَدْخَلَ اللهُ — سبحانه — على تمويهاهم قهراً الحق

وطاشت تلك الحيل ، وخاب منهم الأمل ، وجذب الحق — سبحانه — أسرارهم على الوهلة

فأصبحوا في صدر العداوة ، وكانوا — في التحقيق — من أهل الود . فسبحان مَنْ يُبْرِزُ

العدو في نعت الولي ؛ ثم يقلب الكتاب ويظهر الولي في نعت العدو ، ثم يأتي الحال
إلا حصول المَقْضَى .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا مَسَّمُ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ
لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرُمُوهُ
فِي الْمَدِينَةِ لَتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا
فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * لَا أَقْطَعُ أَيْدِيَكُمْ
وَأَرْجُلَكُمْ ^(١) مِمَّنْ خِلَافٍ ثُمَّ
لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمِينَ ﴾

خاطبهم معتقداً أنهم هم الذين كانوا ^(٢) ، وهم يعلمون أن تلك الأسرار قد خرجت عن رِقِّ
الأشكال ، وأن قلوبهم ظهرت عن تو التفرة ، وأن شمس العرفان طلعت في سماء أسرارهم ،
فأشهدوا الحق بنظر صحيح ، ولم يبق لتخويفات النفس فيهم سلطان ، ولا شيء من العلل
يفهم مساع .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾
لَمَّا كَانَ مَصِيرُهُمْ إِلَى اللَّهِ سَهْلَ عَلَيْهِمْ مَا لَقُوا فِي مَسِيرِهِمْ إِلَى اللَّهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا
لَمَّا جَاءَنَا ، رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا
وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾

لَمَّا عَمِلُوا اللَّهَ ، وَأَوْذُوا فِي اللَّهِ ، صدقوا القصد إلى الله ، وطلبوا المعونة من قبل الله ،
كذا سئله من كان لله أن يكون كله على الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ
مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ
وَيَذَرُكَ وَأَهْلَكَ ، قَالَ سَنُقَتِّلُ

(١) اخطأ الناسخ إذ كتبهما (أيديهم وأرجلهم) .
(٢) نعرف من عبارات القشيري : « كانوا لسكنهم بانوا » و « العارف كائن بان » .

أبناءهم وَنَسْتَحْيِي نساءهم وَإنا فوقهم
قاهرون ﴿١٠﴾

لما استزادوا من فرعون في التمكين من موسى وقومه استنكف أن يقر بمعجزه ،
ويعترف بقصور قدرته ، فتوعد موسى وقومه بما عكس الله عليه تدبيره ، وغلب عليه تقديره .
قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ
وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ
يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

أحلم على الله فإن رجوعه إليه ، فقال لهم : إن رجوعي — عند تحيري في أموري —
إلى ربي ، فليكن رجوعكم إليه ، وتوكلكم عليه ، وتعرضوا لنفحات يسره ، فإنه حكم
لأهل الصبر بجميل العقبى .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا أَوْذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِنَا وَمِنْ
بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ
يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ
فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

خفي عليهم شهود الحقيقة ، وغشى على أبصارهم حتى قالوا توات علينا البلايا ، ففي حالك
بلاء ، وقبلك شقاء .. فما الفضل ؟ فأجابهم موسى — عليه السلام — بما علق رجاءهم بكشف
البلاء فقال : « عسى ربكم أن يهلك عدوكم » فوقفهم على الانتظار . ومن شهد ببصر الأسرار
شهد تصاريफ الأقدار .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسُّنَنِ
وَنَقَصِي مِنَ الثَّرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴾

شد عليهم وطأة القدرة بعدما ضاعف لديهم أسباب النعمة ، فلا الوطأة أصلحتهم شدتها
ولا النعمة نبهتهم كثرتها ، لا بل إن مسهم يسر لاحتواه بعين الاستحقاق ، وإن مسهم عسر
حملوه على التطير بموسى — عليه السلام — بمقتضى الاغترار .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ
وَأِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى
وَمَنْ مَعَهُ ﴾

الكفور لا يرى فضل المنم ؛ فيلاحظ الإحسان بعين الاستحقاق ، ثم إذا اتصل به شيء
مما يكرهه تنجى وحمل الأمر على ما يتمنى :

وكذا للكلول إذا أراد قطعة ملّ الوصال وقال كان وكانا
إن الكريم إذا حبّاك بوذّه ستر التبيح وأظهر الإحسانا

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَا إِنَّمَا طَأْسُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ
أَكْثَرُكُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

المتفرد بالإيجاد هو الواحد ولكن بصائرهم مسدودة ، وعقولهم عن شهود الحقيقة
مصدودة ، وأفهامهم عن إدراك المعاني مردودة

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ^(١) آيَةٍ
لَتَسْحَرْنَا بِهَا فَمَنْ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾
جعلوا الإصرار على الاستكبار شعارهم ، وهتكوا بألسنتهم — في العتو —
أستارهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجُرَادَ
وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ
مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا
قَوْمًا مجرمين ﴾

جئس عليهم العقوبات لما نوءوا وجئسوا فنون المخالفات ، فلا إلى التكفير
عادوا ، ولا إلى التطهير تصدوا ، وعوقبوا بصرف قلوبهم عن شهود الحقائق

(١) سقطت (من) في النسخ فأنبتناها .

وذلك أبلغ مما اتصل بظواهرهم من فتون البلايا ونعوذ بالله من السقوط عن عين الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ بِكَ وَلَنُرْسِلَنَّ بِكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾
لم يقولوا ادع لنا ربنا ، بل قالوا يا موسى ادع لنا ربك ، فهم ما ازدادوا بزيادة تلك المحن إلا بعداً وأجنية..

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هَمَّ بِالْعَنَاءِ إِذَا هُمْ يَنْكُشُونَ ﴾
فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴿

أبرموا العهد ثم تقضوه ، وقدموا العهد ثم رفضوه ، وكما قيل :
إذا ارعوى عاد إلى جهله كذى الضنى عاد إلى نكسه
والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يوارى في ثرى رمسه

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مِثْرًا الْأَرْضِ وَمَنَازِلَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْخَسَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ مَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾

من صبر على مقاساة الذل في الله وضع الله على رأسه قلنسوة العرفان ، فهو العزيز سبحانه ، لا يُشْمِتُ بأوليائه أعداءهم ، ولا يضيع من جميل عهده جزاءهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ﴾

فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى
أَصْنَامِهِمْ ، قَالُوا : يَا مُوسَى اجْعَلْ
لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ، قَالَ إِنَّكُمْ
قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ
مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *

لم تَخْلُصْ فِي قُلُوبِهِمْ حَقَائِقُ التَّوْحِيدِ فتأقت نفوسهم إلى عبادة غير الله ، حتى قالوا لنبيهم
موسى — عليه السلام — : اجعل لنا إلها كما لهم آلهة . وكذا صفة من لم يتحرر قلبه من
إثبات الأشغال والأعلال ، ومن للساكنة إلى الأشكال والأمثال .

ويقال مَنْ ابْتَنَى بِالصَّنَمِ أَنْ يَكُونَ مَعْبُودَهُ مَنِ يُتَوَكَّمُ فِي وَصْفِهِ أَنْ يُخْلَصَ إِلَى
اللَّهِ قَصُودَهُ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ
فَضْلُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾

ذَكَرْهُمْ انْفِرَادَهُ — سُبْحَانَهُ — بِإِنشَائِهِمْ وَإِبْدَاعِهِمْ ، وَأَنَّهُ هُوَ الْإِلَٰهَ الْمُتَفَرِّدُ بِالْإِبْدَادِ ،
وَنَبِّهِمْ أَيْضًا عَلَى عَظِيمِ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِمْ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ حَقُّ إِعْطَائِهَا عَلَيْهِمْ مُقَابَلَتَهُمْ بِإِيَّاهَا
بِالتَّوَكُّلِ لغيره والعبادة لِمَنْ سِوَاهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ أَتَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ
يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ
أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي
ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾

ما ازداد موسى — عليه السلام — في تمديد إنعام الله عليهم ، وتنبههم على عظيم
آلائه إلا ازدادوا جحداً على جحد ، وبُعداً بالقلوب — عن محل العرفان — على بُعد ، وهذه
أَمَارَةٌ مِنْ بَلَاءٍ — سُبْحَانَهُ — فِي السَّابِقِ بِالْقَطْعِ وَالرَّدِّ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً

وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ قَرْنٍ مِيقَاتُ رَبِّهِ
أَرْبَعِينَ لَيْلَةً *

عِدَّةُ الْأَحْبَابِ عَزِيزَةٌ ، فَإِذَا حَصَلَتِ الْمَوَاعِدَةُ بَيْنَ الْأَحْبَابِ ، فَهِيَ عَذْبَةٌ حُلْوَةٌ كَيْفَمَا
كَانَتْ ، وَفِي هَذَا الْمَعْنَى أَنْشَدُوا :

أَمْطَلِينَا وَسَوِّفِي وَعِدِينَا وَلَا تَنِي

وَيَقَالُ عَالِلُ الْحَقِّ — سُبْحَانَهُ — مُوسَى بِالْوَعْدِ الَّذِي وَعَدَهُ بِأَنْ يُسَبِّحَهُ مَرَّةً أُخْرَى
كَلَامَهُ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى ابْتَلَاهُ بِالِإِسْمَاعِ مِنْ غَيْرِ وَعْدٍ ، فَلَا أَنْتَظَارَ وَلَا تَوْقِعَ
وَلَا أَمَلَ ، فَأَخَذَ سَمَاعُ الْخُطَابِ بِمَجَامِعِ قَلْبِ مُوسَى — عَلَيْهِ السَّلَامُ — فَعَلَّقَ قَلْبَهُ بِالْمِيقَاتِ
الْمَعْلُومِ لِيَكُونَ تَأْمِيلُهُ تَعْلِيلًا لَهُ ، ثُمَّ إِنْ وَعَدَ الْحَقُّ لَا يَكُونُ إِلَّا صَدَقًا ، فَاطْمَأَنَّ قَلْبُ
مُوسَى — عَلَيْهِ السَّلَامُ — لِلْمِيعَادِ ، ثُمَّ لَمَّا مَضَتْ ثَلَاثُونَ لَيْلَةً آتَى كَمَا سَلَفَ الْوَعْدُ فَزَادَ لَهُ
عَشْرًا فِي الْمَوْعِدِ . وَالْمَطْلُ فِي الْإِنْجَازِ غَيْرُ مُحِبُّوبٍ إِلَّا فِي سُنَّةِ الْأَحْبَابِ ، فَإِنْ الْمَطْلُ عِنْدَهُمْ
أَشْهَى مِنَ الْإِنْجَازِ ، وَفِي قَرِيبٍ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى أَنْشَدُوا :

أَقِيمِي لِعَمْرِكَ لَا تَهْجُرِينَا وَمَتْنِينَا الْمَنَى ، ثُمَّ امْطَلِينَا
عِدِينَا مَوْعِدًا مَا شِئْتِ إِنَّا نَحِبُّ وَإِنْ مَطَلْتَ تَوَاعِدِينَا
فَإِمَّا تَنْجِزِي وَعْدَكَ أَوْ فَإِنَا نَعِيشُ تَوَمَّلْ فَيْكَ حِينَا

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : * وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ
اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ
سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ *

كَانَ هَارُونَ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — حَمُولًا بِحَسَنِ الْخُلُقِ ؛ لَمَّا كَانَ الْمُرُورُ إِلَى فِرْعَوْنَ
اسْتَصْحَبَ مُوسَى — عَلَيْهِ السَّلَامُ — هَارُونَ ، فَقَالَ اللَّهُ — سُبْحَانَهُ — : « أَشْرَكَ
فِي أَمْرِي » بَعْدَ مَا قَالَ : « أَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا » . وَلَمَّا كَانَ الْمُرُورُ إِلَى سَمَاعِ
الْخُطَابِ أَفْرَدَهُ عَنْ نَفْسِهِ ، فَقَالَ : « اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي » وَهَذَا غَايَةُ كَحْمَلٍ مِنْ هَارُونَ وَنَهَايَةُ
التَّصَبُّرِ وَالرِّضَاءِ ، فَلَمْ يَقُلْ : لَا أَقِيمُ فِي قَوْمِكَ . وَلَمْ يَقُلْ : هَلَّا نَحْمِلُنِي مَعَ نَفْسِكَ كَمَا

استصحبتنى حال المرور إلى فرعون ؟ بل صبر ورضى بما لزم ، وهذه من شديديات بلاه
الأحباب ، وفى قريب منه أنشدوا :

قال لى من أحب والبين قد حلّ وفاقاً لفرقى وشهيق
ما ترى فى الطريق تصنع بعدى قلت : أبكى عليك طول الطريق

ثم إن موسى لما رجع من مسمع الخطاب ، فرأى من قومه ما رأى من عبادة العجل
أخذ برأس أخيه يجره إليه حتى استلطفه هارون — عليه السلام — فى الخطاب ، فقال :
« يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي » .

ويقال لو قال هارون — عليه السلام : إن لم تعوضنى عما فاني من الصحة فلا تعاتبني فيما
لم أذنب فيه بحال ذرة ولا حبة .. لكان موضع هذه القالة .

ويقال الذنب كان من بنى إسرائيل ، وبالعتاب جرى مع هارون ، وكذا الحديث
والقصة ، فما كل من عصى وجنى استوجب العتاب ، فالعتاب ممنوع عن الأجانب .

قوله جل ذكره : ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه
ربه قال رب أرني أنظر إليك ،
قال لن تراني ولكن انظر إلى
الجبل فإن استقر مكانه فسوف
نراي ، فلما تجلّى ربه للجبل جعله
دكاً وخر موسى صعيقاً ﴾

جاء موسى بمجيء المشتاقين بمجيء المهيمين ، جاء موسى بلا موسى ، جاء موسى
ولم يبق من موسى شيء لموسى . آلاف الرجال قطعوا مسافات طويلة فلم يذكروا أحداً ،
وهذا موسى خطا خطوات في القيامة يقرأ الصبيان : « ولما جاء موسى »

ويقال لما جاء موسى لميقات باسط الحق — سبحانه — سقط بسامع الخطاب ،
فلم يبالك حتى قال : « أرني أنظر إليك » ، فإن غلبت الوجد عليه استنطقه بطلب
كمال الوصلة من الشهود ، وكذا قالوا :

وأبرح ما يكونُ الشوقُ يوماً إذا دنتُ الخيامُ من الخيام

ويقال صار موسى — عليه السلام — عند سماع الخطاب بعين الشكر فنطق ما نطق ،
والسكران لا يؤخذ بقوله ، ألا ترى أنه ليس في نص الكتاب معه عتاب بحرف ؟
ويقال أخذته عِزَّةُ السَّامِعِ فخرج لسانه " عن طاعته جرياً على مقتضى ما صحبه من
الأَرْيَحِيَّةِ وبَسْطِ الوصلة .

ويقال جمع موسى — عليه السلام — كلماتٍ كثيرةً ينسكُم بها في تلك الحالة ؛ فإن
في القصص أنه كان يتحمل في أيام الوعد كلمات الحق ، ويقول لمعارفه : ألكم حاجة إلى الله ؟
ألكم كلام معه ؟ فإني أريد أن أمضي إلى مناجاته .

ثم إنه لما جاء وسمع الخطاب لم يذكر — مما دبره في نفسه ، وتحمله من قومه ، وجمعه
في قلبه — شيئاً ولا حرفاً ، بل نطق بما صار في الوقت غالباً على قلبه ، فقال : ربُّ :
أرني أنظر إليك ، وفي معناه أنشدوا :

فيا ليلَكم من حاجةٍ لي مهمة إذا جئتكم ليلي فلم أدرِ ماهياً

ويقال أشدُّ الخلقِ شوقاً إلى الحبيب أقربهم من الحبيب ؛ هذا موسى عليه السلام ، وكان
عريق الوصلة ، واقفاً في محل المناجاة ، محدقة به سجوف التولى ، غالبية عليه بوادهِ الوجود ،
ثم في عين ذلك كان يقول : « ربُّ أرني أنظر إليك » كأنه غائبٌ عن الحقيقة .
ولكن ما ازداد القومُ شرباً إلا ازدادوا عطشاً ، ولا ازدادوا تيمناً إلا ازدادوا شوقاً ، لأنه
لا سبيل إلى الوصلة إلا بالكمال ، والحقُّ — سبحانه — يصونُ أسرار أصفياه عن
مداخلة الملل (٢) .

ويقال نطق موسى عليه السلام بلسان الافتقار فقال : « ربُّ أرني أنظر إليك » ولا أقلُّ

(١) تحليل التشيرى لموقف الإفصاح الذي وقفه موسى بوضوح كيف يلتبس هذا الباحث مبرراً
لشطحات الصوفية — بطريق غير مباشر ، ويعزو ذلك تارة للسكر الروحي وتارة لوقوع العبد تحت تأثير
العزة الإلهية ، فيخرج اللسان عن طاعته .

(٢) وفي ذلك أنشدوا :

فا مل ساقينا وما مل شارب عفار لحاظ كانه يلب البيا

من نظرة — والعبد قتيل هذه القصة — فتوبل بالرد ، وقيل له : « لن تراني » وكذا قهر
الأحباب ولذا قال قائلهم :

جَوَزَ الهوى أحسن من عدله ويغله أعرف من بذله

ويقال لما صرَّح بسؤال الرؤية ، وجهر صريحاً رُدَّ صريحاً قبيح له : « لن تراني » ،
ولما قال نبينا — صلى الله عليه وسلم — بسيرة في هذا الباب ، وأشار إلى السماء منتظراً الرد
والجواب من حيث الرمز نزل قوله تعالى : « قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة
ترضاها »^(١) فردّه إلى شهود الجهات والأطلال إشارة إلى أنه أعزُّ من أن يطمح إلى شهوده
— اليوم — حُرِّفَ ، بل الألاحظ مصروفة موقوفة — اليوم — على الأغيار^(٢) .

ويقال لما تَمَّتْ همته إلى أسنى المطالب — وهي الرؤية — قوبل « بلن » ، ولما رجع إلى
الخلق وقال للخضر « هل أتبعك على أن تُعلِّمَنِي مما علمت رشداً » ، قال الخضر : « إنك لن
تستطيع معي صبراً »^(٣) فتقابل به بلن ، فصار الردُّ موقوفاً على موسى — عليه السلام من الحق
ومن الخلق ، ليكون موسى بلا موسى ، ويكون موسى صافياً عن كل نصيب لموسى من موسى ،
وفي قريب منه أشدوا :

(.....) « نحنُ أهلُ منازلٍ أبداً غرابُ البينِ فينا ينقُ

ويقال طلب موسى الرؤية وهو بوصف التفرقة فقال : « رب أرني أنظر إليك » فأجيب
بلن لأن عين الجمع أتم من عين الفرق . فزع موسى حتى خرَّ صمقاً ، والجبل صار دُكًّا .
ثم الروح بعد وقوع الصعقة على القالب مكاشفته بما هو حقائق الأحدية ، ويكون الحق — بعد
امنحاء معالم موسى — خيراً لموسى من بقاء موسى لموسى ، فعلى الحقيقة : شهود الحقائق بالحق
أتمُّ من بقاء الخلق بالخلق ، كذا قال قائلهم :

(١) آية ١٤٤ سورة البقرة .

(٢) من هذا — وبما أومئته في رسالته — نعرف أن التشبُّه لا يرى بجواز رؤيه الله بالبصر
في هذه الدنيا .

(٣) آية ٦٧ سورة الكهف

(٤) هنا لفظتان مطبوعتان ونعرف أنهما « أيُّنا ... » .

ولوجهها من وجهها قر ولعينها من عينها كل

ويقال البلاء الذى ورد على موسى بقوله : « فإن استقر مكانه فسوف ترانى » ولما تجل ربّه للجبل جعله دكاً « أتم وأعظم منه قوله : « لن ترانى » لأن ذلك صريح فى الرد ، وفى اليأس راحة . لكنه لما قال فسوف أطمعها فيما منعه قلباً اشتد موقفه جعل الجبل دكاً ، وكان قادراً على إمساك الجبل ، لكنه قهر الأجباب الذى به جرت سنتهم .

ويقال فى قوله : « أنظر إلى الجبل » بلاء شديد لموسى لأنه نفى عن رؤية مقصوده ومضى برؤية الجبل ، ولو أذن له أن يفيض جفنه فلا ينظر إلى شيء بعدما بقى عن مراده من رؤيته لكان الأمر أسهل عليه ، ولكنه قال له : « لن ترانى ولكن أنظر إلى الجبل » .

ثم أشد من ذلك أنه أعطى الجبل التجلى ، فالجبل رآه وموسى لم يره ، ثم أمر موسى بالنظر إلى الجبل الذى قدم عليه فى هذا السؤال ، وهذا — والله — لصعب شديد !! ولكن موسى لم ينازع ، ولم يقل أنا أريد النظر إليك فإذا لم أرك لا أنظر إلى غيرك بل قال : لا أرفع بصرى عما أمرتنى بأن أنظر إليه ، وفى معناه أنشدوا :

أريدُ وصاله ويريد هجرى فارك ما أريد لما يريد

ويقال بل الحق سبحانه أراد بقوله : « ولكن انظر إلى الجبل » تداركه قلب موسى — عليه السلام — حيث لم يترك على صريح الرد بل علله برفق كما قيل :

فدرينى أفنى قليلاً قليلاً

ويقال لما رد موسى إلى حال الصحو وأفاق رجع إلى رأس الأمر فقال : « تبتُ إليك » يعنى إن لم تكن الرؤية هى غاية للرتبة فلا أقل من التوبة ، فقبيله — تعالى — لسوهمته إلى الرتبة العلية .

قوله جل ذكره : ﴿ تَبْتُ إِلَيْكَ ﴾

هذه إناخة بمقوة العبودية ، وشرط الإنصاف ألا تهرح محل الخدمة وإن حيل بينك وبين وجود القرية ؛ لأن القرية حظ نفسك ، والخدمة حق ربك ، وهى تم بالآ تكون بحظ نفسك .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ
بِرِسَالَتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ
وَكَُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾

هذا الخطاب لِتَدَارُكِ قَلْبِ مُوسَى — عليه السلام — بكل هذا الرُّفْقِ ، كأنه قال :
يا موسى ، إِنِّي مَنَعْتُكَ عَنْ شَيْءٍ وَاحِدٍ وَهُوَ الرُّؤْيَا ، وَلَكِنِّي خَصَصْتُكَ بِكَثِيرٍ مِنَ الْفَضَائِلِ ؛
اصْطَفَيْتُكَ بِالرِّسَالَةِ ، وَأَكْرَمْتُكَ بِشَرَفِ الْحَالَةِ ، فَاشْكُرْ هَذِهِ الْجَمْلَةَ ، وَاعْرِفْ هَذِهِ النِّعْمَةَ ،
وَكَُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ، وَلَا تَتَعَرَّضْ لِمَقَامِ الشُّكْوَى ، وَفِي مَعْنَاهُ أُنْشِدُوا :

إِنْ أَعْرَضُوا فَهُمْ الَّذِينَ تَعَطَّفُوا وَإِنْ جَنَوْا فَاصْبِرْ لَمْ يَنْ أَخْلَفُوا

وَفِي قَوْلِهِ سَبِّحَانَهُ : « وَكَنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ » إِشَارَةٌ لَطِيفَةٌ كَأَنَّهُ قَالَ : لَا تَكُنْ مِنَ
الشَّاكِرِينَ ، أَيْ إِنْ مَنَعْتُكَ عَنْ سُؤْلِكَ ، وَلَمْ أُعْطِكَ مَطْلُوبَكَ فَلَا تَشْكُنِي إِذَا انْصَرَفْتَ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ
مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾

وَفِي الْأَثَرِ : أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَسْمَعُ صَرِيرَ الْقَلَمِ ، وَفِي هَذَا نَوْعٍ لَطْفٍ لِأَنَّهُ إِنْ
مَنَعَ مِنْهُ النَّظَرَ أَوْ مَنَعَهُ مِنَ النَّظَرِ فَقَدْ عَلَّمَهُ بِالْأَثَرِ (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾

فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْأَخْذَ يُشِيرُ إِلَى غَايَةِ الْقُرْبِ ، وَالْمُرَادُ هَاهُنَا صَفَاءُ الْحَالِ ، لِأَنَّ قُرْبَ
الْمَسَاكِينِ لَا يَصِحُّ عَلَى اللَّهِ سَبِّحَانَهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾

فَرَّقَ بَيْنَ مَا أَمَرَ بِهِ مُوسَى مِنَ الْأَخْذِ وَبَيْنَ مَا أَمَرَهُ أَنْ يَأْمُرَ بِهِ قَوْمَهُ مِنَ الْأَخْذِ ، أَخْذُ
مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْحَقِّ عَلَى وَجْهِهِ مِنْ تَحْقِيقِ الزَّلْفَةِ وَتَأْكِيدِ الْوَصْلَةِ ، وَأَخْذُهُمْ أَخْذُ قَبُولٍ
مِنْ حَيْثُ التَّزَامُ الطَّاعَةِ ، وَشَتَانِ مَا هُمَا .

(١) نلاحظ أن القشيري كان ممتعاً أشد ما يكون الإمتاع حين استقل موقف شهود موسى استغلالاً
جيلاً أو شك أن يحيط بكل جوانب هذه اللحظات الحاسمة في الحياة الروحية ، فاجتمعت إشاراتُه لتكون
درساً في غاية الدقة والإفادة .

قوله : « بأحسنها » بمعنى بحسنها ، ويحتمل أن تكون الهمزة للبالغة يعنى : بأحسنها
ألا ترجع على تأويل وارجع إلى الأولى (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾
يعنى عليها غبرة العقوبة ، خاوية على عروشها ، ساقطة على سقوفها ، منهدة بنيانها ،
عليها قتررة العقاب .

والإشارة من دار الفاسقين إلى النفوس المتابعة للشهوات ، والقلوب التى هى معادن للفنى
وطاسد الخطرات ، فإنَّ الفسقَ يوجب خرابَ المحل الذى يجرى فيه ، فمن جرى على نفسه
فسقٌ خربت نفسه . وآية خراب النفوس انتفاء ما كان عليها وفيها من سكان الطاعات ،
فكما تتمطل للنازل عن قطائرها إذا نداعت للخراب فكذلك إذا خربت النفوس بعمل المعاصي
فتنتفى عنها لوازم الطاعات ومعتادها ، فبعد ما كان العبد يتيسر عليه فعل الطاعات لو ارتكب
شيئاً من المحظورات يشق عليه فعل العبادة ، حتى لو خيَّر بين ركعتي صلاة وبين مقاساة كثيرٍ
من المشاق آثر تحمل المشاق على الطاعة . . وعلى هذا النحو ظلم القلوب وفسادها فى إيجاب
خراب محالها .

قوله جل ذكره : ﴿ سَأُصْرَفُ عَنْ آيَاتِ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ
فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا
كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾

سأحرِّم المتكبرين بركات الاتباع حتى لا يقابلوا الآيات التى يُكاشفون بها بالقبول ،
ولا يسمعون ما يُخاطَبون به بسمع الإيمان .
والتكبر جحد الحق — على لسان العلم ، فمن جحد حقائق الحق فجحدته تكبره
واعتراضه على التقدير مما يتحقق جحدته فى القلب .

(١) بوجه القسرى هذه الإشارة نحو موضوع الرخص ، فمن المعلوم أنه يرى أن من الأفضل ألا يلجأ
للمريد للرخصة ، وفعل الأولى عنده هو ترك الرخصة لأنها للمستضعفين وأرباب الحوائج والأشغال من
الكافة ، والمريد لا حاجة له ولا شغل إلا لربه وربه .

ويقال التكبر توم استحقاق الحق لك .

ويقال من رأى لنفسه قيسة في الدنيا والآخرة فهو متكبر .

ويقال مَنْ غلَّنْ أَنْ شَيْئًا مِنْهُ أَوْ لَهُ أَوْ إِلَيْهِ — من النفي والإثبات — إِلَّا عَلَى وَجْهِ
الْاِكتِسَابِ فَهُوَ مُتَكَبِّرٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ

سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ

سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا

وكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ » والذين كذبوا

بآياتنا ولقاء الآخرة حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ .

هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »

تبين بهذا أنه لا يكفي شهود الحق حقاً وشهود الباطل باطلاً بل لا بد من شهود الحق
من وجود التوفيق للحق ، ومنع شهود الباطل من وجود المعصية من اتباع الباطل .

ويقال إِنَّ الْجَاهِدَ لِلْحَقِّ — مع تحقيقه به — أَقْبَحُ حَالَةً مِنَ الْجَاهِلِ بِهِ الْمُقْصِرُ فِي تَعْرِيفِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ

حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ »

لم يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ — في ابتداء أحوالهم — عن توم الظنون ، ولم يتحققوا بخصائص القدم
وشروط الحدوث ، فعثرت أقدام فكرهم في وهاد المغاليط لما سلكوا المسير .

ويقال إن أقواماً رضوا بالعجل أن يكون معبودهم متى تشم أسرارهم نسيم^(١) التوحيد ؟

صيهات لا لا ولا من لاحظ جبريل وميكائيل والعرش أو الثرى ، أو الجن أو الورى .

وإن من لحقه ذلك أو وجد من قبيل ما يقبل نعت الحدثن ، أو صح في التجويز أن ترتقى
إليه صواعد التقدير وشرائط الكيفية فغير صالح لاستحقاق الإلهية .

(١) وردت (تشيم) وهي خطأ في النسخ .

ويقال شتان بين أمة وأمة ! أمة خرج نبيهم عليه السلام من بينهم أربعين يوماً فعبدوا العجل ، وأمة خرج نبيهم — عليه السلام — من بينهم وأتى نيف وأربعمئة سنة فمن ذكر بين أيديهم أن الشمس والأقار أو شيئاً من الرسوم والأطال تستحق الإلهية أحرقوه بهمهم

ويقال لا فصل بين الجسم والجسد ، فكما لا يصلح أن يكون المعبود جسماً لا يصلح أن يكون متصفاً بما في معناه ، ولا أن يكون له صوت فإن حقيقة الأصوات مُصَاكَّةُ الأجرام الصلبة ، والتوحيد الأزلي ينافي هذه الجملة .

ويقال أجهل بقوم آمنوا بأن يكون مصنوعهم معبودهم ! ولولا قهر الربوبية وأنه تعالى يفعل ما يشاء — فأى عقل يُقرُّ مثل هذا التليس ؟

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلِمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾

جمل من استحقاقه^(١) نعوت الإلهية صحة الخطاب وأن تكون منه الهداية ، وهذا يدل على استحقاق الحق بالنعوت^(٢) بأنه متكلم في حقائق آزاله ، وأنه متفرد بهداية العبد لا هادى سواه . وفيه إشارة إلى مخاطبة الحق — سبحانه — وتكليمه مع العبد ، وإن الملوك إذا جلّت رتبهم استنكفوا أن يخاطبوا أحداً بلسانهم حتى قال قائلهم :

وما عَجَبٌ تناسى ذِكْرَ عَبْدٍ عَلَى الْمَوْلَى إِذَا كَثُرَ الْعَبْدُ

وبخلاف هذا أجرى الحق — سبحانه — سنته مع عباده المؤمنين ، أما الأعداء فيقول لهم : « اخشوا فيها ولا تكلمون »^(٣) وأما المؤمنون فقال صلى الله عليه وسلم : « ما منكم إلا يكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجان »^(٤) ، وأنشدوا في معناه .

وما تزدھينا الكبرياء عليهم إذا كلمونا أن نكلهم مرّداً

(١) وردت (' حقائقهم) وهي خطأ في النسخ .

(٢) يشير القشيري بذلك إلى معارضة المعتزلة الذين ينفون الصفات الإلهية مناً للتنديد ، وانقضاء حامل ومحمول .

(٣) آية ١٠٨ سورة المؤمنون .

(٤) في رواية منلم عن عدى بن حاتم قال رسول الله (ص) :

« ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجان » ص ٧٠٣ ~ ٢ ط الحلبي .

قال تعالى : « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً » (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ
قَدْ ضَلُّوا قَالُوا إِنَّ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ
لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

حين تحققوا بقبض صنيعهم تجرّعوا كأسات الأسف ندماً ، واعترفوا بأنهم خسروا إن لم يتداركهم من الله جيلٌ لطفه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ
أَسِيفًا قَالَ بَنِيَّاءَ خَلَقْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي
أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾

لو وجد موسى قومه بألف ألف وفاقٍ لكان متنقّص العيش لما مني به من حرمان سماع الخطاب والرد إلى شهود الأغيار . . فكيف وقد وجد قومه قد ضلوا وعبدوا العجل ١٩ ولا يُدري أيّ الحن كانت أشدّ على موسى :

أفقدان سماع الخطاب ؟ أو بقاءه عن سؤال الرؤية ؟ أو مشاهد من افتنان بني إسرائيل ، واستيلاء الشهوة على قلوبهم في عبادة العجل ؟ سبحان الله ! ما أشدّ بلاءه على أوليائه !

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ
يَجْرُهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ
اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي
فَلَا تُشْعِتْ لِي الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي
مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ قال رب اغفر لي
ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت
أرحم الراحمين ﴾

(١) آية ١٠٩ سورة الكهف .

إن موسى عليه السلام وإن كان سميع من الله قنَّ قومه فإنه لما شاهدَهم أثرت فيه
المشاهدة بما لم يؤثر فيه السماع ، وإن عُلِمَ قطعاً أنه تأثر بالسمع إلا أن للمعينة تأثيراً آخر .
ثم إن موسى لما أخذ برأس أخيه يحجره إليه استلطفه هارون في الخطاب .

فقال : « يا ابن أمِّ » قدَّ كَرَّ الأمِّ هنا للاسترفاق والاسترحام .

وكذلك قوله : « لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي » يريد بهذا أنه قد توالى المحنُّ على فذَّرتني
وما أنا فيه ، ولا تَزِدْ في بلائي ، خلفتني فيهم فلم يستنصحنوني . وتلك على شديدة . ولقيتُ
بعدك منهم ما ساءتني ، ولقد علمت أنها كانت على عظمة كبيرة ، وحين رجعت أخذت
في عتابي وجرد رأسي وقصدت ضربتي ، وكنت أود منك تسليتي وتعزيتي . فرفقاً بي
ولا تُشيت بي الأعداء ، ولا تضاعف عليّ البلاء .

وعند ذلك رقَّ له موسى — عليه السلام ، ورجع إلى الابتهاال إلى الله والسؤال بنشر
الافتقار فقال : « رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك » وفي هذا إشارة إلى وجوب
الاستغفار على العبد في عموم الأحوال ، والتحقق بأنَّ له — سبحانه — تعذيب البريء ؛
إذ الخلق كلُّهم ملكه ، وتصرَّف المالك في ملكه نافذ .

ويقال : ارتكابُ الذَّنْبِ كان من بني إسرائيل ، والاعتذارُ كان من موسى وهارون
عليهما السلام ، وكذا الشرط في باب خلوص العبودية .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سِينًا لَهُمْ
غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتِرِينَ ﴾

يعني إن الذين اتخذوا العِجْلَ معبوداً سَيْنَا لَهُمْ في مستقبل أحوالهم جزاء أعمالهم . والسين
في قوله « سيناهم » للاستقبال ، ومن لا يضره عصيان العاصين لا يبالي بتأخير العقوبة عن
الحال ، وفرَّق بين الإمهال والإهمال ، والحق — سبحانه — يهمل ولكنه لا يهمل ، ولا ينبغي
لِمَنْ يذنب ثم لا يؤاخذ في الحال أن يغترَّ بالإمهال .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا ﴾

مَنْ بَعْدَهَا وَأَمَّنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ

بَعْدَهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾

وَصَفَّهُمْ بِالتَّوْبَةِ بَعْدَ عَمَلِ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ بِالْإِيمَانِ بَعْدَهَا ، ثُمَّ قَالَ : « مَنْ بَعْدَهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » .
وَالْإِيمَانُ الَّذِي هُوَ بَعْدَ التَّوْبَةِ يَحْتَمِلُ آمَنُوا بِأَنَّهُ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ ، أَوْ آمَنُوا بِأَنَّ الْحَقَّ سَبْحَانَهُ لَمْ يُضِرَّهُ
عَصْيَانٌ ، أَوْ آمَنُوا بِأَنَّهُمْ لَا يَنْجُونَ بِتَوْبَتِهِمْ مِنْ دُونِ فَضْلِ اللَّهِ ، أَوْ آمَنُوا أَيْ عَادُوا مَا سَبَقَ
مِنْهُمْ مِنْ قَطْعِ الْمَهْدِ شِرًّا كَأَنَّ :

وَيُقَالُ اسْتَدَامُوا لِلْإِيمَانِ فَكَانَ مَوَاقِفُهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ .

أَوْ آمَنُوا بِأَنَّهُمْ لَوْ عَادُوا إِلَى تَرْكِ الْمَهْدِ وَتَضْيِيعِ الْأَمْرِ سَقَطُوا مِنْ عَيْنِ اللَّهِ ، إِذَا لَيْسَ
كُلُّ مَرَّةٍ تَسْلَمُ الْجُرَّةُ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ

أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي لُحُوتِهَا هُدًى

وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ ﴿١١﴾

تَشِيرُ إِلَى حَسَنِ إِمْهَالِهِ — سَبْحَانَهُ — لِلْمَهْدِ إِذَا تَغَيَّرَ عَنْ حَدِّ التَّمْيِيزِ ، وَغَلَبَ عَلَيْهِ

مَا لَا يُطِيقُ رَدُّهُ مِنْ بَوَادِهِ الْغَيْبِ

وَإِذَا كَانَتْ حَالَةُ الْأَنْبِيَاءِ — عَلَيْهِمُ السَّلَامُ — أَنَّهُ يَغْلِبُهُمْ مَا يَعْطِلُهُمْ عَنِ الْإِخْتِيَارِ

فَكَيْفَ الظَّنُّ بِسُنْدُونِهِمْ ^(١) ؟

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا

لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ

لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ

أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ؟ إِنَّ

مَعِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ

وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ ، أَنْتَ وَلِيُّنَا ،

فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ

الْغَافِرِينَ ﴾ ﴿١٢﴾

(١) يَسْتَفْهِمُ الْقَشِيرَى لِلْوَالِدِ إِذَا خَرَجَ عَنْ حَدِّ التَّمْيِيزِ إِنْ كَانَ صَادِقًا وَلَهُ عَذْرُ .

شتان بين أمة وأمة ؛ أمة يختارهم نبيهم — عليه السلام ، وبين أمة اختارها الحق — سبحانه ، فقال : « ولقد اخترناهم على علم على العالمين »^(١) .

الذين اختارهم موسى قالوا : « أرنا الله جرة حتى أخذتهم الصاعقة » والذين اختارهم الحق — سبحانه — قال الله تعالى فيهم : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة »^(٢) .

ويقال إن موسى — عليه السلام — جاهر الحق — سبحانه — بنعت التحقيق وفارق الحشمة وقال صريحاً : « إن هي إلا فتكك » ثم وكل^(٣) الحكم إليه فقال : « تُضِلُّ بها مَنْ تشاء وتهدي مَنْ تشاء » ثم عقبها ببيان التضرع فقال : « فاغفر لنا وارحمنا » ، ولقد قدم الثناء على هذا الدعاء فقال : « أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا » .

قوله جل ذكره : ﴿ واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة ﴾
وفي الآخرة ﴿

نطق بلسان التضرع والابتهال حيث صُنِيَ إليه الحاجة ، وأخلص له في السؤال فقال .
« واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة » أي اهدنا إليك .

وفي هذه إشارة إلى تخصيص نبينا — صلى الله عليه وسلم — في التبرى من الحول والقوة والرجوع إلى الحق لأن موسى — عليه السلام قال : « واكتب لنا في . . . » وسبنا صلى الله عليه وسلم قال : « لا تسكنني إلى نفسي طرفة عين » ولا أقل من ذلك ، وقال : « واكفني كفالة الوليد » ثم زاد في ذلك حيث قال : « لا أحصى ثناء عليك »^(٤) .

(١) آية ٣٢ سورة الدخان والنصود أمة الصطفى صلى الله عليه وسلم .

(٢) آية ٢٢ سورة القيامة

(٣) وردت (وقل) والصواب أن تكون (وكل) إليه الحكم .

(٤) قال صلى الله عليه وسلم : « اللهم اكفني كفالة الوليد ، ولا تسكنني إلى نفسي طرفة عين ، وجهت وجهي إليك ، وألحأت طهرى إليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك » .
اللهم اكفني كفالة الوليد — عليها النبي (ص) بعض أسماء — للشيخين من حديث الراء . اللهم امنني بسمي وبصري : النزمدي ، والحاكم عن أبي هريرة « ولا تسكنني إلى نفسي طرفة عين » الحاكم من حديث أسى قال : صحيح على شرط الشيخين ، وعلمته صلى الله عليه وسلم لا بته الراء .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾

أى ملنا إلى دينك ، وصيرنا لك بالسكينة ، من غير أن نترك لأنفسنا بقية .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ﴾

ورحمتي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾

وفى هذا لطيفة ؛ حيث لم يقل : عذابي لا أخلى منه أحداً ، بل علّقه على المشيئة .
وفيه أيضاً إشارة ؛ أن أفعاله — سبحانه — غير مُعَلَّاة بأكساب الخلق ؛ لأنه لم يقل :
عذابي أُصِيبُ بِهِ الْعَصَاةَ بَلْ قَالَ : « مَنْ أَشَاءُ » ؛ وفى ذلك إشارة إلى جواز الغفران لمن أراد
لأنه قال : « أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ » فإذا شاء ألا يصيب به أحداً كان له ذلك ، وإلا لم يكن
حينئذ مختاراً .

ثم لما انتهى إلى الرحمة قال : « وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ » لم يُعَلِّقها بالمشيئة ؛ لأنها
نفس المشيئة ولأنها قديمة ، والإرادة لا تتعلق بالقديم . فلما كان العذاب من صفات الفعل علّقه
بالمشيئة ، بعكس الرحمة لأنها من صفات الذات .

ويقال فى قوله تعالى : « وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ » بحال لآمال العصاة ؛ لأنهم وإن لم يكونوا
من جملة المطيعين والعابدين والعارفين فهم « شئ » (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ فَرَأَى كُفْرُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ

الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾

أى سأرجيها لهم ، فيجيب الثواب للمؤمنين من الله ولا يجب لأحد شئ على الله إذا لا يجب
عليه شئ لعزّه فى ذاته (٢) .

قوله ها هنا : « لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ » أى يجتنبون أن يروا الرحمة باستحقاقهم ، فإذا اتقوا
هذه الظنون ، وتيقنوا أن أحكامه ليست معللة بأكسابهم — استوجبوا الرحمة ،
وبحكم بها لهم .

(١) أى ضمن (شئ) التى فى الآية « وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ » .

(٢) أى بخلاف المعتلة الذين يقولون بالوجوب (على) الله ، وشتان بين الوجوب (من) الله
والوجوب (عليه) ؛ فالوجوب من الله فعل ، والوجوب على الله إزام .

« والذين هم بآياتنا يؤمنون » أى بما يكتشفهم به فى الأنظار مما يقفون عليه بوجوه الاستدلال ، وبما يلاطفهم به فى الأسرار مما يجدونه فى أنفسهم من فتون الأحوال .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾

أظهر شرف المصطفى — صلى الله عليه وسلم — بقوله : « النبی الأمی » أى أنه لم يكن شىء من فضائله وكمال علمه وتبؤه إلى تفصيل شرعه من قبل نفيه ، أو من تعلفه وتكلفه ، أو من اجتهداه وتصرفه . . بل ظهر عليه كل ما ظهر من قبله — سبحانه — فقد كان هو أمياً غير قارئ للكتب ، ولا متتبع للسیر .

ثم قال : « يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر » : والمعروف هو القيام بحق الله ، والمنكر هو البقاء بوصف الحفظ وأحكام الهوى ، والتعريض فى أوطان المنى ، وما تصوّره للعبد نزویرات الدعوى^(١) . والفاصل بين الجسین ، والمیز بين القسمین — الشریعة ، فأحسن من أفعال العباد ما كان بنعت الإذن من مالك الأعیان فلهم ذلك ، والقیح ما كان موافقاً للنهى^(٢) والزجر فليس لهم فعل ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾

الإصر الثقل ، ولا شىء أثقل من كد التدبير ، فمن ترك كد التدبير إلى روح شهود التقدير ، فقد وضع عنه كل إصر ، وكفى شكلاً وزراً وأمر والأغلال التى كانت عليهم هى ما ابتدعوه من قبل أنفسهم باختيارهم فى التزام طاعات

(١) يقصد بها دعوى النفس أنها على شىء وذلك زور وباطل .

(٢) وردت (الهنى) وهى خطأ فى النسخ .

الله ما لم يُفْتَرَضْ عليهم ، فَوَكَّلُوا إِلَىٰ حَوْلِهِمْ وَمُنْتِهِمْ فِيهَا ، فَأَهْمَلُواهَا ، وَتَقَضَّوْا عَهْدَهُمْ .
وَمَنْ لَقِيَ — بِمَخَصَّائِصِ الرِّضَا — مَا تَجَرَّى بِهِ الْمَقَادِيرُ ، وَشَهِدَ الْحَقُّ فِي أَجْناسِ
الْأَحْدَاثِ — فَقَدْ خُصَّ بِكُلِّ نِعْمَةٍ وَفَضْلٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ
وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ
أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

اعترف لهم^(١) بنصرة الرسول — صلى الله عليه وسلم — وإلا فالنبي صلى الله عليه وسلم
كان الله حسيبه ، وَمَنْ كَانَ اسْتِقْلَالَهُ بِالْحَقِّ لَمْ يَقِفْ انْتِمَاشُهُ عَلَىٰ نَصْرَةِ الْخَلْقِ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ
إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ
فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ
الَّذِي يُوْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ ، وَاتَّبِعُوهُ
لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

صَرَّحَ بِمَا رَقَبْنَاكَ إِلَيْهِ مِنَ الْمَقَامِ ، وَأَفْصَحَ عَمَّا لَقِينَاكَ بِهِ مِنَ الْإِكْرَامِ ، قُلْ إِنِّي إِلَىٰ
جَمَاعَتِكُمْ مُّرْسَلٌ ، وَعَلَىٰ كَافَتِكُمْ مُفَضَّلٌ ، وَدِينِي — لِمَنْ نَظَرَ وَاعْتَبَرَ ، وَفَكَّرَ
وَسَبَّرَ — مُفَضَّلٌ . فَأِلْهَىٰ الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ يَنَازِعُهُ ، وَلَا شَيْءَ يُضَارِعُهُ لَهُ حَقُّ
التَّصَرُّفِ فِي مُلْكِهِ بِمَا يَرِيدُ مِنْ حَكْمِهِ . وَمِنْ جَمَلَةِ مَا حَكَمَ وَقَضَىٰ ، وَفَقَدَ بِهِ التَّقْدِيرَ
وَأَمَضَىٰ — إِرسَالِي إِلَيْكُمْ لِتَطِيعُوهُ فِيمَا يَأْمُرُكُمْ ، وَتَحْذَرُوا مِنْ ارْتِكَابِ مَا يَزْجُرُكُمْ .
وإِنَّ مَا أَمَرَكُمْ بِهِ أَنَّهُ قَالَ لَكُمْ : آمِنُوا بِالنَّبِيِّ الْأُمِّيِّ ، وَاتَّبِعُوهُ لَتُفْلِحُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ،
وَتَسْتَوْجِبُوا الزُّلْفَىٰ وَالْحُسْنَىٰ ، وَتَتَخَلَّصُوا مِنَ الْبَلْوَىٰ وَالْهَوَىٰ .

(١) (اعترف لهم) أى عرف لهم هذا السبل وأشاد به .

قوله جل ذكره : ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْتَدُونَ
بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾

هم الذين سبقت لهم العناية ، وصدقت فيهم الولاية فبقوا على الحق من غير
تحريف ولا تحويل ، وأدركتهم الرحمة السابقة ، فلم تنطرق إليهم مفاجأة تغير ،
ولا خفي تبديل .

قوله جل ذكره : ﴿وَقَطَعْنَا مِنْهُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا
أُتَمَّا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ
قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ
فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا
قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ
وَوَضَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ ، وَأَنْزَلْنَا
عَلَيْهِمُ الْلَّيْلَ وَالسَّوْىَ كُلُوا مِنْ
طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ، وَمَا ظَلَمُونَا
وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

فرّقهم أصنافاً ، وجعلهم في التحزب أخياراً ، ثم كفاهم ما أمهم ، وأعطاهم ما لم يكن لهم
بد منه فيما نأبهم ، فظللنا عليهم ما وقاهم أذى الحر والبرد ، وأنزلنا عليهم المن والسوى
مما نقي عنهم تعب الجوع والجهد والسى والكد ، وفجرنا لهم العيون عند النزول حتى كانوا
يشاهدونهم عياناً ، وألقينا بقلوبهم من البراهين ما أوجب لهم قوة اليقين ، ولكن ليست
العبرة بأفعال الخلق ولا بأعمالهم إنما المدار على مشيئة الحق ، سبحانه وتعالى فيما يمضي عليهم
من فنون أحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿وَإِذْ قِيلَ لِمِ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا
مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا
الْبَابَ سُجَّدًا نَفِّرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ
سَتَزِيدُ الْحَسَنِينَ﴾

ينحصر عما أُلزمهم من مراعاة الحدود ، وما حصل منهم من تقض المهود . وعما أُلزمهم من التكليف ، ولقائهم به من صنوف التعريف ، وإكرامه من (شاء)^(١) منهم بالتروفيق والتصديق ، وإذلاله من شاء منهم بالخذلان وحرمان التحقيق ، ثم ما عاقبهم به من فنون البلاء فلما لقوا تعريفاً ، وأذاقهم من سوء الجزاء ، حُكماً — من الله — حتماً ، وقضاء جزماً .

قوله جل ذكره : ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ

الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ ^(٢) بِمَا كَانُوا يَفْظِلُونَ ﴾

جاء في التفسير أنهم زادوا حرفاً في الكلمة التي قيلت لهم فقالوا : حنطة بدل « حطة » فلقوا من البلاء ما لقوا تعريفاً أن الزيادة في الدين ، والابتداع في الشرع عظيم الخطر ، ومجاوزة حد الأمر شديد الضرر .

ويقال إذا كان تغيير كلمة هي عبارة عن التوبة يوجب كل ذلك العذاب — في الظن بتغيير ما هو خبر عن صفات للمعبود ؟

ويقال إن القول أنقص من العمل بكل وجه — فإذا كان التغيير في القول يوجب كل هذا . . فكيف بالتبديل والتغيير في الفعل ؟

قوله جل ذكره : ﴿ وَسَأَلُمُ عَنْ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ

حَاضِرَةً الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ
إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا
وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كُنُفٌكَ
تَبْلُغُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾

كان دينهم الأخذ بالتأويل ، وذلك رَوَعَانُ — في التحقيق^(٣) ، وإن الحقائق تأتي

(١) سقطت (شاء) وقد أثبتناها قياساً على ما حدث فيها بعد .

(٢) سقطت (من السماء) من النسخ .

(٣) تأمل مفهوم (التأويل) عند القشيري ، وكيف يمارضه إذا كان باطلاً .

إلا الصديق ، وإن التعرّيج في أوطان الحظوظ والجنوح إلى احتمالات الرخص فسح لا كيد
مواثيق الحقيقة ، ومن شاب شوب له ، ومن صفى صفى له .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ
قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا
شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ
وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

الحقائق — وإن كانت لازمة — فليست للعبد عند لوازم الشرع عاذرة^(١) بل الوجوب
يُفْتَرَضُ شرعاً ، وإن كان التقدير غالباً بكل وجه .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ
يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا
بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾

إذا تَمَادَى العبد في تَهْتِكِهِ ، ولم يُبَالِ بطول الإمهال والسُّرْمِ لم يُهَيَّلْ يدُ التقدير عن
امتنعاض العين ، ومحو الأثر ، وسرعة الحساب ، وتمجيل العذاب الأدنى قبل هجوم الأكبر .
ثم البرى في فضاء السلامة ، ونحت ظل الحفظ ، ودوام رُوح التخصيص وبرْدِ
عيش التقريب .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا عَثَرُوا غَمًّا نُّهُوا عَنْهُ قُلُوبُهُمْ
كَانُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾

إذا انتهت مدة الإمهال فليس بعده إلا حقيقة الاستئصال ، وإذا سقط العبد من عين الله
لم ينتعش بعده أبداً ، فمن أسقطه حكمُ الملوك فلا قبول له بعد الرد ، وفي معناه أنشدوا :
إذا انصرفَتِ نفسى عن الشئ لم تنكده إليه بوجه آخر الدهر تُقبِلُ

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ
إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ

(١) أى لا يلبقى نصرة الحقيقة على حساب الجريمة بحال .

العذاب ، إن ربك لسريع العقاب
وإنه لغفور رحيم ﴿

إذا الحق — سبحانه — أمضى سنته بالإفطار وتقديم التعريف بما يستحقه كل أحد
على ما يحصل منه من الآثار إبداء للعذر — وإن جلت^(١) رتبته عن كل عذر — فإن ينتجع فيهم
القول وإلا دمر عليهم بالعذاب .

قوله جل ذكره : ﴿ وقطناهم في الأرض أممًا منهم
الصالحون ومنهم دون ذلك ببلوانهم
بالحسنيات والسيئات لعلمهم
بجميعهم^(٢) ﴾

أجرامهم على ما علم أنهم يكونون عليه من صلاح وسداد ، ومعاصي وفساد . ثم ابتلاهم
بفنون الأفعال من محن أزاحها ، ومن مكن أناحها ، وطالبهم بالشكر على ما أسدى ، والصبر
على ما أبلى ، ليظهر للملائكة والخلائق أجمعين جواهرهم في الاخلاق والوفاق ، والإخلاص
والنفاق ؛ فأما الحسنات فهي ما يشهدهم المجري ، ولا يلهمهم عن المبدى ، وأما السيئات
فالتردد بين الإنجاز والتأخير ، والإباحة والتقصير .

ويقال الحسنة أن يتسبك نفسك ، والسيئة أن يشهدك نفسك .

ويقال الحسنات بتيسير وقت عن الغفلات خال ، وتسهيل يوم عن الآفات بائن . والسيئات
التي ابتلاهم بها خذلان حاصل وحرمان متواصل .

قوله جل ذكره : ﴿ فخلف من بعدهم خلف ورثوا
الكتاب يأخذون عرض هذا
الأدنى ويقولون سيئفر لنا ﴾

امتوجبوا الذم بقوله — سبحانه : « فخلف من بعدهم خلف » لأنهم آثروا العرض^(٣)

(١) وردت (حلت) بالخاء وهي خطأ في النسخ .

(٢) أخطأ الناسخ إذ كتبها (لعلمهم يرحمون) .

(٣) وردت (الأرض) وهي خطأ في النسخ فلنظة (عرض) مذكورة في الآية .

الأدنى ، وركنوا إلى عاجل الدنيا ، وجعلوا نصيبهم من الآخرة للمنى فقالوا : « سيففر لنا » .
ويقال من أمارات الاستدراج ارتكاب الزلة ، والاغترار بزمان المهلة ، وتحمل تأخير العقوبة على استحقاق الوصلة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ﴾
أخبر عن إصرارهم على الإغترار بالمنى ، وإلثار متابعة الهوى .

قوله جل ذكر : ﴿ أَلَمْ يَأْخُذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ
أَلَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾

استفهام فى معنى التقرير^(١) ، أى أمرُوا أَلَّا يَصِفُوا الْحَقَّ إِلَّا بِنَعْتِ الْجَلَالِ ، واستحقاق صفات الكمال ، وألا يتحاكوا عليه بما لم يأت منه خبر ، ولم يشهد بصحته برهان ولا نظر .
قوله جل ذكره : ﴿ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ، وَالِدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

يعنى تحققوا بمضون الكتاب ثم جحدوا بعد لوح البيان وظهور البرهان . يعنى التعرض لنفحات فصله — سبحانه — خيرٌ لمن أَمَلَّ جودَه من مقاساة التعب ممن يَدَلَّ — فى تحصيل هواه — بجودَه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ يُسْكُونُ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ .

يسكون بالكتاب إيماناً ، وأقاموا الصلاة إحساناً ، فبالإيمان وجدوا الأمان ، وبالإحسان وجدوا الرضوان ؛ فالأمان مُعَجَّلٌ والرضوان مُؤَجَّلٌ . ويقال « يسكون بالكتاب » سبب النجاة ، وإقامة الصلاة تحقق المناجاة . فالنجاة فى المآل وللمناجاة فى الحال .

ويقال أفرد الصلاة هاهنا بالذكر عن جملة الطاعات ليعلم أنها أفضل العبادات بعد معرفة الذات والصفات .

(١) وردت (التقرير) بالدال وهى خطأ فى النسخ لأن المعنى يرفضها ، والاستفهام التقررى مصطلح بلاغى

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾

مَنْ أَمَلَ سَبَبَ إِنْعَامِنَا لَمْ تَخْسِرْ لَهُ صَفَقَةً ، وَلَمْ تَحْقُقْ ^(١) لَهُ فِي الرِّجَاءِ رَفَقَةً ، وَيُقَالُ مَنْ تَقَلَّ
(. . .) ^(٢) إِلَى بَابِهِ قَدَمَهُ لَمْ يَعْذِمْ فِي الْأَجْلِ نِعَمَهُ ، وَمَنْ رَفَعَ إِلَى سَاحَاتِ جُودِهِ هِمَّةً
نَالَ فِي الْحَالِ كَرَمَهُ

وَيُقَالُ مَنْ تَوَصَّلَ إِلَيْهِ بِجُودِهِ نَالَ فِي الْبَارِئِينَ شَرَفَهُ . وَمَنْ أَكْفَى بِجُودِهِ ^(٣) كَانَ اللَّهُ
عَنْهُ خَلْفَهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ
ظُلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا
مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ ، وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

لَيْسَ مِنْ يَأْتِي طَوْعًا كَنْ يَأْتِي جَبْرًا ، فَإِنَّ الَّذِي يَأْتِي قَهْرًا لَا يَعرِفُ لِلْحَقِّ — سُبْحَانَهُ —
قَدْرًا ، وَفِي مَعْنَاهُ أَنْشَدُوا :

إِذَا كَانَ لَا يَرْضِيكَ إِلَّا شَفَاعَةُ فَلَا خَيْرَ فِي وَدِّ يَكُونُ لِشَاقِمٍ
وَأَنْشَدُوا :

إِذَا أَنَا عَاتَبْتُ الْمُلُوكَ فَأَنَا أَخْطُ بِأَقْلَامِي عَلَى الْمَاءِ أَحْرُفًا
وَهَبْهُ ارْعَوْيْ بَعْدَ الْعِتَابِ أَلَمْ يَكُنْ تُوَدِّدُهُ طَبْعًا ، فَصَارَ تَكَلُّفًا ؟
وَيُقَالُ قَصَارَى مَنْ أَتَى خَيْرًا أَنْ يَنْكُصَ عَلَى عَقْبِهِ طَوْعًا ، كَذَلِكَ لَمَّا قَابَلُوا الْكِتَابَ
بِالْإِجْبَارِ مَا لَبَسُوا حَتَّى قَابَلُوهُ بِالْتَّحْرِيفِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ

(١) وَرَدَتْ (تَحْقُقُ) وَهِيَ خَطَأٌ فِي النُّسخِ لِأَنَّ الْمَعْنَى يَرْضَاهَا .

(٢) مُشْتَبِهَةٌ وَرَبَّمَا كَانَتْ (فِي الْمَاجِلِ) .

(٣) الْأَصُوبُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ (بِوُجُودِهِ) أَيْ مِنْ فَنِي عَنْ نَفْسِهِ وَبَقِيَ بِالْحَقِّ كَمَا الْحَقُّ عَنْهُ خَلْفَهُ .

ظهورهم ذرئتهم وأشهدهم على
 أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا:
 بلى، شهدنا أن تقولوا يوم القيامة
 إنا كنا عن هذا غافلين * أو تقولوا
 إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا
 ذرية من بعدهم أفهللنا بما فعل
 المبطلون؟ ﴿١﴾

أخبر بهذه الآية عن سابق عهده ، وصادق وعده ، وتأكيده عناج^(١) ودّه ، بتعريف
 عبده ، وفي معناه أنشدوا :

سُقياً لليل والليل التي كُنَّا بِلَيْلَى نلتقى فيها
 أفديك بل أيام دهرى كلها يفدين أياماً عَرَفْتُكَ فيها

ويقال فأجابهم بتحقيق العرفان قبل أن يقع لمخلوق عليهم بصراً ، أو ظهر في قلوبهم
 لمصنوع أثر ، أو كان لهم من حميم أو قريب أو صديق أو شفيق خبر ، وفي معناه أنشدوا :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى وصادف قلبى فارغاً فتمكناً

ويقال جمعهم في الخطاب ولكنه فرّقهم في الحال . وطائفة خاطبهم بوصف القرية
 فعرفهم في نفس ما خاطبهم ، وفرقة أبقاهم في أوطان النبية فأقصاهم عن نعت العرفان وحجبهم .

ويقال أقوام لا طمّهم في عين ما كشفهم فأقروا بنعت التوحيد ، وآخرون أبعدهم
 في نفس ما أشهدهم فأقروا عن رأس الجحود .

ويقال وسم بالجهل قوماً فالزمهم بالإشهاد ببيان الحجة فأكرمهم بالتوحيد ، وآخرين
 أشهدهم واضح الحجة (.)^(٢)

(١) العنّاج جبل يشد في أسفل الدلو العظيمة (المنجد) .

(٢) لا بد أن هنا عبارة ساقطة .

ويقال مجلي لقوم فتولى تعرفهم فقالوا : « بلى » عن حاصل يقين ، وتمرّز عن آخرين
فأثبتهم في أوطان الجحد فقالوا : « بلى » عن ظن وتخمين .

ويقال جمع المؤمنين في الأسماء ولكن غاير بينهم في الرتب ؛ فجذب قلوب قوم
إلى الإقرار بما أطمعها فيه من المآر ، وأنطق آخرين بصدق الإقرار بما أشهدهم من المبان
وكشفهم به من الأسرار .

ويقال فرقة ردهم إلى الهيبة فهاجوا ، وفرقة لا طغهم بالقربة فاستقاموا .
ويقال عرف الأولياء أنه من هو فتحققوا بتخليصهم ، ولبس على الأعداء فتوقفوا
لخبرة عقولهم .

ويقال أسمعهم وفي نفس ما أسمعهم أحضرم ، ثم أخذم عنهم فيما أحضرم ، وقام عنهم
فأنطقهم بحكم التعريف ، وحفظ عليهم — بحسن التولى — أحكام التكليف^(١) وكان
— سبحانه — لم مكلّفاً ، وعلى ما أراده مضرّفاً ، وبما استخلصهم له مرفّفاً ، وبما وقام
إليه مشرّفاً .

ويقال كشف قوماً — في حال الخطاب — بجماله فطوحهم في هيبان حبه ، فاستمكنت
مجاهم في كوامن أسرارهم ؛ فإذا سمعوا — اليوم — سماعاً تجددت (تلك الأحوال ،
فالاتزاع الذي يظهر فيهم لتذكّر ما سلف لهم)^(٢) من العهد المتقدم^(٣) .

ويقال أسمع قوماً بشاهد الرويية فأصحابهم عن عين الاستشهاد فأجابوا عن عين التحقيق ،
وأسمع آخرين بشاهد الرويية فمحاكمهم عن التحصيل فأجابوا بوصف الجحود .

ويقال أظهر آثار العناية بدماء حين اختص بالأنوار التي رشت عليهم قوماً ، فمن
حرمة تلك الأنوار لم يجعله أهلاً للوصلة ، ومن أصابته تلك الأنوار أفصح بما خص به من
غير مقاسة كلفة .

(١) لاحظ مدى إلحاح التشيرى على التزام أحكام التكليف ما سنحت له مناسبة .

(٢) ما بين القوسين مذكور في الهامش أثبتناه في موضعه من النص حسب العلامات المميزة

(٣) من هذا وما تلاه يتضح كيف ارتبطت الولاية بالقطرة والاجتهاد والخصوصية منذ يوم النذر
وكذلك الشأن في مداواة .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك نفصل الآيات ولعلمهم
يرجمون ﴾

إذا سُدَّتْ (١) عيونُ البصائر فما ينفع وضوحُ الحجَّةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه
آياتنا فالسلخ منها فأتبعه الشيطانُ
فكان من الغاوين ﴾

الحقُّ — سبحانه — يظهر الأعداء في صدار الخُلَّة ثم يردُّهم إلى سابق القسمة ، ويُبرزُ
الأولياء بنعتِ الخلاف والزُّلَّة ، ثم يغلب عليهم مقسومات الوصلة .

ويقال أقامه في محل القربة ، ثم أبرز له من مكامن المكر ما أعدَّ له من سابق التقدير ؛
فأصبح والكلُّ دونه رتبة ، وأمسى والكلب فوقه — مع خساسته : وفي معناه
أشدوا :

فبينما بخيرٍ والدُّنى مطمئنة وأصبح يوماً — والزمان تَقَلَّبَا

ويقال ليست العبرة بما يلوح في الحال ، إنما العبرة بما يشول إليه في المآل .

قوله جل ذكره : ﴿ ولو شئنا لرفعناه بها ﴾

لو مباعدته المشيئة بالسعادة الأزلية لم تَلَحُقه الشقاوةُ الأبدية ، ولكن من قصته
الهوايق لم تنعشه اللواحق .

قوله جل ذكره : ﴿ ولكنه أخلد إلى الأرض ﴾

إذا كانت مساكنةُ آدمَ للجنةٍ وطعمه في الخلود فيها أوجبا خروجه عنها ، فالركونُ
إلى الدنيا — متى يوجب البقاء فيها ؟

قوله جل ذكره : ﴿ واتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾

مواقفة الهوى مُنْزِلُ صاحبها من سماء العِزِّ إلى تراب الدُّلِّ ، وتلقيه في وهدة الهوان ؛
ومن لم يُصَدِّقْ عِلْماً فعن قريبٍ يقاسيه وجوداً .

(١) وردت (شدت) والمعنى يرفضها ويبدو أن الناسخ قد حسب ضمة السين ثلاث نقط
انظر (ولولا انسداد البصائر من ٥٨٩ من هذا المجلد) .

قوله جل ذكره : ﴿ فَتَنَّهُ كَثَلِرَ الْكَلْبِ ﴾

من أخلاق الكلب التعرض لمن لم يخفه على جهة الابتداء ، ثم الرضاء عنه بلقمة ..
كذلك الذى ارتد عن طريق الإرادة يصير ضيق الصدر ، سبب الخلق ، يبدأ بالجفاء
كل برئ ، ثم يبدأ طياشه بنيل كل عرض خسيس .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنْ تَحِيلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَرَكَهْ

يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ
لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

المحجوب عن الحقيقة عنده الإساءة والإحسان (بيان) ^(١) ، فهو فى الحالين : إما
صاحب ضجر أو صاحب بَطَر ؛ لا يحمل المحنة إلا على زوال الدولة ، ولا يقابل ^(٢) النعمة إلا
بالنهمة ، فهو فى الحالين محجوب عن الحقيقة .

ويقال الكلب نجاسته أصلية ، وخساسته كلية ، كذلك للردود فى الصفة له قصصان
القيمة وحرمان القصة .

قوله جل ذكره : ﴿ سَاءَ مَثَلًا ^(٣) الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا

بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾

أى صفته أدنى من نعت من يُبلى بالإعراض الأزل ، وأى نعت أعلى من وصف من
أُكْرِمَ بالقبول الأبدى ؟ وأى حيلة تنفع مع من يخلق الحيلة ؟ ^(٤) وكيف تصح الوسيلة إلا
لمن منه الوسيلة ؟

(١) (بيان) زياد أضفناها ليستقيم بها والمعنى ويقوى .

(٢) وردت (ولا يقال) وهى خطأ فى النسخ والمعنى يتطلب (ولا يقابل) .

(٣) أخطأ الناسخ إذ كتبها (مثلاً) .

(٤) نعرف من مذهب القشيري أن (الحيلة) تنصرف إلى الإنسان ، وهو هنا يقرر أن الحيلة من خلق
الحق ، وبهذا يتأكد اتجاهه الكلامي نحو جعل الله خالق كل شيء حتى أكتاب العباد .

قوله جل ذكره: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ

وَمَنْ يَضِلَّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

ليست الهداية من حيث السعاية، إنما الهداية من حيث البداية، وليست الهداية بفكر العبد ونظيره، إنما الهداية بفضل الحق وجهيل ذكره.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ

وَالْإِنْسِ﴾

مَنْ خَلَقَهُ لَهُمْ — متى يستوجب الجنات؟

وَمَنْ أَهْلَهُ لِلْسَخَطَةِ — أئني يستحق الرضوان؟

ولولا انسداد البصائر وإلا فأى إشكال بقي بعد هذا الإيضاح؟^(١)

ويقال هم — اليوم — في جحيم الجحود، مقرّنين في أصفاد الخذلان، مُتَلَبِّسِينَ ثياب

الحرمان، طعامهم ضريع الوحشة، وشرابهم حميم الفرقة، وغداً هم في جحيم الحرقة^(٢) ..

كما فصل في الكتاب شرح تلك الحالة.

قوله جل ذكره: ﴿لَمْ يَلْمِ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَمْ أُعِنْ

لَا يُفْصِرُونَ بِهَا وَلَمْ آذَنْ لَا يَسْمَعُونَ

بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ

أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾

أى لا يفقهون معاني الخطاب كما يفهم المُحدثون^(٣)، وليس لهم تمييز بين خواطر الحق

(١) يفسر القشيري هنا بمن يقول بحرية الإنسان في اختطاط مصيره باختياره وإرادته، ويرجع الأمر

كله للنسبة.

(٢) لاحظ مفهوم الجحيم، في تصور الصوفية، وهو جحيم الفراق — هنا في هذه الدنيا. وبعده جحيم الاحتراق في النار الآخرة.

(٣) يقول السراج في شرح «المحدث» التي وردت في الحديث الشريف: «قد كان في الأمم محدثون ومكلمون فان يك في هذه الأمة فعمر» المحدث أعلى درجة من درجات الصديقين، ودلائل ذلك ظهرت عليه حين صاح في خطبه: ياساوية الجبل، وكان سارية في نهاوند فسمع صوت عمر وأخذ نحو الجبل وظفر بالعدو (اللعن من ١٧٣).

وبين هواجس النفس ووساوس الشيطان ، ولم أهيئ لا يُبْعِرون بها شواهد التوحيد
وعلامات اليقين ؛ فلا ينظرون إلا من حيث الغفلة ، ولا يسمعون إلا دواهي الفتنة ،
ولا ينخرطون إلا مع من سلك ركوب الشهوة .

« أولئك كالأنعام بل هم أضل » : لأن الأنعام قد رُفِعَ عنها التكليف ، وإن لم يكن
لها رِفاقُ الشرع فليس منها أيضاً خلاف الأمر .

والأنعام لا يَهْتَبُها إلا الاعتلاف ، وما تدعو الحيلة من مباشرة الجنس ، فكذلك مَنْ أقيم
بشواهد نفسه وكان من المربوطين بأحكام النفس ، وفي معناه أنشدوا :

نهارك يا مغرور سهُوٌ وغفلةٌ وليك نومٌ والردي لك لازمٌ
وسميك فيها سوف تكره غيبه كذلك في الدنيا تعيش البهائمُ

قوله جل ذكره : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ،
وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَاءِهِ
سَيُجْزَوْنَ ^(١) مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

سبحان مَنْ تعرّف إلى أوليائه بنعوته وأسمائه فعرّفهم أنه مَنْ هو ، وبأى وصف هو ،
وما الواجب وصفه ، وما الجائز في نته ، وما المستنع في حقّه وحكمه ؛ فتجلى لقلوبهم بما يكشفهم
به من أسمائه وصفاته ، فإن القولَ محجوبةٌ عن الهجوم بذواتها لما يَصِحُّ إطلاقه في وصفه ،
وإن كانت واقعةٌ على الواجب والجائز والمستنع في ذاته ، فللعقل العرفان بالجملة ، وبالشرع
الإطلاق والبيان في الإخبار ، والقول فيها وَرَدَ به التوفيق يُطْلَقُ ، وما سَكَتَ عنه التوفيق
يُسْتَنَع . ويقال مَنْ كان الغالب عليه وصفٌ من صفاته ذَكَرَهُ بما يقتضيه هذا الوصف ؛
فمن كان مكاشفاً بعبّائه ^(٢) ، مربوطاً القلب بأفضاله فالغالب على قائله الثناء عليه بأنه الوهاب
والبار والمُعْطَى وما جرى مجراه . ومن كان مجنوباً عن شهود الإنعام ، مكاشفاً بنعت الرحمة

(١) أخطأ الناسخ إذ زاد واو قبل (ما كانوا) والصواب بدونها .

(٢) وردت (بقطائمه) بالعين والصواب أن تكون (بقطائمه) بدليل (أفضاله) و (الإنعام) فيما بعد
فضلا عن الأسماء والصفات الإلهية المختارة (الوهاب والبار والمُعْطَى) .

فالذي ينسب على ذكره وصفه بأنه الرحمن والرحيم والكريم وما في معناه . ومن تمت همته
عن شهود وجوده ، واستهلك في حقائق وجوده فالتألب على لسانه الحق . ولذلك فأكثر
أقوال العلماء في الإخبار عنه : « الباري » لأنهم في الترقى في شهود الفعل إلى شهود الفاعل .
وأما أهل المعرفة فالتألب على لسانهم « الحق » لأنهم ^(١) مُخْتَلِفُونَ عن شهود الآثار، متحققون
بحقائق الوجود .

وينقال إن الله — سبحانه — وقف الخلق بأسمائه فهم يذكرونها قائلين ، وتمرر بذاته ،
والعقول — وإن صفت — لا تهجم على حقائق الإشراف ، إذ الإدراك لا يجوز على الحق ؛
فالعقول عند بواده الحقائق متقنعة بنقاب الخيرة عند التعرض للإحاطة ، والمعارف تائهة عند
قصد الإشراف على حقيقة الذات ، والأبصار حسيمة عند طلب الإدراك في أحوال الرؤية ،
والحق سبحانه عزيز ، وباستحقاق نعوت التعالى متفرد ^(٢) .

قوله « وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون » : الإلحاد هو الميل
عن القصد ، وذلك على وجهين بالزيادة والنقصان ؛ فأهل التمثيل زادوا فألحدوا ، وأهل التعطيل
نقصوا فألحدوا ^(٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمِنْ خَلْقِنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ
وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾

أجرى الحق — سبحانه — سنته ألا يُخْلِي البسيطة من أهل لها هم النيات وبهم دوام
الحق في الظهور ، وفي معناه قالوا :

إذا لم يكن قطبٌ فمن ذا يديرها ؟

فهذا يتهم بالحق أنهم يدعون إلى الحق ، ويدلون على الحق ، ويتحركون بالحق ، ويسكنون

(١) وردت (إليهم) ولا معنى لها في السياق والصواب أن تكون (لأنهم) ،
(٢) يلح القشيري على هذا المعنى دائماً فيقول في تحديد العرفان (تارة من الدرك والوصول ، ليس بين
الخلق إلا عرفان الحقائق بنعمت التعالى في شهود أفعاله ، فاما الوقوف على حقيقة إنيتة فجاءت الصمدية عن
شراف عرفان عليه) الطائفة (م) ص ٣٩٨ .
(٣) (لا تمثيل ولا تعطيل) هذا أصل من أصول المذهب الكلامي عند هذا الإمام .

للحق بالحق ، وهم قائمون بالحق ؛ يصرفهم الحق بالحق أولئك هم غياث الخلق ؛ بهم يُسقون
إذا قحطوا ، ويُعطّرون إذا أجذبوا ، ويُجكبون إذا دَعَوْا (١) .

قوله جل ذكره : ﴿والذين كذبوا بآياتنا سنستخرجهم
من حيث لا يعلمون * وأمثلي لهم
إن كيدى متين﴾

الاستدراج أن يلقى في أوهامهم أنهم من أهل الوصلة ، وفي الحقيقة : السابق لهم من القصة
حقائق الفرقة .

— ويقال الاستدراج انتشار الصبب بالخير في الخلق ، والانطواء على الشر — في السر —
مع الحق .

ويقال الاستدراج ألا يزداد في المستقبل محبةً إلا ازداد في الاستحقاق تقصان رتبة .
ويقال الاستدراج الرجوع من توم صفاء الحال إلى دكوب قبيح الأعمال ، ولو كان صادقاً
في حاله لكان معصوماً في أعماله .

ويقال الاستدراج دَعَاوى عريضة صدرت عن معانٍ مريضة .

ويقال الاستدراج إفاضة البر مع (.....) (٢) الشكر .

قوله جل ذكره : ﴿وَأَوْ لَمْ يَنْفَكُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ
إِنْ هُوَ إِلَّا تَذِيرٌ مَبِينٌ﴾

أو لم يتأملوا بأنوار البصائر ليشهدوا أخلاق آثار التقريب بجملة أحواله — عليه السلام —
ليعلموا أن ذلك الشاهد ليس بشاهد متخرص .

ويقال إن برود (٣) الواسطة — صلوات الله عليه وعلى آله — كانت بنسيم القرية

(١) هذه نظرة القشيري إلى الولاية والأولياء ومعنى القطب وأهميته .

(٢) مشبهة .

(٣) جمع برود

معطرة^(١) ، ولكن لا يُدْرِكُ ذلك النَّشْرُ إِلَّا بِشَمِّ العِرفَانِ ، فَمَنْ فَقَدَ ذلكَ — فأى خبر^(٢) له عن حقيقة حاله — صلوات الله عليه .

قوله جل ذكره : ﴿ أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾
أطلع الله — سبحانه — أقدار الآيات ، وأماط عن ضيائها سحاب الشبهات ؛ فَمَنْ استضاء
بها ترقى إلى شهود القدرة .

ويقال ألاح الله تعالى — لقلوب الناظرين بعيون الفكر — حقائق التحصيل ؛ فَمَنْ لم
يُخرج في أوطان التقصير أنزلته مراكب السرِّ بساحات التحقق .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ
أَجَلُهُمْ فَبَئِىٓ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾
الناس في مغاليط آمالم ناسون لو شيك آجالهم ، فكم من ناسجٍ لا كفاته ! وكم من بانٍ
لأعدائه ! وكم من زارعٍ لم يحصد زرعه !
هيهات ! الكيش يعتلف والقصابُ مُستَعِدُّ له !
ويقال سرعة الأجل تنغص لذة الأمل .

قوله جل ذكره : ﴿ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ
فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾
مَنْ حَرَمَهُ أنوار التحقيق فهو في ضباب الجهل ، فهو يزلُّ يميناً ويسقط شمالاً .

قوله جل ذكره : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا
قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا
لَوْحِهَا إِلَّا هُوَ ، ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ ، يَسْأَلُونَكَ

(١) وردت (مطرة) بدون عين ، والسياق يتطلب (معطرة) لتناسب النسيم والشم والنشر
(٢) وردت (خير) والمقصود فأى (خبر) أى فأى علم له عن حقيقة المصطفى (ص) .

كَأَنَّكَ حَفِيٌّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ ،
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١﴾

السائلُ عن الساعةِ رجُلان ؛ مُتَكَبِّرٌ يَتَفَجَّبُ لِفَرَطِ جَهْلِهِ ، وَعَارِفٌ مُشْتَاقٌ يَسْتَعْجِلُ لِفَرَطِ شَوْقِهِ ، وَالْمُتَحَقِّقُ بِوُجُودِهِ مُسَاكِنٌ فِي حَالِهِ ؛ فَيُفَانِ عِنْدَهُ قِيَامَ الْقِيَامَةِ وَدَوَامَ السَّلَامَةِ .
ويقال الحق — سبحانه — استأثر بعلم الساعة ؛ فلم يُطْلَعْ عَلَى وَقْعِهَا نَبِيًّا وَلَا صَفِيًّا ،
فَالْإِيمَانُ بِهَا غَيْبِي ، وَبِقَيْنِ أَهْلِ التَّوْحِيدِ صَادِقٌ ^(١) عَنْ شَوَائِبِ الرَّيْبِ . نَمَّ مُعَجِّلُ قِيَامَتِهِمْ
يُوجِبُ الْإِيمَانَ بِمُؤَجَّلِهَا ^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا
إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ
الْغَيْبَ لَاسْتَكْنَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ ،
وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ
وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

أَمْرُهُ بِتَصْرِيحِ الْإِقْرَارِ بِالتَّبَرُّيِّ عَنْ حَوْلِهِ وَمُنْتَهَى ، وَأَنْ قِيَامَهُ وَأَمْرَهُ وَنَظَامَهُ بِطَوَّلِ رَبِّهِ
وَمُنْتَهَى ؛ وَلِذَلِكَ تَجَنُّسُ عَلَى الْأَحْوَالِ ، وَتَخْتَلِفُ الْأَطْوَارُ ؛ فَمِنْ عُسْرِ ^(٣) يَمَسُّنِي ، وَمِنْ
بُسْرِ ^(٤) يَخْصِنِي ، وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ بِمَزَادِي ، وَلَمْ يَكُنْ بِيَدٍ غَيْرِي قِيَادِي لَتَشَابَهَتْ أَحْوَالِي
فِي الْبُسْرِ ، وَلَتَشَاكَلَتْ أَوْقَاتِي فِي الْبَعْدِ مِنَ الْمَسْرِ .

قوله جل ذكره : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ
وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾

أَخْرَجَ النَّسَمَةَ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَأَخْلَقَهُمْ مُخْتَلِفَةً ، وَهَمَّهُمْ مُتَبَايِنَةً ، كَمَا أَنَّ الشَّخْصَ مِنْ

(١) وَبِمَا كَانَتْ (صَافٍ) فِي الْأَصْلِ

(٢) الْقِيَامَةُ الْمَعْجَلَةُ الَّتِي يَشِيرُ إِلَيْهَا هِيَ (الَّتِي تَقُومُ فِي الْيَوْمِ غَيْرِ مَرَّةٍ بِالْهَجْرِ وَالنُّوْيِ وَالْفِرَاقِ) الطَّائِفُ

(٣) ٣٥١ ، فَالْقَصْدُ مِنَ الْعِبَارَةِ إِذَا أَنَّ أَهْلَ الْخُصُوصِ يُؤْمِنُونَ بِالْإِيمَانِ يَقِينٍ بِالْقِيَامَةِ الْمُؤَجَّلَةِ لِأَنَّهُمْ يَشْهَدُونَ
وَيَذُوقُونَ الْقِيَامَةَ لِلْمَعْجَلَةِ ، وَقَدْ صَدَّقَ الْقَشِيرِيُّ إِذْ يَقُولُ فِي رِسَالَتِهِ : (فَا لِلنَّاسِ هَيْبٌ قَلْبُهُمْ ظُهُورُ)
الرِّسَالَةُ ص ١٩٨ .

(٤) وَرَدَتْ (مَصْر) . (٤) وَرَدَتْ (يَسْر) وَقَدْ صَوَّبْنَاهَا (عَرِ وَيَسْر) فِي ضَوْءِ مَا قَالَاهَا .

نطفة واحدة وأعضاؤه وأجزاءه مختلفة . فمن قدير على تنويع النطفة للتشاكلة أجزاؤها
فهو القادر على تنويع أخلاق الخلق الذين أخرجهم من نفس واحدة .

قوله جل ذكره : ﴿ لَيْسَ كُنْ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَفَشَّتْهَا جَلَّتْ
حَمَلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ
دَعَا اللَّهَ رَبِّهَا لَن آتَيْنَا صَالِحًا
لنكونن من الشاكرين ﴾

ردُّ المثل إلى المثل ، وربط الشكل بالشكل ، ليعلم المالمون أن سكون الخلق مع الحق
لا إلى الحق ، وكذلك ألسل الخلق من الخلق لا من الحق ، فالخلق تعالى قدوس ؛ منه كل حظ
للخلق خلقا ، منزّه عن رجوع شيء إلى حقيقته حقاً

قوله جل ذكره ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ
فِيهَا أَنَاهُمَا فَعَالَى اللَّهَ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

شرُّ الناس من يتهل إلى الله عند هجوم البلاء بخلوص الدعاء ، وبشدة التضرع والبكاء ،
فإذا أزيلت شكائته ، ودُفِعت — بينته — آفاته ضيع الوفاء ، ونسي البلاء ، وقابل الرد^(١)
بنقض العهد ، وأبدل العقد برفض الود ، أولئك الذين أبعدهم الله في سابق الحكم ، وخرطهم
في سلك أهل الرد^(٢)

قوله جل ذكره : ﴿ أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾
كما لا يجوز أن يكون الرب مخلوقاً لا يجوز أن يكون غير الرب خالقاً ، فمن وصف الحق
بخصائص وصف الخلق فقد ألحد^(٣) ، ومن نعت الخلق بما هو من خصائص حق الحق فقد جحد .
قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لِمَ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ
يَنْصُرُونَ ﴾

من حكم بأنه ليس في مقدور الحق شيء (لو فعله اسم الجاهل طوعاً إلا فعله^(٣)) فقد

(١) (الرد) هو العطاء .

(٢) وردت (الود) وهي خطأ في النسخ

(٣) ما بين القوسين جاء في النسخة المصورة هكذا ، وفيه غموض ربما نشأ عن خطأ في النسخ .

وصف بأنه لا يقدر على نصره فمضاه الذي يعبد الجداد ، ونعوذ بالله من الضلالة عن الرشاد .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدْعَوْتُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴾ .

المعبود هو القادر على هداية داعيه ، وعلم العبد بقدرته معبوده يوجب تبرّيه عن حوله وقوته ، وإفراد الحق — سبحانه — بالقدرة على قضاء حاجته ، وإزالة ضرورته فتقتصر عن قصد الخلق خطأ^(١) ، وتنقطع آماله عن غير مولاه .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أُمْنَاكُمْ ، فادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

إذا قرئت الضرورة بالضرورة تضاعف البلاء ، وترادف العناء ؛ فالخلق إذا استعان بمخلوق مثله ازداد بعدد مراده من النجس . وكيف تشكو لمن هو ذو شكاية ؟ هيات ١ إن ذلك خطأ من الظن ، وباطل من الحسبان .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ أَرْجُلْ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَمْ أَيْدٍ يَبِطُّشُونَ بِهَا أَمْ لَمْ أَعِينُ يُبْصِرُونَ بِهَا ، أَمْ لَمْ آذَنْ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ .

بين هذه الآيات أن الأصنام التي عبدوها دونهم فيها اعتقدوا فيه صفة المدح ، ثم لم يعبد بعضهم بعضاً فكيف استجازوا عبادة ما فاقهم^(٢) في النقص ؟

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ ﴾ .

(١) وردت (خطأؤه) والصواب أن تكون (خطأه)

(٢) وردت (فونهم) والأرجح أنها ما (فاقهم) في النقص لأن الأصنام أقل قدراً من الإنسان ، حيث لا تملك يداً أو عيناً أو أذناً ، ولا تمشي ولا تقبل ولا تضر ولا تنفع ، فإذا كان الإنسان مع ذلك موصوفاً بالنقص فالصنم أشد نقصاً .

صدق التوكل على الله يوجب ترك اللبالة بغير الله ، كيف لا .. والمتفرّد بالقدره —
على النفع والضرر ، والخير والشر — الله ؟

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ

وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ والذين تدعون

من دونه لا يستطيعون نصرَكم

وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾

مَنْ قَامَ بِحَقِّ اللَّهِ تَوَلَّى أُمُورَهُ عَلَى وَجْهِ الكَفَايَةِ ، فلا يخرجُه إلى أمثاله ، ولا يدَعُ شيئاً من أحواله إلاَّ أجراه على ما يريدُه بِحُسْنِ أفضاله ، فإن لم يفعل ما يريدُه جعل العبدَ راضياً بما يفعل ، وروحُ الرضا على الأسرار أتمُّ من راحة العطاء على القلوب

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى

لَا يَسْمَعُوا ، وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ

وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾

شاهدوه بأبصارهم لكنهم حُجِبُوا عن رؤيته ببصائر أسرارهم وقلوبهم فلم يُعْتَدَ برؤيتهم .

ويقال رؤية الأكبر ليست بشهود أشخاصهم ، لكن بما يحصل للقلوب من مكاشفات الغيب ، وذلك على مقادير الاحترام وحصول الإيمان .

قوله جل ذكره : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ

عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾

من خصائص سُنَّةِ اللَّهِ في الكرم أنه أمر نبيّه — صلوات الله عليه وعلى آله — بالأخذ به ، إذ الخير وَرَدَ بأنَّ المؤمن أخذ من الله خُلُقاً حسناً . وكلما كان الجرمُ أكبرَ كان العفو عنه أجَلَ وأكمل ، وعلى قَدْرِ عِظَمِ رتبة العبد في الكرم يتوقف العفو

عن الأصغر والخادم ، قال النبي صلى الله عليه وسلم في الجراحات ^(١) التي أصابته في حرب أحد :
« اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » .

قوله « وَأُمِرُ بِالْعُرْفِ » : أفضل العرف أن يكون أكل العطاء لأكثر أهل الجفاء ،
وبذلك عامل الرسول - صلى الله عليه وعلى آله - الناس .

قوله : « وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » : الإعراض عن الأغيار بالإقبال على من ^(٢)
لم يزل ولا يزال ، وفي ذلك النجاة من الحجاب ، والتحقق بما يتقاصر عن شرحه
الخطاب :

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ
تَزْغٍ ، فاستَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ ﴾

إن سَنَحَ في باطنك من الوماس أثرٌ فاستعِذْ بالله يدركك بحسن التوفيق ، وإن
هَجَسَ في صدرك من المخطوط خاطر فاستعِذْ بالله يدركك بإزالة كل نصيب ، وإن
كَيْحَنَكَ في بذل الجهد فَتَرَةً فاستعِذْ بالله يدركك بإدامة آلائه ، وإن اعْتَرَتْكَ في الترقى
إلى محل الوصول وقفة فاستعِذْ بالله يدركك بإدامة التحقيق ، وإن تقاصر عنك شيء
من خصائص القرب — صيانة لك عن شهود المحل — فاستعِذْ بالله يُشِينِكَ له بدلاً
مِنْ لَكَ بِكَ ^(٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ
طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا
هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾

إنما يمس المتقين طيفُ الشيطان في ساعته غفلتهم عن ذكر الله ، ولو أنهم استداموا

(١) وردت (الجراحات) بالهاء وهي خطأ في النسخ

(٢) وردت (ما لم يزل) وقد آثرنا (من لم يزل) لأن (من) للعامل

(٣) تصلح هذه الفقرة وصية للمريد ، وتبين عن أسلوب القشيري في الوصية من الناحيتين
الصوفية والأدبية .

ذكر الله بقلوبهم لما مسهم طائف الشيطان ، فإن الشيطان لا يقرب قلباً في حال شهوده الله ؛ لأنه ينخنس عند ذلك . ولكن لكل صام نبوة ، ولكل عالم هفوة ، ولكل عابد شدة ، ولكل قاصد قرة ، ولكل سائر وقفة ، ولكل عارف حجة ، قال صلى الله عليه وسلم : « إنه ليغان على قلبي »^(١) أخبر أنه يعتريه ما يعتري غيره ، وقال صلى الله عليه وسلم : « الحدة تعتري خيار أمتي »^(٢) ، فأخبر أن خيار الأمة — وإن جلت رتبته — لا يتخلصون عن حدة تعتريهم في بعض أحوالهم ، فتخرجهم عن دوام الحلم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَىٰ ثُمَّ لَا يُفَصِّرُونَ ﴾

إخوان الشيطان أرباب دوام الغيبة ؛ فهم في كمال الغفلة تدوم بهم الحجة ؛ فهم بالزلة من لم يعلم ، أو ألم ولكن لم يصير فهم خياره^(٣) ، ومنهم من غفل واغتر ، وعلى دوام الغيبة أصر — فهم المحبوبون قطعاً ، والتبعدون^(٤) — من محل القرب — صدأ^(٥) ورداً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْنِهِمْ بآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْنَاهَا ، قُلْ إِنَّمَا اتَّبِع مَا يُوحَىٰ إِلَىٰ مِنْ رَبِّي ، هَذَا بَصَائِرُ مِنْ

(١) « إنه ليغان على قلبي فاستغفر الله وأنوب إليه في اليوم مائة مرة » أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي ، وفي رواية لمسلم : « توبوا إلى ربكم فوالله إنى لأنوب إلى ربي تبارك وتعالى في اليوم مائة مرة »

ويقول صاحب اللع : الذين الذين كان يتوب عنه الرسول مثله مثل المرأة إذا تنفس فيها الناظر فينفس من ضوئها ثم تعود إلى حالة ضوئها (العصص ص ١٥١) .

(٢) قال (ص) (أني بشر أغضب كما يغضب البشر) الشيخان عن أبي هريرة وأحمد ومسلم عن جابر

(٣) من هذا يتضح مدى انقراح الأمل أمام المصيبة ، وكيف أن باب التوبة يتسع لآمالهم .

(٤) وردت المعبودون وهي خطأ في النسخ

(٥) وردت (صمد) وهي خطأ في النسخ وقد تقدم معنى الصمد والرد

رَبُّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾

مَنْ شَهِدَ الْحَقَّ مِنْ حَيْثُ الْخَلْقُ سَقَطَ فِي مَهْوَاةٍ لِلْغَالِيطِ ، فَهُوَ فِي مَتَاعَاتِ الشُّكِّ يُجِيبُ
مَنَازِلَ الرَّيْبِ ، وَلَا يَزْدَادُ إِلَّا عَمًى عَلَى عَمًى . وَمَنْ طَالَعَ الْخَلْقَ بِعَيْنِ تَصْرِيفِ الْقُدْرَةِ
إِيَّاهُمْ فَتَحَقَّقَ بِأَنَّهُمْ لَا يَظْهَرُونَ إِلَّا فِي مَرَضِ اخْتِيَارِ الْحَقِّ لَمْ ، فَهُوَ يَنْظُرُ بِنُورِ الْبَصِيرَةِ ،
وَيَسْتَدِيمُ شُهُودَ التَّصْرِيفِ بِوَصْفِ السَّكِينَةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ
وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

اسْتَمِعُوا بِسَمْعِ الْإِيمَانِ وَالتَّصَدِيقِ ، وَأَنْصِتُوا (بِصَوْنٍ) الْخَوَاطِرَ عَنْ مَعَاضَاتِ
الْإِعْتِرَاضِ ، وَمَطَالِبَاتِ الْاِسْتِكْشَافِ . وَمَنْ بَاشَرَ التَّحْقِيقَ سِرَّهُ لَازِمُ التَّصَدِيقِ قَلْبِيهِ .
وَالْإِنْصَاتِ — فِي الظَّاهِرِ — مِنْ آدَابِ أَهْلِ الْبَابِ ، وَالْإِنْصَاتِ — بِالسَّرَائِرِ —
مِنْ آدَابِ أَهْلِ الْبَسَاطَةِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي نَمَتِ تَوَاصِي الْجَنِّ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عِنْدَ شُهُودِ
الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا » (١) ؛ فَإِذَا كَانَ الْحُضُورُ إِلَى
الْوَاسِطَةِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُوْجِبُ هَذِهِ الْهَيْبَةَ فَلَزُومُ الْهَيْبَةِ وَحِفْظُ الْأَدَبِ عِنْدَ حُضُورِ الْقَلْبِ بِشُهُودِ
الرَّبِّ أَوْلَى وَأَحَقُّ ، قَالَ تَعَالَى : « وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا » (٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا
وَرُخِيَّةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ
وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ
الْغَافِلِينَ ﴾ (٣) .

التَضَرُّعُ إِذَا كُوْشِفَ الْعَبْدُ بِوَصْفِ الْجَمَالِ فِي أَوَانِ الْبَسْطِ ، وَالرُّخِيَّةُ إِذَا كُوْشِفَ بِنَمَتِ
الْجَلَالِ فِي أَحْوَالِ الْهَيْبَةِ ، وَهَذَا لِلْأَكْبَرِ .

(١) آية ٢٩ سورة الأحقاف .

(٢) آية ١٠٨ سورة طه .

(٣) أخطأ الناسخ اذ كتبها (الغافلون)

قوله جل ذكره : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ .

أى أجيئوا لأمر الله ، ولا تطيعوا ذواي منكم والحكم بمقتضى أحوالكم ، وابتغوا إينار رضا الحق على مراد النفس ، وأصلحوا ذات بينكم ، وذلك بالاسلاخ عن شح النفس ، وإينار حق الغير على مآلكم من النصيب والحفظ ، وتنقية القلوب عن خفايا الحسد والحقد .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ :

أى فى الإجابة إلى ما يأتىكم من الإرشاد .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

أى سبيل المؤمنين ألا يخالف هذه الجملة .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّا لِلْمُؤْمِنِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ

وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ

آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ

يَتَوَكَّلُونَ ﴾ .

الوجل شدة الخوف ، ومعناه ما هنا أن يخرجهم الوجل عن أوطان الغفلة ، ويرمجهم عن مساكن الغيبة . فإذا انفصلوا عن أودية التفرقة وظهروا إلى مشاهد الذكر نالوا السكون إلى الله — عز وجل ؛ فيزيدهم ما يتلى عليهم من آياته تصديقاً على تصديق ، وتحقيقاً على تحقيق . فإذا طالعوا جلال قدره ، وأيقنوا قصورهم عن إدراكه ، توكلوا عليه فى إمدادهم بالرعاية فى نهايتهم ، كما استخلصهم بالناية فى بدايتهم .

ويقال سنة الحق — سبحانه — مع أهل العرفان أن يردد دم بين كشف جلال ولطف جمال ، فإذا كشفهم بجلاله وجلت قلوبهم ، (وإذا لاطفهم بجماله سكنت قلوبهم ، قال الله تعالى : « وَلَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ » . ويقال وجلت قلوبهم ^(١) بخوف فراقه ، ثم تطمئن وتسكن أسرارهم بروح وصاله . وذكر الفراق يفنيهم وذكر الوصال يضحىهم ويحييهم .

(١) ما بين القوسين مذكور فى الهامش أثبتناه فى موضعه من النص حسب العلامة المبيزة .

ويقال الطالبون في نوح دهبهم ، والواصلون في روح قربهم ، والموحدون في محو غيبتهم ؛ استولت عليهم الحقائق فلا لم تطلع لوقت مستأنف فيستفهم خوف أو يحرفهم طمع ، ولا لم إحساس فتَمَلِكُهُمْ لَذَّةٌ ؛ إِذْ لَمْ^(١) اضْطَلُّوا ببواديه ما ملكهم فَمَهُمْ عنهم محو ، والغالبُ عليهم سواهم .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ يقيمُونَ الصلاةَ وِمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ أولئك هم المؤمنون حَقًّا
لَمْ درجاتٌ عند ربهم ومغفرةٌ
ورزقٌ كريمٌ ﴿

لا يرضون في أعمالهم بإخلال ، ولا يتصفون بجمع مال من غير حلال ، ولا يُعرجون في أوطان التقصير بحال ، أولئك الذين صحتهم ألا يكون للشرية عليهم نكير ، ولا لم عن أحكام الحقيقة مقبل .

« فهم المؤمنون حقا » أي حققوا حقا وصدقوا صدقا . ويقال حق لم ذلك حقا .
قوله : « لَمْ دَرَجَاتٌ عند ربهم » على حسب ما أهَّلَهُمْ له من الرُّتَبِ ؛ فَيَسَابِقُ رِقْسَتِهِ لم استوجبوها ، ثم بصادقٍ يخدمُهُمْ — حين وفَّقَهُمْ لها — بلغوها .
ولم مغفرة في المال ، والسُّرُّ في الحال لأكبرهم ؛ فالمغفرة السر ، والحق سبحانه يستر
منايِبَ العاصين ولا يفضحهم لئلا يجبروا عن مأمول أفضالهم ، ويستتر مناقب العارفين عليهم
لئلا يُعْجَبُوا بأعمالهم وأحوالهم ، وفرَّقُ بين سُرٍّ وسُتْرٍ ، وشَتَانِ ما هما ؛
وأما الرزق الكريم فيحتمل أنه الذي يعطيه من حيث لا يحتسب ، ويحتمل أنه الذي لا ينقص بإجرامهم ، ويحتمل أنه مالا يشغلهم بوجوده عن شهود الرزاق ، ويحتمل أنه رزق الأسرار بما يكون استقلالها به من المكاشفات .

قوله جل ذكره : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾

(١) وردت (لم) والبيان يقتضي (لما) .

بَيِّنَ — سبحانه — أن الجدالَ منهم عادةٌ وسَّحِيَّةٌ ، ففي كل شيء لم جدال واختيار ؛ فكَرُّهُوا خروجه إلى بدرٍ ، كما جادلوا في حديث الغنيمة ، قال تعالى : « يسألونك عن الأنفال » وما يكون من خصال العبد غير متكرر ويكون على وجه الندرة كان أقرب إلى الصفع عنه والتجاوز ، فأما إذا صار ذلك عادةً فهو أصعب .

ويقال ما لم تبأثر خلاصة الإيمان القلب لا يوجد كمال التسليم وترك الاختيار ، وما دام يتحرك من العبد عرق في الاختيار فهو بعيد عن راحة الإيمان .

ولقد أجرى الله سنته مع أوليائه ، وكذلك كانت سنته مع أنبيائه ألا يفتح لهم كمال النفع إلا بعد مفارقة مألوفات الأوطان ، والتجرد عن مساكنة مافيه^(١) حظ ونصيب من كل معهود ويقال إن في هجرة الأنبياء — عليهم السلام — عن أوطانهم أماناً لهم من عادة الأعدى ، وإحياء لقلوب قوم تقاصرت أقدامهم عن المسير^(٢) إليهم .

وكذلك هجرة الأولياء من خواصه ؛ فيها لم خلاص من البلياء ، واستخلاص للكثيرين من البلياء .

قوله جل ذكره : ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾

جحود الحق بعد وضوح برهانه علم^(٣) لاستكبار صاحبه ، وهو — في الحال — في وحشة غيبه ، مُعَاقَبٌ بِالْصَّدِّ وَتَنْغِصُ الْعَيْشِ ، يَمَلُّ حَيَاتَهُ وَيَتَمَنَّى وَفَاتَهُ ؛ « كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ »

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَآ لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّكَّةِ كُونَ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنِ

(١) وردت (ما لم فيه) وربما كانت (ما لم فيه)

(٢) وردت (المصير) والصحيح (مسير) الذين لم تنح لهم فرصة الانتقال إلى أماكن الأنبياء .

(٣) ضبطنا (علم) هكذا لكن تؤدي معنى (علامة) على الاستكبار ، فهكذا يتطلب السياق .

يُحَقِّقُ الْحَقُّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعُ دَائِرَ
الْكَافِرِينَ *

التعريضُ في أوطان الكسل ، ومساكنة مألوفات الراحة من خصائص أحكام النفس .
فهي بطبعها تؤثر في كل حال نصيبها ، وتمجّل لذّة حفظها . ولا يصل أحدٌ إلى جلائل النعم
إلا بتجرّع كاسات الشدائد ، والأسلّاح عن مهبوبات النصيب . « ويريد الله أن يُحَقِّقَ الحق
بكلماته » أي إذا أراد الله — سبحانه — تخصيصَ عبدٍ بولايته قضى على طوارق نفسه بالأفول ،
وحكم لبعض شهواته بالذبول ، وإلى طوابع الحقائق بإشراقها ، ولجوامع اللوانع باستحقاقها .
قوله جل ذكره : ﴿ لِيُحَقِّقَ الْحَقُّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ
وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾

ليحق الحق بالتوفيق فيما يحصل ببذل الجهود ، والتحقيق لما يظهر من عين الجود .
ويقال ليُحَقِّقَ الحق بنشر أعلام الوصل ، ويُبْطِلَ الباطل بقهر أقسام الهزل .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ
أَنِّي مُبْدِئُكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ
مُرْدِفِينَ ﴾ وما جعله الله إلا بُشْرَى
ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من
عند الله إن الله عزيز حكيم *

الاستغاثة على حسب شهود الفاقة وعدم المنة والطاقة ، والتحقيق بانفراد الحق بالقدرة على
إزالة الشكّة تيسيرٌ للمستول وتحقيقٌ للأمول . فإذا صدقت الاستغاثة بتعجّل الإجابة
حَصَلَتْ الأمالُ وقُضِيَتْ الحاجة . . . بذلك جَرَتْ سُنَنُهُ الْكَرِيمَةُ .

ويقال بَشَرَمَ بالإمداد بالملك ، ثم رقام عن هذه الحالة بإشهادهم أن الإنجاز من الملك ،
ولم يذَرهم في المساكنة إلى الإمداد بالملك فقال : « وما النصر إلا من عند الله » ثم قال :
« إن الله عزيز » فالنجاة من البلاء حاصلة ، وفنون الإنجاز والإمداد بالطاقة متواصلة ،
والدعوات مسموعة ، والإجابة غير ممنوعة ، وزوائد الإحسان متّاحة ، ولكن الله عزيز

الطالبُ واجدٌ ولكن بعطائه ، والراغب واصل ولكن إلى مباره . والسبيلُ سهلٌ
ولكن إلى وجدان لطفه ، فأما الحقُّ فهو عزيز وراء كل وصل وفصل ، وقُربٍ وبعُد ،
وما وُصلَ أحدٌ إلا إلى نصيبه ، وما بقى أحدٌ إلا عن حظه ، وفي معناه أنشدوا :

وَقُلْنَا لَنَا فَحَنَ الْأَهْلُةُ إِنَّما نَضَىءَ لِمَن يَسْرِى بَلِيلٍ وَلَا تُقَرِّى
فَلَا بَدَلٌ إِلَّا مَا تَزُودُ نَاطِرٌ وَلَا وَصَلٌ إِلَّا بِالْجِالِ الذِّى يَسْرِى

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ يَفْشِكُمُ النَّعَاسُ أَمْنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ
عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُمْ بِهِ
وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ
وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ ﴾

فَشِيَهُمُ النَّعَاسُ تلك الليلة فأزال عن ظواهرهم (١) ونفوسهم كدَّ الأغيار والكلال ،
وأُنزل على قلوبهم رَوْحَ الأَمْنِ ، وأمطرت السماء فَاغْتَسَلُوا بعدما لَزِمَتْهُمْ الطهارة الكبرى بسبب
الاحتلام ، واشتدت الأرض بالمطر فلم ترمس الأقدام في رَمَلِهَا ، وانتفى عن قلوبهم ما كانت
الشياطين توسوس به إليهم أنه سيصيبهم العناء بسلوك رَمَلِهَا وبالانتفاء عن الخُسل ، فلما
(. . .) (٢) الإحساس ، واستمكن منهم النَّعَاسُ ، وتداركتهم الكفاية والنصرة
استيقنوا بأن الإمامة من قبل الله لا يسكونهم وحركتهم ، وأشهدهم صرف التأييد
وإمام الكفاية

وكما طَهَّرَ ظواهرهم بماء السماء طَهَّرَ سرائرهم بماء التحقيق عن شهود كلِّ غير وكلِّ عِلَّة ،
وصان أسرارهم عن الإصغاء إلى الوسوس ، وربط على قلوبهم بشهودهم جريان التقدير على
حسب ما يجري الحقُّ من فنون التصريف .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيُنَبِّتُ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ .

(١) وردت (زواهرم) والصواب أن تكون (ظواهرم) لتلاءم مع (نفوسهم)

(٢) مشتبه وربما كانت (زایلهم)

أقدام الظاهر في مشاهد القتال ، وأقدام السرائر على هيج الاستقامة بشهود
مجارى التقدير .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي
مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا ^(١) الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلَنِي
فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ ﴾ .

عرّفنا أن الملائكة محتاجون إلى تعريف الحق إياهم قضايا التوحيد . وتثبيت الملائكة
للمؤمنين : قيل كانوا يظهرون للمسلمين في صور الرجال يخاطبونهم بالإخبار عن قلة عدد
المشركين واستيلاء المسلمين عليهم ، وهم لا يعرفون أنهم ملائكة .

وقيل تثبتهم إياهم بأن كانوا يلتقون في قلوبهم ذلك من جهة الخواطر ، ثم إن الله يخلق لهم
فيها ذلك ، فكما يوصل الحق سبحانه — وساوس الشيطان إلى القلوب يوصل خواطر الملك ،
وأيدّهم بإلقاء الخوف والرعب في قلوب الكفار .

قوله جل ذكره : ﴿ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا
مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ ذلك بأنهم شاقوا
الله ورسوله .

وذلك بأمر الله وتعريفه من جهة الوحي والكتاب ، ويكون معناه إباحة ضربهم ونيلهم
على أى وجه كان كيفما أصابوا أسافلهم وأعاليمهم . ويحتمل فاضربوا فوق الأعناق ضرباً
يوجب قتلهم ؛ لأنه لا حياة بعد ضرب العنق ، ولفظ فوق يكون صلة .

« واضربوا منهم كل بنان » أى ضرباً يعجزهم عن الضرب ومقاتلة المسلمين ؛ لأنه
لامقاتلة تحصل بعد فوات الأطراف .

« ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله » بين أنهم في مغالطة حسابهم وأكاذيب ظنونهم .
والمنشئ — بكل وجه — الله ؛ لانفراده بقدرة الإيجاد

(١) أخطأ الناسخ فسكتها (ثبت)

قوله جل ذكره : ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ .

يُمَثِّلُ الْمَجْرِمَ^(١) أَيْ مَا تَمَّ لَا يَهْمِلُهُ ، بَلْ يَنْدِيْقُهُ بِأَمْسٍ فِعْلُهُ ، وَيَزِيلُ عَنْهُ شُبُهَةً ظَنُّهُ

قوله جل ذكره : ﴿ذَلِكَ فَدَوْقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾^(٢) . .

ذَلِكَ الْعَذَابُ فَدَوْقُوهُ — أَيْهَا لِلشَّرْكَوْنَ — مُعْجَلًا ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْكَافِرِينَ عَذَابًا مُؤَجَّلًا ، فَلِلْعَاصِينَ عِقَابَانِ مُحْصَلٌ بِنَقْدٍ وَمُؤَخَّرٌ بَوَعْدٍ .

قوله جل ذكره : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا^(٣) إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ * وَمَنْ يُولَّهُمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ .

يَقُولُ إِذَا لَقِيتُمُ الْكَفَرَاءَ فِي الْمِرْكَةِ زَحَفًا بِجَتَمِينَ فَاتَّبِعُوا لِقَتَالَهُمْ ، وَلَا تَهْزِمُوا فَالشَّجَاعَةُ ثَبَاتُ الْقُلُوبِ ، وَكَأَمَّا قَبْلُ الشَّجَاعَةِ صَبْرٌ عَلَى الطَّاعَةِ وَفِي الْجِهَادِ مَعَ الْعَدُوِّ ، فَالْوَاجِبُ الثَّبَاتُ عِنْدَ الصُّوْلَةِ — هَذَا فِي الظَّاهِرِ ، وَفِي الْبَاطِنِ جِهَادٌ مَعَ الشَّيْطَانِ ، وَالْوَاجِبُ فِيهِ الْوُقُوفُ عَنْ دَوَاعِيهِ إِلَى الزَّكَاةِ ، فَبَيْنَ وَقْفٍ عَلَى حَدِّ الْإِمْسَاكِ عَنْ إِيَابَتِهِ ، بَلَا إِنْجَازٍ لِمَا يَدْعُوهُ بَوَسَاوِسِهِ فَقَدْ وَفَّى الْجِهَادَ حَقَّهُ .

وَكَذَلِكَ فِي مَجَاهِدَةِ النَّفْسِ ، فَإِذَا وَقَفَ الْعَبْدُ عَنْ إِيَابَةِ النَّفْسِ فِيهَا تَدْعُوهُ بِهَوَاجِسِهَا ،

(١) وَرَدَتْ (الْمَجْرِم) بِالْخَاءِ وَهِيَ خَطَأٌ فِي النَّسْخِ

(٢) أَخْطَأَ النَّاسِخُ إِذْ جَعَلَهَا (عَذَابًا أَلِيمًا) .

(٣) سَقَطَتْ (آمَنُوا) مِنَ النَّاسِخِ فَأَثْبَتَاهَا

ولم يُطع^(١) شهوته فيما تحمله النفس عليه من البلاء إلى ابتغاء حفظه فقد وفى الجهاد حقّه .

والإشارة في قوله : « إلا متحرّفاً لقتال » بإيثار بعض الرخص ليتقوى على ما هو أشد ؛ كما كُله مثلاً ما يُقيم صُلبه ليقوى على السهر ، وكترقه بنفسه بإيثار بعض الراحة من إزالة عطش ، أو نقي مقاساة جوع أو برد أو غيره لتلا يبقى عن مراعاة قلبه ، ولاستدامة اتصال قلبه به ، فإن ترك بعض أوراذا الظاهر لتلا يبقى به عن الاستقامة في أحكام واردات السرائر أخذ في حقّ الجهاد بحزم .

والإشارة في قوله : « أو متحيزاً إلى فئة » إلى اعتضاد المريد بصحبة أقرانه فيما يساعدونه في المجاهدة ، ويُبقي شهود ما هم فيه من المكابدة من إقامته على مجاهدته . ثم باستمداده من هم الشيوخ ؛ فإن المريد ريبٌ همةً شبعه ، فالأقوياء من الأتقياء ينفقون على خدامهم من نعمهم ، والأصفياء من الأولياء ينفقون على مريدتهم من هممهم ؛ يجبرون^(٢) كسرهم ، ويتوبون منهم ، ويساعدونهم بحسن إرشادهم . ومن أهل مريداً وهو يعرف صدقه ، أو خالف شيخاً وهو يعرف فضله وحقّه فقد بآء من الله بسخط ، والله تعالى حسيبه في مكافأته على ما حصل من قبيح وصفه .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾

الذى نقي عنهم من القتل هو إمامة الروح وإثبات الموت ، وهو من خصائص قدرته — سبحانه ، والذى يوصف به الخلق من القتل هو ما يفعلونه في أنفسهم ، ويحصل ذهاب الروح عقبيه .

وقائدة الآية قطع دعاوهم في قول كل واحد على جهة التناخر قتلت فلاناً ، فقال : « فلم تقتلوه » أى لم تكن أفعالكم مما افتردتم بإيجادها بل المنشأ والمبدى^(٣) هو الله عز وجل . وصانهم بهذه الآية وصان نبيه — عليه السلام — عن ملاحظة أفعالهم وأحوالهم .

(١) وردت (لم يطع) وهى خطأ فى النسخ

(٢) وردت (يجبرون) والناسب لكسر (يجبرون)

(٣) وردت (المهدى) بالهاء وقد جعلناها (المبدى) لأن الكلام متجه إلى الإنشاء والإيجاد والإبداع والخلق .

وكذلك قال جل ذكره : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ

رَمَى ﴾

أى ما رَمَيْتَ بنفسك ولكنك رميت بنا ، فكان منه (صلوات الله عليه) ^(١) قبضُ التراب وإرساله من يده ولكن من حيث الكسب ، وكَسَبُهُ مُوجَدٌ من الله بقدرته ، وكان التبليغ والإصابة من قِبَلِ الله خَلْقًا وإبداعًا ، وليس الذى أثبت ما نقي ولا نقي ما أثبت إلا هو ، والفعلُ فَعَلُ واحدٍ ولكن التغاير في جهة الفعل لا في عينه .

فقوله : « إذرمت » فرقٌ ، وقوله : « ولكن الله رمى » جمع . والفرق صفة العبودية ، والجمع نعت الربوبية ، وكلُّ فرقٍ لم يكن مُضْمِنًا بجمعٍ وكلُّ جمعٍ لم يكن — في صفة العبد — مُؤَيِّدًا بفرق فصاحبه غير شديد الوتيرة .

وإن الحق — سبحانه — يَكِلُ الأغيار إلى ظنونهم ، فينهبون في أودية الحساب ، ويتوهمون أنهم منفردون بإجراء ما منهم ، وذلك منه مكرٌ بهم .

قال الله تعالى : « وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً » ^(٢) وأما أرباب التوحيد فيُشهِدُهم مطالع التقدير ، ويعرفهم جريان الحكم ، ويُرِيهِم أنْفُسَهُمْ في أسر التصريف ، وقهر الحكم . وأما الخواص من الأولياء وأصحاب العرفان فيُجَرِّى عليهم ما يُجَرِّى و (ما) ^(٣) لهم إحساس بذلك ، مأخوذون يثبتهم بشواهد النظر والتقدير ، ويتولى حفظهم عن مخالفة الشرع .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا ﴾

البلاء الاختبار ^(٤) ، فيختبرهم مرة ^(٥) بالنم ليظهر شكرهم أو كفرانهم ، ويختبرهم أخرى بالمحن ليظهر صبرهم ، أو ذِكْرَهُم أو لسانهم .

(١) أضفنا (صلوات الله عليه) ليتضح اتجاه المعنى .

(٢) آية ١٠٤ سورة الكهف .

(٣) سقطت (ما) من النسخ والمعنى يتطلبها إذ لا إحساس لهم بما يجري عليهم من حكم وتصريف .

(٤) وردت (الاختبار) بالياء وهي خطأ في النسخ .

(٥) وردت (مر) بدون تاء مربوطة والصواب أن تكون بها .

« البلاء الحسن » : توفيق الشكر في المنحة ، وتحقيق الصبر في المحنة ، وكل ما يفعله الحق فهو حسن من الحق لأن له أن يفعله . وهذه حقيقة الحسن : وهو ما للفاعل أن يفعله ^(١) ويقال حسن البلاء لأنه منه و (. . .) ^(٢) البلاء لأنه فيه .

ويقال البلاء الحسن أن تشهد المبلي في عين البلاء .

ويقال البلاء الحسن ما لا دعوى لصاحبه إن كان نعمة ، ولا شكوى إن كان محنة .

ويقال البلاء الحسن ما ليس فيه ضجر إن كان عسراً ، ولا بطر إن كان يسراً .

ويقال بلاء كل أحد على حسب حاله ومقامه ، فأصفاهم ولأء أوفاهم بلاء ، قال عليه السلام : « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمتل فالأمتل » ^(٣)

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

تنفيس لقوم وتهديد لقوم ، أصحاب الرفق يقول لهم إن الله « سميع » لأئنيكم ، فبروح عليهم بهذا وقتهم ، ويحمل عنهم ولاءهم ^(٤) ، وأشدوا :

إذا ما تمنى الناس روحاً وراحةً تمنيت أن أشكو إليك فتسمعاً

وقالوا :

قل لي بالسنة التنفس كيف أنت وكيف حالك ؟

وأما الأكابر فلا يؤذن لهم في التنفس ، وتكون للطالبة متوجهة عليهم بالصبر ، والوقوف تحت جريان التقدير من غير إظهار ولا شكوى ، فيقول : لو ترشح منك ما كُلفت بشرية توجّهت عليك الملامة ، فإن لم يكن منك بيان فأنت سميع لقالتك ، عليهم بحالتك .

(١) لاحظ الفرق بين (وهو ما للفاعل أن يفعله) في مسألة الحسن فقد جعل فعل الحسن حقا لله وبين (عليه أن يفعله) عند المعزلة إذ جعلوه واجبا عليه .

(٢) مشتبه .

(٣) رواه الترمذی ، وقال حسن صحيح ، وابن ماجه ، والحاكم من سعد بن أبي وقاص . والإمام أحمد والنسائي وابن ماجه والباري من حديث عاصم . والطبراني من حديث قاطمة .

(٤) ربما كانت في الأصل (بلاءهم) فذلك يناسب التنفيس والترويح والرفق .

ويقال في قوله « عليهم » تسلية لأرباب البلاء ؛ لأن من علم أن مقصوده يعلم حاله سهل عليه ما يقاسيه فيه ، قال — سبحانه — لنبيه صلى الله عليه وسلم : « ولقد علم أنك يضيق صدرك بما يقولون » (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كِيدِ الْكَافِرِينَ ﴾ .

موهن كيدهم : بتقوية قلوب المؤمنين بنور اليقين ، والثبات على انتظار الفضل من قبل الله ، وموهن كيدهم : بأن يأخذ الكافرين من حيث لا يشعرون ، ويظفر جند المسلمين عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ﴾ .

قال المشركون — يوم بدر — اللهم انصر أحب الفئتين إليك ، فاستجاب دعاءهم ونصر أحب الفئتين إليه . وهم المسلمون ، فسألوا بالستهم هلاك أنفسهم ، وذلك لأنهم رام في مغالطة ما يعلقون من ظنونهم ، فهم توهموا استحقاق القرية ، وكانوا في عين الفرقة وحكم الشقوة ، موسومين باستيجاب اللعنة بدعائهم ، والوقوع في شقائهم ؛ فباختيارهم مئوا ببوارهم . ويقال ظنوا أنهم من أهل الرحمة فزّلوا ، فلما كشف السرّ خابوا وذّلوا ، فنند ذلك علموا أنهم زاغوا في ظنهم وضلوا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ تَنْتَهُوا فهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ (٢) .

فيغفر لكم ما قد سلف من خلاف محمد صلى الله عليه وسلم .

« فهو خير لكم » ليس المراد منه المبالغة ؛ لأنه يقال هذا خير لك من هذا إذا كان الثاني ليس فيه شر ، وترك موافقتهم للرسول صلى الله عليه وسلم — بكل وجه — هو شرّ لهم ، ولكنه أراد به في الأحوال الدنيوية ، وعلى موجب ظنهم .

(١) آية ٩٧ سورة الحج .

(٢) أخطأ الناسخ في كتابة الآية إذ جاءت هكذا « وَإِنْ تَنْتَهُوا يَغْفِرْ لَكُمْ » .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَنَا ﴾ .

يعنى إنَّ عُدُّتُمْ إِلَى الْجَمِيلِ مِنَ السَّيْرَةِ عُدُّنَا عَلَيْكُمْ بِجَمِيلِ الْمِنَّةِ ، وَإِنْ عَاوَدْتُمْ الْإِقْدَامَ عَلَى الشَّرِّ أَعَدُّنَا عَلَيْكُمْ مَا أَذَقْنَاكُمْ مِنَ الضَّرِّ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

مَنْ غَلَبَتْهُ قُدْرَةُ الْأَحَدِ لَمْ تَغْنِ عَنْهُ كَثْرَةُ الْعَدَدِ .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ .

النَّاسُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ عَلَى أَقْسَامٍ : فَطِيعٌ لُطُوفٍ عَقُوبِيَّةٍ ، وَمَطِيعٌ طِمَعًا فِي مَثُوبَتِهِ ، وَآخَرُ تَشْرِفًا بِرَبُوبِيَّتِهِ .
وَكَمْ بَيْنَ مَطِيعٍ وَمَطِيعٍ ! وَأَنْشُدُوا :

أَحْبَبْتُ يَا شَمْسَ النَّهَارِ وَبَدْرَهُ وَإِنْ لَامَنِي فِيكَ الشُّبُهَاتُ وَالْفِرَاقُ
وَذَاكَ لِأَنَّ الْفَضْلَ عِنْدَكَ زَاخِرٌ وَذَاكَ لِأَنَّ الْعَيْشَ عِنْدَكَ بَارِدٌ

قَالَ تَعَالَى : « أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ » وَلَمْ يَقُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، وَفِي ذَلِكَ نَوْعٌ تَخْصِصٌ ، وَحِزْبٌ تَفْضِيلٌ يَلْطَفُ عَنِ الْمُبَارَاةِ وَيَبْعُدُ عَنِ الْإِشَارَةِ (١)

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾

أَيُّ تَسْمَعُونَ دَعَاءَهُ إِيَّاكُمْ ، وَتَسْمَعُونَ مَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مِنْ دَعَائِي إِيَّاكُمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ .

لَا تَكُونُوا مِمَّنْ يَشْهَدُ جَهْرًا ، وَيَجْحَدُ سِرًّا .

(١) هذا من المواضع التي يشعر فيها القارئ أن التفسيرى يريد أن يقول شيئاً ولكنه يتركه لفظته القارئ يستشف ما وراء السطور .

(٢) أخطأ الناسخ فكتبها (ولو تولوا) .

ويقال لا تُقرُّوا بلسانكم ، وتصرُّوا على كفرانكم .
ويقال مَنْ نطق بتلييسه تشهد الخبرة بتكذيبه .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ
الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ .

دواعي الحق بحسن البيان فاطقة ، وألسنة البرهان فيما ورد به التكليف صادقة ، وخواطر
الغيب بكشف ظلم الربِّ مفضحة ، وزواجر التحقيق عن متابعة التوهم للقلوب ملازمة .
فمن ضمَّ عن إدراك ماخوطف به سره ، وعيَّ عن شهود ما كوشف به قلبه ، وخرسَ
— عن إجابة ما أرشد إليه من حجة — فهمه وعقله فدُون دُتْبَةِ البهائم قدره ، وفوق
كل (. . .) (١) من حكم الله ذُّله وصغره .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْتَحَبَّهُمْ
وَلَوْ أَمَرْتَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ .
من أقصته سوابق القسمة لم تدَّنه لواحقُ الخدمة ، ومن عليه الله بنعت الشقوة حرمة
ما يوجب عفوّه .

ويقال لو كانوا في متناولات الرحمة لألبسهم صدارَ العصمة ، ولكن سبق بالحرمان
حكمهم ، فُخِّم بالضلالة أمرهم .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ
وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾ .

أجاب واستجاب بمعنى مثل أوقد واستوقد ، وقيل للاستجابة مزية وخصوصية (٢)
بأنها تكون طوعاً لا كرهاً ، وفرق بين من يجيب لخوفٍ أو طمع وبين من يستجيب
لا بعوضٍ ولا على ملاحظة غرضٍ . وحق الاستجابة أن نجيب بالكلية من غير أن نذر من
المستطاع بقية .

(١) مشبهة .

(٢) لاحظ كيف يتفق مذهب القشيري في المصطلح مع القاعدة اللغوية : زيادة المبنى فيها زيادة المعنى .

والمستجيبُ لربه محوٌّ عن كلِّه باستيلاء الحقيقة ، والمستجيب للرسول — صلى الله عليه وسلم وعلى آله — قائمٌ بشريعته من غير إخلال بشيء من أحكامها . وقد أمر الله سبحانه وتعالى بالاستجابة له — سبحانه ، وبلاستجابة للرسول ، فالعبدُ المستجيبُ — على الحقيقة — من قام بالله سرّاً ، واتصف بالشرع جهراً ، فيُفرد الحقُّ — سبحانه — بحقائق الجمع و (. . .)^(١) في مشاهدة الفرق ، فلا يكون للحدثان في مشرب حقائقه تكدير ، ولا لمطالبات الشرع على أحواله تكبير .

قوله جل ذكره : ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ .

إذْ لَمَّا أُنَام عَنْهُمْ أَحْيَا بِهِ .

ويقال العابدون أحياهم بطاعته بعد ما أُنَام عن مخالفته ، وأما العالميون فأحياهم بدلائل ربوبيته ، بعد ما أُنَام عن الجهل وظلمته . وأما المؤمنون فأحياهم بنور موافقته بعد ما أُنَام بسيف مجاهدتهم . وأما الموحّدون فأحياهم بنور توحيده بعد ما أُنَام عن الإحساس بكل غير ، والملاحظة لكل حدثان .

قوله جل ذكره : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾

يصون القلوب عن تقلب أربابها فيقلبها كما يشاء هو ، من بيان هداية وضلال ، وغيبة ووصال ، وحُبّة وقُرْبَة ، ويقين ومرية ، وأنس ووحشة .

ويقال صان قلوب العباد عن الجنوح إلى الكسل ، فجذبوا في معاملاتهم ، وصان قلوب المريدين عن التعرّيج في أوطان الفشل فصدقوا في منازلهم ، وصان قلوب العارفين — على حد الاستقامة — عن الميل فتحققوا بدوام مواصلاهم .

ويقال حال بينهم وبين قلوبهم لئلا يكون لهم رجوعٌ إلا إلى الله ، فإذا سَنَحَ لهم أمر فليس لهم إلى الأغيار سبيل ، ولا على قلوبهم تعويل . وكَمَ بين من يرجع عند سوانحه إلى قلبه وبين من لا يهتدي إلى شيء إلا إلى ربه ، كما قيل :

(١) مثبته ، ولكن حسبنا نعلم في مواضع سبقت أن المتصوّد أن الحق (يتولى) العبد أثناء الفرق الثاني . حيث يعود بالعبد الأخوذ ليقوم بفرائض الشرع ، حتى لا يكون في تحقّقه مقصراً في شيء من مطالبات الشريعة ، ولذا ترجح أن الكلمة الناقصة هي : (ولا يتركه) أو ما في معناها .

لا يهتدى قلبي إلى غيركم لأنه سُدَّ عليه الطريق
ويقال العلماء هم الذين وجدوا قلوبهم ، قال تعالى : «إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ» .
والعارفون هم الذين فقدوا قلوبهم .

قوله جل ذكره : ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ .

احذروا أن ترتكبوا زلةً توجب لكم عقوبة لا تخص مرتكبها ، بل يعم شؤمها من تعاطاها ومن لم يتعاطها .

وغير المحرم لا يؤخذ بجُرْم من أذنب ، ولكن قد ينفرد أحدٌ بجرم فيحمل أقوامٌ من المختصين بفاعل هذا الجرم ، كأن يتعصبوا له إذا أُخذَ بحكم ذلك الجرم فبعد أن لم يكونوا ظالمين يصيرون ظالمين بما وثقهم وتعصبهم لهذا الظالم ؛ فتكون فتنة لا تخص بمن كان ظالماً في الحال بل إنها تصيب أيضاً ظالماً في المستقبل بسبب تعصبه لهذا الظالم ومطابقته معه ، ورضاه به ، وهذا معنى التفسير من حيث الظاهر . فأما من جهة الإشارة : فإن العبد إذا باشر رلةً بنفسه عادت إلى القلب منها الفتنة وهي العقوبة للعجلة ، وتصيب النفس منها العقوبة المؤجلة ، والقلب إذا حصلت منه فتنة الزلة — عندما يعم بما لا يجوز — تعدت فتنته إلى السر وهي الحُجْبَةُ .

والمُقَدَّمُ في شأنه إذا فعل ما لا يجوز انقطعت البركات التي كانت تتمدى منه إلى مُتَتَبِعِيهِ وتلامذته ، وكان لهم نصيبهم من الفتنة وهم لم يعملوا ذنباً . ويقال إن الأكبر إذا سكتوا عن التنكير على الأصغر عند تركهم الأذكار أصابتهم فتنة ما فعلوه ؛ فلقد قيل إن السفينة^(١) إذا لم يَنْهَ مأمورٌ . فعلى هذا تصيب فتنة الزلة مرتكبها ومن ترك النهي عن المنكر — مثل من ترك الأمر بالمعروف — يؤخذ بجُرْمِهِ .^(٢)

(١) وردت (السفينة) وهي خطأ في النسخ .

(٢) وردت هذه العبارة حافلة بالكثير من الأخطاء التي سببت في غموض المعنى فقومناها حسبما يقتضى السياق — دون أن يكون اقتحامنا خطيراً على النص .

ويقال إنَّ الزاهد إذا انحط إلى رخص الشرع في أخذ الزيادة من الدنيا مما فوق الكفاية — وإن كان من وجهٍ حلال — تؤدي فتنه إلى من يخرج به من المبتدئين ، فبجملته ما أبدى من الرغبة في الدنيا ، وتركِ التقليل يؤدي إلى الانهماك في أودية الغفلة والأشغال الدنيوية .
والعايد إذا جَنَحَ عن الأَشَقِّ وتركَ الأولى^(١) نَعْدَى ذلك إلى من كان ينشط في المجاهدة ؛ فيستوطنون الكسل ، ثم يحملهم الفراغ وترك المجاهدة على متابعة الشهوات فيصيرون كما قيل:
إن الشبابَ والفراغَ والجدة مفسدةٌ للمرء أي مفسدة
وهكذا يكون نصيبهم من الفتنه .

والعارف إذا رجع إلى ما فيه حظُّه ، نظرًا إليه المريدُ ، فتندخله فترة فيما هو به من صدق المنازلة ، ويكون ذلك نصيبه من فتنه العارف .
وفي الجملة إذا غفل المَلِكُ ، وتشاغل عن سياسة رعيته تعطلَّ الجندُ والرعية ، وعظمَ فيهم الخللُ والبليَّةُ ، وفي معناه أشدوا :

رُعَاتُكَ ضَيَعُوا — بِالْجَهْلِ مِنْهُمْ — غَنِيَمَاتٍ فَاسَتْهَا ذِئَابُ
« والله شديد العقاب » بتمجيئه ذلك ، ومن شدة عقوبته أنه إذا أخذ عبدًا لِعَاقِبِهِ لا يُمْكِنُهُ من تلافى موجب تلك العقوبة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ كَرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُتَضَاعِفُونَ ﴾
في الأرضِ نخافون أن يتخطفكم
الناسُ فَأَوْاكُمْ وَأَيُّكُمْ يَنْصُرُهُ ﴿

يَذَكِّرُهُمْ مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْقِلَّةِ وَالذَّلَّةِ وَصَنُوفِ (...)^(٢) ثم ما نقلهم إليه من الإمكان والبسطة ، ووجوه الأمان والحيطه ، وقرَّبهم إلى إقامة الشكر على جزيل تلك القِسَمِ ،

(١) وردت (الأولاد) وهي خطأ في النسخ ، والجَنُوحُ عن الأَشَقِّ وترك الأولى تعبيران مألوفان عندما يتحدث القشيري عن إخبار الصوفى للرخص .
(٢) مشبهة وربما كانت (الحِطَّة) أي نقصان المتزلة ، فإنها قريبة للسياق ، ومنسجمة مع الموسيقى اللفظية .

وإدانة الحمد على جميل تلك النعم ، فهتد لهم في ظل أبوابه مقبلاً ، ولم يجعل للعدو إليهم
— بيمن رعايته — سيلاً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴾

رَزَقَ الأشباحَ والظواهرَ من طيبات الغذاء ، ورزق الأرواح والسرائر من صنوف
الضياء . وحقيقة الشكر على هذه النعم الغيبة عنها بالاستغراق في شهود النعم .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ
وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴾

الخيانة الاستبطان بخلاف ما يؤملُ منك بحق التعويل ، خيانة الله بتضييع ما ائتمنتك
عليه ، وذلك بمخالفة النصيح في دينه ، وخيانة الرسول بالاتصاف بمخالفة ما تبدي من مشايسته .
والخيانة في الأمانات بترك الإنصاف ، والاتصاف بغير الصدق .

وخيانة كل أحد على حسب ما وضع عنده من الأمانة ، فمن أوثمن في مال فتصرف فيه
بغير إذن صاحبه — خيانة ، ومن أوثمن على الحرم فلاحظته لإيها — خيانة . فعلى هذا :
الخيانة في الأعمال الدعوى فيها بأنها من قبلك دون التحقيق بأن متشبهها الله .

والخيانة في الأحوال ملاحظتك لها دون غيبتك عن شهودها باستغراقك في شهود الحق ،
إن لم يكن استهلاكك في وجود الحق . وإذا أخللت بسنة من السنن أو أدب من آداب
الشرع فتلك خيانة الرسول صلى الله عليه وسلم .

والخيانة في الأمانات — بينك وبين الخلق — تكون بإيثار نصيب نفسك على نصيب
المسلمين ، بإرادة القلب فضلاً عن المعاملة بالفعل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ
وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

أموالكم وأولادكم سبب فتنكم لأن الرء - لأجل جمع ماله ولأجل أولاده - يرتكب ما هو خلاف الأمر، فيورثه فتنة العقوبة .

ويقال الفتنة الاختبار؛ فيختبرك بالأموال.. هل تؤثرها على حق الله؟

وبالاولاد.. هل تترك لأجلهم ما فيه رضاء الله ؟

فَإِنْ أَتَرْتُمْ حَقَّهُ عَلَى حَقِّكُمْ ظَهَرَتْ بِكُمْ فُضِيلَتُكُمْ ، وَإِنْ أَنْصَقْتُمْ بِضَدِّهِ عَمَلْتُمْ بِمَا يَوْجِبُهُ
الْمَكْسُ مِنْ مَحْبُوبِكُمْ .

ويقال للمالُ فتنةٌ إذا كان عن الله يشغلُكم ، والأولادُ فتنةٌ إذا لأجلهم قصرتم في حق الله أو فرطتم .

ويقال للمال — ما للكفافِ والعفاف^(١) — نِعْمَةٌ ، وما للتقاصيرِ والتفاخرِ فِتْنَةٌ ، وفي الجملة ما يشغلكَ عن الله فهو فتنة .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ

يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ
سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ
الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ *

الفرقان ما به يفرق بين الحق والباطل مِنْ عِلْمٍ وافر وإلهام قاهر ، فالعلماء فرقانهم بحُلوْبُ
برهانهم ، والعارفون فرقانهم موهُوبٌ^(٢) عرفانهم ؛ فأولئك مع مجهود أنفسهم ، وهؤلاء بمقتضى
جُودِ رَبِّهِمْ .

العرفانُ تعريفٌ من الله ، والتكفيرُ^(٤) تخفيفٌ من الله ، والعفوانُ تشریفٌ للعبد من الله .

(١) وردت (والغاب) وهي خطأ من الناسخ إذ لا تؤدي المراد ، وتظن أن (الغاف) تنسجم مع السياق ، ومع التركيب الداخلي للأسلوب .

(٧) أخطأ الناسخ إذ جعل خاتمة الآية (والله جميع علم) .

(۳) وردت (موهوم) وهى خطأ من النسخ ، والصواب أن تكون (موهوب) فهكذا يتطلب السياق .

(٤) (التكفير) هنا تشير الى ما ورد في الآية : « ويكفر عنكم سيئاتكم » .

قوله جل ذكره : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا
لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ
وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ
خَبِيرٌ لِلكَارِئِينَ﴾

ذكره عظيم منته عليه حيث خلّعه من أعدائه حين خرج من مكة مهاجراً إلى المدينة ،
وهوّا بقتله ، وحاولوا أن يَمْكُرُوا به في السرّ ، فأعلمه الله ذلك .

والمكرُ إظهارُ الإحسان مع قَصْدِ الإساءة في السرّ ، والمكرُ من الله الجزاء على المكر ،
ويكون المكرُ بهم أن يُلقَى في قلوبهم أنه مُحْسِنٌ إليهم ثم — في التحقيق — يُعَذِّبُهُمْ ، وإذا
شغلَ قوماً بالدنيا صرفَ همومهم إليها حتى يَنْسُوا أمرَ الآخرة ، وذلك مكرٌ بهم ، إذ يُؤْمِنُونَ
نفوسهم عليها ، فيتيح لهم من مآمنهم سوفاً ، ويأخذهم بفتنة

ومن جملة مكره اغترارُ قومٍ بما يرزقهم من الصبب الجليل بين الناس ، وإجراء كثير
من الطاعات عليهم ، فأمرارهم نكون بالأغيار منوطاً ، وهم عن الله غافلون ، وعند الناس أنهم
مُكْرَمُونَ ، وفي معناه قيل :

وقد حسدوني في قرب داري منكم وكمن قريب الدار وهو بعيد

قوله جل ذكره : ﴿وَإِذَا تُنْزِلَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا
لَوْ شَاءَ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا
إِلَّا أَصَاثِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾

فرطُ جهلهم ، وشؤم جحدهم سترَ على عقولهم قُبْحَ دعاويهم في القدرة على معارضة القرآن
فانفضحوا عند الامتحان بعدم البرهان ، والعجز عما وصفوا به أنفسهم من الفصاحة والبيان ،
وقديماً قيل :

مَنْ تَحَلَّى بَغِيرَ مَا هُوَ فِيهِ فَضَحَ الْامْتِحَانُ^(١) مَا يَدَّعِيهِ

(١) وردت (الامتحان) بالهاء والصواب أن تكون بالحاء .

ويقال لما لاحظوا القرآن بعين الاستصغار حرموا بركات الفهم فعدوه من جملة أساطير الأولين ، وكذلك من لا يراعى حرمة الأولياء ، يماقِبُ بأن تُستَرَّ عليه أحوالهم ، فيظنهم مثله في استحقاق مثالبه ، فيطلق فيهم لسان الوقعة ، وهو بذلك أحقُّ ، كما قيل :
« رَمَتْنِي بِدَارِهَا وَانْسَلَّتْ »

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

دَلَّ سؤالهم العذابَ على تصميم عقدهم على تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم ، واستيقنوا عند أنفسهم بأنه لا يُستجابُ فيهم ما يدعونه على أنفسهم .
وفي هذا أظهر دليل على أن سكون النفس إلى الشيء ليس بعلم ؛ لأنه كما يوجد مع العلم يوجد مع الجهل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾

ما كان الله يعذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله ليُعَذِّبَ أسلافهم وأنت في أصلابهم ، وليس يعذبهم اليوم وأنت فيما بينهم إجلالاً لِقَدْرِكَ ، وإكراماً لِحُلَّتْ ، وإذا خرجت من بينهم فلا يعذبهم وفيهم خدمتك الذين يستغفرون ، فالآية تدل على تشريف قدر الرسول — صلى الله عليه وسلم .

ويقال للجوارِ حرمةٌ ، فَجَارُ السَّكْرَامِ في ظل إناهم ؛ فَالْكَفَارُ إِن لَمْ يَنْتَعَمُوا^(١) بقرب الرسول — صلى الله عليه وسلم — منهم فقد اندفع للعذاب — بمجاورته — عنهم :

وَأَحِبُّهَا وَأَحِبُّ مَنْزِلَهَا الَّذِي نَزَلَتْ بِهِ وَأَحِبُّ أَهْلَ الْمَنْزِلِ

(١) وردت (ينعَمُوا) والملائم للمعنى (ينعَمُوا) لترتبط بالإمام الذي جاء ذكره في الجملة السابقة ، ويؤكد اختيارنا أيضاً وجود (الباء) في (بقرب الرسول) إذ يقال (نعم بكذا) ولا يقال (منع بكذا) .

ويقال إذا كان كون الرسول — صلى الله عليه وسلم — في الكفار يمنع العذاب عنهم
فكأن المعرفة في القلوب أولى بدفع العذاب عنها .

ويقال إن العذاب — وإن تأخر عنهم مدة مقامهم في الدنيا مادام هو عليه السلام فيهم —
فلا محالة يصيبهم العذاب في الآخرة ، إذ الاعتبار بالمواقب لا بالأوقات والطوارق .

قوله جل ذكره : ﴿ وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾

علم أنه — عليه السلام — لا يتأبد مكثه في أمته إذ قال له : « وما جعلنا لبشرٍ من قبلك الخلد » (١) ، فقال إني لأضيق أمته وإن قضى فيهم مدته ، فما دامت السنن بالاستغفار
مُتَطَّلَعَةً فصنوف العذاب عنهم مرتفعة .

قوله جل ذكره : ﴿ وما لهم ألا يعذبهم الله ﴾

وهم يصدون عن المسجد الحرام

وما كانوا أولياءه ﴿

نفى العذاب عنهم في آية ، وأثبتته في آية ، فالنفي في الدنيا والمثبت في الآخرة .

ثم بين إيصال العذاب إليهم في الآخرة بقوله تعالى . « وهم يصدون عن المسجد الحرام »
دليل الخطاب أن إغاثة المسلمين على ما فيه قيام بحق الدين بوجب استحقاق القربة والثواب
وفي الآية دليل على أنه لا يعذب أولياءه بقوله : « وما كانوا أولياءه » فإذا عذب
من لم يكونوا أولياءه دل على أنه لا يعذب من كان من جملة أوليائه . والمؤمنون كلهم أولياء
الله لأنه قال : « والله ولي الذين آمنوا » (٢) . والمؤمن — وإن عذب بمقدار جرئيه زماناً فإنه
لا يُخَلَّد في دار العقوبة ، فما يقاسون بالإضافة إلى تأييد الخلاص جَلَلٌ ، وقيل :

إذا سلم العهد الذي كان بيننا فودى وإن شطَّ المزار سليمٌ

قوله جل ذكره : ﴿ إن أولياؤه إلا المتقون ولكن ﴾

أكثرهم لا يعلمون ﴿

(١) آية ٣٤ سورة الأنبياء .

(٢) آية ٢٥٧ سورة البقرة .

وليس أولياؤه إلا المتقون ، وهم الذين اتقوا الشرك .

قوله جل ذكره : ﴿ وما كان صلاتهم عند البيت
إلا مكاءً وتصديةً ﴾ .

تجردت أعمالهم بظواهرهم عن خلوص عقائدهم ، فلم يوجد — سبحانه وتعالى — لها حسناً ،
فذكاء القالة لا يكون إلا مع صفاء الحالة ، وعناء الظاهر لا يقبل إلا مع ضياء السرائر .

قوله جل ذكره : ﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾
كان العذاب مُعْجَلاً وهو حسابهم أنهم على شيء ، قال الله تعالى :
« وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » ، ومؤجلاً وهو كما قال الله تعالى : ﴿ ولعذاب
الآخرة أشق ﴾ (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم
ليصدوا عن سبيل الله فينفقونها
ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون
والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ﴾

يرومون بإفناقهم صنوف أموالهم صلاحاً ونظاماً لأحوالهم ، ثم لا يحظون إلا بخسران ،
ولا يحصلون إلا على نقصان . خسروا ولم لا يشعرون ، وخابوا وسوف يعلمون :
سوف ترى إذا انجلى الغبار أفرس تخنك أم حمار ؟

قوله : « والذين كفروا إلى جهنم يحشرون » إنهم وإن ألهمتهم أموالهم فإلى الهوان والذلة
مآلهم ، لم تغن عنهم أموالهم ، ولم تنفعهم أعمالهم ، بل خُتِمت بالشقاوة أحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ
وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ
فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ
أُولَئِكَ هم الْخَالِسُونَ ﴾ .

(١) آية ٣٤ سورة الرعد .

الخبِيثُ مَا لَا يَصْلَحُ لِلَّهِ ، والطَّيِّبُ مَا يَصْلَحُ لِلَّهِ .
الخبِيثُ مَا حَكَمَ الشَّرْعُ بِقُبْحِهِ وَفُسَادِهِ ، والطَّيِّبُ مَا شَهِدَ الْعِلْمُ بِحُسْنِهِ وَصَلَاحِهِ .
ويقال الخبيثُ الكافرُ ، والطَّيِّبُ الْمُؤْمِنُ .
الخبِيثُ مَا شَغَلَ صَاحِبَهُ عَنِ اللَّهِ ، والطَّيِّبُ مَا أَوْصَلَ صَاحِبَهُ إِلَى اللَّهِ .
الخبِيثُ مَا يَأْخُذُهُ الْمَرَّةُ وَيَنْتَقِهُ لِحَظِّ نَفْسِهِ ، والطَّيِّبُ مَا يَنْتَقِهُ بِأَمْرِ رَبِّهِ .
الخبِيثُ عَمَلُ الْكَافِرِ يُصَوِّرُ لَهُ وَيُعَذِّبُ بِإِلْقَائِهِ عَلَيْهِ ، والطَّيِّبُ عَمَلُ الْمُؤْمِنِ يُصَوِّرُ لَهُ
فِي صُورَةٍ جَمِيلَةٍ فَيَحْمِلُ الْمُؤْمِنُ عَلَيْهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأُولِينَ ﴾ .

إِنْ كَبَحُوا لِجَاسِ التَّمَرُدِ ، وَأَقْلَعُوا عَنِ الرِّكْضِ فِي مِيدَانِ الْعِنَادِ وَالتَّجَبُّرِ أَرْزَلْنَا عَنْهُمْ صَنَارَ
الهُوَانِ ، وَأَوْجَبْنَا لَهُمْ رَوْحَ الْأَمَانِ .

ويقال إِنْ حَلُّوا نِطَاقَ الْعِنَادِ أَطْلَقْنَا عَنْهُمْ عِقَالِ الْبِعَادِ .
ويقال إِنْ أَبْصَرُوا قُبْحَ فِعَالِهِمْ جَدَّنا عَلَيْهِمْ بِإِصْلَاحِ أَحْوَالِهِمْ .
ويقال إِنْ جَنَحُوا لِلْإِعْتِدَارِ أَلْقَيْنَا عَلَيْهِمْ حَالَةَ الْإِغْتِفَارِ .
ويقال إِنْ عَادُوا إِلَى التَّنَصُّلِ ^(١) أَبْجَنَّا لَهُمْ حُسْنَ التَّنَفُّصِ :

أَنَاسُ . أَعْرَضُوا عَنَّا بِلا جُرْئِمٍ وَلَا مَعْنَى
أَمَامُوا ظَنَّهُمْ فِينَا فَهَلَّا أَحْسَنُوا الظَّنَّ
فَإِنْ كَانُوا لَنَا - كُنَّا ، وَإِنْ عَادُوا لَنَا عُدْنَا
وَإِنْ كَانُوا قَدْ اسْتَفْتَرَوْا فَإِنَّا عَنْهُمْ أَغْنَى

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونََ

(١) تنصّل من ذنبه أى كَتَبَراً

الدين كله لله فان انتهوا فان الله

بما يعملون بصير ﴿

أمرهم بمقاتلة الكفار والإبلاغ فيها حتى تستأصل شأقتهم بحيث يأمن المسلمون مضرّتهم ،
ويكفون بالكلية فتنهم . . . وحيّة الوادي لا تؤمن مادامت تبقى فيها حركة ؛ كذلك العدو
إذا قهر فحقه أن تقتلع جميع عروقه ، وتنفذ بأع الإسلام من كل شجرة (١) تنبت من الشرك .
قوله جل ذكره : ﴿ وإن تولّوا فاعلموا أن الله مولاكم

نعم المولى ونعم النصير ﴾

فإن أبوا إلا عتوا ، وعن الإيمان إلا نبوا ، فلا على قلوبكم ظلّ مخافة منهم ؛ فإن الله
— سبحانه — ولي نصرتكم ، ومتولى كفايتكم ؛ إن لم تكونوا بحيث نعم العبيد
فهو نعم المولى لكم ونعم الناصر لكم .

ويقال نعم المولى لكم يوم قسمة العرفان ، ونعم الناصر لكم يوم نعمة الغفران .

ويقال نعم المولى لك حين لم تكن ، ونعم الناصر لك حين كنت .

ويقال نعم للمولى بالتعريف قبل التكليف ، ونعم الناصر لكم بالتخفيف والتضعيف ؛
يُخَفَّفُ عنكم السيئات ويضاعف الحسنات :

وهو اك أول ما عرفت من المولى والقلب لا ينسى الحبيب الأول

قوله جل ذكره : ﴿ واعلموا أن ما غنمتم من شيء
فإن الله خُصَّه والرسول ولذي
القربى واليتامى والمساكين وابن
السبيل إن كنتم آمنتم بالله
وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان
يوم التقى الجمعان ، والله على
كل شيء قدير ﴾

(١) شكرت الشجرة أي خرجت منها الشجرة وهي ما ينبت حولها من أصلها .

الغنيمة ما أخذهُ المؤمنون من أموال الكفار إذا ظفروا عند المجاهدة والقتال معهم .
فإذا لم يكن قتال — أو ما في معناه — فهو قبيح .

والجهاد قسمان : جهاد الظاهر مع الكفار ، وجهاد الباطن مع النفس والشيطان وهو
الجهاد الأكبر — كما في الخبر^(١)

وكما أن في الجهاد الأصغر غنيمةً عند الظفر ، ففي الجهاد الأكبر غنيمة ، وهو أن
يملك العبد نفسه التي كانت في يد العدو : الهوى والشيطان . فبعد ما كانت ظواهره مقررًا
للأعمال الذميمة ، وباطنه مستقرًا للأحوال الدنيئة يصير محلُّ الهوى مسكن الرضا ،
ومقر الشهوات والنبي مُسلمًا لما يردُّ عليه من مطالبات اللوى وتصير النفس
مُسْتَكْبَةً مِنْ أَسْرِ^(٢) الشهوات ، والقلب مُخْتَفًى من وصف الغفلات ، والروح مُنْتَزَعَةً
من أبدى العلاقات ، والسُرُّ مَصُونًا عن الملاحظات . وتصبح غَاغَةُ النفس مُنْهَرَمَةً ،
ورياسة الحقوق بالاستجابة لله خَافِقَةً .

وكما أن من جملة الغنيمة سهمًا لله ورسول ، وهو الخُسُفُ فما هو غنيمة — على لسان
الإشارة — سهم خالص لله ، وهو ما لا يكون للعبد فيه نصيب ، لا من كرائم العقبي ،
ولا من ثمرات التقريب ، ولا من خصائص الإقبال ، فيكون العبد عند ذلك مُحرَّرًا
عن رِقِّ كل نصيب ، خالصًا لله بالله ، يمحو ما سوى الله ، كما قيل :

مَنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ قَانِيًا عَنْ حِظِّهِ وَعَنِ الْهَوَى وَالْإِنْسِ وَالْأَحْبَابِ
فَكَأَنَّهُ - بَيْنَ الْمَرَاتِبِ - وَاقِفٌ لِمَنَالِ حِظٍّ أَوْ لِحُسْنِ ثَوَابِ

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا وَهُمْ
بِالْعُدُوِّ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلُ
مِنْكُمْ ، وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَقْتُمْ

(١) إشارة إلى ما قاله الرسول بعد إحدى الغزوات : « رجعتا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر
جهاد النفس » .

(٢) وردت (أسرار) وهي خطأ في النسخ .

في الميعاد ، ولكن ليقضى الله
أمرًا كان منغولاً *

يخبر — سبحانه — أن ما جرى يوم بدر من القتال ، وما حصل من قنون الأحوال
كان بحكم التقدير ، لا بما يحصل من الخلق من التدبير ، أو بحكم تقضيه روية
التفكير . بل لو كان ذلك على اختيار وتواعد ، كنتم عن تلك الجملة على استكراه
وتباعد ، فجرى على ما جرى ليقضى الله أمرًا كان مقتضيًا ، وحصل من الأمور ما سبق
به التقدير .

قوله جل ذكره : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ
وَيَحْيِيَ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ
لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

أى لِيُضِلَّ مَنْ زَاغَ عن الحق بعد لزومه الحجة ، ويهتدى مَنْ أَقَامَ على الحق بعد
وضوح الحجة .

ويقال الحق أَوْضَحَ السَّبِيلَ وَلَصَّبَ الدَّلِيلَ ، ولكن سَدَّ بَصَائِرَ قَوْمٍ عن شهود
الرشد ، وَفَتَحَ بَصَائِرَ آخَرِينَ لإدراك طرق الحق .

المالك من وقع في أودية التفرقة ، والحيُّ مَنْ حَيَّ بنور التعريف .
ويقال المالك من كان يحطه مربوطاً ، والحيُّ من كان من أسر كل نصيب
مُسْتَكْبِياً مجذوباً^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا
وَلَوْ أَرَأَيْتُمْ كَثِيرًا قَلِيلُكُمْ
وَلِتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ
سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ *
وَإِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ إِذِ التَّقَاتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ
قَلِيلًا وَيَقْلُلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ

(١) كلمة (مجذوب) بهذا الاستعمال قد تؤدي المعنى الذى تطلق به في أوساط الصوفية اليوم

اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ

تَرْجِعُ الْأُمُورُ ﴿

قِيلَ أَرَادَ لِإِيَّامٍ فِي تَوَمِهِ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — يُوَصِّفُ الْقِلَّةَ ، وَأَخِيرَ أَصْحَابِهِ بِذَلِكَ فَازْدَادُوا جَسَارَةً عَلَيْهِمْ .

وَقِيلَ أَرَادَ فِي مَنَامِهِ أَيْ فِي مَحَلِّ تَوَمِهِ أَيْ فِي عَيْنِهِ ، فَغَنَاهُ قَلْبُهُمْ فِي عَيْنِهِ ؛ لِأَنَّهُمْ لَوْ امْتَكَثَرُوا لَفُتِلُوا فِي قِتَالِهِمْ ، وَلَانْكَسَرَتْ بِذَلِكَ قُلُوبُ الْمُسْلِمِينَ .

وَفِي الْجُمْلَةِ أَرَادَ اللَّهُ جَرِيَانًا مَا حَصَلَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْقِتَالِ يَوْمَ بَدْرَ ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ أَمْرًا هَيِّئًا أَسْبَابَهُ ؛ فَقَتَلَ الْكُفَّارَ فِي أَعْيُنِ الْمُسْلِمِينَ فَزَادُوا جَسَارَةً ، وَقَتَلَ الْمُسْلِمِينَ فِي أَعْيُنِ الْكُفَّارِ فَازْدَادُوا — عِنْدَ لُشَاطِهِمْ إِلَى الْقِتَالِ — صَفْرًا فِي حُكْمِ اللَّهِ وَخُسَارَةً .

« وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » : وَكَيْفَ لَا ؟ وَمِنْهُ تَصَدُّرُ الْمَقَادِيرِ ، وَإِلَيْهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ . وَيُقَالُ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَصْرَةَ عَبْدٍ فَلَوْ كَادَ لَهُ جَمِيعُ الْيَشْرِ ، وَأَرَادَهُ السَّكَافَةُ بِكُلِّ ضَرَرٍ ، لَا يَنْفَعُ مِنْ شَاءٍ مَضَرَّةً كَدًّا ، وَيَحْصُلُ بَيْنَهُ (١) وَبَيْنَ مَنَاحٍ لُطْفُهُ بِهِ مَدًّا .

وَإِذَا أَرَادَ بَعِيدٌ سَوَاءً فَلَيْسَ لَهُ رَدٌّ ، وَلَا يَنْفَعُهُ كَدٌّ ، وَلَا يَنْعَشُهُ بَعْدَ مَا سَقَطَ فِي حُكْمِهِ جَهْدٌ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً

فَاتَّبِعُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا

لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿

أَرَادَ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَاتَّبِعُوا . وَالثَّبَاتُ إِنَّمَا يَكُونُ بِقُوَّةِ الْقَلْبِ وَشِدَّةِ الْيَقِينِ ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا لِنَفَازِ الصِّيرَةِ ، وَالتَّحَقُّقِ بِاللَّهِ ، وَشُهُودِ الْحَادِثَاتِ كُلِّهَا مِنْهُ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَسْتَسْلِمُ اللَّهُ ، وَيَرْضَى بِحُكْمِهِ ، وَيَتَوَقَّعُ مِنْهُ حُسْنَ الْإِعَاةَةِ ، وَلِهَذَا أَحَالَهُمْ عَلَى الذِّكْرِ قَالًا : « وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا » .

وَيُقَالُ إِنَّ جَمِيعَ الْخَيْرَاتِ فِي ثَبَاتِ الْقَلْبِ ، وَبِهِ تَبَيُّنُ أَقْدَارِ الرِّجَالِ ، فَإِذَا وَرَدَ عَلَى الْإِنْسَانِ خَاطَرٌ يَزْعِمُهُ أَوْ هَاجِسٌ فِي نَفْسِهِ يَهْيِجُهُ .. فَمَنْ كَانَ صَاحِبَ بَصِيرَةٍ تَوَقَّفَ رَيْنًا

(١) الضمير في (بينه) يعود على الضرر أو من شاء الضرر ، والضمير في (به) يعود على العبد المنصور .

تَنَبَّيْنُ لَهُ حَقِيقَةُ الْوَارِدِ ، فَيُثَبِّتُ لِكَوْنِهِ رَابِطًا الْجَاشِ ، مَا كُنَّ الْقُلُوبُ ، صَافِيًا الْآلِبَ . .
وهذا نعت الأكابر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا
فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا
إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

الموافقة بين المسلمين أصل الدين . وأول الفساد ورأس الزلزال الاختلاف . وكما يجب
الموافقة في الدين والعقيدة يجب الموافقة في الرأي والعزيمة^(١) .

قال تعالى في صفة الكفار : « نَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى » ، وإنما تتحد عزائم المسلمين
لأنهم كلهم يجمعهم التبرؤ من جورهم وقوتهم ، وينمحضون في رجوعهم إلى الله ، وشهودهم
التقدير ، فيتحدون في هذه الحالة الواحدة .

وأما الذين تَوَقَّعُوا الحَادِثَاتِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ فَضَلُّوا فِي سَاحَاتِ حِسَابَتِهِمْ ، وَأَجْرُوا الْأُمُورَ
عَلَى مَا يَسْتَحِلُّونَ رَأْيَهُمْ ، فَكُلُّ يَدِينِي عَلَى مَا يَتَّبِعُ لَهُ وَيَخْتَارُ ، فَإِذَا تَنَازَعُوا تَشَعَّبَتْ بِهِمُ الْأَرْاءُ ،
وافتُرقت بهم الطرق ، فيضعفون ، ويختلف طُرُقُهُمْ . وكما يجب في الدين طاعة رسول الله
— صلى الله عليه وسلم — يجب طاعة أولى الأمر ، ولهذا يجب في كل وقت نصب إمام
للمسلمين ، ثم لا يجوز مخالفته ، قال النبي — صلى الله عليه وسلم — : « أَطِيعُوهُ وَلَوْ كَانَ عَبْدًا
مَجْدَعًا »^(٢) وكان الرسول — صلى الله عليه وسلم — إِذَا بَيَّثَ سَرِيَّةً أَمْرًا^(٣) عَلَيْهِمْ أَمِيرًا
وقال : « عَلَيْكُمْ بِالسَّوَادِ الْأَعْظَمِ » .

وإجماع المسلمين حجة ، وصلاة الجماعة سنة مؤكدة ، والاتباع محمود والابتداع ضلالة .
قوله « وَاصْبِرُوا » الصبر حبس النفس على الشيء ، والمأمور به من الصبر ما يكون
على خلاف هواك .

(١) وردت (العزيمة) والملائم قرأى ولما جاء بعد قليل تتحد : (عزائم المسلمين) كلمة (العزيمة)

(٢) في رواية مسلم وابن ماجه عن ام الحصين : « إِنَّ أَمْرَ عَلِيٍّ عَبْدٌ مَجْدَعٌ أَسْوَدٌ يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ
فَأَسْمُوا لَهُ وَأَطِيعُوا » ص ١٤٦ - ٢ من منتخب كثر المال .

(٣) وردت (اثر) والصواب (أَمْرٌ) أميراً ، وربما اشتبهت علامة التضعيف على الناسخ لحسبها
نقطاً لئلا .

« إن الله مع الصابرين » يتولى بالكفاية إذا حصل منهم الثبات وحسن التفويض .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِطَرَاوِرِئِهِمْ أَوْ رِثَاءِ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُخِيطٌ ﴾

يريد أن أهل مكة لما خرجوا من مكة عام بدر لنصرة العير ملكتهم العزة ، واستمكن منهم البطر ، وداخلهم وياه الناس ، فارتبكوا في شباك غلظهم ، وحصلوا على ما لم يحسبوه . وأما المؤمنون فنصروهم نصراً عزيزاً ، وأزال عن نبيهم — عليه السلام — ما أظله من الخوف وبصديق تربيته عن حوله ومنته — حين قال : (لا تكلمني إلى نفسي)^(١) — كناه بحسن التولي فقال (ومارميت إذ رميت ولكن الله رمى) .

قوله جل ذكره : « وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب » .

الشيطان إذا زين للإنسان بوساوسه أمراً ، والنفس إذا سوت له شيئاً عميت بصائر أرباب الغفلة عن شهود صواب الرشد ، فيبقى الغافل^(٢) في قياد وساوسه ، ثم تلحقه هواجم

(١) « لا تكلمني إلى نفسي طرفة عين »

الحاكم من حديث أنس قال صحب على شرط الشيخين . وهو في اليوم والليل ، وعله صلى الله عليه وسلم لا يلبث الزهراء رضي الله عنها .

(٢) وردت (الماقل) وهي خطأ في النسخ قال كلام عن أرباب الغفلة .

التقدير من كوامن المكر^(١) من حيث لا يرتقب ، فلا الشيطان يفي^(٢) بما يعدّه ، ولا النفس شيئاً مما تمنّاه تجمّده ، وكما قال القائل :

أحسنْتَ ظَنِّكَ بِالْأَيَّامِ إِذْ حَسَنْتَ وَلَمْ تَخَفْ سَوْءَ مَا يَأْتِي بِهِ الْقَدَرُ
وَسَأَلْتَكِ اللَّيَالِي فَافْتَرَرْتَ بِهَا وَعِنْدَ صَفْرِ اللَّيَالِي يَحْدُثُ الْكَدَرُ

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
مَّرَضٌ غَرَّ هَوَاءٌ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ
عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

إن أصحاب الغفلة وأرباب الغرّة إذا هبت رياح صوائغهم في زمان غفلتهم يلاحظون أهل الحقيقة بعين الاستحقار ، ويحكمون عليهم بضمف الحال ، وينسبونهم إلى الضلال ، ويمدونهم من جملة الجهال ، وذلك في زمان القتره ومدة مهلة أهل الغيبة .

والذين لهم قوة اليقين ونور البصيرة ساكنون تحت جريان الحكم ، يرون الغائبات من الخواص بعين البصيرة من وراء ستر رقيق ؛ فلا الطوارق تهزمهم ، ولا هواجم^(٣) الوقت تستفزهم^(٤) ، وعن قريب يلوح علم اليسر ، وتنجلي سحائب العسر ، ويمحق الله كيد الكائدين .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا
الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ
وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾

يُسْلِيهِمْ^(٥) عندما يُقَاسُونَ من اخبارات التقدير بما يذكركم زوال الهنة ، وشك روح

(١) هكذا في المتن ، وفي الهامش (كوامن المنكر) ولكن الصواب ما جاء بالمتن إذ المقصود ما يهجم على الناقل من (مكر) إله — سبحانه .

(٢) وردت (يفي) وللاّثم لما (يسه) كلمة (يفي) .

(٣) وردت (هواجم) .

(٤) وردت (تستفزم) ويكون معنى الجملة بعد هذين التوضيحين هو ما جاء في الرسالة (ص ٤٤) [المهجوم ما يرد على القلب بقوة الوقت ، وسادات الوقت لا تصرفهم الهواجم]

(٥) وردت (يسليهم) والمقصود (تسليته) المؤمنين في أوقات الاختبار .

اليسر ، وسرعة حصول النصر ، وحلول النقم بمرتكبي الظلم . والمؤمن كثير الظفر ، فإذا شاهد بأدباب الجرائم حلول الانتقام رقق قلبه لهم ، فلا ينخرط في سلك الشبهة ، إذ يخلو قلبه من شهوة الانتقام ، بل يجب أن يكون كل أحد بحسن الصفة ، وكما قيل .

قومٌ إذا ظفروا بنا جادوا بعتق رقابنا

قوله جل ذكره : ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ .

يُعرفهم أَنَّ ما أصابهم مِنْ شِدَّةِ الوَطْأَةِ جزاء لهم على ما أسلفوه من قبيح الزُّلَّةِ ، كما قيل :

سَنَنْتَ فِينَا سِنًا قَتَفَ الْبَلَايَا عُقْبَهُ
يَصْبِرُ عَلَى أَهْوَالِهَا مَنْ يَرَى يَوْمًا رَبَّهُ (١)

« وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ » أى كيفما يعاملهم فى السراء والضراء فذلك منه حسنٌ وعدلٌ ، إذ الملكُ مُلْكُهُ ، والخلقُ خَلْقُهُ ، والحكمُ حُكْمُهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

لما سلكوا مسلكَ أهلِ فرعون فى الضلال ، سَلَكْنَاهُمْ مَسْلَكَهُمْ فَمَا أَذَقْنَاهُمْ مِنَ الْعَذَابِ وَسُوءِ الْحَالِ ، وَسُنَّةُ اللَّهِ أَلَّا تَغْيِرَ فِي الْإِنْعَامِ ، وَعَادَتُهُ أَلَّا تَبْدِيلَ فِي الْإِنْتِقَامِ ، وَمَنْ لَمْ يَتَّعِزْ بِمَا يَشْهَدُ (٢) اَعْتَبَرَ بِمَا يَصْنَعُهُ بِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعَمًا أَنْصَبَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

(١) فى الشعر اضطراب ، ونرجح أن هناك خطأ فى النقل .

(٢) أى بما يشهده بحدوث تغيره .

إذا أنعم الحق — سبحانه — على قوم نعمة وأراد إهمالهم أكرمهم بتوفيق الشكر ،
فإذا شكروا نعمته فبقدر الشكر دامت فيهم .

وإذا أراد — سبحانه — إزالة نعمة عن عبد أذله بخذلان الكفر ، فإذا حال^(١) عن
طريق الشكر عرض النعمة للزوال . فإدام العبد يشكر النعمة مقبلاً كان الحق في إنعامه عليه
مُدبماً ، فإذا قابل النعمة بالكفران انتزعت نظامه ، فبقدر ما يزيد في إصراره يزول الأمر
عن قراره .

قوله جل ذكره : ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ
بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ
كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾

تنوعت من آل فرعون الذنوب فنوعت لهم العقوبة ، وكذلك هؤلاء : عُوقِبُوا بأنواع
من العقوبة لما ارتكبوا أنواعاً من الزلة .

وقاعدة تكرار ذكرهم تأكيداً في التعريف أنه لا يهمل المكلف أصلاً ، وإن أهمله
حيناً ودهراً .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا
فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

« عند الله » : في سابق علمه وصادق حكمه ؛ فإذا كانوا في عليه شر الخلائق فكيف
يسعدون باختلاف السعایات وصنوف الطوارق ؟

هيات أن تتبدل الحقائق

وإذا قال : « فهم لا يؤمنون » — وكلامه صدق وقوله حق — فلم يبق للرجاء فيهم مساع ،
ولا ينجع فيهم نصيح وإبلاغ .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْفُضُونَ
عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مِرْقَةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾

(١) (حال) أى تغير مقبولة فى المعنى ، ولكن لا نستبعد أنها (حاد) فى الأصل .

أى الذين صار قرضُ العهد لهم سجيةً ؛ فلم يَدَّروا من است فراغ الوسع فى جهم بقية .
 وإن من الكبار التى لا غفران لها فى هذه الطريق أن ينقض العبدُ عهداً ، أو يترك عقداً
 التزمه بقلبه مع الله . أولئك الذين سقطوا عن (. . .)^(١) الله ، فرغ عنهم ظلُّ
 العناية والعصبة .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِمَّا تَثَقَّفْتُمْ فى الحرب فَشَرُّذَرِيهِمْ
 مَن خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ ﴾

يريد أن صادفت واحداً من هؤلاء الذين دأبهم نقضُ العهد فاجعلهم عبرة لمن يأتى بعدهم
 لئلا يسلكوا طريقهم فيستوجبوا عقوبتهم .

كذلك من فسح عقده مع^(٢) الله بقلبه برجوعه إلى رخص التأويلات ، ونزوله إلى السكون
 مع العادات^(٣) يجعله الله نكالا لمن بعده ، بحرمانه ما كان خوفاً ، وتنغيصه عليه ما من حفظه
 أملاً ، فيفوته حق الله ، ولا يكون له امتناع عما آثره على حق الله :

تبدلت وتبدلنا واحسرتا لمن ابغى عوضاً لى فلم يجد

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِمَّا يَنْتَحِفْنِ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَاَنْذِرْ
 إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾

يريد إذا تحققت بخيانة قوم منهم قصرح بأنه لا عهد بينك وبينهم ، فإذا حصلت
 الخيانة زال تمت الأمانة ، وخيانة كل أحد على ما يليق بحاله ، ومن صن^(٤) بمسوره
 فقد خان فى عهده ، وزاغ عن جده ، وعقوبته معجلة ، فهو لا يحبّه الله ، وتكون عقوبته
 باذلاله وإهاتته .

(١) مثلية .

(٢) وردت (من) والصواب عده (مع) الله .

(٣) وردت (المدالات) والصواب (العادات)

(٤) وردت (ظن) وهى خطأ فى النص .

قوله جل ذكره : ﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا
أَنَّهُمْ لَا يُفْجِرُونَ﴾

كيف يعارض الحق أو ينازعه من في قبضته تَقَلُّبُهُ ، وبقدرته تَصَرُّفُهُ ، وبتصريفه إياه
عَدَمُهُ وثبوتُهُ .

قوله جل ذكره : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ
وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾

أعدوا لقتال الأعداء ما يبلغ وسعكم فلك من قوة ، وأتسها قوة القلب بالله ، والناس فيها
مختلفون : فواحد يقوى قلبه بموعود نصره ، وآخر يقوى قلبه بأن الحق عالم بحاله ،
وآخر يقوى قلبه لتحقيقه بأن يشهد من ربه ، قال تعالى : « واصبر لحكم ربك فانك
بأعيننا »^(١) ، وآخر يقوى قلبه بإيثار رضا الله تعالى على مراد نفسه ، وآخر يقوى قلبه
برضا بما يفعله مولاه به .

ويقال أقوى حبة للعبد في مجاهدة العبد وتبريه عن حوله وقوته .

قوله جل ذكره : ﴿تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ
وآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمْ ،
اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ
لَا تُظْلَمُونَ﴾

الإشارة فيه أنه لا يجاهد على رجاء غنيمة ينالها ، أو لاشتفاء صدره من قضية حقد ،
بل قصده أن تكون كلمة الله هي العليا .

قوله جل ذكره : ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا
وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

(١) آية ٤٨ سورة الطور .

بعث الله نبيه — صلى الله عليه وسلم — بالرحمة والشفقة على الخلق ، وبمسألة^(١) الكفار رجاء أن يؤمنوا في المتأنف فإن أبوا فليس يخرج أحد عن قبضة العزة .

ويقال العبودية الوقوف حينما وقفت ؛ إن أمرت بالقتال فلا تقصّر ، وإن أمرت بالمواعدة فرحبا بالمسألة ، « وتوكل على الله » في الحالين فإنه يختار لك ما فيه الخيرة ، فيوفقك لما فيه الأولى ، ويختار لك ما فيه من قيسى الأمر — في الحرب وفي الصلح — ما هو الأعلى :

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنْ حَسِبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * أَلَفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

أى إن لبسوا عليك ، وراموا خداعك بطلب الصلح منك — وهم يستبطنون لك بخلاف ما يظهرونه — فإن الله كافيك ، فلا تشغل قلبك بغفلتك عن شر ما يكيدونك ؛ فإنى أعلم ما لا تعلم ، وأقدر على ما لا تقدر .

هو الذى بنصره أفردك ، وبلطيفه أيده ، وعن كل سوء ونصيب طهرك ، وعن رق الأشياء جرّدك^(٢) ، وفي جميع الأحوال كان لك .

هو الذى أيده بمن آمن بك من المؤمنين ، وهو الذى ألف بين قلوبهم المختلفة فجمعها على الدين ، وإيثار رضا الحق . ولو كان ذلك يحيل^(٣) الخلق ما انتظمت هذه الجملة ، ولو أبلغت بكل ميسور من الأفعال ، وبذلت كل مستطاع من المال — لما وصلت إليه .

(١) وردت (بمسألة) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) وردت (حررك) بإلحاء وهى خطأ فى النسخ والصواب أن تكون بالجيم .

(٣) وردت (يحيل) بياء وهى خطأ فى النسخ فهى (حيل) جمع حيلة .

قوله جل ذكره . ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

أحسنُ التَّأويلات في هذه الآية أن تكون « مَنْ » في محل النصب ؛ أي وَمَنِ اتَّبَعَكَ
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يكفيهم الله .

ومن التَّأويلات في العربية أن تكون « مَنْ » في محل الرفع أي حسبك مَنْ اتَّبَعَكَ
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

وقد عَلِمَ أن استقلال الرسول — صلى الله عليه وسلم — كان بالله لا بمن سوى الله ،
وكلُّ مَنْ هو سوى الله فحتاجُ إلى نصرته الله ، كما أن رسول الله محتاج إلى نصرته الله ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾
المؤمن لا يزداد بنفسه ضعفاً إلاَّ ازداد بقلبه قوةً ، لأن الاستقلال بقوة النفس نتيجةُ
الغفلة ، وقوة القلب بالله — سبحانه — على الحقيقة .

قوله جل ذكره : ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ

يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ
يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ
قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ * الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ
عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ
يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا
مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا
أَلْفِينَ يَا ذَنِّ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

هذا لم ، فأما النبي — صلى الله عليه وسلم — فهو بتوحيده كان مؤملاً بأن يَنْتَبِثَ
لجميع الكفار لكمال قوته بالله تعالى ، قال عليه السلام : « بَكَ أَصُول » ^(٢) ، وفي تحريضه للمؤمنين

(١) لاحظ كيف تؤثر النزعة الصوفية في اختيار الفكرة النحوية .

(٢) « اللَّهُمَّ بَكَ أَصُولُ وَبَكَ أَجُولُ وَبَكَ أَسِيرٌ » .

كان هذا من دعائه صلوات الله عليه — إذا أراد سراً (الإمام أحمد والبراز عن علي كرم الله وجهه ،
وقال الحافظ البيهقي : رجاله ثقات) .

على القتال كانت لهم قوة ، وبأمر الله كانت لهم قوة ؛ فتوة الصحابة كانت بالنبي — عليه الصلاة والسلام ، وتحريضه إياهم وقوتهم بذلك كانت بالله وبأمره إياه . . . وشتان ماها !

قوله : « الآن خَفَّ الله عنكم وعَلِمَ أن فيكم ضعفاً » : والضعف الذي علم فيهم كان ضعف الأشباح فحَفَّت عنهم ، أما القلوب فلم يتدخلها الضعف فحِيلَ من ممارسة القتال بالعدو للذكر في الكتاب .

والعوام يحملون للشاق بنفوسهم وجسومهم ، والخواص بقلوبهم وهمهم ، وقالوا : « والقلب يُحمِل ما لا يُحمِلُ البدن » وقال آخر .

وإن تروني أعاديا فلا عجب على النفوس جنائيات من الهمم

قوله جل ذكره : ﴿ ما كان لِنبي أن يكون له أسرى ﴾

حتى يُشخِّن في الأرض يريدون عرضاً

الدنيا والله يريد الآخرة والله

عزيز حكيم

أى لا ينبغي لنبي من الأنبياء — عليهم السلام — أن يأخذ أسارى من أعدائه ثم يرضى بأن يأخذ منهم الفداء ، بل الواجب عليه أن يُشخِّن في الأرض أى يبالغ في قتل أعدائه — إذ يُقال أئخنه المرض إذا اشتد عليه . وقد أخذ النبي — صلى الله عليه وسلم يوم بدر منهم الفداء ، وكان ذلك جائزاً لوجوب القول بعصته ، ولكن لو قاتلهم كان أولى . وأراد « بمرض الدنيا » أخذ الفداء ، والله جعل الفداء ، والله جعل رضا في أن يقاتلهم ، وحرمة^(١) الشرع خلاف رحمة الطبع ؛ فشرط العبودية أن يؤثر العبدُ الله ، وإذا كان الأمر بالغلظة فسكاً قال تعالى : « ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله »^(٢) .

(١) وردت (ورحمة) الشرع والصواب (وحرمة الشرع) والمعنى إن اتباع الأمر أولى من تمكيد عاطفة الرحمة بهم

(٢) آية ٢ سورة النور .

« والله عزيز » : بالانتقام من أعدائه ، « حكيم » : في جميع ما يصنع من التملك والإملاك ، والتيسير والتدبير .

قوله جل ذكره : ﴿ لَوْلَا كِتَابٌ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فَمَا آخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

لولا أن الله حكم في آزاله بإحلال الغنيمة لمحمد صلى الله عليه وسلم وأمنه لمَسَّكُمْ — لأجل ما أخذتُم من الفداء منهم يومَ بدر — عذابٌ عظيم ، ولكن الله أباح لكم الغنيمة فأزال عنكم العقوبة .

قوله جل ذكره : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنَيْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

الحلال ما كان مأذوناً فيه ، والحلال الطيب أن تعلم أن ذلك من قبل الله فضلاً ، وليس لك من قبلك استحقاقاً .

ويقال الحلال الصافي ما لم ينسَ صاحبه فيه معبوده .

ويقال هو الذي لا يكون صاحبه عن شهود ربِّه — عند أخذه — غافلاً .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِيَكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

الذي يسطونه خيراً مما أُخِذَ منهم . ويحتمل أن يكون ما في الآخرة من حسن الثواب ، ويحتمل أن يكون ما في الدنيا من جميل العوض . ويقال هو ما بوصلهم إليه من توفيق الطاعات ، وحلاوة الإيمان ، وهو خير مما أُخِذَ منهم .

ويقال ما أعطاهم من الرضاء بما هم فيه من الفقر ، بعدما كانوا أغنياء في حال الشرك .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا خِيارَتَكَ فَقَدْ خَاؤُوا اللَّهَ

مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

يريد إن عادوا إلى قتالك بعدما منّنت عليهم بالإطلاق وخانوا عهدك ، فانخيانة لم دأب
وطريقة ، ثم إننا نمكّنك منهم ثانياً كما أمكّنّاك من أسرهم أولاً ، وقيل :

إِنْ عَادَتِ الْعُقُوبُ عُودُنَا لَهَا وَكَانَتِ التَّنُلُ لَهَا حَاضِرَةً

قوله جل ذكره : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا

بَأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ
أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهِاجِرُوا
مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ
حَتَّى يَهِاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي
الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ
بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴿١١﴾

ذَكَرَ صِفَةَ الْمُهَاجِرِينَ مَعَ الرَّسُولِ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — وَصِفَتَهُمْ أَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ هَاجَرُوا
مَعَ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ ، ثُمَّ « جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ » هَؤُلَاءِ هُمُ الْمُهَاجِرُونَ .
أَمَّا الَّذِينَ آوَوْا فَهُمْ الْأَنْصَارُ ، آوَوْا الرَّسُولَ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — وَالْمُؤْمِنِينَ .

فهذان الفريقان بعضهم أولياء بعض في النصرة والدين .

وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَلَكِنْ لَمْ يَهِاجِرُوا فَلَيْسَتْ لَهُمْ هَذِهِ الْمَوَالَاةُ إِلَى أَنْ يَهِاجِرُوا ، وَإِنْ اسْتَعَانُوا
بَكُمْ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ .

« إِلَّا عَلَى قَوْمٍ » وَهُمْ الْمُعَاهِدُونَ مَعَكُمْ .

وَكَيْلُ الْمُهْجَرَةِ مَفَارِقَةُ الْأَخْلَاقِ الذَّمِيمَةِ ، وَهَجْرَانُ النَّفْسِ فِي تَرْكِ إِبْجَابَتِهَا إِلَى مَا تَدْعُو

إليه من شهواتها. ومن ذلك هجران إخوان السوء ، والتباعد عن الأوطان التي باشر العبد فيها الزلة ، ثم الهجرة من أوطان الحظوظ إلى أوطان رضا الحق .^(١)

وأما قوله « والذين آووا ونصروا » فهم الذين يؤثرون إخوانهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، عوَّام هؤلاء في الأمور الدنيوية ، وخواصهم في السكائن في الآخرة ، وخاص الخاص في كل ما يصح به الإثبات من سقى الأحوال إلى ما لا يدرك الوهم .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين كفروا بعضهم أولياء بعضٍ إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفسادٌ كبيرٌ ﴾ والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرةٌ ورزقٌ كريمٌ

قطع العصاة بينهم وبين المؤمنين ، فالؤمن للأجانب مجانب ، وللأقارب مقارب . والكفار بعضهم لبعضهم ، كما قيل : « طير السماء على الأفها تقع »

قوله جل ذكره : ﴿ والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم ، وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم ﴾

يريد من سلك مسلكهم في الحال ، ومن سيلحق بهم في الاستقبال وآتى الأحوال فالألفة تجمعهم ، والولاية تشملهم ، فلهم من الله في العقبى جزيل الثواب ، والنجاة من العذاب . ولهم في الدنيا الولاية والتناصر ، والمودة والتقارب ، والله أعلم

(١) القشيري من الشيوخ القائلين بأهمية السفر إذا دعت الضرورة
يشترط أن يصحب السفر عن المسكن سفر عن النفس (انظر الرسالة ص ٢٠٠) .

« تنبيه »

ذكر السيد المحقق في الصحيفة ٢٠ موقفه من أخطاء الناسخ بأنه اتخذ منها ثلاثة مواقف (١) موقفا نجد فيه الخطأ مؤكدا ، ويتجلى ذلك عند كتابة بعض الآيات الكريمة حيث تسقط كلمة أو حرف أو تزيد كلمة أو حرف ، فنصلح هذا الخطأ .

ولما كانت الطبعة الأولى كثيرة الأخطاء خاصة في الآيات القرآنية ، فقد قمت بتصويبها وتصحيحها قبل هذه الطبعة الثانية (أفست) .. أما ماورد في ب . ج ، فقد تركته كما هو حسب منهج السيد المحقق وسأقوم بمشيشة الله تعالى بتصويب المجلدين : الثاني ، الثالث ، على هذا النحو ، وأرجوا الله التوفيق والعون .

هتولى خليل.عوض الله
الباحث الأول - مركز تحقيق التراث

فهرس

الصفحة

- ملنخل ٣
- صورة لورقة من المخطوطة السوفيتية ٣٩
- سورة فاتحة الكتاب ٤٢
- سورة البقرة ٥٢
- سورة آل عمران ٢١٧
- سورة النساء ٣١٠
- سورة المائدة ٣٩٦
- سورة الأنعام ١٥٩
- سورة الأعراف ٥١٦
- سورة الأنفال ٦٠١

تم المجلد الأول ويليه المجلد الثاني
وأوله سورة التوبة

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٢٥ / ٢٠٠٠

I.S.B.N. 977 - 01 - 6594 - 8

يسر إدارة التراث بالهيئة المصرية العامة للكتاب أن تعيد
تقديم هذا التفسير الصوفي الكبير للإمام القشيري بتحقيق العالم
الدكتور إبراهيم بسيوني.. وهذا كتاب تشعر خلال قراءته أن
كل صغيرة وكبيرة في علوم الصوفية لها أصل من القرآن،
ويتجلى ذلك بصفة خاصة حيثما ورد المصطلح الصوفي صريحا
في النص القرآني كالذكر، والثوكل، والرضا، والولى، والولاية،
والحق، والظاهر، والباطن، والقبض والبسط... وغير ذلك. فلا
تملك إلا أن تحكم أن الصوفية قد استمدوا أصولهم وفروعهم من
كتاب الله الكريم، وأن علومهم ليست غريبة ولا مستوردة كما
يحلو لبعض الباحثين حين يهتمون التصوف الإسلامى بالتأثر
بالتيارات الأجنبية - وإلى الجزء الثانى.